

المركز القومي للترجمة



المركز القومي للترجمة

الطبعة الثانية

الثقافات وقيم التقدم

تحرير

لورانس إ. هاريزون

صمويل ب. هنتجتون

ترجمة:

شوقي جلال

علي مولا
2/536

الثقافات وقيم التقدم

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٢ / ٥٣٦

- الثقافات وقيم التقدم

لورانس إ. هاريزون

صمويل ب. هنتجتون

- شوفي جلال

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Culture Matters:

How Values Shape Human Progress

by: Samuel Huntington and Lawrence E. Harrison

Copyright © 2000 by Lawrence E. Harrison

and Samuel P. Huntington

First published in the United States by Basic

Books, a member of the Perseus Books Group

حقوق الترجمة والنشر بالعبودية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شروع الخلية لاأمره العربية القاهرة ٢٠٠٩ ٢٧٣٥٤٥٢٤ ٢٧٣٥٤٥٢٦ ٢٧٣٥٤٥٢٨

1-1 Gahalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egypt@ocw.texasatlas.com Tel: 27354524-27354526 Fax: 27354454

الثقافات وقيم التقدم

تحرير: لورنس إي. هاريزون
صمويل سي. هنتجتون
ترجمة: شوقي جلال



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٣٨٣ / ٢٠٠٩
التسجيل الدولي: 3 - 264 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم "الإنجازات والمساهمات الفكرية المختلفة للفكر العربي وتعميقه، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها ليس نفاستهم ولا تعسر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

- 7 مساهمة في صورة مقدمة : الفكر العربي ولغز النهضة
- 19 تصدير : الثقافات ونورها المؤثر - صمويل بي . هنتجتون
- 25 مبخل : لماذا الثقافة مهمة ؟ - لورانس إي . هاريزون
- الباب الأول - الثقافة والتطوير الاقتصادي**
- 53 (١) الثقافة وحدها تقريباً سبب كل الاختلافات - دافيد لانديس
- (٢) الانجازات والقيم والمعتقدات والاقتصاد الجزئي للرخاء - ميشيل إي
بودر
- 71 (٣) هومش على علم اجتماع جديد عن التطور الاقتصادي - جيفري
ساكس
- 93 (٤) دراسة الأنماط الثقافية للتطوير الاقتصادي - ماريانو جروندينا
- 117 (٥) الثقافة وسلوك التخبه في أمريكا اللاتينية - كارلوس ألبرتو مونتانو
- 135 (٦) هل أفريقيا بحاجة إلى برنامج للتكيف ؟ - داشيل إيتونجا - مانجويل
الباب الثاني - الثقافة والتطوير السياسي
- 167 (٧) الثقافة والديمقراطية - رونالد إنجلهارت
- 193 (٨) رأس المال الاجتماعي - فرانسيس فوكوياما
- (٩) الفساد والثقافة والأسواق - سيمور مارتن ليبسيت وجابرييل سلمان
لينز
- 215 **الباب الثالث - الحوار الأنثروبولوجي**
- (١٠) المعتقدات والممارسات التقليدية هل بعضها أفضل من بعض؟ -
روبرت بي إنجرتون
- 239

261	(١١) الثقافة والطفولة والتقدم في أفريقيا جنوب الصحراء - نوحاس إس وايزنر
287	(١٢) خرائط أخلاقية . «وهم» العالم الأول ، والإنجيليين الجدد ريتشارد إيه . شويدر
309	تعقيبات
	الباب الرابع - الثقافة والجنوسة
319	(١٣) الثقافة والجنوسة وحقوق الإنسان - باربرا كرويسيت
335	(١٤) الثقافة والمؤسسات وعدم المساواة بين الجنسين في أمريكا اللاتينية - مالا هتون
	الباب الخامس - الثقافة والأكليات الأمريكية
353	(١٥) الثقافة في صورة جادة : إطار عام وصورة توضيحية للأفارقة الأمريكيين أورلاندو باترسون
377	(١٦) تفكيك الثقافة - تاتان جليز
	الباب السادس - الأزمة الآسيوية
395	(١٧) القانون والروابط الآسيوية وأسكوب أبناء شرق آسيا في قطاع الأعمال - نوايت إتش بيركينز
413	(١٨) الفيم الآسيوية هل تتحول من قوى محرك إلى أحجار دو ميتر ؟ - لوسيان دبليو . باي
431	(١٩) حوادث عديدة - بحث أولي في دلالات حوادث شرق آسيا - نوى - منج
	الباب السابع - دعم التغيير
449	(٢٠) تغيير عقل أمة عناصر عملية إبداع الرخاء - ميشيل فيريباتكس
469	(٢١) الثقافة والتمازج الذهنية والرخاء القوي - ستاسي لينتساي
489	(٢٢) دعم التغيير الثقافي المرحلي - لورانس إي هاريزون

مساهمة في صورة مقدمة

الفكر العربي ولغز النهضة (البحث في الجذور)

شوقي جلال

مسألة الفكر العربي أو العقل العربي أو الإسلامى ... إلى آخر ذلك من مسميات مكرورة، ناقشها كثير من المفكرين العرب والمسلمين في محاولة للكشف عن أسباب التخلف والفسل. وغاب سؤال كيف يفكر "العقل" أو العقول العربية أو الإسلامية، العرب أو المسلمون، في الواقع الحياتى الملموس إزاء قضايا محددة عابرة أو حاسمة؟ بمعنى البحث العقلانى النفسى للكشف عن المنهج وعن محددات الاختيار والانحياز لقضايا فكرية بعينها، وبأسلوب المعالجة وتطور هذا النهج إن كان قد تطور أو جمد على مر العصور والأزمان، وكيف هذا لأصحابه قدرة على الفعل وعلى التفاعل مع الآخرين، أو ألزم أصحابه عزلة وعجزا. وكيف أثرت الأحداث الفاصلة في هذا المنهج، أم أنه قنع بأن يسر لأصحابه العزاء والسلوى والابتلاء في الحياة الدنيا. ولا يزال الغالبية جامدين عند تعريف السلف والأقدمين أن العقل، أداة الفكر، جوهر، وهو أعدل الأشياء قسمة بين الناس. وغفلوا أو عزفوا عن إنجازات علوم عديدة، واكتشافات حديثة مثيرة، وحوارات علمية معاصرة خصيبة، ورؤى مثبائية ومتطورة تشكل أساسا مكيئا لارتقاء حضارى وإثراء فكرى، وخلص من عثرة أزمنت حتى باتت تقليدا.

ولكن هل حقا يوجد فكر عربى؟ ما هى قضاياها وإنجازاته؟ ما دوره وفعاليتها وتطوره مع تطور الأحداث والمجتمعات، إن كان له تاريخ متطور؟ وما مضمونه؟ وما مرجعيته؟ هل يمثل تيارا يعبر عن مسار المجتمع أو المجتمعات مستخلصا الخبرة والعبرة من رؤية أو من رؤية عقلانية نقدية عن الماضى والحاضر مع استشراف

لستقبل لا نراه ردة إلى السلف، وإنما هو مجمل زخم الحراك الاجتماعي والنشاط الإنتاجي ومعاناة البناء والتطوير الإرادي؟ الفكر حصاد معرفة في صياغة نسقية هابطة معنية بتطليل لقضاياها، وحل لمشكلات، وحقز لعراك، ودعم لعلاقات قائمة أو منشودة، وتشكيل أو إعادة تشكيل لهيكل المجتمعات، وتحقيق لتكيف على صعيد اجتماعي متكامل وفي إطار من المنافسة أو للملاسة على صعيد إقليمي وعالمي. والفكر الاجتماعي مُنتج جمعي وليد جهد ذاتي متكامل للمجتمع، ومعبّر عن هدف اجتماعي مشترك من حيث التغيير والبناء، وعن آلية المجتمع في هذا التغيير وإنتاج الهدف إنه رؤية جمعية تاريخية غير أحادية، ومن ثم يجسد حركة متطورة في الزمان، وسجلا للجديد من الأحداث، وحيوية التنوع والشمعد في سياق من حرية التبادل والتفاعل والإبداع. ويشكل قوة جذب وانتماء وتمكين في حلية الصراع والانتخاب بين الأفكار محليا وعالميا.

وذهبنا في كتابنا: الفكر العربي وسوسيوولوجيا الفشل، إلى أنه لا يوجد فكر عربي عصري يحمل هذه الخصائص والصفات، ربما هناك مفكرون ، أفراد يجتهدون، ولكنه ليس فكرا مجتمعيًا بالمعنى العنفي. إنه فكر أو اجتهادات نظرية لأفراد، أو تهويمات وتطبيق في فراغ، وليس فكرا صافزا لصراك ، ولا فكرا معاصرا نابعا من واقع الاجتهاد الاجتماعي النظري والجهد العملي المنشط لبناء الوجود مشروعًا مؤسسًا على فهم علمي عصري، وأثرت أن أهدي كتابي إلى المثقف العربي الذي افتقدته النهضة ولا تزال، فكليدا لمسئولية المثقف العربي عن الغنبيه إلى هذا الخواء

ورأي غالبية المثقفين ممن ارتهنت حياتهم برضى أصحاب السلطان أن عنوان الكتاب شديد التمشاؤم لأننا نعيش مع حكامنا دائما وأبدا عصبور إنجازات ونجاحات!!! ورأي البعض أن مثل هذا العنوان والحديث وأد للأمل في مهده. ولكنني على عكس ما ذهب إليه ظن البعض، أقرر أن عنوان الكتاب متفائل... ذلك لأنه يوضع أن الفشل يحدث لأسباب اجتماعية يقرها علم الاجتماع وتدخل في نطاق إرادة وفعل وثقافة وفكر الإنسان، وليس قدرا ولا طبيعة جبلية... ومن ثم فإن المجتمع قادر

بارادته ويفعله وفكره ومنهجه في الفعل والفكر - على أن يصحح الخطأ، ويزيل الأسباب إذا عرف نفسه كوجود تاريخي، وعرف عصره ومقتضياته وتحدياته.

وأعنى بالفشل أن المجتمع عاطل من المعرفة الكاملة والصحيحة نسبيًا ومرهليا لتوجيه مسارات حركته وطاقاته وأنشطته الاجتماعية بصورة فعالة في الاتجاه الصحيح للتطوير... أي للتكيف مع حضارة العصر بهدف البقاء والعطاء والامتداد والمنافسة. ومن أسباب الفشل أيضا أن يكون المجتمع عاطلا من ثقافة تُرسخ قيم التغيير والتحديث الفعّال. وفي حالة غياب هذه المعرفة - الفكر - في صورة نسقية يفتقر واقع المجتمع أو نشاطه ضربيا من أسلوب المحاولة والخطأ مع تسبب عالية من الإخفاق، وحركة غير مطردة وغير سوية ولا مستوية، مختلة التوازن، عاجزة عن كفاءة أسباب البقاء، ناهيك عن المنافسة والتطوير.

وأعنى بالفكر الاجتماعي افعالية الجدلية بين الذات (الإنسان/المجتمع) والموضوع، ذلك أن الإنسان لا يفكر إلا في مجتمع. وفكر المجتمع حصاء تاريخية الفعل أو النشاط الاجتماعي في إطار صراع الوجود... أي إنتاج الوجود. وإنتاج الوجود - أي الحضارة - هو نشاط مادي ومعنوي (ثقافة وفكر) وكلاهما وجهان للوجود الاجتماعي وأداة واحدة للتكيف الذي هو معرفة - فكر - وفعل استجابة لتحديات البقاء والتكاثر، والحضارة عندي هي عملية تاريخية قوامها إبداع الأنواع المادية والإطار الفكري / الفيمي في تكامل مع استجابة لتحديات وجودية يفرضها الواقع المتجدد والطبيعة يتفاعلها مع الإنسان / المجتمع. وهذا التعريف فيه دينامية - إذ يدمج الإنسان كأحد مكونات البيئة الحضارية بسلوكه وفكره وقيمه، ويتسق مع التعددية والتطور في الزمن والتنوع في المكان.

الفعل والفكر الاجتماعيان هما المشروع الوجودي الجمعي. وفكر الأمة ليس حاصل تراكم فكر أفراد، ويتمثل فكر الأمة / المجتمع حين يتعطل الفعل الجمعي لإنتاج الوجود. وهنا يعيش أبناء المجتمع أسرى وعي زائف وثقافة مقترية، وواقع يغلب عليه طابع التصفية والاطراد العشوائي.

وهنا نعايز بين

(أ) ثقافة معيشة موروثة.

(ب) وفكر هو ابتكار، وتجديد متلاحم مع الفعل الاجتماعي الإنتاجي، ويشكل وعيا بالتاريخ وبالواقع في تناقضاته وصراعاته ونمدياته، ويستتصرف المستقبل، نأسيسا على الفعل والفكر الإراديين للمجتمع علاوة على أنه فكر نقدي لرصيد الماضي والواقع، بمعنى أنه آلية مراجعة مستمرة وتغذية مرتدة بين الفعل والفكر الاجتماعيين في حركتهما .

وزن الفعل الاجتماعي لإنتاج الوجود ماديا ومعنويا (تقانة وفكرا) هو عملية اشتباك وتفاعل بين منتج جمعي collective producer (الإنسان / المجتمع) يتفاعل مع البيئة لإنتاج وجوده. وحرى أن ننظر إلى هذا الفعل نظرة نظرية باعتبار الإنتاج عملية مركبة العناصر وعملية خالقة دائما وأبدا...

الفكر/اللغة تولد من خلال فعل الإنتاج للإنسان الأول hominid امتدادا للوجود الجيني/البيولوجي، وتخليقا ماديا ومعنويا للعقل الذي يجسد الوجود التاريخي الفاعل النشط للإنسان/المجتمع، وهذه مسألة محورية ومعيار رئيسي للحكم على الفكر الاجتماعي وجودا وعمما أو ركودا وتجديدا. إن الفكر/اللغة بدأ نشأت التطورية مع أول أداة إنتاج اقتضت تجمعا وتنظيما لأغراض مجتمعية تعزز التكيف. بدأ هنا التواصل الرمزي بين البشر في سياق الاستجابة وواقع التفاعل أو الفعل الاجتماعي مع الطبيعة. وهو فعل متجدد أبدا، ويفضي إلى تجدد التواصل الرمزي، أي تجدد الفكر/اللغة.

والفعل الإنقاضي المجتمعي، والذي نسميه العمل الاجتماعي، عملية مركبة ومنظورة للتعامل مع المادة التي هي الطبيعة، الطبيعة المتعددة والطبيعة المضاعفة، والطبيعة البشرية.

وبين الفعل المجتمعي والفاعل، أي المجتمع والطبيعة، وحدة وتكامل. وهذا العمل أو الفعل المجتمعي منتج للأداة المادية، البقاعة، والأداة المعنوية / الفكر. وإن الفعل أو النشاط البشري على امتداد التاريخ الوجودي للنوع البشري دمج الإنسان/المجتمع والطبيعة وتعتمد علاقة التفاعل بين الإنسان / المجتمع والطبيعة في تطورها المطرد على :

(أ) وسائل الإنتاج .

(ب) الطاقة .

(ج) المعرفة والمعلومات .

وتطورت المجتمعات البشرية حضاريا تنبسطا على تكامل ووحدة هذه العناصر الثلاثة، وتحدد في ضوئها نمط التنامي الحضاري لتوليد المنتج والفائض ... وهذه آلية التكيف للنوع البشري في إطار صراع الوجود الحضاري.

حضارة الرعي : أتى حد من الطاقة ... قيمة العمل والطاقة البشرية المبذولة، أدنى مستوى . الفكر تأمل نظري مجرد. إنه مجتمع الكلمة الشفاهية.

حضارة الزراعة : طاقة عمل عضلية، نمط تنامي محدود رهن القوة العضلية ومساحة الأرض . فائض قيمة محدود يسمح بالتجارة ولغة الكتابة.

حضارة الصناعة : طاقة آلية متطورة مع توزيع لا مركزي... نمط تنامي متسارع . فائض قيمة كبير من المخرجات الاقتصادية . علاقة كيفية جديدة بين الإنسان والطبيعة . فكر فلسفة الإرادة / الإنسان العام .

وهنا يبرز السؤال .

أين موقعنا من العالم من حيث الفعالية ... فعالية إنتاج الوجود؟ ومن ثم تصور المستقبل ... ؟

هذه هي القضية المحورية في كتابي المشار إليه، ولكن بأساليب تناول مختلفة ومن زوايا متباينة.

إن جوهر أزمة المجتمعات العربية أنها أزمة فعل التطوير الاجتماعي الحضاري، أو أزمة إنتاج الوجود على مستوى منافس لحضارة العصر وهي قضية امتدت قرابة خمسة قرون بالنسبة لبعض البلدان.

وحاولت الخروج عن السياق التقليدي في النظر إلى عصر ذهبي ولي، والزمع أن الفشل مرجعه أننا تنكبنا طريق السلف. وحاولت الخروج أيضا عن مقولة التحديث محاكاة للغرب في إطار الشكليات : ذلك أن العداثة معيار متجدد ومتنوع ، والمتحديث متعدد الآليات، وفعل ذاتي أصيل. إنه صناعة لا حيازة، وفعل ابتكاري متجدد .. وثقافة تغيير وتكيف، ولتنتكر أن مهضة اليبايان لم تكن محاكاة قصد التشبه، بل محاكاة قصد الندية والمنافسة.

القضية تطوير وتحول حضاري وليس تنمية ... التنمية امتداد وتوسع وزيادة كمية على مستوى أفقي، أما التطوير فهو امتداد وتعزيز رأسي صاعد أو تحول كيفي يفضي إلى نشوء أنماط وأشكال وعلاقات جديدة ولغة/أو فكر جديد..

والتطوير الحضاري للمجتمع موقف من الحياة، ونمط سلوكي في الاستجابة للتحديات، وآلية تكيف في إطار المنافسة وصراع الوجود... والتكيف فعل اجتماعي إقتاجي مادي ومعرفي نحو هدف مساعد للانتقال بالمجتمع من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى للطلاقة والفعالية والتعقد والفهم والإبداع وفرص الاختيار ... أو هو إجمالاً الإنجاز في إطار معايير حضارة العصر.

ويمثل العلم روح حضارة العصر إنجازا فكريا وماديا تقانيا في نلاحم وتطوير متردد ووجود مؤسسي وشبكي يعمل ويفكر في حرية على الصعيدين المحلي والعالمي. وأصبح العلم والتقانة بهذا المعنى مما تصب السبق وأساس التغيير والإنجاز والمعايير

وعتماد التكيف والبقاء والصراع. ويقتضى التطوير العضائى للمجتمع فى عصر
المسئاة والمعلوماتية وعصر اقتصاد المعرفة إطلاق وتوجيه مسارات طاقات جميع
أبناء المجتمع عبر مزيد من التنظيم الاجتماعى المعقد بهدف تعزيز العلاقة الإنتاجية
وتنظيم المخرجات. ولهذا تمثل عملية التطوير إبداعا اجتماعيا ذاتى المنطلق وليست
محصلة عوامل خارجية حصرا، وإنما تشمل خصوصيات ثقافة وبيئة وتاريخ المجتمع،
وتحفل ضيعة الوعي الاجتماعى بالتحديات، وهى عملية إبداعية أيضا، لأن المجتمع
يكشف من خلالها إمكاناته الذاتية لابتكار الوسائل والطول والأهداف.

والتطوير الاجتماعى عملية تتجاوز الأبعاد المادية للمجتمع فى الزمان والمكان،
لتشمل فى كل واحد متكامل أبعاد العقل والضمير. إن التطوير الاجتماعى ثقافة
أو موقف إنسانى اجتماعى من الوجود. وهذا الموقف تجل لعناصر حياتية وعقلية
ولاعلمية عديدة تمثل فى السلوكيات الاجتماعية والمهارات والخبرات النظرية والعملية
والإتجاهات والأعراف والتقاليد والتنظيمات الرسمية والمؤسسات غير الرسمية والقيم
الثقافية والمحددات اللغوية والمعلومات وأسلوب تناولها والتعاسها ومعالجتها - وكذا
العقائد وأنساق الفكر والقيم الروحية. إذ إن هذا كله يتفاعل معا ويؤثر بعضه
فى بعض بحيث يؤثر فى مسار التطور البشرى فى صياغة الإنسان/المجتمع،
الموقف والفعل.

وحيث إن عملية التطوير فعل تكيف اجتماعى، أى إنتاجى مادى وفكرى، فإن
المجتمع، ممثلا فى مثقفيه ومفكره، يعتمد بفضل جهد ذهنى رفيع المستوى إلى
استخلاص المبادئ الأساسية أو الأفكار من حصاد خبراته، وحصاد التفاعلات
الاجتماعية والمعلومات المتراكمة. ويصوغ هذا كله بفضل قوة تنظيم الأفكار فى صورة
مركب نسقى من معارف مفاهيمية وهكذا يكون التطوير آلية اجتماعية لإثراء الفكر
فى مراحل تاريخية مطردة، ويكون الفكر الاجتماعى النسقى دالة هذا الجهد المنظم

الشماط الاجتماعى الإنتاجى يفضى عقليا إلى تنظيم الوقائع فى صورة
معلومات. ويعتمد العقل الاجتماعى إلى تحويل المعلومات فى صورة فكر اجتماعى.
معنى هذا أن الفكر الاجتماعى جهد نسقى يهدف إلى تحويل الخبرات المكتسبة حصاد

التجربة الاجتماعية الإنتاجية في ضوء المصالح والأهداف، ويعود هذا العكس في صورة تغذية عكسية إلى المجتمع في نشاطه لمزيد من الفعالية والنصحیح والتنظيم، ومن أليات الإنجاز في تطور مطرد وهنا يبين بوضوح أن التفكير الاجتماعي إنما هو إنجاز اجتماعي يصل خصوصية التجربة الاجتماعية.

ويجسد المجتمع فكره المستحدث والمتجدد في منظومات اجتماعية متعددة المجالات والمستويات. من ذلك إعادة تنظيم العمليات الإنتاجية من خلال تطبيق المهارات والتكنولوجيات المستحدثه في مجالات الإنتاج والخدمات. ويتجلى هذا أيضا في تنظيم المؤسسات، وتنظيم البيانات والمعلومات والمعارف من خلال المؤسسات الاجتماعية مثل المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية والثقافية. ويسهم هذا كله في بناء الإنسان/المجتمع وتعزيز أو تجديد تطلعاته الداعمة لحركة التطوير والمنافسة. والانتقال بالفكر الاجتماعي إلى طور آخر تنظيميا وفعالية وأرجب أنفا وأرقى منهجا.

وهيئ إن نهج التطوير والتغيير قيمة ثقافية وموقف حياتي فإن فعل التطوير تحديه بقوة طبيعة القيم الثقافية السائدة في المجتمع مثلما تحده تطلعات المجتمع واتجاه استجاباته، ونظرته أو ثلوثه للتحديات. ولهذا يمثل التطوير الاجتماعي دالة على طبيعة واتجاه ومحتوى الإدراك البشري وتطلعات ومواقف وقيم البشر وتصوراتهم لذواتهم ولدورهم في الحياة كمشروع وجودي

ولكن مفهوم القيم، ومن ثم مجال تأثيره، مختلف باختلاف الثقافات هناك من المجتمعات من يحصر القيم في نطاق الأخلاق ... الحرام والحلال دينيا فقط وتكون هذه القيمة بمحتواها المحدود ، مفضاح السلوك أو الرز الذي يحركه، بل يستثيره الإنسان/المجتمع عند الضغط عليه ، وكأنما انحصر الوجود داخل هذا النطاق المحدود نون سواء. هذا بينما القيم متعددة متباينة بتحدد وثباين الأنشطة والسلوكيات صانعة الحياة ... التطوير والتغيير قيمة ... والإبداع قيمة ... والفن قيمة ... والبحث العلمي قيمة ... مقامرة الاستكشاف المعرفي قيمة.... وجعل الحياة أو صنع الحياة الجميلة قيمة ... والاستقلال قيمة، بينما التواكل والاعتماد علي الغير قيمة سلبية... والسبق في المنافسة العلمية أو غيرها قيمة ... والموضوعية قيمة ... والتناغم الاجتماعي قيمة ...

والعدالة منها والمسحبه همه وبيرها وبيرها عن عناصر سلوكيه تكفل انتصار الحياه ونعزز الكاثر والبغا.

ونشكل القيم بهذا المعني ما يمكن أن نسميه محتوى تحت الشعور الجمعي، ومن ثم القوة الدافعة وراء مجمل الحركة الاجتماعية، وتتصرف عبرها ومن أجلها طاقة المجتمع في أعماق المستويات. إذ إنها معالم التطلعات الجمعية تحت الشعورية، وصورة المضع عن ذاته وفهمه لنفسه، ونهجه في الحياة، ودالة على معنى الوجود ومجال الاستباق، وبصرف الجهد والنشاط.

ومن ثم إذا عدنا إلى سؤالنا التقليدي لماذا تخلفنا؟ يجب ألا يقتصر البحث والنظر على الإنجازات المادية، وفتصور النهضة حيازة لتقانة أو لفكر من إبداع واستنبات الأخر، وإنما أن نرى التقانة والفكر إبداعا ذاتيا من مفاض المجتمع في سياق تفاعل وتنافس على صعيد عالمي... ويتعين هنا أن نتجاوز الأبعاد الظاهرة الراهنة إلى ما وراءها، أي إلى الموروث من قيم وثقافة تصوغ بنية ما تحت الشعور وتمثل القوة الحاكمة والموجهة، أي أن ننظر إلى الإنسان باعتباره حزمة متكاملة من الجينات قريبة حزمة متكاملة مما يمكن أن نسميه الجينوم الثقافي الذي انتقل عبر الأجيال في صورة تراث هو حصاد خبرات مكتسبة على امتداد القرون والأجقاب، وقابل للتغيير والتلازم في ضوء الضغوط الانتخابية. ويمثل هذا التراث الثقافي الذي تتباين عناصره بتباين خبرة المجتمعات وخصوصيات تفاعلها مع الطبيعة عاملا قويا للتأثير في بناء الموطن الملائم Niche Construction، من حيث الإنجاء والمرونة والنمط. ويوصف البعض الإنسان بأنه جماع تعط وراثي ظاهري متطور evolutionary phenotype من genotype مؤلف من

١ - عمليات جينية .

٢ - عمليات اكتساب معلومات خلال النشوء التطوري الفردي ontogenetic .

٣ - عمليات ثقافية، والتي تمثل في حقيقة نشأتها وتطورها امتدادا للجينات في

التطور المشترك لها extended phenogenotype co-evolution .

لهذا فإن من مقتضيات حركة وثقافة التطوير الحضارى أن تبحث طبيعة الموروث أو التراث الثقافى وتجلياته السلوكية فى عمية بناء الوطن تاريخيا وإلى أى مدى يتصف بالمرونة والدينامية وقابلية التعبير والتجديد والفاعلية أو التفاعلية الإرادية ، إلى أى مدى يشكل قوة حفز للفاعل والتطوير فى ضوء ما يفرضه من قيم متميزة حاكمة للسلوك وتشكل المفاتيح الأساسية للنظر إلى الوجود والحياة ومصرفا لمخاض طاقة الإنسان/المجتمع .

لذلك يبدو لى أن عن المستصوب السؤال عن طبيعة مكونات ومفاتيح الجينوم الثقافى العربى وتجلياته فى التاريخ من حيث قابلية التغيير والتجديد ومناطق التحدى والفاعلية والتفاعلية، وطبيعة القيم التى تشكل محورا للوجود والسلوك. وبدعونا هذا إلى أن نعايز بين نمطين من السلوك الاجتماعى:

سلوك قائم على الوعى، أى شعورى conscious . وسلوك تحت شعورى subconscous. السلوك الواعى هو الفعل قرين الفكر فى تفاعل مع البيئة وظواهر الحياة. والسلوك تحت الشعورى هو التجلى الحقيقى والمعقود للجينوم الثقافى الاجتماعى أو للقيم الاجتماعية . وتكون له الغلبة والسيادة فى مراحل التطفل والركود

وذهبت فى الكتاب إلى أنه لا يوجد فكر اجتماعى عربى، وإنما خطاب عربى وسبب ذلك نعتل فعل الإنتاج العربى، ومن ثم تعطل الفاعلية الجدلية بين المجتمع كقوة إنتاج، وبين الفعل والفكر. وما ينبع هذا من تطوير مابى ومعنوى... تقانى وفكرى ، وتطوير للرصيد الثقافى الموروث ليكون قوة داعمة، وتطوير للغة اتساقا مع الفكر الجديد. وإن فعل التطوير الحضارى هو الذى سيلقى ضوئا كاشفا وبفرض شروطا وجودية تستلزم تغيير سلوكيات وعلاقات وأوضاع من أجل ضمان نجاح التكيف. مثل محور الأمية الأجدية والثقافية وتعلم لغة الحاسوب وثقافته، وتطوير لغتنا وحل أزمة المصطلح العلمى والهيكلة المؤسسية لأنشطة المجتمع .. والإسهام الإيجابى فى حضارة العصر كقوى فاعلة ... وإنما الفكر العربى رجع صدى للسلف، ومن ثم نعيش غربة فى الزمان، أو رجع صدى للغرب ونعيش معه غربة فى المكان...

وثم سؤال هل مكونات الجينوم الثقافي العربي وما يسميه البعض ثوابت الفكر العربي لها دور فاعل في هذا الركود والنواكل والاستقلاب؟ أزعج أنه لا يوجد فكر عربي، وإنما هناك ثقافة عربية موروثة لها ظرفها الوجودي التاريخي المؤثر على واقعنا مع تعاقب الأجيال .. ما هو الفكر العربي المعاصر عن قضايا مثل التغيير الاجتماعي وأنواعه ومحدداته في التاريخ؟ أو عن تطور الفكر الاجتماعي العربي والإنساني، وعن التكيف الاجتماعي وآليات التكيف ومعاييرها؟ ... أو عن اللغة: النشأة والتطور وتجليات هذا في تاريخ وبنية اللغة العربية؟ الهوية الاجتماعية في التاريخ، والنشأة والتكوين والتمايز؟ أو عن الظاهرة الثقافية: النشأة والتطور، أو أنها ثابتة في الزمان وإمكان - سوسيولوجيا الفكر والعقائد في التاريخ العربي؟ ... أو عن الحضارات: النشأة والتطور - صعودها وانحلالها؟ أو عن التراث كرسيد ثقافي وتطوره في التاريخ في ضوء نظريات العلوم ذات الصلة - الوراثة، اللغة، آلية انتقال التراث والانتخاب بين الماضي والحاضر، علم اجتماع المعرفة، علم نفس المعرفة ...

واللافت للنظر أن الحوار الفكري العربي والعالمي منعدم لأن الحوار يجري بين طرفين ولا يوجد الطرف العربي، وإنما العرب أسرى الأخذ فقط منذ قرون دون عطاء، الأخذ عن السنف في تكرار موحش، أو الأخذ عن الغرب في تبعية رهناء، وتعطل الفكر مع تعطل إنتاج مشروع الوجود .. الوجود الاجتماعي رهن القدرة التنافسية فيما بين المجتمعات في مجال الطاقة الابتكارية للإنتاج .. وإذا كانت الطاقة في عصر الرعي والزراعة هي قوة العضلات، وفي عصر الصناعة قوة المحركات الآلية .. فإن الطاقة في عصر المعلوماتية هي المعرفة، والمنتج هو المعرفة في صورتها النسقية، والفائض الذي يوظفه المجتمع للتطوير الذاتي هو فائض قيمة المعرفة، والتنافس بين المجتمعات مضماره إنتاج المعرفة وسرعة معالجة وتوظيف واستثمار المعرفة وإدارة ثورات المعرفة اجتماعية في هذا كله ... فأتين موقعنا ونحن أسرى ثقافة اجتماعية نصفها بالحراقة والثبات لقدمها وجمودها؟ ثقافة نصرفنا عن علم الدنيا بحثاً مشجعياً، ودراسة عقلانية، وإبداعاً ذاتياً أصيلاً، ويرصد جهدنا لعلم حياة آجلة، . وتحصر

المؤمنين بعدو أو عدو إبليس هو الذلعة، والبجعة والتنجس والاستبداد... بل هو الشيطان
والخطيئة فقط... ورسخت فينا تقليدا هو تأمل ظواهر الوجود كعجرات يعجز
الإنسان عن أن يستكشف أسرارها... ثقافة تفرض حدودا أو قيودا لما يجوز بحثه
وتعلمه في حدود الحرام والحلال الروحانيين " ثقافة اخترالية تصابر جهود البحث
والاستكشاف لأنها تضيء حلا جامعاً مانعاً لا سؤال بعده... إنه الخلق، وهكذا كان
الخلق... والسؤال والبحث والاستكشاف تطلق وافئدة وانصراف عن علم نافع إلى
أفكار مثل: التنوير... أفكار ما أنزل الله بها من سلطان

لهذا أرى أن سيبدأ ليس تنمية بل تطويراً اجتماعياً حضارياً... فعالية إرادة
أصلية حيث العالم حطلي لإرادة الإنسان/المجتمع... لقد تجاوز العالم المتقدم
حضارتى الزراعة والرعي، ثم انتقل إلى حضارة الصناعة والعلم إنشاجاً تقنياً
وفكرياً، ثم إلى المعلوماتية، ويقف الآن على الطريق إلى عصر اقتصاد المعرفة...
إنسان جديد... عقل جديد... عالم جديد لن يرحم من يتخلف عن الركب فإلى أين
نحن نسير؟ هل اخترنا بإرادتنا قيرنا ومصيرنا أو أن أمرنا موكل لإرادة أخرى؟

تصدير

الثقافات ودورها المؤثر

صمويل بي - هنتجتون

في مطلع تسعينيات القرن العشرين وقعت عيناى صدفة على بيانات عن غانا وكوريا الجنوبية في أوائل الستينيات وأدهشنى أن رأيت مدى تماثل الاقتصاد في البلدين آنذاك . كان البلدان شبه متقاربين من حيث مستوى نصيب الفرد من إجمالي الدخل القومي، ومن حيث مدى تماثل قطاعات اقتصادهما في مجال المنتجات الأولية والتصنيع والخدمات، إذ كانت الغلبة للطائفة على صادرات كوريا الجنوبية من المنتجات الأولية حيث لم تكن تشج سوى القليل من ائسطع المصنعة . كذلك كان البلدان يتلقيان مساعدات اقتصادية على مستوى واحد تقريبا . ولكن وبعد مرور ثلاثين عاما، أصبحت كوريا الجنوبية عملاقا صناعيا يحتل المرتبة الرابعة عشرة بين أضخم الاقتصادات في العالم، والشركات متعددة القوميات والصادرات الأساسية من السيارات والمعدات الإلكترونية وغير ذلك من الصناعات المتقدمة، هذا علاوة على أن دخل الفرد أصبح قريبا من دخل الفرد في اليونان، زد على هذا أنها خطت على الطريق لدعم المؤسسات الديمقراطية ، ولم تشهد غانا تغيرات مماثلة، إذ لا يزال نصيب الفرد من الدخل القومي فيها حوالى خمس نظيره في كوريا الجنوبية . كيف لنا أن نفسر هذا الفارق المثير في التنمية؟ لا ويب في أن ثمة عوامل كثيرة لها دورها المؤثر، ولكن بدا لي أن الثقافة لابد أن لها دورا أساسيا في التفسير، إن إن الكوريين الجنوبيين يعلنون من قيمة الاقتصاد المزدهر والاستثمار والعمل الجاد الشاق، والتعليم

والتنظيم والانضباط. هذا بينما تصود الغامبين قيم مغايرة. صغرة القول: الثقافة لها دورها المؤثر^(٥)

واقترح باحثون آخرون إلى هذه النتائج نفسها في مطلع التسعينيات وجاء هذا التطور كجزء من تجدد الاهتمام على نحو كبير بين العلماء الاجتماعيين، وتعرف أنه في أربعينيات القرن العشرين حظيت الثقافة باهتمام كبير باعتبارها عنصرًا حاسمًا في فهم المجتمعات، وتحليل القوارق قيم بينها، وتفسير تطورها الاقتصادي والسياسي. وينكر من بين هؤلاء الباحثين كلاً من مارجريت ميد، وروث بنديكت، ودافيد ماكيلاند، وإنوارد بانفيلد، وأليكس أنكيليس، وجابرييل المون، وسيدني هيريه، ولوسيان باي، وسيمور مارتن ليسيت ولكن في أعقاب هذه التراث الأدبي الغنى الذي أنتجه هؤلاء الباحثون تهاوى العمل في حقل الثقافة داخل مجتمع الأكاديمي وانخفض حجمه بشكل درامي خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ثم بدأ الاهتمام بالثقافة ينتعش من جديد خلال أثمانونيات باعتبارها إحدى المتغيرات للتفسير. ولعل أهم وأبرز إسهام في عملية الإحياء هذه، وأكثرها إثارة للجدل هو كتاب لورانس هاريزون، الموظف السابق في برنامج الولايات المتحدة للمساعدة 'Aid'، والذي صدر عن مركز هارفارد للشؤون الدولية عام ١٩٨٥، ويحمل الكتاب العنوان التالي: 'التخلف حالة عقلية - حالة أمريكا اللاتينية'. واستخدم كتاب هاريزون دراسات حالة متوازنة لإثبات أن الثقافة في الغالبية العظمى من بلدان أمريكا اللاتينية كانت العقبة الأولى والأساسية على طريق التطور. وأثار تحليل هاريزون عاصفة من الاحتجاجات من جانب الاقتصاديين والخبراء لشؤون أمريكا اللاتينية، والمثقفين في أمريكا اللاتينية. ولكن بدأ كثيرون من هؤلاء خلال السنوات التالية يرون أن دراسته تتضمن عناصر صائبة وصحيحة.

(٥) ولنا أن سأل هنا، مع تقديرنا لوز الثقافة والتماسا لعوامل أخرى - وماذا عن كوريا الشمالية وشعبها نؤمن ثقافي؟ منا طرح الإشارة إلى عوامل أخرى حثرة تدخل في باب الصراع... صراع المسالمة وبنو الولايات المتحدة (الترجم)

واتجه العلماء الاجتماعيون أكثر فأكثر إلى العوامل الثقافية لتفسير عمليات التحديث والمقرطة السياسية والإستراتيجية العسكرية وسلوك الجماعات الاثنية والانحيازات والتطاحنات فيما بين البلدان. وإن غالبية الباحثين المشاركين في هذا الكتاب لهم أدوار رئيسية في بحث الثقافة ، وتميز هذا النجاح بظهور حركة مضادة عمدت إلى ازدياد النؤويات الثقافية وتجنبت على نحو واضح صريح أو بأسلوب رمزي في نقد مقال في شكوكه نشرته مجلة الإيكونوميست عدد ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٩٦ إزاء أعمال صدرت مؤخراً عن كل من فرنسيس فوكوياما، ولورانس هاريزون، ويوربت كابلان، وسيمور مارتن ليبست، وروبرت بوتنام، وتوماس سوويل، وكاتب هذا التصدير وهكذا انضم إلى المعركة الدائرة في مجال البحث أوتفك الباحثون الذين يرون أن الثقافة مؤثر كبير وليس وحيداً في السلوك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وكذا من يدعون إلى تفسيرات كلية شاملة من أمثال المتحمسين للمصلحة الذاتية المادية بين رجال الاقتصاد، أو لتلاختيار الرشيد بين علماء السياسة، وللواقعية الجيدة بين الباحثين في شؤون العلاقات الدولية ، وسوف يطالع القارئ بعض هذه الآراء التي عبر عنها أصحابها في هذا الكتاب الذي يضم حسب الخطة الموضوعية له .. انشقاقاً عن الفرضية التي يؤكد بها العنوان

ولعل أحكم الكلمات عن مكان الثقافة في شئون البشر هي كلمات داييل باتريك مونييهان الذي قال: "الحقيقة المحورية للمحافظة هي أن الثقافة وليست السياسة هي التي تحدد نجاح المجتمع ، وإن الحقيقة المحورية الليبرالية هي أن الثقافة يمكنها أن تغير ثقافة ما وتحصنها من نفسها" ، ورغبة في استكشاف صدق هاتين الحقيقتين اللتين عبر عنهما مونييهان، نظمت أكاديمية هارفارد للدراسات الدولية والإقليمية مشروعاً يديره لورانس هاريزون. ويمثل الكتاب الذي بين يدي القارئ النتاج الرئيسي وليس الوحيد الذي تمخض عنه هذا المشروع. ترى إلى أي حد تصوغ العوامل الثقافية التطور الاقتصادي والسياسي؟ وإذا كانت هي الحاكمة لهذه الصياغة، فكيف يمكن إزاحة أو تغيير العوائق الثقافية التي تعيق التطور الاقتصادي والسياسي حتى يتسنى تفسير عملية التقدم؟

النمى القىال لهذى الأستلة ىستلزم أولاً أن نحدد مصطلحاتنا. ونحن نعتى مصطلح "التقدم البشرى" الوارد فى العتوان الفرعى لهذا الكتاب "الحركة فى اتجاه التطوير الإقتصادى والرفاه المادى، والعدالة الإقتصادية الإجماعىة، والىمقراطية السىاسىة. وطبعى أن مصطلح "الثقافة" له معان كثرىة جداً فى المباحث العلمىة المختلفة والسىافات المتباىنة. والملاحظ أنه كثرىاً ما ىستخدم للإشارة إلى المنتجات الفكرىة والموسىقىة والفنىة والأدبىة فى المجتمع، أى إلى "الثقافة الرفىعة للمجتمع". وأكد علماء الأنثروبولوجىا - ولعل أبرزهم فى ذلك كلىفورج جىرتز - على الثقافة باعتبارها توصفاً مكثفاً للمضامىن، وىستخدموه للإشارة إلى جماع أسلوب حىاة المجتمع : قىم المجتمع وممارساته ورموزه ومؤىساته وعلاقاته البشرىة ، بىد أننا معنىون فى هذا الكتاب بالكىفىة التى تؤثر بها الثقافة فى التطوير المجتمعى. وإذا كانت الثقافة تضمحل على كل شىء، فإنها لا تفسر شىئاً : ومن ثم فإننا نحدد الثقافة فى ضوء دلالات ذاتىة خالصة، مثل القىم والاتجاهات والمعتقدات والتوجهات والافتراضات الأساسىة التى تشكل ركائز لكل ما هو سائد بىن الناس داخل مجتمع ما.

وىستكشف هذا الكتاب الكىفىة التى تؤثر بها الثقافة، حسب هذا المعنى الذاتى، فى المدى الذى ىمكن أن تقلبه ائجتمعات، وفى وسائل هذه للمجتمعات من أجل إئجاز تقدم أو إءفاق فى هذا الإئجاز فى مجال التطوير الإقتصادى والمقرطة السىاسىة . ومن ثم فإن غالبىة أوراق البءث تركز على الثقافة كمتقىر مستقل أو نفسىرى، وإذا ما كانت العوامل الثقافىة تؤثر بالفعل فى التقدم البشرى وتعمقه فى أوقات ما، إلا أننا مع هذا معنىون أيضاً بالثقافة كمتقىر تابع *Dependent variable* : من حىث هى الحقىة الثانىة حسب رأى موبىهان. كىف ىمكن لءهد سىاسى أو ءىر سىاسى أن ىقىر، أو ىزىح العوائق الثقافىة التى تحول دون التقدم؟ ونحن نعرف أن التطوير الإقتصادى ىقىر الثقافات ، بىد أن هذه الحقىة لا تقىدنا بشىء، إذا كان هدفنا إزاحة العوائق الثقافىة من طرىق التطوير الإقتصادى. وىمكن أيضاً للمجتمعات أن تقىر ثقافتها استىجابة لصدمة كبرى ، مثال ذلك أن التجارب الكارثىة التى عانت منها ألمانىا والىابان فى الحرب العالمىة الثانىة أدت إلى تحول الىابان وألمانىا من أكبر بولتى

عسكريين، في العالم إلى مجسدي من أكثر المجتمعات إفسادا بالاسلم وجد سائل أن هاريانو، جودونو، رأى أن الأروبيين كات على حريق للتقدم في سبيل إنسار إسلاح اقتصادي واستقرار اقتصادي وديمقراطية سياسية، وذلك خلال عتصفت تسعينيات القرن العشرين، وبحق لها هذا جرثيا نتيجة تجاربها الكارثية التي عانت منها في ظل دكتاتورية عسكرية وحشية، وهزيمة عسكرية بكرة، وتضخم مالي فوق الضافة

وبكذا، فإن القضية الأساسية هي ما إذا كانت القيادة السياسية يوسعها إبدال الكارثة عن طريق حفز التغيير الثقافي وتقدم لنا سنغافورة مثلا على أن القمادة السياسية يمكنها أن تحقق هذا في ظل ظروف بدنها، ويؤكد الفصل الذي كتبه كل من سيور مارتن، ليميت وجابرييل سلمان لفر في هذا الكتاب، أن مستويات الفساد بين البلدان تنزع إلى الاختلاف عن بعضها تأسيسا على خطوط ثقافية وتجد من أكثر البلدان فسادا إندونيسيا وروسيا وعديدا من المجتمعات في أفريقيا وأمريكا اللاتينية، ويبلغ الفساد أدنى مستوياته في المجتمعات البروتستانتية في شمال أوروبا وبريطانيا، وتحتل البلدان الكونفوشية عوقفا وسطا في الغالب الأعم، ولكن الملاحظ أن مجتمعا كونفوشيا، وهو سنغافورة، بمثل أنداوارك والسويد وقلندا أو نيوزيلندا كبلد من أقل البلدان فسادا في العالم، وتفسير هذا الضد يرجع بوضوح إلى أن في كوان بوزيم سنغافورة عقد العزم على أن تكون سنغافورة بمعنى عن الفساد قدر المستطاع، ونجح في ذلك، وهنا نجد أن السياسة غيرت الثقافة وأخذتها من نفسها، ولكن القضية هي كيف يمكن لسنغافورة البراة من الفساد أن تفي على حالها بعد لى كوان؟ هل يمكن للسياسة أن تنقل مجتمعا من نفسه إلى الأبد، كيف يمكن للجهد السياسي والاجتماعي أن يجعل الثقافات أكثر مواتة للتقدم؟ هذه هي المسألة المحورية التي نأمل استكشافها في دراسات متتالية.

إن القيم الثقافية ومشروع التقدم البشري وهذا الكتاب تكاد تكون جميعها وبالكامل نتاج أفكار وطاقة والتزام لورانس هاريزون، إنه هو الذي وضع تصور عن المشروع وحدد موضوعات البحث التي يشعلها، وتولى مهمة تعيين فريق الباحثين المتحدثين، مثلما تولى مهمة تحرير حصص بحوثهم، وضاعف الميزانية اللازمة التي

هذه إنجاز هذا كله وأعربت أكاديميه هارفرارد للدراسات الدولية والإقليمية عن
سعادتها إذ تنضم إلى هذا الجهد وترعاه نظرا لارتباطه مباشرة باهتمامات
الأكاديمية. وحرصت الأكاديمية منذ بداية المشروع عام ١٩٨٦ . أن تمنح سنتين زمالة
للعلماء الاجتماعيين الشباب الذين كشفوا في ان عن تميز في مجالهم العلمي وعن
حسرة في مؤسسات اللغة والثقافة وعلم الاجتماع وفي سياسة بلد أو إقليم مهم غير
غربي. ويقوم خريجو الأكاديمية الآن بالتدريس في جامعات ومعاهد كبرى في جميع
أنحاء البلاد. وشرف على أعمال الأكاديمية لجنة من كبار الباحثين في هارفارد ممن
يعتبرون من أفضل الخبراء في مناطق أجنبية بذاتها. وأخذت الأكاديمية على عاتقها
منذ ثلاث سنوات مهمة ائتمنا تنسبنا على هذه الخبرة الأجنبية، وتوسيع نطاق عملها
لتتجاوز حدود دراسة المجتمعات والثقافات كلها على حدة بحيث تشمل الدراسة أوجه
التماثل والاختلاف والتفاعل بين الثقافات والحضارات الكبرى في العالم واستكشف
مؤتمر انعقد في عام ١٩٩٧ أثر تفكير الصقوة في البلدان والأقاليم الكبرى بشأن
الاتجاهات في السياسة العالمية والخصائص المميزة لنظام عالمي منشود. ويمثل هذا
الكتاب دراسة ثانية معادلة لبيان كيف تؤثر الثقافات المختلفة في التطوير الاقتصادي
والسياسي .

ووضع روبرت كلينجارد في عام ١٩٩٢ دراسة عن العلاقة بين الثقافة والتطوير
الاجتماعي. وطرح في دراسته هذه التساؤل التالي: إذا كانت الثقافة مهمة، وقد درس
الإنسان الثقافة على مدى قرنين أو يزيد، فلماذا لا نمك حتى الآن نظريات جيدة الصياغة
والبناء، ولا مبادئ توجيهية عملية ولا روابط مهنية وثيقة بين أولئك الدارسين للثقافة
وأولئك القائمين على رسم وإدارة سياسة التطوير؟ إن الغرض الأساسي لهذا الكتاب
ولأعمال أخرى إضاقية نأمل في إنجازها، هو استحداث تلك النظريات. وصوغ
المبادئ التوجيهية، وترسيخ الروابط بين الباحثين والممارسين، الأمر الذي من شأنه أن
يرسخ دعائم الظروف الثقافية التي تدعم وتعزز التقدم البشري.

مدخل

لماذا " الثقافة مهمة " ؟

لورانس إي . هاريزون

مضى الآن قرابة نصف قرن منذ أن حول العالم انتباهه عن إعادة تعمير البلدان التي خربتها الحرب العالمية الثانية إلى هدف القضاء على الفقر والجهل والظلم الذي يخيم على غالبية شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وساد التفاؤل عقب النجاح المذهل لمشروع مارشال في غرب أوروبا، ومع صعود البيان وخروجها من بين رماد نار الهزيمة. وساد الظن بأن التنمية أمر حتمي خاصة بعد سقوط نير الاستعمار. وأشار كتاب مراحل النمو الاقتصادي دافع الصبغ وبالغ التأثير لمؤلفه والت روستو إلى أن التقدم البشرى مدفوع حركة جدلية يمكن دفع عجلتها وزيادة سرعتها.

وبنها لحقيقة أن نير الاستعمار اختفى موضوعياً واستقلت المظلمين عام ١٩٤٦، واستقلت الهند وباكستان عام ١٩٤٧، وسرعان ما خلفت بعد الحرب محمية بلدان الشرق الأوسط التي كانت خاضعة للحماية البريطانية والفرنسية والتي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية، واطردت عملية إنهاء الاستعمار في جنوب شرق آسيا وفي أفريقيا وفي الكاريبي، واكتملت عمليات الاستقلال مع نهاية ستينيات القرن العشرين.

ونذكر إجابة جون كينيدي في رده على الثورة الكوبية إذ قال إن التعاقد على التقدم عزز مشاعر التفاؤل السائدة، إنه سيضعف نجاح مشروع مارشال. ويتوقع

أول واحد بلدان أمريكا اللاتينية طريفها إلى رضاء ويصغر طية لا عود بهما خلال
عشر سنوات . .

ولكن ها نحن على أعتاب قرن جديد وقد حو التنازوم والإسباط عطل اقتنازل. إن
عديدا فلبلا من البلدان - وهي إسبانيا وليبريا وكوريا الجنوبية وتايوان
والسعودية وكذا هونج كونج اشسعموه البريطانية السابقة - هي التي الترمت مسار
روستو Arrow's Trajectory المتبع في العالم الأول - ولكن الغالبية الساحقة من
البلدان لا تزال تعثر بعيدا على المؤخرة. ولا تزال ظروفهم بعضهم الكثيرين من أبناء
هذه البلدان لم تتحسن عما كانت عليه منذ نصف قرن مضى - ونحو من بين
البلدان من سكان المعنورة اليوم أقل من مليون نسمة. ظلهم بمفرد الطريق - وقده
هم بعضا أكثر من أربعة بلايين نسمة هم من الذين من يتخلون في منتصف البنت
الدولي اصحاب الدخل المنخفض. ويعيشون في بلدان بصفتها ذلك الدولي تحت
اسم بلادى الدخل المنخفض أو الدخل المتوسط الأدنى

إن نوع الحياة في تلك البلدان متير الواسع جدا. بعد نصف قرن من المساعبات
من أجل التنمية⁽¹⁾

* نصف أو أكثر من نصف السكان في ثلاثة وعشرين بلدا
أغلبها في أفريقيا، أميركا، وتشتمل البلدان غير الأفريقية
على أفغانستان وبنجلاديش ونيبال وباكستان، بن وند في
النصف القوي من الكرة الأرضية - هايتي.

* نصف أو أكثر من نصف النساء أميات في خمسة وثلاثين
بلدا من بينها البلدان التي ذكرتها نوا علاوة على الجزائر
ومصر وجواتيمالا والهند ولاوس وبراكش ونيجيديا والعربية
السعودية.

* متوسط العمر المتوقع دون الستين عاما في خمسة وأربعين
بلدا، أغلبها في أفريقيا علاوة على أفغانستان وكامبوديا . .

وهاييتي - لاوس - بابوا غينيا - ويصل متوسط العمر المتوقع في سيراليون سبعة وثلاثين عاماً .

• يموت الأطفال في سن أقل من الخامسة بمعدل يزيد عن ١٠٠ من بين كل ١٠٠٠ في خمسة وثلاثين بلداً على الأقل، أغلبها مرة أخرى في أفريقيا. وتضم البلدان غير الأفريقية كلاً من بنجلاديش وبنغلاديش وهايتي ولاوس ونيبال وباكستان واليمن.

• معدل النمو السكاني في البلدان الأفقر يصل إلى ٢,١ بالمائة سنوياً، أي ثلاثة أمثال المعدل في البلدان ذات الدخل المرتفع. والملاحظ أن معدل النمو السكاني في بعض البلدان الإسلامية مرتفع بصورة مذهلة، إذ إنه ٥ ٪ في عمان، و ٤,٩ ٪ في الإمارات العربية المتحدة، و ٤,٨ ٪ في الأردن، و ٢,٤ ٪ في العربية السعودية وتركمنستان.

وأكثر أنماط توزيع الدخل تفاوتاً بين البلدان التي تزود البنك الدولي بالمعلومات المختصة (إذ إن هذا لا تقطع جميع البلدان) نجدها في البلدان الأفقر خاصة في أمريكا اللاتينية وأفريقيا. والملاحظ أن العشرة بالمانه الأكثر وفرة وثراء - من بين سكان البرازيل يحصلون على حوالي ٤٨ بالمانه من دخل البرازيل - كذلك فإن كينيا وجنوب أفريقيا وزيمبابوي لا تقل عن ذلك سوى بكسر صغير فقط. وأكثر عشرة بالمانه ثراء من أبناء القمة في شيلي وكولومبيا وجواتيمالا وباراجواي يحصلون على حوالي ٤٦ بالمانه من دخل البلاد. وتصل النسبة في غينيا بيساو والسنغال وسيراليون إلى حوالي ٢٤ بالمانه. ويلاحظ على سبيل المقارنة أن أعلى عشرة بالمانه في الولايات المتحدة، حيث توزيع الدخل من أكثر الحالات تفاوتاً وعدم مساواة بين البلدان المتقدمة، يحصلون على ٥ ٢٨ بالمانه من الإجمالي العام

وجدير بالذكر أن المؤسسات الديمقراطية إما ضعيفة بوجه عام أو لا وجود لها في أفريقيا وفي البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط وبقية آسيا. وازدهرت

الديمقراطية هي أمريكا اللاتينية خلال الخمس عشرة سنة الماضية. غير أن التجارب الديمقراطية فيها هشة على نحو ما أظهرت وأكدت الأحداث الأخيرة في بيرو وباراغواي والإكوادور وفنزويلا وكولومبيا والمكسيك ، ويبقى بعد هذا سؤال مهم: ماذا بعد ١٥٠ سنة من الاستقلال أخفقت بلدان أمريكا اللاتينية وهي امتداد للغرب في دعم وترسيخ أسس المؤسسات الديمقراطية؟

جماع القول إن العالم في نهاية القرن العشرين بات أشد فقراء وأكثر ظلمًا، وأشد تسلطًا على عكس ما توقعه غالبية الناس في منتصف القرن.

ولا يزال الفقر يرقيا متناقلًا في الولايات المتحدة، على الرغم من مرور عقود على سنوات الأمل المتوهج في خلق المجتمع العظيم والحرب ضد الفقر. إن ٢٠ ملائة من الهسبانيين يعيشون تحت خط الفقر، وحل الهسبانيون محل السود باعتبارهم الأقلية الكبيرة الأفقر حالًا. وتزيد نسبة البطالة في ائحميات الهندية على ٧٠ بالمائة. وأكدت التقارير أن السود حققوا تقدمًا مثيرًا، خاصة نساء منهم ، ولكن لا يزال ٢٧ بالمائة من السود يعيشون تحت مستوى خط الفقر، هذا في الوقت الذي شهد فيه الاقتصاد الأمريكي عقدًا من النمو المطرد مع انخفاض نسبة البطالة

وهكذا حل الوهن بل والتساؤم محل التفاؤل في نفس أولئك الذين شنوا حربًا ضد الفقر في الداخل وفي الخارج.

تفسير الغشيل : الاستعمار والتبعية والعنصرية

أما وقد بات واضحًا أن مشكلات التخلف أكثر تعقدًا واستعصاء على الحل على عكس ما تُنبأ به خبراء التنمية، فإن تفسيريّن تمتد جذورهما إلى الماركسية اللينينية أخذًا طريقهما إلى الظهور والهيمنة داخل الجامعات وفي سياسات البلدان الفقيرة. وكذا داخل جامعات البلدان الغنية. ويتلخص هذان التفسيران في كلمتين: الاستعمار والتبعية. وحدد لبتين الإمبريالية بأنها المرحلة الأخيرة والاحتمية للنظام الرأسمالي . ويعكس هذا الرأي تصوره بشأن عجز البلدان الرأسمالية التي تتحول بإطراد إلى وضع احتكاري عن إيجاد أسواق محلية تستوعب منتجاتها ورأسمالها.

إن تلك البلدان التي كانت في السابق مستعمرات أو تحت الانتداب أو تدخل ضمن ممتلكات دولة أخرى ثم حصلت على الاستقلال عن بريطانيا أو فرنسا باعتبارهما أبرز القوى الاستعمارية أو أيضا من هولندا أو البرتغال أو الولايات المتحدة أو اليابان، إنما ترى الإمبريالية حقيقة واقعة وتركت آثارا عميقة في التكوين النفسي القومي. وترى في الإمبريالية تفسيراً جاهزاً لتخلف وصدق هذا أولاً وقبل كل شيء، في أفريقيا حيث ظلت الحدود الوطنية ولا تزال حدوداً تعسفية بون اعتبار للجانس الثقافي أو التلاحم القبلي

وترى البلدان التي ستجرى تسميتها بالعالم الثالث والتي استقلت عند قرن أو أكثر، كما هو الحال في أمريكا اللاتينية، أن: إمبريالية أخذت شكل التبعية. وهذه هي النظرية القائلة بأن بلدان الأطراف الفقيرة ضحية خدعة من جانب بلدان المركز الرأسمالية الغنية. إذ إن بلدان المركز خفضت أسعار السلع الأساسية إلى أدنى حد في السوق العالمية وضخمت أسعار السلع المصنعة. وحقت الشركات متعددة القومية التابعة للمركز أرباحاً مبهولة على حساب البلدان الفقيرة.

ولكن لم يعد القول بالاستعمار أو التبعية يحظى بكثير من المصداقية اليوم، لقد انتهت، في نظر الكثيرين ومن بينهم بعض الأفارقة، الفترة الزمنية التي يتعين أن نتخذ فيها من الاستعمار تفسيراً للتخلف^(١٠). علاوة على هذا، فثمة أربع مستعمرات سابقة، اثنتان بريطانيايشتان (هما هونغ كونج وسنغافورة) واثنتان يابانيتان (كوريا الجنوبية وتايوان)، قفزت إلى ساحة العالم الأول. ونادراً ما يذكر أحد التبعية اليوم حتى داخل الجامعات الأمريكية حيث كانت وحتى سنوات غير بعيدة تفسيراً مقبولاً لا يختلف بشأنه إثنان وثمة أسباب عديدة من بين أسباب أخرى، تذكر من بينها انهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية، وتحول الشيوعية في الصين إلى نظام حكم تسلطي

(١٠) مرة أخرى نؤكد أن الاستعمار من حيث هو تدخل، أو هيمنة إرادة على إرادة شعب آخر تحقياً لمصالح ذاتية للدولة الهيمنة إنما تباينت صورته وأشكاله ولا يران الاستعمار بالمعنى الذي ذكرناه فثنا من سياق الصراع الدولي ويمثل أحد العوامل، وليس العامل الوحيد، للتخلف وإن كان هذا لا يمنع من البحث مع المؤلف عن الأسباب المتعددة (الترجم)

ينتقل، باطراد، إلى نظام السوق الحرة، وهناك انهيار الاقتصاد الكوبي بعد نومف المعونات السوفياتية الضخمة، وهناك كذلك نجاح نموذج شرق آسيا في السوق العالمية، ثم الهزيمة الساحقة التي منى بها أتباع ساندينيستا في انتخابات عام ١٩٩٠ في نيكاراغوا. ونذكر أيضا مجازة المكسيك للانضمام إلى اتفاق نافتا بين الولايات المتحدة وكندا. ويعرض دافيد لاندريس في الفصل الخامس به في هذا الكتاب مناقشة جديدة لنظرية التبعية.

وهكذا ظهر خلال العقد الأخير من القرن العشرين قراع نفسيري. والملاحظ على مدى السنين أن مؤسسات المساعدات التنموية دعمت تشكيلة متباينة من الحلول من بينها الإصلاح الزراعي وتطوير المجتمعات المحلية والتخطيط والتركيز على القطاعات الأفقر وعلى الاحتياجات البشرية الأساسية والتقانة الملائمة وتطوير وضع المرأة والخصخصة واللامركزية، مثلما تركز الآن على التنمية المستدامة. ونذكر بهذه المناسبة ابتكاراً شهدته سبعينيات القرن العشرين وأشرك علماء الأنثروبولوجيا في مؤسسات التنمية بهدف مواجاة المشروعات مع الحقائق الثقافية القائمة. ولقد كانت جميع هذه المبادرات مفيدة بدرجات متفاوتة، ناهيك عن التأكيد على اقتصادات السوق الحرة والتعددية السياسية بيد أنها، بشكل لفرادي وتراكمي، فشلت في تحقيق نمو سريع واسع النطاق أو تحقيق ديمقراطية أو عدالة اجتماعية في العالم الثالث.

وكان من اليسير في منتصف القرن فهم تصور الأمريكيين السود وإنجازاتهم المادية إذ بدأ ذلك نتيجة واضحة مترتبة على جرماتهم من الفرص المتكافئة في التعليم وفي العمل وحق الاقتراع. وأدى هذا إلى عدم انصهار الأقلية في البوتقة الاجتماعية، وكانوا بمثابة الأقلية التي لا تصدق عليها وثيقة حقوق الإنسان. وشهدت السنوات الخمسون الماضية ثورة عنصرية في كثير من المجالات. لم تقتصر هذه الثورة على تمطيط الحواجز التي تحول دون تهيئة الفرص بل أفضت إلى إغراء، راب كاسحة غيرت اتجاهات ومواقف البيض من العنصرية. وأدت الثورة إلى دخول السود في شبه حركة جماهيرية واسعة إلى صفوف الطبقة الوسطى، وإلى تضيق حفيظ وجوهري للهوة التعليمية بين السود والبيض، وإلى انخراط السود في الحركة

السياسية. بل وإلى زواج متبادل بين الطرفين بنزاهة بلقاء باطراد. ولكن لا تزال هناك محوه عميقة في مجال التعليم المتقدم وفي الدخل والثروة، علاوة على أن ٢٧ / من السود لا يزالون تحت خط الفقر، ونمة غالبية من الأبطال السود ولتوا لأمهات هجرهن عائلتهن وهكذا لا تزال إلى حد كبير مسئولين عن مشكلات العزلة العنصرى الجبوت فيما بيننا

ولكن تفسير ندنى إنجازات السود على أساس التمييز العنصرى وهذه لم يعد مقبولاً بعد خمسين عاماً هذا على الرغم من استمرار بعض مظاهر التمييز والعنصرية. ويؤكد هذه النتيجة ندنى إنجازات الهسبانيين ندنى بثل الآن مشكلة أكبر شأننا. ويعرف أن ثلاثين بالمائة من الهسبانيين يعيشون تحت مستوى خط الفقر كذلك قرب معدل من لا يكملون تعليمهم العالى عن الهسبانيين يبلغ ندوى ٢٠ / وهو أكثر من ضعف معدل السود. وعانى المهاجرون الهسبانيون من التمييز ولكن بدرجة أقل من السود بفتنا. وربما لم يكن ما عتوه من تمييز أكثر مما عتوه المهاجرون الصينيون والمانديون، الذين يحتفون بتعليم واحل وثروة يزيد فى حوسطانها كثيراً عن المتوسط القومى وتتميز على نحو عابر إلى معدل الفقر المرتفع كثيرة فى أمريكا اللاتينية الذى يبلغ ندوى ٥٠ / . وإنما معدل من لا يكملون تعليمهم العالى هناك والذى يصل إلى ندوى ٧٠ /^(١٩)

الإطار الثقافى : ندوى أكاديمية هارفارد

واضح أن الامتصار والسمنة تفسيران غير كافيين لتفسير الفقر والحكم التملطى فيما وراء البحار (كذلك النزعة العنصرية والتعديز تفسيران يبر كافيين لتفسير ندنى إنجازات الأقليات فى الداخل). وإذا كان ثمة استنتاجات كثيرة جدا للتفسيرات الجغرافية/المنذبية (مثال ذلك ستقافور، ريمونج كوندج وباريلندوس وكوستاريكا وجميعه تقع فى المنطقة الاستوائية)، فكيف لنا - إن - أن نفسر قصور النقام البشرى على طريق الرخاء والتعددية السياسية على مدى نصف القرن الثانى من القرن العشرين؟

بفزايد ما طرأ من الأبحاث والصحافيين والسياسيين والمسؤولين عن الأسماء الذين يركزون على دور القيم والاتجاهات الثقافية كعوامل من شأنها أن تيسر أو تعيق التقدم. وهؤلاء هم الورثة الفكريون لأليكسيس دي توكفيل الذي خلص إلى القول بأن ما جعل النظام السياسي الأمريكي نظاما ناجحا هو توفر ثقافة متلائمة مع الديمقراطية. كذلك هم الورثة الفكريون لماكس فيبر الذي فسّر صعود الرأسمالية بأنها ظاهرة ثقافية في جوهرها لها جذورها العميقة في الدين. ثم أيضا إيفارد بانفيلد الذي كشف عن الجذور الثقافية للفكر ونزعة الحكم التسطلي في جنوب إيطاليا، وهذه حالة لها تطبيقاتها في أنحاء كثيرة في العالم.

وشكلت الدراسات الثقافية والتأكيد على الثقافة في العلوم الاجتماعية التيار الرئيسي خلال أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين. ثم تلاشى الاهتمام بعد ذلك. ولكننا شهدنا بحثا جديدا للدراسات الثقافية خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مع الاتجاه لإحكام صوغ إطار جديد متمحور حول مفهوم الثقافة لتفسير التطوير والتقدم البشريين.

وفي صيف عام ١٩٩٨، قررت أكاديمية غارفارد للدراسات الدولية والإقليمية استكشاف الطفرة التي تربط بين الثقافة والسياسة وبين التطور الاقتصادي والاجتماعي. واستهدفت بوجه أساسي استكشاف هذه الرابطة في البلدان الفقيرة ولكن مع الاهتمام بمشكلات تدني إنجازات الأقليات في الولايات المتحدة. وكما أسعدنا الحظ أن استطعنا أن نثير اهتمام نسبة كبيرة جدا من الباحثين المسؤولين عن إحياء الدراسات الثقافية علاوة على غيرهم من أصحاب النظرات المتباينة. وانعقدت ندوة القيم الثقافية والتقدم البشري في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب والعلوم في كامبريدج / ماساشوسيت خلال الفترة من ٢٣ - ٢٥ إبريل/نيسان ١٩٩٩، وشارك فيها جمهور متميز من الحضور.

النحوة والمشاركة

تشكلت النحوة من ثمانى مجموعات من المتحدثين، أربع لكل من اليومين الأولين، ثم أعقبت ذلك جلسة ختامية. رأس المجموعة الأولى جورج دو منجويه من هارفارد وتناولت المجموعة العلاقة بين التطوير السياسى والثقافة. وكان رونالد أنجلهارت منسق البحث الاستقصائى للقيم العانية. وبعث بأن شمة رابطة قوية بين القيم الثقافية والأداء السياسى الاقتصادى للأمم. وناقش فرترسيس فوكوياما النور الرئيسى لرأس المال الاجتماعى فى دعم وتعزيز المؤسسات الديمقراطية وتتبع سيمور هارتى ليبسيت، الرابطة بين الثقافة والنساء، وتولى كريستوفر ديموث، رئيس معهد المشروع الأمريكى، رئاسة المجموعة الأولى من مجموعتى الباحثين المعنيين بموضوع التطوير الثقافى والاقتصادى. وذهب، نافيد لانديس فى محصلة ورقة بحثه تروية وفقر الأمم إلى أن الثقافة علة كل مظاهر الاختلاف⁽³⁷⁾. وأقر ميشيل بورتر أن الثقافة تؤثر فى التطوير الاقتصادى والمنافسة، غير أنه أكد أن العولمة تتضمن عملية نقل ثقافى من شأنها أن تفضى إلى تجنيس الثقافة، ومن ثم يسر على البلدان إمكانية التغلب على السلبيات الثقافية والجغرافية. ودفع جيفرى ساكس بأن الثقافة عامل مهم بالمقارنة بعاملى الجغرافيا والمناخ.

وتناولت المجموعة الثانية موضوع التطوير الثقافى والاقتصادى، ورأسها هاربيت باييت نائبة مدير وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية. وعرض مارينو جروفونونا نظريته عن أنماط الثقافات انوائية للتطوير والمعارضة له، واستخدمها أساسا من دراسته التى كتفت، إلى مدى كانت العوامل ذات للمناعة أعادت تقدم الأرجنتين وفدم كارلوس ألفرنو مونتانا نفسيراً بوضوح كيف أن ثقافة أمريكا اللاتينية تؤثر فى ذاتها فى سلوك جماعات المفقوة على حساب المجتمع ككل وناقش دانييل أتونجا - مانجويل العفاك الثقافية التى تعمق التطوير ويوح المنافسة فى أفريقيا.

ورأس هووارد جردسر من جامعة هارفارد الفريق الأخير من الباحثين الذين في اليوم الأول وضم الفريق ثلاثة علماء في الأنثروبولوجيا روبرت أوجرتون الذي يؤمن بأن بعض الثقافات أكثر فائدة لأهلها على عكس ثقافات أخرى وريتشارد شويدر الذي يعرف نفسه بأنه مؤمن بالتعددية الثقافية ومنتصم ويحترم جميع الثقافات الأخرى. والثالث تومسا ويرنز الذي يركز على عملية انتقال الثقافة خاصة في مرحلة الطفولة.

ورأس رودريك ماريفار كاهار من هارفارد فريق المتحدثين عن الأجيال الأسبوعية. وضم الفريق علماء الاقتصاد نوايت بيركينز وعالم السياسة لوسيان باي، وعالم الصينيات توبي - منج وظهور قدر من التوازيات في عرض كل من بيركينز وبأي، إذ أكد كلاهما الحاجة إلى التحول عن العلاقات الذكورية التقليدية ذات الطابع الخاص المميز التي هيمنت على اقتصادات شرق آسيا وعن الدور البارز للقيادة الرسمية في القطاع الخاص وقارن توبي بين النهج الغربي والنهج الكونفوشيوسي في الدسة.

وكانت باربارا كورسيت من النيويورك تايمز أول المتحدثين في الفريق المعنى بالجنوسة والثقافة. ورأس الفريق فيليس بوميرانتس من البنك الدولي. واستعرضت باربارا في كلمتها الصراع بين النسبية الثقافية وإعلان حقوق الإنسان للأمم المتحدة. ومدت نتائج دراستها في تناقض صارخ مع نتائج ريتشارد شويدر وتناقضت مالا هنون التغيرات التي طرأت على علاقات الجنوسة في أمريكا اللاتينية وكذا العقبان الثقافية وغير الثقافية التي تحول دون أن تحقق هذه التغيرات الهدف منها. وتحدثت روبي ولسون عن القوى الثقافية التي تشكل الوضع القائم للمرأة في الصين. ونود بالمناسبة أن نعرب عن أسفنا إذ أثرت أن لا نضمن عرضها كتابنا هذا.

ورأس ريتشارد لام حاكم كلورادو السابق فريق المتحدثين عن الثقافة والأقليات الأمريكية. واسسهل الحديث أورلاندو باترسون الذي أكد على الرابطة بين الثقافة ومشكلات الأقليات وقرن عرضه هذا بتحليل أثر العبودية والتمييز العرقي ضد الزوج على مؤسسة الزواج. وربط بين هذه الخبرات وبين ارتفاع نسبة الأمهات السود اليوم اللاتي يعشن بدون عائل. ولم يتمكن ريتشارد أسترادا من حضور الندوة بسبب وعكة

صباحية ألت به في اللحظة الأخيرة. وأحريتنا بعد ذلك إذ بلغنا نبأ وفاته في ٢٩ أكتوبر/تشرين أول ١٩٩٩ وهو في التاسعة والخمسين من عمره وحل محله سنييفن شرفستروم من جامعة هارفارد، وقدم عرضاً عن الاتجاهات السكانية ونمدي نائان جلبزر لعدد من القضايا من بينها المشكلات السياسية والعاطفية الناجمة عن الدراسات التحليلية الثقافية لسبل الأداء المختلفة لدى الجماعات العرقية.

وتولى روبرت كليمنجار من مؤسسة راند RAND رئاسة الفريق الأنبر من المتحدثين وخصص الفريق جلسته لعرض وصف لبعض المبادرات المطروحة بالفعل بهدف دعم القيم والاتجاهات الإيجابية. وسبق أن أشرت إلى الأدبيات المتنامية التي تربط التخلف بالثقافة. وأكثر هذه الأدبيات لبأحثين من العالم الثالث وعرض الفريق كذلك وصفاً لعدد من المبادرات المحلية في أمريكا اللاتينية التي تهدف إلى إحداث تغيير ثقافي. وقدم كل من ستاسي لندساي وميشيل فربانك وصفاً لتهج شركة مونيتر ومقرها في كمبريدج / ماساشوسيت، وتعمل على تغيير عقل الأمة.

وأعقت كل جلسة من تلك الجلسات مناقشات حية وخصية بلغت ذروتها في الجدل الذي شهدته الجلسة الختامية عن الحجج المؤيدة والحجج المعارضة للنهوض بالتغيير الثقافي. ولم يصل الحضور إلى توافق في الآراء، الأمر الذي لم يكن متوقفاً في ضوء الطبيعة الخلافية لسألة الثقافة والنوجهات العديدة المتباينة للمشاركين بين أن الثقافية العظمى من المتحدثين يؤمنون بأن القيم والاتجاهات الثقافية تعمل عاملاً مهماً ومُعَظَلاً في التقدم البشري. علاوة على هذا، فقد ساد اعتراف حتى بين المتشككين بالحاجة إلى فهم أكثر تقدماً للعديد من المسائل المطروحة للنقاش في ختام هذه المقدمة.

القضايا الكبرى

دارت العروض والمناقشات حول خمس قضايا رئيسية. وهي التي أتناولها في هذا الفصل مع بيان نظرتي الخاصة بشأنها :

- الرابطة بين القيم والتقدم .
- عالمية القيم والإمبريالية الثقافية الغربية .
- الجغرافيا والثقافة .
- العلاقة بين الثقافات والمؤسسات .
- التغيير الثقافي .

الرابطة بين القيم والتقدم :

نلمس بوجه خاص مزعة الشك إزاء وجود رابطة بين القيم الثقافية والتقدم في مجرتين اثنتين: الاقتصاد والأنثروبولوجيا. إذ يرى كثيرون من الاقتصاديين أن من البهيميات أن السياسة الاقتصادية الملائمة إذا ما جرى تنفيذها بكفاءة وفعالية سوف تفضي إلى نتائج واحدة أو متماثلة بون اعتبار الثقافة. وتتمثل المشكلة هنا في حالة البلدان متعددة الثقافات حيث نجد بعض الجماعات العرقية أفضل أداء من غيرها، على الرغم من عمل الجميع التزاماً بالمؤشرات الاقتصادية ذاتها وأمثلتنا على هذا الأقليات الصينية في تايلاند، وماليزيا وأندونيسيا والفلبين والولايات المتحدة كذلك الأقليات اليابانية في البرازيل والولايات المتحدة. وأيضاً الباسك في أسبانيا وأمريكا اللاتينية، ثم اليهود حيث هاجروا^(١٤).

وكان آلان جرينسبان رئيس إدارة مجلس الاحتياطي الفيدرالي واحداً من بين التقليديين الاقتصاديين في نظرتهم إلى هذه المسألة. إلى أن فكر ملياً في تجربة روسيا بعد الاتصاف السوفييتي. إذ انطلق من افتراض أن البشر رأسماليون طبيعياً، وأن انهيار الشيوعية سيفضي تلقائياً إلى تأسيس نظام سوق حرة لمقاولي المشروعات. وذهب إلى أن النظام الرأسمالي طبيعة بشرية. ولكنه خلص عقب كارثة الاقتصاد الروسي إلى أنه ليس طبيعة على الإطلاق، بل ثقافة^(١٥).

ونمثل كلمات جرينسبان دعماً قوياً لتحليل وبنائناج دافيد لاديس في كتابه *شوره* وبقدر الأمم . ناهيك عن سلسلة طويلة من الاستبصارات الذكية بشأن أهمية الثقافة وعلاقتها بالتقدم، متتبعا جنودها في الماضي حتى أيام توكفيل على الأقل، ولكن تبقى حقيقة واقعة وهي أن الغالبية من الاقتصاديين لا يراحوون عند التعامل مع الثقافة خاصة وأنها تعرض مشكلات تتعلق بالتعريف وتحديد المعنى، فضلا عن صعوبة التقدير الكمي، وتعمل في سياق بالغ التعقيد متضمنا عوامل نفسية ومؤسسية وسياسية وجغرافية وغيرها.

وأوجه انظار القارئ، بينما هذه المشكلات تشغل تفكيرنا، إلى الفصل الذي كتبه ماريانو جروندينا المنتسور في هذا الكتاب ، إذ يعرض تصنيفا نمطيا لثقافات داعمة للتطوير وثقافات ممانعة للتطوير. وعلى الرغم من أن جروندينا ابتكر تصنيفه النمطي من واقع دراسته للأرجنتين وأمريكا اللاتينية، إلا أنني أعتقد أنها صالحة للتطبيق إلى حدود أبعد من ذلك، وبعبارة هذه الفصل أهمية الفصل الذي كتبه كارلوس ألبرنو مونتائر إذ يفسر كيف أن ثقافة ممانعة للتطوير تصوغ سلوك جماعات الصقوة.

والملاحظ أن المشكلة الرئيسية في نظر كثيرين من علماء الأنثروبولوجيا، وغيرهم من علماء الاجتماع المتأثرين بهم، هي تراث النزعة النسبية الثقافية التي هيمنت على المبحث العلمي خلال هذا القرن والتي ترفض تقييم ممارسات وقيم مجتمع آخر .

وهذه هي واحدة من العوامل المؤثرة في النهج المنعز للغة والمعارض الذي التزم به ناتان جليزر في دراسته لنور الثقافة ومحاولة تفسير النطاق الواسع من الإنجازات، بين أوساط الجماعات العرقية داخل الولايات المتحدة (الفصل ١٦) ولعل من أقوى الحجج في التصدي للثقافة الدراسة التي قدمها أورنالو بانرسون، زميل جليزر، في فريق المتحدثين، إذ رأى أن الثقافة عامل محوري لتفسير مشكلات الأمريكيين الأفارقة (الفصل ١٥).

والملاحظ أن عنوان الكتاب يمكنه في حد ذاته أن يصرح مشكلات أمام من يستتفون إصدار أحكام قيمة بشأن الثقافات. إذ يعتقد كثيرون أن الثقافة، بحكم تعريفها، بنية عنقاسقة وعامل تكيف، وأن أي إقصاء من خارجها يتروى عليه مظاهر

صراع ومعاناة هذا بينما يرى بعض علماء الأنثروبولوجيا من منظور معايير نعاما،
نذكر من أبرزهم أوبرت إيجرتون الذى يقول فى إشارة وثيقة الصلة بالنسبة

البشر فى مختلف المجتمعات، سواء أكانوا من سكان المدن
أم من عامة الشعب، قاسرون على التمسك الوجداني، والعطف، بل
والحب، ويمكنهم فى بعض الأحيان السيطرة بسهولة مذهلة على
التحيزات التى تقرضها عنهم بيئاتهم. بيد أنهم أيضا قادرون على
الحفاظ على المعتقدات والقيم والمؤسسات الاجتماعية التى تسفر
عن قسوة لا تعرف الرحمة، ومعاناة لا مبرر لها، وهوس مثير فى
علاقاتهم بين أنفسهم، وكذا مع المجتمعات الأخرى والبيئة الطبيعية
التي يعيشون فى كنفها.^(٢)

عالية القيم والإمبريالية الثقافية الغربية

فكرة التقدم فكرة مريبة فى نظر المنزمن بالترزعة الثقافية النسبية. إذ يرى هؤلاء أن كل ثقافة تجرد أهدافها وأخلاقيها، وهو ما يتعذر تقييمه فى ضوء أهداف وأخلاق ثقافة أخرى. ويرى بعض الأنثروبولوجيين التقدم باعتباره فكرة يحاول العرب فرضها على الثقافات الأخرى ويصل الأمر إلى أقصاه حين يحاول دعاة النسبية الثقافية والتعددية الثقافية الدفع بأن الغربيين ليس من حقهم انتقاد مؤسسات لها ممارساتها الثقافية الخاصة مثل بتر أجزاء من العضو التناسلى للأثني. أو ممارسة السنويه sunoo (عادة إحراق الأرملة الهندوسية فى محرقة زوجها المتوفى علامة على إخلاصها له سواء أرادت المرأة ذلك أم لا). أو حتى ممارسة العبودية.

ولكن بعد نصف قرن من ثورة الاتصالات، أصبح التقدم يا شعنى الغربى مطعماً عالمياً. إن فكرة التقدم - بمعنى حياة أطول وأكثر سمية وأقل ملأ وأكثر قدرة على تحقيق الأهداف - ليست فكرة قاصدة على العرب، إذ نجدها واضحة صريحة فى الكونفوشية وفى معتقدات عدد من الأقليات غير الغربية وغير الكونفوشية المعروف عنها

ارتفاع مستوى إنجازها . مثال ذلك الهنود السبخ وأنا لا أتحدث هنا عن التقدم بالعصر الذي حدده مجتمع الوفرة الاستهلاكي على الرغم من أن القضاء على الفقر هو أحد الأهداف المشتركة لدى الجميع عالمياً . ويعني هذا حتماً مستويات أعلى من الاستهلاك إن نموذج الطغوح العنلي أوسع نطاقاً على نحو ما أشارت عبارات كثيرة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة

لكل إنسان له حق الحياة والحرية والأمن وحرى أن يعطى البشر بحرية التعبير والاعتقاد والجميع متساوون أمام القانون ولهم حق الحماية في تكافؤ دون تمييز وكل امرئ له حق المشاركة بنصيب في حكم بلده، سواء مباشرة أو من خلال ممثليه المنتخبين انتخاباً حراً ومن حق كل إنسان أن يتمتع بمستوى معيشة كافٍ يؤول الصحة والرفاه له ولأسرته بما في ذلك الطعام والملبس والسكن والرعاية الطبية والخدمات الاجتماعية الضرورية .. والتعليم حق لكل إنسان.

وأود أن أشير هنا على نحو عابر إلى أنه في عام ١٩٤٧، قرر المجلس التنفيذي للرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية أن لا يساعد الإعلان بحجة أنه وثيقة تعتمد على نظرة مركزية عرقية. وكان موقفهم مع ذلك، حسيماً أعتقد، أن الغالبية من سكان الكويكبي سيونغفون على التأكيد على الحقوق المتأخرة

• الحياة خير من الموت.

• الصحة خير من المرض.

• الحرية خير من العبودية.

• الرضاء خير من الفقر.

• التعليم خير من الجهل.

• العدالة خير من الظلم.

أما ريتشارد شويدر الذي ينفق في الرأي مع قرار المجلس التنفيذي للرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية فقد رأى النبوة (إذا ما كان لي أن أستيقظ بعض عنوان فصله) ضرباً من غطرسة العالم الأول مدعومة من قبل الإنجليز الجدد ولكن ما شكل تحدياً مباشراً لأرائه هو وجود ثلاثة من المتحدثين من العالم الثالث هم دانييل إيتونجا - مانجويل، وماريانو جروندينا، وكارلوس ألبرتو مونتانو. ويعتقد هؤلاء أن القيم الثقافية التقليدية تمثل جذر الفقر والحكم التسلطي والظلم الاجتماعي. وهؤلاء الثلاثة على الترتيب من أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وأعرب شويدر في هامش شبل به الفصل الخاص به عن رفضه لهم باعتبار أنهم ليسوا ممثلين حقيقيين لاجتماعاتهم، وأنهم مفكرون كوزموبوليتانيون، أو عالميون، حيث تعيهم خطط الرحلات الآن أكثر مما يعينهم السلف، ويتطلعون إلى الولايات المتحدة يلتمسون منها التوجيه والهداية الفكرية والأخلاقية وكذا المساعدة المادية.

ويجد القارئ إجابات فتوتجا - مانجويلي وهروندينا ومونتانو على الهامش الذي كتبه شويدر، متضمنة في فصل ورد عقب الفصل الخاص بشويدر ومغترنة بتعليق إضافي منه والتجدير باللاحظة أن تبادل الآراء بدع المرء يتسائل متعجباً هل إن بعض الأنثروبولوجيين يتعاملون مع نوع من الإمبريالية الأنثروبولوجية التي من شأنها أن تحفظ الثقافات في صورة من الجمود السرمدي. ريد يفر شويدر بهذه المخاطرة حين يقول . أود أن أحدد ثقافة أصيلة، ثقافة جديرة بالتقييم والتقدير كأسلوب حياة يمكن الدفاع عنه في مواجهة النقد الخارجي (مما يعني فرضاً أن النقد من الداخل هو النقد الملزم). وإذا كانت هناك ثقافات جديرة بالتقييم والتقدير فإن من المفترض أنه ستكون هناك ثقافات أخرى غير جديرة بذلك مما يعني أن شويدر سوف يلتقي في الرأي مع ما ذهب إليه روبرت إرجرتون.

الجغرافيا والثقافة :

يؤكد جيفري ساكس في الفصل الخاص به أن الجغرافيا والمناخ عاملان حاسمان في تفسير النمو الاقتصادي. ونستحضر آراؤه في ذهن كتاب جيرد

دياموند الدارق والجراثيم والعنكب الذي صدر مؤخراً ويخلص فيه إلى نتيجة مؤداها أن الفوارق المدهلة بين نواربخ الشعوب ضويلة الأمد في القارات المختلفة ليس سببها فوارق فطرية في الدس أنفسهم، بل ترجع إلى اختلافات في بيئاتهم.^(١٧)

وواضح أن الجغرافيا، بما في ذلك الهبات من المصادر الطبيعية، وكذا المناخ، هي عوامل أساسية في تفسير ثروة وفقر الأمم. والملاحظ أن جميع اليمقرنطيات المتقدمة تقريباً موجودة في المناطق المعتدلة وأن الغالبية الساحقة من البلدان الفقيرة تقع في المنطقة الاستوائية. ولكن ثمة استثناءات جديرة بالذكر: فإن روسيا تقع على نفس خطوط العرض التي تقع فيها شمال أوروبا وكندا وهي مناطق تتمتع بالازدهار والديمقراطية (ويمكن أن نضيف أن بلدان شمال أوروبا وكندا تمثل غالبية أقل البلدان فساداً في العالم، بينما روسيا من بين أكثر عشرة بلدان فساداً، مما يذكرنا بتعليق آلان جريستسباند) وتقع سنغافورة وهونج كونج ونصف تايوان في المنطقة الاستوائية. وإن نجاح هذه البلدان التي يعيد باختصار نجاح اليابان يعني أن الكونفوشية تميز الجغرافيا على نحو ما يشهد بذلك أيضاً نجاح كوريا الجنوبية ونجاح الألبان الصينية في تايوان وفي أنغوليسيا وماليزيا والفلبين، وهي مناطق استوائية، وكذا نجاح الأقيام اليابانية في بيرو والبرازيل الاستوائيتين.

إن الجغرافيا لا يمكن أن تقدم لنا تفسيراً كافياً شاقياً لأوجه التباين المذهبة بين شمال وجنوب إيطاليا، وأوجه التباين المماثلة بين جواتيمالا وهندوراس والسلفادور ونيكاراجوا من ناحية، وبين كوستاريكا ومن ناحية أخرى. ولا تقدم لنا الجغرافيا تفسيراً كافياً لحالة البؤس التي تعيشها هايتي التي كانت يوماً ما أغنى مستعمرة عبيد تنتج قصب السكر في الكاريبي. أو أن تفسر لنا ازدهار الديمقراطية في باربادوس التي كانت في السابق مستعمرة عبيد لإنتاج السكر. ولنا أن تشير إلى أن ثلاثة بلدان في المناطق المعتدلة في أمريكا اللاتينية، وهي الأرجنتين وأوروغواي وتشيلي، لم تحتض حتى الآن بالرخاء الذي يتمتع به العالم الأول. وعادت هذه البلدان الثلاث من ديكتاتوريات عسكرية في السبعينيات والثمانينيات.

ويشير جيرد دياموند في الفصل الختامي من كتابه إلى السلطان المحتمل للثقافة إذ يقول:

العوامل والمؤثرات الثقافية ... تلوح كجيرة رميعة ...
وتباين السمات الثقافية البشرية تبايناً كبيراً في مختلف أنحاء
العالم. ولا ريب في أن بعض هذا التباين الثقافي هو نتاج تباين
بينى ... ولكن ثمة سؤال مهم يشلق بالدلالة الممكنة للعوامل
الثقافية المحلية التي لا علاقة لها بالبيئة. إن هاملاً ثقافياً ثانوياً
قد ينشأ لأسباب محلية رقنية وثافية، ولكنه قد يثبت ثم يحدد
مصيقاتاً إمكانات واستعدادات مجتمع ما إزاء خيارات ثقافية
مهمة ... وتمثل هذه الدلالة سؤالاً مهماً لا يزال بدون إجابة.⁽⁴⁾

العلاقة بين الثقافات والمؤسسات :

نعود لنقول إن الثقافة ليست متغيراً مستقلاً ، إذ يؤثر فيها عدد من العوامل من
بينها على سبيل المثال الجغرافيا والمناخ والسياسة وصروف التاريخ ويقبل دانييل
إيتونجا ، مانجويل فيما يخص بالعلاقة بين الثقافة والمؤسسات الثقافية هي الأم،
والمؤسسات هم الأبناء ، ويصدق هذا بوجه خاص على الذي أتبعه، أما على المدى
القصير فإن التعديلات المؤسسية والتي تفرضها السياسة في الغالب يمكنها
أن تؤثر في الثقافة، وهو ما يتسق مع الملاحظة الحكيمية التي أشار إليها دانييل
باتريك. وهكذا كان حال إيطاليا حين اختارت أن تطبق لامركزية السياسة العامة
والإدارة في السبعينيات، وهذه هي الحالة التي أرخها في مراحلها الزمنية المختلفة
روبرت بوتنام في كتابه تفعيل الديمقراطية *Make Democracy Work*⁽⁵⁾ وخلص
بوتنام إلى نتيجة محورية مؤداها أن الثقافة هي جنر الاختلافات الواسعة بين شعاع
وجنوب إيطاليا. ولكنه، على الرغم من هذا، يشير إلى أن تطبيق اللامركزية غرس
درجة من الثقة والاعتدال والتفاهم التماسا لحل وسط لدى أهل الجنوب. وهذه
هي المنطقه ذاتها التي درسها إيوارد باتنفيك دراسة تطليلية كظاهرة ثقافية
تعانى من حالة مرضية لها أسبابها الاجتماعية، وذلك في كتابه الأساس المعنوي
لمجتمع متخالف.

وعمد نوجلاس نورث في كتابه إلى الاقتراب مراراً من موضوع العلاقة بين المؤسسات والثقافة وامتنع في ذلك سبباً توشى بأن نورث الذي يركز اهتمامه على المؤسسات دون الثقافة يمكن أن يتفق مع ملاحظة إيتونجا - ماسجويل. وجدير بالذكر أن نورث في دراسته المؤسسات والتغير المؤسسي والأداء الاقتصادي يرى أن ثمة قبولاً عاماً على التطور المؤسسي كأنها وليدة معلومات منقولة اجتماعياً تشكل جزءاً من تراث نسبية ثقافة ... وهو إطار مفاهيمي قائم على اللغة هدفه فك طلاسم وتحويل المعلومات التي تعرضها الصواس على المخ^(١). ويفسر نورث بعد ذلك وبهاء عقبه التطور المتباين للمسنحمرات البريطانية والإسبانية السابقة في العالم الجديد، وذلك في عبارته التالية:

نشأ في السابق إطار مؤسسي يسمح بالتبادل
 اللاشخصي المعقد واللازم للاستقرار السياسي والسيطرة على
 المكاسب الاقتصادية المحتملة للتقانة الحديثة. ونجد في المرحلة
 التالية أن العلاقات الشخصية الذاتية لا تزال هي أساس قسط
 كبير من التبادل السياسي والاقتصادي. وهذه نتائج إطار
 مؤسسي متطور لا يفضي إلى استقرار سياسي، ولا إلى تطبيق
 متمسق لإمكانات التقانة الحديثة.^(٢)

وعقب جورج دومنجويه ببعض التعليقات على فريق المتحدثين الذي كان يرأسه والذي تناول موضوع الثقافة والتطور السياسي، وأيدى دومنجويه في تعقيبه شكوكاً في سلطان الثقافة طالما وأن جميع بلدان أمريكا اللاتينية، فيما عدا كوبا، تحولت إلى ديمقراطيات خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة. وتتجلى الصلة الوثيقة بملاحظة نوجلاس نورث هي هشاشة التجارب الديمقراطية في أمريكا اللاتينية اليوم، إذ تواجه الحكومة الديمقراطية في كولومبيا خطراً مدمراً من جانب القوة الثورية للجنح اليساري الفوضوي وتهدد الفوضى الاقتصادية بإسقاط المؤسسات الديمقراطية في الإكوادور المجاورة. ونلاحظ أن رئيس بيرو كثيراً ما ينصرف ويكأنه كواديلو كاسو الذي ديكتاتور عسكري تقليدي. وحدث كثيراً أن ألح رئيس الأرجنتين السابق كارلوس

منهم، ومن ملوف خعي، إلى حرصه على فترة رئاسة مؤقتة على عكس ما يقضى به دستور البلاد، كذلك فإن رئيس فنزويلا المنتخب أخيراً، وهو ضابط جيش سابق حاول مرتين القيام بانقلاب عسكري، أثار في نفوس المراقبين شكوكاً بشأن احترامه للمعايير الديمقراطية.

وعقب زيارة قمت بها لجوانيمالا في ديسمبر/كانون أول ١٩٩٩، لإلقاء محاضرة عن العلاقة بين الثقافة والديمقراطية، أبدى عالم الاجتماع الجواتيمالي برناردو أريغالو ملاحظة مواتية إذ قال: لدينا عتاد الديمقراطية، ولكن قرين برامج الحكم التسلسلي^(١٦٢)

وسبق لي أن طرحت سؤالاً أثاره تعليق نورث: لماذا كان على أمريكا اللاتينية أن تقضى أكثر من مائة وخمسين عاماً لكي تدنو من الديمقراطية. خاصة إذا عرفنا أن أمريكا اللاتينية هي امتداد للغرب؟ كذلك يمكن طرح السؤال ذاته بشأن إسبانيا والبرتغال حتى بضعة عقود مضت على الأقل.

التغير الثقافي :

ظهر توافق في الآراء بين جميع أعضاء فريق المتحدثين والمشاركين من الحضور من أن القيم الثقافية تتغير وزن حدث التغير بطيئاً في غالبية الحالات. (تتغير المواقف والاتجاهات على نحو أسرع، وخير مثال هنا تحول إسبانيا من حكم تسلطي إلى مواقف ليبرالية). وثمة قضايا خلافية ثار جدل بشأنها داخل الندوة. ولعل أكثر القضايا إثارة للاختلاف تلك التي هيمنت على نقاش الجلسة الختامية: وتدور هذه القضية حول المدى الذي ينبغي أن يتدمج عنده التغير الثقافي في عملية صياغة المفاهيم والإستراتيجية والتخطيط والبرمجة من أجل التطوير السياسي والاقتصادي. وتبلغ الخلافات بشأن هذه القضية لزوجتها عندما تأتي المبادرة لإحداث مثل هذه التغيرات من الغرب على نحو ما كان الحال بالنسبة لهذه الندوة.

وجدير بالذكر أن علماء الأنثروبولوجيا ظلوا يعملون في مؤسسات التنمية والتطوير مثل البنك الدولي وبرنامج الولايات المتحدة للمساعدات الإنمائية USAID على مدى أكثر من عقدين ، بيد أن جهودهم في الغالب الأعم من الحالات استهدفت تعريف صناع القرار بالحقائق الثقافية التي ينبغي أن تتجلى في عمليات رسم السياسات والبرامج وكذا عند تنفيذها ، وكان لابد من تدخلات قليلة ومحدودة عمداً بهدف تعزيز التغيير الثقافي. وبدت في الحقيقة فكرة دعم التغيير الثقافي بمثابة نوع من التابو أو المحارم الاجتماعية.

وثمة تابو آخر مماثل موجود في الولايات المتحدة خاص بالتفسيرات الثقافية لتدني إنجازات الجماعات العرقية. وعرض لهذه القضية في وضعها المحلي ريتشارد لام رئيس فريق المتحدثين عن موضوع الثقافة والأقليات الأمريكية. وكان المدخل لذلك سؤاله التالي: الملاحظ أن النصف تقريباً من الطلاب الهسبانيين في المدارس العليا في كولورادو، وكذا في غالبية الولايات الأخرى في الغرب، لا يكملون مراحل دراستهم، إلى أي مدى يمكن أو يتعين على ولاية كولورادو بحث العوامل الثقافية؟

ولو أن ريتشارد استرادا استطاع المشاركة في النقوة، لأبدى يقيناً عن أسباب قلق مماثلة. إذ كان عضواً في لجنة الولايات المتحدة لشئون الهجرة، والتي ترأسها باربارا جوردان. وسبق أن أوصت هذه اللجنة بإجراء تخفيضات كبيرة في أعداد المهاجرين ، وكان استرادا قلقاً بوجه خاص من أن الهجرة الواسعة من أمريكا اللاتينية تعوق بوتقة الصهر من أن تحقق النتائج المرجوة منها.

ويشير ناغان جليزر إلى أن أحد أسباب النفور من التصدي لموضوع الثقافة هو أنه يمس أعصاباً شديدة الحساسية، وهي الأعصاب القومية والعرقية والتقدير الشخصي للذات. ويتجلى هذا عند الحديث عن فكرة تقضي بأن بعض الثقافات خير من بعضها الآخر، على الأقل من حيث إنها تسهم أكثر في دعم وتعزيز الرقاد البشري. ويشير جليزر ضمناً إلى أن المخاطر الناجمة عن تأكيد التفسيرات الثقافية، على الأقل داخل الولايات المتحدة، قد تكون أكثر من المكاسب. ويظهر هذا واضحاً بخاصة حين تزرع بوتقة الصهر إلى الغض من قدر الفوارق الأولية. بيد أن السؤال الذي طرحه ريتشارد لام يدعوه إلى أن يشمل

والقى الجدل الدائر بين لام وجليزير الأضواء على مصالحه إلى أين تمضي النبوءة - أو كيف يمكن متابعتها. فإذا ما كانت بعض القيم الثقافية عقبات أساسية للتقدم - وإذا ما ساعدت على تفسير ضراوة وتجذر مشكلة الفقر والظلم في أنحاء كثيرة من العالم - إذن لا بد من تعديل عن تعزيز ودعم عملية التغيير الثقافي. ومن ثم لا حاجة بنا إلى، أو يتعين علينا ألا نعتبر المسألة أمراً فرضه الغرب قسراً. وجدير بالذكر أن دانييل إيتونجا - مانجويل ومارياتو جرونديانا وكارلوس أبرتو مونساز ليسوا هم الوحيديين من أبناء أفريقيا وأمريكا اللاتينية الذين خلصوا إلى نتيجة مؤداها أن الثقافة عامل مهم. حقاً ثمة كثيرون من مشارب مختلفة، على الأقل في أمريكا اللاتينية، اتفها إلى أن التغيير الثقافي أمر لا غنى عنه، وشرعوا في اتخاذ خطوات في سبيل دعم هذا التغيير. في المدارس وفي دور العبادة وفي أماكن العمل وفي السياسة. ويحاول هؤلاء جاهدين أن يفهموا على نحو أفضل ما هي الأسباب الكامنة في ثقافتهم والتي تعترض طريق إنجاز طموحاتهم وتطلعاتهم نحو خلق حياة كريمة أكثر عدلاً ورخاء ووفاء لأماني الناس. وكذلك فهم ما الذي يمكن عمله لدعم وتعزيز التغيير.

وكتب أورلاندو باترسون في "صحفة التكافل" أن "الثقافة يجب أن تتضمن الإيجابيات ونحن بسبيل بحثنا عن تفسير لهوة المهارات، وهوة الكفاءات، وهوة الأجور، وكذا الهاوية الاجتماعية المرضية التي سقط فيها ملايين الأمريكيين الأفارقة"^(١٣). ويشير في كل من هذا الكتاب وكتابته الآخر الكمل له والصادر تحت عنوان "شعائر الدم نتائج العبودية في قرنين أمريكيين"، إلى أن تجربة العبودية هي جذر المشكلة الثقافية:

العبودية التي رسمت في قلوبها الأمريكيون الأفارقة ثلثي حياتهم في هذا البلد كانت مؤسسة استغلالية خبيثة أعاقت بضراوة الأمريكيين الأفارقة خاصة من حيث إنها قوضت مؤسسات اجتماعية حيوية مثل الأسرة والعلاقات المادية. وأدت إلى استبعاد الأمريكيين الأفارقة من المنطلقات الاجتماعية ذات السيادة. وأنكرت عليهم، خلال ذلك، الفرصة لتعلم أنماط السلوك الأساسية للبقاء في المجتمع الصناعي الواسع"^(١٤).

هل يمكن لمجلات المنحده أن سجاهل الثقافة وهى تحاول التماس حلول لمدى
إبحازات السود والهسائير؟

ثمة قضية أخرى برزت على السطح أثناء الجلسة الختامية، وتتعلق بالمدى الذى
توجد عنده كليات ثقافية - قيم عاملة ومنتجة أو غير عاملة فى أى وضع جغرافى أو
سياسى أو عرقى وعارض العديد من المشاركين نهج تصفوق أسود أو فائسة
غسبلاً عند النظر إلى التغيير الثقافى وأثروا ما يمكن أن نسعبه النهج الإثنوجرافى .
وهذا النهج يتناول الثقافات الانفرادية مع إشارة محدودة إلى التجربة فى أماكن
أخرى. وأحسب أن ثمة أنماطاً ثقافية تتجاوز الحدود الجغرافية وتحقق نتائج متماثلة
فى مواضع شديدة الشباين مثال ذلك قيم العمل والتعليم والجدارة والادخار، وهى قيم
مشتركة فى غرب أوروبا وشمال أمريكا وأستراليا ونيوزيلاندا وشرق آسيا.

ولكن بدا واضحاً أننا لا نزال بحاجة إلى أن نعرف الكثير عن العديد من المسائل
الرئيسية إذا ما أردنا، وحسب تعبير روبرت كليتجارد، الوصول إلى نظريات ناضجة
ومبادئ توجيهية عملية وروابط مهنية وثيقة تربط بين من يدرسون الثقافة وبين من
يصوغون ويديرون سياسة التطوير

دمج تغيير القيم والاتجاهات فى عملية التطوير:

برنامج بحث نظرى وتطبيقات

التقدم البشرى منذ الحرب العالمية الثانية مخيب للامل، بل ومثير لليأس والإحباط
فيما عدا ما نلمسه لدى الآسيويين الشرقيين وسكان شبه جزيرة آيبيريا والأمريكيين
الأفارقة. وأعتقد أن أحد الأسباب الرئيسية لهذا الفصور هو فشل الحكومات
ومؤسسات التطوير، إذ لم تضع فى الاعتبار سلطان الثقافة وقدرتها على أن تعيق
أو تحفز التقدم. مثال ذلك أن الشباين الثقافى الواضح بين غرب أوروبا وأمريكا
اللاتينية هو فيما أعقد الذى يفسر ويشكل رئيسى نجاح مشروع مارشال وإخفاق
التحالف من أجل التقدم.

وكم هو عسير معالجة الثقافة سياسياً وعاطفياً معاً ، وكم هو عسير أيضاً معالجتها فكرياً، وذلك لوجود مشكلات تتعلق بالتحديد والتعريف والقياس، ولأن علاقات السبب - النتيجة بين الثقافة والتغيرات الأخرى مثل السياسات والتطوير الاقتصادي صائقة في كلا الاتجاهين

وظهر في النوبة توافق موضوعي في الأراء يفيد بضرورة توفر برنامج بحث نظري ونصفي شامل، وذلك بهدف دمج عملية تغيير القيم والاتجاهات في سياسات التطوير والتخطيط والبرمجة في بلدان العالم الثالث وبرامج مناهضة الفقر في الولايات المتحدة. وسوف تمثل محصلة البحث في تشكيل مبادئ توجيهية لتغيير القيم والاتجاهات بما في ذلك المبادرات العملية لدعم وتعزيز القيم والاتجاهات التقدمية.

وتتضمن خطة البحث ستة عناصر أساسية

١ - دراسة أنماط القيم/الاتجاهات، والأهداف هي: (أ) تحديد القيم والاتجاهات التي نعرز التقدم، بما في ذلك تقييم الأولوية بشأن كل منها، وكذا القيم والاتجاهات التي تعوق التقدم. (ب) تحديد ما هي القيم/الاتجاهات التي تؤثر إيجاباً وسلباً في إنشاء وتطوير مؤسسات سياسية ديمقراطية، وفي التطوير الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. ونحدد مراتب كل منها.

٢ - العلاقة بين الثقافة والتطوير، والأهداف هي: (أ) استحداث فهم عملي مفيد للقوى والعوامل غير المتلائمة مع التطوير. (ب) تتبع تأثير القيم والاتجاهات التقليدية عندما يتحقق التطوير كنتيجة لهذه القوى/العوامل. (ج) التصدي لمسألة ما إذا كان بالإمكان دعم المؤسسات الديمقراطية، وما إذا كان بالإمكان استدامة التطوير الاقتصادي والعدالة الاجتماعية في حالة عدم إحداث تغيير جوهري في القيم والاتجاهات التقليدية.

٣ - العلاقات بين القيم/الاتجاهات والسياسات والمؤسسات، والأهداف هي: (أ) تقييم مدى الذي يمكن أن تعكس فيه السياسات والمؤسسات القيم والاتجاهات على

نحو ما أكد نوكفيل وناسيل إينونغا - مانجوبول (ب) أن نعلم على نحو أفضل ما الذي يمكن أن يحدث حتى لا تكون القيم والامتيازات غير متساوية ولا متلائمة مع السياسات والمؤسسات (ج) تحديد إلى أي درجة يمكن للسياسات والمؤسسات أن تغير القيم والاتجاهات.

٤ - النقل الثقافي والهدف هو الوصول إلى فهم للعوامل الرئيسية في نقل القيم/الاتجاهات. مثال ذلك ممارسات نشئة ورعاية الطفل، وكذا المدارس، ونور العبادة والإعلام والأقران وأماكن العمل والتحويلات الاجتماعية من المهاجرين إلى بلادهم الأصلية. ونحن بحاجة إلى أن نعرف (أ) أي هذه العوامل هي الاغوى السوم بوجه عام وكذلك حسب المناطق الجغرافية والثقافية المختلفة في العالم. (ب) كيف يمكن لكل منها أن يسهم في التغيير المطرد والمركب للقيم والاتجاهات. (ج) ما هو النوع الذي يمكن للحكومات أن تقوم به فيما يختص بتغيير القيم والاتجاهات.

٥ - قياس القيم/الاتجاهات: والهدف هو توسيع المدى الذي يمكن أن يصل إليه المنظومة الدولية لقياس تغير القيم والاتجاهات. ودمج هذا في نتائج البحث رغم أن سابق الذكر. وسوف يتضمن هذا (أ) تحديد الأنواع الراهنة لقياس القيم والاتجاهات. (مثال المسح الاستقصائي للقيم في العالم). (ب) تعديل وتشكيل هذه الأنواع لتدعم مبادرات تغيير القيم والاتجاهات.

٦ - تقييم مبادرات التغيير الثقافي المطبقة عملياً. إذ يوجد في أمريكا اللاتينية على الأقل عدد من مبادرات التغيير الثقافي محلية النشأة وجاري تطبيقها، نذكر منها كمثال معهد التنمية البشرية في بيرو والذي ينهض بإنجاز الوصايا العشر للتطوير في المنظومات الدراسية في عديد من بلدان أمريكا اللاتينية وثمة مبادرات أخرى منها كمثال برامج سند الملكية. وهذه قد تحقق نتائج مهمة في مجال التغيير الثقافي وإن لم يكن هذا هدفها. ويلزم تقييم هذه المبادرات. كما يتعين صوغ نتائجها على صورة مبادئ توجيهية تسترشد بها الحكومات ومؤسسات التطوير.

وغير بالذکر أن الحكومات وهيئات المساعدة أغفلت إلى حد كبير دور القيم والاتجاهات الثقافية من حيث هي عوامل إعاقة أو تيسير للتقدم. لذلك نعتقد أن دمج

عملية تخبير العيون والاتجاهات الثقافية في أساس المطور والنخبط والرمح ،
سيكون طريقة واعد لهكن يدخل العالم على مدى الخمسين عامًا القادمة من العفر
والظلم اللذين تعاني منهما غالبية البلدان الفقيرة والجماعات العرقية ذات الإنتاجية
المتدنية ، وهذا يحقق الحلم الذي باع خيال البشرية خلال النصف قرن الماضي .

الباب الأول

الثقافة والتطوير الاقتصادي

(1)

الثقافة وحدها تقريبا سبب كل الاختلافات

دافيد لانديس

كان ماكس فيبر على صواب . وإذا كان لنا أن نتعلم شيئا من تاريخ التطور الاقتصادي، فهو أن الثقافة وحدها تقريبا سبب جميع الاختلافات . لنشاهد مشروعات أعمال الأقليات المهاجرة - الصينيون في شرق وجنوب شرق آسيا، والهنود في شرق أفريقيا، واللبنانيون في غرب أفريقيا، واليهود والكالفينيون في غالبية أنحاء أوروبا، وغيرهم وغيرهم . ومع ذلك فإن الثقافة بمعنى القيم والاتجاهات الباطنية التي توجه الناس، تثير مخاوف الباحثين، ذلك لأنها توشى بمعنى العنصر والإرث، وهو معنى يفيد الثبات وعدم القابلية للتغيير . ولكن في لحظات التأمل العميق والجاد يعترف الاقتصاديون وغيرهم من علماء الاجتماع بأن هذا غير صحيح، بل يرحبون بالعديد من الأمثلة عن التغيير الثقافي نحو الأفضل، وإن أدانوا مظاهر التغيير نحو الأسوأ . بيد أن الإشادة أو الإدانة تفيد ضمنا سلبية المشاهد - أي العجز عن استخدام المعرفة لصوغ الناس والأشياء - وحرى بالفنى الممارس أن يغير معدلات الفائدة والصرف ويحرر التجارة ويغير المؤسسات السياسية، أى أن يدير ويدير الشؤون، علاوة على هذا . فإن انتقاد الثقافة يمس الأنا ويجرح الهوية والتقييم الذاتى؛ ولكن حين تأتى هذه الانتقادات على لسان غرباء، ومهما بدت مهذبة وغير مباشرة تفوح منها رائحة التعالى ، ولقد تعلم دعاة التحسين من أصحاب النوايا الطيبة أن يحسنوا توجيه الدقة فى وضوح .

ولكن إذا كان للثقافة مثل هذا التأثير الكبير، فلماذا لا يكون ماثراً متسفاً؟ ليس الاقتصاديون وحدهم هم من يسألون لماذا بعض الناس - الصينيون مثلاً - ظلوا زمناً طويلاً داخل أوطانهم غير متنجين، ولكنهم أصحاب مشروعات ناجحة في الخارج. وإذا كانت الثقافة هي العامل المؤثر، فلماذا لم تغير الصين؟ (حري أن نلاحظ أنه مع السياسات الجديدة التي تشجع الآن التطوير الاقتصادي ولا تقمعه بدأ اختلال الصورة يختلف بين أداء الصينيين في الداخل وفي الخارج، ذلك أن الصين تدعم وتؤكد معدلات النمو المذهلة التي حققتها بالتفوق الكونغوشيويسي من العالم الثالث إلى العالم الأول).

وثمة صديق اقتصادي بارع في علاج أنواع الاقتصاد السياسي حل المفارقة السابقة التي تبدو عتيقة بالية الآن، وذلك بأن فنكر أي علاقة لها بالثقافة. ويقول الثقافة لا تسمح له بالتنيق بالنتائج. وأنا أضف معه: إذ كان بالإمكان التنيق بالنتائج الاقتصادية الذي حققته اليابان وألمانيا بعد الحرب إذا ما وضعنا الثقافة في الحسبان. ويصدق الشيء ذاته بالنسبة لكوريا الجنوبية مقابل تركيا، وأندونيسيا مقابل نيجيريا.

والثقافة من ناحية أخرى، ليست وحدها ولكن التحليل الاقتصادي يؤثر التسليم بوجه يفيد بأن سبباً واحداً مقبولاً يكفي، غير أن محددات العمليات المركبة هي دائماً متعددة ومتداخلة. ونعرف أن التفسيرات التي تقنع بعلّة واحدة لا تفيد شيئاً. وإن ذات القيم التي تعارضها حكومة سيئة في داخل البلاد ربما تجد فرصة لها في مكان آخر، كما هو الحال في الصين. ومن هنا يظهر النجاح المميز لمشروعات أعمال المهاجرين. وشاعت لدى اليونانيين القدماء كلمة مأثورة في هذا الشأن. وهي *metec*، وتعنى الغرباء المقبضين، ولتقصود أنهم خميرة المجتمعات التي تهزأ بالمال والصناعات (ومن هنا جاء المعنى الاستهجائي من كلمة يونانية قديمة تشير إلى الصانع الحرفي أو البليد أو المساء). وهكذا وجد الغرباء فرصتهم للحصول على السلع وببعضها وجنى الأرباح واكتساب المال.

و نظرا لارتباط الثقافة بالاداء الاقتصادي فإن المعبر الذي نطلقه على أيهما يؤثر في الآخر ففي نايلا ند اعاد جميع السنة الاقتصادية كما اننا نؤمن ان بعضا سنوات نعمة سنة في الأديرة البوذية. ويرى أن هذه الفترة من العصر، وهي فترة الصبح، تعود الروح والنفس ويتلائم هذا مع الخطى الوئيد السراحي للنشاط الاقتصادي التقليدي ولإعادة التقليدية. كان هذا في الماضي، أما اليوم عبر نايلا ند مسرع الذنوب والتجارة أخذت في الازدهار، والنشاط النجاري والصناعي جازب للاهتمام، ونتيجة لذلك يقع التسباب بوضع أهداف للممارسات الروحية وهذه فترة كافية لتعلم بعض الصلوات والشعائر دونون بعدها إلى العالم الواقعي المادي. إن الوقت، والذي نعرفه الجتمع أنه من ذهب، قد تغير من حيث القيمة السببية. وليس بالإمكان فرض هذا التعبير هــرا- أي عن طريق ثورة، إذ وفق النايلا نديون أولوياتهم طوعا واخيارا. (جدير بالملاحظة على نحو عابر أن الأقلية الصينية هي التي قامت التغيير⁽¹⁾).

توضح لنا قصة نايلا ند استجابة الثقافة للنمو الاقتصادي والفرص المتاحة. ولكن التقيض ممكن أيضا - إذ يمكن أن تتحرك الثقافة ضد مشروعات الأعمال. ومثالنا هنا حالة روسيا، التي عاشت خمس وسبعين عاما دلتنة بموقف معارض للسوق وفكر معارض لاربع مع الامتيازات لأصحاب السلطان. وأدى كل هذا إلى غرس وتجميد المواقف المناهضة لمشروعات الأعمال والملاحظ أنه حتى بعد سقوط النظام ظل الناس يخشون من تقلبات السوق وما يكتنفها من شكوك، ويتطلعون للوظائف الحكومية الآمنة. أو لنقل إنهم يتطلعون إلى المساواة في الفقر، وهذه قسمة مشتركة بين الثقافات الزراعية في العالم ونقول نكتة روسية إن الفلاح إيفان يحسد جاره بوريس على العنزة التي يملكها. وظهرت جنية أعام إيفان وسألته أن يطلب منها شيئا واحدا وسوف تلبي رغبته. ترى ماذا تمنى؟ نمنى أن تموت عنزة بوريس التي يصبده عليها.

(1) نذكر هنا أيضا أنه مع بداية التحول السامي في أوروبا ونشاط حركة المال، اسهر اليهود الفرصة وعملوا صياغة وحققوا أرباحا طائلة. ورفض المسيحيون هذا العمل بحجة أن الربن بحرم الربا ونظرا لاستئثار اليهود بالسوق وحركة المال، بدأت تظهر الحركة البروسانية، التي تؤكد قيمة العمل الجسد في المال، وصدرت الفة، اوبى بتقبل العمل المصرفي، ومن هنا كانت البروسانسة قاندة التحرر الويني ورفع حركة التصنيع ومشروعات الأعمال المعتمدة على العمل المصرفي (المترجم)

ولكن لحسن الحظ أن ليس جميع الروس يفكرون بهذه الطريقة. إن سقوط القيود والمحرمات الماركسية أدت إلى دفعة هائلة في مجال نشاط الأعمال، ويرتبط أفضلها بصفتها داخلية. حقا إن بعض نشاط إجرامي، ولكن الأكثرية من عمل أقلية غير روسية (أرمنيون وجورجيين وغيرهم) الضميرة موجودة، وغالبا ما يكفي هذا المبادرة بمشروع أعمال وهذا غارق محدود. ومع الوقت تظل العادات القديمة مترسية، وبسنشري الفساد وانجريمة - وتندفع حرب ثورية - ونتمحور الانتخابات حول هذه القضايا - والنتيجة غير مؤكدة.

نظرية التبعية : الأرجنتين ومسوخ فرناندو هنريك كارديسو

تمثل نظرية التبعية البديل المربح عن التفسيرات الثقافية لتخلف. والمعروف أن الباحثين في أمريكا اللاتينية هم وأنصارهم في الخارج عمدوا إلى تفسير فشل التطوير في أمريكا اللاتينية، والذي يبدو في أسوأ صورة عند مقارنته بشمال أمريكا، إنما هو نتيجة الأعمال الإجرامية التي ارتكبتها البلدان الأقوى والأغنى - وجرى أن تلحق فن قلبية أمة لحياة التبعية إنما تعني حالة من البونية تعجز فيها الأمة عن التحكم في مصيرها، حيث تعمل ما يملئ عبها الآخرون وينتهي أن هؤلاء الآخريين يستغلون تفوقهم لنقل منتج الاقتصادات التابعة بناء على نحو ما كان يفعل المستعمرون في السابق ومن ثم. فإن أطراف الفرق على الإمبراطورية يفضى إلى إطار التدفق وتعاضم الإمبريالية الرأسعالية.

ولكن خيار مشاركة الأهم ذات السيادة خيار يستلزم قروضا واستثمارات. ولا يمثل النهب في حد ذاته لختيارا. وهذا هو حال الأرجنتين التي ابتخرت القليل وعدت إلى جلب رأس المال الأجنبي أكثر فتكأر (والصمم الرئيسي لنظرية التبعية هو الاقتصادي الأرجنتيني راؤول بريش). ويذهب بعض الاقتصاديين في معارضتهم إلى فن رأس المال الأجنبي يصغر بالنمو ويذهب آخرون إلى أنه مفيد ولكن على نحو أقل مما يفيد الاستثمار المحلي ولكن من الواضح أن الجانب الأكبر رهن الاستخدمات وليس هناك، في الوقت ذاته، من هو على استعداد لرفض المال الأجنبي بسبب

الكفاية. ولهذا يطلبه السياسيون، وهم على استعداد لأن يجعلوا أصحاب نظرية التبعية يتركون أبادهم حمررة

إن الأرجنتين بها بعض الأغنياء شديدي الثراء، ولكن لأسباب غير واضحة . ظلت داهمة تابعة لرأس المال ترقو بأبصارها إلى الأعم التي تقرضها وتتبع في هذا أساليب من شأنها أن تعرض للشبهات ويشكل خطير قدرة البلد على إدارة شئونها⁽¹⁾. نعرف أن البريطانيين أنشأوا خطوط السكك الحديدية في الأرجنتين - أقل من ١٠,٠٠٠ كم عام ١٨٧٦، وأكثر من ١٢,٠٠٠ كم بعد عقدين - ولكنهم أنتشؤف لأغراض بريطانية. ولكن كيف يمكن لبلد أن ينشئ مثل هذه الشبكة دون تشجيع ورعاية الأسواق المحلية؟ وإذا لم يحدث، فالخطأ خطأ من؟ ما معنى هذا وما دلالاته بالنسبة لروح مشروعات الأعمال المحببة داخل البلاد؟ إن غالبية الأرجنتيين لم يسألوا أنفسهم هذه الأسئلة، إذ كان يسيرا دائما إلقاء اللوم على الأخر. والنتيجة مشاعر العداة ضد الأجنبي باسم معاداة الإمبريالية، وشعور بالخطأ يتطوى على هزيمة ذاتية.

وحدث في القرن التاسع عشر أن أبدى جوان بوتسنا البري، وهو أرجنتيني عسير، قلقه إزاء روح مشروعات الأعمال الوضنية. وكتب عام ١٨٥٢ كلمات استيق بها ما قاله ماكس فيبر بعد خمسين عاما، إذ كتب ما يلي:

لنحترم العقائد جميعها، إن أمريكا الإسبانية القاصرة على الكاثوليكية مع استبعاد أية عقيدة دينية أخرى، إنما هي أشبه بنجر منوحد جنات للرهبان ... إن استبعاد الديانات الأخرى في أمريكا الجنوبية يعني أن نستبعد الإنجليز والألمان والسويسريين والأمريكيين الشماليين، معنى هذا أننا نستبعد الناس أنفسهم الذين تحتاج إليهم القارة أشد الاحتياج. أما أن ندعوهم ليحضروا بدون عقائدهم فيعنى هذا أن يحضروا بدون العامل الفعال الذي جعل منهم ما هم عليه⁽²⁾.

وعزا البعض انخفاض معدل الادخار في الأرجنتين إلى النمو التستكاسي السريع،
 مرتين معدلات الهجرة المرتفعة - ونود من أضرب إلى هذا العادات لتسبب في
 الاستهلاك الفاسح والملاحظ في جميع الأحوال أن تدفقات رأس المال الأجنبي معتمد
 إلى حد كبير على ظروف العرض في الخارج، أي على الفرص المتاحة في الأرجنتين
 فقد كان البريطانيون أثناء الحرب العالمية الأولى بحاجة إلى المال، واضطروا إلى
 سبيل أصول أجنبية. وعلى الرغم من أنها ظلت أكبر بائع للأرجنتين، إلا أنها لم تعد
 كما كانت في العقود الأولى صاحبة الدور الرئيسي للنهوض بعملية التنمية والتغطيت
 الولايات المتحدة بعض الفصائل، ولكن السياسة ودوره مشروعات الأعمال. حدثت هنا
 المدي، ولهذا وجدت الأرجنتين نفسها في حالة عسر وشدة منقطعة. ولكنها متواتره
 سواء من حيث كم وشيوع الاستعمار والتقويض من الخارج وفقد هذا الوضع من
 مظاهر النزاع مع فلاتين والذى أدى بدوره إلى رد فعل تمثل في ظهور نزعة إلى
 الانعزال - وانحدت بتأثير فرض المريد من تعجيد ثم يكن لها من أثر سوى تقاع
 الأزمة والتبعية. والملاحظ أنه حين شجب الاقتصاديين والسياسيون في الأرجنتين هذه
 الظروف، واستنكروا جرائم - إافية أو متحيلة - المصالح الأجنبية، ثم يفعلوا شيئا
 سوى المزيد من تعفند المشكلة والتسيء المؤكد ان الانفصام المنفرد على ذاته - وهو
 الوصفة المنطقية لأصحاب نظرية التبعية - إنما ساعد في حماية الاقتصاد الأرجنتيني
 وكذا اقتصادات أمريكا الجنوبية من أسوأ الآثار المنفرة على فترة الكساد العظيم
 وهذه هي طبيعة الاقتصادات المتعلقة على نفسها بيد أنها أيضا تنأى بهم أو تعزلهم
 عن المنافسة وعن عوامل الحفز وفرص النمو.

وإدهوت حجج دعاة نظرية التبعية في أمريكا اللاتينية، وراجت في جميع
 الأنحاء، وتردد صداها على نطاق واسع عقب الحرب العالمية الثانية مع الأزمة
 الاقتصادية والوعى السياسي بالاستعمارات المتحررة حديثا. وقد يقول المرءون إن
 مذاهب التبعية هي أنجح صادرات أمريكا اللاتينية، بيد أنها أضرت بالجهود
 وبالعنويات. إنما إذ نفرس نزع مرضية بأن تلتبس الخطأ لدى أي إنسان آخر دوننا
 نحن، إنما تدعم حالة العقم الاقتصادي. وحتى إذا صح هذا، فلعل كان من الأفضل
 الكف عنها.

ويسر في الحقيقة أن هذا ما فعله أمريكا اللاتينية، فما نحن نرى اليوم جميع إداران، نصف الكرة العربية، بما فيها كويبا، نرحب بالاستثمار الأجنبي، وكما أنت الأرجنتين رائدة لهذا التحول، والملاحظ أن نزعة مركزية الدولة، وهي النزعة التي نسجت بها نظرية التبعية، تفككت وحلت محلها عمليات الخصخصة. وما هي المكسيك التي كانت يوما أهم معقل لنظرية التبعية، استحدثت توافقا في الأراء على نطاق قومي واسع نزعنا إليه اتفاقية نافتا، وعرفت المكسيك أن ارتباطها الوثيق بالولايات المتحدة وكندا يخدم مصالحها على نحو أفضل، لقد عُزل الصل إلى داخل فم الأسد، ونحن أنه ربح الصدام

وقل فرناندو هنريك كاربوسو، لسنوات، تخصصية رائدة لمدرسة التبعية في أمريكا اللاتينية. وفي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ألف كاربوسو وحرر قرابة عشرين كتابا في الموضوع. وأصبحت بعض هذه الكتب خصوصا معيارية صاغت عقول جيل من الطلاب. ولعل أشهر هذه الكتب التبعية والتنمية في أمريكا اللاتينية، واختتم النسخة الإنجليزية معقودة طنانة الصدى أكثر منها مثيرة

الممركة الحقيقية بين النزعة التخبوية التكنوقراطية

وتصور العملية التكوينية لمجتمع سناعي للإنتاج الكبير يعكس أن يقدم ما هو مطلوب من الناس كإنتاج وطني خاص، وينجح في تمويل الطلب على مجتمع أكثر تطورا ومجتمع ديمقراطي إلى بولة تعبر عن حيوية القوى الشعبية الحقيقية والقادرة على التماس أشكال اشتراكية للتنظيم الاجتماعي في المستقبل⁽⁷⁾.

ثم أصبح كاربوسو في عام ١٩٩٢ وزير المال في البرازيل. ووجد بولة غارفة تتخبط في معدل تضخم سنوي يصل إلى ٧٠٠٠ بالمائة. وأدمنت الحكومة تماما هذا المخدر النقدي، وكشف البرازيليون عن براعة في إجراءاتهم الشخصية المضادة (استخدمت سيارات الأجرة - التاكسي - عدادات يمكن تعديلها حسب مؤشر الأسعار، وربما حسب الزمن). وهكذا أصبح الاقتصاديون الجابون على أهية الاستعداد

لا تغفل حيلة المغلب هذه بحجة أن تحول المضخم إلى أمر واقع مؤلم هو نوع من الاستفزاز

ربما كان هذا منحجها بالنسبة للبرازيليين القادرين على اتخاذ تدابير حذرة ولكن التضخم أثار الخراب والقوضى، علاوة على اليبس الجولي المدينة به المبرازيل. احتاجت البلاد إلى الاستفدانة، واحتاجت أيضا إلى الاتجار والعمل مع البلدان الأخرى خاصة البلدان الرأسمالية الغنية التي وضعت في السابق بناتها العدو. وهكذا بدأ كاردوسو ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة، حتى إن المراقبين وصفوه بالبراجماتي وهكذا تلاشت انفعالات معاداة الاستعمار، وتلاشى العداء للروابط الأجنبية بكل ما انطوت عليه من أفكار عن التبعية. ويقول كاردوسو لا خيار أمام البرازيل، إذا لم تكن مهينة لأن تصحيح جزئا من الاقتصاد الكوكبي، فليس أم أمها من سبيل للمناعة ... إن الأمر ليس فرضا قسريا من خارج، بل هو ضرورة لنا ومن أجلنا⁽¹⁾

كل زمان له فضائله. وحدث أن انتخب كاردوسو بعد عامين رئيسا للدولة بانسوات انقلابية الساحقة، ذلك لأنه هو الذي منح البرازيل أولى عملة قوية لها عند سنوات طويلة.

نهضة اليابان في عصر الميجي: الموقف المتوازن مع نظرية التبعية

لاحظ برنارد لويس ذات يوم أنه حين يتحقق اناس من أن الأمور تسير في اتجاهه خاض، فإنهم يسألون أحد سؤالين الأول: "ما الخطأ الذي ارتكبناه؟" والثاني: "من فعل هذا بنا؟". السؤال الثاني يقود إلى نظريات المؤامرة والبارانويا أو مشاعر العظمة قريفة الاضطهاد، ويفضي السؤال الأول إلى مسار آخر عقاير في التفكير. كيف نصحح الوضع؟⁽²⁾ وللملاحظ خلال النصف الثاني من القرن العشرين أن بلدان أمريكا اللاتينية اختارت نظريات المؤامرة ومشاعر البارنويا هذا بينما سلكت اليابان نفسها في النصف الثاني من القرن العشرين. كيف لنا أن نصحح الوضع؟

شهدت اليابان ثورة خلال العنصر ١٨٦٧ - ١٨٦٨ أطاحت الثورة بنظام حكم شويجان الإقطاعي - الذي كان قد نهاوى في حقبة الأمر. واستعاد الإمبراطور سيطرته على البولة في كيوتو. وهكذا انتهى قرنان ونصف في ظل حكم السوكوجاوا بيد أن اليابانيين سموا هذه العودة إحياء. لا ثورة، ذلك لأنهم يفضلون أن يروا الحدث وكأنه عودة إلى الوضع الطبيعي. وشهدت الصين أيضا ثورات، وإنه عرف أن نظام لتحكم في الصين نظام أسرات - بينما اليابان لها أسرة ملكية واحدة يمتد تاريخها إلى البدايات الأولى.

وكانت رموز الوحدة القومية متوفرة، كذلك المثل العليا للكبرياء الوطني محددة من قبل وأقاد هذا في إنقاذ البلاد من فوضى الاضطرابات. ذلك لأن الثورات. شأن الحروب الأهلية، يمكن أن تدمر وتخرب النظام والفعالية الوطنية وعرف الإحياء في عصر الميجي خلافاً ومنشقين، قرين مظاهر عتف في أغلب الأحيان ولهذا فإن السنوات الأخيرة من النظام القديم والأولى من النظام الجديد لمختها اغتيالات، دموية، وعانت من هبات فلاحين وتمرد قوى رجعية ومع هذا، تميزت عملية الانتقال في اليابان بقدر من السلاسة تتجاوز ما حدث في فرنسا والروسيا عن انقلابات ويرجع هذا إلى سببين: حرص النظام الجديد على الحفاظ على الروح المعنوية عالية، كما أن الساخطين والمستائين خشوا أن يكون موقفهم سلباً وفرصة للعدو الخارجي وترمست باليابان قوى الإمبريالية الأجنبية على استعداد لأن ننقص وننتظر الانقسامات الداخلية كي تدعوها إلى التدخل، ولنتأمل قصة الإمبريالية في مواقع أخرى: عمدت النزاع والمكائد المحلية إلى دعوة القوى الأوروبية لدخول الهند، وسرعان بعد ذلك ما أخضعت الصين.

وجدير بالذكر أن مجرد وجود الأوروبيين في مجتمع لم يسمح للغريب بالبقاء فيه عن شأنه أن يشبر المشكلات. وحدث أكثر من مرة أن تحدى اليابانيون من الشيب الأشداء وهاجموا هؤلاء الأجانب الوثقا، لكي يؤكدوا أنهم السادة من هو السيد كان كل ما فعله السلطات اليابانية في مواجهة المطالبات الغربية بتوقيع العقوبة وتوفير الأمن فن تسوَّف وتطيل الصوار، وتشكك فيهم في نظر الأجنبي والمواطن عنى السواء.

لقد كانت ذرات الغرياء جوهر الموضوع. وساد شعار بليغ المجد للإمبراطور، والطرد للبرابرة. واتحد آنذاك ضد الشوجونات قيادة حركة التغيير، لوردات الإقطاعيات الكبرى في الغرب وأقصى الجنوب بعد أن كانوا يوما هم الأعداء، وربحوا وخسروا. وهذه إحدى المفارقات الأخرى لهذا الإحياء - الثورة. ظن القادة أنهم عائدون إلى الأيام الخوالي، ولكنهم بدلا من ذلك، وجدوا أنفسهم أسرى الغد، داخل موجة تحديث لأن التحديث هو السبيل الوحيد لهزيمة البرابرة. أنتم أيها الغربيون تملكون البنادق، فيكنز، ولكننا ستملكها منكم أيضا يوما ما

واتجه اليابانيون على طريق التحديث بخطو كثيف متسق، كانوا مهيين لذلك - بفضل تقاليد (ذكريات) الحكم الكفؤ الفعال، ومستوى التعلم المرتفع، وإحساسهم بالذاتية القومية، وشعور بالتفوق يملا وجدانهم.

هكذا كان الجوهر واللب عرف اليابانيون أنهم أهل تفوق، واستطاعوا، بفضل معرفتهم هذه، أن يعترفوا بأسباب تفوق الآخرين. وشرعوا في البناء تسييسا على القديم الذي تحقّق في عصر النوكوجاوا. واستأجروا خبراء وتقنيين أجانب بينما بعثوا العناصر اليابانية للقاعة في بعثات إلى الخارج ليجملوا معهم وهم عائدون مشاهداتهم التي تنقل وسائل الأوروبيين والأمريكيين. وأرسى هذا الجمع من أهل الخبرة والذكاء أسس وقواعد الاختيار على نحو يتجلى فيه الفرص والخطر مع اعتمادات مرنة لتمرّيا المقارنة. واتخذوا أول الأمر من الجيش الفرنسي نموذجا عسكريا لهم. ولكن بعد هزيمة فرنسا على أيدي بروسيا في ١٨٧٠ - ١٨٧١، قرر اليابانيون أن ألمانيا لديها الكثير الذي تقدمه، وحدث تحول معادل من القوانين والتشريعات وتمرّيات الفرنسية إلى الألمانية.

لم تجدد اليابان أية فرصة للتعلم. ففي أكتوبر/تشرين أول من عام ١٨٧١ سافر وفد ياباني على مستوى عالٍ ضم أوكوبو تومسي ميشي إلى الولايات المتحدة وأوروبا، حيث زاروا المصانع وأحواض السفن ومصانع الأسلحة، وشاهدوا ودرسوا اسكك الحديدية وتقنيات الملاحة. وعاد الوفد إلى اليابان في سبتمبر/أيلول عام ١٨٧٢، في بعد عامين، محملا بغنائم للتعلم وهو يشتعل حماسة من أجل الإصلاح^(١).

إن هذه الخبرة المباشرة التي حظيت بها القيادة اليابانية هي سر كل مطامح الاختلاف. وحين استغل أوكوبو فطاراً إنجليزياً أسراً في نفسه أنه كان نظراً قبل مغادرة اليابان أن مهمته انتهت استعادت اليابان السلطة الإمبراطورية، وأدوات حكم الإقطاع بنظام حكم مركزي. ولكنه فهم الآن أن المهام الجسام لا تزال قائمة، فالإيابان لا تزال دون مستوى المقارنة بالقوى الأكثر تقدماً في العالم. وأعطتها إيجاباً بوجه خاص درساً في التطور الذاتي ذلك أن إنظترا كانت يوماً جزيرة - أمة - عال، اليابان، ولكنها طاعت بدأب والطراد سياسة تعظيم الذات. وكانت قوانين الملاحة عاملاً حاسماً في الارتقاء بمستوى الملاحة البحرية التجارية والوطنية إلى وضع الهمينة الدولية. ولم تتخل بريطانيا عن حماية نظام حرية العمل إلا بعد أن آلت إليها القيادة الصناعية. (وليس هذا يتحليل سعي، إذ كان بالإمكان أن يوافق عليه آدم سميث)

والشيء - البقيني أنه لم يكن بإمكان اليابان أن تطبق نظام الرسوم انجمركة والاستقلال الذاتي الذي طبقه إنجلترا في القرن ١٧. وهذا أفاد كثيراً المثال الألماني. ذلك أن ألمانيا، شأنه شأن فرنسا، توجت كلمة منذ فترة قريبة جداً وكانت عملية التوحيد دونها مشاق. كذلك بدأت ألمانيا، شأن اليابان. من وضع اقتصادي متدن، ولكنها قطعت شوطاً بعيداً. وتأثر أوكوبو كثيراً بسن قائلهم من أبناء الشعب الألماني لس فيهم نزوعاً للاقتصاد والعمل الشاق الجاد بوز نظام أو «دعم». ورأى أنهم مثلهم مثل عامة اليابانيين، ووجد قادتهم يتصفون سالفاتعة والبرجمانية. أي عطين يقولون لتضع نصب عينيك بناء قوة وطنية. كانوا هم محثي النزعة المبركانتلية^{١٤} في القرن التاسع عشر. وعاد أوكوبو وأضفى على البيروقراطية اليابانية توجهاً ألمانيا

وبدأت الحكومة بالمهام التالية. خدمات البريد، نظام توقيت جديد، نظام للتعليم العام (بدأ بالبنين أولاً ثم البنات)، ونظام خدمة عسكرية عامة للجميع، وأفاد نظام التعليم العام في نشر المعرفة، فهذا هو نور المدارس ومظاهر الأمل منها ولكن التعليم

(١٤) المبركانتلية mercantilism نظرية أو نظام اقتصادي سياسي ساد في أوروبا عقب انهيار الإقطاع. ويقوم على سياسات قومية تتراكم الثروة والذهب وإقامة أسطول بحري للتوسع التجاري عبر البحار ومناطق نفوذ، مع تطوير الصناعة واستخدام لعائن ضماناً ليراز تجاري مريح (الترجمة)

العام أفرز أيضا نظاما وانضماها وطاعة وبنقة والالتزام واحتراما يبلغ حد القداسة للإمبراطور وهذا هو مفتاح التطوير لهوية قومية عن نحن/هم تُعالي على الولايات محدودة الأفق التي كانت تتغذى عليها اليابان في عصر الشوجونات الإقطاعي. وأكمل الجيش والأسطول المهمة ذلك أنه تأسيسا على الثعائل في الرأي وفي الانضباط قضت الخدمة العسكرية العامة على مظاهر التمايز من هيبة الطبقة أو المكانة، وغرست في النفوس كبرياء قوميا، وأضفت قيما ديمقراطية على فضائل العنف كفضائل للرجولة - وبذا وضعت حدا ونهاية لاحتكار الساموراي^(٥).

وشرعت الدولة والمجتمع في هذه الأثناء في الاهتمام بمسروعات الأعمال: كيف نصنع الأشياء بالآلة، وكيف ننجز أكثر بدون الآت، وكيف ننقل السلع، وكيف نناقش المنتجين الأجانب؛ ونيس هذا بالأمر الهين البسيط استغرق هذا الأمر قرنا كاملا بالنسبة للمنتجين الأوروبيين، ولكن اليابان في عجلة من أمرها

واختارت البداية، وهي أن بنت البلاد تأسيسا على فروع الصناعة المألوفة فعلا. صناعة الحرير والظن بخاصة، علاوة على معالجة السلع الغذائية التي يتعذر على الأجانب محاكاتها مشروب الساكي والميزو وصلصة فول الصويا. وأصبحت الصناعات الغذائية - وهي الجيل الأول للتصنيع - تمثل من عام ١٨٧٧ وحتى عام ١٩٠٠ ٤٠ بالمائة من التصو. والنسيج ٣٥ بالمائة. صفوة القول إن اليابان التزمت بداية أسلوب الميزة التفاضلية بدلا من الوقوع في مستنقع سواب خادع عن الصناعة الثقيلة. وتمثل الجانب الأكبر من ذلك في إنتاج النضاق الصغير مصانع نسج الظن ذات ٢٠٠٠ مغزل (مقابل ١٠٠٠٠٠ أو أكثر في غرب أوروبا) : السواتي أو روافع المياه الخشبية التي تتخلف عن التقانة الأوروبية بانجبال عديدة؛ مناجم الفحم ذات العروق المتوية والسلال التي يجري سحبها باليد على نحو يجعل المناجم البريطانية بيئة السمعة في الأيام الأولى للتصنيع تبو وكانها نزهة .

(٥) الساموراي الاستفراخية العسكرية في اليابان الإقطاعية . (المترجم)

وبغرم الاقتصاديين تفسيراً مألوفاً لهذا النموذج الذي جاء متأخراً (ومتأخراً هنا
نعني عضيماً وحديثاً)، هو الحاجة إلى رأس المال قلة الموارد البشرية، والإفطار إلى
منوك الاستثمار، والحقيقة أن بعض التجار اليابانيين اكتنزوا وراكموا ثروات كبيرة،
وكانت التوبة على استبعاد لهما وإعانة المصانع، وهذا ما فعلته. ولكن المدى الطويل
اللازم لبلوغ حد الكفاية والتدية لم يكن بحاجة إلى مال يقدر الحاجة إلى البشر - بشر
نوى خال وعبارات، ويعهون اقتصادات وفورات الحجم، ولا يعرفون فقط طرق
وألية الإنتاج، بل يعرفون أيضاً التنظيم وما نسميه اليوم البرمجيات والشق الذهني
اللازم لذلك وهكذا يقتني رأس المال ويقتني بهذه الإمكانيات وينمو معها.

وقرر اليابانيون تجاوز السلع الاستهلاكية وأدركوا أنه لكي يكون لديهم اقتصاد
حديث فلا بد لهم وأن يمكثوا خاصة العنل الثقيل صناعة الآلات والقاضرات والسفن
والحركات وخطوط السكك الحديدية والموانئ وأحواض السفن وأسهمت الحكومة
بدور حاسم في ذلك. إن مولت أبحاث الاستكشافية إلى الخارج، وانجحت إلى دعوة
الخيراء الأجنبي. وإقامة المنشآت اللازمة وتقديم الإعانات للمشروعات التجارية. ولكن
الأهم من ذلك كله هو عوعية وعزم وتصميم المواطنين اليابانيين واستعدادهم للتعبير
لصالح القضية الوطنية، فضلاً عن نوعية وأداة العمال اليابانيين خاصة الحرفيين
منهم، قوى المهارات التي شدت بها وتمكنتها أسلوب عمل الفريق المتناسك، والرقبة
في المصانع الحرفية.

وانتقلت اليابان إلى الثورة الصناعية الثانية في سرعة وسلاسة بما يتدفى مع
اقتنارها للخبرة وبمختر: التفسير التقليدي لعملية تصنيع اليابان الناجحة والسريعة
الكثير من عبارات الشاء وإن حقق من غلوائها أحياناً بعض الثغور بسبب ما لازمها
من شعور وحنى جارف مع قدر من الكناية - دافع لا يرحم أضفى على عملية التطوير
معنى وشعورة بالإلحاح والضرورة. وكانت اليابان بذلك أول بلد غير غربي يصنع
نفسه، ولا يزال حتى يومنا هذا مثلاً لمن يسعون مؤخراً ليزال أقصى الجهد لتطوير
أنفسهم وثمة بلدان أخرى أوتدت بعثات من شبابها إلى الخارج ليتعلموا السبل
الجديدة، ولكن البلاد فقدتهم. على عكس المبعوثين اليابانيين، فقد عادوا من الخارج

إلى أرض الوطن. وهناك بلدان أخرى استجلبت فنيين وخمرا، أعداء لم تعليم أبنائها؛ ولكن اليابانيين اعتمدوا أساسا على تعليم أنفسهم واستوردت بلدان أخرى معدات أجنبية وبدلوا أقصى الجهد لاستخدامها؛ أما اليابانيون فقد عدلوها وحسنوها وطوروها، وعلموا هذا كله بأنفسهم وربما نجد بلدان أخرى. ولأسباب تاريخية خاصة بهم، يكرهون اليابانيين (إذ ما أشد كراهية شعوب أمريكا للأجانب، كما يسمونهم، أو الجرينجوس (gringos)، بيد أنهم في الحقيقة يحسدونهم ويعجبون بهم.

ويكمن التفسير جزئيا في حس طامع بالمسئولية الجماعية: وأن الكسول المتغنى في بلداته لا يضر نفسه فقط، بل يضر بقية العائلة، وكذا الأمة - وحرى بنا أن لا ننسى الأمة. وإن غالبية الفلاحين والعمال اليابانيين لم يكن هذا شعورهم في البداية - إذ نادرا ما عرفوا مفهوم الأمة في ظل حكم التوكوجاوا. لذا كانت هذه هي المهمة الأولى المتوقعة بالنولة الإمبراطورية الجديدة: أن نشرب في نفوس رعاياها شعورا بأن شمة واجبا أسمى تجاه الإمبراطور والبلاد، وربط هذا الشعور بالوطنية بالفعل الاجتماعي. وخصصت المدارس حصصا كبيرة من وقت التعليم لدراسة الأخلاق. وذلك في بلد ليس به نظام احتفالات دينية أو تعليم ديني منظم، وبدا كانت المدرسة معبد الفضيلة والأخلاق. وفي هذا الصدد يقول كتاب مدرسي عام - ١٩٢٠ - أيسر السبل لكن يمارس المرء عمليا تزعته الوطنية أن يلتزم ضبط وتنظيم النفس في حياته اليومية، وأن يساعد على توفير النظام في أسرته، وأن يلتزم بمسئوليته كاملة في أداء عمله^(٧) وكذلك أن يبخر ويقتصد ولا يسرف ويهدد.

ها هنا نطالع صورة يابانية للأخلاق البروتستانتية التي حدثنا عنها عاكس فيبر. وأسهمت أخلاق العمل هذه، في اقتران بمبادرات الحكومة والالتزام الجمعي، في تحقيق ما نسميه المعجزة اليابانية. ومن ثم، فإن أي فهم جاد للأداء الياباني يجب أن يبنى على هذه الطاهرة، ظاهرة رأس المال البشري الذي حددته وصاغته الثقافة

عن فيبر

إن ماكس فيبر الذي بدأ حياته العملية مؤرخاً للعالم القديم ولكنه تحول ليصبح معجزة العلوم الاجتماعية على تباين مباحثه، نشر عامي ١٩٠٤ - ١٩٠٥ مجموعة من أكثر المقالات نفوذاً وإثارة: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، وتعدّل أطروحته في أن البروتستانتية، وبخاصة فروعها الكالفينية، عززت صعود الرأسمالية الحديثة. ويعنى بذلك الرأسمالية الصناعية التي عرفها في وطنه، ألمانيا. وقال حققت البروتستانتية هذا ليس عن طريق تيسير أو إلغاء تلك الجوانب للعقيدة الرومانية التي فطقت أو حالت دون النشاط الاقتصادي (تعريم الربا كمثال)، ولا عن طريق تشجيع، ناهيك عن ابتكار، النزاه سبل إنتاج وتراكم الثروات، بل بأن حدثت وأقرت أخلاقاً للسلوك اليومي أفضت إلى النجاح الاقتصادي.

وقال فيبر إن البروتستانتية الكالفينية فعلت ذلك بداية عن طريق التأكيد على عقيدة التدبير المسبق، أي العقيدة التي تقرر أن ليس بوسع المرء أن يتعم بالخلاص بفضل الإيمان أو الأفعال، إن هذه المسألة مكتوبة ومقررة لكل امرئ منذ الأزل ولا سبيل لتغيير ما هو مكتوب.

وطبيعي أن عقيدة كهذه تشجع الموقف القدرى، فإذا لم يكن هناك فارق نتيجة الإيمان والسلوك، إذن لماذا الالتزام والمسئولية؟ لماذا نكون أخيراً ذلك لأن الخيرية حسب المذهب الكالفيني علامة مقبولة للاختيار، إن أى امرئ يمكن أن يكون مستشاراً، ولكن الشيء الوحيد والمعقول أن نفترض أن غالبية المختارين كتبوا بحكم شخصيتهم وبأساليب حياتهم نوع أرواحهم وضميرهم مصائرهم وإن هذا التأكيد الضمني من جديد حافز قوى من أجل الالتزام بالأفكار الصحيحة والسلوك القويم وإذا كان الإيمان الصارم بالتدبير المسبق لم يمكن لأكثر من جيل أو جيلين (إن ليس من نوع العقيدة الجامدة التي تحتفظ بجانبيتها إلى الأبد) فقد تحول مع الزمن إلى مبدأً علماني للسلوك ألا وهو: العمل الجاد، والاستقامة والجدية، والاقتصاد في استخدام الوقت والمال.

وأفادت جميع هذه القيم مشروعات الأعمال وبراكم رأس المال بيد أن كالتن شدد على أن الكالفيني الصالح لا يتخذ من اكتناز الثروات هدفاً وغاية (ولكن بوسعه الإيمان بأن الأثرياء الصادقين أهل الاستقامة هم علامة على الرضا الإلهي)، ولم يكن بوسع أوروبا الانتظار إلى حين الإصلاح الديني البروتستانتي لكي نسعى من أجل ظهور من يلتزمون الغراء. ولكن النقطة المحورية في فكر هيبير أن البروتستانتيه أفرزت نوعاً جديداً من رجل الأعمال، هدفه أن يعيش وأن يعمل بأسنوب معين. ومن ثم فإن الأسنوب هو الشيء المهم، أما الثروات فهي على أحسن العروض نتاج مترتب على السلوك المطلوب. ولم تتطال الأخلاق البروتستنتية إلا بعد ذلك برمن صويل. وتحولت إلى طائفة من المبادئ للتجاح المادي والعظمت الفرقة التي تتحدث عن فمائل الثروة.

وأنت البروتستانتية إلى ظهور كل وسية ممكنة للمحاجة والتبرير. ونسب خلاف في الرأي من هذا النوع ذاته حول فرضية مترتبة على ما سبق. وأعلنها عالم الاجتماع روبرت كى. ميرتون، الذي أكد وجود رابطة مباشرة بين البروتستانتية وصعود العلم الحديث. وإن من الإنصاف حقاً القول إن غالبية المؤرخين مبنظرون إلى فرضية هيبير باعتبارها غير قائمة للصديق. ومن ثم غير مقبولة. ولكن كان لها وقتها الذي استثمرته ومضى زمانها.

وأنا لا أوافق، ورفضى ليس على الصعيد الإمبريالي؛ حيث توضح السجلات أن التجار والصناع البروتستانت قاموا بدور رائد في مجال التجارة والصيرفة والمناعة. وليس رفضى على الصعيد النظري، ذلك أن لب القضية يتحلل حقا في بناء إيسن جديد - رشيد، عقلاني، منظم، معقد، مجهود، مسج. وعلى الرغم من أن هذه الفضائل ليست جديدة. إلا أنها لم تكن عامة شائعة. ومن ثم فإن دور البروتستانتية هو تعميمها بين أنصارها الذين اتخذوا الامتثال لهذه المعايير والتعامل بشأنها قاعدة ومبدأ للحكم على بعضهم البعض.

وثمة خاصيتين متميزتان يتصف بهما البروتستانت يعكسان ويؤكدان هذه الرابطة. الخاصية الأولى هي التأكيد على البرم والتعلم للينات والبنين على السواء. وجاء هذا كنتيجة مترتبة على قراءة الكتاب المقدس. إن أصبح متوقفاً أن البروتستانتية

الصالح هو من بقرأ الكتاب المقدس بنفسه (ويذكر على سبيل المغاربة أن الكاثوليك اعادوا العلم عن طريق التلفزيون، وأن يكون علمهم على لسان فقهاء الدين وليس عليهم أن يقرأوا، ولذلك كان عقها، الذين يحفظون عليهم الاعتماد على أنفسهم في قراءة وفهم الكتاب المقدس) والنتيجة بالنسبة لتهج البروتستانت زيادة مطردة من المتعلمين، جيلا بعد جيل ولا ريب في أن الأمهات المتعلمات يمتلئن عاملا بهما ومؤثرا.

والخاصية الثانية هي الأهمية الكبرى التي يولونها للزمن، ونجد لديها ما يمكن أن يسميه علم الاجتماع الدليل غير الدخيل، أي التابع من الواقع الحسني ذاته وتخصص صناعة وبشرا- الساعات، إذ لوحظ حتى في المناطق الكاثوليكية مثل فرنسا وباربادا، كان غالبية صناع الساعات من البروتستانت والملاحظ أيضا أن استخدام هذه الأدوات الخاصة بقياس الزمن وانتشارها في المناطق الريفية كان أكثر تقدما في بريطانيا وهولندا عنها في الأقطار الكاثوليكية وجدد بالذكر أن لا شيء يعادل الإحساس بالزمن كشيء مهم على "تحضر" المجتمع الريفي، بكل ما ينطوي عليه هذا الإحساس من بيوع للقيم والأذواق

ليس معنى هذا أن النمط المثالي للرأسمالي عند فسيبر لا نجده، لا بين الكالفينيين، إن الناس من جميع العقائد والملل والنحل يمكن أن يشبوا على فضائل العقلانية والرصانة والبعث عن الغزوات، والقيام بالنظم والتطلي بالإنشائية والنظافة والاتقان، وليس ضروريا أن يكونوا رجال أعمال، إذ يمكن شعراء، فن رسولي بهذه الفضائل في كل مجالات العمل الحياتية ويفيد بها. ولكن الحجة التي ذهب إليها فيبر، حسب ما أعتقد، هي أن الدين في أوروبا منذ القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر شجع على ظهور عدد من أنماط الشخصية، ولكنها كانت استثنائية وظهورا عارضا قبل ذلك، وأن هذا النمط الجديد خلق اقتصادا جديدا (أي نمط إنتاج جديد) والذي تعرفه باسم الرأسمالية (الصناعية).

ويعلمنا التاريخ أن أنجع دواء لعلاج الفقر ينبع من الداخل. نعم المساعدة الأجنبية يمكن أن تساعد، ولكنها، شأن أية شروة مفاجئة تأتي عن حيث لا يحتسب المرء يمكن أن تكون ضارة، إذ يمكن أن تثبط الهمم وتحول دون بذل الجهد وتفرس

شعورا بالعجز يفضي إلى التشلل ونقول ما يقوله قول ماتور أفريقي. اليد التي تتلقى هي دائما اليد الأخرى، والتي تعطى هي العلياء. ومن ثم فإن المعول على العمل والاعجاز والاستقامة والدأب والثابرة. أما من يعيشون أسرى البؤس والجوع فإن حالتهم قد تتفاقم بوضعهم هذا ليصل إلى اللامبالاة الأنانية، ولكن الأساس والقاعدة أن لا تمكين أو عون أكثر فعالية من التمكين الذاتي ومساعدة النفس .

قد يبدو بعض هذا الكلام ضربا من العبارات المحفوظة المتواترة - من نوع الدروس التي تلقى للتعليم في البيت وفي المدرسة حين يظن الآباء والمعلمون أن عليهم رسالة منطلها تنشئة وتهذيب أبنائهم. ولكننا اليوم نلوي أعطفنا تجاه هذه الحقائق ونزيد عنها باعتبارها أقولا مجذلة. ولكن لماذا تقبو الحكمة قولاً بالياً؟ اللهم الربيتي أننا نعيش عصر جنى الثمار الحلوة ونريد أن تكون أمور حياتنا حلوة المذاق - إن كثيرين جدا يعملون رغبة في الحياة، ويحيون رغبة في السعادة، وليس في هذا أي خطأ. ولكن هذا وحده لا ينهض بالقدرة الإنتاجية العالية هل نريد إنتاجية عالية؟ إن علينا أن نحيا لكي نعمل ويتحقق لنا السعادة كنتيجة مترتبة على هذا العمل.

الأمر ليس بسيرا، إن من يحيون للعمل قليلا، وهم نخبة محفوظة، بيد أنها نخبة مفتوحة لتلقى وأفدين جدا. باختيار ذاتي. ومن نوع يؤكد الروح الإيجابية ونجد في عالمنا هذا أن المثقائلين هم من يتحلون بالروح الإيجابية، ليس لأنهم دائما على صواب، بل لأنهم إيجابيون، إنهم حتى وإن أخطوا إيجابيون، فهذا هو السبيل إلى الإنجاز والتصحيح والتحسين والنجاح، إن التفاؤل القائم على النعيم ونفاد البصيرة ثمرة دائما؛ ولكن المثسامة لا تمنح أهلها سوى عزا، أجوف بانه على صواب .

الاتجاهات والقيم والمعتقدات والاقتصاد الجزئي للرخصاء

ميشيل إي - بورتز

يشار أحيانا إلى الاتجاهات والقيم والمعتقدات على نحو جامع باسم الثقافة. وهذه لها دور لا ريب فيه في السلوك البشري والتقدم الاجتماعي وبدا لي هذا واضحا من خلال عملي في أمم وبول وأقاليم ومدن داخلية وشركات جميعها تمر بمراحل شديدة التباين من حيث تطورها. وليس السؤال إذا ما كان للثقافة دور أم لا، وإنما كيف نفهم هذا الدور في سياق المحددات الأوسع نطاقا للرخصاء. وثمة كم كبير من الدراسات حاولت استكشاف الروابط بين الثقافة والتقدم البشري من خلال رؤية وأفاق متباينة. وسوف أحاول في هذا الفصل من الكتاب أن أسكشف هنا فرعية من هذا النطاق الأوسع - دور ما يمكن أن نسميه الثقافة الاقتصادية في التقدم الاقتصادي. ويتحدد معنى الثقافة الاقتصادية بأنها المعتقدات والاتجاهات والقيم التي تؤثر في الأنشطة الاقتصادية للأفراد والمنظمات وغيرها من المؤسسات

وإذا كان دور الثقافة في التقدم الاقتصادي لا مراء فيه، إلا أن التعدي الذي يواجهها هو تفسير هذا الدور في سياق المؤثرات الأخرى وعزل التأثير المستقل للثقافة. وتنتج معالجات دور الثقافة في الرخصاء الاقتصادي إلى التركيز على صفات ثقافية نوعية يسود الظن بأنها هي الصفات المرغوبة مثل العمل الجاد والمبادرة والإيمان بقيمة التعليم علاوة على عوامل مستمدة من الاقتصادات الكلية مثل النزوع

إلى الأضرار والاستثمار. وهذه يقينا وثيقة الصلة بالرخاء. بيد أن أيا من هذه الصفات البوعية يرتبط على نحو غير ملتبس بالتقدم الاقتصادي. نعم العمل الجاد مهم، ولكنه يساوي في أهميته العامل الذي من شأنه أن يرشد ويوجه نمط العمل كذلك المبادرة مهمة، ولكن ليست جميع المبادرات منتجة والتنظيم حاسم، ولكن يساويه في الحسم نمط التعليم انتشاره والحموى الذي يتخذه التعميم هدفا لإنجازه والأضرار عامل جيد ومهم، ولكن شريطة الإفادة بهذه المدخرات على نطاق واسع في مجالات إنتاجية.

حقا إن الصفة الثقافية الواحدة يمكن أن تكون لها دلالات واسعة النباين في تأثيرها على التقدم الاقتصادي في مجتمعات مختلفة، بل وربما في المجتمع نفسه في مرات زمنية متباينة. مثال ذلك أن الاقتصاد في الإنفاق أفاد اليابان كثيرا إلى أن مبيت مؤخرًا بحالة ركود طويلة وهكذا أصبح مقبولة في سبيل تصحيح الوضع وجدير بالذكر أن فحص حالات عدد كبير من البلدان الناجحة، من بينها الولايات المتحدة واليابان وإيطاليا وهونغ كونج وسنغافورة، وسويسرا وكوستاريكا، يكشف عن فوارق ثقافية واسعة النطاق ودقيقة مقترنة بعملية تحسين الظروف الاقتصادية، وهذا شامداً حتى يكذب القول بوجود رابطة مباشرة بين الثقافة والرخاء.

وسوف نستكشف في هذا الفصل الروابط المركبة بين الثقافة الاقتصادية، اربة والتقدم الاقتصادي. ويمثل الرخاء بؤرة الاهتمام هنا على مستوى الوحدات الجغرافية مثل الأمم أو الدول، هذا على الرغم من أنني غننا ما حموف أسس أننا أسير في حالات كثيرة إلى وحدة اقتصادية وثيقة الصلة بهذا. ولكنك قد تكون أسفر حجما من الأمة والملاحظ أن ثمة فوارق مثيرة في الرخاء الاقتصادي بين الدول والأقاليم، جن في داخل كل أمة وربما ترجع بعض الأسباب إلى الاتجاهات والقيم والمعتقدات. ويحكن أيضا تطمق هذه المؤثرات ذاتها على التفكير بشأن الرخاء الاقتصادي للجماعات التي تتقاص داخل وحدات جغرافية مثل جماعات من العرقية الصينية.

سوف نسهل حدسي بدمان بعض المعلومات الحديثة من مصادر الرخاء الاقتصادية في الاقتصاد الكوكبي الحديث وسوف أحول عدد ذاك كشف بعض الروايات المحتملة بين هذه المصادر وأنماط من المعتقدات والقيم والاتجاهات التي تدعم الرخاء. وهنا سوف أواجه سؤالاً مهماً لماذا يمكن لبعض الثقافات غير المختجة أن تظهر وتبقى؟ سوف أدرس الإجابة على هذا السؤال في سياق التفكير الاقتصادي السائد والظروف التي سادت على مدى نصف القرن الماضي. وأختم الفصل ببعض التلميحات بشأن نطاق الفوارق الثقافية في الاقتصاد الحديث، وكذا بشأن كيفية تغيير تأثير الثقافة في ضوء الأثر الاقتصادي الذي حظرت إليه عملة الأسواق

مصادر الرخاء : الميزة النسبية مقابل الميزة التنافسية

رخاء أمة أو ارتفاع مستوى معيشتها إنما تحدده الإنناحية قرين استخدامها لمواردها البشرية والرأسمالية والطبيعية. تحدد الإنتاجية مستوى الأجور القابلة للاستدانة، والعوائد الداخلة لرأس المال. والمحددات الرئيسية لنصيب الفرد من الدخل القومي. ويمكننا تفنيد الإنسانية أساس التنافسية. وتعتمد على قيمة المنتجات والخدمات المتولدة عن المؤسسات العاملة في الأمة. والنزعة على سبيل المثال، عن الجودة والنفرد وكذا عن الكفاءة في إنتاجها، وتعتبر القضية انحصارية في التطوير الاقتصادي هي كيف نهى الظروف من أجل نمو إنتاجي سريع ومستدام.

وتعتمد الإنتاجية في الاقتصاد الكوكبي تحديث على الكيفية التي تنافس بها مؤسسات الأمة أكثر مما تعتمد على نوعية الصناعات التي تنافس فيها. أي على طبيعة فعاليتها وإستراتيجياتها. ويمكن في الاقتصاد الكوكبي الرأهن أن تصبح المؤسسات أياً كان نشاطها الصناعي أكثر إنتاجية من خلال إستراتيجيات واستثمارات أكثر تقبلاً من حيث الثقافة الحديثة. ذلك أن الثقافات الحديثة تهين فرصاً كبرى للارتفاع بالمستوى في مجالات متباينة مثل الزراعة، أو تسليم عيولت

مغيرة، أو إنتاج أشباه الموصلات. وثمة بالمثل مجال إستراتيجيات نكتر تقدما من الناحية الفعلية في جميع ميادين العمل، من بينها تصنيف العملاء إلى فئات، المنتجات والخدمات المتباينة، وتصميم وإعداد مجموعات حسب التقنيات لتسليم المنتجات للعملاء.

ومن هنا، نهائى مفهوم الاستهداف الصناعى الذى تلتصق من خلاله حكومة ما تفضيل صناعات ناجحة. إذ لم تعد هناك صناعة جيدة وأخرى رديئة حسب النموذج الإطاري الجديد لمفهوم الإنتاجية. وإنما أصبح السؤال هو ما إذا كانت المؤسسات قادرة على استخدام وتوظيف أفضل طرق الإنتاج، وحشد أفضل للمهارات، واستخدام أفضل التقانات لإنتاج ما تنتجه على أعلى مستوى للإنتاجية وفى تحسن مطرد. ليس المهم ما إذا كان اقتصاد البلد زراعيا أو خدميا أو صناعيا؛ وإنما المهم هو قدرة البلد على تنظيم ذاته بفعالية تأسيسا على مسلمة أن الإنتاجية تحدد رضاء أبناء البلد.

وجدير بالملاحظة أنه فى إطار فهم الإنتاجية تتلشى دلالة التمايزات التقليدية بين مؤسسات أجنبية وأخرى محلية، ذلك لأن رضاء بلد ما تجل لما تختار المؤسسات المحلية والأجنبية إنتاجه فى هذا البلد. ولا ريب فى أن للمؤسسات المحلية التى تنتج صناعات أو منتجات مبتدئة الجودة، وتستخدم وسائل غير متقدمة تؤدى إلى تخلف الإنتاجية القومية، هذا بينما المؤسسات الأجنبية التى تجلب معها ثقافة جديدة وطرقا متقدمة ترتفع بمستوى الإنتاجية والأجور المحلية، كذلك فإن التمايزات التقليدية بين الصناعات المحلية والصناعات المخصصة للنشاط التجارى وبين الميل لتكرير اهتمام السياسة فقط على الصناعات المخصصة للنشاط التجارى، فإنها تصبح إشكالية. إن الصناعات المحلية تؤثر على تكاليف معيشة المواطنين وعلى تكاليف إقامة مشروعات أعمال للصناعات المخصصة للنشاط التجارى. ومن ثم فإن إغفال ذلك من شأنه، كما حدث فى حالة اليابان، أن يخلق أضرارا خطيرة.

ويمثل إطار فهم الإنتاجية كأساس وركيزة للرخاء، تحولا جنزيا من المفاهيم السابقة عن موارد الثروة، إذ كان السائد منذ مائة عام، بل منذ خمسين عاما فقط أن رضاء الأمة إنما هو وليد امتلاكها موارد طبيعية مثل الأرض أو المعادن أو الأيدي

العاملة، مما يهيئ للبلد مجزة نفاضلية بالنسبة للبلدان الأخرى التي لا يباريها فيها بملكه من هبات طبيعية ولكن في الاقتصاد الكوكبي الحديث يمكن للمؤسسات أن تحصل على الموارد من أي موقع بأسعار زهيدة وعلى نحو كافٍ، مما يجعل الموارد نفسها أقل قيمة وهكذا تبنت القيمة الحقيقية للموارد، وبدل على هذا الانخفاض المطرد في الأسعار الحقيقية للسلع على مدى القرن الماضي. وتلحظ بالمثل أن الأيدي العاملة الرخيصة متوفرة في كل مكان لذلك فإن امتلاك أمة لأيدي عاملة وقيمة ليس في ذاته سبباً للتميز ومصدراً للفائدة وأكثر من هذا، أنه مع الانخفاض السريع والمطرد في تكلفة النقل والاتصالات أصبحت حتى المواقع المتميزة جغرافياً بالنسبة للأسواق أو لطرق التجارة أقل تميزاً. وتم بعد الموقع اليوم مصدراً لفائدة تجنيها على نحو ما كان الحال في الماضي. إن مؤسسة في هونج كونج أو في شنغاي يمكنها، على الرغم من بعد المسافة التي تفصلها عن الأسواق، أن تكون شمريكا تجارياً ونسبياً لولايات المتحدة أو لأوروبا .

انتهت الميزة النفسية كأساس للثروة، وحلت محلها الميزة التنافسية المتمثلة في إنتاجية أكثر تفوقاً من حيث القدرة على تجميع الموارد لخلق منتجات وخدمات قيمة. ومن ثم فإن البلدان التي تعتمد على تحسين مستوى معيشتها هي تلك البلدان التي تتحول مؤسساتها إلى مؤسسات أكثر إنتاجية عن طريق تطوير واستحداث موارد أكثر تقدماً للبيئة التنافسية المؤسسة على المعرفة والاستثمار والخبرة وبنافذ البصيرة والتجديد الإبداعي

ومن دواعي السخرية ونحن نعيش اقتصاداً كوكبياً أن نرى الأشياء المحلية هي الأكثر أهمية وحسماً في تحديد ماذا مؤسسة بذاتها أكثر تنافسية وإنتاجية من غيرها في موقع آخر . وسبب ذلك أن التدفقات السريعة للتجارة ورأس المال والمعلومات تضيء المزايا التي يمكن لمؤسسة ما أن تجنيها من مداخلات تصيب من خارج. إذ لو أن مؤسسة ما هي بلد ما تشتري آلاتها من ألمانيا، فإن المؤسسة المنافسة لها يمكن أن تفعل الشيء ذاته. وإذا كانت مؤسسة ما تستورد رأس مال من الخارج، كذلك يمكن الشيء نفسه لمؤسسة منافسة. وإذا كانت مؤسسة ما تشتري مواد خام من أستراليا،

كذلك يمكن أن نشيرى شركة منافسة لها. إن جميع هذه السبل يمكن أن تكون ضرورية ولكنها أصبحت بالضرورة سبلا حيادية لخلق مبدآت تنافسية فى الاقتصاد الكوكبي الراهن. وللملاحظ أن المصادر الباقية للقيمة التنافسية تنرايد كمصادر محلية. من ذلك العلاقات الخاصة مع المورد أو العميل أو الخبرات الفريدة بشأن السوق التى يتعين اكتشافها وتجميعها من العملاء أو اشركاء المحليين، أو توفر وسيلة خاصة للحصول على التقنية والمعرفة من المؤسسات المحلية الأخرى، أو توفر مرونة فى الإنتاج والتى تتوفر بفضل استخدام مورد قريب .

أسس الرخاء فى الاقتصاد الجزئى

«يث إن العونة ألغت الكثير من انوارد الخارجة لتميز مؤسسات الامة. أصبح ضروريا على أى بلد برغب فى الارتفاع بمستوى اقتصاده وتوفير الرخ - لمواطنيه أن يرعى الموارد الداخلية الممكنة للتميز ، وكثيرا ما ينصب الانتباه على أهمية إنشاء بيئة مسحية تشريعية وسياسية واقتصادية كلية (ماكروية) بيد أن أوضاع الاقتصاد الكلى وإن كانت ضرورية. إلا أنها ليست كافية لضمان اقتصاد مزدهر وواقع الأمر أن حرية الاختيار أخذة فى المناقش تدريجيا بشأن السياسات الاقتصادية. إذ ما لم تكن هذه السياسات صحيحة وعقينة، ستواجه الامة عقبة على أبهى أسواق رأس المال الدولية

ويعتمد رخاء الامة فى نهاية المطاف على تحسين أسس الاقتصاد الجزئى التى تمكنه من المنافسة. وترتكز أسس إنتاجية الاقتصاد الجزئى على مجالين متداخلين تقدم فعاليات الشركة وإستراتيجيتها، وعلى نوعية بيئة قطاع الأعمال للاقتصاد الجزئى وما لم تصبح الشركات العاملة داخل البلد أكثر إنتاجية. فإن افرصارها سيعجز عن أن يكون أكثر إنتاجية. وسوف يتأثر بشدة مستوى التقدم والنظة الذى تعتمد عليه الشركات فى المنافسة بسبب نوعية البيئة الوثنية لقطاع الأعمال التى تعمل فيها الشركات. إذ إن بيئة قطاع الأعمال تؤثر كثيرا على فئماط الإستراتيجيات

القناعة وفي 1969، قامه المؤسسات. مثال ذلك أنه سوف يتعدى تحقيق كفاءة تشغيل عاتبه إذا كانت اللوائح التنظيمية الروتينية شديدة الجور إلى حد التعويق، أو ليس بالإمكان الاعتماد على عملية الإمداد والنموين [العمليات اللوجستية]، أو إذا لم تتسلم المؤسسات انكوبات اللازمة لها في أوقاتها المحددة أو لم تلق خدمات ريفية المستوى آلات الإنتاج

إن فهم طبيعة بيئة قطاع الأعمال على صعيد الاقتصاد الجزئي يندلجدا خاصة إذا سلطنا بأن المؤثرات للحبة التي مؤثر في الإنتاج كثيرة ومنها: وأعدت في دراستي عن الميرة التنافسية للامم⁽¹¹⁾ نموذجا لأثر الموقع على المنافسة بفعل مؤثرات أربع متداخلة: أوضاع (مدخل) عوامل الإنتاج والسياق المحلي للإستراتيجيه وشروط المراحة والخلب المحلي، وقوة الصناعات وثيقة الصلة والزاعمة. وتشكل هذه بيئة قطاع الأعمال للاقتصاد الجزئي التي تنافس في إمارها مؤسسات الأمة والتي تستمد منها عواردها للعبزة التنافسية. ويمثل التطوير الاقتصادي عملية طويلة المدى لإقاعة هذه المجموعة من القدرات والحوافز المكافئة للاقتصاد الجزئي من أجل دعم أشمكال أكثر تقدما للمنافسة.

وتشير أوضاع عوامل الإنتاج إلى طبيعة ومدى المدخلات التي يمكن للمؤسسات أن تعتمد عليها لإنتاج السلع أو الخدمات، بما في ذلك أمور مثل الأيدي العاملة ورأس المال والضرق والمطارات وغيرها من عناصر البيئة الأساسية الخاصة بالنقل والاتصالات والموارد الطبيعية. ويمكن تصنيف وتنظيم مدخلات عوامل الإنتاج ابتداءً من مدخلات أساسية (مثل أيدي عاملة رخيصة وطرق رئيسية) إلى مدخلات متقدمة (مثل نظم نقل متعددة الشروط، وبيئة أساسية للاتصالات قائمة السرعة) لتوصيل المعلومات، وعاملين متخصصين على درجات عالية) وجدير بالذكر أن كم المدخلات ليس تقريبا على القدر نفسه من أهمية نوعها وتخصصها. مثال ذلك أنه إذا كانت البيئة الأساسية في بلد ما مصممة خصيصا لجال أعده هذا البلد ليغاقص فيه. فسوقه تزداد الإنتاجية كذلك بالمثل فإن مجموعات الأيدي العاملة غير المدربة ليست لها قيمة قوة العمل التي نلقت تدريباً خاصاً مميزاً وتوفرت لها مهارات إنتاج سلع

متباينة وتشغيل عمليات الإنتاج الأكثر تقدما وإنتاجية ويمكن القول بوجه عام إن التطوير الاقتصادي الناجح يستلزم إدخال تحسينات مستدامة في نوعية وتخصص المدخلات لأمة ما

وتمثل نوعية الطلب المحلي محددًا حاسمًا ثانيًا للفترة التنافسية للاقتصاد الجزئي في بلد ما. إن الحميل كثير المطالب أداة قوية لزيادة الإنتاجية، والملاحظ أن الضغوط التي يفرضها العميل المحلي على مؤسسة أو على صناعة ما، وكذا على طبيعة المنافسة داخل الصناعات المحلية تنزع إلى زيادة الإنتاجية عن طريق تعزيز نوعية وقيمة المنتجات وهكذا تتحسن احتمالات نجاح هذه المنتجات في أسواق التصدير. ومن ثم فإن العملاء كثيري المطالب يعلمون المؤسسات المحلية كيفية تحسين المنتجات والخدمات، ويجبرونهم على الارتقاء بمستوى هذه المنتجات والخدمات بطريقة تدرجهم مباشرة إلى قبة أعلى للعملاء، وأيضًا إلى أسعار أعلى. ولكن من ناحية أخرى، إذا لم يكن الطلب المحلي راقى التقدم، وقنعت المؤسسة بتقليد منتجات تفتجها بلدان أخرى، فسوف يؤثر ذلك بالسلب على الإنتاجية وعلى أسعار السوق الدولية.

وتعتبر صناعة الأحذية في إيطاليا مثالًا جيدًا على أهمية العملاء كثيري المطالب، تحاول المرأة الإيطالية تجربة أكثر من عشرة أحذية قبل أن تشتري. والنساء قائرات على الفحص الدقيق لاستكشاف نوعية الجلد والصناعة. وشكل وحجم الكعب، وراحة القدم، والطراز وغير ذلك من صفات. ومبعض أن شركات صناعة الأحذية التي تستطيع البقاء والأزدهار في مثل هذا المختبر المحلي يمكنها أيضًا أن تشعر بالثقة في أن صناعتها من الأحذية ناجحة في إيطاليا، وسوف تكون على الأرجح ناجحة عند تصديرها عالميًا.

ويشير سياق إستراتيجية المؤسسة وقدرتها على المزاومة إلى القواعد والحوافز والمعايير الحاكمة لنمط وشدة المزاومة المحلية. وتميل الاقتصادات الأقل تطورًا إلى أن تواجه مزاومة محلية معنودة جدًا. ولكن التحول إلى اقتصاد متقدم يستلزم وجود

مراجعه من قبله قومه وتعبير طبيعته للتحويل من الحرص على أقل تكلفة ممكنة والاكتمال. بالتنفيذ، إلى ضمان كفاءة وفعالية الإنتاج، ثم أخيراً إلى الابتكار والاختلاف وطبيعي أن المزاومة الصحية بين المؤسسات المحلية تعبر أساسية لسرعة زيادة الإنتاجية وإذا عجزت مؤسسة عن المنافسة في الداخل فإنها ستعجز بالتالي عن المنافسة في الخارج.⁽¹⁾ إنها لن تتصف بالذكاء أبداً، وإن تستطيع تحسين إنتاجها بسرعة كافية إذا لم تواجه منافسة محلية شديدة من المنافسين لها في الداخل، ولا ريب في أن التشريعات المذهمة للاحتكار، والسياسات الداعمة لتنظيم المشروعات وتطوير مشروعات الأعمال الجديدة، تعد مثالا على الأدوات التي يمكن لبلد ما أن يستعين بها لترسيخ دعائم منافسة محلية صحية.

المحدد الأخير لقوة بيئة قطاع الأعمال للاقتصاد الجزئي في بلد ما هو مدى ونوعية المورد المحلي والصناعات المرتبطة بها. ويعتمد التطوير متوسط المستوى والمتقدم على تكوين تجمعات عقودية. ويمثل التجمع العقودي شبكة متمركزة جغرافياً من المنافسين الصناعيين وصناعاتهم ومؤسساتهم الكثيرة الداعمة والمرتبطة ببعضها. ونذكر من الأمثلة على التجمعات العقودية القوية وادي السليكون، وويل ستريت، وهوليوود. حقا يوجد العديد من هوليوود ووادي السليكون في مختلف أنحاء العالم، وهذه موجودة عمليا في كل اقتصاد متقدم وفي كل نوع من أنواع الصناعات. ولا ريب في أن التجمعات العقودية ظاهرة قديمة، ولكن تزايدت أهميتها بالمراد. إن كمثل المنافسين والموردين ومشروعات الأعمال والمؤسسات وثيقة الصلة جميعهم في الموقع نفسه إنما يحدث وبسبب أن هذا الشكل من التنظيم أكثر إنتاجية وقائدة من شكل آخر يحاول تجميع المداخل والابتكار من مواقع متباعدة في أنحاء مختلفة من العالم، كذلك فإنه يدعم سرعة التحسين والتجديد والابتكار.

وجدير بالذكر أن دور الحكومة في إطار فهم الإنتاجية مختلف عن المفاهيم الأخرى للتنافسية وأبعد عنها من حيث الصلة المباشرة، إذ تبدأ مسئوليات الحكومة

بإنشائها - بيئة شريفة وسياسية وإقتصاد كلي نصف بالاستقرار وبمركز الدولة - وهذا
والتي يمكن للمؤسسات أن تصوغ فيها خيارات، استراتيجيات بعيدة المدى واللائمة لها
لإدخال الإنتاجية ، ويجب على الحكومة بعد ذلك أن تكفل للمؤسسات عوامل الإنتاج
(المدخلات) رفيعة المستوى (مثل موارد بشرية منقطعة ومرافق عمالية عالية الكفاءة)
كذلك أن تفسح القواعد العامة والحوافز الحكمة للمنافسة والتي من شأنها أن تشجع
سوى الإنتاجية . وأن تيسر وتشجع ، مع هذا ، تكوين وتطوير التشكيلات العنقودية ،
وتطوير وإنجاز برنامج إيجابي ومتميز ويعيد المدى للارتقاء الاقتصادي بالأمم ،
والذي من شأنه أن يعين جهود الحكومة وقطاع الأعمال والمؤسسات والمواطنين .
ويتعين على الحكومة والمؤسسات الأخرى مثل الجامعات وهيئات المعايرة والمجموعات
الصناعية أن تتكاتف وتعمل معا من أجل ضمان أن بيئة مشروعات الأعمال تحفز
زيادة الإنتاجية

وتمثل عملية تيسير تشكيل التجمع العنقودي والارتقاء به ، في الإطار المفاهيمي
للإنتاجية ، دورا متزايد الأهمية لكل من الحكومة والقطاع الخاص . ويتباين هذا النهج
تباينا حادا مع النهج التاريخي في السبب الصناعية حيث كانت الصناعات
أو القطاعات المستصوبة هي الهدف الذي تسعى الحكومة لتطويره . وهكذا تركزت
سياسة التصنيع على الشركات المحلية واعتمدت على تدخل الحكومة في المنافسة
عن طريق السياسات الحمائية والنهوض بالصناعة وتقديم الإعانات . ومن ثم كانت
القرارات مركزية إلى حد كبير جدا على المستوى القومي ، وهو ما يذكرنا
بالتخطيط المركزي .

ولكن مفهوم التجمع العنقودي مختلف تماما إذ ينهني على فكرة أن جميع
التجمعات العنقودية يمكنها أن تسهم في رخاء الأمة ، وأن الشركات المحلية والأجنبية
تدعم الإنتاجية ، وأن تحقيق الروابط والبيئة التكاملية المنقطعة في الصناعة يمثل
مصادر جوهرية للميزة التنافسية التي يلزم تشجيعها . وعلى الرغم من أن الاستهداف
الصناعي يرمي إلى إفساد وتشويش المنافسة لصالح الأمة ، إلا أن السياسات القائمة
على تكوين التجمعات العنقودية تسعى إلى تعزيز المنافسة عن طريق تعزيز الأدوار

إلى الخارج وإزالة العوائق على الإنشاعه وبه والانسحابه هذا ١٩٨٠ حتى أن أصبح
الجمع العنقودي أكثر بعدا عن الامركزية وشجع المبادرة على مستوى الدولة
والمستوى المحلى

السياسة الاقتصادية وعملية التطوير

التقدم الاقتصادي عمليه ارتقا. متديعة وعظيمة تنمو خلالها عناصر...
عشروا. الاعمال للامه بحيث ندعم أكثر فأكثر طرق الماسه المتقدمة والمنشرة
إنجيا رتباين الأسسبات عن منظور بنه مشروعات: الأعمال مع اسقال الأعمه من
الدخل المنخفض ثم المتوسط وصولا إلى الدخل المرتفع وتتدفق المؤسسات أساسا.
خلال مرحة الامور الاولى، حول الأيدي العاملة الرخيصه والموارد الطبيعية وينتمى
التحدى الرئيسى للإفلات من هذا الوضع، ومن ثم لكو تتجاوز الأعمه طاله الفقر. فى
ارتقا. الأمه بعدخلاتها ومؤسساتها ومهاراتها على تحدي يسمح بوجه أشكال: أكثر
نقدنا من المنصه تقضى إلى ريادة الإنماجه. ويستلزم هذا أمورا مثل الارتقا.
برس انال لشئرى، وحسين المرافق، والانفاج عن التحدره والاستثمار الأجنبيين.
و. عايه المنكيه الفكرية، والارتقا، بمعبره التنظيم لمرض المحسنت عن نوعية
الإنتاج والتشير البيئى والتوسع عن الدمج الإقليمى

ولكى تنتقل الامه إلى المستوى المتوسط للتطوير، يجب أن نركز أكثر فأكثر على
تحسين نوعية موردنا البشرية، ودعم الطلق المحلى المتقدم، وتطوير أساسه تعلمى.
و ضمان منافسة محببه. وكذا تطوير بنه أساسه معقده للخطومات والامتالار.
ويتعين على الحكومه العنق فى تعاون مع القطاع الخاص والجامعات وغيرها من
المؤسسات لإنشاء. تجمعات عمه ودية مكينه ولكى يصل البلد إلى مستوى الاقتصاد
المتقدم يعين على البلد اسسه ذات قدرة إبداعه، كافي حدود الثقافه العالميه، والتي
تشكل عمادا للمؤسسات نعتبد عليه لابتكار بلمع وخضعت قريده، يمكن أن نحقق
أجورا عالية للمواطنين ويستلزم هذا خطوات مجده مثل زياده الاستنز عن البحوث

الأساسية. وتطوير تجمع من العاملين العلميين والنفاسين امزاد ونمو بإفراد،
وتوسيع نطاق الفرص المتاحة لرأس المال المشترك

دعم الرخاء : دلالات المعتقدات والاتجاهات والسنوك

تكشف هذه المناقشة بشأن الأسس التنافسية للاقتصاد الجزئي عن بعض المعتقدات والاتجاهات والقيم التي تدعم وتعزز الرخاء. وإن من بين أهم هذه المعتقدات محورية المعتقدات السائدة بشأن أساس إنجاز الرخاء ذاته، ذلك أن اتجاهات الأفراد والمنظمات وسلوكهم الاقتصادي تتأثر بقوة بما يرونه سبيلهم للثروة. إذ ربما يكون المعتقد الأكثر أساسية لنهوض بتطوير اقتصادي ناجح هو إقرار أن الرخاء رهن الإنتاجية وليس التحكم في الموارد أو النطاق أو أفضليات الحكومة أو السلعة العسكرية، وأن إظهار فهم الإنتاجية على هذا النحو مفيد للمجتمع وطبيعي أنه بدون مثل هذه المعتقدات ستكون الهيمنة للأنشطة الريفية والاحتكارية، وهذه حالة مرضية يعاني منها كثير من البلدان النامية.

عقيدة أساسية أخرى تدعم الرخاء تفيد بأن الإمكانيات المضللة للثروة لا حدود لها، لأنها رهن أفكار وخبرات وليست جامدة بسبب ندرة الموارد. إذ إن الثروة يمكن توسيع نطاقها بحيث تتسع للكثيرين عن طريق تحسين الإنتاجية. وتعزز هذه العقيدة خطوات دعم الإنتاجية في جميع أرجاء المجتمع، وهو ما من شأنه تعظيم حجم الكعكة. وتجد في المقابل رأي بأن الثروة ثابتة ولا علاقة لها بالجهد، وأن هذا يفضي إلى الصراع الذي يدور بين الجماعات المختلفة بشأن توزيع الكعكة. وأن هذا الانتغال أو الهم السابق يضعف حتما الإنتاجية ولا مراء في أن هذه النظرة العالمية عن المحملة - صفر، أي إما مكسب أو خسارة، هي محور لب نظرية الثقافة الزراعية الشاملة⁽⁴³⁾

ويفضي الإطار المفاهيمي عن الإنتاجية productivity paradigm إلى ظهور سلسلة كاملة من الاتجاهات والقيم الداعمة الابتكار خيرا، والمنافسة خيرا، والمسئولية

المحاسبه خبره، والمعايير التطبيعية المرغوبه ذمير، والاستثمار في القدرات والنعانه
ضرورية، والقوى المعامله رصيد من الاصول، وعضوية النجم العنقودي مميزه سافسه،
والتعاون مع الموردين والعملاء- مفيد، وبشكل شبكات وعلاقات ترابط أمر جوهري،
وكذلك التعليم واكتساب اشهارات أمر لا غنى عنه للتعبير بحمل أكثر إنتاجية. وزيادة
الأجور ومن زيادة الإنتاجية، وغير هذا كثير. ولنا أن نقارن ما سبق بالاتجاهات
والقيم غير الإنتاجية: الاحتكار خيرا، والسلطة تحدد المكافآت، والرائية الصارمة
ضرورية لضمان السيطرة والتحكم، وعلاقات الأسرة المكثفة بذاتها هي التي
تحدد المشاركة.

وسوف نجد في أي بلد فوارق بين الجماعات والأفراد من حيث النعمهات
والانجاعات التي يؤمنون بها. ولنا أن نصور أيضا أن التطوير الاقتصادي يشكله
جزئيا الصراع الشرس بين جوانب الثقافة الاقتصادية الداعمة للإنتاجية في بلد ما،
وجوانب الثقافة التي تفضي إلى ضعف وتاكل الإنتاجية. ونجد تركيزا كبيرا موجهها
على نحو خاص إلى معتقدات واتجاهات قادة الحكم والصفوة من رجال الأعمال. إذ
يمكن لحكومة قوية أن تفرض ثقافة اقتصادية مثمرة، ولو لفترة زمنية محدودة على
الأقل. ولكن النوافق مع مصالح قطاع الأعمال لابد وأن يتعوى باطراد وإلا سوف يباطئ
التقدم الاقتصادي مع العودة إلى الوراء. ويستلزم التغيير المستدام العمل على نشر وإشاعة
المعتقدات والاتجاهات والقيم الإنتاجية بين العمال وهي المؤسسات مثل الجامعات ودور
العبادة، ثم أخيرا إلى المجتمع المدني. هذا وإلا سنكون نمة حاجة أو افتقار إلى الدعم
السياسي للسياسات الداعمة للإنتاجية والتي تشكل تحديا للمصالح الراسخة

وكشفت جهودى عن أن تعميل الثقافة الاقتصادية هو من أكبر التحديات في
سبيل تعزيز القدرة التنافسية الوطنية في مجالات كثيرة، وبدأنا نعرف الكثير على
نحو أفضل عن السياسات والسلوكيات الداعمة للقدرة التنافسية. والمشكلة الآن هي
فيولها والواقفة عليها يصدق. ومن ثم فإن جانبها مهما من عملية التطوير الاقتصادي
يسهل في الشق التعليمي، ذلك لأن كثيرين من المواطنين، بل من قادة البلاد، يفتقرون
إلى إطار عام لفهم الاقتصاد الحديث، ومعرفة دورهم فيه، أو أنهم يلومون جماعات

أخروا عن ذلك جمع على ما هو دأبهم وكثيرا ما يهين فصولهم عرضا لفكر
نوع المصالح الخاصة لإحداث التعبيرات التي من شأنها أن تفيد، وعلى نطاق واسع،
رخاء الأمة

لماذا تكتسب الأمم ثقافات غير إنتاجية ؟

لغة موفق منزيد في الأراء بشأن ما يحدد الرخاء. وكذا يشنّ المعتقدات
والاتجاهات والقيم التي تعزز التقدم الاقتصادي. إذن لماذا توجد أديان ثقافية ذات
اقتصادية غير إنتاجية؟ ولماذا تترسخ وتدوم في مجتمعات معينة؟ هل يعنى الأفراد
والشركات عن علم ومعرفة بوسائل مماهضة للمصلحة الذاتية الاقتصادية؟

الإجابة عن هذه الأسئلة معقدة، ولكنها تبيح مجالاً خصيباً لكل من الباحث
والممارسة. من الواضح أن المصالح القريبة والمجتمعية يمكن أن تتباين وتتعاقد، وأن
الأفق قصيرة المدى يمكن أن يقود إلى اختيارات وسلوكيات تحل ضد المصلحة بعيدة
المدى. ولكن ليسمح لي الفارئ بأن أقترح عدداً من الإجابات الأوسع نطاقاً. أولاً،
نشأت الثقافة الاقتصادية في الأمة متأثرة فويماً بالأفكار المتداولة أو الإضرار الفكري
الساك بشأن الاقتصاد. وعرف القرن العشرون العديد من النظريات البديلة التي
تفسر أسباب الرخاء، بدءاً من التخضيب المركزي، مروراً بالقدرة على الاستيراد
import substitution وحتى تراكم عوامل الإنتاج factor accumulation. وترسخ هذه
الأفكار وضربت جذورها في المجتمعات من خلال النظام التعليمي وتأثير المثقفين
وغالباً الحكومات علاوة على عدد لا يحصى من الوسائل الأخرى. وغالباً ما يسود في
الوقت نفسه جهل بشأن الاقتصاد الدوائى وطبيعة عمله حتى بين القادة السياسيين
أنفسهم، وخلق الجهل فراغاً يسمح باضداد بقاء هذه المعتقدات

إن ما يؤمن به الناس أنه حشهر وسبب للرخاء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفية
سلوكهم وتنعكس المعتقدات في الاتجاهات والقيم. ومن ثم فإن الثقافة الاقتصادية
غير الانسانية غالباً ما تظهر بسبب الجهل أو بسبب الإهمال لسوء الحظ، بنظريات

معبية أكثر مما يظهر بسر سمات، مجتمعها راسخة في النفوس، ويحدث أحيانا أن يكون قبول طراز معينة مسألة أندواوجوية خالصة، ولكنه أحيانا أخرى ملازم، وبين الصلة بتماثل مستصوية للحكم السياسي والملاحظ أن نظم الحكم العسكرية نفذت في الغالب الإبدال عن الاستيراد، وبمبادئ لاكتفاء الذاتي، على سبيل المثال، لأن هذا النهج يعبر سلطانهم ويحكم سفوتهم على الخواطر، ويجدير بالملاحظة أن الأمم التي استطاعت أن تنأى بنفسها عن الأفكار الخاطئة، أي كانت الأسباب، استفادت من حيث الرخاء، والاقتصادى .

ثانيا، تدعو الثقافة الاقتصادية مستمدة أساسا من السياق اناضى والرائس للاقتصاد الجبرى، حقا إن الأفراد يمكنهم العمل بوسائل قد تضر المصالح الجعنة للمجتمع أو المنفعة الذئبة القومية، بيد أن خبرتى عمضى أنه نادرا ما يعمل الأفراد عن علم بوسائل غير إنتاجية مساوية لمصالحهم الذاتية أو لمصلحة الذاتية للشركة ومن ثم فإن من العسير فصل الخاصيات الثقافية عن تأثير بيئة قصع الاعمال فى شموله أو من مؤسسات المدعة مع إجمالاً إن الطريقة التى سلك بها الذات هي المجتمع وتذو الصلة بالإستراتجى والحوافز التى تدخل لمنظومة الاقتصادية التى يعبتون فيها

مقالى ذلك أن المرء كثيراً ما يسمع شكواوى عن العمال فى البلدان المتأخرة كأن يقال إنهم ينصفون بأخلاق عمل سيئة، ولكن ما الذى تنوقه إذا أم يكن العمل استثنى والجهد يلقى مكافأة، وعازا توقع إذا لم يحدث أى تقدم منها بشأن المرء، من جهد فى عمله، إن أخلاقيات العمل فى اعة ما لا يمكن أن نفهمها منفصسه عن النظم المتدمن للحوافز فى الأة، حساد، وبعد بالمثل أن شركات فى البلدان انامية غالباً ما تلزم بالوكا انتهازيا ولا تلزم تحليطيا حسب اتفاق بعيدة المدى، ووقع الحال أن هذا السلوك قصير المدى يمكن فى الغالب أن يكون رشيدا فى بمة تتصف سياسات الحكومة نفسها بعدم الاستقرار والعجز عن التدور، ما سوف يحدث ونفخط بالمثل أن الشركات المعنبة بالأنشطة الربعية تكون عادة قرين نظام سياسى يكافئها على نشاطها.

وهكذا غالباً ما تكون للخصائص القومية المعزولة للثقافة حضور اقتصادي وحير مثال هنا نظام العمالة مدى الحياة في اليابان، ومعدلات الادخار المرتفعة لديها لقد كانت العمالة مدى الحياة بعيدة تماماً عن المبدأ المعمول به في اليابان قبل الحرب العالمية الثانية، وتقرر أصلاً بخرش السيطرة على النزاعات العمالية التي سادت في اليابان في مطلع الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. ويسود اعتقاد بأن معدلات الادخار العالية ترجع في الأساس إلى تكريبات الصرمان في زمن الحرب والاثار المترتبة عليها، علاوة على التقاعد في سن مبكرة نسبياً والافتقار إلى نظام معاش متطور، ثم أن التكاليف الباهظة لامتلاك بيت تستلزم تراكماً رأسمالياً كبيراً

وهكذا يبدو عسيراً فصل السلوكيات المستمدة من قيم ثقافية عن سلوكيات دعها أو شجعها النظام الاقتصادي. وبحسب هذا الفهم يعزى التاريخ إلى الثقافة الاقتصادية تأثيراً قوياً ولابد خيرة أيام الرخاء، وكذا حيرة الأيام العجاف. ويجد القول باعتماد الثقافة على الظروف دعماً وتأييداً في ضوء نجاح أبناء البلدان الفقيرة حين يهاجرون إلى نظام اقتصادي مغاير وثمة أمثلة كثيرة جدا على هذا فنكر منها حالة بعض أبناء السلفادور الذين حققوا نجاحات مذهلة في الولايات المتحدة.

بالفأ، يمكن لاختيارات السياسة الاجتماعية أن تؤثر تأثيراً قوياً في الثقافة الاقتصادية نظراً لتأثيرها في سياق الاقتصاد. وخير مثال هنا السياسات تجاه شبكة الأمن الاجتماعي. إذ تؤثر هذه مباشرة في الاتجاهات إزاء العمل وسلوك الادخار الشخصي. والرغبة في الاستثمار من خلال التعليم الذاتي وتؤثر بشكل غير مباشر في جوانب أخرى كثيرة للسياسات الاقتصادية للأمم. حقا إن السياسات الاقتصادية والاجتماعية متداخلة على نحو لا انفصال بينها

معنى هذا أن قسماً كبيراً من الثقافة الاقتصادية يتعلمه الناس عن نحو مباشر وغير مباشر من الاقتصاد القائم وثمة استثناءات من بينها تلك المعتقدات والاتجاهات والقيم المستمدة من اختيارات اجتماعية أو معنوية خالصة، وليس من مصلحة ناتية أو اقتصادية. وإن الاتجاهات المجتمعية إزاء المواطنين المسنين، ومعايير التعامل

الشخصي والعالم الديني هي أسئلة على الاتجاهات والقيم الاجتماعية والأخلاقية التي يمكنها أن تصوغ الثقافة الاقتصادية على نحو مستقل كذلك فإن مثل هذه الاتجاهات والقيم لها أيضا دور كبير في تحديد أولويات السياسة الاجتماعية للأمم. وأكثر من هذا أن الاختيارات الاجتماعية والأخلاقية يمكنها أن تحلل آثار ظروف الماضي الاقتصادية وأثار التعلم في الماضي. ولهذا نرى أن الدين والفلسفة يمكنهما أن يبصرا ثقافة اقتصادية إنتاجية أو غير إنتاجية.

وإذا أخذنا هذه النجج جملة قائلها ندعونا إلى التزام الحذر عند رسم التوقعات الاقتصادية للمجتمع ما بسبب الثقافة. البلد س غير ناجح لأن العمال فيه كمالى والشركات فاسدة. ولكن ماذا نتوقع إذا ما نظم المجتمع معتقدات اقتصادية مفيرة وأسس قواعد لنظام اقتصادي مختلف؟ ونقول بالمثل أيضا أن من النظر اليوم، ونحن نعيش اقتصادا كوكبيا فوعرت له سبيل الوصول إلى سقانة ومعرفة ستقدمتين، أن نركن فقط إلى تفسيرات جامعة سائدة للرخاء مثل الجغرافيا أو المناخ أو الدين.

يفيد كل ما سبق أن الثقافة الاقتصادية راسخة ويصعب تغييرها، ولكنها ليست بالصعوبة التي يفترضها البعض أحيانا. ونخص بالذكر هنا تلك المعتقدات والاتجاهات والقيم غير الإنشائية، إذ يمكن تغييرها إذا كفت المعتقدات السائدة عن دعمها أو توقف عن تعزيزها واقع السياق المتضرب الذي يواجهه المواطنون والشركات. ولا ريب في أن التخلي عما سبق تعلمه سيواجه عوائق من الجهل والشك والصور. ولكن خيرة العقود الأخيرة تعلمنا أن بإمكان الأمم تعديل ثقافتها الاقتصادية بسرعة إذا ما جرى هذا في ظل ظروف وأوضاع صحيحة⁽¹⁾ نعم، ثمة أسباب للمك في أن سرعة التغيير المحتمل يمكن أن تتزايد، وهذا ما سوف أناقشه.

التقارب الكوكبي حول ثقافة الإنتاجية

هذه الظروف السببية والافتصادية العالمية في مدى التاريخ سجلا تظهير
سابقا واسعة في الثقافة الاقتصادية وكما سبق ان اشرنا فقد ظهرت نماذج
اقتصادية جديدة النبين والطرد بقاتها. في بعض الحالات، على مدى عقود طويلة في
عدد من الأمم. ولمسى ان ثبات هذه النماذج اثنى سنة وبثباتها الناجمة عنها على
العناصر الاقتصادية الفعلة: نص عكس الأوضاع السابقة أيضا. ولقد كان الاقتصاد
لنولى أقل تعول على مدى السبعين أو الثمانين سنة الماضية. ولهذا كان
الاقتصادات القومية أعل تعرضا للمنافسة الدولية، خلف السياسات الحمائية في
بلدان كثيرة دائما أكثر اكنفا. بذاته، ولا ريب في أن الاقتصادات، يمكن أن يوصل
سياسات وسلوكيات غير إنتاجية على مدى عقود حتى وإن لم تتحسن الإنتاجية
وأضحت القوة العسكرية والتحفز في السياسة الأنماط التجارية، إذ أخذت المزيد من
الرسائل المزيفة عن الرخاء الاقتصادي. ومن هذا فإن النزعة الحمائية ذاتها تم التامى
علمت بدورها الأمم الأثمة عمرا أن عجبها أن يبيع مواردها الطبيعية وليد الحامنة
الرخيصة فيها لكل من أوروبا والولايات المتحدة مما ألقى ارتفاعا باقتصاداتها كذلك
في أن السيادة الكوكبية التي صاغتها الحرب الباردة ضاعفت من عزلة الأمم وعن
صحتها إلى التغيير الاقتصادي. وبذقت كميات هائلة من المعونات الأجنبية على
البلدان النامية مما ساعد وضع القاعدة بر الألفية. وأضحى السياسات
الاقتصادية الكريمة

وتعزز بقاء الثقافات الاقتصادية غير الإنتاجية بسبب العزلة والقدرات المحدودة
للبلدان الأفقر من خلال دون تحسين أوضاعها. وبثباتها كان المواطنون معزولين
ولا علم لهم بسواكيات. ديلة وكان التغيير الثقافي تا وتيرة شديدة البطء بحيث إن
كلمة التخلي الثقافي أو النصيفات المنتشرة لتفقات لم تكن مسرودة وكبيرة كما هي الحال
اليوم. مما كان له أثره أيضا على برامج السياسات الرامية. وانتشرت الخبرات
الاقتصادية والإدارية بيضا شديدا نسبيا، كما كان الاستعمار الأجنبي أكثر بظن. وكان
الروح النولى للمعارف والخبرات الخاصة بمشروعات الأعمال أكثر كلمة بكثير وأقل

كفالة: مما هو الحال الآن ونادرا ما كانت تجري دراسات مقارنة لقضايا الاداء بين البلدان. وهذه الافكار العديمة الحافنة عن الرضا، والسياسة الاقتصادية وعن الإدارة بصفة بل كانت. هي بعض الصلاوات نشئة وفاعلة، جزء مما من أصحابها ولكن مع إنجاز نماذج اقتصادية مختلفة استطاعت العوامل الثقافية أن يكون لها نور كبير في سبل العمل المتخاره وفي درجة نجاح البلد.

بيد أنها تواجه اليوم سديقا اقتصاديا مختلفا جريا. انتهى عصر الـ 1970، والتماسيح مع التصويب بصي، الحطيم، وحس حله شعور طاع بالضرورة المذممة بانوعا، بمقتضيات الاقتصاد الكوكبي ولم تعد ثقة بنفريات التطوير المناقضة مع الإطار المفاهيمي للإنتاجية نظرا لعجزها عن موكمة المناقضة المتكشوفة أو لعجزها عن حياهاه سرعة عمليات التقدم التقاني والإداري وبدأت تضيق أكثر فأكتر مساحة الخلاف في الآراء، أنه أن أسس الرخاء الاقتصادي واختيارات السياسة الملائمة وأخذت مروج وتنتشر بسرعة الآن للمعارف والخبرات بشأن عناصر الثقافة الاقتصادية الإنتاجية وأصبح المواطنون أكثر اطلاعا ومعرفه بالسلوكيات الناجحة في البلدان الأخرى ومن هنا بدأ التفرد يتزايد على صعيد كوكبي بشأن الار، عما يعكس الاعتقاد بأنه ناجح وعديم.

ويخلق الذة رب المتزايد بشأن الإطار المفاهيمي للإنتاجية ضغوطا قوية على البلدان التي اخفقت في استيعابه. ذلك أن السياسات والسلوكيات الاقتصادية بتزاس تقديرها وقياسها ومقارنتها بين البلدان وتقرض أسواق المال عقوبات على البلدان التي تفقر إلى مميزات صحية وسليمة وتعزف الاستثمارات الأجنبية عن المشاركة إذا لم تهجي البلاد بينه مشروعات أعمال إنتاجية، كما يفقد العمال وطائفيهم إذا لم تتوفر لديهم أخلاقيات عمل جيدة. وأصبح القادة السياسيون مسئولين أكثر فأكتر أمام قوى اقتصادية أوسع نطاقا. حتى وإن لم يكونوا مسئولين أمام مواطنيهم كذلك فإن التقدم السريع في القارة يزيد من خصائص العزلة عن الممارسات الدولية أو عدم تبنيها. وهذا كله يضاعف من أثر الضغوط على البلد.

والنتيجة أن أمما ككثيرة نكاد. بدرجات مختلفة للدجاج من أجل ،، أن الثقافة الإنتاجية والنمط كمثل أمريكا الوسطى. عاشت ،، أن المطلقة فرونا على ظل سياسات قومية ذات نظرة محلية إلى الداخل. ولكن اليوم تطلت ،، بالبينها عن هذه السياسات، والتزمت عملية انفتاح واتجهت إلى الاندماج الاقتصادي من خلال التنسيق في إطار مرافق النقل، والممارسات الجمركية. علاوة على خطوات أخرى ونجده جميع بلدان أمريكا الوسطى بحو تبنى المنافسة والإنتاجية، ذلك أن قوى العولمة دفعت هذه البلدان الصغيرة إلى وضع مصالحها لتوطئة جانبيا واتخاذ خطوات واسعة في اتجاه التغيير.

وتهيئ العولمة في الوقت ذاته عامل ضبط وتحكم قوي لسلوكيات غير الإنتاجية، وذلك بكافة الجوانب الإنتاجية للثقافة الاقتصادية في صورة تدفقات غير مسبوق لرأس المال والاستثمارات والتفانة والفرص الاقتصادية. كذلك فإن هذه الاقتصاد الكوكبي نفسه يمكن الأمم الراقية في تبنى السياسة الاقتصادية الجديدة من تحقيق معدلات تقدم مذهلة وأصبحت المحارف والخبرات والتفانة ميسورة ومتاحة على نحو غير مسبوق. وتهيئ التفانة الحديثة إمكانية نقل السلع بكفاءة عبر مسافات طويلة، كما تهيئ إمكانية إنجاز النشاط التجاري بسرعة وفعالية في مناخات متباينة ولكن البلدان التي تعيش أسيرة البنية الذهنية القائمة على المجزة السببية تظل مقيدة بما تملكه من هيئات طبيعية. ولكن البلدان النامية، إذ تعيش في عالم أصبحت فيه الإنتاجية والبادرة والتعلم محددات الرخاء، تجد فرصا غير مسبوقه متاحة لها من أجل تعزيز ثروتها

والحقيقة أن قوى الاقتصاد الجديد مكنة نافذة المفعول حتى أنه ليس من المبالغة القول إن الثقافة الاقتصادية لم تعد مسألة اختيار. والسؤال الآن هو. هل يمكن لبلد ما إن يتبنى طوعيا ثقافة اقتصادية إنتاجية عن طريق تغيير المعتقدات والاتجاهات والقيم القديمة التي تحوق الرخاء. أم أنها ستتغير في النهاية قسرا؟ وأصبح السؤال متى وكيف وبأية سرعة تتغير الثقافة الاقتصادية وليس ما إذا كانت ستتغير أم لا. وعلى الرغم من أن المواطنين المسنين الذين نشؤوا وترعرعوا في ظل النهج الاقتصادية

العديدة سيقاومون التغيير في غالب الأحيان، إلا أن أجيال المدبرين الشباب ممن ناهزوا العامين أو الثلاثين من العمر قد تهيروا في ظل الثقافة الاقتصادية الجديدة، وغالبا ما توفر لهم التدريب في معاهد تولية لمشروعات الأعمال وهكذا تهيأت قوة إضافية للتغيير من داخل صفوف نخبة مشروعات الأعمال في كثير من الدول النامية.

ولذا أن نسأل ونحن في الاقتصاد الحديث الذي يفرز ضغوطا قوية على المجتمعات لتبني معتقدات واتجاهات وقيم متسقة مع الإطار المفاهيمي للإنتاجية، هل للثقافة التأثير نفسه داخل النطاق الاقتصادي الذي كان لها في ظل نظام اقتصادي مغاير؟ غالبا ما نجد التفسيرات التاريخية مشتملة على حوارات غنية عن أثر الخاصيات الثقافية على المجتمعات وعلى مسارات تطورها. وذلك لأن هذه الخاصيات تاريخيا عمت ثابتة تفرز تأثيرات قوية على التشكيل الاقتصادي للمجتمعات. ولكن يكاد يسود اتفاق في الرأي على أن التقارب بين الأفكار الاقتصادية وضغوط السوق التكنولوجية قد أدى إلى خفض نطاق تأثير المتغيرات الثقافية في المسارات التي يمكن أن تختارها المجتمعات.

إن ما نشهده اليوم، من نواح كثيرة، هو ظهور جوهر ثقافة اقتصادية دولية تنفذ إلى داخل الشعب الثقافية التقليدية، وبدأت منذ داخل معها وبزئرها أكثر وأكثر بالمراد. ومن ثم فإن طائفة من المعتقدات والاتجاهات والقيم المؤثرة في الاقتصاد سوف تغيب مشتركة ورائجة، وإن الجوانب غير الإنتاجية للثقافة سوف يغاري بفعل ضغوط الاقتصاد التكنولوجي وما يهيئه من فرص. وثمة دور مهم للثقافة في الرخاء الاقتصادي سوف يبقى وربما يغيب دورا أكثر إيجابية. أما الجوانب الفريدة المميزة لمجتمع ما والتي تؤدي إلى ظهور حاجات غير مألوفة ومهارات وقيم وأنماط عمل فمستوى جوانب مميزة للثقافة الاقتصادية. ومن ثم فإن الجوانب الإنتاجية للثقافة، مثل حرص كوستاريكا الشديد على الإيكولوجيا، والهوس الأمريكي لحياة ميسرة، وعشق اليابان للألعاب والكرتون، فسوف تصبح مصادر أساسية للميزات التنافسية التي يصعب تقليدها، وتؤدي إلى ظهور تخصصات تولية بحيث يتزايد إنتاج أهم بذاتها من هذه السلع والخدمات التي تهيئ ثقافتها ميزة فريدة في مجال إنتاجها.

وهكذا سوف نطل الفوارق الثقافية بافقه بقمدا على الرغب من زائد السغارب الكوكبي بشان الإظار المفاهيم للإنتاجية. إن العولة ان يسنصل الثقافة على محسو ما يحسنى البعض. وتكن بدلا من انعزال بعض الشعوب باخس سلبياتهم الاقتصارية. يمكن لهذه الفوارق الثقافية أن تسهم بجعل المزايا المتخصصة على درجة عالية من الأهمية من أجل تحسين فرص رحاء الأمم باخل الاقتصاد الكوكبي. ولا ريب فى أنه فى ظل قنصاد كوكبي يسمح بأز تتدفق أمور كثيرة فى يسر وسهولة من أى موقع، يصبح لزاما أن ترحب بالفوارق الثقافية التى تجس: مكانسه لظهور منسجات وخدمات مميزة

هوامش على علم اجتماع جديد عن التطور الاقتصادي

جيفري ساكس

مقدمة : لغز النمو

اللغز الأكبر في مسألة التطوير الاقتصادي هو لماذا بنعز إنجاز نمو اقتصادي مستمر قبل عام ١٨٢٠ لم يكن شئ اسمه هو اقتصادي مستديم. ويذهب أنجوس مادسون في تقديراته (١٩٩٤) إلى أن النمو العالمي لنصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي دار في المتوسط حول ٤٠ بالمائة في المائة من ١٥٠٠ إلى ١٨٢٠. وبينما استطاعت أوروبا الغربية ومستعمراتها في شمال أمريكا ومنطقة الأوقيانوس أن تحرر نفسها تتجاوز به الأقاليم الأخرى ابتداء من عام ١٨٢٠ إلا أن الهوة بين غرب أوروبا والمنطقة الأقر في العالم (أفريقيا جنوب الصحراء) لم يتجاوز ٣ إلى ١ حسب تقديرات ماديسون.

وشهدت جيبس المناطق في العالم زيادة في نصيب الفرد من الدخل بعد عام ١٨٢٠. تزيد زيادة في النمو العالمي بلغ ١,٢١ بناتئة في السنة خلال الفترة من ١٨٢٠ وحتى ١٩٩٢. ولكن ظل النمو غير مطرد للعادة، ونزاد تقدم مجموعتين من الأمم مع عام ١٨٢٠، وهما غرب أوروبا وهونغها: حسب تسمية ماديسون (الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا). وتوافق هذه البلدان اليوم أكثر مناطق العالم

تقدما. ونلاحظ أن من بين أغنى ثلاثين بلدا في العالم عام ١٩٩٥ توجد ٢٦ بلدا منها في غرب أوروبا أو كانت من بين الفروع الغربية. ويوجد خمس منها في آسيا هونج كونج واليابان وكوريا وسنغافورة وتايوان. وتضم البلدان الأربعة الأخرى بلدين نفطيين صغيرين (الكويت والإمارات العربية المتحدة)، وإسرائيل وشيلي. ويبلغ سكان البلدان الثلاثين حوالى ١٦ بالمائة من سكان العالم. ومع حلول تسعينيات القرن العشرين. اتسعت الهوة بين المنطقة الأغنى (الفروع الغربية) والمنطقة الأفقر (أفريقيا جنوب الصحراء)، إذ زادت إلى حوالى واحد وعشرين.

وثمة ثلاثة تفسيرات عامة يمكن أن تساعدنا على فهم لقرن النمو

• الجغرافيا: ثمة أجزاء معينة في العالم مميزة جغرافيا.

وقد تشتمل الميزات الجغرافية على سبل للحصول على موارد طبيعية رئيسية، والوصول إلى شريط ساحلى والبحر - أنهار صالحة للملاحة، قرب المسافة للاقتصادات الأخرى، وظروف إيجابية للزراعة، وظروف إيجابية للصحة البشرية.

• النظم الاجتماعية: ثمة نظم اجتماعية معينة دعمت

وساندت النمو الاقتصادى الحديث بينما لم تفعل أخرى ذلك. وارتكزت النظم قبل الرأسمالية على القنانة والعبودية والعبازات غير القابلة للصرف ... الخ، وعمدت إلى إحباط النمو الاقتصادى الحديث. وأثبتت الاشتراكية خلال هذا القرن أنها كارثة بالنسبة للرفاه والنمو الاقتصادى، كذلك الحال بالنسبة للحكم الاستعمارى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، إذ حال بوجه عام دون تحقيق معدلات مرتفعة من النمو الاقتصادى.

• التغذية العكسية الإيجابية: أدت عمليات التغذية العكسية الإيجابية إلى تعظيم مزايا عمليات التصنيع الباكورة، ومن ثم وسعت الهوة بين الغنى والفقير. أولاً، استقلت البلدان الأوروبية الصناعية الأولى المناطق المتقاعسة عن طريق الاحتلال العسكري والحكم الاستعماري، وانهارت أكثر تلك البلدان المتقاعسة عندما تهدتها الأمم القنية عسكرياً واقتصادياً. ثانياً، اتجهت الهوة التقانية بين البلدان المتقدمة والمتخلفة إلى الاتساع بدلاً من أن تضيق مع الزمن. والمعروف أن الابتكار التقني أشبه بسلسلة متصلة وممتدة الملقات من ربود الأنحال حيث الابتكارات الجديدة تهيئ وقوداً لإنتاج المزيد من الفتحاح .

والملاحظ أن النظرية الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة لا تجيب على لغز النمو. ذلك لأنها تغفل أدوار الجغرافيا والمؤسسات الاجتماعية والليات التغذية العكسية وأكثر من هذا أن بيناميات الابتكار ظلت دراستها دون المستوى اللازم حتى عهد قريب ولا تنظر الاقتصادات الكلاسيكية الجديدة إلى التطوير على أنه في الحفافة تحدياً قبل كل شيء. أما الأسواق فهي مسلمات، وتفترض أن البلدان عليها أن تدخر وتراكم رأس المال. بينما من المفترض أن التفاقة ورأس انال بدنهان طبيعياً عبر الحدود القومية. وحيث إن الناتج الحدي لرأس المال يكون في بلدان قدرة رأس المال أعلى منه في البلدان الغنبة برأس المال، وحيث إن البلدان المتخلفة تقانياً يمكنها استيراد التقانات من البلدان الأغنى. فإن من المتوقع أن تنمو البلدان الأفقر أسرع من البلدان الغنية.

لذلك فإن الاقتصادات الكلاسيكية الجديدة براودها تفاؤل راسخ بشأن افاق التقارب الاقتصادي. اتجاه البلد الفقير إلى النمو أسرع من البلد الغنى، وأن هوة مستويات الدخل سوف تضيق. وطبعاً أن علماء اقتصاد المدرستين الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة أقرروا منذ أيام آدم سميث بأن المؤسسة الاقتصادية الخاطنة يمكنها أن تعوق النمو. بيد أن تفاؤل الاقتصادات الكلاسيكية الجديدة دعمته وأيقته

الفترة الثالثة إن المؤسسات الاقتصادية الخاطئة سوف تكتسبها المتأخرة المؤسسة أو يصبح بها الاختير العام

إن الاقتصادات الكلاسيكية الجديدة تفيد بقاها في تفسير مراحل «سورة مهمة من النمو الاقتصادي السريع في الفترة الحديثة. مثال ذلك أن صعود اقتصادات شرق آسيا خلال العقود الأخيرة مدين إلى حد كبير للتراكم السريع لرأس المال والنقطة في منطقة ندرية رأسالية ومعتمدة من السيولة كذلك بالمثل فإن ضيق اليد بين شمال أوروبا وجنوبها خلال فترة ما بعد الحرب مرتبط بتمسك باليات التقارب التي تشدد عليها اقتصادات الكلاسيكية الجديدة. وعوضا لتقول إن ذلك لأن الافتراضات التي يفرضها إطار الكلاسيكية الجديدة «سورة تماما على أوضاع غرب أوروبا والمشكلة الرئيسية إن البار التقارب هذه لا تطبق إلا على أوضاع محددة ونست على جميع العمليات العامة

ويرسم هذا الفصل ملامح عامة لإطار سيولوجي موسع عن أجل فهم الخريطة غير المطردة للنمو الاقتصادي العالمي وأؤكد أن أية نظرية علائمة لابد وأن تناول الجغرافيا الطبيعية وتطور المؤسسات الاقتصادية وأن يتلى هذا الناول في وقت واحد في ضوء التغير الاجتماعي الداخلي وكذا في ضوء تفاعل المتغيرات مع بعضها عبر الحدود القومية.

دور الجغرافيا

إذا كان على علماء الاجتماع أن يقضوا وقتا أطول منطلقين الخرائط فحري بنا أن نذكرهم بالانماط الجغرافية الفعالة والكبيرة في التطوير الاقتصادي. ويرى هنا ستان أساسيان الأول، المنطقة المعتدلة في العالم. وهي الأكثر تضررا من الانسوائية (تلحظ في قائمة البلدان الأغنى الثلاثين والذين فقط هم هونج كونج وسنغافورة في المنطقة الانسوائية. وبضمان أقل من واحد بالمائة من إجمالي سكان البلدان الثلاثين الأغنى) ثانيا، المناطق لتأنية جغرافيا. سواء تلك التي تبعد عن السواحل البحرية أو الأنهار الصالحة للملاحة أو ذات طبيعة جبلية مع كثافة زهيلة للنقل الداخلي والدولي.

وهذه البلدان أقل تقدماً بكثير من المجتمعات ذات السهول الساحلية أو ذات الأنهار المصالحة للملاحة والمعروف عادة أن الدول الداخلية الخلفية غير الساحلية تواجه تحديات المشاكل. إذ إنها في ن واحد بعيدة عن السواحل، ومن ثم يتعين عليها أن تعبر حدوداً سياسية لبلد واحد على الأقل لتتسوق طريقها إلى التجارة الدولية. وإذا كانت أوروبا ترمو بأن بها بعض الاقتصادات الغنية وغير السطحة (ونخصر بالذكر النمسا ولوكسمبورج وسويسرا) إلا أن هذه البلدان تتسنع بعبء أنها معالجة باقتصادات سطحية غنية ولكن الملاحظ في أنحاء أخرى من العالم أن البلدان غير الساحلية جميعها بلدان فقيرة.

أما عن أسباب شيوع الفقر في المنطقة الاستوائية فهي أسباب مركبة غير أنها ظاهرة عامة ماثلة في جميع أنحاء العالم. ومن لدينا في الحقيقة تقسيماً بين شمال وجنوب في العالم، وإنما لدينا تقسيم بين معتدل واستوائي

ربما نجد ثلاثة تفسيرات أساسية لأطراف فقر بلدان المنطقة الاستوائية: عوامل زراعية وعوامل صحية وعوامل تنوع بيئية وتنظيم الموارد العلمية. إذ تواجه الزراعة الاستوائية العديد من المشكلات التي تفضي إلى نقص إنتاجية الحاصلات الناشئة بوجه عام، ولحاصلات الغذائية الرئيسية بوجه خاص: ضعف التربة الزراعية وماكل شديد للتربة، وإنهاء التربة بسبب ظروف الغابات الاستوائية المطيرة؛ وصعوبات في التحكم في المياه؛ وخطار الجفاف التي تهدد المنطقة الاستوائية الرطبة؛ الارتفاع الشديد في نسبة حواث الحشرات التي يهدد الثراعات والحيوانات؛ وارتفاع معدل الفاسد والنالف من المخزون؛ ونقص معدلات صافي إمكانات التخليق للموسني في المناطق التي تسودها درجة حرارة داغنة ليلاً، وتنمئ حاصله هذا كله في محدودة إنتاجية الغذاء في أكثر المناطق الاستوائية. وهناك منشآت تتضمن المناطق ذات التربة البركانية والغربية مثل أراضي دفا مهر النيل وجاوة، والودين المحصورة بين الجبال. حيث تقل درجة حرارة الليل وتضم المنطق الاستوائية كثيفة السكان كلا من أمريكا الوسطى والأنديز والبحيرات العظمى ومناطق الوادي الانكساري في شرق أفريقيا والندال الواقعة عند سفوح جبال الهيمالايا.

كذلك فإن عبء الأمراض المعدية يهبط بالمثل في المنطقة الاستوائية، وإنه وأكثر كلفة منه في المناطق المعتدلة. والملاحظ أن غلبة الأمراض المعدية في المناطق المعتدلة تنتقل مباشرة بين البشر (مثل السيل، والأنفلونزا، والالتهاب الرئوي، والأمراض التي تنتقل من خلال المباشرة الجنسية). ويوجد في المناطق الاستوائية عدد كبير من الأمراض المنقولة بالجراثيم (الملاريا والحمى الصفراء، ومرض الشistosوما ومرض المثقبيات والأوكوسرسيارزيس ومرض شاغاس [الدراق الطفيلي] ومرض الخيطيات [الفلاريا] والتي تحملها حيوانات تعيش وتتكاثر في المناخ الدافئ مثل الذباب والبعوض والرخويات، وهذه لها دور مهم في النقل بين عوائل الجراثيم.

وأدى الجمع بين الإنتاجية الزراعية الفقيرة وارتفاع نسبة الإصابة بالأمراض المعدية إلى حدوث العديد من الآثار السلبية: نسبة عالية من السكان تعمل بالزراعة بسبب عدم وجود فائض من الإنتاج الزراعي، وانخفاض نسبة التحضر، ونسبة تركز عالية في المناطق المرتفعة (مثل منطقة الهضاب المرتفعة في الأنديز ومنطقة البحيرات العظمى في أفريقيا) إذ يلجأ إليها السكان للهروب من مشكلات السهول الاستوائية شديدة الحرارة. ثم أخيراً انخفاض نسبة الأعمار الخوفاة وبدنى تراكم رأس المال.

ومظهر ثالث للعجز يمكن أن نقرره بالموقع الاستوائي. نعرف أن المناطق المعتدلة أكثر من المناطق الاستوائية من حيث الكثافة السكانية منذ ألفي عام على الأقل، وتكشف الحسابات التقريبية للغاية استناداً إلى بيانات ماك إيفدى McEvedy وجونس (١٩٧٨) عن أن المناطق الاستوائية ضمت حوالي ثلث سكان العالم على مدى الحقتين الألفيتين الماضيتين، وإذا كان النمو الإنتاجي مرتبطاً بحجم السكان، وإذا كان تقدم إنتاجية منطقة إيكولوجية لا ينتقل بسهولة إلى منطقة أخرى، فإن المنطقة المعتمدة كان لها الميزة الأكبر من حيث الاستيعاب أكبر نسبة من سكان العالم. ويبدو أن هذين الافتراضين يتصفان بالواقعية. لقد قفز نمو الإنتاجية بفعل الطلب الزائد، وتيسر النمو بفضل توفر عدد كبير من المبتكرين المحتمنين دائماً وبالمثل. فإن تقدم الإنتاجية في المنطقة المعتدلة في مجالات مثل الزراعة والصحة والتعليم لا يمكن تطبيقه على الأرجح على الظروف الإيكولوجية الأخرى المختلفة أشد الاختلاف في المنطقة

الاستوائية. وهكذا ليس من السهل انتشار معدل الإنتاج المرتفع في المنطقة المعتدلة إلى المنطقة الاستوائية.

وثمة بعد آخر رئيسي للجغرافية يتمثل في هبات الطبيعة من مصادر للثروة المعدنية خاصة مصادر الطاقة والمعادن الثمينة (مثل الذهب والماس). ففي القرن التاسع عشر وبما كانت كلفة النقل لا تزال مرتفعة جدا عند مقارنتها بما يجرى اليوم، كان الفحم مصدرا للطاقة لا غنى عنه لتصنيع الثقيل. ونعرف أن بلدان الشمال الأوروبي وجنوب أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط لا تتميز بالصناعة الثقيلة شأن بلدان حزام الفحم الممتد من بريطانيا عبر بحر الشمال إلى بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبولندا وحتى روسيا. ولا ريب في أن مناطق أخرى يمكن أن تتطور تأسيسا على الزراعة والصناعة الخفيفة، ولكنها لا تستطيع تطوير صناعة استخراج المعادن والمثل والصناعات الكيميائية. وخفت هذه القيود في القرن العشرين مع هبوط كلفة النقل واستخدام النفط والغاز والقوى المحركة المائية في حمل الضاق

وخبثي أن الجغرافيا ليست سوى جزء واحد من التفرز. والملاحظ أن عتاطو عديدة تقع في المنطقة المعتدلة لم تحقق إنجازا على الأقل بضارع غرب أوروبا وشرق آسيا (اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان) والفروع الغربية. وتضم المنطقة المعتدلة المنخلفة شمال أفريقيا والشرق الأوسط وأجزاء من نصف الكرة الجنوبي (الأرجنتين وشيلي وأوروغواي وجنوب أفريقيا). وكذا أجزاء كبيرة من وسط وشرق أوروبا، والاتحاد السوفييتي السابق ونحن بحاجة إلى أن نقل إلى النظرية الاجتماعية لكي نفهم هذه الحالات

المنظم الاجتماعية والنمو الإقتصادي

يرتبط النمو الاقتصادي من الناحية العملية، بعمامل سياسية وثقافية واقتصادية، كما كان وثيق الصلة بالمؤسسات الاجتماعية الرأسمالية التي تميزت

ببولة تخضع لسيادة القانون، وثقافته تعزز درجة عالية من الحراك الاجتماعي. ومؤسسات اقتصادية تعتمد على السوق وتدعم قسما كبيرا ومركبا من القوى العاملة. ونلاحظ أن عددا محدودا جدا من المجتمعات توفر فيه هذا الجمع الخبير من المؤسسات السياسية والثقافية والاقتصادية. علاوة على هذا يفيد التاريخ بأن مجتمعات ليس لديها دافع قوي لاستحداث مثل هذه المؤسسات بفعل تطور داخلي

حقا ما أقوى الحواجز التي تحول دون حدوث تغير اجتماعي بفعل تطور داخلي حتى أن التغير المؤسسي الرئيسي إنما يقع نتيجة صدمات خارجية بدلا من تطور داخلي. وتعلل الشيء الأهم على مدى القرنين الماضيين في النفاذات العاصفة بين المجتمعات المتقدمة اقتصاديا والمجتمعات المتخلفة وتسببت هذه التفاعلات في حدوث اضطرابات اجتماعية عميقة داخل المجتمعات المتخلفة التي دمرت حالة الدوازن الاجتماعي الداخلي، وقد تفضى حالة الاضطراب إلى إعادة توجيه المؤسسات الاجتماعية وجهة جديدة تدعم النمو الاقتصادي، وهذا ما حدث كثيرا وإن أفضى إلى انهيار اقتصادي بل فقدان السيادة

ويعتبر علم الاجتماع الذي وضعه ماكس فيبر، ويتصف بالأهمية الكبيرة، هو أول من قدم وصفا ملانما للمؤسسات الاجتماعية للرأسمالية الحديثة، حدد فيبر نماذج نظرية مثلى للتمايز بين المجتمعات قبل الرأسمالية والمجتمعات الرأسمالية وأوضح أن السلطة السياسية في المجتمعات قبل الرأسمالية سلطة تقليدية ونعسفية لا تحكمها قيود والمترعات تشريعية كما وأن المعايير الاجتماعية تدعم التمايزات التراتبية ولم تكن الأسواق الكبرى موجودة. بينما الأسواق الأقل تنظيما تقيد حواجز وقيود اجتماعية وتشريعية، هذا بينما الدولة في المجتمعات الرأسمالية ملزمة بمبدأ سيادة القانون، وتتميز بحراك اجتماعي مرتفع، ويجري التبادل الاقتصادي بكثافة وقوة عبر مؤسسات السوق.

كتب فيبر دراسته عن علم الاجتماع في بداية القرن العشرين، وكان مجال بحثه ظهور الرأسمالية في غرب أوروبا وأسباب غيابها في الأجزاء الأخرى من العالم. ولقد حدن الوقت لتحديث نظرية فيبر عن علم الاجتماع مع مستهل القرن الواحد

ولعسر، وأن نسال سؤالا مختلفا لماذا انتشرت الرأسمالية على نحو غير متساو إلى أجزاء أخرى من العالم؟

توفر لنا دراسة فيبر التطيلية المؤسسية المفارقة بعضا من إطار البحث المنهوي ولكن ثمة ثلاثة قضايا لم يوفقها فيبر حقها من التحليل والدرس. أولا، قدم لنا صورة اسنانكية نسبيا عن المجتمعات الرأسمالية وتغير الرأسمالية بون أن يكشف عن المبادئ الحاكمة لتطورها الاجتماعي. ثانيا، لم يتناول بما فيه الكفاية التفاعلات فيما بين المجتمعات بما في ذلك المحاكاة أو الرقوض المؤسسي، والتحكم الاستعماري والتراعات العسكرية. ثالثا، ركز اهتمامه على المجتمعات الرأسمالية وقيل الرأسمالية. وبان لزاما توسيع خرائطه الاجتماعية لتشمل على الأقل ثلاثة أنماط كبرى أخرى من التنظيم الاجتماعي الحكم الاستعماري، والجنس الاجتماعي، والمجتمعات العاتلة وليسمح لي القارئ أن أقدم عرضا موجزا تمكن من ممد

نلحظ في المجتمعات المستعمرة أن جوهر السياسة فيها حكم استبدادي من جانب جهاز الدولة الخاضع لسيطرة القوة الاستعمارية. والهدف الرئيسي هو الحفاظ على النظام. وتفاوضت بشكل مطرد المؤسسات الثقافية التقليدية من أجل مصالح الاستقلال الاقتصادي وصيغت المؤسسات الحكومية وفق تصميم يكفل الترويج التجارية للمستعمر ولم يكن الحكم الاستعماري تجربة نموذجية لتغذي الرأسمالية الحديثة.

ويهيمن على السياسة في المجتمعات الاشتراكية تنظيم الحزب الواحد بما له من سلطة فاهرة. ويجري فمع الثقافة التقليدية. خاصة الدين، وكذلك جميع أشكال نشاط السبق الخاص والتراكم الشخصي للثروة. ونستطيع الآن، إن تلقى نظرة بعد وقوع الأحداث فن نرى بوضوح أن الاشتراكية كان لها بورها المدمر باستثناء عدد قليل من الحالات التي تلقت مساعدات كثيفة من الاتحاد السوفييتي

وشة وضع اجتماعي أخير منواتر لتحدث. والتي يمكن أن نسميه الانهيار الاجتماعي، حيث يتوقف فيه المؤسسات الاجتماعية عن الأداء. ويقع المجتمع فريسة حرب على طريقة هويويز. حيث حرب الكل ضد الكل ويصبح عسورا أشد العسر إعادته

خالق أية صورة من صور النظام الاجتماعي بعد وفور. مثل هذا الانهيار ونحن نرى أن من الأهمية بمكان تحديد قسماات دالة الانهيار الاجتماعي الصادر إليها، حيث إن عددا كبيرا جدا من بلدان العالم النامي عايشتها

أما عن السياسة، فالملاحظ أن لا وجود لسلطة الدولة أو أنها محدودة جدا، وهو وضع يأتي غالبا قربين العنف، وتنتهز الإثبات الثقافية للثقة الاجتماعية على نحو ما يحدث لأليات السوق للاقتصاد. وتظهر الأسواق السوداء، وربما نحل المقايضة محل التبادلات النقدية.

وحتى أن يكون من بين الأهداف الرئيسية لعلم اجتماع جديد بعد المراجعة تفسير حركات المجتمع خلال وعلى مدى هذه الحالات المذكورة (مجمع ما قبل الرأسمالية، والرأسمالي، والاستعماري، والاشتراكي، والمجتمع الفاشلي) لماذا بعض أجزاء من العالم تحقق نقلة سلسة نسبيا إلى الرأسمالية بينما أجزاء أخرى وبعت أسبابه الاستعمار، ولا تزال غيرها نهبا للفشل على أي نحو تهين التجربة الاستعمارية المجتمعات للرأسمالية، وعلى أي نحو تحط هذه التجربة عملية الانتقال حتى ولو إلى ما بعد الفترة الاستعمارية ذاتها! نحن حتى الآن لسنا في وضع يسمح لنا بالإجابة على هذه الأسئلة. وسوف نكتفي في الفصل التالي بوضع خطوط عامة لبعض الفروض المقترحة.

أنماط انتشار الرأسمالية

كشف ماركس وإنجلز عن بصيرة نافذة في فهم دينامية النظام الرأسمالي الجديد في غرب أوروبا، وأصاها في حدسهما بأن الرأسمالية سوف تنتشر لتشغل في النهاية العالم كله، ناسيبا على ازدهار إنتاجيته الاقتصادية.

ومع التحسن السريع في أنوات الإنتاج والتوسع الخهم في وسائل الاتصال، أخذت البيورجوازية في اجتذاب جميع الأمم ودفعها على طريق الحضارة. وتمثل الأسعار الزهيدة للسلع التي تنتجها الرأسمالية المدفعية الثقيلة التي نك بها جميع

أسوار ومعازل البرابرة للتحول إلى الرأسمالية^(١٠). إنه سيجر جميع المنحوب التي يهونها الإفراس على بيبي نمذ الإنتاج للبورجوازي، وتلزمهم بالسماح للحضارة على النفاذ إلى حياتهم، أي أن يتحولوا إلى بورجوازية، وهكذا نتخطى عاثا على صورتها

ولكن يمكن وصف عملية التحضر بأي شيء إلا أن نقول إنها كانت سرعبة سلمية ونحن في ميسس الحاجة إلى نظرية اجتماعية أفضل لتفسير التغيير المؤسسي إذا شئنا أن نعهد هذه العملية التاريخية المتقدة، والتي اتصفت بالفسوة مرارا، وبالغنف أحيانا كثيرة. وطللك أننا لا نملك نظرية عامة عن التطور الاجتماعي، ولا حتى خريطة تصور لنا كيف اختلفت أو لم تختلف الرأسمالية في الغرب عنها في بقية أنحاء العالم، فإن من المفيد إلى أقصى حد في نظري أن نطرح بعض الفروض، أو على الأقل بعض التأملات القائمة على المعرفة والعلم.

« تواجه المؤسسات الرأسمالية بوجه عام معارضة من قبل نخبة المجتمعات غير الرأسمالية بسبب ما تقتضيه الرأسمالية من زيادة في المنافسة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهكذا نجد في الحقيقة أن جميع أنماط المجتمعات على اختلافها (قبيل رأسمالي، اشتراكي، مستعمرة) تعتمد النخبة من أبنائها إلى إحباط أو تقييد قيام بيئة مؤسسية لمجتمع مركّز على سيادة القانون وعبادتي العراك الاجتماعي وتطبيق نظام مؤسسات السوق.

(١٠) جدير بالذكر هنا أن وصف بعض الشعوب غير الغربية بالبرابرة بهج قديم منذ بزوية التنوير ومصر الصناعة، وجاء على لسان جميع الفلاسفة والسياسيين الغربيين، وورعوا أن حضارة العرب هي الأمثل، وهي الغنية والمنتهى من التقدم، وأن التاريخ اتجه في مسارها لتحقيق هدف نهائي وينتهي عند ذلك. أما البرابرة، أي الشعوب الأخرى غير الغربية، فهم أداة التاريخ في حركته من مرحلة الرعية وسولا إلى لشارة الفرة. (الترجم)

• الإصلاحات الرأسمالية لا تحقق ، على الأرجح ، إلا أقل قدر من التقدم في المجتمعات المولفة من طبقات عديدة (مثل روسيا أو الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر) نظرا لأن النخبة الاجتماعية في أفضل وضع لها لمعارضة التغيير .

• تشير الإصلاحات الرأسمالية مقاومة تصل إلى حد المقاومة الشرسة والضارية على أيدي النخبة السياسية التي تفتقر إلى دعاوى قوية تبرر مشروعيتها. مثال ذلك أن الصين التي كانت في القرن التاسع عشر خاضعة لحكم أسرة أجنبية لا تملك مشروعية واضحة (لمانشوس) أقامت العواجز التي تحول دون إحداث تغيير مؤسساتي لم تدخل البلاد .

• اجتزا الحكم الاستعماري أي إصلاحات داخلية في مناطق كثيرة وحال دون تماها. والملاحظ بعامه أن السلطات الاستعمارية لم تجر إصلاحات خاصة بالسوق في مستعمراتها حيث إن هذا من شأنه أن يمثل عنصر قوة وتمكين للسكان المحليين، ويمفزهم إلى تقويض الحكم الأجنبي. وهكذا عمدت السلطات الرأسمالية الأوروبية إلى الحيلولة دون انتشار الرأسمالية على مدى قرن أو يزيد .

• غالبا ما منيت المجتمعات التي تواجه تهديدات خارجية بالانهيار وليس الإصلاح في الداخل. ويرجع ذلك أساسا إلى أن التهديدات الخارجية تسبب كارثة مالية ومن ثم انهيارا للسلطة السياسية، أو لأن التهديد الخارجي جرد الحكام المحليين من سند مشروعيتهم، أو السبعين معا .

• قد تترتب على حالة الانهيار الداخلي مجموعة من النتائج المثيرة للحيرة والارتباك، من بينها فرضي مؤقتة (على

غرار هاييتي). وغالبا ما تعتبر حالة الانهيار الاجتماعي فرصة لإحداث تغيير ثوري. مثال ذلك أنه عقب الانهيار السياسي والمالي للنظام القيصري عام ١٩١٧، استطاع لينين أن يستولى على السلطة على الرغم من عدم وجود قاعدة واسعة من الدعم السياسي.

• تبنى المؤسسات الرأسمالية نفسه بقوة أوضاع جغرافية معينة:

• دول لها سواحل أفضل من دول بدون سواحل.

• دول قريبة من مجتمعات أخرى رأسمالية.

• مناطق الزراعة الخصبة مما يدعم بالتالي مستوى عاليا

من عملية التحضر.

• تجد المؤسسات الرأسمالية ترحيبا ودعما في المجتمعات

المترقطة بالأسواق العالمية من خلال روابط ثقافية (مثل ذلك

مقيدة بينية سائدة أو أقلية في الشتات ولها ارتباطات

ببلدان أخرى).

بدأت الرأسمالية الحديثة في مجتمعات شمال الأطلسي، خاصة إنجلترا وهولندا، وذلك بعد قرون من التجارة النشطة والتنمية في حوض البحر الأبيض المتوسط وكان طبيعيا أن تنتقل إلى أراضي الاستيطان الجديدة في شمال أمريكا ثم أسنواليا وشوريندا. ومن هذه المناطق عوامس عديدة أهمها أنها مشتركة في موقعها داخل المنطقة المناخية المعتدلة، ومن ثم سادتها أوضاع إيكولوجية واحدة مثلها مثل بريطانيا. ثاني. ندرة سكانها الأصليين وتشتتهم خاصة بعد أن قتل أكثرهم الأمراض التي جلبها الأوروبيون معهم. والملاحظ أن المؤسسات الرأسمالية انتشرت داخل غرب أوروبا من القرب إلى الشرق إذ حملتها جيوش نابليون، والثورة الفرنسية لعام ١٨٤٨، وأيضا مثال التصنيع البريطاني وبحول عام ١٨٥٠ تكاد وجود الرأسمالية الحديثة في غرب أوروبا وما سمي الفروع الغربية

ونسحقه، ابعية الأمريكان كلمة حاصه حوى اسبجان مبالفة انكاربير.
مجتمعات «بودية، تخصص أغلبها لإنتاج السكر. وظلت منذ عدة مرة باستثناء
هسبانيولا (هايتى وجمهورية الدومينيكان) حتى نهاية القرن التاسع عشر (فى
حالة كوبا) أو منتصف القرن العشرين (فى حالة مجموعها جزر نسر أنتيل
وجامايك) وتميزت، بأن خضعت غالبيتها ولزم طويز لنظام حكم من البيض يهيمن
على سكان فقراء، من العبيد السابقين، علاوة على انهيار بينى بسبب إنهاك التربة
الاستوائية

وتختلف المستعمرات الأسبانية اخلافا كبيرا. ذلك أن الأرجنتين وتشلى
وأوروغواى، وجميعها تقع فى المنطقة المعتدلة من نصف الكرة الجنوبي. وتضبه كثيرا
أراضى المستوطنات الجديدة فى أمريكا الشمالية وفى منطقة الأوقيانوس. السكان
الأصليون مشتتون وقليلون والمناخ معتدل لمناخ إسبانيا، وعلى الرغم من أن هذه
البلدان كانت غير مستقرة خلال العقود الأولى للاستقلال (من حوالى ١٨٢٠ إلى
١٨٧٠)، إلا أنه بحلول عام ١٨٧٠ أصبحت بدرجة أو بأخرى مجتمعات رأسمالية ذات
هياكل ديمقراطية رسية، وإن سادها توزيع للأراضى غير متساو إلى أقصى الحدود.
وكان الموقف مختلفا تماما فى بلدان أمريكا الوسطى والأنديز، والنى تقع فى المنطقة
الاستوائية، ذلك أن غالبية هذه المجتمعات مأهولة بعدد كبير عن المكان الأصليين
الهنود الأمريكين. وساد هذه المجتمعات مظاهر عدم المساواة والفرانبية الطبقة
الاجتماعية بين البيض النازحين من أوروبا والسكان الأصليين، علاوة على العبيد
المسجونين وقاتمت هذه البلدان المؤسسات الرأسمالية لفترة زمنية أطول بكثير.
وسبب ذلك نون أدنى ريب مظاهر عدم المساواة المفرطة.

وإن أشرس معارك القرن التاسع عشر ضد الإصلاح الإقنصادى جرت على
ساحة العالم القديم داخل الإمبراطوريات العظمى للصين واليابان والروسيا
والإمبراطورية العثمانية هنا تفيدنا كثيرا المبادئ العامة المشار إليها أنفا. إذ فى
ثلاث حالات من بين الأربعة (الجميع عدا اليابان) أثبتت المجتمعات عنادها الشديد فى
الصراع ضد الإصلاح الرأسمالى، حتى حين وأجهت تهديدا أساسيا بانسيطرة
الأوروبية الغربية. ولكن اليابان وحدها هى التى عاشت ثورة رأسمالية سريعة بعد

سقوط في عام ١٨٦٨ وساعد على نجاح هذا التحول أن اليابان كان بها في السابق مجتمع تحاري فضلا عن تجانسها الثقافي وتوجهها البحري، مما ساعد على تحقيق نمو معتمد على الصادرات، وأيضا مغزونها من الفحم، الذي ساعدها على التصنيع في وقت مبكر. ولكننا نجد في المجتمعات الأخرى كيف اصطاحت مجموعة من العوائق السياسية والثقافية لإحياء محاولة الإصلاح، إذ عكست السياسة والثقافة في اتجاه واحد. وقامت النخبة الإصلاحات التي تهدد أمنيائهم داخل نظم اجتماعية راسخة وعتيقة.

ونكاد نقول إن كل بقية العالم تقريبا - خاصة بلدان المنطقة الاستوائية في العالم القديم - وقعت فريسة حكم استعماري. وصدق هذا بشكل متماثل في أفريقيا بعد انتشار عقار الكينين الذي فتح الطريق للاستيطان الأوروبي والانتشار على الملايا في أفريقيا جنوب الصحراء وسقطت كذلك تحت حكم الاستعمار الأوروبي كل من شمال أفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا واستعمرت اليابان كوريا وتايوان وابتلعت الإمبراطورية الروسية بلدان آسيا الوسطى

وبوصول عام ١٩٠٠ ظهرت صورة جديدة مميزة، وإن بدت غير دقيقة تماما. سادت الرئسمالية في غرب أوروبا وفي ما سمي بالقرون الأفريقية، وكذلك بعض خصائصها في المشرق الجنوبي (الأرجنتين وتشيلي والأوروغواي) وأيضا في اليابان وتمثلت هذه البلدان تقريبا خمس سكان العالم. وتميزت بلدان المنطقة الاستوائية في العالم الجديد (منطقة الكاريبي وأمريكا الوسطى وجنوب أمريكا) بأنها مجتمعات تراتبية إلى أقصى حد، خاضعة لسيادة البيض، بينما يفتقر السكان إلى قدر كبير من الحريات والتعليم والحراك الاجتماعي. واستعمرت السلطات الأوروبية المنطقة الاستوائية من العالم القديم والهند. وانهارت كذلك الإمبراطوريات الثلاث الكبرى - الإمبراطورية العثمانية والروسيا القيصرية وصين أسرة شينج - وسقطت تحت التير الأوروبي، وانهارت بسرعة في الداخل، وتعاقم الأعياء المالية التي تلقتها عليهم التحديات الخارجية.

وليسمع لى القارى أن أفرز إلى الأمام خعسة وسننن عذاما . مدجوزا الثورة
الولشفية وحربين عالمنن وفنرة الكساد العظيم . صحت اننشرن الاشتراكية فى أنحاء
كثيره من العالم . ونهاوى الاستعمار فى أفريقيا . ورحل عنها كما رحل عن الهند وعن
جانب كبير من جنوب شرق آسيا . وأريد أن أؤكد أن جزءا صغيرا من العالم .
حتى عام ١٩٦٥ . كان رأسه البها فى توجهه . وتستطيع أن نرسم الخريطة التالية فى
صورة إجمالية:

* العالم الراسمالي: غرب أوروبا والفروع الغربية واليابان
وكوريا وتايوان وهونج كونج وسنغافورة (٢٦ بالمائة من
سكان العالم).

* العالم الاشتراكى: الاتحاد السوفيهيى ووسط وشرق
أوروبا وكوريا الشمالية والصين وكوبا (٢٣ بالمائة من
سكان العالم).

* بلدان تخضع لنظام مركزية الدولة بنسبة عالية . وتخضع
فى بعض الحالات لنظام حكم اشتراكى للحزب الواحد:
الأرجنتين وتشيلي ومصر والهند واندونيسيا وإيران والمكسيك
وتركيا (٢٢ بالمائة من سكان العالم).

* نظام خليط لمجتمعات رأسمالية - غير رأسمالية . مع عدم
مساواة مفرطة فى الداخل: المنطقة الاستوائية فى الأمريكتين
وجنوب أفريقيا وروديسيا (٦ بالمائة من سكان العالم).

* مجتمعات أخرى لا تزال مستعمرة وتقليدية وغير ذلك
(١٨ بالمائة من سكان العالم).

صفوة القول إن اندرس العام المستفاد هو أن المؤسست غير لرأسمالية هي
الحاكمة للقطاع الغالب فى التاريخ الحديث لعالمنا . وإن عطية الإصلاح الاجتماعى
منيت بالإحباط بطرق أربع . مقاومة المجتمعات التقليدية فى العالم القديم (أساسا

الإمبراطوريات الأربعة العثمانية والروسية والصينية)، وثالثا فترة الهيمنة الاستعمارية. وثالثا تبنى الاشتراكية، ورابعا الانهيار الاجتماعي. ولم يكن هناك حتى عام ١٩٦٥ سوى غرابية خمس العالم الذي يمكن القول إنه يعمل وفقا للمؤسسات الاجتماعية الرأسمالية.

زيادة عوائد النطاق كمصدر آخر لتوسيع حالة اللامساواة

سبب آخر محتمل لاتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء هو أن قسما كبيرا من عملية التطوير الاقتصادي - وهي الابتكار التفاضلي - تتسم بزيادة عوائد النطاق Returns to Scale. وتفيد نظريات النمو الذاتي أن الابتكارات الجديدة هي وليدة وشعرة رصيد خطط العمل التفاضلي الموجودة فعلا في المجتمع. ذلك أن الأفكار تولد أفكارا. وتتميز ديناميات الابتكار بخاصية زيادة عوائد النطاق، حيث يحدث نوع من التفاعل المتسلسل استجابة لرصيد أولي من الأفكار. ومن ثم فإن المجتمعات التي تتوفر لديها كتلة حرجية من الأفكار الناقية يمكن أن تعيش انطلاقة في مجال النمو المدعوم ذاتيا. هذا بينما المجتمعات التي تقصر عن بلوغ نقطة الكتلة الحرجية يمكن أن تعاني ركودا مطريا. وهكذا يزداد العنى نظرا لأن ما لديه من أفكار هي مصدر توليد أفكار جديدة.

ولا ريب أن هذا الرأي ينضم ما هو جدير بالثقة، ونحز نعرف أن العالم موزع على نحو غير متساو إلى حد كبير جدا أكثر مما هو حد الدخل فالناطق التي تتمتع بدخل مرتفع (وهي بلدان غرب أوروبا وشمال أمريكا واليابان والبلدان الصناعية الجديدة وبلدان منطقة الأوكيانوس) تضم حوالي ١٦ بالمائة من سكان العالم وتتمتع بحوالي ٥٨ بالمائة من إجمالي الناتج المحلي. هذا بينما هي المنتجة لحوالي ٨٧ بالمائة من المنشورات العلمية علاوة على نسبة مذهلة تساوي ٩٩ بالمائة من جميع براءات الاختراع في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

شواهد من القياس الاقتصادي عن موارد التطوير الاقتصادي

يضم العالم واحدا وستين بلدا بها نصف أو أكثر من سكان العالم، وتقع في المنطقة المعتدلة. علاوة على مناطق المناخ الثلجية، كانت حوالي أربعة وعشرين منها بلدانا اشتراكية على مدى فترة طويلة عقب الحرب العالمية الثانية. ويسقط هذا من الصواب ٢٧ بلدا غير اشتراكي في المنطقة المعتدلة/الثلجية. ونجد ست بلدان من هذه بلدانا غير ساحلية وليست من غرب أوروبا (ليسوتو ومالاوي ونيبال وباراجواي وزامبيا وزيمبابوي)، وهكذا نجد لدينا واحدا وثلاثين اقتصادا في المنطقة المعتدلة/الثلجية ليست بلدانا غير ساحلية ولا اشتراكية.

ونلاحظ أن جميع هذه البلدان الإحدى والثلاثين هي بلدان متقدمة فيما عدا سبع منها فقط. هذا إذا ما اتخذنا ١٠.٠٠٠ دولار أمريكي هي الحد الأدنى لتصنيف الفرد في عام ١٩٩٥ مع ملاحظة الأسعار لتساوي القوى الشرائية، وتضم البلدان السبع أربعة بلدان في شمال أفريقيا والشرق الأوسط (لبنان وتركيا ومراكش وتونس)، وثلاث في نصف الكرة الجنوبي (الأرجنتين وجنوب أفريقيا وأرجواي). ونعتبر هذه البلدان السبعة شاذة من حيث وجهة النظر الجغرافية. لماذا لم تطور اقتصاديا؟ هل تقع مسئولية الخطأ هنا شراكة وبشكل أساسي على النقابة والسياسة والمؤسسات الاقتصادية؟

نطرح وجهة النظر الثقافية احتمالا يفرى ويفوى ويقضى بأن تقاعس بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط عن التطوير يؤكد وجود مكون ثقافي قوي من بين الأسباب. هل نجد شواهد على أن هذه البلدان الإسلامية، مع افتراض التحكم في عاملى المناخ والجغرافيا، تواجه عقبات داخلية أعمق تحول دون النمو الاقتصادي؟ وحرى أن نلاحظ أن العقبات الثقافية يمكن أن تكون ثارية ياطنية (مثال ذلك) أن تصدر من باطن المجتمع معارضة للمؤسسات المبنية على أساس السوق)، أو ربما تصدر من خارج، أي لأسباب خارجية (مثال التمييز الأوروبي ضد المنطقة في السياسات التجارية). ليس بالإمكان على مستوى الاقتصاد الكلى أن نفصل بين هذين التفسيرين وافترض أن أيا منهما أو كليهما صواب عمليا.

ولكن مسألة العوامل الثقافية في البلدان الثلاث الأخرى أكثر النقاسا ذلك أن الأرجنتين والأوروغواي هما أمدا بنادان من المهاجرين، يتسركان في المعابر والنبادي الثقافة مع جنوب أوروبا. وحيث أن هذين البلدين متخفان كثيرا من ادان جنوب أوروبا، فإنه لنا أن نشك في أن الجغرافيا والسياسة وليس الثقافة هي حد ذاتها هي المفسر البارز والأرجح لتخلف أدانهما. ويتجلى هذا أكثر وضوحا في الحقيقة حين نعرف أن الأرجنتين كانت أعلى كثيرا من حيث مستوى دخل الفرد في إيطاليا عام ١٩٢٩ (٤.٣٦٧ مقابل ٢.٠٢٦ دولار أمريكي، مع ملاحظة الدولار بحيث تتساوى القوى الشرائية لعام ١٩٠٠، وذلك حسب بيانات ماديسون). وحدث النقص في أداء الأرجنتين خلال نصف القرن الماضي، ويرتبط بوضوح بالتغيرات في السياسة المحلية وفي الإستراتيجية الاقتصادية أثناء وبعد حكم بيرون. وحدث التطوير الاقتصادي في أوروغواي، حدوما حدث في جارتها إلى حد كبير جدا، وأخيرا يتعين النظر إلى جنوب أفريقيا، وبشكل أساسي في ضوء السياسات الاستعمارية والعنصرية قبل الثقافة.

وماذا عن قصص النجاح في البلدان الاستوائية؟ إنه لأمر محزن أنها نادرة جدا، ليست هناك سوى بنز واحد استوائي (سنغافورة) علاوة على مستعمرة سابقة وهي الآن جزء من الصين (هونغ كونج) يحتلان مكانا بين بلدان القعة الثلاثين ولتفترض أنه وضعنا نصب أعيننا قصص النجاح النسبي أعني البلدان الاستوائية التي يصل مستوى متوسط دخل الفرد فيها عام ١٩٩٥ حوالي ٦.٠٠٠ دولار أو أكثر نجد علاوة على سنغافورة وهونغ كونج ثمانى حالات (من بين إجمالي ست وأربعين بلدا استوائية) نذكرها حسب ترتيب متوسط دخل الفرد: ماليزيا، موريشيوس، الجابون، بنما، كولومبيا، كوستاريكا، تايلاند، ترينداد، توباغو، واندرج بلدان ضمن هذه القائمة لسبب أساسي هو مواردهما من النفط (هما الجابون وترينداد وتوباغو). ولا ريب في أن بنما تفيد بشكل أساسي من تميزها الجغرافي أكثر مما تفيد من نظام حكم صالح أو من مزايها ثقافية. ومن ثم فإن أبرز وأهم مظاهر الشنود نفوسها في ماليزيا وموريشيوس وكولومبيا وكوستاريكا وتايلاند. وتعود لتقول حري بنا أن نسأل ما إذا كانت الثقافة، وليست السياسة، هي التي لها دور حاسم في الأداء القوي نسبيا لهذه البلدان.

وأحداث، مادلاند وه البريا هناك كبريره من المنصو الموجبه لاسمدير على مدى
الأعوام الثلاثير الماصيه. والذي تركز بسبب متفاوتة بين أبوي الجاليات الصينيه
المقيمة في هذين البلدين. علاوة على الروابط التي أنشأتها الجاليات الصينيه فيما
وراء البحار مع «المستثمرين الأجانب من أبناء الولايات المتحدة واليابان وأوروبا.
ويمكن القول على نحو أكثر تعميما إن الروابط التجارية والمالية في آسيا بين الجاليات
الصينيه هي السنوات (خاصة في اندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وفيلاند) والصين
الكبرى (هونغ كونج وتايوان والبر الصينيه الرسميه) ربما تمثل جميعها معا
حالة تشهد بأن العوامل الثقافية أسهمت في التطوير الفناجح. (ولكن كما هي الحال
دائما، ثمة القياس له شئنه إزاء دور الثقافة هنا. إذ قد تشمل على عوامل غيرية
نظري عليها منظومات العائد التي يؤمن بها المجتمع المحلي أو الجاليه أو أنها
توفر شبكة لروابط إقتصادية موثوق بها). وطبعي أن من نواحي السخرية أن نجد
علم الاجتماع ماكس فيبر أشار إلى الصين باعتبارها حالة شاهده على وضع تطوري
تكبحه وتعمله الثقافة. على نقيض النمو في ظل انحباب الثقافة البروتستانتية
ولكن شواهد نصف القرن الماضي، بما في ذلك انفتاح الصين على فني السوق بعد
عام ١٩٧٨، توحى بقوة أن العوامل لسياسية والمؤسسات الاقتصادية لريثة، قبل أن
نقول الثقافة في حد ذاتها، هي السبب الكامن وراء تقاعس الصين قرونا طويلة عن
التطوير الاقتصادي

ولكي نوجز تلك النقاط نقرر أن السياسة والجغرافيه هما العنصران الرئيسيان
الذان يمايزان بين البلدان الغنية والفقيرة وإذا كانت الثقافة في واقع الأمر عاملا
مهما من حيث المؤيرة لمتبادلة بين المجتمعات إلا أنها، فيما يبدو، لها دور ثانوي
بالقياس إلى هذين العنصرين الأوسع نطاقا الجغرافي والاقتصادي/السياسي. ولكننا
مع هذا نجد في الحقيقة بعض الإشارات الضمنية الدالة على ظواهر تتشارك فيها
الثقافة بدور فاعل، ونذكر اثنين منها لأهميتهما الكبرى: الأداء المتدني للمجتمعات
الإسلامية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. والأداء القوي للبلدان الاستوائية في
شرق آسيا والتي لها جالية صينية مهمه فيما وراء البحار. ونجد في كل من هاتين
الظاهرتين غموضا بعيد الغور من حيث التفسير. هل الإشارة الثقافية ذات علاقة

بالمستوطنات السائفة داخل المدن، ومع انطى أم بالعلاقات الدولية (ومن ثم الأهل والتجارية) لمدان المعنية.

ولكن المساحة هنا تحولت من معدنية، فالمساحة كتحليل الانحدار الذي أجريته عام ١٩٩٩، لاخبار هذه الفروض. والنتائج المستخلصة التعريف الأساسية هي كما كان متوقفاً، السياسة الاقتصادية تؤثر على معدلات النمو، وإحصاءات المنطقة المعتدلة/الثلجية نتمو تسرح من البلدان الاستوائية. المناطق التي تنتمي إليها وبها الملايا أقل سرعة في نموها عن بلدان لا تعاني من الوباء، البلدان التي لا سواحل لها أيضاً في نموها من البلدان الساحلية. وإن معاملات الارتباط بين المجتمعات الهندوسية والمسلمة صنيعة جداً، بل نكاد لا نذكر إحصائيات، والخلاصة أنه لا دليل على أن السكان الهندوس أو المسلمين حققوا معدلات نمو أدنى تناسباً على متغيرات السياسة الاقتصادية أو الاختلافات الجغرافية.

ويمكن استخدام المنهج نفسه لبيان أن المستعمرات السابقة لا تقدم دليلاً على وجود أي علامة على ترسيب آثار سلبية طعننا الفترة الاستعمارية، حيث أن النمو خلال الفترة من ١٩٦٥ - ١٩٩٠ لم يتأثر كثيراً بالوضع الاستعماري قبل ١٩٦٥. ومن ثم، فعلى الرغم من احتمال أن الحقبة الاستعمارية أثرت بالسلب على النمو الاقتصادي، إلا أنه لا دليل على ترسيب تراث سلبى يعيد المدى. ومع هذا فمن الواضح أننا بحاجة إلى المزيد من الدراسات، لتأنيب والدقيقة لدراسة هذه المسألة المهمة.

الخلاصة والنتائج

ناقشنا في هذا الفصل نهجاً في تناول سوسيولوجيا التصوير الاقتصادي. بما في ذلك الدور الممكن للمؤسسات الثقافية في الأداء الاقتصادي، وذهبنا إلى أن النمو الاقتصادي الحديث مرتبط على نحو وثيق بالمؤسسات الرأسالية والوضع الجغرافي المواتي. ولا نجد غير شواهد ضعيفة على أن الفئات الدينية تضيف قوة تفسيرية علاوة

على العكس العادمين والاداسيسير العيسير السو القديساري ويجود بعض الشواهد على ان البلدان المسلمة هي شمعل افرقيةا والشرق الأوسط لها ادا. منس على مدى طول بلعاس إلى وضعها الجغرافي المواسي لمنطقة معتدلة. مناخ بحر ابيض. ونود (ساحلي) ولكن لا دليل على ان هذا الأداة المديني استغر إلى ما بعد عام ١٩٦٤. وإن هناك على الأقل عدد من البلدان المسلمة تجاوزت بقوة عتوسط الأداة. لعالي. وبك خلال السنوات فاعسبر الأخرى

وفد تقيدت في بعض الأحوال التفسيرات الثقافية للأداة الانحصاري خاصة عند معسير الممانعة ضد الإصلاجات الرأسمالية خلال القرن التاسع عشر. ولكن ينبغي ان يار هذه التفسيرات في ضوء الإطار الذي يقرر ان أبعادا أخرى (الجغرافيا والسماسة والاقتصاد) لها دورها أيضا ولا ريب في ان الاحتكم إلى هذه المتغيرات سوف يحد كثيرا من النطاق المنسوب إلى دور مستقل للثقافة. ولنا أن نقول بوجه أعم إنه لا يزال أمامنا عمل تاريخي كبير لاستحداث إطار عام صحيح لقياس ودراسة نشوء وتطور المؤسسات الاجتماعية والتفاعلات بين السياسة والثقافة والاقتصاد في مسار التغير الاجتماعي. ومن لهم بالقدر نفسه ضرورة أن نفهم على نحو أفضل دور العوامل المؤثرة عبر الحدود في التطور الاجتماعي. لقد كانت للعوامل الدولية تأثير بالغ القوة إلى أقصى حد في التفسير الاجتماعي على مدى قرنين على الأقل. وسوف يريد هذا التأثير حتما في المستقبل بفعل ضغوط العولمة المتزايدة للمجتمع وللسياسة والاقتصاد

المراجع

- Korten, Jonas. 1992. *The Socialist System*. Princeton University Press.
- Landes, David. 1996. *The Wealth and Poverty of Nations*. New York: Norton.
- Madhison, Angus. 1995. *Monitoring the World Economy, 1850-1992*. Paris: Organization for Economic Cooperation and Development.
- McEwally, Colin, and Richard Jones. 1976. *Atlas of World population history*. New York: Praeger.
- Weber, Max. 1979. *Authority and society*. Berkeley: University of California Press.
- Young, Carolyn. 1995. *The African colonial State as Constitutive Process*. New Haven: Yale University Press.

دراسة الأنماط الثقافية للتطوير الاقتصادي

ماريانو جروندونا

يبلغ عملية التطوير الاقتصادي حد الأزمة وقتما تمر أمة من مرحلة إلى أخرى إذ عند هذه اللحظة، يبرز الغويات، وإذا أحسنت الأمة أسلوب إدارتها لهذه الغويات، فإنها سوف تتوج في عملية التطوير، وإلا فإنها لن تحظ إلا بفترة قصيرة من الإثراء.

والملاحظ أن الدائرة التي تبدأ بالعمل، وإنهني باستثمار جديد إذا ما حققت بعض الثمار وأحسن الناس بفكر أكبر من الآراء، فإنهم قد ينزعون إلى العمل بايقاع أقل. ونجد من ناحية أخرى أن الاستهلاك ربما يريد بسرعة تفضي إلى خفض معدل الفائض بحيث يتحول إلى إثراء - علاوة على هذا فإننا نحن إذا افترضنا زيادة الفائض فإن الأمة ربما تقرر عدم إعارته إلى استثمار إنتاجي إذ ربما تنفعه بدلا من ذلك على أوليين غالبا ما «تسلم لها الأمم مثل إقامة أو تشييد أعمال تخليدا لذكرى زعمتها، أو شن حروب إثبار، زعامة ومكانة، أو تنفيذ خطط رعاة خيالية، أو فسار سريع. وقد تقع الأمم في غواية الحفاظ على مرحلة التطوير التي تمر بها، وذلك عن طريق إستراتيجيات أو سياسات حداثية من شأنها أن تثبط الاستثمار وتنظيم المشروعات

وكما راودت الأمة عواية حاسمة فإنها إما أن تنتصر عليها، أو تسقط فيها. ومن ثم لنا أن نحدد عملية التطوير الاقتصادي بأنها متوالية لانهاية من المخرجات

الموسم للاستثمار والمنافسة والابتكار. والذي يجعلها الأمل كلما ظهرت، عواجه ندعوها إلى أن نحير عن الشار.

لذلك، يتعين على الأمة أن تتجاوز لحظات الفؤاء، وبوسائل مواتية للتطوير الاقتصادي، وسوف ينأى لها أن تحقق ذلك إذا ما توافرت قيم بعينها ويقول تالكوت بارسون يمكن اعتبار "القيمة" عنصرا ضمن منظومة رمزية اصطلاحية، وتمثل معيارا للاختبار بين بنائنا متاحة في موقف محدد¹¹ معنى هذا أن الأمم الوحيدة المهية لإحراز تطوير سريع ومستدام هي تلك التي لديها منظومة قيم مواتية لاتخاذ قرارات تقاوم العواية

وأما فئذان من القيم غربية وأدائية والقيم الغربية هي تلك التي يتدرج بها بعض البشر عما حققه من عابم أو بحره من خسائر مثل ذلك النزعة الوطنية، فهي قيمة تستلزم تضحيات، وقد نكون أحياء غير مواتية لخدمة الفرد. ومع هذا، فقد لقي ملايين البشر حتفهم دفاعا عن بلادهم على نحو ما يشهد التاريخ

وعلى النقيض من ذلك تكون القيمة أدائية حين ندعمها لأنها تفيدنا مباشرة ولنفرض أن بدأ ما نزر جوده لإنجاز نمو اقتصادي، وأنه تحقيقا لهذه الغاية يؤكد على العمل والإنتاجية والاستثمار ولكن إذا كانت القرارات المواتية للتطوير تمثل فقط استجابة لقيمة أدائية ذات طبيعة اقتصادية فإنه ولا شيء آخر، كان تستهدف زيادة الثروة لا غير، فإن جهد البك سوف ينخفض فور تحقيق درجة الثراء المطلوبة.

ولكن لماذا تتحرف في العمل وكتتها فقيرة على الرغم من شرائها تحدث ثورة التطوير الاقتصادي حال إقبال الناس على العمل والمنافسة والاستثمار والابتكار، حتى وإن لم يعد لهم حاجة لهذا الجهد من أجل الثراء. ولا ينأى هذا للأمة إلا حين تظل القيم السائدة والراعية للرفاه، باقية ولا تكتفي بتحقيق الرفاه. لهذا فإن القيم التي ينبغي أن تكون لها السيادة في اللحظات الحاسمة التي توجب اتخاذ قرارات التطوير الاقتصادي فيما عريرية لا أدائية. هذا لأن القيم الأدائية، يحكم تعريضها، هي قيم وقديمة. أما القيم الغربية، فهي القيم الوحيدة السابقة، ليس ثم أداة تبغى بعد تحقيق المنفع المرجو منها. أما القيمة الغربية فإنها دائما ستصير حقا من عليها

وجود مع القيم الاقتصادية قيم إنسانية تزيد المال وسيله اعانه لئلا في دونه مثل الزهارة والاسعانة والدرية والاميز والعقيدة والمحبة الانسانية لذلك وحتى يكون عملية التطوير محاربة إلى ما لا نهاية، يجب ألا توقف عملية التراكم عند نجاحها في الوقت. ولإلى هدفها انرحلى معنى هذا أن القيم التي تحفز إلى استثمار مطرد لن تكون ذات طبيعة اقتصادية خالصة، وإلا فإنها سوف تنوى وتختفى مع تحقق النجاح الاقتصادي ولهذا عبانه ينبغي، عندما تصبح أمة عن الأمم غنية، أن تتضمن منخوطة القيم السائدة عصرها آخر غير مجرد تحقيق الثروة بحيث لا نشعر الألة بالافتناء، مع تحقق التراكم. وقد يكون هذا المسمر اللا اقتصادى هو الخلاص أو البقاء أو الأمن أو التميز أو المكانة، أو حتى بناء إمبراطورية. أي قيمة موضع طيب دائما

بيد أن القيم الغربية التي لا غنى عنها للتطوير المستدام يجب أن تكون متناوئة اقتصاديا وإن كانت غير اقتصادية وإنما يجب أن تكون غير اقتصادية ومواتية للاقتصاد في الوقت نفسه. إذ نظرا لأنها غير اقتصادية، فإنها لن تنضب، وصحيح غير ذى موضوع مع تحقق الإنجاز الاقتصادي المنشود، ونظرا كونها مواتية للاقتصاد، فإنها ستظل دائما وأبدا قوة دفع لعملية التراكم

وتحتل مفارقة التطوير الاقتصادي في أن القيم الاقتصادية لا تكفى وحدها لضمان تحقيقه إن التطوير الاقتصادي أهم كثيرا من أن يجهدنا نعهد به فقط للقيم الاقتصادية وحدها. ويندرج القيم المقبولة أو لمفوضة من جانب الأمة ضمن المجال الثقافي ولهذا إذا أن نقول إن التطوير الاقتصادي عبء ثقافية

ويندرج القيم ضمن النطاق الثقافى الذى نطلق عليه مصطلح الأخلاق. ذلك أن سلوك المرء، الذى يعبر عن تقدير غريزي لقيمة سبق قبولها والالتزام بها إراديا ثم تجسدت فيه كبدأ الزامى باطنى، مثل هذا السلوك نسميه سلوكا أخلاقيا. وعن ثم، يصبح المرء أخلاقى السلوك حين يسند مع القيم الغربية. وإذا حدث وأنجز بلد ما تطورا اقتصاديا استجابة قيم غير اقتصادية ولكنها مواتية ومساندة للاقتصاد، يمكن لنا أن نستنتج أن التطوير الاقتصادي ظاهرة أخلاقية. ولكن حين تغيب القيم المواتية للتطوير الاقتصادي، تسود الغوايات. والغوايات هي جملة التوقعات قصيرة

الأمال على عكس التطوير الاقتصادي. فهو عمارة طويلا الامر وجزر يدور صراخ برز
المنى القصور والمدى الطوبى سكون النصر للأول ما لم ينشل عبدة في صلبه ومنع
الهراب وهذه هي وطيفة العيد. إذ نعبد كجسر بين الازوقات قصيرة المدن وبعيدة
المرى. بدعم بحسم الأهداف المعبدة التي تنتدفا هذه التوقعات بما فيها لصراخ
وإس ضد إستراتيجيات لحنية

وبركز لوزانس إي. هاريزون عى كتبه السخف حالة ذهنية⁽¹⁾ على التطوير
الاقتصادى من زاوية ثقافية وعرض هاريزون معارفات ثنائية رغبة منه فى توضيح ما
ذهب إليه كوستريك ونيكاراجوا. جمهورية الدومنيكون وهايتى. أسيرالبا
والأرجنسى. الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. وفسر هوة التطوير بين كل اثنين
بهوامس ثقافية هذا بينما يركز فى فصل خاص عن أسبانيا وأمريكا الأسبانية على
توجه لسائل الثقافة وبنائها

وبعد أن فرغت من قراءة كتاب هاريزون شعرت برغبة فى التجزؤ على بداوى
الغرائب الثائية. رغبة على فى صوغ دراسة عن الأنماط الأفاقية حيث نجد نعتين
متالين من المتطومات القمسة كل منهما مقابل الآخر أحدهما يدعم بالكامل التطوير
الاقتصادى. والآخر يقاومه بالكامل ولا ريب فى أن الدراسة التحلطة التى قدمها
هاريزون سوف تعرض لنا دراسات حادة تناسبها على الإطار النظرى لهدون
النظير المتالين.

وماكر نجميع القيم فى نسط عسق لنا أن نسميه منظومة قيم. ونلاحظ أن
منظومات القيم الواقعية مزيج؛ ذلك أن منظومات القيم البحصه لا وجود لها إلا فى
الذهن. فى صورة أنه انما مثالوه. ويمكن لنا أن نصور منظومتين متاليتين للقيم: تشمل
إحدهما فقط على القيم الداعمة للتطوير الاقتصادى. وتشمل الثانية فقط على القيم
المتاونة للتطوير. وتكون الأمة أمة حديثة بقدر قربها من المنظومة الأولى. ويتوصف
بالقلدية بقدر قربها من المنظومة الأخرى وحينئذ بالذكر أن أيا من منظومتى القيم
المذكورتين لا وجود لها فى الواقع ولا توجد أمة تندرج كاملة ضمن هذه أو تلك من
منظومتى القيم. ولكن بعض الأمم تندو من الضرفة الأة حتى الداعم للتطوير
الاقتصادى. بينما أمة أخرى تندو من الطرف الأقصى للمقابل

ذلك فإن معلومات القيم الإيجابية في حالة حدكته مشعرا في مزيج مخلط إبداعيا، ويترك بجاء قطر منظومة القيم المواتية، وإنها ستفضى إلى تحسن فرص الأمة للتطوير، وإذا تحركت في الاتجاه المعاكس فإنها ستقلل من فرص الأمة للتطوير.

وتتضمن نظرية الأنماط عشرين عاملا تباين صورها ومدلولاتها تباينا شديدا في الثقافات، منها ما هو مواتٍ ومنها ما هو ضارٌّ للتطوير، ويتوسط هذه الاختلافات أنماطا وثقافات بالآراء الاقتصادية للثقافات المتقابلة والملاحظ أن الناس حين نخدر منظومة قيم السوق يأتي عن المنظومتين المتألمتين الداعية أو الفاضحة، فإنهم عمليا يفصلون نوع الاقتصاد النافع من تلك المنظومات، ويكون هذا هو نوع الاقتصاد الذي يسود عندهم، ويقودنا هذا إلى نتيجة خلاعية التطوير أو التخلف لس في النضيل انتهى أمرا مفروضا من خارج عن المجتمع، أو أن المجتمع هو نفسه الذي اختار الواقع المنطور أو المتخلف.

عشرون عاملا ثقافيا متقابلة

الدين

يمثل الدين على مدى التاريخ أعنى مصدر للقيم ولا ريب في أن ماكن غير هو الذي حدد البروتستانتية، والتيار الكالفيني منها تحديدا، باعتبارها جذر النظام الرأسمالي، أو لقبى بعبارة أخرى أن ثورة دينة هي صاحبة عبادة التصوير الاقتصادي، وهي ثورة دتيقة الصنة في جوهرها بمعالجة العائزين بغنى الجسد (الأغنياء) ومن فقيرود (الفقراء) ووصف فبير التير الديني (الكاثوليكي الروماني أساسا) الذي اثر الفقراء على الأغنياء، منه تيار الجبادة، بينما أطلق على التير الذي نثر الأغنياء الناجحين (البروتستانت أساسا) صفة الفريسيين أو المرابين.

وحيثما تهيمن عقيدة الجبادة بتحدن التطوير الاقتصادي، لأن الفقراء سيستعرون أنهم عبرأين عن الإثم في فقرهم، وسيستعرون الأغنياء بالأسى لأنهم يرون انفسهم أصحاب حنانيا، ونجد في المقابل أن الاثنياء في الديانات الفريسية يحتفون بنجاحهم

الذي مروءه شاهدا على بركة الرب، ويرى ألففرا، في وما، فهو إلهه من الرب، وسر كل من الأعنا، وافة قرأ، بدافز هوي ندو تحسين أوضاعهم عن طريق التراكم والاستمرار.

وسن في سياق هذه الدراسة لنمطيه أن معتقدات الحياة تدعم القيم المأونة لتطويع الاقتصادى، سننا معتقدات الفريسيين تدعم القيم المواتية.

الثقة فى الفرد

عمل وإبداع الأفراد هما المحرك الرئيسى للتطور الاقتصادى وإن سا بحثهم على المكابدة والاختراع هو مناغ الحرية الذى يهين لهم إمكانيات التحكم فى مصيرهم إذ لو شعر الأفراد أن آخرين هم المسئولون عنهم فإن جهودهم سوف يتحط، وإذا كان هناك من يقول لهم ما الذى سنعى أن نفكروا أو يعتقدوا فمه سوف تكون النتيجة إما فقداننا للحافز وتعطلا للإبداع، وإما خيارا بين الضياع أو التمرد، ولكن لا الانصياع ولا التمرد يفضى إلى ضويز، إن الخضوع يجعلنا نجتمع عاطلا من المبدعين، والتمرد يحرف الطاقات بعيدا عن بذل جهد ينائى ليتحول إلى جهد من أجل المقاومة والإطاحة بالعوائق والندمير.

إن الثقة بالفرد والإيمان به من بين عناصر منظومة القيم الداعمة للتطوير وعلى العكس من ذلك، فإن فقدان الثقة فى الفرد، والتى تتمثل فى الهيمنة الرقابية والتحكم، ظاهرة تملية فى المجتمعات المقاومة للتطوير، والملاحظ أن مجتمع الثقة تسوده ضمنا الإرادة فى قبول المخاطرة، مخاطرة الفرد باختيار ما يتعارض مع رغبات السلطة الحاكمة، وإذا لم تصدرف هذه المخاطرة قبولا، وس إخضاع المرء لشبكة من القيود والضوابط سوف يفقد المجتمع المحرك الجوهرى للتطوير الاقتصادى، أعنى، يفقد تطوع كل فرد منا لأن بعضنا يفكر كما نريد، وأن نكون على حقيقتنا، وأن نحول أنفسنا إلى كائنات مميزة متفردة، وحين يتفكر وجود أفراد، وإنما فقط شعوب، أو "جماعات" لن يكون ثقة تطوير، والبدل إعد انصياع وضاعة أو هبة وانتفاضة.

المبدأ الأخلاقي المنزّم

ثمة مبدئين ثلاثة أساسية للأخلاق المبدأ الأسمى غيرى منكر للذات - أخلاق المقدسين والشهداء. والأدنى إجرامى - المصمغ فى حقوق الآخرين وفى القانون. أما الأخلاق الوسط فهى ما أطلق عليها ريعون أرون الأنانية المعتدلة - حيث لا يكون الفرد قدسما ولا مجرما فى سلوكه، وإنما يقمى فى اعتدال عقلانى رفاهته فى حدود المسئولية الاجتماعية والقانون.

ويعبر عن أسمى درجات الأخلاق شعاع ماركمس من كل حسب قدرته، وكل حسب حاجته، وكذا إصرار الكنيسة لرومانية الكاثوليكية على الطهارة الإكليريكية. ولكن أيا من هذين لا يتسق مع الضبعة البشرية.

وتشيع فى الثقافات الموازية للتطوير مبادئ الامتثال للقوانين والمعايير التى لا تعالى فى مطالبها. وإنما فهى ممكنة التحقق فى الواقع وهكذا يتوافق القانون الأخلاقى مع الحقيقة الاجتماعية. وعلى النقيض من ذلك تتضمن الثقافات المقاومة للتطوير على عانين متباعدين لا علاقة لأحدهما بالآخر أحدهما عائم وآخر بأسمى المعايير، والآخر هو عالم الواقع من اللا أخلاقيات المراتبة والتعاقب، والقانون مثل أعلى خيالى بعيد عن الواقع. ليس له من دور سوى التفسير بوضوح عما قد يفضله الناس نظريا، بينما عالم الواقع عمليا لا علاقة له بالقانون، وإنما يعمل وفقا لقانون الغلبة، وقانون الأذى والأمهر والأقوى. أى عالم نشاب وتعالب متنكرة فى ثوب حملان.

مفهومان عن الثروة

أساس الثروة أولا وقبل كل شىء - فى المجتمعات المقاومة للتطوير ما هو موجود ولكن أساسها فى المجتمعات الداعمة ما الذى لم يوجد بعد. ويتمثل الثروة الرئيسية فى العالم المتخلف فى الأراضى وما تغله أو مرتبط بها. ويتمثل الثروة الرئيسية فى العالم المتقدم من عمليات الاستكار الواعدة¹¹. ويرى اشجتمغ المفرد للتطوير أن القيمة

الحد، هذه سيجسد. كمثل، في كومبيوتر اليوم، سما المجتمع الداعم للتطوير بركر.
أصاره على الأجيال القادمة من أجهزة الكمبيوتر.

ولقد كانت الأراضي غير المأهولة داخل المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية متاحة لكل من يريد أن يعمل عليها ويستثمرها، ولكن المستعمرات الأسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية أصبحت تابعة وملكية للتاج. وتقرر منذ البداية أن الثروة تزول للقبض على السلطة وهكذا لم تكن الثروة وليدة عمل، بل حق لمن يقدر على كسب ود الملك ويحتفظ برضاه.

نظرتان إلى المنافسة

يجسد ضرورة المنافسة لإنجاز الثروة وتتميز خصائص المجتمعات الداعمة للتطوير. ليس فقط في مجال الاقتصاد، بل في أنشطة المجتمع وتعتبر المنافسة محبور نجاح مشروعات الأعمال، ونجاح السياسي والفكر والهنر. ولكن المنافسة في المجتمعات الممانعة ممانعة باعتبارها صورة من العدوان. وتضع هذه المجتمعات بديلاً عن المنافسة التضامن والولاء والتعاون. وهنا أيضاً يصح نظام التعاونيات مثل المنافسة بين مشروعات قطاع الأعمال. ونذكر المساهمة حول محور واحد هو التزجيم أو رئيس الدولة ويتعين على الحياة الثقافية أن تلائم نفسها مع العقيدة الرسمية. ولا تقبل هذه المجتمعات مبدأ المنافسة إلا في مجال الألعاب الرياضية.

والملاحظ أن الآراء السلبية عن المنافسة في المجتمعات المقاومة للتطوير تعكس مشروعية الحقد والمساواة الخيالية وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات تنتقد المنافسة، ومنتقد التعاون. إلا أن التعاون أقل شيوعاً في حينها على عكس ما هو حادث في المجتمعات القائمة على المنافسة ويمكن القول في الحقيقة إن المنافسة شكل من أشكال التعاون التي يفيد في إطارها كلا الفريقين المتنافسين، حيث يبذل كل قصارى جهده على نحو ما يحدث في الرياضة. ولهذا ترى أن المنافسة هي الرامية لديمقراطية في الرأسمالية والاختلاف في الرأي

فكرتان عن العدالة

عدالة التوزيع في المجتمعات المقاومة معيبة بمن عم على قيد الحياة الآن . أي تأكيد على الحاضر الذي يتحلى أيضا في نزوح إلى الاستهلاك دون الادخار . ولكن المجتمع الداعم أمل إلى تحديد عدالة التوزيع على نحو يتضمن أيضا مصانع أجيال المستقبل . وغالبا ما يكون النزوح إلى الاستهلاك في مثل هذه المجتمعات أقل . بينما يتعاظم النزوح إلى الادخار .

قيمة العمل

لا يحظى العمل بقيمة مرتفعة في المجتمعات المقاومة لتقدم . إذ يعكس التوزيع تيارا فلسفيا يعود إلى أيام الإضريق إذ كان مقالول المشروعات موضع ريبه . ولكن العامل اليدوي ذو وضع متدن أيضا . ذلك لأنه يضطر إلى العمل من أجل البقاء⁽¹⁾ ويحتل قمة سلم المكانة الاجتماعية كل من المثقف والفنان والسياسي والزعيم الديني والقائد العسكري . وثمة سم بدائل حدود مراتب المكانة في المسيية . وظل باقيا حتى عصر الإصلاح الديني ولكن الإصلاح الديني . وبخاصة التحويل الكالفيني . حسبما لاحظ ماكس فيبر . قلب السلم رأسا على عقب وأعلى من قيمة أخلاق العمل . وإن هذه المنظومة القيمية . بعد قلبها . هي التي تفسر الرخاء في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية . وشرق آسيا . وتفسر أيضا حالة العفر النسبي في أمريكا اللاتينية وغيرها من بلدان العالم

دور المبدع

دعا مارتن لوثر إلى حرية توليد الكتاب المقدس . وأصبح بذلك . عن حق . الرائد . الدرنى للتعددية الفكرية في وقت هيمنت فيه العفاث . الجامدة على المسيحية إذ لم تكن

(1) هنا نظور لحرورية اذابة . يستحق . عن مراجعه تاريخهم الغربي . وهذا ما يرجوا إلى روية تحديه ثانية من صوره مراجعه ان . ربما . (المترجم)

اسعارها من مسرحية العاصفة لتكسبير هناك اربيل الموسيم الروحاني يمثل
أمريكا اللاتينية، ثم العيد الفرج القندوس والبوتيل ويمثل الولايات المتحدة بيد أننا
لا ننسى أن الولايات المتحدة وليست أمريكا اللاتينية ، ثم العيد الفرج القندوس
والبوتيل ويمثل الولايات المتحدة . بيد أننا لا ننسى أن الولايات المتحدة وليست أمريكا
اللاتينية هي استهلت طريق التطوير الاقتصادي

الفضائل الأقل شأنًا

تنظر المجتمعات المتقدمة بتقدير إلى سلسلة من الفضائل لا صنة لها عملها
بالثقافات التقليدية. إنقاذ العمل، الكياسة، الدقة والوضوح وتسهم هذه جميعها في كل
من الكفاءة والنفاق والانساق في العلاقات البشرية إنها غير ذات أهمية في أية
ثقافة مقدومة للتطوير، لأنها تتعارض مع تأكيد الرغبات الفردية. ولأنها جزئيا تتهاوى
أمام الفضائل التقليدية الكبرى عن المحبة والعدالة والشجاعة والشهامة. ولا حاجة بنا
إلى القول إن الفضائل الأقل شأنًا هي من خصائص المجتمعات التي ننظر باحترام
إلى حاجات الآخرين

بؤرة اهتمام الزمن

هناك أربع فئات من الوقت الماضي والحاضر والمستقبل القريب والمستقبل
البعيد وتمثل بؤرة اهتمام الزمن عند المجتمعات المتقدمة في المستقبل الأي في
مستأولنا إنه الإطار الزمني الوحيد الذي يمكن التحكم فيه والتخطيط له ولكن
الخاصة المميزة للثقافة التقليدية إذا ما ركزت اهتمامها على المستقبل، فإنه المستقبل
البعيد، أي المستقبل في العالم الآخر

العقلانية

ينعز العالم الحديث بخاصية التأكيد على العقلانية والشخص العقلاني هو من يستمد رضا حد عن نفسه في نهاية اليوم من خلال ما حققه من إنجازات. ويمثل التقدم حصائد العديد من الاجازات الصغيرة المتوالية ولكن ثقفة من قبل العصر الحديث هي على التقبض. إذ تؤكد على مشروعات تتصف بالعظمة المبكرة، وللاحظ أن البلدان المقاومة للتقدم تزخر بالكثير من الآثار التي لم تكتمل والنزوح والصناعات والافرد. ولكن هذا كله ليس هو المهم. وإنما المهم حلم جديد يتراعى للخيال عدا

السلطة

القانون هو المحدد للم السلطة في المجتمعات العقلانية وإذا كان القانون له السيادة فإن المجتمع يعمل وفقاً لمبدأ العقلانية الذي عرأد إلى الكون فإسعة الحدثة وقالوا إنه القانون الطبري هي (مثل لوك، وهبوم وكانط). ولكن هي المجتمعات المقاومة تكون سلطة الأبر أو الزعيم أو رئيس الدولة أو سلطة الدولة تشبه سلطة إله غضوب نحر عن الدين بأفعاله، وليس مطلوباً من الناس التكيف مع ما هو معروف لديهم من أوامر عقلية وثابتة ينص عليها القانون. وإنما واجبهم تكب الإرادة العميقة لأمر حسب السلطان ومن هنا مصدر عدم الاستقرار الأمل الذي ينادى منه هذه المجتمعات

صورة العالم

نرى الثقافة الموازية لتقدم العالم موطناً لبعض إن العالم ينتظر الشخص الذي يريد عمل شيء تغييره، ولكن العدم في نظر الثقافة المقاومة للمقدم كيان شاسع لتجلى قوى لا سحب إلى مقومسيها. وبحمل هذه القوى أسماء عديدة متباينة وغير واقعية إلا أنها فاعلة ومطلقة في فعلها، وأحياناً يبيد الفع في صورة موامرة منسوبة

إلى غوى واقعة، كأن يقال مزاعرة بولية، أو رأسمالية، أو الإمبريالية، أو الماركسية^{١٤} ويعتدو الهم الأول لمن يعيشتون أسرى الثقافة المقاومة للتقدم أن ينقذوا أنفسهم من تلك المقاصرات المتخيلة. ولهذا ينزع المرء في المجتمع المقاوم للتقدم إلى التراجع بين التعصب وبين الانغماس في اللذات.

صورة الحياة

الحياة في الثقافة التقدمية شيء أصنعه وأوجدت - فأذا بطل الرواية. ولكن الحياة في الثقافة المقاومة للتقدم شيء يحدث لي - ويجب أن أؤمن لها

الخلاص من أم في العالم

في المفهوم القائم على مقاومة التقدم يكون الهدف خلاص المرء من العالم. لذلك ترى الكاثوليكية التقليدية العالم موضع النموع ويتمثل خلاص المرء منه في مقاومة القوىيات التماسا لعالم الآخر، عالم ما بعد الموت. ولكن البروتستانت، البيوريتان أو التطهريين يرون أن الخلاص في العالم الآخر رهن نجاح جهود المرء في تحويل هذا العالم الأرضي. ولهذا كان الراهب هو رمز الرؤية الكاثوليكية، بينما «قاول المشروعات هو الرمز في الرؤية البروتستانتية».

اليوتوبيات

الثقافات المؤيدة للتقدم أو المعارضة للتقدم كليهما تتضمن نوعاً ما من اليوتوبيا، أي نظرة خيالية مثالية، إذ ترى الثقافة التقدمية أن العالم يتقدم ببطء على

(*) إننا مع التسلسل منطقاً فكرة الموازنة، وحينئذ، هذه الثقافات - إلا أنه جرى بؤلا وفي هذا مقولة السراج من المجتمعات، والأمراء كصراع وأعمى يتور في حياة و هبة بما يعصر الحذر، وإميلان قوة الفعل، الدائر تكمن للثقافة ضد العدوان وليس للعدوان (نانوجم)

الطريق إلى يونوبيا بعيدة من خلال الإسداع وجهود الأفراد ، ولكن الثقافة المقاومة للتقدم ترى أن المرء يلتمس يونوبيا معناه في القدم وبعبارة عن حننائه . والنتيجة ثانية هي ضرب من التعصب ، أو الإنتماس في الملذات الأتانية ونجد إشارة إلى هذا النوع الأخير من الطوباوية في زيارة البابا يوحنا الثاني للهند حيث أكد أن جميع الهنود لهم حق في حياة كريمة جليلة مبروة من الفقر ، كما أنه رفض في الوقت نفسه فكرة ضيظ النسل .

طبيعة التفاؤل

التفاؤل في الثقافة المقاومة للتقدم هو الشخص الذي يتوقع أن يخدمه ويهي بطلباته اتخذ أو أي قوة خارقة غير ذاته ، ولكن التفاؤل في ثقافة التقدم هو الشخص الذي عقد العزم على عمل كل ما هو ضروري لضمان مصير يرضى عنه ، ويكون مفتنحا بأن ما يعرضه سوف يغير من الواقع .

رؤيتان عن الديمقراطية

الثقافة المقاومة للتقدم هي وريثة تراث نزعة الحكم المطلق . حتى وإن أخذت صورة الديمقراطية الشعبية التي تحدث عنها روسو والتي تلتف جميع الضوابط التشريعية والمؤسسية . وتقضي هذه النظرة بأن سلطة الملك المطلقة مصيرها الشعب . وثمة رؤية عن الديمقراطية الليبرالية والمؤسسية قال بها جون لوك ، والبارون مونتسكيو ، وجيمس ماديسون والأرجنتيني جوان يوانبستا البيردى . وتحدد هذه الرؤية خصائص الديمقراطية في الثقافة التقدمية ، إذ تقضي بأن السلطة السياسية موزعة بين قطاعات مختلفة مع سيادة القانون

أفكار ختامية

هذه القائمة التي تضم عشرين عاملاً ثقافياً وتقابل بين منظومة قيم موازية للتطوير الاقتصادي وبين منظومة أخرى مقاومة ليست قائمة نهائية وحاسمة، إذ يلزم توسيعها لتضم مقابلات أخرى أو يلزم اختصارها والاقتصار على أهم القوارق دون سواها. والتزمت معيار التطبيق العملي، ولهذا فرى أن هذه العوامل العشرين كافية لتكوين فكرة عامة عن الرؤى المتقابلة التي تشكل مصبرا لمنظومتى القيم.

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن أيًا من المنظومتين الموائمة، والمقاومة، موجودة في عالم الواقع. ولكن، كما قال فيبر، إنها أنماط مثالية أو مفترضات ذهنية بهدف تيسير التحليل. ذلك لأنها تقدم قطبين مرجعيين يساعدتنا على تحديد وتقييم مجتمع بذاته. ومن ثم فكلما كان المجتمع أقرب إلى المثل الأعلى الموائم كلما كان مهيباً أكثر لإنجاز تطوير اقتصادي مستدام. والعكس بالعكس، فإن المجتمع اللصيق بالقطب المقاوم سيكون أقل استعداداً لإنجاز تطوير اقتصادي مستدام.

رشة خط وهمي ممتد بين القطبين المقاوم والداعم، والتي يمكن أن نحدد مواقع المجتمعات الحقيقية على هديه. بيد أن هذه المواقع التي تحددتها ليست دائمة، إذ لا توجد منظومة قيم ثابتة (إستاتيكية)، وإنما هناك حركة متصلة، وإن كانت بطيئة، على امتداد الخط بعيداً عن قطب وفي اتجاه القطب الآخر. وتسمح لنا الأنماط المثالية بوضع تشخيص لمسار وسرعة أمة ما في حركتها تجاه أو بعيداً عن التطوير الاقتصادي ترى هل ستقترب من القطب المقاوم، إذا كان كذلك يكون قد أزف الوقت للتفكير فيما يلزم عمله لتغيير مسار وسرعة منظومة قيم الثقافة لتعزيز ودعم آفاق الوصول إلى القطب الآخر المقابل، وسوف يكون بالإمكان كذلك تحديد القيم التي يتعين الحفاظ عليها حتى وإن لم تكن داعمة والكامل للتطوير، ولكنها لازمة للحفاظ على هوية المجتمع - طالما وأنها لا تحول دون الوصول إلى الهدف، وهو التطوير.

والم يكن التطوير موجوداً عملياً، سواء في العرب أم في الشرق، قبل القرن السابع عشر^(*) ويصدق هذا بالقدر نفسه على أوروبا والصين وأمريكا قبل عصر كولومبوس. والهند، إذ كانت مستويات الإنتاجية منخفضة في كل أنحاء العالم لأن المجتمعات جميعها مجتمعات زراعية. وعرفت المجتمعات سنوات قحط وسنوات رخاء، وغالباً ما كان هذا يسبب عوامل مناخية وأولها سقوط الأمطار. ولكن لم تكن هناك تنمية مستدامة، وكان السدب شقافياً، ذلك لغياب الغيم التي تشجع على نراك رأس المال بهدف زيادة الإنتاج والإنتاجية وسادت مظلومات قيم مساومة الافتتسا، وتؤكد، كمثال، على خلاص روح الفراعنة المصريين وعلى الفن أو الفلسفة في اليونان القديمة، وعلى التنظيم التشريعي والعسكري كما في الإمبراطورية الرومانية، وعلى التميز في الفلسفة والآداب التقليدية كما في الصين، وعلى الزهد في العالم والتعاس الخلاص الأدبي - ومن خلال الحرب غالباً - كما في أوروبا في الحصور الوسطى

ولكن الإصلاح الديني البروتستانتي هو أول من أحدث تطويراً اقتصادياً في شمال أوروبا وشمال أمريكا. والمعروف أن زعامات أوروبا قبل الإصلاح نملك في فرنسا وإسبانيا (منحلفتين مع النمسا الكاثوليكية) وشمال إيطاليا (مهد النهضة) والفاتيكان، وغيورت الثورة التفغامية البروتستانتية كل البلدان التي كانت حتى ذلك الحين من المرتبة الثانية: هولندا وسويسرا وبريطانيا والبلدان الإسكندنافية وبروسيا والمستعمرات البريطانية السابقة شمال أمريكا، وال إليها زمام النزغامة. وحدث التطوير الاقتصادي في صورة ثورة صناعية، وحقق للقيادات الجديدة ثروة ومكانة وقوة عسكرية علاوة على هذا اضطرت البلدان غير البروتستانتية إلى مواجهة الحقيقة الواضحة التي أكدت لها أن الفشل في تحقيق تطوير اقتصادي سيؤدي إلى وقوعها تحت هيمنة البلدان البروتستانتية ومن ثم كان لزاماً عليها أن تختار بين الهيمنة البروتستانتية وفيها التقيدية "المقاومة" للتطوير - تحت اسم الهوية القومية.

(*) هنا يلزم توضيح معنى جديد لتطور والحداثة غير التي القائمة على المركزية الأوروبية (المترجم)

وبابت الاستجابات من بلد إلى آخر من البلدان غير البروسمانيّة نجد عند أحد الطرفين بورنوزيكو التي باءت روجها اللاتينية مقابل إنجاز القليل من التطوير الاقتصادي. ونرى على الصّرف المقابل الأصولية الإسلامية في إيران التي ترفض بشدة الأسلوب الغربي للتطوير وتراه خطرا يهدد الهوية السلفية والتي تمثل الهدف الأسمى لرجال السلطة.

وثمة بلدان أخرى التزمت طريقا وسطا بين الطرفين هناك الصين التي ظلت تزدهر قوة الغرب إلى أن خضعت لها^(١٠) ويمكن وصف ثورة ماوتسي تونج الشيوعية بأنها أول ملامحة حقيقية من جانب الصين مع الغرب. وخطت نهج هسيانج بخطوة أبعد في اتجاه الغرب وفتح الأبواب للرأسمالية وإن جاء هذا في إطار نظام سياسي تسلطي

ويذكر التاريخ أنه عقب زيارة أسطول الولايات المتحدة خليج اثيابان في عام ١٨٥٣، واتضح لليابانيين أن ليس باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم ضد الغرب، هنا خاطرت اليابان الجديدة في عصر الميجي باتخاذ مسار مغاير، فبدأت التفتحة الغربية دون الثقافة وأنشأت اليابان بذلك آلة حرب مهولة هزمت الصين والروسيا، ولكن اليابان ذاتها تحطمت خلال الحرب العالمية الثانية، أعقبت هذه الصدمة محاولة لغرض ديمقراطية وبدأت تضرب جذورها منذ ذلك التاريخ. وأعاد، اليابان النظر في أولوياتها من منظور بعيد عن الحرب وفي اتجاه الصناعة والتجارة - وحففت نتائج مذهلة وصدّرت كل من كوريا الجنوبية وتايوان في طريق مماثل. وقد كانتا مستعمرتين لليابان في السابق.

واعتدت البلدان الكاثوليكية في أوروبا منطق التطوير الاقتصادي. ونجلى هذا بخاصة منذ الحرب العالمية الثانية. وحدث أن انخفض معدل النمو في البلدان

(١٠) هذا حكمه السريع من الصين التي رفضت إلا الصّراع للنقل. ورفضت جمود النظرية، وتنظر إلى علاقتها بالحرب في إطار من الصراع وليس الخضوع كما يزعم الكاتب. وتكثرت الصين مبعوثا عمان - بم زورا - إذ قرّر أنها ستحسّن طريقها فلا تطلق من نظرية جامدة تجاوزها الزمن، ولا من جمعية لنظام آخر وإنما تجربة جديدة من الرفق لصين (المترجم)

البروتستانتية، ويرجع ذلك جزئياً إلى ضعف الحمية الدينية الباكزة. وهما اجنارز
فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وأيرلندا وأسبانيا الحبود التي تفصل التطور عن التلطف
هل تتبع أمريكا اللاتينية الكاثوليكية الطريق ذاته؟ الملاحظ أنه في ثمانينيات
القرن العشرين - العقد المفقود - عانت أمريكا اللاتينية من أزمة اقتصادية فاقمت منها
قام مقاومة التطوير ويبقى علينا أن فننظر لنرى إذا ما كانت أمريكا اللاتينية ستنتجز
حقا الأعمال الطموحة في التطوير الإقتصادي والمقرطة والتحديث.

الثقافة وسلوك النخبة في أمريكا اللاتينية

كارلوس ألبرتو مونتانر

تعانى أمريكا اللاتينية منذ زمن ضويل من دورات هوس اكتسابي فيما يتعلق بمدرجاتها السياسية ، إن تاتي فترات وهي في حالة نشوة . وتعلن وسائل الإعلام أن القارة بلغت أخيراً سن التضيق ، ونسمع أن كولومبيا تمر أسبوعاً جديداً أو أن كوستاريكا واندی سيليجون مشير في قلب أمريكا اللاتينية، أو أن البرازيل سوف تتحدى هيمنة الولايات المتحدة على نصف الكرة، تم تحل بها الكوارث المؤسسية: محاولات انقلابية، وتضخم مفرط، وفشل برامج الاستقرار، وهرب رأس المال^(١) وتنزلق إلى حالة من الاكئاب السوادوي، ويبدأ رأس المال الأجنبي يلوذ بالفرار ليتجو بنفسه . ويتحول الاكئاب إلى يأس، ويستبد بنا القنوط، ونخلص قائلين لا مفر . ربما سوف نبدأ بالحديث عن حالة دور ثقافي بتأرجح ما بين مزاج نشوة التجاح ومزاج نوبة الاكئاب.

(١) هنا تتفاعل الكتب عن دور الولايات المتحدة في الانقلابات وعزل قادة البلاد المناهضين لسياسها . واخر هذه الأحداث محاولة الانقلاب ضد ماكس فنويلا بفاعا عن المصالح التولية للولايات المتحدة . ولن نذكر كيف جاء بنونسيه ، باعتلاج مدع من الولايات المتحدة ، وهو ما نصفه الكاتب بـ "منظومات حرة" أمريكا اللاتينية أحداثها النسوية متوترة لأنها مجال حيوي للهبة الأمريكية . ولا يحدث المواقف هنا أيضاً ، من دور مصالح صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في أزمة المكسيك وأمريكا اللاتينية وبارق أسبانيا . والامرهود . أي الولايات المتحدة لها الهممة على الإسمعية ، وإن كنا لا نبرئ النظم لمعية الفاسد . (المترجم)

وبما نحن الآن، منما القرن العشرين يودعنا نجيش نسرى الطور الاكثماى لهنده
 اللوره حقا ان حكومات أمريكا اللاتينية، وباسستناء كويا، جاءت ولأول مرة فى
 التاريخ بانتخابات حرة، ولكن يساورنا شعور بالخوة، له ما يبرره، وهو الخوف من
 أن ديمقراطيتنا أكثر هشاشة مما تصورنا. إن الإكوادور التى حاول البرلمان فيها
 جاهذا التخلص من رئيسها المنهم بته على وشك الجنون تعيش الآن أزمة اقتصادية
 لا أحد يعرف كيف المسيل إلى حلها. وفقدت العملة البرازيلية نصف قوتها الشرائية
 خلال ثلاثة أسابيع مما أدى إلى هبوط شعبية رئيسها فرناندو هنريك كاربوسو. ونرى
 المكسيك يوما تتحرك على الطريق إلى الديمقراطية، ويوما آخر بعيدا عنها وتحولت
 كولومبيا إلى سفلة من الجزر لا تربطها سوى رحلات طيران محفوفة بالأخطار
 ويوجد بها ثلاثة جيوش كل يفرض سلطانه وبشريعته جيش الحكومة المركزية، وقوات
 الشيوعيين، وجيش المجموعات البرلمانية. وتخرق هذه الجيوش، بين بدرجات متفاوتة،
 قوة رابعة هى قوة مهربي المخدرات الذين يهدون الضمان والإعلام والأسحة
 وسيطرون على جرائم مئات من الأجناس القتل. وهى باراجواى اغتيل نائب الرئيس
 اوس ماريا أرجاناء عضو الرئيس زالول كويس، واغتاله خصومه. وهما تم طرد
 الرئيس الذي فر بصحبة المتامر الجنرال أوبييدو. إننا ببساطة نعيش نوبة الاكثماى.

حوار لا ينتهى

الجدل بشأن أسباب إخفاقات أمريكا اللاتينية بالقياس إلى نجاح كل من كندا
 والولايات المتحدة لا يكاد يتقطع، ويحتل بؤرة اهتمام مثقفى أمريكا اللاتينية. ونجد
 تفسيرات عديدة تكفى لإرضاء أى شخص وتلائم معه. والملاحظ فى مطلع القرن
 التاسع عشر أنهم لمعوا باللوم على إرث شبه جزيرة آيبيريا وتزعمتها الكاثوليكية
 المنعصبة. ولكن فى منتصف هذا القرن تقريبا عزوا أوجه العصور إلى الثقل السكانى
 لجماعات كسولة من المواطنين المعارضين للنقمة. وفى بداية القرن العشرين، خاصة
 مع اندلاع الثورة المكسيكية عام ١٩١٠، قبل إن الفقر وانخفاض سببهما سوء توزيع
 الثروة، وأهمها عجز الفلاحين عن امتلاك الأراضى. ومع عشرينيات القرن بدأ الانهيار،

والذى تسارع بعد ذلك بوجه إلى الإمبريالية الاستعمارية خاصة الإمبريالية الأمريكية (المانكي) وخلال الثلاثينات والأربعينات أصيبت إلى هذه النظرة رؤية أخرى تقول إن ضعف أمريكا اللاتينية نتيجة لضعف حكوماتها. وقيل أيضا إن هذا الوضع لا سبيل إلى إصلاحه إلا بنحو هذه الحكومات إلى "محركات للاقتصاد" وتحويل الموظفين العاملين في النولة إلى رجال أعمال.

وبلغت جميع هذه الشخصيات والافتراحات نقطة الأزمة في الثمانينات . العقد المنقور . عندما أثبتت التجربة زيف جميع الحجج على الرغم من أن كلا منها ربما انطوت على حقيقة تلك أن التطور السريع لبندان كانت أفقر من أمريكا اللاتينية من حيث المتوسط العام في خمسينيات القرن - كوريا الجنوبية وسنغافورة وتايوان - أثبت بالدليل أن أمريكا اللاتينية أسامت فهم مفاتيح الرخاء. وكان لابد لهذا أن يعيدنا حثا إلى السؤال الأبدى: من المسؤول؟

ثمة إجابة محتملة وإن بدت جزئية، وهي النخبة: الجماعات التي تقود وتدير القطاعات الرئيسية في المجتمع، أولئك الذين يعملون باسم قيم واتجاهات وبيديولوجيات معينة. إن بن هؤلاء، في حالة أمريكا اللاتينية لا يؤيدون التقدم الجمعي. لا يوجد فرد واحد هو المسؤول وحده، وإنما عدد كبير - غالبية من يشغلون مناصب قيادية في المنظمات العامة والخاصة وفي المؤسسات، هؤلاء هم المسؤولون أساسا عن إطراد وبؤام حالة الفقر.

وظهرت على السطح بقوة دفع جديدة، وعلى نحو تدريجي، الفكرة القائلة إن القيم والانجازات الثقافية التقليدية عقبه كآداء على طريق التقدم. ولكن كيف تتجلى هذه القيم والاتجاهات في طريقة سلوك الناس؟ سوف أحاول في هذا الفصل أن أعرض رؤيتي عن الطريقة التي تتجلى بها هذه القيم والاتجاهات وتعبير عن نفسها في سلوكيات ست مجموعات من أبناء النخبة السياسيين، والعسكريين، ورجال الأعمال، ورجال الدين، والمثقفين، واليساريين. وأريد أن تؤكد بداية أن ليس عن الإلتصاف أن تنحوا باللوم على النخبة وحدها، فما هم إلا انعكاس بقدر كبير للمجتمع الأوسع. ذلك لأن المجتمع سوف يتبذمهم إذا تعارضت سلوكياتهم جذريا عن معيير المجتمع

الواسع علاوة على هذا، ثمة استنفادات بين صفوف النخبة، رجال مكاسبون من أجل تعبير الأتماط التقليدية للسلوك التي قادتنا إلى حيث نحن الآن.

السياسيون

ولنبداً بالسياسيين، لأنهم الأكثر وضوحاً أمام أعيننا. السياسيون الآن في أمريكا اللاتينية ليسوا موضع ثقة لكي ينتخبهم الناس، إذ عليهم أن يثبتوا أنهم ليسوا سياسيين بائسة، وإنما بشر آخرين: عسكريون أو ملكات جمال أو تكنوقراط أو أي شيء، آخر، إلا أن يكونوا سياسيين. لماذا؟ السبب أساساً أن فساد القطاع العام مع ما له من حصانة هو المعيار في كل أنحاء المنطقة. ويتجلى هذا في ثلاثة أشكال

• الشكل التقليدي، وهو أن الرسميين يتلقون "عمولات" ورشاوى من كل مشروع يتحقق أو عن كل خرق للقوانين والقوانين لمصلحة شخص ما.

• الشكل غير المباشر، حيث الفساد يفيد شخصاً أنت متحالف معه وإن ظلت يدك نظيفة، مثال ذلك يواكين بالاجوير في جمهورية الدومنيكان، وجوزيه مازيا في الإكوادور.

• شراء العملاء، وهو الأكثر تكلفة، حيث تستخدم الأموال العامة لشراء جماعات كبيرة من الناخبين.

ويبدو هنا وكأن السياسيين ليسوا موظفين عامين منتخبين لخدمة الجمهور مع الالتزام بالقوانين، وإنما حكام لهم سلطات مطلقة تقاس مكائنتهم بقدرتهم على انتهاك القوانين. وهذا هو معنى السلطة الحقيقية في أمريكا اللاتينية - القدرة على العمل فوق القانون.

والحقيقة هي أن نسبة مئوية كبيرة من الأميركيين اللاتينيين إما أنهم يقيمون أو يتسامحون مع علاقات تهيئ لهم تلقى مكافآت مقابل الولاء، أما الكفاءة فهي مغفلة

تماما ونادرا ما يتجاوز الولاء في ثقافة أمريكا اللاتينية حدود دائرة الأصقاء والأسره. وهذا هو سبب فقدان القطاع العام للثقة الجماهيرية، والسبب في ما أصاب فكرة الخير العام من ضعف شديد. والنتيجة الحتمية هي أن أكثر السياسيين نجاحا هم من ينجحون لحلفائهم وأنصارهم.

ولا ريب في أن هذه الممارسات السميكة ليست قاصرة يقينا على أمريكا اللاتينية وحدها. ولكن ما يثير قلقنا هو كثافة وتواتر حدوثها في المنطقة. والأدهى من ذلك هو حالة اللامبالاة لدى الناس عامة إزاء هذه الممارسات والحصانة التي يتمتع بها المنورطون في هذه الأخطار. ويبدو الأمر وكأن الأمريكيان اللاتينيين لم يدركوا بعد أنهم هم أنفسهم الذين يدفعون في النهاية ثمن الفساد وتدني الكفاءة، وهي أمور تسهم بقوة في حالة الفقر في المنطقة.

الجيش

الجيش مسئول بالمثل عن مشكلات أمريكا اللاتينية. نعرف أن دور الجيش في الديمقراطيات المتقدمة هو حماية الأمة من الأخطار الخارجية، ولكن الجيش في أمريكا اللاتينية كثيرا ما أوكل لنفسه مهمة إنقاذ الأمة من الإخفاقات التي سني بها السياسيون. وذلك بإحدى وسيلتين: إما تحرك فرق عسكرية تفرض عدالة اجتماعية بالقوة، أو الاستيلاء على الحكم والحفاظ على النظام العام. والملاحظ في كلتا الحالتين أنه بسلك عادة وكأنه جيش احتلال في بلده.

وقيل إن سنوك العسكريين في أمريكا اللاتينية يعكس تأثير الوطن الأم - إسبانيا. ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد أنه وقت تأسيس جمهوريات أمريكا اللاتينية فيما بين عامي ١٨١٠ و ١٨٢٦، كانت الانقلابات في إسبانيا استثناء، ونصيبها من النجاح ضئيل. وتوافق زمن حالات العصيان المسلح في شبه جزيرة أيبيريا مع ظواهر معدثة في أمريكا اللاتينية، ولكن لم تكن سابقة عليها. ولكن الأصوب أن نقول إن رؤساء الثورة العسكريين في أمريكا اللاتينية الذين أشعلوا حروباً صغية لا حصر لها

خلال القرن التاسع عشر وأفلاماً ديكتاتوريات خلال القرن العشرين، يمثلون أساساً ظاهرة تاريخية أمريكية لاتينية ومرتبط هذه الظاهرة بعقيدة تسلطية لا تحترم لا القانون ولا القيم الديمقراطية

وعلى الرغم من أن أمريكا اللاتينية عرفت الكثير من نظم الحكم الديكتاتورية العسكرية منذ الأيام الأولى للاستقلال في مستهل القرن التاسع عشر، إلا أن الجيش في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بقيادة جيوليو فارغاس في البرازيل وجوان دومنجو بيرو في الأرجنتين، انتهى إلى الزعم بأن العناية الإلهية عهدت إليه بالنهوض بأعباء رسالة جديدة النهوض بتطوير اقتصادي مدعوم من الدولة، وتولى كبار ضباط الجيش دور المديرين لشروعات الدولة والتجديد بالملاحظة أن نعمة فكرة أساسية لم تتحقق عملاً في التطبيق والواقع، تقول إن القوات المسلحة في بلدان تعيش على مؤسسات تتصف بالفوضى والضعف مثل بلدان أمريكا اللاتينية، هي المؤسسة الوحيدة التي تتمتع بحجم وتقليد وانضباط كافٍ لخلق صناعات حديثة ذات إنتاج كبير وقادرة على المنافسة في العالم الصناعي المعقد للقرن العشرين.

ولكن تورط الجيش في مشروعات أعمال الدولة كلف أمريكا اللاتينية كثيراً إذ كان ضباط الجيش، شأن السياسيين، فاسدين وأدت المشروعات الخاضعة لحمايتهم إلى إفساد السوق، إذ كانت متحمة بالعاملين بما يزيد عن الحاجة كثيراً، علاوة على المبالغة الشديدة في الإنتاج والنتيجة عدم كفاءة وبيوار الإنتاج.

ولم تعرف بلدان أمريكا اللاتينية سوى القليل جداً من رؤساء الدول المدنيين مثل هيبوليتو يريجووين في الأرجنتين وأرنولفو أرياس في بنما، ولهذا فإن الهيمنة للتقليد العسكري وليس رئيس الدولة هنا مجرد ديكتاتور بسيط يمارس سلطانه قسراً، وإنما هو المزعيم الذي قوض إليه المواطنون كل هيكل الحكم، المسلمة الكاملة لاتخاذ القرار والمسيطرة على أنوات القمع، ولم تقتصر النتيجة على إهدار إمكانات تطوير الديمقراطية، بل تحسّل انقلاباً خسائر فادحة بالمعنى الاقتصادي، علاوة على ما تمخض عنه هذا كله من أسباب حتمية لإثارة الفوضى في الملكية العامة والخاصة.

رجال الأعمال

من أكبر دواعي السخرية في أمريكا اللاتينية ذلك الاتهام الذي يتردد مرارا بأن الرأسمالية المتوحشة هي الملوثة بسبب فقره بالمائة من مجموع أبناء أمريكا اللاتينية الذين يعيشون في فقر مدقع ويسكنون أكواخا قذرة ذات أسقف من صفيح. والنساء الحقيقية في أمريكا اللاتينية هي أن رأس المال فيها قليل ومحدود، وجزء كبير من هذا القليل ليس في أيدي منظمى مشروعات أعمال منوط بهم للمخاطرة والابتكار. إنما هذا القليل بين أيدي مضاربين جبناء، يفضلون استثمار أموالهم في العقارات، ويأملون في أن يؤدي النمو البطيء للبلاد إلى ارتفاع أسعار ممتلكاتهم، وليست هذه من الرأسمالية الحديثة في شيء، وإنما نظام ملاك أراضي في إطار تقليدي إقطاعي.

ولكن ما هو أسوأ من هذا كله تلمسه في رجال الأعمال الميركانتيليين أو التجار الذين ينشرون الثروة من خلال التفرد السياسي وليس المنافسة في السوق⁽¹⁾. إن الميركانتيلي يقتسم أرباحه مع سياسيين فاسدين داخل دائرة خبيثة يتولد عنها مزيد من الأرباح والفساد، إنه يشتري الحماية الجمركية التي تفلح أسعارها مرتفعة وجودة متدنية على حساب التعميل، وقد يشتري احتكار وضع ما تحت مبرر المصلحة الوطنية أو من أجل وفورات الحجم الكبير. ويمكنه أيضا أن يشتري مزايا ضريبية ومعونات ومعدلات أسعار فائدة تمييزية، وقروضاً لن يرددها، ومعدلات تمييزية لأسعار صرف العملات الأجنبية.

ولا ريب في أن المرء يشعر بالصدمة إزاء أنواع العلاقات الحميمة القائمة بين رجال الأعمال الميركانتيليين والسياسيين الفاسدين، وتتأكد أسباب الصدمة بخاصة فيما يتعلق ببيع العملة الأجنبية لهم بالسعر التمييزي لاستيراد سلع رأسمالية لتصناعات المحلية. إن الدولار هنا له ثلاثة معدلات أسعار صرف مختلفة، إذ من يحظون بعلاقات ملائمة يمكنهم شراء الدولار بالسعر التمييزي الأساسي، ويبيعون جزءاً سراً بمعدل فائدة عالٍ، ويدفعون مقابل السلع المستوردة بمعدل آخر، وهكذا يرون أرباحهم تتضاعف وكأنها بمنح ساجرة، وكلما زاد المرء ثراءً زاد فساداً.

وطبيعى أن هذه الممارسات البستة ليست قاصرة على أمريكا اللاتينية، ولكن الشيء المشير هو مدى تكرارها وكثافتها على النحو الذى أدى بالفساد أن يستشرى بهذا القدر فى البلاد هذا علاوة على أن هذه الممارسات مقذورة باللامبالاة وبالخصاسة ويبدو أن الناس لم تدرك بعد أن المال الذى يكسبه رجل الأعمال الميركانتيلى عن طريق بيع وشراء النقود إنما يأتيه مباشرة أو على نحو غير مباشر رأس المال فيها قليل ومحدود، وجزء كبير من هذا القليل ليس فى أيدي منظمى مشروعات فعمل متوط بهم المخاطرة والابتكار، إنما هذا القليل بين أيدي مضارين هبنا. يفضلون استثمار أموالهم فى العقارات، ويأملون فى أن يؤدى النصر البطيء للبلاد إلى ارتفاع أسعار ممتلكاتهم، وليست هذه من الرأسمالية الحديثة فى شيء، وإنما نظام ملاك أراضى فى إطار تقليدى إقطاعى

والواقع أن أمريكا اللاتينية، مع استثناءات محدودة، لم تعرف أبدا الرأسمالية الحديثة المقترنة بالديمقراطية السياسية التى حققت رخاء ومستويات عالية من الرفاه للإنسان.

رجال الدين

إنه لأمر محزن أن تدرج رجال الدين بين النخبة المسؤولة عن يأس الجماهير. وآراء محزنة لأن المسؤولين ليسوا جميع رجال الدين، وإنما فقط من يعطون ضد اقتصاد السوق ويبررون الأعمال المناهضة للديمقراطية. وآراء محزنة ثانيا لأن من يفعلون ذلك من رجال الدين إنما يفعلونه باسم الغيرة، بيد أن أفعالهم التماس لعادلة اجتماعية تحكم على الفقراء، بالبقاء، أسرى الفقر إلى الأبد - وهذه حالة مطابقة للنمط السائر الطريق إلى جهنم مهده بالفوايا لتسنة

ويمكن الإشارة بوجه عام إلى أن الكنيسة الكاثوليكية منذ منتصف القرن التاسع عشر فقدت القسط الأكبر من ممتلكاتها العقارية غير المدارس والمستشفيات مع قليل من أجهزة الإعلام العام. وهكذا فإن الكنيسة بعد أن كانت يوما من أكثر

الملال في العالم العربي، خسرت منذ زمن دورها في المعال الاقتصادي . وليس معنى هذا تضال نفوذها . خاصة بوزها المعنوي إذ يمكن للكثبة أن تبغي مشروعة أو أن يفقد الناس الثقة فيها شريطة القيم والاجامات التي تؤثر بعمق في توقعات الناس .

ولكن حينما يعلن مزتر لساقفة أمريكا اللاتينية أو فقهاء دين التحرير أو رجال الجيوزوت إبدانهم لفرعة الليبرالية الجديدة المتوحشة ، إنما يتحدثون هراء.^(٢) ذلك أن الليبرالية الجديدة ليست سوى مجموعة من إجراءات الملامة لتخفيف حدة الأزمة الاقتصادية في المنطقة . خفض إنعاقات الحكومة ، وخفض جدول رواتب القضاة العام ، وخصخصة المشروعات الحكومية للدولة ، وميزانية متوازنة وسيطرة على إصدارات النقد . ولكن هذه الإجراءات ينتقدها بشدة رجال الدين ، وهي إجراءات لا تختلف عما يطالب به الدول الأوروبية الغنية من بعضها ضمانا لسلامة وضع اليورو .

ويعمن الأساقفة خاصة الداعين إلى لاهوت التحرير ، في توجيههم التدميري عند مهاجمة حافظ أربح والمنافسة ، والنزعة الاستهلاكية ، ويرى بعضهم أن الفقر حتى في نشر أو بسبب ما سموت إمبريالية البلدان الغنية ، وأولها الولايات المتحدة . ويضيفون أن السبيل الوحيدة للخلاص ذلك هو العنف المسلح بقيادة زعيم لاهوت التحرير جوسافو جيتيريز.^(٣)

المتكفون

ثقافات قليلة نجد فيها مثقفين نوي رؤية واضحة شأن ثقافات أمريكا اللاتينية . ولعل هذا نتيجة التأثير القوي للثورة الفرنسية إذ ما أن يحظى كاتب أو قمان بشهرة واسعة حتى يقو خبيرا في كل شيء ، بما في ذلك حروب البلقان ومزايا التخصص والكوارث الناجمة عن خصخصة مشروعات الدولة

وهذه الخاصة المعيزة لثقافتنا ليس لها من نتيجة مبهمة سوى نتائج مدمرة . من القدرة على التحدث في كل شيء ، بون تواضع أو معرفة . وهذه هواية المثقفين يؤدونها في بلادنا بحماس شديد وتتجلى نتائجها الخطرة في الحياة العملية . إذا عرفنا أن

غالبية متفخضا معاهضون للغرب، ومناهضون للبانكى. بهماهضون لنساسة الداعمة للسوق. وإذا كان المثقفون يدعون رؤية تدعو إلى فجر ثورى مروغ، فليس لذا أن ندهش إزاء قرار رأس المال أو غلبة الإحساسى بأن نظامنا السياسية والاقتصادية إلى روال.

الميسار

تألف آخر مجموعات النخبة من كل من بقايا العمال المعارضة لاقتصاد السوق والملكية الخاصة، ومن تلك الفئة الأمريكية اللاتينية المعروفة باسم الثوريين.

ولكن هناك يقينا حركة عمالية مسنولة نذرت جهودها عن أجل المصالح والحقوق المشروعة للعمال، ولكنها ليست هي المهيمنة، إذ إن النقابات التي تجثم على المجتمعات الأمريكية اللاتينية هي تلك التي تعارض خصخصة مشروعات التسولة الخاسرة ولا تقدم سوى سلع وخدمات قاصرة أو لا وجود لها.

وعجزت بعض النقابات عن إدراك أن المشروع الحديث المتأخر مشروع مرئ، وقادر على التكيف مع الظروف المتغيرة. والملاحظ أن المشروعات تفقد قدرتها التنافسية وتزداد البطالة حين ترى النقابات أن من العسير عليها أو المكلف لها إحداث أي تغيير في مستويات العاملين أو في العقود.

ويتصف الثوريون بالراديكالية، ويظنون أنهم أصحاب حق في انتهاك القوانين باسم العدالة الاجتماعية، ويقنع البعض بالتبشير بالثورة دون بذل أي جهد عملي لدعم القضية الثورية، إنهم قبيلة نحل أمريكا اللاتينية نعتنا باهتلا لا يمكن تقديره أو حسابه، وأقل ما يقال إنهم أتقوا بلادهم في حالة من الفقر والظلم.

هل أفريقيا بحاجة إلى برنامج للتكيف ؟

دانييل إيتونجا - مانجويل

مؤشرات الأزمة التي تعيشها أفريقيا مذهلة

* متوسط عمر الحياة المتوقع دون الستين عاما في ثمانية وعشرين بلدا، ومتوسط عمر الحياة المتوقع دون الخمسين عاما في ثمانية عشر بلدا، ومتوسط عمر الحياة في سيراليون سبعة وثلاثون عاما فقط .

* حوالي نصف سكان أفريقيا جنوب الصحراء، والذي يناهز عددهم ٦٠٠ مليون نسمة، يعيشون في فقر .

* نصف أو أكثر من نصف كبار السن في ثلاثة عشر بلدا على الأقل أميون .

* نصف أو أكثر من نصف النساء في ثمانية عشر بلدا على الأقل أميات .

* الأطفال دون الخامسة يموتون بمعدل أكثر من ١٠٠ طفل من كل ألف في ثمانية وعشرين بلدا على الأقل . ويصل المعدل في سيراليون إلى ٣٣٥ من كل ألف .

• معدل النمو السكاني ٢.٧ بالمائة سنويا، حوالي أربعة أمثال المعدل في البلدان ذات الدخل المرتفع.

• من بين البلدان التي تزود البنك الدولي بالمعلومات ذات الصلة (إذ ليس كل البلدان تفعل ذلك) نجد في أفريقيا عددا من أشد البلدان تفاوتا من حيث أنماط توزيع الدخل، وأكثر ٦٠ بالمائة ثراء في كينيا وجنوب أفريقيا وزيمبابوي وحصلون على ٤٧ بالمائة من الدخل، وحوالي ٤٢ بالمائة في غينيا - بيساو والسنگال وسيراليون^(١٦).

• واضح أن المؤسسات الديمقراطية ضعيفة أو غير موجودة .

ولا يسعني وأنا إذا - هذه المعاناة البشرية القاسية أن أقدم قصص حكاية وزير من إحدى الحكومات الأفريقية إذ قال في معرض ملاحظاته "كانت البلاد حين تولينا السلطة على حافة هاوية واضطرتنا منذ ذلك الحين أن نخطو خطوة كبيرة إلى الأمام .

أذكر هذه الحكاية لأننا، من ناحية، لم نجد لنا أن نلقى اليوم، إذا لا، زمام الإنصاف، على القوى الاستعمارية وحدها بسبب وضعنا الذي نحن فيه لقد مضت سبعة عقود كانت لنا فيها موضوعيا السيادة على مصيرنا ولكن ها هي أفريقيا اليوم أكثر اعتمادا عن السابق على البلدان الغنية. وأكثر استهانة من أية قارة أخرى للموارد التي تعطى بيد ويسود بالآخرى. إن البنك الدولي، وهو عادة مصدر مهم للتمويل والمشورة، بات هو نفسه عاجزا عن تقديم أفكار ولا نجد غير الصمت بعد الحديث عن برامج التوفيق الهيكلي (التي لم تثبت فعاليتها).

وبات واضحا حاجتنا إلى أن ننمى عن أمر ثقافتنا، الثقافة الأفريقية. ولكن ما هي الخصائص المميزة للثقافة الأفريقية؟ هل هذه الثقافة مؤهلة للاحتياجات التي تواجهها الأفراد والأمم مع مطلع القرن الواحد والعشرين؟ وإذا لم تكن كذلك، فما هو التوجه الثقافي الجديد الضروري من أن نشد عن التوافق مع أممنا؟ هل أفريقيا بحاجة إلى برنامج للتكيف الثقافي؟

من نحن؟ ما حقيقتنا؟

ليس يسيرا أبدا أن يتكلم المرء عن نفسه ليكشف جوهر روحه خاصة ، كما هو الحال بالنسبة للروح الأفريقية يتراءى أمامنا العديد من الأوجه المختلفة، وتواجهنا هنا ثلاثة أخطار على الأقل. الخطر الأول التظاهر بصورة مثالية وجعيلة لكي نبهو في صورة أفضل مما نحن عليه. الثاني، أن لا نقول شيئا يكشف حقيقة الهلة المحاطة بالأسرار التي يحرص على التظاهر بها الناس من جميع الثقافات. وأخيرا، من ذلك الذي له الأملية والحق للنحدث باسمنا جميعا¹ إذ تصوق هنا حكمة أفريقية تقول إن من يتطلع من قاع البئر أن يرى سوى جزءا ضئيلا من السماء .

ومع الفسلم بمشروعية كل التحقيقات الساقية إلا إنها لن تمنعت من النظر إلى المرآة. هل نجرو على النظر إلى أنفسنا من وجهة، حتى وإن تعذر علينا التعرف على أنفسنا

خمسون أفريقيا وثقافة واحدة

اعتدنا منذ زمن طويل الإشارة إلى أفريقيا باعتبارها كيانا متنوعا، لذلك لم يكن أحد ليبدى دهشة، هي ضوء بلقمة الفخارة ، حين يرى أعمالا تحمل عناوين مثل الخمسة والأربعون أفريقيا² أو الخمسون أفريقيا³. وسبب ذلك، كما أشار جى كى - زيربو في مقدمته للكتاب الثاني أفريقيا واضحة ، أنها أيضا مريحة .

والصفات التي تصف النوع الأفريقي كثيرة جدا، حتى إنها تجعل بطل في الأولياد يصاب بالدوار أولا، إننا لكي نقابل بينها على نحو أفضل، نود أن نؤكد على أفريقيا البيضاء، وأفريقيا السوداء، إحداهما شمال الصحراء، والثانية جنوب الصحراء. ولكن كيف لنا أن نصنف جمهورية جنوب أفريقيا وزيمبابوي وكلا منهما تضم أقلية كبيرة العدد من البيض؟ وسرعان ما يكتشف المرء وراء هذه السفارة العنصرية مصدرا أهم كثيرا للتنوع هو اللغة توجد أفريقيا الأزابونية أو المتحدثة

بالعربية. وأقربها الأنطولوجية أي المنحدرة بالإنجليزية، وأقربها الفراءكوفية أو المنحدرة بالفرنسية، وأفريقيا اللوزفونية أو المنحدرة بالبرتغالية. نسبة إلى الاسم القديم للبرتغال لوزيتانيا، وأفريقيا الهسبانوفية أو المنحدرة بالألمانية، ناهيك عن عدد لا يحصى من لغات لا علاقة لها بلغات المستعمرين الأوروبيين.

وما الذي يمكن أن يقال إذا ما جردنا على تجاوز الحدود الناشئة عن دور المستعمرين في تفكيك القوميات الحقيقية مثل يوروبا Yorubas والهاوسا Hausas وبنو Malinkes، وهذا قليل من كثير من قوميات موزعة بين دول عديدة؟

إذاً واحسنا، حصص التنوع الأفريقي على أساس لون البشرة أو اللغة فإن هذا ربما يعودنا إلى عدة آلاف أفريقية. ثم يجب علينا بعد ذلك أن نواجه علماء الأنثروبولوجيا هل توجد في أفريقيا ثقافات «عدد ما فيها من قبائل» وهل عددها «واقف» مع عدد الدول التي رسمت حدودها «الدول الاستعمارية» هل إصدار رؤية عامة عن الثقافة الأفريقية إجمالاً يفيدنا في شيء؟

أعتقد أن نعم. نحن لا ننكر التنوع - مع وجود عدد كبير من الثقافات الفرعية. لكن ثمة أساس لقيم واتجاهات ومؤسسات مشتركة تجمع بين الأمم جنوب الصحراء، وكذا بلدان الشمال من أنواع عديدة. ويشبه الوضع هنا بريطانيا إذ على الرغم من الثقافات الفرعية فيها، إلا أنها لا تُعد بثقل في وجود ثقافة بريطانية.

وحتى بالذکر أن هذا الأساس المشترك له وجود واقعي تماماً، حتى أن بعض علماء الأنثروبولوجيا يتساءلون هل الديانتان الوافدتان إلى أفريقيا - المسيحية والإسلام - أثرًا حقيقية في معتقدات الأسلاف الأفريقية، أو أعطتا الإفارقة وسائل لفهم المجتمعات المعاصرة التي يعيشون فيها. والملاحظ أن السلطة السياسية الحديثة غالباً ما اتخذت لنفسها خصائص انقوى الشعائرية الدينية للتقيدية، بل إن العرافة والسحر عرفا طرفيها إلى دور العدالة. ولا تزال الرابطة بين الدين والمجتمع قوية في كل أنحاء القارة. وكما قال لنا فليكس هوفو - بولني، رئيس ساحل العاج الراحل (مع ملاحظة أنه كاثوليكي، ومن ثم يدرك جيداً معنى ما يقوله) «نحن جمعنا ابتداءً من كبار الأساقفة حتى أصغر كاثوليكي، ومن أكبر طبيب ساحر وحتى أبسط عسك، ومن

القيس حتى أبسط برونشانتى، لنا - امرى على العبيد الجنوبية¹¹¹ التى تؤس بان كل الموجودات على الارض لها روح.

ومن ثم، تيس يسيرا الإحاطة بمفهوم الثقافة الأفريقية، إذ إنها تستعصر على وصفها جملة فى إطار واحد، وتقويم محاولات صياغتها فى نسق متكامل، ذلك فإن دراسة لأمانة هذه الثقافة لن تكون كافية تماما، وإن أعطتنا تصورا عن حقيقة الواقع الثقافى الأفريقى

البعد التراثى

يرى دى. بوليتجر، وجى. هوفستيد، أن البعد التراثى - درجة المكانة فى سلم التراثى رأسى - يمثل، بوجه عام مسألة موضوعية وجوهرية فى المناطق ذات المناخ الاستوائى والنهر الأبيض المتوسط. إذ نلاحظ هنا أن بقاء الجماعة وسوها يعتمد على الإدخال البشرى بدرجة أقل مما هو حادث فى مناطق المناخ البارد والمعتدل¹¹². وبسبب المجتمع إلى أن يكون استاتيكيا ومركزيا سياسيا فى البلدان القائمة على نظام البعد التراثى الموضوعى وتتمركز، الثروة القومية على فلتها فى أبهى النخبة، وتتوالى الأجيال دون تعبر مهم فى البنية العقلية. ونجد انعكس فى البلدان التى تنبنى على أبعاد تراثية قصيرة، وتشد يد الجماعة تعبيرات ثقافية بسبب حاجتها إلى التقدم الثقافى، ويكون النظام السياسى لا مركزيا وقائما على نظام نيابى، وتوزع الثروة الوفيرة على نطاق واسع، ويتعلم الأطفال أن اباعهم لم يكونوا يعرفون شيئا مما يعرفونه هم.

وتحط فى الثقافات الأكثر أفقية أن الرعايا يعتقدون أن السادة أو أصحاب المكانة الأسمى، بشر مثلهم تماما، وأن جميع البشر لهم حقوق متساوية، وأن القانون له الأولوية على القوة ويقضى هذا إلى الاعتقاد بأن أفضل طريقة لتقييم نظام اجتماعى هو إعادة توزيع السلطة، ولكن فى المجتمعات التى يغيب عليها الوضع التراثى الرأسى، ومن بينها أفريقيا، يرى الرعايا أن سادة المجتمع مختلفين عنهم.

لهم حق التمسك وحيث إن القوة أو السلطة لها دائما العتبة على العائون، فإن أفضل وسيلة لتغيير نظام اجتماعي هي الإطاحة بالقائضين على السلطة.

ونظرا لأن البعد التراتبي يسود كل مظاهر وجوانب المجتمع (التنظيم السياسية، والممارسات الدينية، وتنظيم المشروعات) فإنه يكفي عمليا لتفسير التخلف. ولكن وكما سنعلم بولجر وهوفسنيد، فإن فرنسا وإيطاليا واليابان بلدان يسودها بعد تراتبي نسبيا عالية.

القضاء على الشك

يعمد بعض المجتمعات إلى تكبيف أمنائها مع قبول التسعور باللا يقين إذا المستقبل، ومن ثم يعيشون مع اليوم الذي هم فيه على التحج الذي جاء به. وتقدر روح الدعابة للعمل وينساجحون مع سلوكيات وأفكار الآخرين لأن الناس يشعرون في أفعالهم بالأمان نسبا في الوضع القائم. ولكن في مجتمعات أخرى، يتعلم الناس الانصرار على المستقبل، ويقضى هذا إلى التسعور بالقلق والانفعالية والعوانية، وهي مشاعر تولد مؤسسات فتحة نحو التغيير والحد من المخاطر

ويبدو أفريقيا، باستثناء الرأس الجنوبي من القارة، تسمى كلها إلى فتحة المجتمعات ضعيفة السيطرة على مشاعر الشك. وإذا شئنا خلق مجتمعات آمنة، فتحة الآلة أروا مساحة لذلك اللغاة والقانون والدين ولما أن نقول إن المجتمعات الأفريقية مجتمعات لها سيطرة قوية على حالة اللابقيين أو الشك. ولكن لسوء الحظ أن ممارسة السيطرة فقط من خلال الدين. وإذا كان الأفارقة في التحليل النهائي يفرقون أنفسهم في الحاضر ولا يعبهم الغد، فإن هذا يرجع إلى استسلامهم لإرادة أسمي منهم ولا سلطان لهم عليها أكثر مما يرجع إلى أمان الهيكل الاجتماعية التي ينتمون إليها.

وإذا عدنا إلى جنود العقيدة الدينية، نجد أن الأفريقيين يرض بان منطلق العالم خال. ورهن زيادة أبدية. ومن ثم فإن العالم وسلوكياتنا أمور ثابتة ومقدرة للإنسان، وعليه التسليم بها. وأن الأمر كذلك كما يرويه ماضر أسطوري عن سلف مؤسس

حكمتها هي دائما وإلى الأبد نور بنفسها، لنا مبادئ حياتنا ونظل «الأمريكي» أسير سنه.
فالتبيعة سيده والتمدن لعسره

والتسليم بمقعدة الزمن بأن العالم نحكمه بإرادة أخرى هي التي تدبره وتدبر
شئون الحياة في كبره لا حدود له، يقترن عادة بإدراك بحدود للأفريقي مفهوم
الزمان والمكان

طغيان الزمان

يرى الأفريقي الزمان والمكان كيانا واحدا مثال ذلك أن الدجيري يقول كم «خلق
السامية للإنسان». والأفارقة أهم دائما زمانهم الخاص بهم، وبالتالي انتقدهم الآخرون
لذلك. أنكر على سبيل المثال ما كتبه جين - جاك سرغان شريفير

الزمن في أفريقيا له قيمة رمزية وثقافية معا. لذلك له
أهمية كبرى من حيث الطريقة التي نعيش ونحس بها الزمان.
ويمثل هذا صراحة فائدة وعائقا - فهو مفيد بقدر ما يشجع
الناس لكي يجيوا على مدى فترة بإيقاع خاص بهم دون رغبة
في التوقف، ولكنه أيضا عقبة يقدر ما يكونون في منافسة مع
بلدان لها طرق عمل مغايرة، وتجرى المناقشة عندهم على
مستوى الإنتاجية كمثال، من خلال استخدام عقلاني للزمن.⁽¹⁾

وسرقان شراسر على صواب ففي المجتمع الأفريقي التقليدي الذي يمتدح
ماضي السلف المجدب من خلال ما يرويه من حكايات وحوادث لا نجد في هذا التراث
شيئا جرى عمله وإنجازه استعدادا للمستقبل فالأفريقي منذت ومشهود إلى ثقافته
السلفية، ولهذا نراه مقتنعا بأن الماضي يمكنه فقط أن يعيد نفسه ولا يسوره إلا قلق
سطحي بشأن المستقبل وضييعي فن دون إدراك دينامي للمستقبل لأن يكون هناك
تخطيط، ولا نظر إلى العواقب، ولا سلطة لمشروع تأسيس وبناء، أو بعينرة أخرى
لا سياسة لتأثير على مسار الأحداث، نحن نفسى بنام فقد طالما وأن ثقافتنا لم تعلمنا

أن نعدّل عن التمسك ونبحثه، وبعيداً ومكرراً هي أهدافنا ونخضع لإرادتنا إذ يجب على كل إنسان في المجتمع الحديث أن يعد نفسه. هذه وإلا كما يذكرنا سيرفان شرليبير. لن نجد لأنفسنا مقلد على متن القطار، ولا حبالاً في آخر الشهر، ولا شيء، هي ثلاثة البت لغداً، ولا شيء، في مخازن الغلال قيعاً بين الفصول¹⁷ جملة القول، الحياة في أفريقيا حياة يومية.

القوة والسلطة غير قابلتين للانقسام

على مدى آلاف عديدة من السنين تطورت المجتمعات في الغرب موضعياً خارج حدود العقيدة الدينية على نحو أفضى إلى فصل أمور عالم الدنيا عن العالم الروحي وأدى هذا التطور أيضاً إلى ميلاد سلطة الدولة التي كانت يقينا لا تزان روحية، ولكنها «مفصلة» عن القوى الخارقة للطبيعة التي لم يعد لها تدخل للنه. كم في هذا العالم، ولكن سلطان الدين في أفريقيا لا يزال مستمراً بل قد يتألق على مصير كل من الفرد والمجتمع. وأنه لأمر طبيعي وعادي أن يتحدث الزعماء الأفارقة عن قوى سوية فاعلة

وكم هو عسير أن نفسر لتسوية الأفريقية بشيء آخر غير الخوف الذي غرسته قوى خارقة للطبيعة بين ثنائيا فكر وملاهي كل عسقول. إذ لو حدث أن نجأ ملك أو رئيس دولة من هجوم ما (حتى ولو كان على سبيل المحاكاة) سوف يستأنج الناس أن له قوى خارقة متجسدة فيه تحمّره، ولذلك، وبفضل هذه الحماية لن يمتني بهزيمة. وللملاحظ أن الاتجاه إلى مساواة جميع القوى بالسلطة الإلهية لا يخص فقط أبناء الأمة وحدهم، بل يؤثر أيضاً في كل مواطن. بما في ذلك الإنسان العادي - فور توليه أية سلطة مهما كانت ضئيلة. خذ أي أفريقي وأموجه قدراً ضئيلاً من السلطة أو النفوذ. سوف يحوّل في موقعه الجديد، إلى إنسان مغرور متغطرس غير متسامح حريص على ما يراه امتيازاته. نراه دائم الحذر والترقب، وعدو الكفاءة، والأهلية (التي هي ليست معياراً لاندذاب الآلهة). وينصف بالقسوة إلى أن يصدر قرار غير متوقع يعين خافية بدلائمه، ويعمد جاهداً لكي يتنر حياته العملية في إطار مستوى معتدل.

(إذ من الحقائق التساعفة في جمهورياتنا أنه لكي تنتهي بحسب رغبتك من التكنوقراط أو من رجال السياسة، ما عليك إلا أن تذهب إلى تمييزه)

ولا يقبل الإفريقي مغبيرا في الوضع الاجتماعي: الرئيس والمرؤوس كل من الموقع المخصص له إلى الأبد، ولهذا نجد إدانة لأي تغيير في التصنيف الاجتماعي ونحن نشكو بسبب الصعاب التي تحول دون النهوض بالقضاي الخاص في بلداننا الأفريقية. وتضرب هذه الصعاب بجنورها في مشاعر الفجوة التي نهيمن على جميع العلاقات بين الأشخاص، التي هي على جوهرها الحسولة دون أي تغيير في الوضع الاجتماعي أكثر من كونها رغبة في الحصول على ما يملكه الآخرون.

لهذا يجب عليك في أفريقيا أن تولد مسئولاً صاحب يد طويلة، وإلا ليس لك حق في سلطة إلا عن طريق انقلاب، والملاحظ أن كل الهيئة الاجتماعية ثقيل، كواقف طبيعي، العبودية التي يفرضها قسراً الفجوة صاحب السلطان في تلك الحالة. وقيل ليس الشعب هو المتخلف، بل الزعماء، وهذا قول صحيح وضاطن، فإذا كانت الشعوب الأفريقية غير متخلفة (أي سائبين مستسلمين جيهاً) لماذا يرتضون زعماء متخلفين؟ وينسى الحكمة القائلة كما يكون الناس بولى عليهم ويستحقون من بولى أمرهم

المجتمع يهيم على الفرد

إذا كان لنا أن نشير إلى خاصية وحيدة مميزة للثقافة الأفريقية سنجد أن خضوع الفرد للمجتمع يمثل النقطة المرجعية يرفض الفكر الإفريقي أية نظرية إلى الفرد باعتباره كائن مسئولاً ومستقلاً ذاتياً. فالإنسان الإفريقي ضارب بجنوره رأسياً في أسرته، وإلى السلف الأول المؤسس إن لم يكن إلى الله ويرتبط أفغياً بجماعته وبالمجتمع وبالكون إنه سرية دينامية الأسره. لفرد، المجتمع - الفرد، والجميع مرتبط بالكون، ولهذا فإن الإفريقي يمكنه فقط أن يتطور ويزدهر من خلال الحياة الاجتماعية والأسرية

كيف نرد الفرد درجة الاستغلال الذي الازمة لناكسر وحسه كعصر فاعل
ساسا وافنصا.ا واجتماعيا، مع الحفاظ على روح المعاشرة الاجتماعية التي تسئل
جوهر وجود الأفريقي؟ إن قمع الفرد، وهو الأسلوب الرئيسي لضمان المساواة في
المجتمعات التقليدية، ينجلي واضحا في جميع المجالات. ليس فقط في الشؤون
الاقتصادية حيث السعر النهائي للسوق دالة على القوة الشرائية المفترضة للمشتري،
بل في الشؤون الثقافية أيضا، حيث احتكرت التقاليد الشفافية اثوروثة حق نقل
الثقافة ولنا أن يستبد بنا العجب والدهشة لأمر واقع إن لم يكن حدث عن قصد
وعمد. وهو أن الأفارقة تجنبوا الكلمة المكتوبة لتكون الأمية ضمانا لقمع الفردية
وسجنب الفكر الأفريقي النزعة الشكية، وهي فيروس نخر يحمله الفرد. والنتيجة
المرتتبة على ذلك أن تثقل منظومة العقائد الراسخة منظومة مطلقة ما إن تواجه
مجموعة ذات السلف خطرا يهددها. فإن الخيار اتكن الوحيد بين النظام الرسمي
الراسخ أو الفوضى

وليس مفهوم المسؤولية الفردية وجود في اليني. لتقليدية فانغة التمركر. إذ إن
كلمة "مسئول" تترجم في الكامبوري إلى "رئيس" ومن ثم إذا قلنا للعلايين أنتم جميعا
مسؤولين عن اتخاذ مبادرة جماعية، فكأننا نقول أنكم جمعدا رؤساء. الأمر الذي يؤدي
حتف إلى نزاعات وصراعات لا نهاية لها بين الأشخاص.

ولا يفسر موت الفرد في مجتمعاتنا ثقافة الصمت فقط التي يبعث فيها رجال
مثل الرئيس جيري/أولنجس رئيس غانا، بل يفسر أيضا مشاعر الازراء التي يشعر
بها الناس تجاه من يشغل منصبا متوسطا في التراتبية الاجتماعية. ولهذا تجد من
الشائع والمفهوم جيدا في أية وزارة أفريقية أن الشخص الوحيد القادر على حل أية
مشكلة مهما كانت هو الوزير نفسه، أما المراقبون والمديرون وغيرهم من الموظفين، فهم
موجودون للاستعراض ووزراء ليست لهم شكاوى، وليس من الصواب أن يفوض المرء
سلطته لأحد لما في ذلك من مخاطرة تشجع على بزوغ نجم سياسي جديد ربما يثيت
في النهاية أنه منافس.

يجب أن تكون واقعيين. إن النزعة القبلية تستشري في بلادنا بسبب كل من تفي
الفرد، وزعزعة موقفه في غياب مجموعة نافذة النفعول من المسئوليات والحقوق

الفردية هل ملزم إذن أن نواصل ونحن نرفض ونغنى، لكن نتجه بشكل جماعي إلى الجحيم لحمية توافق آراء اجتماعي افتراضى؟ أم حان الوقت لكي نسترد للأفراد جميع حقوقهم؟

مرح مفرط ورفض للمصراع السافر

الأفريقي يعمل ليعيش، ولكنه لا يعيش ليعمل. ويكشف عن ميل للاستمتاع البالغ مما يوحي بأن المجتمعات الأفريقية تستهدف اللذة بحكم تكوينها. كل شيء يمرر لعمل احتفال. الميلاد، والتعميد، والزواج، وأعياد الميلاد، والترقى في العمل، والنجاح في انتخاب ما، والعودة بالسلامة من رحلة قسرت أم طالت، والعداد، واقتراح أو إنهاء مؤتمر، والولائم التراثية والدينية ... إلخ وسواء أكان راتب المرء كبيرا أم متواضعا، وسواء أكانت مخازن القلال عامرة أم فارغة، لابد من الاحتفال، وأن يكون جميلا، وأن يضم أكبر عدد من المدعوين.

إن من يأخذ يعطى، ولكن من أخذ يعطى أيضا لكي يشارك بحق في أفراح أو أتراح حضيقة وتمثل التعاضد الاجتماعية قمة القضايل بين البشر جميعا والحقيقة أن الأفريقي يعتبر أي شخص يلقاه صديقا إلى أن يثبت العكس. وهكذا تنشأ الصداقة قبل العمل وليس من الأدب، في حوار بشأن المعنى، الدخول مباشرة إلى لب الموضوع. ذلك أن الأفريقي لديه حاجة لا تنضب للتواصل، ويؤثر ذلك العلاقة بين الأشخاص على مستوى الموضوع وهذا هو السبب الرئيسي في عدم كفاءة البيروقراطية الأفريقية، ولذلك أيضا نجد كل صاحب طلب بدلا من أن يكتب، يلتمس سبيلا لمقابلة شخصية مع الموظف المسئول عن فحص ملفه، فلنا منه أن هذا الأسلوب سوف يزيل كل ملل في تحرير رسائل نذهب وتجي..

والخلاصات التي تشكل أساسا للحياة الاجتماعية في المجتمعات الأخرى لا يدركها الأفريقي أو يفعلها حفاظا على تماسك اجتماعي ظاهري. وإن التماس

السلم الاجتماعي القائم على إجماع مزعزع الأركان هو ما يدفع الأفريقي إلى تجنب النزاع. هذا على الرغم من أن القارة ليست مبرأة عنه، ويعيد تجنب النزاع في بعض المجتمعات الأفريقية حتى أنه لا سبيل لاستعادة العدالة في وضع النهار. ونجد في بعض قرى بامبليكي (غرب الكاميرون) أن الهيئات المشككة للحفاظ على الأمن والعدالة هيئات سرية ويجتمع ليلاً. ويرتدي أعضاؤها أقنعة حتى لا يتعرف عليهم أحد.

وطبيعي أن النزاع أصيل في المجتمعات البشرية أي كان حجمها. سد أننا نحاول أن نخفيه ونداريه تحت السجادة. وإن لازمنا الفسح الزريع في ذلك.

إنسان اقتصادي غير كفء

بحري تصنيف الإنسان في أفريقيا على أساس قيمته الحقيقية وملاؤه. وإذا كان الأفريقي بعيدا كل البعد عن الجد والاجتهاد في العمل والادخار فسبب ذلك أن رؤيته للعالم تنحو أهمية ضئيلة جدا إلى الجوانب الاقتصادية والناحية للحياة. والأفريقي إنسان اقتصادي سيئ فيما عدا بعض الفرق الاجمعة مثل البامبليكي في الكاميرون أو الكامبا في كينيا، إذ إن قيمة الإنسان في نظره تقاس بما يكون عليه الآن وليس بما يملك علاوة على هذا، فإن الادخار للمستقبل له أولوية أدنى كثيرا من الاستهلاك الحالانياتسر، وذلك بحكم طبيعة علاقة الأفريقي بالزمن ولو أم يكن أمة من بعري بتجميع ثروة، فإن من يتقاضون رواتب منتظمة يتولون الإنفاق على تعليم الإحوة والأخوات وأبناء ومدت العمومة أو الخوزلة، وأن يتحملوا نفقات إيواء وأعيدين حذو. وكذا الإنفاق على العديد والعديد من الاحتفالات التي تزخر بها العجبة الاجتماعية

وليس لنا أن ندعش حين نعرف أن الضخبة من أهل الحضر يعتمدون إلى تسجيل هذه التقاليد الخاصة بالإنفاق حين يحاكون في سلوكهم سلوك الأغنياء، الجسد وطبيعي أن لديهم إمكانات ميسورة لحصول على أموال طائلة من خزائن الحكومة أسبدا، وإمكانات للاتصال بالأقارب والأصدقاء أصحاب المحسنة في عادات الإنفاق

المسرف بون رفيف أو حسيه . ويضاف كل هذا إلى البنوك في سويسرا ولوكسمبورج وألباهاما . و...و واضحاً أن الحكومات الأفريقية ليست أفضل من الأفراد الأفارقة في تدبير الحياة الاقتصادية. وهذا ما تؤكدُه أزماننا الاقتصادية المتواترة.

الخصائر الفادحة بسبب اللاعقلانية

مجتمع يردهم فيه اليوم السحر والعرافة والدجل هو مجتمع مريض يسوده توخر وخوف واضطراب معنوي . وتمثل الشعوذة آلية باهظة الكلفة لإدارة النزاع والحفاظ على الوضع القائم الذي، وهذا هو المهم، نحرص عليه للثقافة الأفريقية لذلك نساء: ليست أعمال السحر مرآة تعكس حالة مجتمعاتنا، ثمة شواهد كثيرة توجب بذلك إن الشعوذة والسحر أداة لتقوية الاجتماع (إد إنها تفيد في الحفاظ، وربما زيادة ولاء الأفراد للعشيرة). وهي أداة سياسية ملائمة تماماً لإزاحة أية معارضة يمكن أن تظهر . ويعتبر السحر والشعوذة ملاذاً لنفسب لنا نجد فيه مظاهر جهلنا إجابات تشده . ونـول فيها تخيلاتنا الوحشية إلى حقائق واقعة.

وعلى عكس ما قد يعتقد البعض ، فإن الديانة المسيحية عدلاً من أن تقضى على السحر والشعوذة جعلت مههد شيئاً مشروعاً ، ذلك أن الكتاب المقدس والقديسين يقرّون بوجود شيطان مما يؤكد السحر والسحرة والأشراز .

وناسيع في أفريقيا حوانات تقوم على أساس إيمانها بأن زعيمها له قوة أو سلطان سحري . مثال ذلك بنين، وهي منطقة مشهورة بوضعية دينية عميقة الجذور، وهي مهد أتباع العقيدة اللووثية القائمة على السحر والشعوذة في هايتي وفي البرازيل وينبع عدد طوائف العقيدة اللووثية القائمة على السحر والشعوذة في هايتي والبرازيل ثمان وخمسين طائفة نشأت حديثاً خلال الفترة من ١٩٨٦ و١٩٨٦ . وأصبح العدد الإجمالي لهذه الطوائف في هذين البلدين اثنين وتسعين طائفة ويوجد في كينيا حوالي ١٢٠٠ طائفة، وتضم بعض الأحياء كندس أكثر مما في انص من المدارس. وهناك بعض هذه المعابد مقامة على الطريق، وشيوخها أصحاب ثروات ماثلة بفضل قدراتهم أو نفوذهم

الروحى على الناس ويعمل آخرون تحت زعم قدرتهم على شفاء الأمراض أو حمايتك من خصوم أو للحفاظ على عملك أو لتعزيز دخلك وتعظيم مالك .

وثمة مثال أهتم به بوجه خاص، وذلك مثال كومبوا، وهو صاحب أسطول من الشاحنات تعمل على خط بين ساحل العاج وبوركينا فاسو. يعتقد كومبوا أن التدابير الاحترازية الأوروبية - ويعنى بها عمليات الصيانة البورية للمركبات - ضرورية لإضافتها إلى التدابير الاحترازية الأفريقية. ترى ما هي هذه؟ هي كلاً من منيبي الساحر يعطيه بعض مسحوق لنوع من السمك ليغرفه في أطر سياراته حتى لا يتقربها شيء. قد يسأل القارئ لماذا؟ السبب أنه معروف عن هذا النوع من السمك الشوكى أنه إذا ما هوجم له قدرة على الانتفاخ إلى ضعف حجمه. ولهذا فإن مسحوق هذا النوع من السمك مفيد تماماً للحفاظ على ضغط الهواء داخل الإطار.

ويعتد أثر السحر والشعوذة إلى النظام الحاكم. ذلك أن الأخطاء السحرة بعض حاشية رؤساء الدول الأفريقية، ويكاد لا يتخذ قرار سياسى مهم دون الاستعانة برأى السحرة والعراقين. والمستشارون العراقيون مسئولون عن ضمان سلطة المسئولين عن طريق كتابة أعمالهم السحرية، وتحديد أى خصوم محتملين. ولهذا، المستشارين سلطان وتفوق يمسدهم عليهما أقوى المستشارين الغربيين، ويجمعون الثروات الطائلة، ويحدث أهباناً أن يشغلوا مناصبهم بناء على قرار تعيين رسمى، ومن ثم يتمتعون بممارسة سلطانهم على نحو مباشر.

وجدير بالذكر أن كرة القدم، وهي أغنيون الأفارقة تتنافس السياسة في الموقف من السحرة. وبشاعت قصة بأن فريق الفيلة في أبيدجان خسرت مباراته ضد مصر على كأس أفريقيا، لأن كابتن الفريق فقد تعويذة سحرية في أرض الملعب قبيل نصف الوقت الأول من المباراة. وبحث كل أعضاء الفريق عنها ولكن دون جدوى. واعتقد الجميع أن المصريين غفروا عليها وأخفروا

وإذا عرفنا أن أفريقيا ليست وحدها هي الاحتفاء بالقرعة اللاعقلانية مع مستهل القرن الواحد والعشرين، فإن هذا لا يبرر نزوعنا في اللجوء إلى السحرة وإلى الأطباء

المشعوذين وتزليتهم مسلوته على مشكلتنا. وسبق أن سال حبنى - فراسرار ريفيل هل يمكن أن يكون الإنسان كائنا عاقلا في الوقت الذي لا يسرشد فيه بالعمل^{١٨٩} وفي رأي أن الأفريقي هو الكائن العقل الذي يستخدم عقله بأقل قدر ممكن . طالما وأنه سعيد بالحياة التي يعيشها كما تنقش بها الأيام. إن جوهر هويتنا الثقافية في أفريقيا التي ترفض ربط المعرفة بالنشاط هو العمل، ونحن نقول، كد يتسير ريفيل، أعطنا التنمية في صورة معوزة حتى توفر علينا جهد تأسيس علاقة فعالة مع الواقع^{١٩٠}. وتمثل هذه الثقافة ناسها خلفية دعواتنا بحق عن قصور الكفاءة في الإنتاج وعن الفساد وعن عدم احترام حقوق الإنسان الأساسية

مجتمعات شمولية وأكلة لحم البشر

إن ما يفعله الأفارقة مع بعضهم البعض أمر يستعصي على التصديق . إن حروب الإبادة العرقية والحروب الأهلية الدموية وجرائم العنف البشعة تجعلنا نلحن أن المجتمعات الأفريقية على جميع مستوياتها هي بقدر ما أكلة للحوم البشر إن من يسطرون مشروعات للقواتين وأولئك المنوط بهم أمر تنفيذها هم جميعا أول من يدوسها بالأتقدام. وهكذا نجد أنه في جميع البلدان الأفريقية تقريبا. في اليوم التالي لفصول على الاستقلال، صدرت قوانين الاستثمار لجذب الاستثمارات الأجنبية . ولكن الأفارقة الأثرياء، كانوا في الوقت ذاته يمدافعون بإنحازة أمام منصات منوك - ويسوا وفرنسا ويلجيكا وإنجلترا مما أعطى انضاجا ناتهم لا يتقون في أنفسهم ولا في بلدهم أو فيما هم بنتجوتهم . وبدوا وكأنهم يدمرون بابيهم ما بنوه.

وسرعان ما نظهر الحقيقة واضحة جلية . إننا إذا نظرنا إلى المجتمعات الأفريقية من داخلها تبو في صورة فريق كرة قدم تسود اعضاءه روح الخبرة والمنافسة الشخصية مع الافتقار إلى روح الفريق. وهنا يعتمد كل لاعب إلى الاستئثار بالكرة دون تمريرها إلى آخر رغبة منه في أن يتفرد بون الأخرين بنسجبل هدف. كيف لنا أن نأمل في الانتصار؟ إن الناس في جمهورياتنا لا يكادون يتعرفون على

بعضهم خارج اللجنة أو التوسيع العرقية (التي هي عتقا لحة بنوهم نقوب إذا نلرنا إليها عن كنب) مما معنى أن مجرد وجود البولة أمر أشبه بالمعجزة - وهي معجزة مفسرها جزندا الرغبة فى تحقيق مكسب شخصى ، ونحن لا نكاد نلقى أية روية من ... نلقبل أفضل للجميع وأكثر من هذا أن أية مبادرة أو دينامية فى العمل يديبوا الآخرون باعتبارها علامة على محاولة دائبة للإثراء إن الساحر يطلب مسنواة فى النوس وبنهدنا حالات كثيرة بنى فيها شخص بننا لنفسه وطلب منه الآخرون أن لا يقم فسه، وآخرون شرعوا فى البناء ثم طالبهم أصحاب المصلحة أن يوقفوا البناء حرصا على حدانهم

هل وافق ميلاد الشمولية الأفريقية مع الاستقلال؟ منبعا لا إنها موجودة من قبل محفورة فى أساسات ثقافة أانا القلبية وتنفذ نزعمة التسنط إلى شرايين الأمبر والقرى والمدارس ودور العبادة. إنها بالنسبة لنا أسلوب حياة

وهكذا نحن فى عواجة ثقافة قوية لنفوذ راسخة مكينة، والسؤال ما وكيف العمل لتغيير مصير أفريقيا؟ قدرنا بما أن نغير أو نغنى.

الثقافة والتغيير

هدفنا الحفاظ على الثقافة الأفريقية وهي واحدة من أهم - إن لم تكن الأهم - بين الثقافات الإنسانية الموصودة. ولكن يجب أن تولد من جديد عبر عملية تنطلق عن داخل، والتي تسمح تلافارقة أن يظلوا هم أنفسهم وأبناء عصرهم أيضا وفي أن واحد يجب الاحتفاظ بهذه القيم الإنسانية - التضامن الذى يتجاوز حدود التصنيف العمرى وملكاة الاجتماعية. وحب البنا أيا كان كون بشرته. والدفاع عن البيت، وغيرها كثير. ويجب أن نقضى على كل ما هو فى دخيلتنا يعارض أن يكون سادة مسبقلنا متحكمين فيه بإرادتنا، مساقبلا مزدهرا عادلا، ومستقبلا تحدد فيه الشعوب الأفريقية مصيرها هى بفضل مشاركة فعالة فى العنية السياسية

ويحب علينا، ونحن بصدد هذا العمل، أن ندرك أن الثقافة هي الأهم والمؤسسة، هي الأبناء، وأن المؤسسات الأفريقية التي نتصف بالكفاءة والعدل رهن التعديلات التي ندخلها على الثقافة.

الثورات الأربع التي يتعين أن نبدأ بها

نحن بحاجة إلى أربع ثورات ثقافية سلمية في أربعة قطاعات: التعليم والسياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية.

التعليم

التعليم التقليدي للطفل الأفريقي يعد البناء والذنين للاندماج في مجتمعهم الفعلي. إن لا يقتصر الأمر على أن ينقل التعليم للأمة الاعدادات الخاصة بالعمر والجنس للوك أو البنات. بل ينقل إليهم جميع القيم والمعتقدات التي تصوغ الأساس الثقافي للجماعة التي ينتمون إليها ويتلقى أو يلقي الطفل الأفريقي التقليدي على أبدي وجمعه المطلق كله داخل منظومة يرى التعليم أولاً وقبل كل شيء، أداة للتنشئة الاجتماعية. والمشكلة أن هذه المنظومة تقدم للأطفال حوافز محدودة لتحسين أنفسهم، ولإبداع، ولأن يكونوا أفضل من نوريهم.

كيف يتسنى لنا إذن إصلاح نظام التعليم التقليدي، الأمر الذي نعرفه ويقوه ثقافة محافظة، ونقص في البنية الأساسية والمنشآت التربوية؟ (إذ ليس محريبا، كمثال، أن تضم حجرة الدراسة الواحدة ١٢٥ طالبا). الأمر غاية في البساطة، أن نؤكد كمجتمع أن الأولوية المطلقة للتعليم، وحظر تشييد مدارس دينية وغيرها من قصور يجري بناؤها على حساب المدارس، وتعديل محتوى المقررات الدراسية، أن نؤكد ليس فقط على العلم، بل وعلى التحولات الضرورية للمجتمع الأفريقي. معنى هذا توفير تفكير نقدي، وتأكيد على ضرورة الوحدة على مستوى القارة والأقاليم العربية، وأيضا

التأكيد بوجه عام على الخصائص التي تفرس وتولد التقدم: الخيال، والاختلاف في الرأي، والإبداع، والأهلية، والإحساس بالمسئولية والواجب، وحب إتقان العمل وهكذا يكون منوطا بالمدرسة الأفريقية صياغة وتشكيل رجال أعمال المستقبل، ومن ثم خالقي الوظائف، وليس مجرد أصحاب درجات يتوقعون تولى مناصب لمسوا فعلا لها. ويجب أن يتعلم التلميذ منذ التحاقه بالتعليم الابتدائي قيمة الزمن واستثمار الوقت، ليس على أساس الإنشاج فقط، بل إن يتمثل بخاصة في صياغة المرافق والمعدات والحفاظ عليها. ولا ريب في أن تعليم الصيانة التقنية أهم كثيرا من تدريس مقررات عن نور نظام الحزب الواحد في ضحان وهدنة الأمة، وعن آف الأمة المعصوم من الخطأ

ويجب أن لا يتوقف التعبير عند هذا الحد، إن نور المرأة الأفريقية في المجتمع - وهي عصب المجتمع المهدر - يجب تغييره أيضا، المرأة الأفريقية ليس لها حق فتح حسابات في البنوك أو الاقتراض أو التملك، وليس مسموحا لها بأن تتكلم وتبجهر بصوتها، والمرأة هي قوة الإنتاج الرئيسية لقناتنا، ومع هذا محرومة من التدريب في مجال الزراعة أو تلقي مساعدات تقنية وغيرها.

السياسة

ما إن يتم إصلاح التعليم حتى تتغير النظم السياسية الأفريقية عمليا ومن نفسها إذ سيظهر مواطن من طراز جديد، مواطن يؤمن بدور أكبر للفرد، ويؤمن بقيمة الفرد كعنصر اجتماعي فاعل. ويقدرته على التكيف مع بيئته المؤسسية، وبالمطالب اللازمة لتقدم مجتمعه وتحتاج الأمم الأفريقية إلى توسيع نطاق التعددية القائمة عمليا في صورة تنوع شعوبهم، ولكن بحيث تشمل الضعفاء السياسيين. ويجب غرس روح التسامح والتأكيد على عامل الجدارة والكفاءة. ويجب أن يحل شعور الوحدة الإقليمية محل الشعور القوي الضيق.

الاقتصاد

يجب لتثوير ثقافتنا الاقتصادية أن ندرك ضرورة أن نؤسس أولا أسواقا موحدة بيننا وكذا بدلا من الاعتماد على سوق عالمية نحن مستبعمون منها عمليا. ويجب الإقرار بأن الربح هو محرك التطوير ، وأن نعترف بأن لا غنى عن دور المبادرة الفردية وحق الفرد المطلق في أن يتمتع بثمار عمله ، ويجب أن نفهم أن لا سبيل لضمان نمو اقتصادى حقيقى ومستدام بدون ضمان عمالة كاملة، ومن هنا يتعين تشغيل جميع السكان الأفارقة. إذ من المستحيل أن يكون المرء عاطلا ومواطننا صالحا في آن واحد، خاصة في بلدان تفتقر إلى شبكة تأمين اجتماعى.

الحياة الاجتماعية

إن يظهر المجتمع ائدى الأفريقى إلى التواجد بنون تغيرات نوعية فى السلوك. وتبدأ هذه التغيرات أولا فى العلاقات بين الأفارقة، ثم بعد ذلك فيما يتعلق بالسلوك تجاه الأجانِب الذين تشعر إزاحهم بالدونية بوجه عام ، ويجب أن نتطلى بقدر أكبر من الثقة بالنفس، والثقة ببعضنا بعضا، وبالالتزام تجاه تحقيق تقدم لخير الجميع . ونحن بحاجة إلى الالتزام بنهج أكثر صراحة ومنهجية فى إعداد الخطط الإستراتيجية، وتنفيذ القرارات التى تم اتخاذها. مهما كانت التكلفة.

خاتمة

نحن الآن عند مفترق طرق ، إن الأزمات الاقتصادية والسياسية المبررة التى تعاني منها أفريقيا دون توقف يجعل من الضرورى بالنسبة لنا أن تعمل فورا وبون إبطاء ، ويجب أن ننفذ إلى قلب وجوهر أخلاقياتنا وعاداتنا لكي نستأصل ذلك الغشاء اعظم الذى يحول دون مجتمعاتنا والانتقال إلى الحداثة ، ويجب أن نقود بأنفسنا هذه

الثورة في العقول وعلى مسئوليتنا إذ بدونها لا مجال لنقل العقائد . ويجب أن نضع
رؤسنا على عقولنا نحن وبكائننا نحن، ذلك لأن الأفارقة، حين يتوفر لهم قادة ذوو قدرة
وكفاءة سيكونون مهينين تماما لكي ينلوا بأنفسهم عن العيرة وعن الخضوع الأعمى
لكل ما هو منافٍ للعقل، وعن مظاهر الجلاء والكسل التي هي عمة تعطيلهم وخرابهم .
وإذا كانت أوروبا، وهي جزء صغير من الكوكب، تهيمن عليه وتنظمه لفائدتها وحدها،
إنما تحقق لها هذا لأنها استحدثت وطورت ثقافة التغيير والانحصار على العقبات
وترتكز على الدقة والعمل، ومنحجرة من سلطان القوي غير المرئية . ويتعين علينا أن
تفعل الشيء ذاته .

الباب الثاني

الثقافة والتطوير السياسي

الثقافة والديمقراطية

دانييل إيتونجا - مانجويل

نأسبسا على ماكس فيبره أكد كل من فرنسيس فوكوياما ١٩٩٥ ولورانس هاريزون (١٩٨٥ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٧) وصمويل هنتنجتون (١٩٩٦) وروبرت بوتنام (١٩٩٣)، أن الثقافات الثقافية تتسم بخاصية الثبات على نحو ملحوظ. وهي التي تصوع شكل السلوك السياسي والاقتصادي في مجتمعاتها اليوم. هذا بينما أصحاب نظريات التحديث ابتداء من كارل ماركس وحتى دانييل بيل (١٩٧٣ ، ١٩٧٦) ومؤلف هذا الفصل (١٩٧٧ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩٧)، أكدوا أن صعود المجتمع الصناعي مرئجه ينحولات ثقافية متلاحمة بعيدا عن المنظومات القيمة التقليدية. ونقدم هذه الدراسة شواهد على أن الرأيين صواب

• يرتبط التطوير بعلازمة من التغييرات التي يمكن التنبؤ بها، وهي مستقلة عن المعايير الاجتماعية المطلقة، في اتجاه قيم أكثر عقلانية وتسامحا وثقة ويعد حداثة.

• ولكن الثقافة رهن مسارها، وواقع أن مجتمعا ما كان تاريخيا مجتمعا بروتستانتيا أو أرثوذكسيا أو إسلاميا أو كونيغشيا يؤدي إلى ظهور مناطق ثقافية ذات منظومات قيم مميزة وتظل باقية وقيمتها تكون لنا سيطرة وصولا إلى نتائج التطوير الاقتصادي.

إن الداعو الثقافية عامة، ولها تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية الرئيسية. يسهم في تشكيل ظواهر مهمة ابتداء من معدلات الخصوبة إلى الداو الاقتصادية. كذا المؤسسات الديمقراطية كما سوف نرى في هذا الفصل من الدراسة. وثمة بعد ونسب لتدابير الداو عبر الثقافات يكتشف عن أهمية خاصة بالنسبة للديمقراطية ذلك أن المجتمعات، كما سوف نرى، تتباين تبايناً هاملاً من حيث مدى تكديدها على قيم البغاء أو قيم التعبير عن الذات؛ إذ إن المجتمعات التي تؤكد على الذئعة هي الواحدة لتكون مجتمعات ديمقراطية أكثر من المجتمعات التي تؤكد على قيم البغاء.

ويسمى أن التطوير الاقتصادي يقضى إلى تحول تدريجي من قيم البغاء إلى قيم البغاء، وهو ما يساعدنا على تفسير لماذا المجتمعات الأعلى وأغنى أكثر تكون مجتمعات ديمقراطية. وسوف يبين لنا فيما يلي أن معامل الارتباط بين قيم البغاء والتعبير عن الذات قوى بدرجة لافتة للنظر. ترى هل يقترنان لأن قيم التعبير عن الذات (والتي تتضمن الثقة مع الأشخاص والتسامح والمشاركة في صنع القرار) من بينها أن يقضى إلى الديمقراطية أم أن المؤسسات الديمقراطية تدفع إلى ظهور هذه القيم؟ إن من العسير دائماً تحديد السببية، بيد أن الشواهد توحي بأن الثقافة أكثر من غيرها هي التي تصوغ الديمقراطية.

التحديث والمناطق الثقافية

يذهب هنتنجتون (١٩٩٣ و ١٩٩٦) إلى أن العالم مقسم إلى ثمان أو تسع حضارات كبرى مرتكزة على عوارق ثقافية ثابتة ظلت باقية على امتداد قرون. وأن صراعات المستقبل ستحدث على امتداد خطوط التنازع الفاصلة بين هذه الحضارات وإن هذه الحضارات صاغتتها في الأساس تقاليد دينية لا تزال قوية النفوذ حتى اليوم، على الرغم من قوى التحديث المسيحية الغربية، والعالم الأرثوذكسي، والعالم الإسلامي، والكونفوشيوسية، واليابانية، والهندوسية، والبوذية، والأفريقي، وأمريك اللاتينية. إذ تولف هذه التجمعات المناطق الثقافية الكبرى ويستطرد هنتنجتون ليؤكد

إن بعد نهاية الحرب الباردة سنقع -لرأيت الميسية أساسا على امتداد هذه
التحولات الثقافية وليس على امتداد خطوط البيولوجية أو الاقتصادية

ويؤزم بوننم (١٩٩٦) في دراسة ذات صلة بالوضع أن المناطق الإخبارية
التي تحقق فيها المؤسسات الديمقراطية نجاحا كبيرا للغاية اليوم هي المناطق التي
شهد فيها المجتمع الأدنى تطورا جيدا نسبيا منذ قرين. ويذهب هاريزون (١٩٨٥) إلى
أن التطور يتأثر بتأثيرا قويا بالقيم الثقافية الأساسية السائدة في المجتمع. ويرى
فوكوياما (١٩٩٥) أن قدرة المجتمع على المناقشة في الأسواق الكيكية مشروطة
بالثقة الاجتماعية فمجتمعات الثقة المتدنية في وضع متدن لأنها أقل فاعلية وكفاءة
من أجل تطوير مؤسسات اجتماعية كبيرة ومعقدة. وتنعكس جميع هذه التحليلات
افتراضيا بأن المجتمعات المعاصرة تتميز بسمات ثقافية محددة المعالم وواقعية على
امتداد فترات زمنية طويلة. وأن هذه السمات تؤثر بقوة في الأداء السياسي
والاقتصادي للمجتمعات.

والسؤال إلى أي مدى يتصف هذا الافتراض بالصدق؟

وثمة كم هائل من الدراسات التي تعرض وجهة نظر متباينة ومختلفة بشكل
واضح. ذلك أن أصحاب نظريات التحديث. ومن بينهم كاتب هذا الفصل، يؤكدون أن
العالم يتغير بوساطة من شأنها أن نسوي ناكل القيم التقليدية. وعن ثم فإن التطوير
الاقتصادي يكون بشكل شبه حتمي سببا في انحصار سطوة المؤسسة الدينية وتلاشي
القورق الثقافية.

وتعبر عن هذه الدراسة شواهد على أن كلا الرأيين صواب. استنادا إلى بيانات
مستمدة من ثلاث موجات ليحد استقصائي للقيم العالمية، والذي يشمل الآن خمسة
وستين مجتمعا يضم ٧٥ بالمئة من سكان العالم. ويبدو أن التطور الاقتصادي
مرتبط بمثلثة تغيرات قابلة للتنبؤ تتباعد عن المعيير الاجتماعية المطلقة وتتقارب في
اتجاه قيم العقلانية والتسامح والثقة وما بعد الحداثة. ولكن الثقافة رهن المسار. إن

واقف كون مجتمع ما تاريخيا بروستانتيا أو أرثوذكسيا أو إسلاميا أو كونفوشيا هو الذي يؤدي إلى ظهور مناطق ثقافية ذات منظومات ذات معيضة مخصصة بالفئة الوضوح ونظا باقية وقتما يسبغر إلى حين الوصول إلى نتائج التطوير الاقتصادي

إن الفوارق الثقافية ترتبط ارتباطا وثيقا بعدد من الظواهر الاجتماعية المهمة والتي سنركز على واحدة منها: إنها مرتبطة ارتباطا قويا بمدى ما لدى المجتمع من مؤسسات ديمقراطية وفقا لدرجات القياس المحددة بشأن تقديرات الاستخرا م غير المقيد للحقوق السياسية والحريات المدنية منذ ١٩٧٢ وحتى ١٩٩٧. وليس معني الفارئ قبل إثبات هذه النقطة أن نفحص الدليل على أن الفوارق عبر الثقافية والثابتة قائمة فعلا. حتى على الرغم من أن التطور الاقتصادي يرتفع إلى إحداث تحولات ثقافية بطريقة منغلطة وسفوية

الملمم التقليدية النظرية والعقلانية وقيم البقاء

التعبير عن الذات - بعدان ونيسان للتباين عبر الثقافات

مقارنة الثقافات في عرض شديد الإيجاز تستلزم جهدا كبيرا في اختزال المعلومات ، وإن مقارنة كل حضارة من الحضارات اثمانية أو التسعة في ضوء المتغيرات الواحد بعد الآخر وبين فئات القيم التي تقيسها الدراسات الاستقصائية للقيم العالمية (غير الآلاف التي يمكن تخيلها لقياسها) ستكون عملية لا نهاية لها ، ولكن أية عملية ذات دلالة لاخترال البيانات تستلزم بوفر بنية أساسية بسيطة نسبيا للتباين عبر الثقافي - وهو ما لا يمكن أن نلخذه مأخذ التسليم. ولكن يبدو لمنس الحظ، أن هذه البنية موجودة بالفعل

في بحث سابق (إنجلترا ١٩٩٧ - فصل ٢) حلل كاتب هذا الفصل بيانات تم جمعها على المستوى القومي مستمدة من ثلاثة وأربعين مجتمعا من المجتمعات الواردة في الدراسة الاستقصائية للقيم في العالم (١٩٩٠ - ١٩٩١). وكشفت عن فوارق

عبر ثقافية كبيرة ومتعاسكة ، وتبين أن الرؤى العالمية لشعوب المجتمعات الفتية تختلف على نحو نسقي عن رؤى المجتمعات متحضرة الدخل على مدى نطاق واسع من المعايير والمعتقدات السياسية والدينية والاجتماعية ، وكشف التحليل العملي عن بعدين رئيسيين استكشفا درجات المتغيرات ، وفسرا أكثر من نصف ظاهرات التباين عبر الثقافات ويعكس هذان البعدان استقطابا عبر ثقافتين بين التوجهات التقليدية مقابل التوجهات العقلانية ، العلمانية إزاء السلطة وقيم اليقظة مقابل قيم التعبير عن الذات ، وجعل هذا من الممكن تعيين موقع كل مجتمع على خريطة ثقافية كوكبية.

وناقش هذه الدراسة تأسيسا على هذه الاكتشافات حيث نضع تقديرات مقارنة للتباين عبر الثقافات ، والتي يمكن استخدامها مع الموجات الثلاثة للدراسة الاستقصائية لتقييم في العالم على كل من المستوى الفردي والمستوى القومي ، وهذا من شأنه أن يمكننا من دراسة التغيرات على مدى الزمن في تواتر مع هذين البعدين . واستخدم التحليل الأول (إنجلترا ١٩٩٧) الدرجات العاملية (factor scores) المبنية على اثنين وعشرين متغيرا في الدراسات الاستقصائية ١٩٩٠ - ١٩٩١ ، وأخسرنا مجموعة فرعية من عشر متغيرات لها تأثيرات عالية على هذين البعدين كما استخدمت أيضا في الشكل ذاته في الموجات الثلاثة للدراسات الاستقصائية عن التقييم في العالم ، واستخدمنا هذه الفئة الفرعية للإقلال إلى أدنى حد ممكن من مشكلات البيانات المفقدة (إذ حينما تقتد متغيرا نفقد أمة بكاملها في التحليل)

ونمة معامل ارتباط عال بين الدرجات العاملية الناتجة عن هذه المجموعة المتحضرة من الموضوعات والدرجات العاملية الناتجة عن الاثنين وعشرين موضوعا التي سبق استخدامها (إنجلترا ١٩٩٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٤ - ٢٢٨ ، ٢٢٤) . وإن البعد التقليدي/العقلاني ، العلماني المستخدم هنا يكاد يكون مرتبطا ارتباطا كاملا بالدرجات العاملية المستمدة من البعد المائل القائم على أحد عشر متغيرا . ويصدق الشيء نفسه بالنسبة لبعد اليقظة/التعبير عن الذات ، وهذا استكشاف عن وجه تقريبي للتباين عبر الثقافات.

وستكشف كلا من الدين البعدين محورا مهما للاختلاف فيما بين الثقافات، وينغمس عشرات من القيم والتوجهات الأساسية ويعكس البعد التقليدي/العقلاى العفائى أولا وقبل كل شىء الاختلاف بين المجتمعات التي يحمل فيها الدين أهمية كبيرة جدا، وبين المجتمعات التي لا يكون فيها الدين على نفس القدر من الأهمية، ولكنه يكشف أيضا عن تنوع اهتمامات أخرى إذ من بين الموضوعات الرئيسية التأكيد على أهمية روابط الأسرة والاتصياح للسلطة (بما فى ذلك البضى النسبى بحكم عسكري)، علاوة على تجنب الصراع السياسى والتأكيد على توافق الآراء بدلا من المواجهة وتشدد المجتمعات المثلة عند القطب التقليدى على الدين والمعايير المطلقة والقيم التقليدية للأسرة، وتفضل الأسر كبيرة الحجم، وتبذ الطلاق، وتتخذ موقفا مناصرا للحياة فيما يتعلق بقضايا الإحاض والقتل الرحيم والانتحار. وتتشد على المسائل الاجتماعى بدلا من الإنجاز الفردى، وتؤثر توافق الآراء بدلا من الصراع السياسى العفائى، وتدعم الإنعاز للسلطة، وتبلغ مشاعر الكبرياء الوطنى والنظرة القومية مستويات عالية، هذا بينما المجتمعات التي تسمو لديها قيم علمانية - عقلاية تؤثر النفى لكل الموضوعات السابقة.

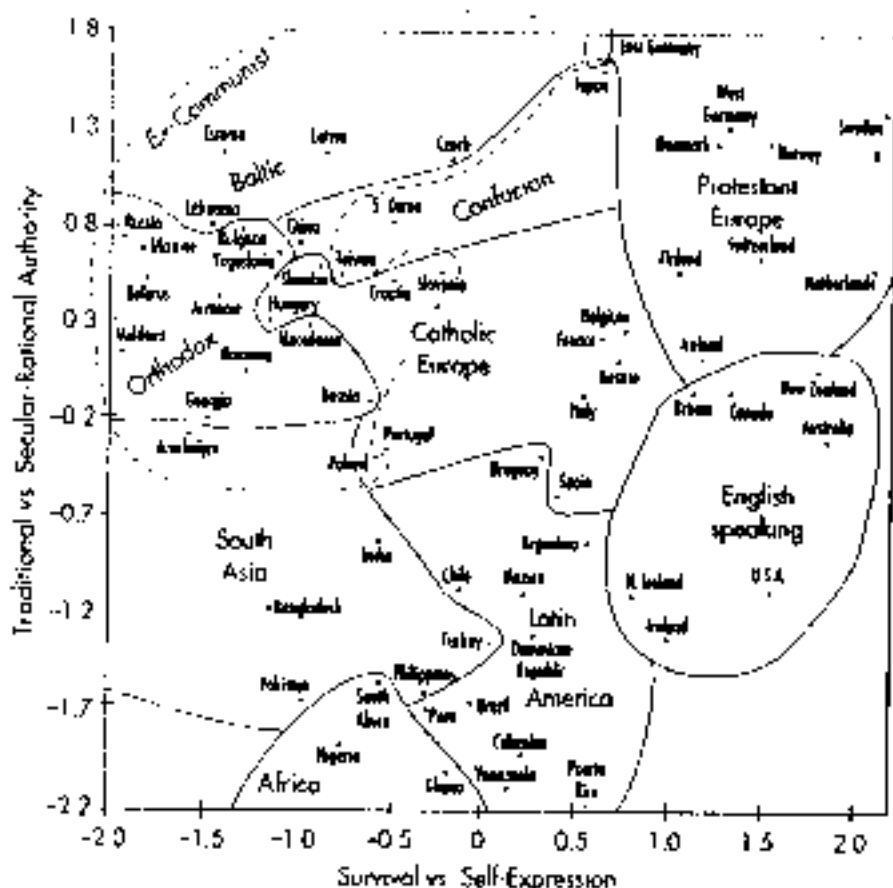
والملاحظ أن هذه التوجهات تنتزع إلى الفلازم فى أكثر من ستين من المجتمعات موضوع الدراسة ويشكك صدق هذا على الرغم من أننا اننا نأخذ عامدين موضوعات تغطى نطاقا واسعا من نقاط البحث إذ كان يحدث أن نختار خمسة موضوعات تشير إلى الدين وتحصل على مجموعة عنقودية شديدة الترابط. ولكن كان هدفنا هو قياس أبعاد واسعة المدى للتنوع فيما بين الثقافات

ويبدو أن الالتزام بهذه القيم تترتب عليه نتائج مهمة فى العالم الموضوعى. مثال ذلك أن المجتمعات التي تؤكد على القيم التقليدية، مبرز معدلات خصوبة أعلى بكثير من نظيراتها فى المجتمعات التي تشدد على القيم القانونية - العقلاية.

قيم البقاء/التعبير عن الذات

يشتمل بعد البقاء/التعبير عن الذات على الأفكار الرئسية المميزة للمجتمع بعد الصناعي ونجد من بين مكوناتها المصورية الاستقطاب بين القيم المادية وما بعد المادية ويشير دليل شامل إلى أن هذه القيم تكشف عن تحول فيما بين الأجيال من التأكيد على الأمن الاقتصادي والبدني إلى زيادة التأكيد على التعبير عن الذات والرفاه الشخصي، ونوعية الحياة (إنجلترا 1977، 1990، 1997) ويسود هذا التحول الثقافي جميع المجتمعات الصناعية المتقدمة ويبدو أنه يظهر بين الجماعات العمرية المتتركة ممن شهِبوا في ظروف تنظر إلى البقاء نظرة تسليم، وتفتقر هذه القيم بظهور موقف يؤكد على نحو متزايد على الحماية البيئية، والحركة النسائية، والمطالبات المتزايدة بالمشاركة في اتخاذ القرارات الخاصة بالحياة الاقتصادية والسياسية، وانتشرت هذه القيم خلال الخمس والعشرين سنة الماضية، وأخذة في الانتشار على نطاق واسع في كل المجتمعات الصناعية تقريبا حيث يسهل الحصول على براهين في تسلسل زمني شامل بيد أن هذا ليس سوى مكون واحد من مكونات بعد أشمل للنوع فيما بين الثقافات.

وتكشف المجتمعات التي نشهد على قيم البقاء عن مستويات منخفضة نسبيا للرفاه الذاتي، وعن مستوى سيئ نسبيا للحالة الصحية. وينخفض فيها مستوى الثقة فيما بين الأشخاص، وتكون غير متسامحة نسبيا مع الجماعات الأجنبية، ويندني تأييدها للمساواة بين الجنسين، وتشدد على القيم المادية، ويصل إيمانها بالعلم والتقانة مستويات عالية نسبيا، ويندني نشاطها البيئي إلى مستويات منخفضة نسبيا، وتؤثر، نسبيا، نظام الحكم التسلطي. ولكن المجتمعات التي تؤكد على قيم التعبير عن الذات، فإنها تميل إلى أفضليات مفاضلة لكل ما سبق. وطبيعي أن ثمة نتائج موضوعية مهمة تترب على ما إذا كان المجتمع يشدد على قيم البقاء أم على قيم التعبير عن الذات، وسوف يبين لنا أن المجتمعات التي تؤكد على قيم التعبير عن الذات أميل إلى أن تكون على الأرجح مجتمعات ديمقراطية مستقرة أكثر مما هو الحال بالنسبة للمجتمعات التي تؤكد على قيم البقاء.



شكل ٧ - ١ مواقع خمسة وستين مجتمعاً على بعدى الاختلاف فيما بين العاقات ملحوظة: تشير الدرجات على كل من المحورين إلى الدرجات العاملة للبعد على النعد الموضع للصلون: بيانات الخمسين مجتمعاً التالية من المسح الاستقصائي للقيم في العالم (١٩٩٥ - ١٩٩٨) الولايات المتحدة، نيوزيلندا، الصين، اليابان، تاوان، كوريا الجنوبية، تركيا، سنجلانيش، الهند، باكستان، الفلبين، أرمينيا، أذربيجان، جورجيا، بريطانيا، ألمانيا ش، ألمانيا غ، سويسرا، النرويج، السويد، بولندا، بلغاريا، اليوننة، سلوفاكيا، كرواتيا، يوغوسلافيا، مقدونيا، نيجيريا، جنوب أفريقيا، غانا، الأرجنتين، البرازيل، شيلي، كولومبيا، جمهورية دومنيكان، المكسيك، بيرو، بورتوريكو، أوروغواي، فنزويلا، والبيانات عن كندا، فرنسا، إيطاليا، البرتغال، هولندا، بلجيكا، الدانمرك، أيسلندا، أيرلندا الشمالية، النمسا، المجر، التشيك، سلوفاكيا، رومانيا، مستمدة من المسح الإحصائي للقيم في العالم ١٩٩٠ مع العلم بأن تقدير موضعي كولومبيا وباكستان على أساس بيانات غير مكتملة.

خريطة ثقافية كوكبية (١٩٩٥ - ١٩٩٨)

لنحاول الآن فحص موقع كل من الخمسة والسبعين مجتمعا المذكورة على البعدين الفاجعين عن التحليل العاملي الذي نعددتنا عنه نوا. المحور الرأسى على خريطتنا الثقافية الكوكبية (انظر شكل ٧ - ٦) يتطابق مع الاستقطاب بين السلطة التقليدية والسلطة العلمانية - العقلانية. وبصور المحور الأفقى الاستقطاب بين قيم البقاء والرفاه ورسمنا الصدور حول مجموعات البلدان فى الشكل المذكور مسترشين برسم هنتختين (١٩٩٢ - ١٩٩٦) للمناطق الثقافية.

وشبهه هذه الخريطة إلى حد كبير خريطة أخرى رسمت على أساس المسح الإحصائى لعامى ١٩٩٠ - ١٩٩٦ (إنجلترا ١٩٩٧ - ١٩٩٢). ونجد فيها مناطق ثقافية مميزة ومتلاحمة بروتستانتية وكاثوليكية - أمريكا اللاتينية، الكونفوشية، أفريقية وأرثوذكسية. وتعكس واقع أن المجتمعات داخل هذه التجمعات العنقودية لها قيم متميزة نسبيا، وعلى الرغم من أن هذه الدراسات المسيحية لا تتضمن سوى مجتمعات إسلامية قليلة إلا أنها أميل لأن تقع فى الركن الجنوبى الغربى من الخريطة.

ويبدو أن التقاليد الدينية لها تأثير عميق ودائم على منظومات القيم المعاصرة فى المجتمعات الخمس والسبعين على نحو ما ذهب كل من ماكس فيبر وهنتختون وآخرين. ولكن ليس الدين هو العامل الوحيد فى تشكيل المناطق الثقافية، ذلك أن ثقافة المجتمع تعكس تاريخه الثقافى كله. وإن من أهم الأحداث التاريخية فى القرن العشرين هو صعود وسقوط الإمبراطورية الشيوعية التى كانت تحكم لفترة ثلث سكان العالم، وتركت الشيوعية تأثيرا واضحا على منظومات قيم من عاشوا فى ظلها. ولكن على الرغم من مضى أربعة عقود من الحكم الشيوعى إلا أن ألمانيا الشرقية سابقا تظل ثقافيا وثيقة لما كانت تسمى ألمانيا الغربية، وإن اتجهت منظومة قيم ألمانيا الشرقية سابقا ناحية المنطقة الشيوعية. وعلى الرغم من أن الصين عضو فى المنطقة الكونفوشية، إلا أنها هى أيضا تندرج داخل منطقة واسعة متأثرة بالشيوعية. وبالتالى أدريجان، إذ على الرغم من أنها جزء من التجمع العنقودى الإسلامى، إلا أنها تندرج ضمن المنطقة الشيوعية الأوسع التى ظلت خاضعة لحكمها أربعة قرون.

وأيضا تأثير الروابط الاستعمارية واضحا ومعتادا في وجود منطقة ثقافية أمريكية لاتينية متاحة لاسبانيا والبرتغال. وتسهم الروابط الاستعمارية السابقة في تفسير وجود منطقة متحدثة بالإنجليزية تضم بريطانيا والمجتمعات الأخرى المتحدثة بالإنجليزية. وتكشف جميع التجمعات السبعة المتحدثة بالإنجليزية الواردة في دراسنا هذه عن خصائص ثقافية متعائلة نسبي. ولم يجر مسح استقصائي لكل من أستراليا ونيوزيلندا حتى الأعوام ١٩٩٥ - ١٩٩٨ ولكنهما يدخلان ضمن المنطقة الثقافية المتحدثة بالإنجليزية التي حددها كاتب هذه الدراسة بناء على بيانات ١٩٩٠ - ١٩٩٥ ونقع أستراليا ونيوزيلندا جغرافيا في منتصف الطريق بالنسبة للعالم، ولكنهما ثقافيا مجاورتان لبريطانيا وكندا.

ويبدو أثر الاستعمار قويا بشكل خاص حين ندعمه هجرات واسعة عن المجتمع المستعمر. ونظرا لأن أسبانيا وإيطاليا والأوروغواي والأرجنتين تربط بينها صلة وثيقة بسببا على الحدود بين أوروبا الكاثوليكية وأمريكا اللاتينية، فإن هذا الواقع يوضح لنا كيف أن سكان أوروغواي والأرجنتين منحدريين إلى حد كبير من مهاجرين وإقديز من أسبانيا وإيطاليا على الرغم من المسافة الجغرافية البعيدة التي تفصل هذه عن تلك. وكذلك اكتشف توم رايس وجان فيلدمان (١٩٩٧) معاملات ترابط قوية بين القيم المرتبة لجماعات عرقية مختلفة في الولايات المتحدة، والقيم السائدة في بلاد المنشأ. على الرغم من توالي جيلين أو ثلاثة منذ تاريخ الهجرة الأولى.

ما مدى واقعية المناطق الثقافية

تحديد مكان كل مجتمع في الشكل ٧-١ إنما هو تحديد موضوعي، فمبنيًا على التحليل العائلي لبيانات مسحية مأخوذة من كل بلد. ولكن الحدود المرسومة حول هذه المجتمعات فهي ذاتية. استرشدنا في رسمها بتقسيم هنتجتون للعالم إلى مناطق ثقافية عديدة، إلى أي مدى هذه المناطق واقعية؟ لقد كان بالإمكان رسم الحدود بوسائل مختلفة لأن هذه المجتمعات تأثرت بعوامل عديدة ومنباينة. وهكذا نجد بعض الحدود تتداخل مع غيرها - مثال ذلك المنطقة الشيوعية السابقة تتداخل مع المناطق

التفاعيل الرومانسية والكاثوليكية والكونفوشية والارنولدكيسه والإسلامية . وقد
بالمثل بريطانيا الواقعة في مجال نفاطم العطفة المتحدثة بالإنجليزية وأوروبا
البروتستانتية . ونعرف أن بريطانيا عمليا لصيفة لكل المجمعات المتحدثة بالإنجليزية
وأدرجناها في هذه المنطقة، ولكن كان بالإمكان مع تعديل بسيط أن نرسم الحدود
على نحو يسمح بوضع بريطانيا داخل أوروبا البروتستانتية، ذلك لانتها أجمادات
صلة ثقافية وثيقة بهذه المجتمعات . إن الحفيقة الواقعة معقدة، إن إن بريطانيا
بروتستانتية ومتحدثة بالإنجليزية، ويعكس وضعها العلى كلا من وجهي الحفيقة

ورسمنا بالمثل حدودا حول مجتمعات أمريكا اللاتينية التي سلم منتحتون أنها
منطقة ثقافة متنايزة . إذ كشف جميع المجمعات العشرة في الحفيقة عن قيم عتامة
نسبية من منظور كوكبي . ولكن كان بالإمكان، مع إحداث تغيرات طفيفة فقط، أن
نرسم هذه الحدود بحيث تحدد منطقة ثقافة حسبانية تضم إسبانيا والبرتغال اللتين
ترتبطان ارتباطا وثيقا بسبب مجتمعات أمريكا اللاتينية، أو كان بالإمكان أن نخط
حدودا تدور داخلها أمريكا اللاتينية وأوروبا الكاثوليكية والقبين وأيرلندا ضمن
منطقة ثقافية كاثوليكية رومانية واسعة والجدير بالملاحظة أن جميع هذه المناطق لها
ميراثها العلى والمفاهيمية

وتركز هذه الخريطة ذات البعدين على تعائل القيم الأساسية ولكنها تعكس
أيضا التباعد النسبي بين هذه المجتمعات في ضوء أبعاد أخرى كثيرة مثل الدين
والنثيرات الاستعمارية، وتأثير نظام الحكم الشيوعي، والبنية الاجتماعية، والمستوى
الاقتصادي . ويمكن إيجاز أثر كثير من العوامل التاريخية المختلفة نسبيا على هذين
البعدين الثقافيين اللذين يمثلان الأساس لهذه الخارطة، ولكن نثرا لأن هذه العوامل
المختلفة لا تتطابق دائما بشكل تام فإننا نصادف بعض حالات التناود الواضحة .
مثال ذلك أن اليابان وألمانيا الشرقية السابفة تائبان منالبتين الواحدة بعد الأخرى
ويبدو هذا خللتما على أساس أن كلا المجتمعين علمانيان بدرجة عالية . ويتسمان
بالثراء نسبيا . وهما نسبيا من العمال الصناعيين . ولكن الصورة تبدو غير
ملائمة من حيث إن اليابان صغها تراث كونفوشية . بينما ألمانيا الشرقية صاغتتها

البروندي، سويسرا، ص ١١٤ (التحفة أن هاربرون [١٩٩٢] أكد وجود تواريات بين الثقافة البروندي وسويسرية والكونغولية)

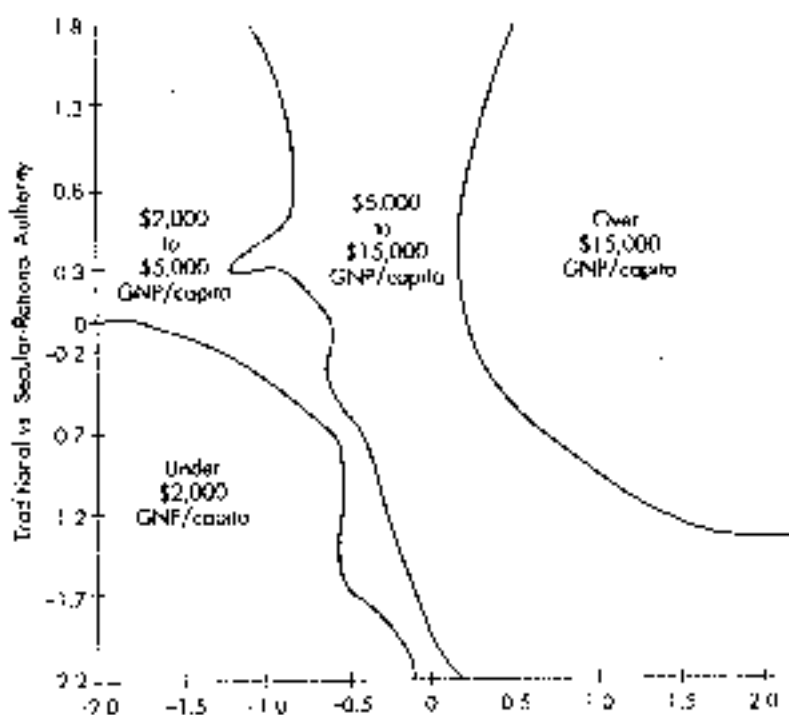
ولكن على الرغم من مظاهر التثنية الواضحة إلا أن المجتمعات ذات التراث الثقافي المشترك تدخل بعامة ضمن تجمعات عرقية مشتركة، ولكن مواضعها تكشف أنها عن مسنوها من حيث التطور الاقتصادي وهيكلها انتهى. وبهذا وغير ذلك من مؤثرات تاريخية كبرى. وتنعكس مواضعها على هذه الخارطة ذات البعدين وأما متعدد الأبعاد ويبدو أن التلاحم الفردي بين هذين البعدين يعكس حقيقة مؤدعا أن ثقافة المجتمع إنما سبيلها جماع التراث الاقتصادي والتاريخي، ثم تشكل هي بالتالي.

ويبدو أن التطوير الاقتصادي له أثره القوي على القسم الثقافية، إذ الملاحظ أن معلومات القيم في البلدان الأخرى تختلف بطريقة منطوية عن نظيراتها في البلدان الفقيرة ويعكس الهيكل العام للشكل ٧-٦ التدرج من بلدان الدخل المنخفض (المركزة قرب الربع الأدنى الأيسر) إلى البلدان المتقدمة (المركزة قرب أعلى اليمين)

ويؤكد الشكل ٧ - ٢ هذه النقطة إن رسم صورة جديدة للشكل ٧ - ١ يوضح المناطق الاقتصادية التي تقع فيها هذه المجتمعات الخمسة والستون. ونلاحظ أن جميع المجتمعات التسعة عشر التي يبلغ نصيب الفرد من إجمالي الإنتاج القومي أكثر من ١٥.٠٠٠ دولار تحتل مرتبة عالية نسبيا على كل من البعدين، وتقع في منطقة عند الركن العلوي الأيمن وتتقاطع هذه المنطقة الاقتصادية مع حدود المناطق الثقافية البروندي، السويسرية، والشيوعية السابقة والكونغولية والكاثوليكية والمناطق المتحدثة بالإنجليزية. وعلى العكس من ذلك فإن جميع المجتمعات التي يكون فيها نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي أقل من ٢.٠٠٠ دولار تقع في تجمع عقودي أدنى اليسار من شكل ٧ - ٢ في منطقة اقتصادية تتقاطع مع المناطق الثقافية الأفريقية وجنوب آسيا والمناطق الشيوعية السابقة والأورثوذكسية. وتفيد هذه الشواهد بأن التطوير الاقتصادي يتجه إلى تحريك المجتمعات في اتجاه مشترك، بغض النظر عن ميراثها الثقافي. ومع هذا، فإن المناطق الثقافية المميزة باقية. وتواصل بقاها على مدى قرنين بعد مسهل تاريخ الثورة الصناعية.

وليس نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي سوى مؤشر واحد للدلالة على مستوى التطور الاقتصادي للمجتمع وكما سبق أن أكد ماركس، فإن ظهور الطبقة العاملة الصناعية كان حدثاً رئيسياً في التاريخ الحديث. علاوة على هذا فإن الطبيعة المتغيرة للقوى العاملة تحدد ثلاثة مراحل متميزة للتطور الاقتصادي: المجتمع الزراعي، والمجتمع الصناعي، والمجتمع ما بعد الصناعي (بيبل ١٩٧٣ - ١٩٧٦) معنى هذا أنه لا تزال هناك مقاومة من الحدود التي يمكن رسمها حول المجتمعات في الشكلين ٧ - ١ و ٧ - ٢. وتجد أن المجتمعات التي تضم نسبة مئوية عالية من القوى العاملة في الزراعة تقع قرب قاع الخريطة، بينما المجتمعات التي بها نسبة مئوية عالية من العمال الصناعيين تقع قرب القمة، والمقطاعات التي بها نسبة مئوية عالية في قطاع الخدمات تقع قرب الجانب الأيمن من الخريطة.

وتشير نظرية التحديث إلى أن المجتمعات مثلما يتطور اقتصادياً، كذلك ثقافتها سوف تنزع إلى النحر والتعبير في اتجاه يمكن التنبؤ به، وتتطابق معلوماتنا مع دلالات هذا التنبؤ، ويرتبط الاختلافات الاقتصادية باختلافات ثقافية واسعة النطاق. بيد أننا، وعلى الرغم من هذا، نجد شواهد واضحة على اضطراب بقاء مناطق ثقافية مستقرة وراسخة عند زمن طويل، واستخدمنا المعلومات التي وفرها لنا آخر دراسة استقصائية مباحة عن كل مجتمع من هذه المجتمعات. وابتكرت متغيرات وهمية لكي نكتشف لنا عما إذا كان مجتمع ما منحدث بالإنجليزية بشكل غالب أم لا، أو مجتمع شيوعي سابق أم لا، وهكذا بالنسبة لكل مجتمع في المجتمعات العنقودية الخبيثة في الشكل ٧ - ١. ويوضح التحليل التجريبي لهذه المتغيرات أن المواقع الثقافية لمجتمعات معينة أبعد من أن تكون مواقع عشوائية، إذ إن ثمانية مناطق من المناطق التسع المحددة في الشكل ٧ - ١ تكتف من علاقات مهمة إحصائية مع أحد المعدن الرئيسيين على الأقل للاختلافات فيما بين الثقافات (الاستثناء الوحيد المجموعة العنقودية لأوروبا الكاثوليكية. وهي مجموعة متلازمة إلى حد كبير، ولكن لها وضع محايد على كل من البعدين).



شكل ٧-٧ المستوى الاقتصادي الخمسة وستين مجسما مينا على بعدين

للإختلاف فيما بين الثقافات .

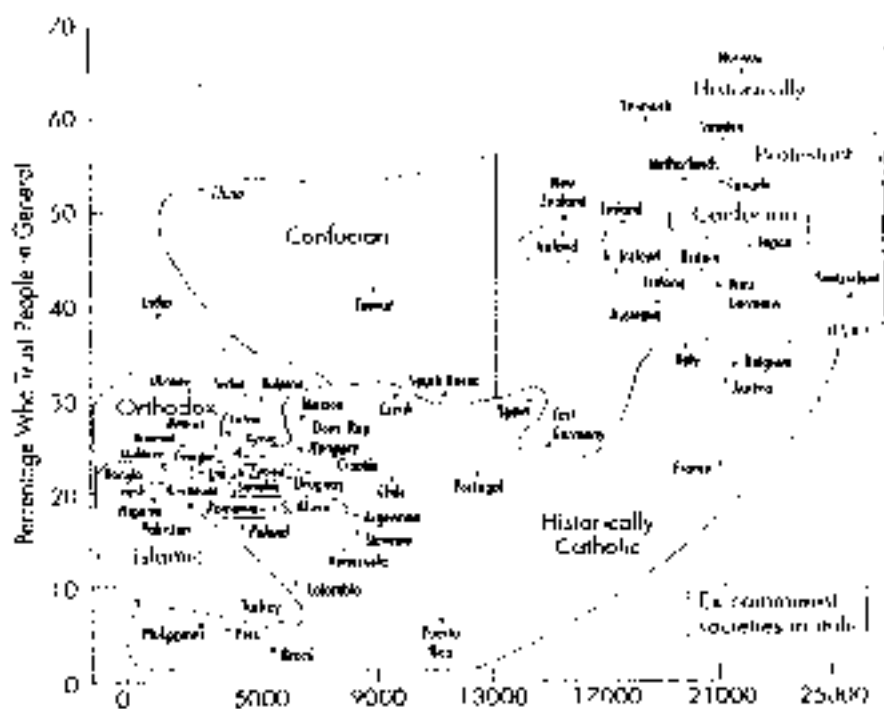
ملحوظة : جميع المجتمعات العنصرية وأسنين المبينة في الشكل ٧-٧ فيما عدا مجتمع واحد. تتطابق مع لفظة الاقتصادية المبينة هنا، باستثناء جمهورية الدومينيكان التي تحز عرقيا حادًا. المصدر : مستويات الاقتصادية محددة على أساس بيانات البنك الدولي عن مستوى القوى البشرية - عام ١٩٩٥ انظر : World Development Report, 1997, pp 214 - 215

هل نعكس هذه التجمعات العنقودية الثقافية ببساطة قوارق اقتصادية فقط؟ مثال ذلك هل مجتمعات أوروبا البروتستانتية لها قيم متمثلة لا شيء سوى لأنها غنية؟ الإجابة لا. إن أثر التراث الثقافي التاريخي للمجتمع يمتد بأقيا عند ضبط نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي وبشكل القوى العاملة في تحليل الانحدار المتعدد (تجلهارت وبيكر ٢٠٠٠).

وليسمح لنا القارئ، لكي نوضح مدى تماسك هذه التجمعات العقودية أن ندرس واحدا من المدعوات الرئيسية في دراسة عن الاختلافات فيما بين الثقافات. الثقة فيما بين الأشخاص (أحد عناصر بعد البقاء/التعبير عن الذات) يؤكد كل من جيمس كولمان (١٩٨٨ و ١٩٩٠) وجبرييل أنوند وسيدني فيريا (١٩٦٢) وبونام (١٩٩٢) وفوكوياما (١٩٩٥) أن الثقة فيما بين الأشخاص عنصر جوهري لبناء الهياكل الاجتماعية التي تعتمد عليها الديمقراطية والتنظيمات الاجتماعية المركبة التي هي ركيزة المشروعات الاقتصادية للإنتاج الكبير. ويبرهن الشكل ٧-٢ عن أن الواقع العملي يشهد بأن كل المجتمعات البروتستانتية تاريخيا تحتل مرتبة أعلى من كل المجتمعات الكاثوليكية تاريخيا من حيث الثقة فيما بين الأشخاص ويتأكد صدق هذا حتى عند ضبط مستويات التطور الاقتصادي إذ يبين أن هناك معامل ارتباط واضح بين الثقة فيما بين الأشخاص ومستوى المجتمع من حيث تحسب الفرد من إجمالي الناتج القومي. ولكن حتى المجتمعات الكاثوليكية تحتل مرتبة أدنى من المجتمعات المدمرة ذات التاريخ البروتستانتي.

ويبدو كذلك أن تراث الحكم الشيوعي ترك أثرا على هذا التغيير، بحيث نجد عمليا أن جميع البلدان الشيوعية السابقة تحتل مرتبة أدنى نسبيا ووفقا لهذا نجد أن المجتمعات ذات التاريخ البروتستانتي والتي خضعت لحكم شيوعي، مثل ألمانيا الشرقية ولاتفيا، تكشف عن مستويات دنيا نسبيا في الثقة بين الأشخاص وإذا نظرنا إلى المجتمعات التسعة عشر التي يعتقد أكثر من ٢٥ بالمائة من أهلها أن غالبية الناس يمكن أن نتق فيهم، نجد أن أربعة عشر مجتمعا منها هي مجتمعات بروتستانتية تاريخيا، وثلاثة منها متأثرة بالكونفوشية ومجتمعا واحداً سورة الهندوسية، ومجتمعا واحداً فقط (آيرلندا) كاثوليكية تاريخيا. وإذا نظرنا إلى المجتمعات العشر التي تحتل المرتبة الأدنى في الشكل ٧ - ٢ نجد ثمانية منها مجتمعات كاثوليكية تاريخيا ولا يوجد بينها مجتمعا له تاريخ بروتستانتي.

ونقول، بشكل عابر، ثمة معامل ارتباط مدهل بين هذه المعلومات وبين دليل الشفافية في التصورات الدولية عن الفساد، والذي يتناوله في الفصل الثامن سيمور مارتن ليبميت وجبرييل سلمان ليتز.



شكل ٧ - الثقة فيما بين الأشخاص على أساس التراث الثقافي ومستوى التطور الاقتصادي والتراث الديني

الثقة بحساب نصيب الفرد/آن في $R = 0.50$

وتلحظ في مجتمعات بذاتها أن الكاثوليك يحتلون مرتبة مرتفعة شأن البروتستانت من حيث الثقة فيما بين الأشخاص، وليس الأمر الحاسم هنا بشعق شخصية فردية بل يتعلق بالخبرة المشتركة تاريخياً لأهم بعينها (١٩٩٣) أن المنظمات الأنفية الحكومة مطلباً تقضي إلى ثقة فيما بين الأشخاص، ويبدو أن سيطرة البيروقراطيات الضخمة والمركزية والتراتبية تقضي إلى ضعف وتآكل الثقة فيها بين الأشخاص، ولقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تاريخياً نموذجاً للمؤسسة التراتبية الخاضعة لسلطة مركزية، هذا بينما كانت الكنائس البروتستانتية لامركزية وهيأة أكثر للسيطرة المحلية

ويبدو أن التناقض بين السيطرة المحلية والهيمنة من جانب ترانتييه بعدده تربى عليه نتائج مهمة بعيدة المدى فيما يتعلق بالثقة فيما بين الأشخاص. ومن الواضح أن هذه الفوارق فيما بين الثقافات لا تعكس التأثير المعاصر لكاتانس كل من الفريزيين ، إذ تغيرت الكنيسة الكاثوليكية كثيرا خلال العقود الأخيرة. علاوة على هذا نلاحظ في كثير من هذه البلدان، خاصة البلدان البروتستانتية، تضائل عدد من يذهبون إلى الكنيسة إلى الحد الذي لم نعد نرى سوى قلة قليلة هي التي تنتظم على حضور قداس الكنيسة ، وأصبحت الغالبية لا تربطها بالكنيسة اليوم سوى علاقة وأهمية وربما انقطعت علاقتها تماما بالكنيسة ولكن أثر العيش داخل مجتمع شكلته تاريخيا مؤسسات كاثوليكية أو بروتستانتية، كانت قوية النفوذ يوما ما، لا يزال باقيا معنوا، يسهم في تشكيل كل امرئ - بروتستانتى أو كاثوليكي أو غير ذلك - نشأ اجتماعيا وتربى في ثقافة أمة بذاتها.

ويبدو أن المجتمعات البروتستانتية والكاثوليكية تكشف اليوم عن قسمة مميزة. وسبب ذلك أساسا الأثر التاريخي الذي تركته كنيسة كل منها على المجتمعات إجمالا وليس بسبب تأثير معاصر للكنيسة وهذا هو السبب في أننا بصنف ألمانيا وسويسرا وهولندا ضمن المجتمعات البروتستانتية تاريخيا (إذ إن البروتستانتية هي التي شكلتهم تاريخيا حتى إن ضمت اليوم عددا من الكاثوليك أكثر من البروتستانت وحدث هذا بسبب الهجرة وانخفاض عدد الموالين البروتستانت نسبيا - وارتفاع معدلات العولمة البروتستانتية)

الثقافة والديمقراطية

الفكرة القائلة بأن الثقافة السياسية مرتبطة بالديمقراطية أحدثت أثرا قويا عقب صدور كتاب الثقافة المدنية (المؤلف وغيره ١٩٦٣). ولكنها أضحت فكرة بالية خلال السبعينيات لأسباب متباينة. ونعرف أن فهم الثقافة السياسية أثار سؤالا تجريبيا

وهما هل هناك مجتمعان مدانها، وهما هل لها ثقافة. سدادت، في التي انصبت، على نحو نسبي، إلى الديمقراطية، رغم، بعض النقاد، أن هذا النوع، النهج، خصوي، في مـ اوله، بيان، أن بعض الثقافات أكثر من غيرها استعدادا للتحويل إلى الديمقراطية، وإن أي نظرية حكيمه تؤمن، بأن جميع النجته، مات، سواء، من حيث احتمال التحويل إلى الديمقراطية، ولكن، المشكلة هي أن صياغة نظرية، حسب الطلب، لتتطابق مع إيديولوجية مدانها، يمكن أن تدج، نظرية، لا تتطابق مع الواقع، والنتيجة، أن تخطئ، عميا، في مـواتها، وستصبح النظرية مرشدا، مضللا، إذ يحاولون، سواكية، عملية، لفرطة، في عالم الواقع.

وبحلول التسعينات، قلص المرافيون من أمريكا اللاتينية، وأمريكا بـشرق أوروبا، وحتى شرق آسيا، إلى أن العوامل الثقافية، كان لها دور، مهم، في المشكلات التي واجهتهم، مصدر عملية الفرطة، وبين أن مجرد تبني دستور ديمقراطي أمر غير كافٍ.

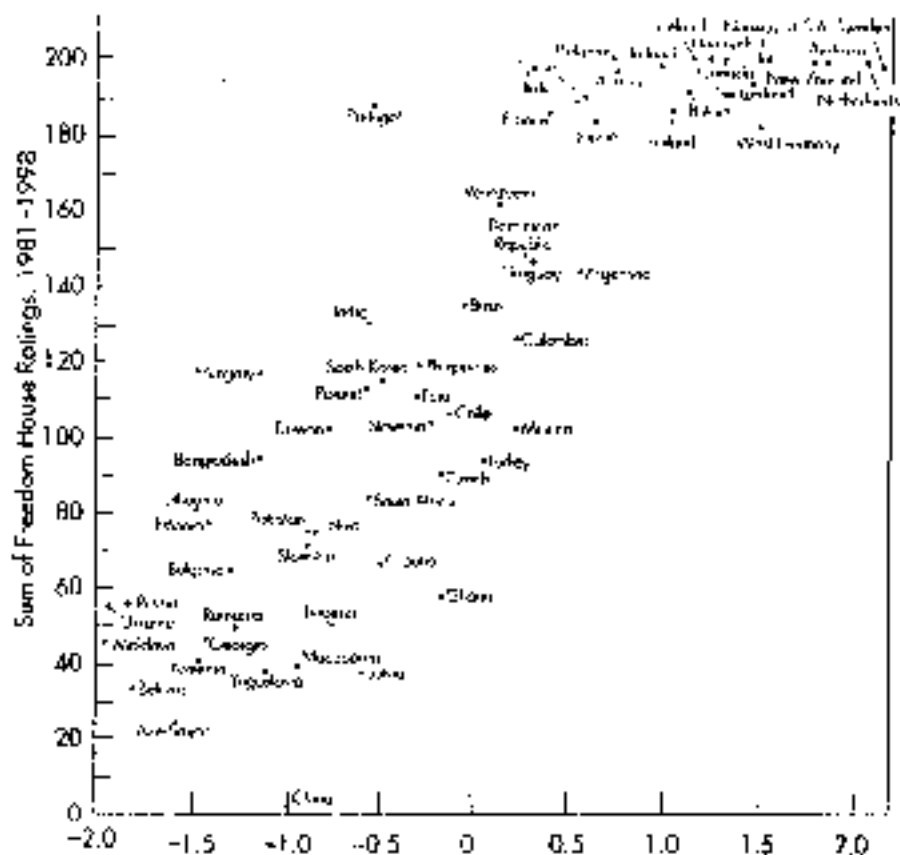
وتم حذف العوامل الثقافية عن غالبية الدراسات التحليلية التجريبية عن الديمقراطية، ويرجع، سبب ذلك جزئيا، ولا يزال، إلى الآن، إلى أننا لم نأخذ، وادينا، مـاسب، يمكن الاعتقاد عليها لقياس هذه العوامل إلا لعدد من البلدان، لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وطبيعي، أنه حين يصعب، العوامل الثقافية في التحسين، كما هو الحال، في كتابات صاحب هذه الدراسة (نجاهار، ١٩٩٠ و ١٩٩٧) ووينام (١٩٩٣) سـ، خرج، أن لها دورا مهما على ما يبدو.

بقومها التطوير الاقتصادي إلى نمطين من التغييرات التي تفضي إلى الديمقراطية:

- إذ تنزع إلى تحويل الهيكل الاجتماعي للمجتمع، وتحقق عمليات إقامة المن، والتعليم العام، والتخصص المهني، وتزايد الشبكات التنظيمية، وتحقق مساواة أكبر في الدخل، والعديد من التطورات التنظيمية المتنوعة التي تحفز وتحشد المشاركة

الجماعيرية في السياسة، وطبيعي أن زيادة التخصص المهني، والوسع في التعليم يؤديان إلى نشوء قوة عمل تتصف بالعقلية المستقلة والمهارات المتخصصة التي تعزز من سلطانها التفاوضي مع النخبة.

• ويؤدي التطوير الاقتصادي إلى إحداث تغييرات ثقافية تسهم في استقرار الديمقراطية، وتفضي إلى نشوء وتطور الثقة والتسامح فيما بين الأشخاص، وتفضي إلى انتشار قيم ما بعد الحادية التي تعطي أولوية كبرى للتعبير عن الذات والمشاركة في صنع القرار. ويقدر ما تحققه من مستويات عليا في الرفاه، بقدر ما تفضي مشروعية على النظام الحاكم مما يساعد على استقرار ودوام المؤسسات الديمقراطية حتى في وقت الشدة، ويعرف أن المشروعية رصيد أساسي لأي نظام حكم، ولكنها حاسمة بالنسبة للنظم الديمقراطية، إن نظم الحكم التسلطية قاسرة على التشبث بالسلطة حين تفتقر إلى أية مساندة جماهيرية، ولكن النظم الديمقراطية لا بد أن تتوافق لها مساندة جماهيرية وإلا لن يكون لها وجود، إذ تخرج من السلطة بفضل الاقتراع العام.



شكل ٧ - E قيم التعبير عن الذات والمؤسسات الديمقراطية.

ملحوظة: المحور الرأسي هو إجمالي تقديرات منظمة بيت الحرية للحريات المدنية والحقوق السياسية من ١٩٨١ وحتى ١٩٩٨. وحيث إن هذه التقديرات تُعطي تقديرات عالية للعسوبيات الدنيا من الديمقراطية، فقد عكسنا ظاهرة التناقض بين طرحنا هذه الكميّات الإجمالية من ٢٣٦ (الصين التي حصلت على أعلى درجة من ٢٢٥ حصلت على درجة ١ بعد هذا التحول). ويمكن للمعيار الأفقي الترجمة العالمية المتوسطة لكل بلد بالنسبة لبعد اليقظة/التعبير عن الذات. ويكشف عن مستويات الغنم بعد المادية والثقة والتسامح، والفاعلية السياسية والرفاه الشخصي بين كل جمهور

88 = R, 000 = P, 63 = N

المصدر: دراسات استقصائية لمنظمة بيت الحرية في طبقات متداخلة من الحرية في العالم - بيانات استقصائية من ١٩٩٠ و ١٩٩٥، الدراسات الاستقصائية عن القيم في العالم.

وإن ما يعنفه النظام السياسي من نواتج إيجابية يمكن أن تتولد عنها مساندة جماهيرية لشاغلي المناصب السياسية. ويجري حساب هذه المساندة، على المدى القصير، على أساس "ماذا فعلت من أجلي مؤخرًا؟" ولكن إذا بدأ أن حصاد عمل نظام الحكم إيجابي على مدى طويل فإن النظام يمكن أن يحقق لنفسه مساندة واسعة النطاق (إيستون - ١٩٦٢) - أي إدراك عام بأن النظام السياسي جيد في جوهره، بغض النظر عن حصاد أعماله الراهنة، ويمكن أن تستمر هذه المساندة وتبقى حتى في أوقات الشدة.

تيسر لنا الدراسة الاستقصائية للقيم في العالم إمكانية اختبار هذه الفرضية على نطاق العالم كله، ويوضح لنا الشكل ٧ - ٤ أن وضع المجتمع على دليل البقاء/التعبير عن الذات له معامل ارتباط قوي بمستواه من حيث الديمقراطية على نحو ما تبين درجته بشأن تقديرات منظمة بيت الحرية للحقوق السياسية والحريات المدنية من ١٩٧٢ حتى ١٩٩٨. وهذه علاقة قوية جدا

ومن الواضح أن هذه ليست مصنعة منهجيا ولا مجرد معامل ارتباط، ذلك لأن المتغيرين تم قياسهما وتقديرهما على مستويين مختلفين، وجاء من مصدرين مختلفين تماما، والملاحظ عمليا أن جميع المجتمعات التي تُصنّف مرتبة عالية بشأن قيم البقاء/التعبير عن الذات هي ديمقراطيات مستقرة، ونجد أيضا واقعا أن كل المجتمعات التي تحتل مرتبة نخبيا خاضعة لنظم حكم تسلطية. ولئن نحاول في هذا الفصل تفكيك الروابط السببية المركبة، ويكفينا الآن الإشارة إلى الرابطة القوية الموضحة في الشكل ٧-٤، وأنها تظل باقية مع ضبط نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي وتحديد التفسيرات الأساسية الممكنة.

أحد التفسيرات المحتملة أن المؤسسات الديمقراطية تؤدي إلى ظهور قيم التعبير عن الذات المرتبطة بها ارتباطا وثيقا للغاية، أو لنقل بعبارة أخرى إن الديمقراطية تجعل الناس أصحاء، سعداء، مشاركين، واثقين بعضهم، كما أنها تفرز قيم ما بعد المادية (لدى الجيل الأصغر على الأقل)، وهذا تفسير يستهوي النفس تماما، إنه يمثل حجة قوية مساندة للديمقراطية، ويغيد ضمنا أن لدينا القدرة على سرعة تقويم

أعوجاج عالية مشكلات العالم. نبنى مؤسسات ديمقراطية، وعش سعيدا على الدوام بعد ذلك.

ولكن لسوء الحظ فإن خبرة شعوب الاتحاد السوفييتي السابق لا تدعم هذا التفسير. إذ منذ تحولهم الدرامي في اتجاه الديمقراطية عام ١٩٩١ لم يصبحوا أكثر صحة ولا أكثر سعادة، ولا أكثر ثقة ببعضهم، ولا أكثر نسامحا أو أكثر انتماء للقيم ما بعد الحادية، إنهم في الغالب الأعم ذهبوا إلى اتجاه تقيض تماما. وكذلك يمثل تاريخ أمريكا اللاتينية في عدم الاستقرار الرسنوري مثلا آخر.

وثمة تفسير بديل يفيد بأن التطور الاقتصادي يفضي تدرجيا إلى تغييرات اجتماعية وثقافية، والتي من شأنها أن تجعل المؤسسات الديمقراطية أكثر على البقاء والازدهار ويفيد هذا الرأي في تفسير لماذا لم تظهر الديمقراطية الجماهيرية إلا مؤخرا جدا نسبيا في التاريخ؟ ولماذا المرجح أكثر أن لا نجدها حتى الآن إلا في البلدان الأكثر تقدما وتطورا من الناحية الاقتصادية، خاصة تلك البلدان التي تؤكد على قيم التعبير عن الذات أكثر مما تؤكد على قيم البقاء؟

ولكن التفسير الثاني له مضامينه المشجعة والحيطة معا. أما السبب فيه فهو أن الديمقراطية ليست بالشئ الذي يسهل بلوغه وتحقيقه بمجرد تبني قوانين صحيحة، إن المرجح تماما هو أنها تزدهر في سياقات اجتماعية وثقافية دون غيرها. ويبدو أن الوضع الثقافي الرامن للديمقراطية غير موافق نسبيا في الروسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وأرمينيا ومولدوفا

والشئ السار في هذا التفسير هو أن الاتجاه على مدى القرون الماضية كان لصالح التطوير الاقتصادي الذي يمثل عملية تسارعت وانتشرت في مختلف أنحاء العالم خلال العقود القليلة الماضية. علاوة على هذا، ينزع التطوير الاقتصادي إلى نشوء الظروف الاجتماعية والثقافية المواتية التي يمكن للديمقراطية أن تنشأ في ظلها ونمو ما طراد وتكون قادرة على البقاء. وإذا كانت النظرة محبطة بشأن واقع حال الاتحاد السوفييتي (سابق)، فإن الشكل (٧-٤) يفيد بأن عددا من المجتمعات يمكن أن تكون أقرب إلى الديمقراطية على عكس ما كان متوقعا لها في السابق. فالمكسيك

على سمدبل المثال يبدو عهداً للانتقال إلى الديمقراطية ، نظراً لأن وضعها على محور قديم ما بعد العصر الحديث بقارب كثيراً وضع الأرجنتين أو أسبانيا أو إيطاليا وثمة عدد آخر من المجتمعات يندرج ضمن منطقة الانتقال هذه من بينها تركيا والفلبين وسلوفينيا وكوريا الجنوبية وبولندا وبيرو وجنوب أفريقيا وكرواتيا .

وعلى الرغم من أن الصين تحتل موقعا متخففاً على هذا البعد، إلا أنها تعبر تجربة نمو اقتصادي سريع، والذي يبدو كما رأينا على وشك أن يحقق نقلة في اتجاه قيم التعبير عن الذات. وواضح أن أبناء النخبة الشيوعية الصينية الحاكمة ملتزمون بالمحافظة على نظام حكم الحزب الواحد، ويؤمنون بقدرتهم على تحقيق هدفهم طالما وأنهم يحفظون سيطرتهم على الجيش. ولكن الصينيين يكشفون عن استعداد مسبق في اتجاه الديمقراطية وهو ما لا يتسق مع الموقع المتدنى للصين على معدلات منظمة بيت الحرية

ويتجه التحديث على المدى الطويل إلى الإسهام في انتشار المؤسسات الديمقراطية. وأكد الحكام نوى السلطة المطلقة في بعض المجتمعات الآسيوية أن القيم الآسيوية المميزة لهذه المجتمعات تجعل منها مجتمعات غير ملائمة للديمقراطية ، (لى ١٩٩٤). والملاحظ أن شواهد الدراسات الاستقصائية عن القيم في العالم لا تدعم هذا التفسير، تاهيك عن تطور اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان على طريق الديمقراطية . ولكن هذا يفيد أن المجتمعات الكونفوشية يمكن أن تكون أكثر استعداداً مما كان معتقداً بشكل عام.

خاتمة

يؤدي التطوير الاقتصادي، على ما يبدو، إلى حدوث تغيرات ثقافية تدريجية من شأنها أن تجعل الجمهور العام نزاعاً أكثر فأكثر إلى المطالبة بمؤسسات ديمقراطية، وإلى أن يكون أكثر مساندة لها حال نشوبها، وبمثل هذه التحول ليس بالأمر السهل، كما وأنه لا يحدث تلقائياً، ذلك أن أعضاء النخبة المناهضين في عناد والمسيطرين على الجيش والشرطة يمكنهم مقاومة الضغوط للسمير في اتجاه المخرطة. ولكن التطوير يميل إلى جعل الكافة أكثر ثقة بأنفسهم وأكثر احتمالاً لأن يقومهم التطوير على الطريق لإعطاء المزيد والمزيد من الأولوية من حيث الشعور بالاستقلال الذاتي والتعبير عن النفس في كل مجالات الحياة، بما في ذلك السياسة. وهنا يصبح من العسير بل باهظ الكلفة قمع المطالبات من أجل التحرر السياسي، ومع ارتفاع مستويات التطوير الاقتصادي تبدأ الأنماط الثقافية الجديدة في الظهور، والتي يتزايد دعمها باطراد للديمقراطية. الأمر الذي يجعل الكافة أشد ميلاً للمطالبة بالديمقراطية، وأكثر حكمة ومهارة في الحصول عليها.

وعلى الرغم من أن المجتمعات الغنية أشد ميلاً إلى الديمقراطية عن المجتمعات الفقيرة، إلا أن الثروة وحدها لا تجلب الديمقراطية تلقائياً إذ لو صح هذا لكانت بلدان النفط نموذجاً للديمقراطية، ولكن عملية التحديث تنزع إلى إحداث تغيرات ثقافية تفضي إلى الديمقراطية. ولكن على المدى الطويل ستكون الوسيلة الوحيدة لتجنب نشوء وتزايد مطالبات العامة بتطبيق الديمقراطية، هي رفض التصنيع، والملاحظ أن قليلين من أبناء النخبة هم من يريدون ذلك، ومن ثم فإن المجتمعات التي تسير بالفعل على الدرب لقيام مجتمع صناعي هي التي ستواجه، على الأرجح، ضغوطاً متزايدة من أجل تطبيق الديمقراطية.

وتفيد الشواهد بأن الثقافة لها دور مهم وأكثر حسماً من أجل الديمقراطية، والذي يتجاوز ما أشارت إليه دراسات العقدين الأخيرين، ويبدو أن متلازمة قيم الثقة والتسامح والرفاه والقيم المشاركة التي كشف عنها بعد البقاء/التعبير عن الذات هي القيم الحاسمة بوجه خاص، وأن يكون بالإمكان على المدى الطويل تحقيق الديمقراطية بمجرد إحداث تغيرات مؤسسية أو من خلال مناوبات على مستوى النخبة. ذلك أن بقاها رهن القيم والمعتقدات المساندة على مستوى المواطن العادي.

المراجع

- Arnold, Gabriel . and Sidney Verba. 1983 *The Civic Culture*. Princeton . Princeton University Press.
- , 1990 , *The Civic Culture Revisited* . Boston . Little, Brown.
- Bell, Daniel . 1973 *The Coming of Post - Industrial Society*. New York . Basic
- , 1976. *The Cultural Contradictions of Capitalism* . New York . Basic
- Coleman, James S. 1968 "Social Capital: in the Creation of Human Capital " *American Journal of Sociology* 94 - 59 - 121
- , 1990 . *Foundations of Social Theory* . Cambridge . Harvard University Press
-
- Diamond, Larry, ed. 1993 *Political Culture and Democracy in Developing Countries*. Boulder . Lynne Rienner .
- Diamond, David . 1963. *The Political System*. New York . Wiley.
- Fukuyama, Francis. 1995. *Trust ; The Social Virtues and the Creation of Prosperity* . New York . Free Press
- Gibson, James L . and Raymond M. Duch. 1982 " The Origins of a Democratic Culture in the Soviet Union . The Acquisition of Democratic Values . " Paper presented at the 1982 annual meeting of the Midwest Political Science Association . Chicago
- Gibson , James L . , with Raymond M. Duch . 1984 "Postmaterialism and the Emerging Soviet Democracy " *Political Research Quarterly* 47 , no . 1 : 3 - 39
- Harrison, Lawrence E. 1985 *Underdevelopment Is a State of Mind: The Latin American Case*. Cambridge . Harvard Center for International Affairs. Lanham, Md: Madison Books.
- , 1982 *Who Prospers ? How Cultural Values Shape Economic and Political Success*. New York : Basic.
- , 1997 *The Par - American Dream : Do Latin America's Cultural Values Discourage Free Partnership ?* New York : Basic.
- Huntington, Samuel P. 1993. " The Clash of Civilizations ? " *Foreign Affairs* 72 . no 3
- , 1996 *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*. New York : Simon & Schuster.

Empire of Liberty (1997). The Great Revolution. (Champtel, Ontario, Canada: The Canadian Historical Society). Princeton: Princeton University Press.

... (1990). Culture, Society in Advanced Industrial Society. Pittsburgh: University of Pennsylvania Press.

... (1957). Modernization and Postmodernization: Culture, Economics, and Political Change in Four-Three Societies. Princeton: Princeton University Press.

Inglishart, Ronald, and Wayne Baker. 2000. "Modernization, Culture Change, and the Persistence of Traditional Values." *American Sociological Review*, February.

Lee Kuan Yew and Farouk Zakaria. 1994. "Culture is Destiny: A Conversation with Lee Kuan Yew." *Foreign Affairs* 73, no. 2: 169-176.

Lipsel, Seymour Martin. 1993. "American Exceptionalism: Reaffirmed." *Technology Review* 10.

... (1995). *American Exceptionalism*. New York: Norton.

Palmer, Richard. 1993. *Making Democracy Work: Civil Traditions in Modern Italy*. Princeton: Princeton University Press.

Pool, Tom W., and Jan I. Feldkamp. 1997. "Civil Culture and Democracy from Europe to America." *Journal of Politics* 59, no. 4: 1143-1172.

U.S. Bureau of the Census. *World Population Profile*. 1996. Washington, D.C.: Government Printing Office.

Wicks, Max. 1987. *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*. New York: Scribner.

Wolzel, Christian, and Ronald Inglehart. Forthcoming. "Analyzing Democratic Climate and Stability: A Human Development Theory of Democracy."

(A)

رأس المال الاجتماعي

فرتسيس فوكوياما

يمكن تعريف رأس المال الاجتماعي ببساطة بأنه طائفة راضية من القيم أو المعايير غير الرسمية والمشاركة بين أبناء جماعة ما، ونهيب لهم بذلك إمكانية التعاون مع بعضهم البعض. وإذا حدث ونوقع أعضاء هذه الجماعة أن آخرين سوف يسلكون على نحو أمين يمكن للركون إليه فإنهم في هذه الحالة يتقون في بعضهم بعضا. ويكون للثقة دور مادة التشجيع التي تجعل أية جماعة أو تنظيم يعمل ويدور بكفاءة أكثر.

ولكن تقاسم القيم والمعايير لا ينجح في حد ذاته رأسعلا اجتماعيا لأن القيم قد تكون خطأ مثل ذلك أن جنوب إيطاليا منطقة يجعم العالم على أنها تعتقر إلى رأس المال الاجتماعي والثقة المشتركة بين العموم، حتى على الرغم من وجود معايير اجتماعية قوية. ويروي لنا عالم الاجتماع ديبجو جامبيتا القصة التالية.

يحكي رئيس متقاعد للمافيا أنه حين كان صبيا طلب منه أبوه، وهو من أعضاء المافيا، أن يتسلق جدارا، ثم دعاه إلى القفز وأعدا إياه بأنه سيتلفه بيديه. رفض الصبي أول الأمر، ولكن إزاء إصرار أبيه قفز - ومبرعان ما سقط منطلعا أرضا على وجهه، والحكمة التي أراد أن ينقلها الأب إلى ابنه هنا

لتخصصها الكلمات التالية: يجب أن تتعلم، لا تثق في أحد حتى
وإن كان أباك أو أمك.⁽¹⁾

وتتبعز mafia بوجود قانون داخلي صارم إلى أقصى حد يحكم السلم ويسمى أوميرنا Omerta ، وأن فريق mafia بوصف بأنه رجال الشرف. بيد أن هذه المعايير لا تطبق خارج حلقة صغيرة من جماعة mafia أما المعايير السائدة في بقية مجتمع صقلية فيمكن وصفها في عبارة استغل من هم خارج أسرتك مباشرة كلما سئحت فرصة لذلك، وإلا سوف يستغلوك أنت أولاً. وكما يفيد المثال الذي حكاه جامبيتا، فإن الأمر قد يصل إلى حد أن الأسر ذاتها قد لا تكون موضع ثقة. وواضح أن مثل هذه المعايير لا تعزز التعاون الاجتماعي، لذا نجد نوثيقا لا حصر له للسلبيات التي لحقت بكل من نظام الحكم الجيد وللتطوير الاقتصادي⁽²⁾ ولقد كان جنوب إيطاليا تقليديا، وهو من أفقر أنحاء أوروبا. مصدرا للفساد المستشري الذي عصفت بالنظام السياسي في البلاد.

ونجد في المقابل أن المعايير التي تنتج رأس مال اجتماعيا لايد وأن تتضمن موضوعيا فضائل مثل الصدق، والوفاء بالعهد، والتبادلية. ولا غرابة في أن هذه المعايير تتداخل بدرجة كبيرة مع القيم البيوريتانية التي وجد ماكس فيبر أنها حاسمة في نشوء، وتطور الرأسمالية الغربية على نحو ما عرض في كتابه الأخلاق البيوريتانية وروح الرأسمالية.

ولا ريب في أن جميع المجتمعات لديها رصيد ما من رأس المال الاجتماعي، ولكن الاختلافات الحقيقية فيما بينها تتعلق بما يمكن أن نسميه بعد الثقة radius of trust. أعني بذلك أن معايير للتعاون مثل الأمانة والتبادلية يمكن تقاسمها بين جماعات محبوبة من الناس دون غيرهم في المجتمع نفسه. وواضح أن الأسر مصادر مهمة لرأس المال الاجتماعي في كل مكان.

بيد أن قوة الأواصر الأسرية تختلف من مجتمع إلى آخر، وشبان أيضا تأسيسا على أنماط أخرى للالتزام الاجتماعي. ويظهر في بعض الحالات أن ثمة ما يشبه العلاقة العكسية بين أواصر الثقة والتقابلية داخل وحجرج الأسرة. إذ حين نشهد قوة

أحدهما، يتجه الآخر إلى الضعف. مثال ذلك أن الأسر في الصين وفي أمريكا اللاتينية تتصف بالقوة والتلاحم، ولكن من الصعوبة بمكان الثقة في الغرباء، كما أن مستويات الأمانة والتعاون في الحياة العامة متدنية أكثر بكثير، والنتيجة شيوع محاباة الأقارب والفساد العام. وإن الشيء الذي جعل الإصلاح البروتستانتي مهما في نظر ماكس فيبر لم يكن أساسا أنه شجع على الأمانة والتبادلية والاقتصاد بين منظمي مشروعات الأعمال، وإنما بالأولي أن هذه القضايا بدأت ممارستها لأول مرة على نطاق واسع خارج الأسرة.

ومن الممكن تماما تشكيل جماعات ناجحة في غياب رأس مال اجتماعي مستخدمين مجموعة متباينة من آليات التآزر الرسمية مثل العقود والتراتيبات السلطوية والساتير، والمنظومات التشريعية وما شابه ذلك، ولكن المعايير غير الرسمية تقل كثيرا مما يسبب الاقتصاديون "كلفة التعامل - كلفة الرصد والتعاقد، والتقاضى. وفرض تنفيذ اتفاقيات رسمية. ويمكن في ظروف معينة أن يبسر رأس المال الاجتماعي درجة عالية من الابتكار والتكيف الجماعي.

ويحقق رأس المال الاجتماعي فوائد تتجاوز المنافع الاقتصادية. إذ إنه حاسم في سبيل إقامة مجتمع مدني صحي - الجماعات والروابط القائمة بين الأسرة والدولة. إن المجتمع المدني الذي كان محور اهتمام كبير في البلدان الشيوعية سابقا منذ سقوط حائط برلين يشكل الآن، حسيما يقال، عاملا حاسما لنجاح الديمقراطية. ويسمح رأس المال الاجتماعي للجماعات المختلفة داخل مجتمع معقد بأن تتكفل للدفاع عن مصالحها التي يمكن، بدون ذلك، أن تهملها دولة قوية النفوذ.⁽²⁾

وعلى الرغم من أن رأس المال الاجتماعي والمجتمع المدني يلقيان ثناء ومديحا كأمرين من المفيد توفرهما هي المجتمع، إلا أن من المهم أن نلاحظ أنهما ليسا مفيدين دائما. إن التآزر ضروري لجميع أنشطة المجتمع سواء جيدة أم سيئة. مثال ذلك أن جمعيات الماقيبا والكوكوكس كلان من مكونات المجتمع المدني الأمريكي ولكل منها رأس مال اجتماعي، وكلاهما أيضا ضار بصحة المجتمع الأوسع. ويمثل التآزر داخل الجماعة في الحياة الاقتصادية شرطا ضروريا لشكل من أشكال الإنتاج، ولكن

حين نغيب السقانة أو الأسوان. يظهر نعط معابر ربما ٨٠٠ مع ضرورة أنه المازر مع طائفة من أعضاء - جماعة أخرى ، ومن ثم فإن أواخر المباداة الاجتماعية التي يسمرت الإنتاج في فترة سابقة تصبح عائقا للإنتاج في فترة أخرى ثانية. كما هو الحال في كثير من الشركات اليابانية في التسعينيات. واستمرارا للصورة الاقتصادية المجازية يمكن القول إن رأس المال الاجتماعي أصبح عند هذه النقطة ناليا ويلزم خفض قيمته في حسابات رأس مال المجتمع.

وإذا كان بالإمكان استخدام رأس المال في مناسبة ما لأغراض تدميرية أو أن يصبح مبعثا مهجورا. إلا أن هذه الحقيقة لا تنفي الاعتراض الشائع أنه شيء من المفيد أن يوفر للمجتمع بعامته. كذلك رأس المال المادي ليس شيئا جيدا دائما وأبدا إذ ليس فقط لأن بالإمكان أن يصبح شيئا مهجورا. بل يمكن استخدامه لإنتاج نتائج هجومية أو عقار ثاليوميدي النوم. أو طعاما لا مذاق له وسلسلة طويلة من السيئات الاجتماعية الأخرى. ولكن المجتمعات لديها القوانين لحظر إنتاج أسوأ السيئات الاجتماعية سواء عن طريق رأس مال اجتماعي أو مادي. ولهذا لنا أن نفترض أن غالبية الاستخدامات التي ستؤول لرأس المال الاجتماعي لن تكون من وجهة نظر اجتماعية أقل جودة وصلاحية من رأس المال المادي

وهكذا كانت نظرة غالبية من استخدموا المفهوم. وأول من استخدم مصطلح 'رأس المال الاجتماعي' ليذا جودسون عديفة.ن عام ١٩٦٦ لومف مراكز المدارس الريفية في المجتمع المحلي.^{١١} واستخدم جيم جيكوب مصطلح أيضا في كتابها الكلاسيكي 'موت وحياة المدن الأمريكية الكبرى' التي قال فيه موضحا إن الشبكات الاجتماعية المترابطة التي كانت موجودة في الجوارات الحضرية القديمة شكلت صورة من رأس المال الاجتماعي الذي شجع الأمن العام^{١٢} واستخدم مصطلح رأس المال الاجتماعي أيضا كل من الاقتصادي جاين لوري وعالم الاجتماع إيفان لانت. وذلك في السبعينيات لتحليل مشكلة التطوير الاقتصادي في المدن الداخلية: حيث الأمريكيون الأفارقة يفتقرون إلى أواخر الثقة وروح الترابط الاجتماعي داخل مجتمعاتهم المحلية التي تراها موجودة لدى الأمريكيين الآسيويين وغيرهم من الجماعات العرقية. وأفاد هذا كثيرا في تفسير النقص النسبي في تطوير مشروعات

أعمال صغيرة للسود.¹³ وهي الثمانينات فنزل عالم الاجتماع جيمس كولمان¹⁴ مصطلح رأس المال الاجتماعي في استعمالات واسعة النطاق وكذلك الحال بالنسبة للعالم السياسي روبرت بوتنام. وأثار بوتنام جدلاً واسعاً ومكثفاً حول دور رأس المال الاجتماعي والمجتمع المدني في إيطاليا والولايات المتحدة.

كيف نقيس رأس المال الاجتماعي؟

لم يسعد لا علماء الاجتماع ولا علماء الاقتصاد بانفساز استخدام مصطلح رأس المال الاجتماعي إذ يراه علماء الاجتماع جزءاً من محاولات الاقتصاديين واسعة النطاق تعزو العلوم الاجتماعية ويراه الاقتصاديون مفهوماً غامضاً من الصعب إن لم يكن من المستحيل قياسه. والحقيقة أن قياسه يجعل رصد العلاقات الاجتماعية وتعاونية الميزة على معايير الأمانة والتبادلية ليس بالهمة البتلة

وأكد روبرت بوتنام في كتابه تفعيل الديمقراطية أن شدة معامل ارتباط بين نوع تحكم في مختلف مناطق إيطاليا ورأس المال الاجتماعي، وأن رأس المال الاجتماعي أخذ في الانحطاط في اتومات المتحدة منذ ستينات القرن العشرين. ويوضح كتابه بعض الصعاب المتضعة في عملية قياس رأس المال الاجتماعي والتي استخدم فيها نظير من التقديرات الإحصائية. النقط الأولى معلومات عن جماعات وأعضاء الجماعة ابتداء من النوادي الرياضية وجمعيات الفرق الموسيقية وحتى جمعيات المنصالح والأحزاب السياسية هذا علاقة على مؤشرات المشاركة السياسية مثل الإقبال على الاقتراع والحرص على قراءة الصحف. وتوجد، بالإضافة إلى ما سبق، دراسات استقصائية تفصيلية عن استثمار الوقت وغير ذلك من مؤشرات توضح كيف يقضي الناس عملها ساعات مسجولهم. والنمذ الثاني من البيانات بحث استقصائي مثل المسح الاجتماعي العام (عن الولايات المتحدة) أو الدراسة الاستقصائية عن القيم في العالم (وتشمل أكثر من ستين بلداً في العالم) وتقوم على ترجبه سلسلة من الأسئلة تتعلق بالقيم والسلوك.

ودار صراع حامي الوطيس ضد التأكيد على أن رأس المال الاجتماعي الأمريكي أخذ في التدهور على مدى الجيلين الأخيرين ، وأشار باحثون عديدون إلى معلومات مناقضة توضح أن الجماعات وأعضاها تزايدوا عمليا على مدى الجيل الأخير ، هذا بينما أكد آخرون أن البيانات المتاحة لا تستوعب واقع حياة الجماعة في مجتمع محدد مثل الولايات المتحدة^(٨)

ولكن إلى جانب مسألة إمكانية عمل تقدير شامل للجماعة وأعضائها، توجد على الأقل ثلاث مشكلات أخرى تتعلق بعملية القياس بالنسبة لهذا النهج. أولاً، رأس المال الاجتماعي له بعد كينفي مهم. إذ كما أشار توكفيل، على الرغم من أن نوادي البولنغ أو النوادي العادية يمكن أن تكون مدارساً للتعاون وتنشيط الروح العامة، إلا أنها كما هو واضح مؤسسات شديدة الاختلاف عن فرق المارنيز في الولايات المتحدة أو كنيسة المورمون من حيث أنواع ما يفرسونه من نشاط جمعي. إن أقل ما يقال عن نادي البولنغ أنه لا يستطيع اقتسام منطقة ساحلية. ومن ثم فإن قياس رأس المال الاجتماعي بطريقة ملائمة وكافية تستلزم أن نضع في الحسبان طبيعة النشاط الجمعي الممكن للجماعة: الصعوبة الجوهرية، قيمة منتج الفريق، وما إذا كان بإمكانه النهوض بالمهمة في ظروف معاكسة. الخ

المشكلة الثانية تتعلق بما يمكن أن يسميه رجل الاقتصاد الأثار الخارجية الإيجابية لأعضاء الجماعة، أو ما يمكن أن نسميه نحن البعد الإيجابي للثقة. إن على الرغم من أن كل الجماعات تحتاج إلى رأس مال اجتماعي للعمل، إلا أن بعضها يؤسس فواصر للثقة (ومن ثم رأس مال اجتماعي) خارج مجال العضوية. وأشار ماكس فيبر في هذا الصدد إلى أن البيوريتانية أكدت على الأمانة ليس فقط مع أبناء الجماعات الدينية الأخرى، بل مع البشرية جمعاء. ونجد من ناحية أخرى أن معايير التبادلية يمكن تقاسمها فقط بين فئة ثانوية صغيرة من أعضاء الجماعة. ولكن إذا تحدثنا عن أعضاء جماعة كبيرة مثل الرابطة الأمريكية للمتقاعدين، والتي تضم أكثر من ثلاثمائة مليون عضو، لا نجد سبباً للتفكير في أن أي عضوين منها سوف يتفان في بعضهما أو سوف يحققان عملاً مشتركاً بالتعاون والتنسيق فيما بينهما لجرد أن كلا منهما سدد المستحقات السنوية للمنظمة نفسها التي ينتسبان إليها.

وتتعلق المشكلة النهائية بالآثار الخارجية السلبية .. إذ تُعَمد جماعات تعمل بنشاط من أجل شيوخ التعصب والكراهية، بل والعنف تجاه من ليسوا أعضاء فيها. مثال ذلك أنه على الرغم من أن جماعة كوكلووكس كلان وأمة الإسلام وميليشيا مينشيغان يتمتعون برأس مال اجتماعي، إلا أن مجتمعاً مؤلفاً من هذه الجماعات لن يستهوى نجاحاً، بل ربما يكف عن أن يكون ديمقراطياً. والملاحظ أن هذه الجماعات تعاني من مشكلات خاصة بالتعاون مع بعضها، ولعل الأواصر الرحيمة التي توحد مجتمعها المحلي من شأنها أن تجعلها أقل استعداداً للتكيف بالحيولة بون التأثير في البيئة المحيطة

ويجب أن يكون واضحاً أن إدراك عدد مقبول يعبر عن رصيد رأس المال الاجتماعي لمجتمع كبير ومعقد مثل الولايات المتحدة يمثل أقرب إلى المستحيل، إن لدينا بيانات تجريبية لها مصداقية متفاوته تتعلق فقط بفئة ثانوية من الجماعات الفاتحة فعلاً، ولا يوجد إجماع على وسيلة الحكم على الاختلافات النوعية فيما بينها.^(٩)

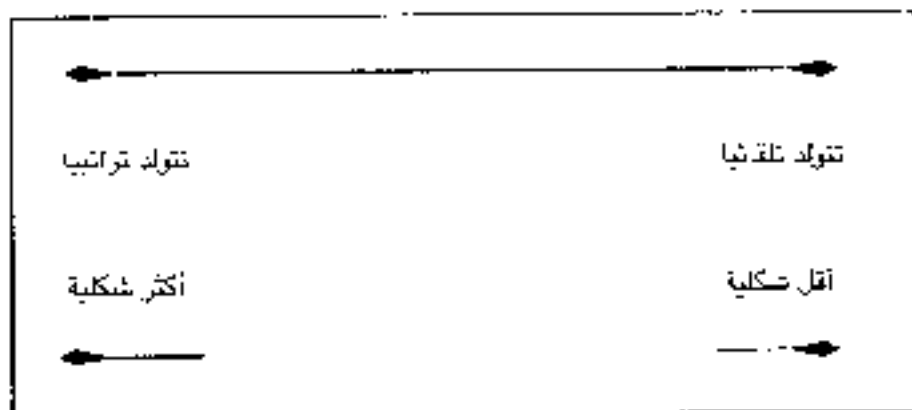
ويمكن بالمقابل، بدلاً من قياس رأس المال الاجتماعي كقيمة إيجابية أن نقيس، وهذا هو الأسير، غياب رأس المال الاجتماعي عن طريق تفسيرات تقليدية للأعمال الضارة بالمجتمع مثل معدلات الجريمة، والانهيار الأسري، واستخدام العقاقير المخدرة والانتحار، والنهرب الضريبي، وما أشبهه والافتراض هنا ما يلي حيث إن رأس المال الاجتماعي يعبر عن وجود معايير للتعاون، فإن الانحراف في حد ذاته يعبر عن الافتقار إلى رأس مال اجتماعي. وإن المؤشرات الدالة على الاختلال الوظيفي للمجتمع مدفورة وأكثر كثيراً من المعلومات عن أعضاء الجماعات ومناخ في صورة مقارنة.

ولكن ثمة مشكلة واحدة وشديدة الخطر إزاء استخدام المعلومات عن الاختلال الوظيفي الاجتماعي كمقياس سلبي لرأس المال الاجتماعي. وهذه المشكلة هي أن المعلومات لا تخضع لمبدأ التوزيع، إذ من المعروف أن رأس المال موزع بطريقة غير مستوية داخل المجتمع (على نحو ما يبين من دراسات قياس رأس المال على أساس

توزيع الثروة أو الدخل) لذلك فإن من المرجح أن رأس المال الاجتماعي غير موزع بصورة متساوية - إذ ثمة شريحة تتصف بروح عالية في المشاركة الاجتماعية، ويمكن أن نجد مجموعات منغلقة ذاتية موجودة في الوقت ذاته مع جيوب تتصف بالتشتت المفرط أو بنمراض اجتماعية.

أصل الأخلاق

رأس المال الاجتماعي ليس كما هو البعض أحياناً، كنزاً ثقافياً نادراً توارثته الأجيال جيلاً بعد جيل بحيث لو فقد استحال استرداده، ولعل الأصوب أنه نشأ بلغانياً على امتداد الزمن من خلال البشر وهم يمارسون حياتهم اليومية - لقد نشأ في المجتمعات التقليدية، ويتولد في المجتمع الرأسمالي الحديث من خلال الممارسات اليومية للأفراد والمؤسسات



شكل ٨ - متصل من المعيار

ونمثل الدراسة المنهجية عن كيفية ظهور النظام، ومن ثم رأس المال الاجتماعي، بطريقة تلقائية ولا مركزية واحدة من أهم التطورات الفكرية في أواخر القرن العشرين وقاد المسيرة الاقتصاديون - ولا غرابة في ذلك، إذ عرفنا نظام المراكز

الاقتصادية حول الاسواق - التي هي في حد ذاتها أفضل أمثلة على النظام التلقائي ، ونعرف أن فريدريك فون هابك أول من وضع حجر الأساس لبرنامج دراسة ما سماه 'النظام المتعدد التعاون البشري' أي يجعل جميع القواعد والمعايير واتقهم والسلوكيات المشددة التي تهيئ للأثرياء إمكانية العمل معا في مجتمع رأسمالي^(١٠)

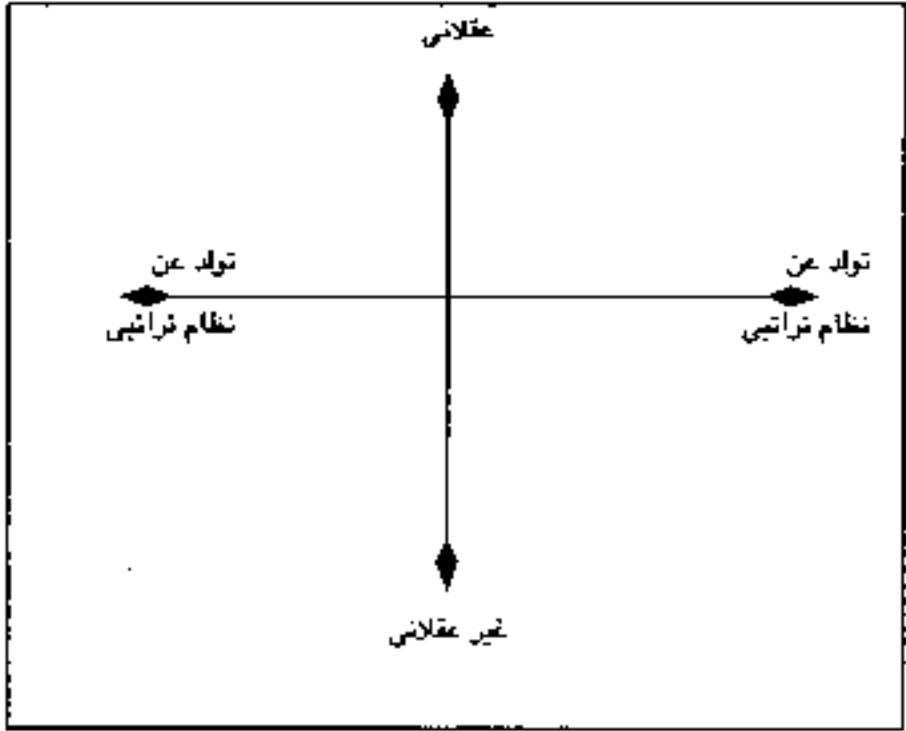
وليس هناك من ينكر أن النظام الاجتماعي نشأ غالبا في صورة تراتبية. ولكن من المفيد أن نتبين أن النظام يمكن أن ينشأ من مجموعة مصادر ممتدة من أتماط سلطة تراتبية ومركزية إلى تفاعلات الأفراد التلقائية وغير المركزية للخابة [الشكل ٨ - ١ يوضح هذا المتصل] .

ويكز النظام التراتبي أن يأخذ أشكالاً كثيرة ابتداء من الشكل المغارق (مثال سوسى الذي نزل من فوق جبل سيناء حاملا الوصايا العشر) - وحتى الشكل الدنيوى كأن نعلن هيئة الإدارة العليا عن نظام جديد بحكم العلاقات بين العملاء. كذلك فإن النظام العفوى له أصول عديدة ومتنوعة نشأ عنها ابتداء من التفاعل العرضي بين قوى الطبيعة ، حتى المفاوضات محكمة التنظيم بين رجال قانون بشأن حقوق انبياه الجوفية ، والملاحنة بوجه عام أن المعايير التي تنشأ عفويا أميل إلى أن تكون غير شكمية - بمعنى أنها غير مسطوية ولا مغلقة - بينما المعايير والقواعد التي تنشأ عن مصادر تراتبية للسلطة أميل إلى أن تأخذ شكل القوانين أو الدساتير أو اللوائح أو الدصوص المقدسة أو بيان التنظيم البيروقراطى وجميعها مكتوبة. ونجد في بعض الأحيان الحدود الغامضة بين النظام العفوى والنظام التراتبي غير واضحة مثال ذلك أن القانون العام في الملان المتحدثة بالإنجليزية كبريطانيا والولايات المتحدة، تطور تلقائيا من خلال تفاعل العديد والعديد من الفضة والحامين. ولكن من المقرر أيضا أنه ملزم تنسيما على النظام للقضائي الرسمي

ويمكن أن نرسم ههنا متصل آخر للمعايير الناتجة عن الاختيار العقلاني والمعايير الموروثة اجتماعيا ولا عقلانية في منشأها هذا إلى جانب رسم مصفوفة المعيير الاجتماعية ، لمشار إليها سابقا على امتداد متصل يبدأ من القواعد التراتبي وحتى القواعد العفوى ، إننا تقاطع المحوران أمبينان في الرسم شكل ٨ - ٢. تنتج لنا

مصفوفة رباعية لأربعة أبعاد مختلفة من المعايير. وجدير بالملاحظة أن كلمة عقلاني المستخدمة هنا تشير فقط إلى أن المعايير البديلة توفقت بوعي وفورنت قبل ذلك بزمان ومن الواضح أن الحوار العقلاني يمكن أن يؤدي إلى اختيارات رديئة لا تخدم المصالح الحقيقية لمن وضعوها، بينما يمكن لمعايير لاعقلانية أن تكون عمية تماما على نحو ما نجد المعتقدات اللاعقلانية التي تدعم النظام الاجتماعي أو النمو الاقتصادي.

ويتطابق هذا التمييز بين العقلاني وغير العقلاني من نواح كثيرة مع الحد المبحثي الفاصل بين علم الاجتماع والاقتصاد. إذ إن علم الاجتماع في نهاية الأمر يبحث مخصص لدراسة المعايير الاجتماعية. ويفترض علماء الاجتماع أن البشر إذ يكبرون ويتزوجون إنما يشعرون اجتماعيا داخل سلسلة كاملة من الأنوار والهويات - كاثوليكي أو عامل أو مشرف أو أم أو بيروقراطي - وتحدد هذه السلسلة متواليات من المعايير والقواعد المركبة. وتعمل هذه المعايير على تقوية أو إضعاف المجتمعات التي تمرزها بقوة أيضا، وتفرض قيودا صارمة على الاختيارات التي يمكن للناس أن يؤثرونها في حياتهم.



شكل ٨ - ٢ عالم المعايير (أ)

رؤى نافذة للاقتصاديين

أولى الاقتصاديون على مدى الجيل الماضي اهتماما متزايدا لأهمية المعايير والقواعد في الحياة الاقتصادية ، وأوضح رونالد هينز أننا كبشر لا نستطيع أن نتخذ قرارات عقلانية مع كل ما يعرض لنا في حياتنا اليومية. إذ لو فعلنا ذلك سيصبح سلوكنا سلوكا يتعذر الفتيق به، كما سيصعب حياتنا بالشكل ما دعنا لا تكف عن حساب وتقدير ما إذا كنت أذفع بقشيشا للنادل وكم، أو أناقش سائق سيارة الأجرة بشأن الأجر المطلوب، أو أن أدخر مبلغا غير المبلغ الذي اعتدت أن أودعه كل شهر في

حساب المقاييس⁽¹¹⁾ والهدفه أن الشيء العقلاني بالمسئله للبشر هو أن يفرضوا قواعد دستبطية على سلوكهم حتى وإن لم تكشف هذه القواعد رائفه من قرارات صائبة في كل حالة ذلك لأن عملة انه اذا اقرار عملية مكلفة في ذاتها وعالبا ما تسنلزم معلومات غير متاحة أو مغلوطة

إن المسحق الثاني في عم الاقتصاد عن النزعة المؤسسة الجديدة يدور كله حول ملاحظة أن القواعد والمعايير حاسمة بالنسبة للسلوك الاقتصادي العقلاني. وإن ما يسميه المؤرخ الاقتصادي دوجلاس نورث مؤسسه هو معيار أو قاعدة. رسعية أو غير رسمية، حاكمة للتفاعل الاجتماعي البشري⁽¹²⁾ ويوضح أن المعايير حاسمة من أجل خفض كلفة التعامل. إذ لو لم تكن لدينا معايير تسنلزم كمثل احترام حقوق الملكية، فسوف تضطر إلى أن نبحث ونفروض بشأن قواعد الملكية على أساس كل حالة على حدة. وظيفي أن وضعها كهذا قد لا يؤدي إلى تبادل سوقي أو استثمار ولا إلى نمو اقتصادي

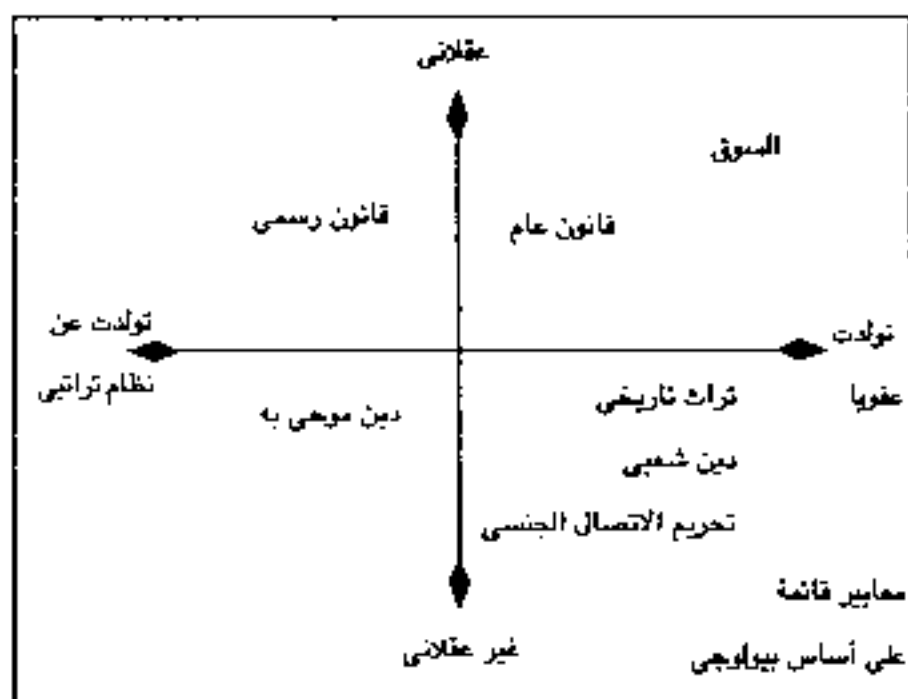
وهكذا، لا يختلف الاقتصاديون عن علماء الاجتماع في التأكيد على أهمية المعايير إنهم يختلفون فقط من حيث تصورهم المنحصى لقدرةهم على تقديم تفسير للأصول التي نشأت عنها المعايير والقواعد، ولكن علماء الاجتماع (وكذا علماء الأندروبولوجيا) أفضل كثيرا في وصف المعايير الاجتماعية منهم في تفسير كيف أصبحت على هذا النحو. إن الملاحظ أن الكثير من العروض الاجتماعية ترسم صورة استاتيكية للغاية عن المجتمع البشري. ويرون على سبيل المثال أن الضبية من الطبقات الدنيا في السجالات الإبطالية داخل نيويورك يتشاركون في نشئتهم الاجتماعية بخطوط جماعة الأقران للانضمام إلى العصابات

بيد أن هذا الضرب من التأكيد بشر سؤاله عن من أين نشأت في البداية معايير جماعة الأقران. إن بإمكاننا تتبعها جيلا أو جيلين في الماضي، ولكننا سنجد أنفسنا في النهاية صفر الديدن من أي دليل عن الأصول البعيدة لنشأتها. وسبق أن ظهرت ذات يوم مدرسة وظيفية في علم الاجتماع والأندروبولوجيا، والتي حاولت استكشاف أسباب نغمة عقلانية تفسر أشد القواعد الاجتماعية عمارة وشذوذا. مثال ذلك انه

عزت محريم الهدوس أكل لحم البقر إلى أن السقر في واقع الحياة من المصادر التي يتعين حمايتها من أجل استخدامات أخرى مثل الحرث وإنتاج اللبن. ولكن ما لم يكن بالإمكان تعسيره هو لماذا مسلمو الهند، الذين واجهوا نفس الظروف الإيكولوجية والاقتصادية يأكلون لحم البقر باستمناح شديد، أو لماذا استمر التحريم راسخا عندما كان بإمكان شركة ماكدونالد في الهند أن تستورد كل لحم البقر اللازم لها من أستراليا أو الأرجنتين.

وحننا الاقتصاديون خطوات أكثر بعد أن كانوا في السنوات الأخيرة لا يستشعرون خجلا من استخدام منهجهم في تفسير جوانب أوسع من السلوك الاجتماعي. ويوجد فرع منطوق في الاقتصاد - نظرية اللعب - يحاول تفسير كيف نشأت المعايير والقواعد الاجتماعية. ولا ينكر الاقتصاديين - كما لاحظنا في السابق، أن النشاط البشري تقيد وتحككه قواعد ومعايير من كل الأنواع، ولكن كيفية توصيل البشر إلى هذه المعايير هي في رأيهم عملية عقلانية، ومن ثم قابلة للتفسير.

ونوخيا لمزيد من التبسيط تبدأ نظرية اللعب الاقتصادية من مسحة تفيد بأننا ولدنا في العالم أفرادا منعزلين ولدى كل جزم من الرغبات أو التفضيلات الذاتية وليس بمجموعات من الروابط والالتزامات الاجتماعية تجاه بعضنا البعض، بيد أنه في حالات كثيرة يمكننا إشباع هذه الرغبات على نحو أكثر فعالية إذا ما تعاوننا مع آخرين، ومن ثم ننتهي بوضع معايير تعاونية بناء على تفاهم متبادل لكي نحكم التفاعلات الاجتماعية. ويمكن للناس في ضوء هذا التفسير أن يعملوا على أساس من الغيرية. ولكن فقط بعد حساب ذلك على مستوى ما، والتأكد من أن الغيرية مفيدة لهم (مع افتراض أن الآخرين سوف يلتزمون السلوك الغيري أيضا) وتحاول الرياضيات التي تركز عليها نظرية اللعب أن تفهم الخطط البعيدة (الاستراتيجيات) التي يتحرك الناس على مديها من المصالح الذاتية إلى النواتج التعاونية.



شكل ٨ - ٢ عالم المعايير

وإذا حاولنا تجديد مواقع أنماط مختلفة من المعايير داخل الشكل الرباعي السابق، فسوف ننتهي إلى شيء يشبه شكل ٨ - ٣.

نجد كمثال معايير ساحات تجمع السيارات تدخل في المربع العقلاني الخاص بالتولد الثقافي، معنى هذا أن القواعد تطورت وفق نظام لامركزي، ولكن، كما هو مفترض، بعد نقاش ومحاولة وخطأ من جانب المشاركين. ويندرج القانون الرسمي، سواء صدر عن نظام ديكتاتوري أم ديمقراطي، في المربع الفرائسي العقلاني، على نحو ما هو الحال بالنسبة لكتابة الدستور والهندسة الاجتماعية وكل الجهود الأخرى الرامية إلى توجيه المجتمع من القمة ولكن نجد من ناحية أخرى أن القانون العام تولد كما تولدت قواعد ساحة السيارات، ثقافتيا وعقلانيا. والملاحظ أن بعض الأدبانات الشعبية (مثل الطاوية والشنتوية في شرق آسيا) والممارسات الثقافية شبه الدينية

ربما تطورت بطريقة لا مركزية ولا عقلانية. لذلك فإن هذه الأشكال من المعايير الدينية تندرج في أسفل الربع الأيسر والربع الأيمن على الترتيب. وأخيراً ثمة معايير معينة تُنسبت لأسباب بيولوجية وتندرج بشكل واسع داخل الربع الخامس بالمعايير التي تولدت عفويا ولا عقلانيا. مثال ذلك تحريم الاتصال الجنسي بالمحارم المشار إليه في هذا الربع، ونشير أحداث البحوث إلى أن تحريم الاتصال الجنسي بالمحارم عند البشر تقليد متبع، ولكنه مع هذا يستند إلى مشاعر تفوق طبيعية يشعر بها البشر إزاء نشوء علاقات جنسية بين الأقارب المقربين جدا.

ولنا أن نفترض أسوة بكثيرين آخرين، أنه مع تحديث المجتمعات تكون نشأة المعايير أقل في الربع الأيمن منها في الربع الأيسر، خاصة في الربع الأعلى الأيسر (أي بواسطة السلطة الحاكمة) وإذا تأملنا المصطلحات التي ارتبطت بالتحديث على لسان علماء اجتماع من أمثال هنري مين وماكس فيبر، وإميل دوركايم، وفرديناند تونيس - وهي العقلنة و « الروتنة » أو شيوع البيروقراطية، والانتقال من الوضع إلى العقد - نجد أنها جميعا تشير إلى أن السلطة التشريعية العقلانية والرسمية هي التي كانت لها الغلبة والهيمنة في الدولة وأنها هي المصدر الرسمي للنظام في المجتمعات الحديثة. ولكن كل من حاول الخوض في أدغال القواعد المكتوبة بشأن علاقات الجنوسة المعايير الثقافية للتمييز بين الجنسين داخل مصنع أمريكي حديث أو مدرسة يعرف أن المعايير غير الرسمية لم تختف في الحياة الحديثة وليس من المرجح أن تختفي في المستقبل.

ونظرا لأن الناس أميل إلى أن يكونوا أكثر وعيا وإدراكا بالمعايير الصادرة عن سلطة تراثية مما هو الحال بالنسبة إلى النظام الممتد للتعاون البشري الذي قال به هايك، فإن من المفيد أن نتأمل مليا الربعين الموجودين على الجانب الأيمن من شكل ٨-٢. إذ سنبدأ هنا فهم مدى وحدود النظام العفوي. لقد أصبحت عبارة التنظيم الذاتي عبارة مبتذلة تجرى على ألسن الجميع، ليس فقط علماء الاقتصاد والبيولوجيا، بل أيضا على لسان أباطرة تقانة المعلومات ومستشاري الإدارة وأساتذة مدرسة قطاع الأعمال. ولكن بالإمكان أن تظهر فقط في إطار ظروف مميزة ومحددة، دون أن تكون صيغة كمية وشاملة لتحقيق التآزر بين الجماعات البشرية.

قواعد للمجموعات

الملاحظ على مدى الجيل اناضى أن أكثر عدد من الدراسات النظرية والتجريبية عن النظام العقوى صدرت عن عم الاقتصاد والمجالات ذات الصلة مثل القانون والاقتصاد والاختيار العام. وكان الكثير من الدراسات الأولى من هذا النوع تنصب على منشأ معايير تتعلق بحقوق الملكية⁽⁴⁷⁾ وإن ما يسمى موارد التجميع المشتركة التي نتقاسمها المجتمعات، موارد مثل المراعى والمرايد والغابات والمياه الجوفية والهواء. تشكل بوجه خاص مشكلات صعوبة إزاء التعاون نظراً لأنها تخدم لما يسميه جاريت هاردين نراجيديا المشتركة⁽⁴⁸⁾ إذ أكد هاردين أن نراجيديا المشتركة أفضت إلى كارثة اجتماعية بسبب الإفراط في صيد الأسماك من البحار. والإسراف في استهلاك المراعى. وذهب إلى أن مشكلة تقاسم موارد مشتركة يمكن حلها فقط عن طريق سلطة ترابية مما يفترض قيام دولة متلاحمة أو هيئة فوق قومية مسؤولة عن التنظيم.

وفي مقابل هذا النهج نلغضم على السلطة الترابية في دراسة تولد المعيير. اقترح عدد من الاقتصاديين نهجا آخر أكثر عقوية. ويعتبر مقال رونالد كوز مشكلة الكلفة الاجتماعية التي كثيراً ما يتكرر اسمها في المصدر الأول والربحى لكل مبحث القانون والاقتصاد. ويؤكد كوز في مقاله أنه حين تكون كلفة التعامل صغراً فإن أي تغيير في القواعد الرسمية للمصادفة لن يكون له تأثير على تخصيص الموارد⁽⁴⁹⁾ وطبيعى أن المشكلة في تطبيق فرضية كوز على مواقف عائم الواقع هي أن كلفة التعامل تكاد لا تكون صغراً أبداً. إذ المعداد أن الأفراد الذين يعملون بشكل شخصى يتحملون كلفة الوصول إلى انقافات متصفاً مع بعضهم البعض، خاصة حين يكون أحدهما موضوعياً أغنى. أو أكثر سلطة من الآخر.

ونلحظ من ناحية أخرى أن كلفة التعامل ظلت منخفضة كثيراً في حالات كثيرة حتى أن الاقتصاديين استطاعوا تحديد عدد من الحالات المثيرة للاهتمام عن التنظيم الذاتى، والتي نشأت فيها المعايير الاجتماعية خلال عملية من القاعدة إلى القمة ويصف روبرت سوجدن قواعد تقاسم الخشب الذى تجرفه المياه إلى السواحل

الإنجليزية حيث الحصاد لأول الغارمين ولكن سريره ان يكون كمنه مواضع¹¹¹ ويعلم لنا روبرت اليكس عدا عن الأسئلة عن القواعد الاقتصادية العفوية. من ذلك ان صاندي الحيتان الأمريكيين في القرن التاسع عشر غالباً ما كانوا يصدر زراعات سببها أن سفينة ما يصطاد حوتا بحرية الصيد، ولكنه يفلت منه لتصطاده وتبيعه سفينة أخرى لم يبدل جهدا ولا وقتا لاصطاده وهذا استحدث صاشر الحينن مجموعة شائعة ويغير رسمحة من القواعد لتنظيم هذه المواقف وتقسيم الصيد بالتساوي¹¹²

ويظهر لنا ان القدر الأكبر من الدراسات عن النظام العفوي يظل عليها ظام الحكايات، ولا يعطينا مسورا جيدا للكيفية التي نشأت بها فعلا المعايير الجديدة بطريقة لا مركزية ولكن دراسة أسور أوستروم تمثل استثناء من هذا إذ جمعت أودوم أكثر من 5000 حالة دراسة من وزارة النجمعات المشتركة، وهو عدد كاف سمح لها بأن تستهل عمل تعميمات متنوعة تجريبيا عن الظاهرة¹¹³ وانتهت إلى تنبحة عامة تفيد بأن المجتمعات البشرية اهدت في أوقات وأماكن مختلفة إلى حلول لمسألة المشركات أكثر مما كان متوقعا في الغالب ولم تتضمن أكثر هذه الحلول لا تحويل الموارد المشتركة إلى ملكية خاصة (الحل الذي يفضل أكثر الاقتصاديين) ولا ان تنولي الدولة مهمة التنظيم (الحل الذي يفضل غير الاقتصاديين) وإنما استطاعت المجتمعات أن يبتكر قواعد غير رسمية، أو رسمية أحيانا، لاقتسام الموارد المشتركة بطريقة مسهفة ولا تؤدي إلى استنزاف الموارد قبل الأوان ويتيسرت هذه الحلول بفضل الشرط الذي يجعل مفضلة السجين ذات الوجهين سهلة الحز التكرار، بمعنى أنه إذا عرف الناس أنهم مضطرون إلى الاستمرار في العيش معا داخل مجتمعات لها عيودها ونظامها يحدث يلقى التعاون المتصل بكافة أجزاء، هنا سمدرك لديهم اهتمام ومصلحة إذا سمعتهم هم كما سمدرك اهتمام ومصلحة إذا مراقبة ومعاقبة عن ينتهكون قواعد المجتمع

ويبدو واضحا من دراسة إليور أوستروم وآخرين أن النظام العفوي لا يحدث إلا في ظروف معينة ومحددة جيدا، وأنه في حالات كثيرة إما أن يفشل ولا يتحقق

عملياً أو يفضى إلى حالات ليست حيراً من وجهة نظر المجتمع في مجموعه. وتشير أوستروم إلى أن هناك حالات كثيرة لجهود فاشلة إذا أخفقت في تأسيس معايير لاقسام موارد التجمع المشترك. وكفقد شروطها بشأن التنظيم الذاتي بوجود عديد من الأسباب التي تفسر لماذا لا تكون المجتمعات دائماً قادرة على التوصل إلى حلول النظام العفوي.

العجم: أوضح مانكور أولسون أن مشكلة الشخص المتسلق تصبح أكثر حدة كلما ازداد حجم الجماعة، إذ يصبح من الصعب أكثر مراقبة سلوك أي فرد وحده، إن عدا من الأطباء الأخصائيين أو عددا من المشاركين في مؤسسة قانونية يمكنهم على الأرجح أن يعرفوا إذا كان أحدهم لا يبذل الجهد اللازم أسوة بهم ولكن لا يصدق الشئ ذاته لاكتشاف عامل في مصنع يضم ١٠.٠٠٠ عاملاً علاوة على هذا، فإن المنظومة تبدأ في التفكك حين يزداد حجمها أكثر من اللازم. ويصبح عسيراً أن نقرن الوجود بالسمة، كما أن المراقبة والتنفيذ تزداد كلفتها وتخضع لوفورات الحجم التي تفرض تحدياً أعضاء بذاتهم من الجماعة للتخصص في هذه الأنشطة.

الحدود: لكي يتحقق النظام العفوي في الواقع يكون من المهم وضع حدود واضحة بشأن عضوية الجماعة. إذ لو كان بإمكان الناس أن يدخلوا ويخرجوا من عضوية الجماعة حسيب رغبتهم أو إذا لم يكن واضحاً من هو العضو (ومن ثم من له حق الاستفادة من الموارد المشتركة للجماعة) سوف يشتمل الحافز لدى الأفراد للاهتمام بسمعتهم. ويفسر ذلك، بين أمور أخرى، لماذا تعيل معدلات الجريمة إلى الارتفاع، ويميل رأس المال الاجتماعي إلى الانخفاض في المجاورات التي لا تتوفر فيها صفات البقاء والنوام مثل المجاورات التي تتعرض لتغيرات اقتصادية سريعة أو تلك المتاخمة لخطوط السكك الحديدية أو محطات الأتوبيس.

التفاعل المتكرر: إن أكثر المجتمعات التي درستها إلبنور أوستروم والتي نجحت في حل مشكلات موارد التجميع المشتركة هي مجتمعات تقليدية، إذ أن هذه المجتمعات عملياً ليس بها حراك اجتماعي أو اتصال بالعالم الخارجي، مثل مجتمعات القرى الجبلية ومزارع الأرز والصيدن وغيرهم، ذلك لأن الناس يهتمون بسمعتهم فقط إذا عرفوا أن عليهم مواصلة التعامل مع بعضهم البعض ولفترة طويلة قادمة.

المعايير السابقة على تأسيس الثقافة. تُأسيس معايير للتعاون غالبا ما يعترض وجود مجموعة من المعايير المسبقة يشترك في الإيمان بها أعضاء الجماعة. وتوفر الثقافة فاموسا مشتركا ليس مزلقا فقط من كلمات. بل من إشارات باليد أيضا. وتعبيرات بالوجه، وعادات شخصية تكشف عن النوايا. وتساعد الثقافة الناس على تعيين المتعاونين من المخادعين، وعلى نقل قواعد سلوكية تجعل من السهل التنبؤ بتصرفات الأفراد داخل المجتمع. وتتوفر لدى الناس رغبة كبيرة في المطالبة بعقاب من ينتهكون القواعد التي تنص عليها ثقافتهم على عكس الحال بالنسبة لانتهاك قواعد ثقافة الآخرين

القوة والعدل : كثيرا ما تعكس المعايير الاجتماعية في الرسبة قدرة جماعة ما على الهمينة على غيرها بفضل تفوقها من حيث الثروة أو القوة أو الطاقة الثقافية، أو القدرة العقلية أو من خلال العنف المباشر والإكراه ويمكن اعتبار معايير اجتماعية بذاتها معايير غير عادلة حتى وإن كانت مقبولة طوعا واختيارا من المجتمعات الممارسة لها، مثال ذلك المعايير التي تبرز الاسترقاق أو تبرر تبعية المرأة للرجل

ثبات الاختيارات السببية : تظهر المعايير إلى الوجود حتى وإن كانت غير عادلة أو غير منتجة أو عديمة الكفاءة، وهما يمكن للمرء أن يؤكد أنها سوف تختفي تلقائيا لسبب محدد، وهو أنها لا تخدم مصالح المجتمعات الممارسة لها. وكثيرا ما تطالع في الدراسات عن القانون والاقتصاد افتراضا تطوريا صريحا يفيد بأن كل ما يتحقق له البقاء يكون ملائعا وصالحا بمعنى ما، ولهذا يحدث مع الزمن تطور في اتجاه ما هو كفو وفعال. ولكن المعايير الشريرة أو عديمة الكفاءة أو غير المنتجة يمكنها أن تبقى في منظومة اجتماعية على مدى أجيال بسبب نفوذ التقليد والتراث والتنشئة الاجتماعية والتعاثر.

إن رأس المال الاجتماعي يمكن أن يتولد عفويا داخل الجماعات الصغيرة والمستقرة نسبيا حيث يبلغ عدد المشاركين فيها مائات أو في بعض الحالات بالآلاف. ويمكن أيضا أن يظهر وسط مجتمعات ذات تعداد سكاني ضخم بها مسبقا حكومة وسيادة قانون ويكون هنا في الحقيقة فتاج سهم لسيادة القانون. ولكن حين تصبح

الجماعات عفوية النساء جماعات كبيرة جدا يصعب العزب من مشكلات المصالح العامة أمرا غير محتمس (مذات) من الذي سر، انفس قواعد العمل، ومن سيراقب المسالفة، ومن الذي سر، ولي مهمة فرض المعايير وما أشبهه). والملاحظ أن القائمة التي أعدها النور أوستروم بالقواعد الخاصة بـ الموارد التجميع المشتركة تتضمن الثقافة مبدوءة بحرف صغير - مما يعني قواعد بسيطة لاجتماعات صغيرة لا نقرنها عادة بالمعلومات الثقافية الكبيرة والمهنة وواضح أن الدراسات عن النظام العفوي لا تستطيع أن تفسر نشوء المعايير التي تطبق على الجماعات كبيرة الحجم - للأمم أو الجماعات العفوية العرفية، أو الحضرات. أما كلمة الثقافة المبدوءة بحرف كبير - سواء ثقافة اسلامية أو عنديسية أو كونفوشية أو مسيحية - فليست لها جذور عفوية

وغيره بالذكر أن نموذج شكل 8 - 6 المؤلف من أربعة أرباع ما هو إلا إطار تصنيفي لكي نبدأ في التفكير لكي نعرف من أين صدر حقيقة رأس المال الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة. وواضح أن آراء الناس بشأن مصدر معايير الفنون آراء مصبوغة إلى حد كبير بالاختيارات أيديولوجية وكثافتها تشير من أن كان يجب أن مصدر إذ يغفل المحافظون المتشددون أنه من الأولى أن تصدر عن اليمين وعن مصادر أخرى كـ راتبية غير عقلانية موقعها في الربع الأدنى على الجانب الأيسر، أما الليبراليون الذين يضيفون بأعمال الأسواق المنحدرة من القيود فيريدونها صادرة عن أعلى اليسار (في صورة لائحة تنظيمية من الدولة مثلا). أما أنصار الحرة، في الفكر وعن العمل سواء من اليسار أو اليمين فإنهم يأملون بأن تصدر من الجانب الأيمن للنظام العفوي - ولكن حري بأن يبدو واضحا أن كل ربع من هذه الأرباع في المجتمعات الحديثة يضم مجموعة حالات ليست بالناهية، وأن المصادر الأربعة لرأس المال الاجتماعي تتفاعل جميعها مع بعضها بوسيلة معقدة .

وتلعب القوانين الرسمية دورا مهما في تشكيل المعايير غير الرسمية، كما هو حادث بالنسبة لتشريع القوانين المدنية في الولايات المتحدة هذا بينما المعايير غير الرسمية من شأنها أن تجعل نشوء أنواع معينة من المؤسسات السياسية أكثر أو أقل احتمالا وبظل الدين مصدرا مهما للقواعد والمبادئ الثقافية حتى في المجتمعات ذات

الوقت، مع العلم بنية الواضحة، ويخضع القواعد الرتبنة عن الوقت ذاته لعسلة تطور
تلقاها، مع تعاملها مع رتبة تاريخية معينة للجمع كما ، ولكن فهم هذه العلاقات،
وإعداد خريطة توضح عناصر القواعد الثقافية المطبقة عمليا، فهذا يمثل مشروعا
الاستقيل

الفساد والثقافة والأسواق

سيمور مارتن ليبسيت و جابريل سلمان لينز

الاهتمام الواسع بالعمليات الاجتماعية للديمقراطية والتطوير الاقتصادي حفز إلى المزيد من الدراسات عن الفساد من حيث مداه ومصادره ونتائجه. ويحاول هذا الفصل الجمع بين التطليل النظري والتجربي للفساد. وناسيسا على مناقشة الفساد فيما بين الثقافات على مدى التاريخ نسجل بعض النتائج التجريبية التي استقيناها من البحوث والدراسات. ثم نحاول بعد ذلك دمج هذه النتائج وبعض البحوث الأصلية في إطارين نظريين: مخطط الوسائل - الغايات والمستمد من دراسة روبرت ميرتون وافتراضات محددة تفصيلياً من إدوارد باتنيد

ما هو الفساد؟ يقدم دأرسو الموضوع تعريفات مختلفة. ويقول أنولد هايدنهايمر في "الفساد السياسي" إن كلمة الفساد لها تاريخ. تولدت من معانٍ ودلالات مختلفة ومتباينة على نحو استثنائي^(١) ويؤكد علماء وفلاسفة السياسة وجوده في السياسة أو في الدولة بمعنى: جهود لضمان ثروة أو سلطة بوسائل غير مشروعة - كسب شخصي على حساب الجمهور

وظل الفساد منتشرًا في المجتمعات ذات البنية المركبة ابتداءً من مصر القديمة وإسرائيل وروما واليونان وحتى عصرنا الراهن. وعرفت الفساد جميع النظم

المدى البشري والديمقراطية الإقتصادية والراسمالية والاشتراكية والنفقات المسيحية والمسلمة والأهموسية واليهودية والمؤسسات الدينية، ولكن بالطبع لم يكن ذلك يقتصر على مسلم في مجمع الأحيان ونظراً لتشيوع الفساد وانحراف بقائه على مدى الزمان والديانات عودته بعد زواله يسود اعتقاد أن لا سبيل إلى معالجته كاختلال وظيفي يمكن الحد منه بجهد بشري هادف. وعادة أقيمت محاولة بيان لماذا يزداد الفساد في زمن معين ويمكن بذاته أو في ثقافة محددة دون غيرها .

جدول ٩ - ١ دليل الفساد ١٩٩٨

١ - ألمانمرك .	١١ - أستراليا .
٢ - فنلندا .	١٢ - لوكسمبورج .
٣ - السويد .	١٣ - المملكة المتحدة .
٤ - نيوزيلندا .	١٤ - أيرلندا .
٥ - إسبانيا .	١٥ - ألمانيا .
٦ - كندا .	١٦ - هونغ كونج .
٧ - سنغافورة .	١٧ - النمسا .
٨ - هولندا .	١٨ - الولايات المتحدة .
٩ - النرويج .	١٩ - إسرائيل .
١٠ - سويسرا .	٢٠ - نيوزيل .

٢٨ - الأردن .	٢٦ - فرنسا .
٢٩ - إيطاليا	٢٢ - البرتغال .
٤٠ - بولندا .	٢٣ - بنينسوا .
٤١ - بيرو .	٢٤ - إسبانيا
٤٢ - أوروغواي .	٢٥ - اليابان
٤٣ - كوريا ج	٢٦ - استونيا .
٤٤ - زيمبابوي	٢٧ - كوستاريكا
٤٥ - مالوي	٢٨ - بلجيكا
٤٦ - البرازيل	٢٩ - ماليزيا
٤٧ - بيلاروسيا	٣٠ - ناميبيا .
٤٨ - جمهورية سلوفاكيا	٣١ - تايلان .
٤٩ - جامايكا	٣٢ - جنوب أفريقيا .
٥٠ - مراكش .	٣٣ - المجر
٥١ - السلطادور .	٣٤ - موريشوس .
٥٢ - الصين	٣٥ - تونس
٥٣ - زامبيا .	٣٦ - النيجار
٥٤ - تركيا	٣٧ - جمهورية سنك

٧٦ - لاتفيا	٥٥ - غانا
٧٢ - باكستان .	٥٦ - المكسيك
٧٢ - أروندا	٥٧ - الفلبين .
٧٤ - كينيا .	٥٨ - السنغال .
٧٥ - فيتنام	٥٩ - ساحل العاج
٧٦ - روسيا .	٦٠ - جواتيمالا .
٧٧ - الإكوادور	٦١ - الأرجنتين
٧٨ - فنزويلا	٦٢ - نيكاراغوا
٧٩ - كولومبيا	٦٣ - رومانيا .
٨٠ - إنونيسيا	٦٤ - تايلاند .
٨١ - نيجيريا	٦٥ - يوغسلافيا .
٨٢ - تانزانيا	٦٦ - بلغاريا
٨٢ - هندوراس	٦٧ - مصر .
٨٤ - باراغواي .	٦٨ - الهند .
٨٥ - الكامرون .	٦٩ - بوليفيا
	٧٠ - أوكرانيا

وظل البحث التجريبي في هذا المجال حتى عهد قريب جداً، فانما أساساً على دراسات الحالات ولكن الاستجابة للحاجات المتزايدة للشركات متعددة القوميات استحدثت المؤسسات الاستشارية عدداً من القوائم الموضحة للفساد، وتحولت دراسة الفساد بحيث تسمح للعلماء الاجتماعيين باختبار عدد من الفروض عن كل من أسباب الفساد ونتاجه.

وأحد المؤشرات الشائعة عن الفساد السياسي قائمة الشفافية الدولية عن تصورات الفساد. ويعتزل جدول ٩ - ٦ قائمة عام ١٩٩٨ لخمس وثمانين دولة مرتبة من الأدنى إلى الأكثر فساداً.

وبهذه القائمة في خلاصة القوائم المستخلصة من العديد من الدراسات الاستقصائية المتميزة لآراء خبراء وآراء جمهور عام عن مدى الفساد في كثير من بلدان العالم.^(٧) وتتضمن قائمة تصورات الفساد مؤشرات موثوق بها عن الفساد في بلدان بها الحد الأدنى من الاقتراعات الثلاثة. ويحدث أحياناً أن نصل المتوسطات في المؤشر إلى ١٢. ونستخدم جميع المصادر تعريفاً مماثلاً للفساد بما في ذلك سوء استخدام السلطة العامة لكسب منافع شخصية وتفيد متوسطات القائمة المشار إليها بأنها محاولة لفصل بين الفساد السياسي والفساد الإداري، ومن ثم نؤزم أنها تعكس التصور العام للفساد ولا تتعامل هذه القائمة مع مشكلات التناسب وقابلية القياس - فوارق الفساد فيما بين المجتمعات وداخل الثقافات كما أنها لا تشتمل على تقديرات عن الفساد في المنظمات الخاصة

ويتعرض منهج بحث قائمة تصورات الفساد لخلافات في الرأي، إذ يذهب بعض الكتاب إلى أنها قاصرة فقط على الدراسات الاستقصائية عن انطباعات النوازل التنفيذية الدولية من الفساد. ولكنها تشتمل في الحقيقة على عينات من السكان، والملاحظة عن أية حال أن ثمة معامل ارتباط مرتفع جداً بين اقتراعات الخبراء والنفذين والدراسات الاستقصائية عن السكان وتدرج قائمة تصورات الفساد من صفر (الأقل فساداً) إلى ١٠ (الأكثر فساداً) ويقول رونالد أنجلهارت في هذه

الدراسة الاستقصائية عن العدم في العالم لعام ١٩٩٥. من هناك، معادل ارتباط مرهف مع إجابات البلدان على سؤال عن مدى الفساد، وبين مراتب فائدة بصورت الفساد.

ومركز التحرك الأساسي من هذا الفصل على العلاقة بين العدم والفساد. والملاحظ أن قصور المعلومات الكمية عن القيم والاتجاهات فيما بين البلدان أعاق كثيراً القيام بدراسة مقارنة في هذا الصدد. بيد أن الدراسات الاستقصائية عن لقيم في العالم ١٩٩٥ - ١٩٩٦، والتي أُجريت عن الأم. حوام ١٩٨٦ - ١٩٨٦، ١٩٨٦، ١٩٩٠، ١٩٩٣، و ١٩٩٥ - ١٩٩٦ حوفا لعلماء الاجتماع عينات كثيرة زاهدة من المعلومات اللازمة عن العدم والانجازات. وبزودنا الدراسة الاستقصائية ١٩٩٥ - ١٩٩٦ بعينات تمثل أكثر من سبعين بلداً، ولكن لسوء الحظ فإن البيانات، غير المتاحة الآن لعمل الدراسة التحليلية، ولكن بنوعها خلال فترة قصيرة وتعتمد الدراسة التحليلية في هذا الموضوع على الدراسة الاستقصائية ١٩٩٠ - ١٩٩٦ التي اشتملت ثلاثة وأربعين بلداً تضم ٧٠ المليون من سكان العالم وينضون بلداً بناً ضمن فيها دخل الفرد إلى أقل من ٣٣٩ دولاراً أمريكياً في السنة. وتدرج صاعدة حتى تصل إلى بلداً دخل الفرد فيها ٣٠.٠٠٠ دولار في السنة. وثمة تباين واسع بين نوع العينات، وجدير بالإشارة أن الدراسات الاستقصائية الخاصة ببعض البلدان الأخرى تعداداً وإدارة الانتصار السوفييتي السابق مستمدة على نحو متناسب من سكان الحضر والمناطق. وهؤلاء يمثل إلى أن تكون توجهاتهم مماثلة نسبياً، وجهات من هم في المجتمعات الريفية.^{٢٢} ويلاحظ أن الناتج يقل من قيمة حجم الفوارق فيما بين الأمم بالنسبة لبلدان العالم الأول والثاني والثالث.

علم الاقتصاد والفساد

أثبتت الوثائق برامس مؤكدة على نتائج الفساد المدعرة لكثير من جوانب التطوير الاقتصادي وتشير البحوث إلى أن ارتفاع مستويات الفساد يعادل كبير من شأنه أن يخفف معدلات نمو إجمالي الناتج القومي. وكشف تحليل الانتصار الذي قدمه بولز مور أن انخفاض مؤشر الفساد بنسبة ٢.٤ (الناتج من ١ إلى ١٠) مقترن بنسبة

ر. د. د. عدها ٤ مائة في معدل نمو دخل الفرد¹³⁷. ويبدو أن أثر الفساد على النمو ينشأ جزئياً بسبب انخفاض مستويات الاستثمار ، ذلك أن الأثر السلبي على الاستثمار يمكن أن يستمد من المخاطر الإضافية التي يضيفها الفساد إلى حسابات المستثمر ، ويمكن أن يؤدي الفساد أيضاً إلى خفض النمو الاقتصادي بسبب خفض الإنفاق العام على التعميم إذ إن هبوط مؤشر الفساد بنسبة ٢,٣٨ (انحراف بنسبة سبار واحد) يقترن بزيادة في الإنفاق الحكومي على التعليم بما يعادل حوالي نصف بكثافة من إجمالي الناتج المحلي¹³⁸.

لماذا يؤثر الفساد على التعليم؟ تفيد البحوث بأن الحكومات المختلة بالفساد تنفق نسبياً أموالاً أكثر على البنود التي تيسر ابتزاز الكسب غير المشروع¹³⁹ ويعتقد أن الموظفين العاميين الفاسدين يحتمل تحويل نفقات الحكومة إلى الشجالات التي تيسر لهم فيها الحصول رشاري بطريقة أسهل وبكميات أكبر ، وتمثل المشروعات الكبرى التي يصعب التحكم في إدارتها مثل المطارات والمطرق البرية سجالاً سهلاً للاحتيال ، ولكن في مجالات أخرى مثل التعليم تكون النفقات وتواجدها وما يترتب عليها أكثر وضوحاً ومن ثم فإن من المفترض أن تكون أكثر عرضة للفساد.

وتربط أبحاث أخرى الفساد بعدم المساواة في الدخل وكثفت الدراسات المقارنة بين البلدان عن علاقة قوية بين الفساد وعدم المساواة في الدخل وانخفاض وكما كانت درجة اليد أدنى مستوى في مؤشر الفساد كما كان معدل ج. د. ب. بنسبة إلى البلد مرتفعاً ، وهو ما يعني قدراً أكبر من التفاوت في الدخل. وإن زيادة معدل نمو الفساد ٧٨ - يرتبط بانخفاض مفاجئ في معدل نمو الدخل بين الفقراء - ٧,٨ نقطة بالمائة في السنة¹⁴⁰.

والملاحظ أن المتغير المرتبط بقوة بالفساد في المقارنات الدولية هو متوسط دخل الفرد¹⁴¹. وأن البلدان الغنية والأكثر تقدماً اقتصادياً هي الأقل عمداً سياسياً وتوضح قدومه تصورات الفساد لمنظمة الشفافية الدولية ١٩٩٨ أن متوسط دخل الفرد من حيث القوة الشرائية في البلدان العشرين التي تحفل الفضة يبلغ ١٧.٠٠٠ دولار

أمريكي أو أكثر (انظر جدول ٩ - ٦ عن درجات الفساد). هذا بينما أكثر العشرين بلداً فساداً يبلغ متوسط دخل الفرد فيها ٤.٠٠٠ دولار أو أقل وهذه هي أقل البلدان نمواً علاوة على البلدان الشيوعية السابقة. ونجد ست دول غربية أوروبية فقط هي التي تقع خارج العشرين بلداً هي القعة.

وثمة عدد من الافتراضات يمكن أن تفسر لنا العلاقة بين الفساد والدخل. إذ زيادة الدخل يمكن أن تقلل الفساد عن طريق تغيير هيكل الحوافز لدى الموظفين الهامين ويسود أن زيادة الثروة تقلل القيمة الحدية للمكاسب النقدية المتوقعة من الفساد. ونجد في الوقت ذاته أن كلفة العقوبات، السجن، السجن الجنائي، احتمال فقدان الوظيفة - تزداد مع زيادة الدخل.

ويمكن للتطوير الاقتصادي أيضاً أن يخفض الفساد عن طريق تأثيره المهم والإيجابي على الديمقراطية التي تقلل، كما تثبت الشواهد، من الفساد^{١٩}. علاوة على هذا، فإن التطوير يرفع مستويات التعليم الذي من شأنه أن يحسن من إمكانات الكشف عن الأخطاء^{٢٠}. ونجد أيضاً علاقة سلبية بين الفساد ودرجة اندماج البلد في الاقتصاد العالمي، والتي تحددها التجارة العالمية. ذلك لأن الاندماج في المجتمع الدولي يعرض الأمم والمواطنين لمعايير المجتمعات الأكثر تقدماً من حيث السلوك الشخصي والتصرف في السوق. كما أن جماعات مثل الاتحاد الأوروبي أو منظمة ناftا تشترط لعضويتها الالتزام بهذه المعايير.

الثقافة والمؤسسات

تمثل بحث تأثير المتغيرات الثقافية والسياسية على احتمالات الفساد في ضوء دراسة منهجية مقارنة بين الأمم ظاهرة جديدة وحديثة إلى حد كبير. وتعتبر الدلائل الكمية إلى وجود رابطة بين الفساد والتنوع الاجتماعي والتشردم العرقي اللغوي، ونسب المنتمين من سكان البلد إلى تقاليد دينية مختلفة. وأعد دانييل تريزمان دراسة

معارنة مسقدمة، وحد فيها دلائل قوية على أن عدداً من العوامل الثقافية والمؤسسية خفضت مستويات الفساد. ويشير دراسته التحليلية، في انساق مع دراسات عن العوامل المرتبطة بالمقرطة، إلى أن ارتفاع النسبة المئوية من البروتستانت ومن التاريخ الاستعماري البريطاني يمثلان عاملين مرتبطين بانخفاض مستويات الفساد القومي - التالي بعد إجمالي الناتج القومي.

وسوف نناقش فيما بعد الآليات المحتملة التي تؤثر بها البروتستانتية في مثل هذا السلوك. أما عن الأصل الاستعماري البريطاني - فإن نريزمان يؤكد أنه خلف تأثيراً باقياً ومعتداً على الإجراءات بين السلطة - ونقتبس هنا ما قاله هاري إيكتسناين. الإجراءات في نظرهم (البريطانيين) ليست مجرد إجراءات، بل شعائر مقدسة¹³³، بين رعية القضاة والموظفين العموميين: قترام القواعد، حتى وإن كان في هذا تهديداً للسلطة، من شأنها أن تزيد فرص كشف الفساد. ويمكن لشرك البريطاني أيضاً أن يقلل من الفساد بفضل علاقته الإيجابية بالديمقراطية

وثمة نهجان اجتماعيان يسهمان في توضيح العلاقات بين الثقافة والفساد يتبع الأول من دراسات مؤسس علم الاجتماع إميل دوركايم، والتي أعاد صياغتها بإسهاب روبرت كى. ميرتون. يعرض لنا ميرتون في كتابه النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية مخطط الوسائل، الغابات الذي يمكن أن يفسر التغيرات في انتهاكات محاربة¹³⁴. ويختص النهج الثاني بالأسرة، واستحدث عالم السياسة إدوارد بانفيلد تحليلاً مذهماً يوضح كيف يمكن للتوجه الأسري القوي، كما هو الحال في جنوب إيطاليا وفي صقلية، أن يسهم في تفسير ارتفاع نسب الفساد¹³⁵، وينبئ التحليل على نظرية مستمدة من أفلامون، إذ أوضح أفلامون أن العلاقات الأصلية والراسخة بين أفراد الأسرة، خاصة الأبيوين والأطفال، تدفعهم إلى إثارة أمور بذاتها (محاياة الأعراب)، ويشير بانفيلد إلى أن الفساد رهين قوة القيم الأسرية بما في ذلك مشاعر الالتزام القوية

مخطط الوسائل - الغايات

تفيد نظرية ميرتون أن الفساد سلوك يحفز حافز تابع من ضغوط اجتماعية، ويؤدي إلى انتهاكات معيارية. ويؤكد أن جميع النظم الاجتماعية تحدد لها أهدافاً ثقافية يسعى البشر إلى بلوغها أو إنجازها. كما وأن لها وسائل مقررّة للوصول إلى الأهداف (معايير شرعتها المؤسسات) وإن من يسعون إلى تحقيق الأهداف بوسائل مقررّة اجتماعية هم المنطلون أو الامتثاليون حسب صياغة ميرتون ولكن النظم الاجتماعية تضغط أيضاً على كثيرين ممن لا تتوفر لهم الفرصة - سواء بسبب السلالة أو العرق أو نقص المهارات أو نقص رأس المال أو نقص التوارد المادية أو غير ذلك من موارد بشرية ومن ثم يتعبر عليهم التماس الأهداف وتحقيقها بوسائل غير الدخلة من الدخلة المرغوبة إلى اعتراف المجتمع وإن الكثير من أسواق الإيجاز منظمة بطبيعتها بحيث تخلق هوة كبيرة بين الطلب (الأهداف والقيم) وبين العرض (الوسائل) والنتيجة أن كثيرين ممن يدركون مبكراً أن فرصتهم تحقيق الهدف محدودة، سوف يرفضون قواعد اللعبة ويحاولون النجاح بوسائل غير المنفق عليها (ابتكارية أو جنافية) ويشير ميرتون إلى الطريقة التي يساعدها بها هذا الإطار في تفسير اختلالات السوق المنحرف بين الطبقات العليا والدنيا وبين الجماعات العرقية المختلفة في أمريكا، علاوة على التعميمات التي وثقها دانييل بيل^(١٤).

وتفيد نظرية ميرتون أن الثقافات التي تؤكد على النجاح الاقتصادي باعتبارها الهدف الأهم ولكنها مع هذا تقيّد فرص الوصول إلى الهدف سنجدها فيها مسنوبات عالية من الفساد. وتدعم هذا الفرض بيانات وردت في الدراسة الاستقصائية عن القيم في العالم ١٩٩٠ - ١٩٩٢ فيما بين الأمم. وتمثل برمايا على الفروض المستمدة من ميرتون بشأن العلاقة بين حافز الإنجاز حسب القياس الموضح في درجات بنود الدراسة الاستقصائية للقيم في العالم، وبين الفساد، وطابق الحالات المفرطة مع الإطار الاجتماعي ويلاحظ أن البلدان الأقل وفرة ونزاهة مع حافز إنجاز مرتفع هي الأكثر فساداً مثل ذلك روسيا وكوريا الجنوبية وتركيا. يبلغ توجه الإنجاز فيها

مستويات مرتفعة للغاية حسب درجات الفياس المذكورة، ولكن هذه البلدان تدخل أيضا في عداد الأكثر فسادا.

وعلى العكس من ذلك، وكما أكد إلمار ميرتين، فإن البلدان التي لها حافز إنجاز منخفض نسبيا، وفرص كبيرة للوصول إلى الوسائل الملائمة ستكون مستويات الفساد فيها منخفضة نسبيا. وأفضل مثال على ذلك الدانمرك والسويد والنرويج. والشئ المثير للدهشة أنها الأقل من حيث التوجه الإنجازي حسب مقياسنا، والأقل فسادا أيضا. والمفترض أن شدة الوسائل - الغايات ضعيفة بينهم.

وتولد النمط الإسكندنافي من العلاقة بين حافز الإنجاز والسبل المختلفة التي تحددها بنية المجتمع للوصول إلى القرصة والشئ، المثير للدهشة أن درجات الإنجاز مرتفعة بقوة - ولكن سلبا - بمتوسط دخل الفرد، وتظهر هنا مشكلة محيرة: كلما ازداد البلد غنى كلما انخفض مستوى حافز الإنجاز وتعارض هذه النتائج كما يبدو مع النظرية الثقافية عند ماكس فيبر. ولكن فيبر حين عالج أثر القيم الدينية على التطوير الاقتصادي توقع أن تنخفض العلاقة الموجبة مع البروتستانتية فور ترسخ الإنتاجية المرتفعة مؤسسيا. ويمكن القول إنه غنى الرغم من أن الأمم العنة اليوم كانت ذات مرة بين أقل الأمم من حيث حافز الإنتاج (قبل التطوير) فإن مواطنيها وقد أصبحوا الآن أهل وفرة وثراء مدفوعين، كما توقع جون آدمز إلى التماس أهداف لا علاقة لها بالعمل - الموسيقى والفنون والآداب - أو إلى أن يصبحوا ما بعد ماديين إذا استخدمنا مصطلحات رونالد إنجلهارت¹³ ونجد من ناحية أخرى أن أبناء النخبة والطبقة الوسطى في بعض البلدان الأقل تضررا لهم رد فعل إزاء وعيهم بوضعهم الاقتصادي المدهني، وعن ثم ربما يحفزهم هذا إلى البحث عن سبل تحقيق مستويات أعلى من حافز الإنتاج.

وتم الاضطلاع بتحليل إحصائي متعدد ربط بين بيانات القيم في العالم ١٩٩٠ وقائمة تصورات الفساد كما غير مستقل، وذلك بهدف اختبار الفرض المشار إليه وكما سبق أن أشرنا يفيد التحليل النظري الذي أعده ميرتون بأن فسادا خطيرا سوف يعصف بالبلدان ذات المستويات العالمية من حيث توجه الإنجاز مع انخفاض سبل

الوصول إلى الوسائل ، والملاحظ أن العلاقة الحتمية قوية إلى حد معقول ولها دلالتها الإحصائية من حيث المنحنيات المذهرف عليها وإن تغير ١.٦ في درجة مؤشر الإنجاز لبلد ما (انحراف معياري واحد موزع على درجات من ١ إلى ٥) يكون مفترنا بتغير نصف نقطة في درجة الفساد في البلد المعنى ، ويكون نموذج قوة الصلاحية مرتفعا مما يفسر الكثير من ظاهرة التباين في الفساد ، ونظرا الرابطة بين هذين المتغيرين قوية عند ضبط العوامل الرئيسية الأخرى

وتم استحداث مؤشرات كثيرة بشأن توفر الموارد الاقتصادية والحرية الاقتصادية. ونستخدم هنا أساسا دليل الحرية الاقتصادية لعام ١٩٩٧ الصادر عن صحيفة هول ستريت ومؤسسة التراث ونتراوح درجات الدليل من ١ (لا حرية) إلى ٥ (حر تماما). ويهدف الدليل إلى قياس درجة دعم الحكومة السوق الحرة. ويتضمن عوامل عديدة حرية حيازة الملكية العقارية، حرية اختيار أسلوب بنا: الحياة، حرية تشييل مشروع من مشروعات الأعمال، حرية استثمار الثراء لعوائلهم، حرية الإنجاز دوليا، حرية المشاركة في اقتصاد السوق ويكشف تحليل الانحدار أن تغيرا قدره ٧٥. (انحراف معياري واحد) في دليل الحرية الاقتصادية يقترن بتغير قدره حوالي نقطة ونصف في درجات الفساد في البلد.

ومشما حدث بالنسبة لدليل الحرية الاقتصادية، يمكن أيضا استخدام متوسط دخل الفرد مؤشرا على ما هو متاح من لموارد الاقتصادية، بل وعلى مدى التشبع الاقتصادي لدى غالبية السكان ، وحيث إن متوسط دخل الفرد مرتبط بقوة بالفساد. فإن هذا يدعم فكرة أن توفر الوسائل المعتمدة مؤسسيا لإنجاز الغايات المنشودة من شأنه أن يقلل مستويات الفساد، ويعزز صواب اقتراضات مبرنون ، وواضح أن هذا النموذج الذي يجمع بين دليل الحرية الاقتصادية ١٩٩٧ ومتوسط دخل الفرد، يفسر لنا الكثير من ظاهرة تباين الفساد. ونظرا علاقة الإنجاز بالفساد ذبئة مع ضبط المتغيرات ذات الصلة بالفساد - مثل متوسط دخل الفرد - مما يفيد أن سلم الدرجات المستخدم تضمن عاملا مهما

النزعة العائلية غير الأخلاقية

الإطار الثقافي الرئيسي الثاني، والذي استمده بانفيد من أفلامون، يقترح أن الفساد هو في جانب كبير منه تعبير عن النزعة الفردية التخصيصية، أي الشعور بالالتزام بمساعدة وتقديم موارد لأشخاص يشعر المرء أن عليه التزام وواجب نحوهم، وأولهم أبناء الأسرة ثم الأصدقاء وأعضاء الفريق الذي ينتمي إليه. وأوضح تعبير عن هذا تجسده نزعة محاباة الأقارب ويمثل الولاء التزاما فرديا محسوسا، والذي بلغ غاية قوته في المجتمعات الإقطاعية ذات النزعة الفردية التخصيصية. والملاحظ، كما قال ماكس فيبر، أن الولاء والسوق تقيضان. وتمثل النزعة الشمولية أو الكلية المقابل والتقيض للنزعة الفردية التخصيصية، ذلك لأنها تعني الالتزام بمعاملة الآخرين بمعيار واحد. وتتجلى معايير السوق في النزعة الشمولية، لذا ترى أن الرأسمالية الخالصة تجسد هذه القيم وتحافظ عليها.

ودفع أفلامون منذ ألفين وخمسمائة سنة بأن روابط الأسرة، خاصة ما بين الأبوين وأبنائهما، هي الدعامة الرئيسية التي ترتكز عليها الطبقات الاجتماعية ذات الوضع المؤسس¹³⁷ وأكد أن إنشاء مجتمع المساواة يستلزم القضاء على مثل هذه الروابط. بل وإلغاء الأسرة ذاتها. ومن ثم يتربى الأطفال منذ الميلاد في مؤسسات عامة، دون أن يعرف أحدهم أباً أو أمّاً له. وطبيعي أن أفلامون لم يكن يعتقد أن مجتمعاً عاطلاً من الروابط الأبوية يمكن أن يتصور، ولكن حواراً أبرز طبيعة السلطة الاجتماعية التي عزّاهها للأسرة.

وحاول فيبر أن يفهم سبب ظهور الرأسمالية لأول مرة في الثقافات البروتستانتية، ونشر في محاولته هذه إلى أن المعايير قبل الصناعية في المجتمعات الكاثوليكية اتسمت بالطائفة أو الانحياز للمجتمع المحلي، وهذا اتجاه يستلزم أولاً أن يقدم المجتمع والأسرة والشرائح المهيمنة م مساعداتهم لمن هم أقل حظاً في الحياة، واعتقد أن هذه القيم ناهضت ظهور اقتصاد سوق بدافع عقلاني. وعلى العكس من ذلك فإن التأكيد على النزعة الفردية، أي الاهتمام بالنفس، يسهم أكثر في حقن

التراكم الرأسمالي ، وهذا هو السلوك الذي عززته الكالفيسية والضانقية البروتستانتية إذ يؤمن نزعة الشجع الطائفي بأن الله يساعد من يساعدون أنفسهم وأوضح غير أن أعظم إنجاز البروتستانتية تعثل في تحضيم قيود علاقات النسب (الأسرة المتحدة)^(١٤١) . ويوضح لورنس هاريزون في هذا الصدد أن ثمة دلائل على أن الأسرة الممتدة مؤسسة قاعلة من أجل ضمان البقاء ، ولكنها عائق على طريق التطوير^(١٤٢) . ولا ريب في أن التضامن مع الأسرة الممتدة والعداء مع الغريب الذي ليس واحدا من أبناء الأسرة أو القرية أو ربما القبيلة يمكن أن تتولد عنه ثقافة الاهتمام بالذات فقط .

ولكن إينورد بانفيك الذي درس جنوب إيطاليا مضى شوطا أبعد بدراسته التحليلية عن مفهوم النزعة العائلية غير الأخلاقية : الثقافة التي تعوزها القيم الاجتماعية ولكنها تفرس روابط أسرية . ويقول في هذا : الملاحظ في المجتمع القائم على مؤمنين بالنزعة العائلية غير الأخلاقية أن لا أحد منهم يدعم مصنعة الجماعة أو المجتمع إلا إذا كانت مصلحته الذاتية تقتضى ذلك^(١٤٣) . وهذا يضعف الولاء للمجتمع الأكرم أو تتضاؤل معايير السلوك التي تستلزم دعم الآخرين ، ولهذا نرى النزعة العائلية لا أخلاقية وتؤدي إلى ظهور الفساد وتفرس أسباب الانحراف ومعايير النزعة الشمولية والجدارة ، كل شيء مقبول طالما وأنه يحقق تقدما للمصالح الفرد والأسرة . ونمى المافيا أوضح مثال للنزعة لعائلية غير الأخلاقية ، ويؤكد بانفيك في النهاية أن الفساد في جنوب إيطاليا والمجتمعات التقليدية المشابهة هو تعبير عن قبحى مدثلة لتلك القرى الداعية للعافية .

ويقدم لنا كل من استقصاء القيم في العالم ١٩٩٠ ومجموعة من إحصاءات البنك الدولي ، بيانات أضافت في ابتكار سلم متدرج للنزعة العائلية . ويتناول البند الأول في السلم احترام الأبرار المطلق ، وجرى تقديره على أساس النسبة المئوية ممن يوافقون عليه بغض النظر عن صفات أو أخطاء الأبرار تجاه الابن أو الابنة . إذ يقضى الواجب أن يبدي الابن أو الابنة طقوس الحب والاحترام للأبرار ، والبنيد الثاني النسبة الخوية ممن يرون الطلاق عملا غير مبرر والمثلث ، مأخوذ من البنك الدولي ، ويدل بموسم عدد أطفال كل امرأة

ولوحظ أن الأمم التي تحصل على درجات عالية في هذا التدرج أميل إلى أن تكون من بين من هم أكثر فساداً، ونظراً لأن غالبية الأمم الآسيوية معروف عنهم روابطهم الأسرية القوية، فإن مرتبتهم بين الأمم الأكثر فساداً، ولكن من ناحية أخرى نجد المجتمعات الإسكندنافية في المرتبة الأدنى في سلم درجات النزعة العائلية. وسبق أن أشرونا إلى أن هذه المجتمعات من الأقل فساداً، ويؤكد تحليل الانحدار هذا الترابط. وثمة علاقة قوية بين النزعة العائلية ودليل تصورات الفساد. وتظل العلاقة واضحة الدلالة عند ضبط متوسط دخل الفرد.

صفوة القول يؤكد لنا هذا التحليل فرضية النزعة العائلية غير الأخلاقية. وأضافنا في نموذج آخر متغيراً خاصاً بالنسبة المثوية من البروتستانتات. وأوضحت تريممان أن هذا المقياس يرتبط بقوة بتصورات الفساد. ونجد هذه النتيجة أن النزعة العائلية متغير يحتل موقعاً وسطاً بين الدين والفساد، أو لنقل بعبارة أخرى أن البروتستانتية نهد من الفساد. ويرجع ذلك جزئياً إلى ارتباطها بعلاقات النزعة الفردية وخلوها من علاقات النزعة العائلية.

الدين والثقافة والفساد

أوضحنا في حوارنا السابق أن التعبيرات الثقافية تسهم في تفسير مستويات الفساد والتنبؤ بها. ولكن ما الذي يفسر الثقافة؟ إن معالجة هذا السؤال المعقد يخرج عن حدود هذا الفصل. ولكن ثمة توافق في الآراء بين علماء الاجتماع بأن الدين محدد مهم للبيانات في الثقافات العمالية واسعة النطاق. ويسهم هذا الرأي في الوصول إلى عدد من المقترحات المفيدة. فالبلدان التي يسودها بروتستانتيون أقل فساداً من غيرها، ذلك أن روح وطبيعة العقيدة البروتستانتية تهين أكثر من غيرها إمكانية للسلوك الملتزم بالعايير. إذ يؤمن البروتستانتيون خاصة الإنشيعون لثافتهم. أن الأفراد مسؤولون عن تجنب الوعر في الخطيئة. بينما المذاهب المسيحية الأخرى، خاصة الكنيسة الكاثوليكية، تؤكد أكثر على الضعف لأصول الذي قنر عليه

البشر. وعلى عجزهم عن الهرب من الخطيئة والخطأ، ثم حاجتهم إلى الكنيسة التماسا للغفران والحماية. وتميل الكنائس الكاثوليكية والإنجيليكانية والأرثوذكسية إلى أن تكون أكثر قبولاً لفهم الضعف البشري لأن رجال الدين لهم سلطة إعفاء الفرد من بعض الشعور بالمسؤولية، والنتيجة الطبيعية إذا ما سلمنا بإمكانية الوقوع في الخطيئة أن نسلم بضعف وهشاشة الإنسان. وبأن لا أحد بوسعه أن يكون قديسا

ولكن من ناحية أخرى نجد روح التشيع الطائفي والروح الإنجيلية أو البروتستانتية أكثر ميلا إلى غرس الانتماء للقيم المطلقة خاصة فيما يتعلق بالأخلاق. إنها تشجع المؤمنين بها على الكد والاجتهاد من أجل تحقيق القسيلة والحفاظ على الالتزام بها قيل غيرها، وأن يحفوا من. إن لم يقضوا على. تفوق الأشرار من البشر والممارسات المرفولة. وينزعون سياسيا إلى اعتبار أحداث المجتمع والسياسة مسرحيات أخلاقية - معارك بين الرب والشيطان - دون التفكير عمليا في مسؤومية أو حل وسط^(*).

وثمة رابطة قوية بين البروتستانتية والتصورات عن الفساد. وتظل العلاقة واضحة للدلالة والأهمية عند تشبيث وضبط متوسط دخل الفرد وإن بدت أقل إلى حد ما ، معنى هذا أن حوالي ربع العلاقة بين البروتستانتية وقائمة تصورات الفساد مرتبطة بالدخول المرتفعة أو بالمستويات الأكثر تقدما للتطوير الاقتصادي الذي حققه البروتستانت. ويفيد هذا من ناحية أخرى بأن حوالي ٧٥ بالمائة من علاقة البروتستانتية بالفساد ربما يكون وليد عوامل ثقافية.

وإن تحفيل العلاقة بين درجات الإنجاز والنسبة المئوية للبروتستانت في بلد ما ينطابق مع افتراض أن البروتستانت أصحاب توجه أقل نحو الإنجاز، وعلى الرغم من أن ماكس فيبر أكد أن البروتستانت أميل إلى أن يكون نوجههم نحو الإنجاز أكبر من

(*) هنا يلج سزغال وماذا عن الحكم البروتستانتى فى الولايات المتحدة وموقفه من قتل الشعوب المحارب أو بالتجريم دفاعا عن مصالح أثنائية . . أليس هذا خطيئة ؟ (المرجع)

الكاثوليك أو غيرهم التقليديين، إلا أن الأمر ربما لم يعد كذلك. ونظرا لأن أغلب الأمم البروتستانتية أمم ثرية فإن التواهد تفيد بأنهم غيروا بجزء الاهتمام لقيمتهم. ويكشف سلم درجات الإنجاز عن علاقة بالسلب مع النسبة المئوية من البروتستانت في بلد ما وهو يعني أنه كلما زاد عدد البروتستانت كلما قل مستوى حافز الإنجاز ويوفر لنا هذا سببا آخر لكي نتوقع مستويات فساد أقل داخل الأمم البروتستانتية عند مقارنتها بالأمم الكاثوليكية.

وحسبما ذهب ميرتون في منصفه، فإن توفر الوسائل المدعومة مؤسسيا في المجتمعات الأغنى (وعذا ما يعنى في هذه الحالة إمكانية الوصول إلى الموارد الاقتصادية) يفيد أيضا انخفاض درجات الفساد في البلدان البروتستانتية، وهي بلدان في المتوسط العام الأكثر وفرة وثراء. وتتزع الحكومات الكاثوليكية إلى التدخل بقدر أكبر في شؤون الاقتصاد، إذ تقيد الحرية الاقتصادية. هذا بينما نجد البلدان البروتستانتية ذات توجه أكثر نحو السوق مع بعض الاستثناءات المحبوبة (مثل البلدان الإسكندنافية) وكما توقعنا يرتبط دليل الحرية الاقتصادية بعلاقة موجبة مع البروتستانتية بما يعنى أنه كلما ارتفعت النسبة المئوية من البروتستانت زادت الحرية أكثر.

أخيرا، توفر لنا أطروحة بانفيك عن النزعة العائلية غير الأخلاقية تفسيراً مهماً وأساسياً عن لماذا يمكن أن تكون البلدان الكاثوليكية أكثر فساداً من البلدان البروتستانتية. ويفسر الفهم السائد أن البلدان الكاثوليكية أكثر نزوعاً نحو الضائفة والانحياز العائلي، بينما تؤكد البروتستانتية على النزعة الفردية والاعتماد على النفس. وتدعم هذه الأفكار بيانات الدراسة الاستقصائية للقيم في العالم، إذ نجد سلم درجات النزعة العائلية يرتبط بالبروتستانتية في الاتجاه المتوقع. وتوضع الدراسة التحليلية، كما سبق أن أشرنا، أن النزعة العائلية تعتل، وجوداً وعدماً، متغيراً رئيسياً يتوسط بين البروتستانتية والفساد.

الديمقراطية والفساد

ما الذي يمكن أن نفعه للحد من الفساد غير زيادة الإنتاجية، وأن نتطور لتكون أكثر 'حدثية'؟ للإجابة يمكن أن نطالع مناقشة فيبر لأثار المجتمع المنفتح سياسيا على الحد من سلطة الدولة - المزيد من الديمقراطية والحرية الفردية وسيادة القانون. إن الديمقراطية التي تترتب عليها وجود معارضة سياسية وحرية للصحافة وفضاء مستقل - تعزز الآليات التي تملك إمكانات للحد من الفساد. ونهزم أحزاب المعارضة، لمصلحتها، بفضح الفساد داخل الحكومة تمهية للفوز في الانتخابات. والمعروف أن الحزب الحاكم أو النظام الحاكم في ظل الديمقراطية إذا ما أخفق في إنجاز الإصلاحات بخسر الانتخابات. ونلاحظ من ناحية أخرى أن بول الحزب الواحد تقتصر إلى هذه الحوافز.

وحدث في عام ١٩٩٩ أن استقبل مفوض الاتحاد الأوروبي بنهمة الغش ومحاربة الأصدقاء وسوء الإدارة. وكشف هذا الإجراء عن دور الديمقراطية في تطهير موقع من الفساد. كذلك فإن البرلمان الأوروبي المنتخب ديمقراطيا - وهو خليط من أحزاب سياسية ومصالح قومية وإقليمية وقطاعية - بدأ متيحة ضد ممارسات الفساد من جانب المفوضية غير المنتخبة والتي ترجع جذورها إلى جنوب أوروبا التي يتركها غالبية كاثوليكية^(٤٢) وأدى انتصار هذه المؤسسة السياسية إلى إحداث نقلة واضحة في السلطة من البروقراطية غير المنتخبة - المفوضية - إلى البرلمان الأوروبي المنتخب^(٤٣).

وتؤكد هذه الفرضيات على ضوء تحليل العلاقة بين الفساد والديمقراطية ويسمى بياننا عن الديمقراطية من الاستقصاء المستوى لمنظمة بيت الحرية عن الحقوق السياسية والحرية المدنية^(٤٤) ويتأكد الدليل من جزئين. ووندراج من ٨

(الأكثر حرية) إلى ٧ (الأقل حرية). الجزء الأول عن الحقوق السياسية. وينضم إيجابيات على الأسس التالية هل رئيس الدولة والنواب أعضاء المجلس التشريعي منتخبون من خلال انتخابات حرة ونزيهة؟ هل من حق المواطنين تشكيل أحزاب سياسية تنافسية أو غير ذلك من تفصيلات؟ هل المعارضة لها صوت قوي ومهم أو لديها فرصة حقيقية تلقى مساندة من الأيدي؟ ويتناول الجزء الثاني للحريات المدنية ويشتمل على قياس الحرية والاستقلال في الإعلام وحرية التعبير والاجتماع والمساواة أمام القانون والتمتع بقضاء مستقل غير تمييزي والحماية من الإرهاب ومن السجن دون مبرر . . إلخ.

وجدير بالملاحظة أننا إذا أخذنا متوسط الدليلين معا لمنظمة مت الحرية من ١٩٧٧ وحتى ١٩٩٨ نجد رابطة مرتفعة وعكسية مع دليل النصوص عن الفساد. وهذا الدليل الموحد عن الديمقراطية يظل في تحليل الانحدار ذا أهمية واضحة عند تثبيت تساوي القوة الشرائية للفرد. ولكن المعامل غير المحدد معياريا يفقد حوالى نصف قيمته ولكنه يسمد أهميته عند إدخال عوامل أخرى أساسية إلى المعادلة معنى هذا أن حوالى نصف الارتباط السلبى بين الديمقراطية والفساد ناتج عن أن الديمقراطية أميل إلى أن تكون الأكثر ثر - (بمعنى أنها توفر أكثر من وسيلة للوصول إلى القرص المنشود)

وعلى الرغم من أن متوسط الدرجات الذي حددته منظمة بيت الحرية قد لا تربطه علاقة قوية بالفساد ، إلا أن تريممان وجد أن عدد السنوات المتعاقبة التي تمتعت على مداها الأمة بالديمقراطية حافظت على علاقتها المحددة مع النصوص عن الفساد، حتى مع تثبيت العوامل الرئيسية ، وهكذا تمثل الديمقراطية عاملا مهما للتنبؤ بمستويات الفساد القومى . وثمة ما يقيد بأن مؤشر الحريات المدنية ، خاصة سيادة القانون على أيدي قضاء مستقل ، أهم كثيرا من الحريات السياسية.

خاتمة

تيسر ظهور الاقتصادات المتطورة بفضل التأكيد على العقلانية وصغر حجم الأسرة، والإنجاز، والحراك الاجتماعي والنزعة العالمية. وهذه هي العناصر المميزة للحدثة، والتي تميزها عن النزعة التقليدية. واتسمت هذه العناصر على المستوى المثالي بانخفاض نزعة الحماية العائلية والمحد من القيم التي تعزز استمرار منظومات المساعدات المتبادلة على أساس ومصصلحة فردية، وهو ما يتعارض مع العناصر اللازمة لقيام اقتصاد السوق، والمعروف أن القيم التي تعبر عن منطلق السوق وبكفل دوامه ظهرت عقب انهيار النمط الإقطاعي للمنظومات الطبقيّة الاجتماعية والتي كانت تؤكد على الولاء والالتزام.

والملاحظ أن البلدان الآسيوية تؤكد بقوة على الالتزام إزاء الجماعة خاصة الأسرة، والذي تجلى واضحا وقويا في اليابان التي كانت حتى عهد قريب بلدا إقطاعيا أكثر مما هو واضح في أمريكا أو أوروبا. ويشير هذا إلى أن الفساد مرتفع المستوى. وتشير تقديرات منظمة الشفافية الدولية إلى أن أكبر البلدان في طرُق أسبا برجاتها في الفساد مرتفعة، وأعلى من المتوسط. وطبعي أن اليابان تبدو استثناء. ذلك أن معدلات الجريمة فيها منخفضة إلى أقصى حد. وتفيد التقديرات المختلفة لوضع اليابان أنه نادرا ما يحدث فيها انتهاك للقواعد والقانون لأن هذا يمثل عارا بحل بأسرة المعتدى وبه شخصيا. ولكن هذا لا ينفي وجود تقارير عن فساد في مشروعات الأعمال وفي السياسة. ويوضح دليل منظمة الشفافية الدولية للتصورات عن الفساد عام ١٩٩٨ أن اليابان تحتل المرتبة الخامسة والعشرين، أي أقل من شيلي والبرتغال وبيوتسوانا وأسبانيا، وأعلى بقليل من كوستاريكا وبلجيكا وماليزيا وناميبيا وباروات وتونس. وشملت جميع البلدان الشيوعية السابقة فيما عدا المجر وجمهورية التشيك مرتبة بون المتوسط. وتشترك بدرجات متفاوتة هي الالتزام بنزعة محاباة العائلة ومركزية الدولة والثقافات الدينية التراتبية والنزعة الفردية الحزبية. وهذه هي سبب ارتفاع مستوى الفساد في ظل النظام الشيوعي. ثم إنها جميعا بلدان فقيرة.

وركزنا في دراستنا على تفسيرين للفساد، هما مخطط الوسائل - الغايات عند ميرتون وتأكيد يانغ على نزعة المحاباة العائلية ولاحظنا أن المسائل التي حددها كل من ميرتون ويانغ، قصور وسائل تحقيق الغايات المنشورة والمعايير القررية البخسيفية التي جبلت عليها الأسرة - سوف يستمر تغييرها على سلوك الأمم. ولكن إذا ثبت أن انعقد لواء الهيمنة للقيم الاقتصادية الموجهة عقلانيا، وسيادة القانون في البلدان الأقل تطورا، وأسهمت في دعم جهود التطوير، فسوف تنخفض مستويات الفساد كما هو الحال الآن في هونج كونج وتايوان وسنغافورة.

الباب الثالث

الحوار الأنثروبولوجي

المعتقدات والممارسات التقليدية هل بعضها أفضل من بعض ؟

روبرت بي . إدجرتون

إننا إذ نعيش يومياً تحت حصار عناوين الصحف وتقارير التلفزيون عن عصابات العنف وعن البيئة التي تتهددها الأخطار وعن التشرد وانتهاك الأطفال وخطر العقاقير المخدرة ومرض نقص المناعة (الإيدز) والتزعات الحزبية السياسية التي تقسم بنية المجتمع، ربما لا نختلف عن الرأي إزاء فكرة تقول إن الناس يمكن أن يأتوا أفعالاً ضارة بأنفسهم ويغيرهم ، وتتزايد أعداد الدراسات المسيحية التي تصنف مختلف مدن الولايات المتحدة تأسيساً على نوع الحياة في كل منها، ويحدث الشيء نفسه في البلدان الأخرى.

وتجرى أيضاً محاولات لتقييم المنظومات السياسية. وقد يدهش الكثيرون حين يقرأون تأكيدات على أن نظاماً سياسية مثل ألمانيا في عهد هتلر أو الخبير الحمر في كيبوديا هي نظم جيدة في عيون أهلها وحيون جيرانها كما هو الحال بالنسبة لشعوب النرويج أو كندا أو سويسرا على سبيل المثال. وربما يبدي البعض شكوكاً إزاء تأكيد علماء الأنثروبولوجيا بأن لا جهود لاساس علمي لتقييم ممارسة مجتمع آخر لسلوك التضحية بالبشر كمثال أو الإبادة العرقية أو التعذيب بحكم قضائي. وأن السبيل

إصدار تقييم هو فن ينولى أبنا، كل مجتمع تقييم ممارسات المجتمع بانفسهم ، هذا هو ما أكدته دعاه النسبية الثقافية ونزعة التكيف - ولا تزال هذه المبادئ تخضع بإيمان قوى خاصة في مجال الأنثروبولوجيا.

وتضرب هذه الأفكار بجذورها عميقة في الإيمان بأن المجتمعات البدائية كانت أبعد عن التجاندي بالقياس إلى المجتمعات الحديثة' لقد كان البؤس والخوف والوحدة والألم والمرض والموت المبكر أمورا شائعة في المعازل الحضرية في أمريكا وبين الشردين من أهلها متلما هي في مدن السويد في جنوب أفريقيا والقرى التي تتصور جوعا في السودان، وأكواخ الصفيح في البرازيل، ومناطق البيقان التي عنت النطهير العرقي وينظر الباحثون إلى سكان هذه المناطق باعتبارهم ضحايا بانسين لضغوط اجتماعية وثقافية وبيئية متنوعة، بما في ذلك إهمال الحكومات والنزعة العنصرية والفساد والصراع العرقي والديني والسياسي علاوة على الاستغلال الاقتصادي.

ولكن كثيرين من الباحثين المبرزين في الأنثروبولوجيا وفي مباحث علمية أخرى يؤمنون بأن هذا الضرب من البؤس ليس طبيعيا بالنسبة للوضع الإنساني ويؤمنون بأن الناس في المجتمعات الشعبية التجانسة والأصغر حجما عاشوا تاريخيا في تجانس وسعادة عظيمين، وأن سكان الكثر من المجتمعات الصغيرة القائمة اليوم لا يزالون على تجانسهم وسعادتهم ، والملاحظ أن الاعتقاد بأن المجتمعات البدائية أكثر تجانسا من المجتمعات الحديثة، وأن 'الهمج' كانوا تبالاة، وأن حياة الماضي كانت أكثر اطمئنانا ورومانسية من حياة اليوم، وأن البشر عرفوا يوما عاطفة المجتمع اشلى التي اندثرت اليوم ، مثل هذا الاعتقاد لا تعكسه لنا فقط الصور المتحركة والروايات التي تعتمد على ثقافة شعبية، بل إنه راسخ بعمق في خطاب الباحثين أيضا

الهتجى السعيد

نقد هذه الرؤية أن يؤس البشرية نتاج التثكل الاجتماعى المفضى إلى التقسم، أو التنوع العرقى أو الدينى، أو الصراع الطبقي، أو انصالح المتضاربة واعتدفسه التى تبتلى بها المجتمعات الكبيرة وخاصة النول- الأمم. ومن ناحية أخرى استحدثت المجتمعات الأسط والأصغر ثقافاتها وطورتها استجابة لمنطلبات بيئات مستقرة. لذلك حظيت شهوياً، بفضل أسلوبها فى: الحياة مقدر أكبر من التجانس والاستعادة ويقدم لنا على سبيل المثال عالم الأنتروبولوجيا روين فوكس وصفا حيا لبيئة صيادى الحيوانات المنسجمة فى العصر الحجرى اتحدث باعتبارها بيئة سادها تجانس صفاتها المتطورة كنوع بشرى بما فى ذلك تكاؤن، وخيلنا وعننا وعقلنا وانفعالاتنا - تنغم ففدتاه (٣ - ١٩٩٠). وحين يعثر العلماء الاجتماعيون على مجتمع صغير بعوزة هذا النوع من التناغم، فإنهم غالباً ما يستنتجون أن وضع التناغم هذا جاء بالضرورة نتيجة لتشوش نذاج التماس الثقافى خاصة التغير اللاهصادى والنحصر وترسخت هذه الفكرة، شأن النسبية الثقافية فى الفكر الغربى على مدى قرون (تيسبت ١٩٧٢، بلو ١٩٨٥).

و حين أصدر روبرت ريدفيلد دراسته المشهورة الآن عن الأنماط الشعبية، الحضرية عام ١٩٤٧ أرجع أساس الأنتروبولوجيا إلى هذا التمييز القديم (ريدفيلد ١٩٤٧) والمعروف فى الفكرة القائلة إن المدن كانت تعج بالجريمة والفوضى وجميع أنواع المعاناه البشرية، بينما كانت المجتمعات الشعبية تتصف بالتناغم إنما يرجع إلى أرسطوفاً وتاسفوس والعهد القديم. وتفتت دعماً جديداً من فكر القرن التاسع عشر لعدد من كبر المفكرين من أمثال فرديناند توتيس وهنرى مين، وفوستل دي كولانج، وميل دبركايم، وماكس قبير. وانضم إليهم آخرون بحيث خلقوا إجماعاً على أن الالتزام الخلقى والعاطفى، والحميمية الشخصية، والتلاحم الاجتماعى والاستمرارية على مدى الزمن، وهى صفات المجتمعات الشعبية لم تنق على قيد الحياة مع الانتقال إلى حياة الحضرة التى سادتها مظاهر التشوش الاجتماعى والصفات المرضية الشخصية.

وخلال القرن العشرين أصبح التعارض بين المجتمع المحلي الشعبي، والمجتمع الحضري من أهم وأبرز الأفكار الأساسية في الفكر الغربي، واستحوذ على فكر الفلاسفة الاجتماعيين وعلماء السياسة وعلماء الاجتماع والأطباء النفسيين والروائيين والشعراء، والمثقفين بوجه عام. وخبر مثال في صميم الموضوع نجده عندما أجاب كيرباتريك سيل على الانتقادات الموجهة ضد كتابه الأخير "غزو الغريوس" (الذي يدرس الغزو الأوروبي للشعوب الأصلية في أمريكا). إذ أكد على أن المجتمعات المحيية البدائية في أمريكا قبل الغزو كانت على عكس ثقافات أوروبا، إذ تميزت بأنها كانت أكثر بناغما وسلما وكرما وقناعة (سيل ١٩٩١).

ولقد كانت بعض المجتمعات الشعبية متجانسة، وبعضها الآخر ليس كذلك. ويسود افتراض بين علماء الأنثروبولوجيا مفاده أن المعتقدات والممارسات التقليدية للسكان - أي ثقافتهم ومؤسستهم الاجتماعية - كان لها دور إيجابي بالضرورة في حياتهم، وإلا ما كان لهذه المعتقدات والممارسات أن تبقى. ولهذا كثيرا ما كتب البعض أن الوحشية والتعذيب وقتل الأطفال والضعفاء والسحر، وختان الإناث، وقطع رؤوس الأعداء، والاعتصاب الاحتفالي وغير ذلك من الممارسات التي يستشعرها الغرباء لابد وأنها كانت لها وظيفة مفيدة في المجتمعات التي توارثها ممارسات تقليدية. وتآثر غالبية الباحثين بالدلالة الفكرية للتطور البيولوجي والحديث عن معجزات التكيف مثل تكون الكائنات الحية قصد الحماية أو تكون ريش للطيور .. الخ لذلك ذهبوا إلى أن التطور الثقافي أيضا اهتدى لعملية انتخاب طبيعي اجتمعت بالمعتقدات والممارسات التقليدية التي تلبى حاجات معينة لدى الناس، وإذا حدث وواجه المجتمع ما يبدو له افتقار شظوية مفيدة من المعتقدات أو المؤسسات فإنه عادة ما يفترض أن السبب كامن بالضرورة في ما خلقه الآخرون من تأثير ضار - الموظفون الاستعماريون أو الجنود أو التجار - ممن كانوا يملأون الساحة قبل وصول علماء الأنثروبولوجيا

وغير معروف مدى تواتر حدوث السمات التي ربما كان لها أثرها السلبي على التكيف في المجتمعات الصغيرة الحجم، وسبب ذلك أن الدراسات الإثنوجرافية نادرة جدا ما تتناول احتمال أن تكون بعض المعتقدات أو الممارسات للشعوب التي يصفونها

بعكس أن تكون أي شيء، آخر غير عوامل مساعدة على التكيف، وإذا حدث واحترنا عددا غير قليل من التسجيلات الإثنوجرافية بشكل عشوائي إلى حد ما، سوف نكتشف، كما حدث لي، أن الدراسات التحليلية للنتائج المترتبة على أي معتقد أو ممارسات وتؤثر بالسلب على التكيف هي دراسات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ونجد على العكس، وهو ما يشير حيرتنا، أن المعتقدات والممارسات غير العقلانية أو غير الفعالة أو الخطيرة هي موضوع الدراسة الوصفية وتفرخ الدراسة أنها عوامل تساعد على التكيف وتعاملها وكثرتها تخدم فرضا مفيدا بالضرورة، مثال ذلك أكثر الأشكال نظرها لظاهرة الذكور - فتح مجرى النول بالمشروط وكشطه بسويقات من أعشاب أو ما شابه من نبات، ثم بتر حشفة القضيب أو خياطتها، نجد الدراسات الإثنوجرافية (إن لم تكن الطب نفسية أمضا) أسهبت في تحليلها، ولم تتناولها باعتبارها ممارسات غير عقلانية وغير تكيفية أو ضارة بالتكيف، بل في ضوء ما تراء نتائج إيجابية اجدها أعيان أو ثقافيا ونفسيا (كنوت، وبجاجامارا، وباريت ١٩٦٦، وفاقازا ١٩٨٧).

عقلنة التكيف

التأثير التراكمي للافتراضات ذات التوجه النسبي والتكيفي قاد أجيالا من الإثنوجرافيين إلى الاعتقاد بضرورة وجود سبب اجتماعي أو ثقافي جيد يفسر بقاء معتقد أو ممارسة ما راسخا زمنا طويلا. إذ ما دام بقي زمنا طويلا فلا بد وأنه يسهم في التكيف - أو هكذا ظن الغالبية، تصریحا أو تلمیحا، ممن كتبوا ما نعرفه عن حياة شعوب المجتمعات التقليدية الصغيرة

ولكن ليس كل من كتبوا ذهبوا هذا المذهب، إذ إن بعض الإثنوجرافيين من أصحاب التوجه الإيكولوجي، على سبيل المثال، قدموا عرضا تقيّم على نحو حذر ودقيق، مدى قدرة معتقدات شعبية أو مؤسسات بذاتها على تحقيق التكيف. وخير مثال على ذلك والنز جولدميث في دراسته الإثنوجرافية عن شعب سيبي Seebe في

فوعندا. قدم أولا تحليلا لظاهرة التكيف الاجتماعية والثقافية الإيجابية نسبيا التي
مارستها أبناء سيبى في تاريخهم الحديث. ووصف بعد ذلك ما أشار إليه بعبارة
احتلال التوازن وسوء التكيف وبخاصة فشل شعب سيبى في إرساء قواعد نظام
اجتماعي قادر على الحفاظ على حدوده. وفشله في تطوير التزام بطائفة ذات صلة من
المبادئ الأخلاقية (١٩٧٦ - ٢٥٢). واستطرد في برأسته التحليلية ليحدد الظروف
الاجتماعية الاقتصادية المتغيرة التي أدت إلى هذا الفشل.

وثمة بالمثل كلاوس - فريدريك كوش الذي كتب عن الجالي *Die Jale* الذين كانوا في
منتصف ستينات القرن العشرين يعيشون في أقصى شرق الجبال الشجبة في إيريان
جايا *Irian Jaya*. قيل أن يقير الغزو الأجنبي حياتهم. واستنتج أن النزعات وعطيات
القتل التي كانت مستشرية بينهم للغاية وتثير الانقسامات والانشقاقات في صفوفهم
إنما كانت تحدث نتيجة من أساليب الجالي في إدارة النزاع محدودة جدا وغير فعالة
للغاية (كوش ١٩٧٤ - ١٥٩). وهناك آخرون، من أهمهم سي. آر. هالبايك، أوضح
عددا من الممارسات المعاشية الضارة بالتكيف في مجتمعات أخرى (١٩٧٢ - ١٩٨٦)
ولكن الملاحظ أنه حتى الإثنوجرافيون أصحاب النرجح الإيكولوجي كشفوا عن اهتمام
ضئيل جدا بظاهرة سوء التكيف. وأكدوا، بدلا من ذلك، على إظهار الملاحة التكيفية
بين مختلف الأنشطة الاقتصادية والبيئية.

والواضح في الغالب الأعم أنه حين تناقش الدراسات الإثنوجرافية خسائر
ومنافع معتقد بذاته أو ممارسة راسخة تدعمها مؤسسات المجتمع، فإن النتيجة ضرب
من الخبط. مثال ذلك أن من أسلم به أن منظومة عقيدية معينة، ألسحر على سبيل
المثال، قد تجلب خسائر للناس، ولكن سرعان ما تقرا تأكيداً بأن لها أيضا فوائد
ترجح خسائرها. وحين كتب كلايد كلوكهون وبيروشا لايتون كتابهما الكلاسيكي في
الإثنوجرافيا تحت عنوان *النافاهو Navaho*^(٤) خلاصا إلى نتيجة مؤدتها أن الاعتقاد

(٤) *النافاهو Navaho* - مجموعة من السكان الأصليين في أمريكا (يطلق عليهم ألبند) - يتحدثون لغة خاصة نسبي. أناباسكان، ويستوطنون مجتمعات في نيو مكسيكو وأريزونا وأوتاوا. (المترجم)

التقليدي لشعب النافايو بوجود السحرة بينهم روح في نفوسهم الخوف مما أدى إلى العنف وتسبب أحيانا في معاداة أيرياء من أحداث مأساوية. ولكنهما مع هذا، أكدنا أن معتقدات السحر تحفظ جوهر المجتمع صلباً بسبب السماح لأهله - شعب نافايو بأن يعيدوا توجيه كل عدوانيتهم التي يشعرون بها تجاه الأصدقاء والأقارب ويصبونها على السحرة بدلاً منهم. وأكثر من هذا أن هذه المعتقدات حالت بين الأغنياء والأقوياء بحكم الشعائر من أن يستحوذوا على قدر أكبر من القوة والسلطان، وأفادت بوجه عام في الحيولة دون وقوع أحداث توقع الفوضى بين صفوف المجتمع (كلوكهون ولاينون ١٩٦٢ - ٢٤٠). ولم يفكر الكاتبان لماذا احتاج شعب النافايو إلى معتقدات السحر لبلوغ هذه الغايات مع الخوف والعنف والمعاناة المتساوية التي أصابت الكثيرين، بينما مجتمعات أخرى نهضت إلى حلول أقل مأساوية لمشكلات مطابقة

ولم يكونوا وحدهم في هذا. إذ يبدو واضحاً أن غالبية الإثنوجرافيين يتفقون في الرأي مع عالم النفس دونالد في كامبل الذي كتب مؤيداً لاعتراضاً عن الكيفية ذلك لأنه ليست المشكلة ما قد نراه "شذوذاً" في معتقد تقليدي أو ممارسة تقليدية، لأنها ما أن نفهمها حتى نستكشف أهميتها الكيفية (كامبل ١٩٧٥ - ٤ - ١١). واتفق آخرون في الرأي مع مارفن هاريس الذي صرح بأن لا حاجة بنا لأن نعترض أن المعتقدات أو الممارسات تحقق تكييفا بعد أن ثبت بالبرهان أن المنظومات الثقافية الاجتماعية تتألف أغلبها أو كلها من خصائص تكيفية (١٩٦٠ - ٦٠١). ولكن كلا من اعتراض أن الثقافة لابد أن تكون دائماً عاملاً تكيفياً، والتأكيد على أنه قد ثبت أن الثقافات تتألف، أغلبها أو كلها، من خصائص تكيفية، يتلاشيان أمام دليل مهم مناقض. ذلك أنه لا وجود لمثل هذا البرهان الدافع عن التكيفية فيما خلا استثناء جزئي خاص بالممارسات الاقتصادية (إدجرتون ١٩٩٢).

إن المسألة لا تهتم الأنثروبولوجيين وحدهم، إن المسجل الإثنوجرافي مهم لكل من يعنيه فهم لماذا المجتمعات البشرية بما فيها مجتمعاتنا، لا تعمل أحيانا بكل ما نملك من طاقة. ولا سبيل إلى إنكار أن بعض المجتمعات الشعبية كانت متناغمة نسبياً، وأن لا يزال بعضها كذلك. ولكن الحياة في المجتمعات الأصغر حجماً والأسسط تكويناً لم تكن

خلوا تماما من السطح البشري والمعاداة الإنسانية. وإذا لم يكن لدينا هذا مساحة لموثيق التفكير الذي ذهب إليه. هإني أقول إن بعض الذنوب الصغيرة عجزت عن تلبية متطلبات بيئتها، وعاش بعضها حياة لا مبالاة وخوف وصراع وجوع ويأس. وينبئ آخرون ممارست من نوع الأحقاد والضغائن مما أفضى إلى دمارهم. ولكن ينقل الاعتقاد قائما بأن المجتمعات صغيرة الحجم أفضل منا تكيفا مع ظروفهم الإيكولوجية. إن بعضهم كان كذلك، ولكن آخرين يقينا لم يكونوا مثلهم.

إن المسار في مختلف المجتمعات، سواء مجتمع حصري أم مجتمع شعبي، قادرون على التغمص الوجداني لشاعر الأخرين، وعلى العطف، بل والحب أيضا. ويمكنهم أحيانا أن يحرزوا انتصارات مذهلة على التحديات التي تفرضها عليهم البيئة. ولكنهم أيضا: قادرون على الاحتفاظ بمعتقدات وقيم ومؤسسات اجتماعية تسفر عن قسوة خرقاء ومعاناة لا مبرر لها، وحمق مذهل في علاقاتهم ببعضهم وبالمجتمعات الأخرى، بل وحمق إزاء البيئة التي نجسّضهم. إن البشر ليسوا دائما حكماء، كما أن الثقافات والمجتمعات التي يبتكرونها ليست اليات مثلى للتكيف جرى تصميمها بإتقان كامل لكي تلبى الضرورات البشرية. وتخطئ إذا قلنا، كما يذهب كثير من الباحثين، أن شعبا ما إذا ظل مؤمنا بمعتقد تقليدي أو ممارسة تقليدية لسنوات طويلة فلا بد أن يكون لهم دور مفيد في حياة هذا الشعب إن المعتقدات والممارسات التقليدية يمكن أن تكون مفيدة ونافعة، بل ويمكن أن تعمل كاليات تكيف مهمة. ولكنها يمكن كذلك أن تكون غير فاعلة وضارة، بل ومهلكة.

الفرعة النسبية الثقافية ما فيها من دلالات وما فيها من هراء

مبدأ الفرعة النسبية الثقافية ليس بدون دلالة تاريخية، إذ أفاد في مناخضة النزعتين العرقية والعنصرية. وروينا بأداة مهمة لتصويب أفكارنا عن التطور الجنائي المسار، الذي أفترض أن المجتمعات كلها مرت عبر مراحل التقدم ذاتها إلى أن بلغت في النهاية درجة تقرب من الكمال في هذه الصورة أو تلك من صور الحضارة

الأوروبية العربية علاوة على هذا، فإن تشدد أصحاب النظرة النسبية على احترام قيم الشعوب الأخرى ربما آفاد بانر طيب فيما يتعلق بكرامة وحقوق الإنسانية بحيث رجح نفعه إضراره بالعدم وأكثر من هذا أن التأكيدات المنهية حماسا التي جاءت عن لسان من يسمون أصحاب النزعة النسبية في المعرفة الأبنيمولوجية أفادت أيضا من حيث إنها ذكرت كل من «أول في نرق أن يقارن مدى صلاح وملاحة الثقافات، وأن أي منظومة ثقافية اجتماعية إن هي إلا شبكة معقدة من المعاني التي يتعين فهمها في سياقها وعلى نحو ما يفهمها أصحابها قدر المستطاع (سببرو ١٩٩٠). وربما أيضا يكونون على صواب إذ يدعون بأن بعض صـ ور الفهم والافعالان تمثل خاصية فريدة لثقافة بذاتها وأن معاني ووظائف بعض الممارسات قد تظل دائما بعيدة عن فهم المراقب الخارجي الذي يتأمل الثقافة الأجنبية

بعد أن دعاه النزعة النسبية المعرفية لا يزعمون فقط أن كلا من هذه العوالم فريد تماما - لا سبيل إلى قياسه وبمعد فهمه إلى حد كبير - بل يؤكدون أن سكان كل عالم من هذه العوالم، كما يقال، لهم قدرات «هرمية مختلفة» وبشير دار سيمبرو إلى ما يسمعه «المعلم المعرفي»، وما يسميه أيضا إنترنت جينتر الفوضى المعرفية. ويتخذ دعاة النزعة النسبية والنزعة التاوتونية بعد الحداثيين من هذين مسلما - دون عليها دعمهم بوجود فوارق أساسية من ثقافة إلى ثقافة من حيث العمليات الإدراكية بما «ها عن منطق واستدلال نسبي وعفاحة معلوماتية (جيلنر ١٩٨٢ وسببرو ١٩٨٦). وإن الة ول بوجود مثل هذه العوارق الإدراكية الأساسية لا يزال حاجة إلى دليل وبرهان. وإذا كان تاريخ البحث في المعرفة الجسدية وفي الذائفة المتبادلة يهدى إلى شيء ما، إلا أنه لن يفيد بشيء هنا.

إن النزعة النسبية الثقافية أو الثقافية هي الأنهر لأن عددا من أهم وأبرز الأنثروبولوجيين في العالم، دعموا جميعا في فترة سابقة مبدأ النسبية الثقافية، ولكنهم نشروا بعد ذلك مقبلمات مناهضة للنزعة النسبية خلال دراساتهم عن المجتمعات السعوية. مثال ذلك أن ألفريد كروسر وقتما كان عبدا للأنثروبولوجيا الأمريكية عام ١٩٤٨ لم يكف فقط برفض النزعة النسبية، بل صرح بأن المجتمعات

في تقدمها من المجتمعات بسيطة إلى مجتمعات أكثر تعقداً تزداد إنسانية وتؤكد أيضاً - وبلغت ذروتها في شعراء وعلماء الأنثروبولوجيين المعاصرين - يقف «منتقضا» - إن ما هو سقيم ذهنياً في الثقافات القديمة الحديثة أميل إلى أن يتضاق مع ما كان صحيحاً ومؤثراً في الثقافات القديمة والمنظفة (١٩٤٨ - ٢٠٠٠) ويستطرد كروبيير ليقول علاوة على ما سبق، إن التقدم، ويشير بذلك إلى التطور الثقافي، لم يتضمن فقط مظاهر تقدم في الثقافة والعنوم، بل هجر ممارسات مثل التجارة النفسانية، أو عزل النساء، في وقت المحاض أو الحيض، وكذا التعذيب والأداء والإيمان بالسحر أو الخرافة. ويعد ذلك بعلمين محدث رالف ليتون، وهو عالم أنثروبولوجي رائد آخر، ويؤيد آراءه على الأرجح أفضل فهم موسوعي عن الإثنوجرافيا العالمية بحيث تفوق على كل من سواه من معاصريه الأحياء، وكذب يقول يمكن أن تكون هناك ثلاثة معايير أخلاقية كلية، ودعم هذا الرأي كلايد كلوكهون بعد ذلك بثلاث سنوات، وكان قد تخطى عن إبعاده بالزرعة النسبية (كلوكهون ١٩٥٥، لينتون ١٩٥٢).

وأتفق روبرت ريدفيد، المشهور بمقارنته بين المجتمعات الشعبية والحضرية، في الرأي مع كروبيير إذ أعلن عام ٢٥٩١ أن المجتمعات البدائية كانت أقل رقة وإنسانية من الحضارات الأكثر تقدماً إجمالاً كان على الجنس البشري أن يستحث ويطور قدره من الضميرية أكثر رقة وإنسانية. وحدث تحول في الحكم الأخلاقي الذي يجعلنا ننظر إلى الشعوب غير المحضرة لا على أنهم أذلاء لنا، بل على مستوى آخر من الخبرة البشرية (١٩٥٣ - ١٦٢٠).

وفي عام ١٩٦٥ كتب جورج بيتر موروك، وقد كان رائداً للدراسات الثقافية المغاربية في العالم آنذاك، وقال إن فكر بنديك المعبر عن الزرعة النسبية الثقافية والذي يرى أن العقيدة الثقافية لا معنى لها إلا في سياقها إنما هو فكر «هراء» كذلك فإن نكبت سيمبل هيرسكوفيت يان لابد وأن ننظر إلى جميع الثقافات بأنها متساوية من حيث الكرامة والتقدير ليس فقط قولاً هراء، بل حمقاً عاطفياً أيضاً (١٩٦٥ - ١٤٦). وأضاف إن من العبث النظر إلى الوحشية والعبودية والعلاج بالسحر وقتل المسنين باعتبارها متساوية من حيث الكرامة والصواب مع كفالة الأمن للمستمن

والطب العلمي والفنون الصناعات المعدنية. ويؤكد مورديك أن جمع الناس بفضل
التعانة الغربية ويوبون لو يستطيعون إطعام أطفالهم وكبارهم بدلا من فتلهم (١٩٦٥)
١٤٩) والملاحظ أن الأنثروبولوجيين، مع استثناءات قليلة جدا، لا يكتفون بتبني هذه
الآراء المناهضة للنزعة النسبية، بل إنهم يشايعون بقوة الاعتقاد بأن الثقافة أداة تكيف
في واقع أمرها، ويجب أن تكون كذلك.

التكيفية السينة

ثمة أسباب كثيرة من شأنها أن تجعل بعض المعتقدات والممارسات التطبيقية
سينة أو غير ملائمة لتكيف أحد هذه الأسباب التغيير البيئي، وهناك أسباب
أخرى تكثر بعدا ذات علاقة بمختلف جوانب حل المشكلات عند البشر. وتجد على
سبيل المثال شواهد كثيرة جدا تؤكد أن الناس في مجتمعات كثيرة ليس لديهم سبب
عقلاني يفسر أمسكهم بمعتقدات أو ممارسات معينة، أو أن بعضا من أهم قراراتهم
- أين يتوجهون للفنصر أو لصيد السمك، أو متى يغيرون على عيولهم، أو ماذا
يزرعون، إنما تنبئ على نبوءات أو أحلام أو إلهام غيبى أو غير ذلك من ظواهر
خارقة لطبيعة ونعرف أن مملكة أفريقية جنوبية دمرت عن آخرها عندما قضى
رئيسهم بلنهم بقدر كل ما لديهم من ماشية والامتناع عن زرع الحاصيل وكانت
أنبوة بقول إنهم بذلك سيبدأون حقبه سمادة كاملة وبراعة من خلدايا البشر، ولكنهم
بدلا من ذلك واجهوا مجاعة قاتلة كما يمكن أن تتبنا أي منظومة من المعتقدات
العقلانية (بيريس ١٩٨٩)

والملاحظ أن الناس غالبا ما يفشلون حتى عند محاولتهم اتخاذ قرارات عقلانية
والسبب أن الناس، خاصة الشمعيين منهم، لا تتوفر لديهم دائما كل المعارف وثيقة
الصلة والتي تلزمهم لانخاذ قرارات تدعمها معلومات كاملة عن بيئتهم أو جيرانهم أو
حتى عن مؤسساتهم الاجتماعية الخاصة بهم وأكثر من هذا، أن هناك كماً كبيراً من

البحوث عن اتخاذ القرارات عند البشر سواء هي ظروف تجريبية أو هي مواقف عادية طبيعية. ويوضح هذه البحوث أن الأقرار كثيرا ما تتخذون قرارات خاطئة خاصة حين يتعرضون لحل مشكلات جديدة أو مشكلات بحاجة إلى حساب للنتائج المحتملة ، وهذه تحديدا نوع المشكلات التي يفرض أكبر قدر من التحديات أمام التكيف البشري

والمعروف أن عاقبة البشر ليسوا بوى مهارة كبيرة في تقييم المخاطر، خاصة حين يكون الخطر جديدا غير مسبوق. وينزعون إلى التقليل من قيمة الأثر التي يمكن أن سبب مسبقا عن شئ حرم أو عن تغير تقني أو اقتصادي. وأكثر من هذا أنه حين تكون الكوارث أحداثا نادرة مثل الحفاف أو الفيضانات أو الأماهير أو انفجار البراكين فإن الناس دائما يسيئون الحكم على النتائج المترتبة عليها (بوجلاس وبلدافسكي ١٩٨٢. ولامسدن وويلسون ١٩٨٦). ولا يحاولون الاستعداد مسبقا بتطوير ثقافة جديدة حتى وإن جعل الضغط البيئي مسألة النغير النقاشي فمرا لا محيص عنه (كاوجبل ١٩٧٤). واستخدام الاستثماريون الغربيون مفهوم العقلانية الفعّدة في إشارة إلى القدرة المحدودة لدى البشر على تلقي واختزان واسترجاع ومعالجة المعلومات. وتضع نظرية القرار الاقتصادي هذه القيود في الاعتبار. ويتخذ الناس حتما بعض القرارات القهورة بسبب القود الذي يحد من إدراكهم علاوة على المعارف القاصرة عن بينهم (كوران ١٩٨٨).

وأوضح داني سبيربر بجلا. أن البشر غالبا ما مقصرون على نحو غير عقلاني. وهو الذي قال إن المعتقدات الثقافية فيما يبدو هي الأكثر وضوحا وإثارة للاهتمام إنها لا تبدو منافية للعقل مجرد أن حادت قليلا عن الحس العام. أو تجاوزت في خوف ما تقضى به الشواهد. وإنما تبدو وكأنها إثارة صريحة ضد عقلانية الحس العام (١٩٨٥ - ٨٥) وأوضح سبيربر أيضا وأخرون أن الناس في كثير من التجمعات السكانية مغمعون بأن البشر أو الحيوانات يمكن أن يكونوا في مكانين في وقت واحد. ويمكن أن يحملوا أنفسهم إلى كائنات من نوع آخر، أو أن يختفوا عن

الأخبار فلا يبصرهم عين. أو أن عبروا العالم المادي بوسائط، سخلفة فحدها لهم معيذاتهم ويفكرون أحيانا على الأقل تفكرا قبانما على السحر. والشيء المرجح تماما في الحقيقة أن ميادى السحر النعاطفى سائدة في كل مكان لأن العقل البشرى تطور على التفكير بهذه الطريقة (روزين ونيمبروف ١٩٩٠)

علوة على هذا تشير كل الدلائل المتاحة إلى أن البشر، خاصة من يعيشون في مجتمعات شعبية يستخدمون عند اتخاذ القرارات وسائل إرشادية تشجعهم على استحداث آراء ثابتة حتى وإن ارتكزت هذه الآراء على معلومات قاصرة أو زائفة. وتشجع هذه الوسايل الإرشادية الناس أيضا على التشبث بآرائهم حتى وإن توفرت لديهم دلائل كثيرة متناقضة. واستنتج فر. به. شويدر في هذا الصدد أن الفكر البشرى محصور إزاء الإجراءات العلمية، وغير محتك إزاء الاستدلال العقلاني المجرد. ومنيع إلى حد ما نون شوهد وبراهين التجربة (١٩٨٠ - ٧٦)

العقلانية واللاعقلانية

ليس لنا أن ندهش حين نعرف أن أرسطو الذي لم يكن سائيه أحد في عصره كمفكر عقلاني كان مقسما بأن الأجنة الذكور تحمل بهم أمهاتهم وقت هموب ربح شمالية عاتية ولكن. وعلى الرغم من مضي أجيال وأجيال من التعليم العلماني لا يزال الأمريكيون المعاصرون يواصلون التزام وضع آرون العقلانية للكامنة. وأعداد دراسات استقصائية مختلفة أن ٨٠ بالمائة من الأمريكيين المعاصرين لا يزالون يؤمنون بخوارق الطبيعة والمعجزات، ويؤمن ٥٠ بالمائة بوهوم كائنات سعاوية، ويؤمن أكثر من الثلث بالتشيطان وقدرته على الإيذاء لشخصى (جالوب وكاستيلي ١٩٨٩، وجريلى ١٩٨٩، وويلز ١٩٩٠). علوة على هذا، وكما ذكرت أعفا، فإن قدرنا على تحديد المخاطر في بيئتنا فطرة محدودة. وأشار في هذا الصدد كل من ماري بوجسلاس وأرون وايلدافسكى إلى أن جميع الناس يركزون على عدد محدود ومحدد من الأخطار التي تواجههم ويففلون الباقي. ومن بينها ما هو واضح المتطورة. مثال ذلك أن زائير تواجه

الكثير من الأخطار الحقيقية والمؤثرة. من بينها مجموعة من الأمراض افاقية. ولكنهم لا يراون تركيزاً اهتمامهم على ثلاثة فقط: الانهيار الشعبي، وهو أقل خطراً من الانهيار التكنولوجي الذي يعانون منه أيضاً، والعقم، وصاعقة البرق، التي هي مصادفة عبر شائعة مثل مرض السل الذي يعانون منه كثيراً ويجهلونه كثيراً (بوجلاس وروبلدافسكي ١٩٨٢). ورغم المجلس الاستشاري العلمي التابع لهيئة حماية البيئة أن الأمريكيين يفعلون الشيء ذاته، إذ يستمد بهم القلق والارتعاج بسبب أضرار بيئية أقل أهمية سبباً بينما يفعلون مخاطر تكنولوجية على أخطار أشد بكثير.

ويوصف توماس جيلوفيتش العمليات المعرفية التي تجعل الأمريكيين بمن فيهم من هم على مستوى تعليمي عالٍ، ينشيطون بقوة بمعتقدات ثبت زيفها بالبرهان والدليل. ويكفي أن تلقى نظرة على دراسات استقصائية عن طلاب لعاظم الأمريكية والتي تبين أن حوالي ٨٥ بالمائة يؤمنون بصواب تنبؤات النسيمين، و٥٠ بالمائة يعتقدون أن الأهرامات المصرية تم بناؤها بمساعدة كائنات جاءت عبر الفضاء. ويوصف جيلوفيتش الآراء البكيرة التي يشوه بها الأمريكيون المعاصرون لواقع نتيجة ميلهم إلى الصاق معنى ونظام إلى الظواهر العشوائية، ولا يذكرون سوى الأحداث التي تؤكد معتقداتهم الراسخة. ويتسبون تلك التي تنقضها (جيلوفيتش - ١٩٩١).

وإن ما ذكرناه قليل من كثير جداً في قائمة الضمق الذي يسهم فيه من تراهم أكثر الناس عقلانية في صفوفنا من أمثال المهندسين والأطباء والعلماء والعلمين. ومن ثم نقول إذا كان الأمريكيون المحدثون أقل من أن يكونوا مجموعة حاسبة عقلانية، إذن فإن من غير المعقول ولا المستصوب أن نتوقع من جماعات ثقافتهم أقل علمانية من ثقافتنا أن يكونوا أكثر كفاءة منا في حل المشكلات، وأنا هنا لا أدفع بأن أبناء المجتمعات الشعبية يتخذون قرارات بون المستوى العقلاني أو يؤمنون بمعتقدات سببها التكيف لأنهم من الناحية المعرفية أقل أهلية من آخرين يعيشون في مجتمعات متعلمة وصناعية.

وخلص سي آر هولياك وآخرون إلى سبحة مفادها أن العمليات الفكرية لدى أبناء المجتمعات صغيرة الحجم عاجزة عن فهم السببية والزمن والواقعية والمكان والاستبصار والتجريد كما يفهمها وبستخدمها العلم الغربي (هولياك ١٩٧٢). والسؤال عما إذا كان ما يسمى الفكر البدائي أقل تجريدا وأكثر إمعانا في السحر، أو أقل قدرة على تقدير الاحتمالات الجديدة، لا يزال مسألة موضع جدال، ولكن حسمها غير ذي صلة بالموضوع الذي أحاول بيانه. إنني أؤكد أن الغالبية العظمى من الناس في جميع المجتمعات دون استثناء، بما فيها أكثرها أغفة مع العلم الغربي، إنما ترتكب أحيانا أخطاء تحمل في طياتها أضرارا، وتعتمد إلى الحفاظ عليها. نعم من الممكن أن تقع المجتمعات صغيرة الحجم في أخطاء كثيرة من هذا النوع، ولكن القرارات السببية بالنسبة لتكثيف ترتكبها جميع المجتمعات

تحديد المشكلات

إن الناس لكي يصلوا بالطاقة التكيفية لاعتقاداتهم ودراساتهم إلى أفضل وضع ممكن يتعين عليهم ليس فقط أن يفكروا عقلانيا، بل وأن يكونوا هادئين على تحديد المشكلات التي به إجابة إلى حل. وهذا أمر صعب المنال غالبا. ذلك لأن بعض المشكلات مثل تغيرات المناخ أو نحات التربة، تحدث تدريجيا بحيث لا ندرکہا ولا نستطيع أن نجدنها إلا بعد مضي زمن طويل، ولا تفيد معها استجابة بشرية وثمة ما لا ندرکہه باعتبارہ مشكلات على الإطلاق مثل توطن الأمراض أو أخطار التغيرات التي نظرا على التعدي. لقد عاش البشر مع خطر الملاريا القاتل الآف السنين قبل أن نفهمها أحياء في القرن التاسع عشر وعرفنا أن اليعوض هو الناقل لها، ولا يزال كثيرون لا يفهمون أسباب أمرض قاتلة تعصف بهم. ولا تزال ظواهر أخرى يراها الناس مشكلات ثم يبين أنها غير قابلة للحل بسبب أن المجتمع تمرقه قيم متصارعة أو جماعات مصالح متصارعة. تربي ما حجم الطاقة التي يقبل الناس بذلها في سبيل زيادة موارد الغذاء، ومن يقبل الناس الإقلاع عن غذاء طيب المذاق ولكنه غير صحي

هي سبيل عذا. أكثر عيبه عذائية، ولكنه أرضي جادبية من حيث المادوي، وهل مرضي
الرعاء، السخلى طوعا عن بعض امضيازاتهم لصالح المجتمع في مجموعته وهل يفعل
الرجال ذلك لصالح المرأة؟ وهل يتخطى الكبار عن بعض سلطاتهم وحقوقهم للشباب؟
وهل يعطى الرجال للمرأة حقوقها؟

ليس معنى هذا أن الناس في المجتمعات المختلفة لا يعباون بما يروونه مشكلات.
إن المجتمعات التي لها قادة أو مجالس أو بيروقراطيات معترف بها غالبا ما تنفذ
قرارات بهدف أن تكون حذولا. إن مجلس الكهنوت وأرستقراطى هاواي ألغوا نظامهم
الذامن بالحصرات من الأطمعة في محاولة منهم لحسم ما رآوه مشكلة، وحاول
البابوي Paganini (اتحاد لقبائل هندية يعيش في محمية داخل أوكلاهوما) إلغاء القداء
المشري، وأرسي ماتوي الزعيم الديني لجماعية السبيبي Sevi في أولغندا دعائم طقس
جدهم بترجمته سن القانون. حيث يجتمع كل أعضاء كنيسة معا ويقسمون معا مالا
يرتكبوا عددا من الأفعال (جولاء شميدت ١٩٧٢ - ٤-٢) وكان ابتكار ماتوي على
الأرجح آلية تكيف بالسياسة لجماعة السبيبي، ذلك لأنه حفص حدة العنف بين القبائل
ولكن مثل هؤلاء الزعماء ذوي البصيرة النافذة قليلون بين البشر ونحن نجعل الحكمة
من قرارات زعماء كثيرين على مدى تاريخ التطور البشري، ولكن إذا انخدنا من
التاريخ المكتوب هاديا لنا سيبين لنا أن القليل من هذه القرارات حققت نتائج نافعة
إلى حد كبير. ونشير ياربازا نوكمان إلى عكس ذلك في كتابها مسيرة الحمور إذ
توضح أن الغالبية العظمى كانت معوقة وغير منتجة (نوكمان، ١٩٨١) ونذكر أيضا
مارتن هاريس الذي ظل زمنا طويلا داعية لوجهة النظر القائلة إن جميع المعتقدات
والممارسات التقليدية هي آليات تكيف. ولكنه أحبر أن انتهى إلى نتيجة مذهلة وهي أن
جميع الخطوات الرئيسية الكبرى في التطور الثقافي حدثت في غيبة أي فهم واضح بما
كان يجري. ويضيف قائلا أويديو أن القرن العشرين قرن الوفرة حقا من التغيرات
غير المقصودة وغير المنشودة وغير المتوقعة (هاريس، ١٩٨٩ - ٤٩٥).

إن القرارات العقلانية المحسوبة جيدا. والتي تهدف إلى حل مشكلات الناس،
نادرا ما تحدث في المجتمعات الصغيرة والملاحظ في أغلب الأوقات والأزمنة أن

طريقة الناس في القنص أو صيد السمك أو الزراعة أو أداء الطقوس أو توجيه الأطفال أو الاستمتاع بوقت الفراغ ليست موضوعات للحوار على الإطلاق، أو لبس على الأقل للمناقشة بشأن كيفية أداء هذه الأنشطة على نحو أكثر كفاءة أو استمتاعاً. ولا يكف الناس عن الشكوى بشأن أمور مختلفة في حياتهم، وقد يحاولون أحياناً تجربة شيء جديد، ولكن نادراً ما يحاولون إجراء أي تغيير أساسي في معتقداتهم أو ممارساتهم التقليدية. والملاحظ أن التغييرات الكبرى إذا ما حدثت، إنما تفرضها ضغوط أحداث أو ظروف خارجية، غزو أو وباء أو جفاف. وإذا لم تقع مثل هذه الأحداث يظل الناس يضربون في عماء متكلمين على الحلول التنفيذية التي ظهرت استجابة لظروف وملابس سابقة. إن الغالبية العظمى من الناس يدبرون أمورهم من أجل البقاء، يرون أن يكونوا عناصر عقلانية في حساباتهم بحثاً عن الحلول المثلى. ويبدو على سبيل المثال أن الشعبيين يتبنون خطأ تكفل استدامة للحياة، ولكن مع ناتج من العذاء دون الحد الأقصى، ويقاومون التغييرات التي يمكن أن تفضي إلى ما يتصورونه مخاطراً، حتى وإن كانت الأساليب الجديدة الإنتاجية مستوحاة بطعام أكثر وأوفر.

ولكن إجحام الناس عن التغيير جعل الأندروبولوجيين يشيرون إلى خضوع مفهوم الاقتصادية بوصفها "مخاض الحد الأدنى والجهد الأقل". وتنزع المعتقدات والممارسات إلى البقاء والنوام، لا لأنها تحقق أقصى نفع ممكن ولكن لأنها بوجه عام تعمل على نحو جيد بحيث إن أي تغيير فيها ليس لزاماً بدهشة ويبسوي ضو: كن ما نعرفه عن الأحكام المنهلة في سونها أحياناً والتي تصدر عن مخططين عقلانيين في الأمم الحديثة، أن من غير المرجح بالنسبة لأبناء المجتمعات الأصغر والأوسط ويفتقرون إلى ما لدينا من تقدم علمي أو تقني أن يكونوا قادرين دوماً على اتخاذ قرارات تحقق أقصى نفع من التكيف حتى وإن حاولوا ذلك عملاً على هذا، لم عمد تجمع سكانى إلى ابتكار تكيف شبه كامل، مع بيئته فإن من غير المرجح أن نستطيع الحفاظ عليه لفترة زمنية طويلة.

. وإن ما نؤكدّه هنا ليس فنّ المعتقدات والممارسات التقليدية غير تكيفية على الإطلاق، أو أنها لا تتسم أبداً هي رفاه الناس، ولا أدعى هنا أن الناس لا يفكرون أبداً على نحو عقلائي كاف لاتخاذ قرارات فعالة لمواجهة التحديات التي تفرضها عليهم بيئتهم. كما وأننى لا أدفع بأن السلوك البشرى يدفعه وتحفزه فقط جوانب الاستعدادات البيولوجية التي تؤدي إلى تعزيز المجتمع، مثل تخیلات جنون العظمة أو الأفكار الأسيية، إن الناس يدفعهم في الغالب النهم والمزوة والحقّد وغير ذلك من صفات تعثّل تحدياً للخير العام، ولكن الناس لديهم أيضاً استعداد مسبق للتعاون ولكن يكونوا عكوفين مع معضهم، بل التضحية أحياناً بمصالحهم من أجل رفاه الأخرين (أندجرتين ١٩٨٧، ١٩٨٥).

ولكن إذا كانت المعتقدات والممارسات الضارة بالتكيف شائعة على نحو ما هو ظاهر لنا فإن وجودها يفرض تحدياً للإطار التكيفي السائد. إن الأنشطة الخاصة بموارد الرزق لا بد أن تكون على قدر كاف من الفعالية ضمناً لبقاء الناس، ولكن ليس لازماً أن تبلغ الفعالية المثلى (بمعنى أن توفر أفضل غذاء ممكن حائل فاقد من الوقت والضائق). وليس مرجحاً تماماً أن ثمة شعباً حقق الحد الأمثل من التكيف الاقتصادي. وليس واضحاً في الحقيقة أن أي شعب حاول، مجرد المحاولة لبلوغ هذا الهدف ومعرفة أن التنظيم الاجتماعي والثقافة يشتركان بالتقانة المتاحة للناس وبالأنشطة الاقتصادية ولكن أم يحدث أن المؤسسات الاجتماعية ولا منظومات المعتقدات الثقافية أنضت إلى أي شيء، يمكن اعتباره الاستخدام الكفوي الأمثل للبيئة ولم يحدث أيضاً أن دعمت أي منهما دون خلط رفاه كل أبنا - المجتمع.

ومثلما أنه لم يوجد مجتمع ابتكر حتى الآن وسيلة ملى لاستغلال بيئته، كذلك فإن من المستبعد أن يكون كل أبنا - مجتمع ما اتفقوا في الرأي عن معنى وكيفية الاستغلال الأمثل للبيئة. زد على هذا أننا لم نعرف بعد مجتمعاً أوفى بكل حاجات أبناؤه إلى حد الإنشباع. إن جميع المجتمعات يمكنها أن تكون أفضل حالاً بما في ذلك المجتمعات التي يتتبع أهلها بأفضل قدر من الصحة والسعادة وطول العمر. ويمكن لكل انجتمعات أن تبرز تحسبنا وتقدماً للوضع الصحي والأسوي. وأن تحقق المزيد

من إسهامات الحياء لم ينشأ أبدا مجتمع كامل ولا تكيف أمثل - وإنما هناك فقط درجات من عدم الكمال وحدث أحيانا، عن علم أو عن جهل أن يوهق ويلائم الناس من أساليب العيش في محاولة لتحسين حياتهم ولكن لم يحقق أي شعب بعد المجتمع الأمثل ، إن البشر ليسوا قادرين فقط على الوقوع في أخطاء وإسائة الأحكام بشأن الظروف الإيكولوجية التي يجب أن يتعلموا كيف يواجهونها. بل إنهم مهربون أيضا للسمي من أجل مصالحهم على حساب الآخرين، وإيثار الحفاظ على العادات والأعراف القديمة بدلا من استحداث جديد بدلا منها ، نعم يمكن للثقافة أن تكون ألبه تكيف، ولكنها لا يمكن أن تبلغ أبدا حد الكمال في هذا

ومن ثم جرى بنا ألا نفترض، كما هو شائع، أن أي عقيدة أو ممارسة تقليدية رسخت زمتا لابد وأن تكون آلية تكيف ضمانة لبقاء المجتمع ويتبغى بدلا من ذلك افتراض أن أي عقيدة أو ممارسة يمكن أن تسقط وتتداعي عند أي نقطة على امتداد متصل القيمة التكيفية. إنها يمكن ببساطة أن تكون محايدة أو مقبولة أو يمكن أن يفسد بعض أبناء المجتمع وتضرر بالبعض الآخر ويمكن أن تكون أحيانا ضارة للجميع.

وإذا ما أقول ما قاله عالم الأنثروبولوجيا البريطاني روي إلين: التكيفات الثقافية نادرا ما تكون هي أفضل الحلول الممكنة، ولا تكون أبدا عقلانية خالصة (١٩٨٢ - ٢٥١)

المراجع

- Gampbell, D. A. 1975. "On the Conflicts Between Biological and Social Evolution and Between Psychology and Moral Tradition." *American Psychologist* 30: 1103 - 1126.
- Garza, J., M. Djajarsari, and M. G. Benelli. 1965. "The Meaning of Submission of the Uralina to Aboriginal Australians." *British Journal of Medical Psychology* 38: 245 - 253.
- Geertz, C. L. 1975. "On Causes and Consequences of Ancient and Modern Population Changes." *American Anthropologist* 77: 505 - 525.
- Gungl, M., and A. Widdowsky. 1962. *Risk and Culture: An Essay on the Selection of Technological and Environmental Dangers*. Berkeley: University of California Press.
- Epstein, R. B. 1978. "The Study of Deviance: Marginal Man or Everyman?" in *The Making of Psychological Anthropology*, edited by G. D. Spindler, pp. 444 - 476. Berkeley: University of California Press.
- 1995. *Rites, Hierarchies, and Social Order*. Berkeley: University of California Press.
- 1992. *Silk Societies: Challenging the Myth of Primitive Humanity*. New York: Free Press.
- Liter, D. 1980. *Environment, Subsistence, and System: The Ecology of Small-Scale Societies*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Favazza, A. H., with R. Favazza. 1987. *Bodies Under Siege: Self-Mutilation in Culture and Psychology*. Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Leach, E. 1980. *The Sacred Enigma*. New Brunswick, N. J.: Rutgers University Press.
- Malin, G. Jr., and J. Costell. 1988. *The People's Religion: American Faith in the Nineties*. New York: Macmillan.
- Gelien, F. 1992. "Hellenism and Universal." in *Nationality and Religionism*, edited by M. Hobsbawm S. 1-1994, pp. 161-250. Oxford, East: Blackwell.
- Gilovich, T. 1981. *How We Know What Isn't So: The Fallibility of Human Reason in Everyday Life*. New York: Free Press.
- Godschmidt, W. R. 1976. *The Culture and Behavior of the Gebu*. Berkeley: University of California Press.

- Ginsley, A. 1990 *Religious Change in America*. Cambridge: Harvard University Press.
- 1990 *The Human Career*. Cambridge: Blackwell.
- Hallpike, C. R. 1972 *The Koro of Ethiopia: A Study of the Values of a Culture*. Society Oxford: Clarendon.
- 1986 *The Principles of Social Evolution*. Oxford: Clarendon.
- Harris, M. 1960 "Adaptation in Biological and Cultural Science." *Transactions of The New York Academy of Science* 23: 59 - 65.
- 1980 *Our Kind: Who We Are, Where We Came From, and Where We Are Going*. New York: Harper & Row.
- Kluckhohn, C. 1955 "Ethical Relativity: Sic et Non." *Journal of Philosophy* 52: 655-677.
- Kluckhohn, C., and D. Leighton. 1962. *The Navaho*. Rev. ed. Garden City, N.Y.: Doubleday. Published in cooperation with the American Museum of Natural History.
- Koch, K. F. 1974 *War and Peace in Iatema: The Management of Conflict in High Land New Guinea*. Cambridge: Harvard University Press.
- Kroeber, A. L. 1948 *Anthropology*. New York: Harcourt, Brace.
- Kuran, I. 1998 "The Tenebris Pars: Theories of Personal and Collective Conservatism." *Journal of Economic Behavior and Organization* 10: 143 - 171.
- Levin, R. 1952 "Universal Ethical Principles: An Anthropological View." In *Moral Principles of Action: Man's Ethical Imperative*, edited by H. A. Ansien. New York: Harco.
- Lumsden, C. J., and E. O. Wilson. 1981 *Genes, Mind, and Culture*. Cambridge: Harvard University Press.
- Mirraux, G. P. 1985 *Culture and Society*. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press.
- Nisbet, H. 1973 *The Social Philosophers: Community and Conflict in Western Thought*. New York: Crowell.
- Peres, J. B. 1989 *The Dead Will Arise: Nongqose and the Great Xhosa Cattle-Killing Movement of 1856*. London: Corgi.
- Redford, R. 1947 "The Fok Society." *American Journal of Sociology* 52: 291-309.
- 1953 *The Primitive World and Its Transformations*. Ithaca: Cornell University Press.
- Ruseacu, P., T. A. Calvert, and G. L. Seligmann. 1987 *Chicano: the Evolution of a People*. Malabar, Fla.: Krieger.
- Flora, P., and C. Nemeroff. 1990 "The Laws of Sympathetic Magic: A Psychological Analysis of Similitude and Contagion." In *Cultural Psychology: Essays on Comparative Human Development*, edited by J. W. Stoller, P. A. Shvedor, and G. Herdt, pp. 205-232. New York: Cambridge University Press.

1. 40. Kerkpatrick, P. 1991 Letter to the Editor. *New York Times*, 25 July.
- Stroe, P. 1997. 'Civilization and Its Malcontents: Freud's and to Typists?' *New Critique* January, pp. 23-32.
- Shweder, H. A. 1980. 'Rethinking Culture and Personality Theory, Part 3, From Genesis and Typology to Hermeneutics and Dynamics.' *Ethos* 8: 60-94.
- Speiser, H. 1982. 'Apparently Irrational Beliefs.' In *Rationality and Relativism*, edited by M. Hollis and S. Lukes, pp. 141-180. Oxford: Basil Blackwell.
- 1985. 'Anthropology and Psychology: Towards an Epistemology of Representations?' *Man* 20: 73-89.
- Sirois, M. C. 1992. 'On the Strange and Familiar in Recent Anthropological Thought.' In *Cultural Psychology: Essays on Comparative Human Development*, edited by J. W. Singer, R. A. Shweder, and G. Hersh, pp. 470-61. New York: Cambridge University Press.
- Tuchman, B. 1984. *The March of Folly*. New York: Knopf.
- Walt, G. 1990. *Harder Gods: Religion and American Politics*. New York: Simon & Schuster.

الثقافة والطفولة والتقدم في أفريقيا جنوب الصحراء

توماس إس . وايزنر

تتكاف كل منظومة اقتصادية من عالم من الكائنات الاجتماعية التي تمارس نُهجاً أو مسارات ثقافية من شأنها أن نصب بأهدافهم وحوافزهم وقدراتهم ونماذجهم الثقافية عن العالم في الحياة الاقتصادية. وتصوغ الثقافات حول العالم تصورات ومحاولات لتوجيه الأطفال من خلال نُهج ثقافية مجيبة ومتباينة يحورها أمل إنتاج أنواع من الكائنات الاجتماعية التي تحظى بقيمة وتقدير. وتبدأ النهج الثقافية عملها قبل أن تولد وتظهر يشارعها أو نشرها من خلال السبل التي تتخذها: لطفولة ولكن هل: النهج الثقافية المبيحة مع الأطفال في العالم الأقل تقدماً تعوق بشدة نشاط السوق الاقتصادية أو الأشكال الجديدة للمجتمع المدني، إذا كان الأمر كذلك من يتعين أن تحتل سبل الرعاية الوالدية وحياة الطفل بؤرة اهتمامنا لبذل الجهود الهادفة إلى التغيير فُسد تشجيع وحفز التقدم الاقتصادي“

تتركز نخبقتي على أفريقيا جنوب الصحراء، ذلك الجزء من العالم الذي يسود الأقل حظاً اقتصادياً، والأبعد عن المثلى الأعلى للنظام حكم تعددي. وفي رأبي أن لا شيء أساسي في ممارسات العناية الوالدية ورعاية الطفل في أفريقيا اليوم، والذي من شأنه أن يحول دون التطوير الاقتصادي في صورة من صور نموذج السوق أو صورة محلية لمجتمع أكثر تعددية. والملاحظ أن ممارسات وقيماً كثيرة في الحياة

الأسرية الأفريقية ورعاية الطفل الأفريقي يمكن وضعها متنها على الأثر موازنة مع التطوير الاقتصادي والتعددية السياسية ، ونذكر من بينها تقاسم رعاية الأطفال الموزعة اجتماعياً ، القيمة العليا التي يولونها للتعليم المدرسي المشترك، وتقاسم العمل الأسري من أجل الأطفال ، وتشير الدلائل إلى أن الوالدين يريدان لابنانهما أن يكتسبوا عن مزيج من الزكاء الفردي والولاء للكبار ، علاوة على مزايا وبنافع الشبكات الاجتماعية التي يمكن أن تكون وسيطاً بين الوضع الريفي والوضع الحضري .

زد على هذا أن الآباء والأمهات يناقشون بحماس وحمية كيف ينشؤون أطفالهم ، ويجربون ممارسات جديدة ، وترتيبات أسرية ، ومن ثم نجد أطفالاً وأسراً موبينين بما لديهم من إمكانيات للعديد من الأنشطة الاقتصادية والسياسية المتباينة . وتغلب المهمة هنا هي وضع هذه الأنشطة والمؤسسات في موضعها وتحقيقها في الواقع بدلاً من الاهتمام في الأساس بتغيير قيم وممارسات الوالدين والأسر في أفريقيا . وسوف نجد هناك أطفالاً وفتياتاً وفتياتاً رابعين في المشاركة في هذه الأنشطة حال توفرها

أخيراً فإن مفهوم الثقافة والتقييم باعتبار خصائص يجري نرسهما في الطفولة المبكرة لتصبح جزءاً من "الشخصية" الثقافية القومية مفهوم خاطئ إلى حد كبير إن المعتقدات والممارسات الثقافية هي أدوات تكيف ، وليست مجرد أنماط ثابتة . تحدد المؤسسات ثقافة مزيجاً من قيم ومعتقدات مشتركة وأنشطة منظمة في روتين الحياة اليومية . وخصرات متفاعلة لها دلالاتها العاطفية . بكثيراً ما تنشئ الثقافات الأفعال بوسائل تسبب لهم مشكلات وقت الكبر ويتعين عليهم وقتها حلها من جديد . يتعلم الأطفال القريبون أن يكونوا ما يشاءون وما يستطيعون ، وأن يتوقعوا أسباباً لكل شيء . ويجدون الخيارات مطروحة أمامهم ويتوقع مفهوم المجتمع التفكير في القواعد والحوار بشأنها . وحين يكبرون يصبح بإمكانهم أن يصارعوا من أجل حل وسط . وأن يعملوا ويبدلوا جهدهم ضمن فرق اجتماعية في مكان العمل ، وأن يتحققوا من أن لا أحد يمكنه أن يحقق في الواقع كل حلم من أحلام الطفولة

ويتعلم الأطفال الأفارقة التكافل ، وتقاسم الموارد ، والعيش في ظل سلطة منضوية الأسرة والمجتمع المحلي دون أن يسأل إلا من طرف خفي عن أحسن الفروض . ولكن

حين يكبرون، يمكنهم الصراخ للضامن من قسوة تلك المعتضفات ذاتها ويكون لهم استقلالهم لذاني- وفضولهم وسعيهم بطرقهم الخاصة من أجل تحالفات جديدة .
وجدير بالذكر أن المعتقدات والقيم والأنشطة والخبرة لا تتكامل وتندمج على نحو كامل أبداً خلال الطفولة وعلى مدى مراحل النمو.

ويكتسب الأطفال معارفهم الثقافية عبر فتوات غير لفظية في الغالب الأعم من خلال المشاركة ومحاكاة النموذج - إن التعليم اللفظي واللغة لهما أهميتهما ولكنهما ليسا أبداً النموذج الغالب . وإن هذه القدرات الخاصة باكتساب الثقافة لا تعطى بالضرورة معلومات متسقة مع بعضها . والملاحظ في أوقات التغيير أن هذه المستويات من الخبرة الثقافية ونمط التحصيل يمكن أن تتناقض كثيراً . وإن ما يتعلمه جميع الأطفال عن ثقافتهم وما يحاول الآباء والأمهات غرسه في نفوسهم إنما يدركونه دائماً على نحو جامع بين الضدين . ومن ثم يكون علينا برسائل مختلفة ، وغالباً ما يصادف مقابله . وسكان أن يكون للثقافة ميل محوري واضح ونمط معياري ، ولكن يصعب أن تكون أحادية الكيان ومتعاشة التكوين

الوالدان والأطفال والتغير في شرق أفريقيا

بشأن الاقتصاد السياسي للبلد الأمم والاقصاد الدولي على ظروف من شأنها يفتياً أن تعيق النمو الاقتصادي في أفريقيا . إن أفريقيا هي الساحة التي تجملت وتراكبت وتفاقت فيها كل أمراض الأمم القليلة اقتصادياً (الانديس ١٩٩٨ - ٩٩ اليونيسيف ١٩٩٢ ، وايزنر ١٩٩٤) . إن التطوير والتغيير يحدثان حسب ما هو معترض ، في أغلب أنحاء العالم فيما عدا أفريقيا . (روي ١٩٩٩) . انخفضت معدلات الخصوبة ، ويمضي التطوير قُدماً في أغلب الأماكن ولو بدرجات متفاوتة فيما عدا أفريقيا [على الرغم من تقدم عملية التحول في الخصوبة في أماكن كثيرة] برادلي ١٩٩٧ ، روبنسون ١٩٩٢] ، ويوسعنا أن نلمس العديد من أمثلة النمو الاقتصادي من كل القارات تقريباً فيما عدا أفريقيا (وإن وجدت في بعضها) ويشخص روي العبارة

المحازية ما عدا أفريقيا بينها جزء من رواية تفضي هي نفسها إلى السلبية في النظر إلى التطوير. وتتمرح مجموعة متنوعة من الروايات المعاكسة 'الإيجابية' عن التطوير والتي تركز على التباين والمفاجأة، واستحالة التنبؤ والتعقد بالنسبة للظروف على أرض الواقع.

ولكن القلق على تصنيف الرواية لا يكاد يدرك جوهر المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي تواجه الأفارقة وتستبد عميقة الجذور بمشعرهم. ويحدد داسل إيتونجا - مانجويل في هذا الكتاب المشكلات التي تواجه المجتمعات الأفريقية: وأنا أشاركه في الكثير من أسباب القلق التي ساورته - إنه شخصيا يعايش الظروف والأوضاع التي تحول دون تحقيق رغبات الملايين من أبناء أفريقيا في التغيير والتقدم ويرى إيتونجا - مانجويل الثقافة هي الأم ... والمؤسسات أبناؤها. وقيام مؤسسات أفريقية أكثر كفاءة وعدلا من تعديلات ندخلها على تدفنتنا.

وطبيعي أن الثقافة في أفريقيا، شأن الثقافة في أي مكان، يمكن أن تكون قمعية ومدمرة. وإذا كنت أتفق في الرأي من حيث إن كثيرين يعيشون ويدركون الأنماط الثقافية التي يصفها إيتونجا - مانجويل بأنها ضارة. وبأمل عشرات الملايين من الأفارقة في تغييرها، إلا أنني أظن أنه خطأ إذ دفع بأن الثقافة تدفق، وتفق من حيث الأهمية العوامل الاقتصادية والسياسية والمؤسسية المرتكزة على الموارد. ولعل الأصوب أن هذه العوامل تتجاري وتتزاوج على نحو فضفاض داخل كل واحد مركب

أفريقيا ليست حالة الاستثناء من حيث معتقدات وممارسات الرعاية الوالدية وهو الطفل وليس لنا أن تلقى باللوم على ممرسات رعاية الأطفال باعتبارها من أهم وأول أسباب إعاقة التقدم الاقتصادي والاجتماعي وحرى أن نبدأ، بدلا من ذلك، بالقبول الإيكولوجية في المنطقة وبالمؤسسات الإقليمية والقومية والدولية التي تخذ من، وتحدد مسار القدرات الكامنة لدى أطفال وشباب أفريقيا. بدلا من أن نفتح تغيير سبل تنشئة الأطفال والقيم والأهداف التي يتعامل على هديها الوالدان مع أطفالهم

وأن لا أطرح حجة سفاطة عشوائية في مواجهه الفقر الواضح والمشكلات البارزة التي نعصف بالحديث الأكبر من أفريقيا جنوب الصحراء. كما وأننى لا أبرئ الثقافة من دور في فهم الماضي وصوغ التقدم مستقبلا للمجتمعات الأفريقية. وأرى أن غياب الظروف التي يمكن فيها للأسر والمجتمعات المحلية الأفريقية أن تنظم لنفسها حياة بوجبة مستدامة هو العامل الوحيد الأهم الذي يسد السبيل أمام الأطفال والأسر ويعيقهم عن الارتفاع بمستواهم الاقتصادي. وهو ما يمثل موضوعا أساسيا تعنى به انداسات الأنثروبولوجية (وايزنر ١٩٩٧) إن عشرات الملايين من الأطفال والآباء والأمهات في أفريقيا وفي غيرها في مختلف أرجاء العالم لا تتوفر لهم أهم الشروط الأساسية للصحة والأمن والاستقرار. وهؤلاء أيضا محرومون من فرص التعلم وغيره من جهارات تهلهم لكونوا في وضع يسمح لهم بالانخراط في نظام حكم عدنى أوسع نطاقا، أو أن يحرروا قدرأ أكبر من التقدم الاقتصادي. إننى أشارك إيتنجا - مانجويل الإيمان العميق بأن الأطفال الأفارقة يستحقون هذه الطيات المادية والاجتماعية الأساسية ويستحقون أن نتهيأ لهم فرصة لكي يشهدوا مجتمعاتهم زاخرة بالأنشطة والمؤسسات التي يتسنى لهم الانخراط فيها وتنهوض بلك الأهداف.

إن من يدفعون بأن القيم والممارسات الثقافية الأفريقية هي سبب افتقار القارة إلى تلك المنافع المادية والاجتماعية الأساسية إنما يدعون إلى تغيير القيم الثقافية الأفريقية، ولكن الدراسات التي أجريت عن الأسر والأطفال تقدم براهين تفيد بأن مش هذا التعبير المقترح سائر في طريقه منذ جيلين على الأقل. وأن المجتمعات المحلية الأفريقية تشهد قدرا وفيرا من التنوع وبغابر الذواص وهو ما من شأنه أن يوفر أفرادا لديهم استعداد للتغير. ومن تم علينا أن نوفر الدعم الأساسي للأطقال، ثم لدعهم هم وأباهم وأمهاتهم يتلامهون مع التغيير الحادث بما في ذلك التحول إلى تربية الطفل على قيم وممارسات جديدة.

ولكن قد يدفع البعض بأن التنوع الواضح في القيم والممارسات داخل الثقافات مهمة حقا بيد أنها ذات صلة بالحجة الأشمل عن العلاقات بين الثقافة

والتقدم الاقتصادي. والسبب أن أكثر بلدان أفريقيا جنوب الصحراء - تكشف عن نمو اقتصادي بطيء، أو هابط. ثم إن الشواهد ضئيلة إن لم نقل لا شواهد على الإطلاق على ظهور مجتمع ديمقراطي. حقا إن الظروف الاقتصادية والثقافية والتاريخية لها بقبلاً دور ما في هذه الفوارق النسبية، ولكن الروابط فيما بينها متزاوجة فقط بصورة غير محكمة على أحسن تقدير. وطبعاً أن فهم التغير وقضية القبايل على المستوى الثقافي أمر جوهري لفهم ما يصير حقيقة بين الأسر والأطفال داخل المجتمعات الأفريقية إن كيف لنا يبين ذلك أن نعرف ما عسانا أن نفعله، كيف نتصرف وماذا نفعله؟ وعلى أي مستوى وفي أي مجتمع محلي علينا أن نندخل؟ إن الدراسات التي تدرس الظروف الثقافية المعاصرة في الواقع المعين في وحدها القدرة على معالجة هذه المسألة. وهذا في رأيي برنامج بحثي حري أن نوليه أولوية قصوى

تربية الطفل وأهداف الوالدين والتقدم الاقتصادي في العالم المتقدم

ثمة رابطة بين معتقدات والدية جوهريّة معينة وممارسات رعاية الطفل وبين التقدم الاقتصادي في العالم المتقدم ولم تكن تلك المعتقدات والممارسات بالضرورة هي سبب التقدم الاقتصادي، وإنما اقترنت بها في أغلب الأحيان في الغرب، إذ يؤكد نموذج تنموي تربيوي (لوفين وآخرون ١٩٩٤) على إثارة الانتباه والمشاركة الفعّلة من جانب الطفل مع الآخرين، وعلى السلوك الاستكشافي والتعرف النشط على العلاقات الإبراهيمية واللفظية الدالة على الذكاء، وعلى الاتصال اللفظي وتبادل السؤال - الاستجابة

كذلك يشجع النهج التربوي لفزعة الفردية، والاستقلال الذاتي والاعتماد على النفس والتعبير عن الذات. ويتطلع الوالدان للعلامات الدالة على التمتع المبكر لدى الأطفال، ويفخران بذلك سروراً أو حماسة تعبيراً عن إعجابهما بأخريين ممن يلحظون علامات نضج مبكر مماثلة. وربما يطرد الاحتفاء بهذه المظاهر وتسمع ثناء وتشجيعاً دون توقف: "عظيم"، "هذا هو الطريق الذي لك أن تسلكه"، "آه يا لها من محاولة جيدة".

أى ما سيعا نربد أنت لنفسك باك من وشيق/ رياضى/ جميل. ويفسر الوالدان علامات مراحل النمو المعروفة باعتبارها علامات ذكاء أو قدرات غير معهودة. مثال ذلك أن الأطفال فى كل مكان فى العالم يبدأون بالتعبير عن ابتسامة اجتماعية وهم فى الشهر الثالث من العمر تقريبا. ويفسر غالبية الآباء الأفاقة هذه الابتسامة على أنها علامة على صحة جيدة. ولكن يفسرها الوالدان فى القرب على أنها علامة مبكرة على الفهم العظى والذكاء.

وفى موازاة اهتمام الآباء والأمهات فى الغرب يهدف النضج المبكر الفعال، نراهم يبدأون تلقا لمعرفة ما إذا كان الطفل لديه ثقة أساسية كافية وأمنة داخل شبكة اجتماعية مستقرة، وهل لديه سندا يزمن له صداقة ومودة وتقديرا ذاتيا كافيا، ونلاحظ مبادئ فى كل من أمريكا النبه اثرة وأوروبا فيما يختص بهذه المعتقدات، كما وأن الالتزام بهذه المجموعة المثالية من الممارسات ليست متسقة بين الجميع (ماركنيس وسوبر ١٩٩٦) ولكن هذا النموذج لاقى قبولا واعترافا باعتباره أحد التوسائل المنصوية لتنشئة الأطفال، وليس هناك عن يتشكك فيه أو يعارضه، ونجد درجة عالية من توافق الآراء والتسليم بأنه نهج مستنوب وسوى.

وطبيعى أن الآباء والأمهات الأفاقة، شائهم شرق، لغربيين من حيث أن لمبهم اصل وأمدق فى أن يحقق أبناءهم أعلى قدر من الإنجاز والنجاح وتكون بدلا من التثناء اللغضى الفردى يفضل الآباء والأمهات الاندماج فى فريق أوسرى أوسع، ويكشفون عن رضاهم من خلال تهيئة الفرص من أجل هذا الاندماج ويعبرون أيضا عن رضاهم من خلال إعطاء الأطفال طعاما وغير ذلك من أشياء مادية يهدونها لهم، وأيضا من خلال تعبير وجدانى بدنى أو تلامس جنون مع أطفالهم الصغار. ويشجع الآباء أطفالهم على التعلم من خلال الملاحظة والتعاون مع الآخرين بدلا من توفير أساليب إثارة انتباه لغضى نشط من الكبير إلى الصغير. ويشجعون أيضا المهارات المستقلة دون الاستقلال الذاتى الفردى. ويسمى روبرت سيريل (١٩٩٢) هذا النموذج الاجتماعى المنتشر للتنشئة الاجتماعية للأطفال.

ويسود عمليا الآن بين الآباء والأطفال الأهمرة نموذج مزيج للرعاية الوالدية بجسد أهدافا تربية وأهدافا متمركزة حول الاستقلال الذاتي وأهدافا نموية نغمد على المحورية الاجتماعية. علاوة على هذا فإن التناين القوي بين الأطفال (من حيث المزاج وغيره من الفترات التكوينية) وبين الأسر يؤدي حتما إلى تغاير في خواص هذه الأنماط مما يضمن أن هناك أطقالا في نمو مطرد طوال الوقت في توافق وأيضا في صراع مع سمات مماثلة لسمات النماذج التربوية/ والاستقلال الذاتي.

إنني لا أريد أن أطق على التنوع الواسع والواضح بين الثقافات والأسس بطول فارة أفريقيا وعرضها ، ولكنني أعرض موجزا مفيدا عن الأنماط قصد التوضيح . وإن هذه الأنماط تلائم بقينا، ولو جزئيا حياة الطفل في مناطق كثيرة من أفريقيا كعمل محوري مع نيايات موضوعية وفوارق محلية تظهر في تلك الميول. وإنني أشارك إيسونجا - ماتجويل رأيه في أن من الطبيعي أن نجد تنوعا معب جدا في كل أنحاء أفريقيا، ولكن أن نجد أيضا أساسا لقيم واتجاهات ومؤسسات مشتركة وإنني نوثق أواخر أمم جنوب الصحراء، وغربها أيضا بأسم الشمان من نواح كثيرة⁽¹⁾ ولا رب في أن الضوع عبر أفريقيا حول هذا النمط الثقافي المحوري يدعم حتى التي تقول إن هناك أطقالا وأسرا في كل أنحاء أفريقيا مهيين للانحراط في أشكال جديدة من نشاط السوق والحياة المدنية.

هناك قدر من الاتصال في المشكلات الاقتصادية

كانت أفريقيا في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين تتألف من اقتصادات سياسية ديمامية وتوسعية وأخذت ثقافات شرق أفريقيا في الامتداد والانتشار إلى داخل مناطق جديدة، وأنشأت شبكات تجارية نشطة في شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط. (وكذلك في مناطق داخل أفريقيا)، وحدث تزواج متبادل بين أبناء الجماعات المجاورة، واستلزم النجاح لاجتماعيا واقتصاديا التحلي بالطموح

والمعرفة والذكاء، نظراً للظروف الشديدة القسوة التي عرّفتها هذه الفترة، مثلما هو حالها في الحقبة الراهنة

ولا يزال الآباء والأطفال يواجهون اليوم ذات المشكلات الاقتصادية التي واجهوها وقتذاك. ويوجز آلين جونسون وتيموثي إيرل هذه المشكلات في أنها أربع مشكلات اقتصادية - سياسية شاملة: مخاطر الإنتاج، والحرب والإغارات (الأمن)، والاستخدام المقاصر للموارد، ونقص الموارد (١٩٨٧). ولا تزال هذه المشكلات موحودة شائعة وتواجه المجتمعات النطية مهمة إيجاد حلول بديلة في عالم الأسواق الكوكبية، وتقسيم العالم إلى مناطق، والزيادة الدرامية في إمكانية الوصول إلى المعلومات، وتزايد مظاهر عدم المساواة والمهمة الملقاة على العاتق الآن هي كيف نحقق ملامحة أفضل بين حلول أقدت في الماضي ولا تزال تحدد معالم الرعاية الأبوية للأطفال، وبين حلول جديدة تستلزم ممارسات جديدة في رعاية الطفل مثلما تستلزم أهدافاً جديدة للآباء، هذا بدلاً من خلق الوعي بهذه المشكلات من جديد، ويبدو أن هذا البحث عن حلول جديدة جارٍ الآن في مجالى الرعاية الأبوية والحياة الأسرية اليوم.

وبحسب اتجتمعات المحلية علاوة على هذا، إلى تنوع مواهب الأطفال نون الاقتصاد ففط على لثمهارات الاقتصادية المحدودة على نحو ما يمكن أن نرى اقتصادات السوق الغربية المعاصرة. وحرى بنا ونحن تفكر بشأن الملامحة بين الحاجة إلى تقديم اقتصادى وأهداف تربية للآبوين مع أطفالهما وبين التنشئة الاجتماعية للأطفال. أن لا يقنصر الأمر على البحث عن موهبة خاصة بتنظيم مشروعات الأعمال فقط أو كفاءة في معرفة القراءة والكتابة والحساب أو الحالة الصحية في وضعها الأساسى. إن معالجة مشكلات الأمن والمخاطرة ونقص الكفاءة تحتاج إلى أفراد نوى مواهب متباينة كما تستلزم توفر خبرات في التنشئة الاجتماعية داخل المجتمع وليس فقط أولئك الذين لديهم استعداد أهائى التفكير للإبتكار الاقتصادي أو شبكات اجتماعية واسعة ذات نظرة عالية نون سواها.

المتسعر على أساس السوق مبدأ شامل للعلاقات الاجتماعية والحياة الذهنية

ربما يكون الحساب الاقتصادي المؤسس على السوق واحداً من بين عدد محدود من المبادئ الشاملة واتحاحه في جميع المجتمعات، ويتعلمه ويستخدمة جميع الأطفال بدرجة أو بأخرى. (فايسك ١٩٩١ ، ١٩٩٢). ويصعد الآن فايسك أربعة من هذه المبادئ الكلية الشاملة للعلاقات الاجتماعية. المشاركة الجماعية (التضامن والوحده داخل جماعة)، تراتب السلطة (المكانة والتفاوت والسلم الهرمي في العلاقات الاجتماعية)، والتسعر على أساس السوق (علاقات الصرف التي تتحدد على أساس التسعر أو الانتفاع) وتمثل هذه الهياكل الأولية للعلاقات على الأرجح الخصائص الكلية الشاملة للعقل وأيضا للتنظيم الاجتماعي.

وإذا كانت هذه الخاصيات الأربع التي تنسب بالكلية والشمول لكل من العقل والمجتمع معا فإن هذا يعني أن جميع البشر مهينين منذ انطفولة لأن يقبوا الآخرين ويرتبطوا معهم بعلاقة مستخدمين في ذلك أحد هذه المبادئ الأربعة أو مركباً منها وقد لا يكون الحساب السوقى محفوظاً بوضوح في العقل والمجتمع كما يريد ويود انهمين بالتقدم الاقتصادي. ولكن يبدو أن الكائنات الاجتماعية في كل مكان تتعم كيف تولدن بين هذه الأنواع الأربعة من العلاقات الاجتماعية ، وهنا مرة أخرى نجد أن المشكاة في نظر المعين بالتنوير الاقتصادي ليست هي خلقاً جديداً لتفكير قائم على الدس بالسوق والعلاقات الاجتماعية في الأضفال والوالدين ولكن تطوير ونوسع نطاق ما هو متاح بالفعل.

القيم الثقافية لا تحدد الثقافات ولا إمكانات التغيير

القيم الثقافية لا تحدد ولا تشكل ثقافة، هذا على الرغم من الاعتقاد السائد بأنها تعمل العائق الثقافى الرئيسى للتقدم الاقتصادي. ونذكر هنا ما قاله كلايد كلوكهون أحد مؤسسى الدراسة الأنثروبولوجية للقيم، إذ وصف القيم في عبارات مجردة مثل

معايير من المربعين. فيه - أي أفكار مشتركة عن ما هو خير (رانديك ١٩٩٥ - ٢) وقابل كلوكهون عمليا بين الثقافة والحياة والتكيف، ولم يعتبر منظومات القيم محددة (دمونسون ١٩٧٣ انظر أيضا كلوكهون وستروبيك ١٩٦٦ - ٢٦).

نظر (كلوكهون) إلى الحياة على أنها في جوهرها شوائية وغير منظمة. وتضمن الثقافة نظاما مفروضا على الحياة وأنها بالنسبة للنوع البشري ضرورة لكي تستمر الحياة... وكان واضحا له بما فيه الكفاية أن جميع الأفراد لا يكونون أصحاء وسعداء بفضل ثقافتهم، كذلك ليست كل المجتمعات على المدى البعيد تكفل لها ثقافتها نمواً أو بقاء، كما أن المجتمعات الفاشلة لا تحتفظ إلى ما لا نهاية بثقافتها سليمة دون تغيير بل لا بد من التغيير - (فبشر وفوجت ١٩٧٣ - ٨)

ودفع بارت (١٩٩٣) بأن علينا أن لا ننسى، القيم بالتزامن على تعميرها المؤسسي، وإنما جرى أن نركز على استخداماتها في التنشئة الاجتماعية، ومع هذا فإن القيم تؤثر بالفعل في السلوك حين تتأصل في المؤسسات، لذلك تكشف القيم الثقافية عن نفوذ قوى وينبغي أخذها مأخذاً جادا على مستوى النشاط المجتمعي والمؤسسي على السواء.

إن القيم تؤثر في كيفية توجيه النشاط الاجتماعي وتعمل هذا تأسيسا على تفسيرها لكيفية بناء العالم، تجعل له معنى محدد بل وتبين لماذا ينبغي العمل فيه أصلا وفقا لأسلوب ذي معنى وتعمل القيم هاديا ومرشدا إلى العمليات التي نحظى بقيمة تستحوذ على الاهتمام (أي ما ينبغي أن نؤليه عنايتنا واهتمامنا). ونزودنا بمبررات بدعنها ويقوم المجتمع لأفعالنا ومن ثم تكون أفعالنا لها ما يبررها لدى المرء ولدى الآخرين تأسيسا على القيم المشتركة. وتهيئ لنا القيم صورة للتوحد الاجتماعي والجموعية الاجتماعية المميزة - الاعتقاد بثقافة شخصي في قيم روحية على سبيل أمثال عقارئة بأحريين لا يفاسموننى القيم ذاتها. (دانراد ١٩٩٦).

وتفيد القيم في تادية وطاقات مختلفة لأشخاص مختلفين. وبالسيه للسلطة
ولكبار السن يحدد القيم للأبناء من يولوه الاهتمام والعناية. ولكنها لن تسهم في
تفسير طبيعة التغير المعاصر في العالم، كما لن تكون العامل الاجتماعي الأول
والأساسي في تحديد الهوية. ويمكن للنساء أن يستخدمن قنباً خاصة باد تزام
السلطة لمعرفة ما الذي عليهن أن يولينه اهتمامهن، ولكن ربما لن يتمازكن سلطة
الذكور ما تتضمنه هذه القيم من تبريرات وتضديدات اجتماعية طهوية.

معيار كوني لتقييم الثقافات بالنسبة للطفولة:

الرفاه والمدعم الأساسي - يؤدي إلى إمكانية حياة ثقافية مستدامة

ينبغي الحكم على الثقافات من حيث قدرتها على توفير الرفاه والدعم الأساسي
وحياة يومية قابلة للإدومة للأطفال وللأسر، إنني لا التزم موقفا نسبيا بالنظر إلى هذه
القسمات في حياة الطفل. ونحن نستطيع يقيناً أن نقدم النصيحة وننضمان مع من
يقاسموننا النظرة في المجتمع بشأن الأهداف ذات الدلالة والممارسات الثقافية. ولكن
هري أن ندع هذه الآليات التفسير الباطنية وللحوار داخل المجتمعات كأن يناقشوا
كيف ننجز هذه الشروط الثلاثة وبأي محتوى محدد لها ووصولاً لأي أهداف
ثقافية ننشدها.

إن رفاه الأطفال هو القدرة على الانخراط في الأنشطة التي يراها مجتمعهم
مرغوباً فيها، والخبرات النفسية الإيجابية انتولدة عن ذلك والمعروف أن اثوية
وإمكانات أو قابلية التغير رهين انخراط الأطفال وأسرمهم في مثل هذه الأنشطة. كذلك
فإن النشاط الاقتصادي أو للمشاركة في مجتمع مدني مشترك إنما يعضدان على مثل
هذا الرفاه الثقافي أكثر من اعتمادهما على توفير قيم أو معتقدات بذاتها (وايزنر
١٩٩٧) هذا على الرغم من أن محتوى المعتقدات مهم أيضا

ومن ناحية الأباء والاباء، دعماً أساسياً ويتميز بمناخوات دعم الأعمال بعمارة. معينة يمكن التعرف عليها في كل أنحاء العالم ونضمن هذه المتطلبات الوجودية والراحة البدنية. ونعتمد حل المشكلات، وتغيير الطعام وغيره من الموارد، والحماية ضد الأذى والعنف. وفهم ثقافي وأخلاقي متنسق بشأن من يستطيع، ويذبح عليه أن يوفر الدعم. والأساليب الملائمة لتحقيق ذلك (وايزنر ١٩٩٤).

و، وفر الثقافات الدعم الأساسي بوسائل مختلفة. وتعنى بها فوراً عناية والتي، المهم الذي يبغى تقديره في كل الثقافات هو معرفة ما إذا كان الأبناء يخفون بدعم مستشرف ثقافياً ويمكن التنبؤ به على نحو مستصوب. إن عشرات الملايين من الأطفال والأبناء في أفريقيا وفي غيرها لا يذبحون بشكل هذا السنوي الأساسي من الدعم

وإن الرفاه والدعم الأساسي يتألفان معاً لسفرة نظاماً (روتينيا) يومياً قابلاً للبرامج لحياة الأطفال، والمعروف أن النظم الروتينية القابلة للإدانة لحياة الأسرة يصعب يقدر من الاستقرار وقابلية التنبؤ. ولها معنى وقيمة بالنسبة لأهداف الأباء والأبناء، ويمكن أن تقلل إلى أدنى حد ممكن أو أن توازن النزاعات والشقاقان الحتمية داخل الأسرة على المجتمع ويميز بينها ملائمة بقدر كاف للموارد المتاحة للأسرة. وإذا استطاع الأباء والأبناء أن يحلفوا رؤسها قابلاً للإدانة سوف بنوفر الأساس الثقافي للتعبير مشعاً بنوفر الإمكانيات والكفاءات الجديدة والقدرة على الابتكار. ويتوزن ذلك أن ينجح على الأرجح أن تدخل (وايزنر ١٩٩٧)

تغير الرعاية الوالدية والتنشئة الاجتماعية للطفولة في شرق أفريقيا

تختلف ممارسات الأسرة الأفريقية ورعاية الطفل فيها من حيث نطاق التأكيد والاهتمام في رعاية الطفل والأهداف الوالدية للطبقة الوسطى للقرية. بين فهم نيسوا متنافرين مع صور نشاط اقتصاد السوق والتغيير في الحياة السياسية، والأهم من ذلك أن بإمكانهم دعم الرفاه وحياة الأسرة القابلة للإدانة من خلال رعاية الطفل

والر دارة الوالديه المنشرة اجتماعيا علاوة على الحوار... الاخلاقية المربيه والمنعبره
سكان موارد الأسرة وسلطتها. كذلك الـاكيد على سمات الطفولة التي تجمع بين
الاستقلال والاحترام وتوسيع نطاق الشبكات الاجتماعية المعترفة بحدائقه متزايدة
و... فوط أقل

الرعاية الوالدية ورعاية الأبناء الموزعة اجتماعيا

يمكن ان نجد في أماكن كثيرة من العالم الدعم الموزع اجتماعيا في منطومات
الادارة المشتركة للأسره (وايزنر ١٩٩٧) ونذكر فيما يلي بعض الخصائص التي
بعضها هذه التركيب الثقافي

• غالبا ما تكون ممارسة رعاية الطفل جزءا من سلسلة
غير مباشرة من الدعم حيث يساعد أحد الأبناء الأم التي تساعد
بنورها ثالثا. ويأتي الدعم في الغالب بطريقة غير مباشرة وعلى
نحو مرجح، وليس منظمًا بالضرورة حول علاقات بين الطفل
وأحد والديه حصرا.

• يتطلع الأبناء إلى مساعدة ومساندة أبناء آخرين بقدر
ما يتلقون من الأباء وربما أكثر.

• البنات يتولين أكثر من البنين على الأرجح مهام الرعاية
والواجبات المنزلية. وواضح أن الصبية يمثلن يقدمون دعما
ورعاية وتغذية للأطفال الآخرين، وإن كان هذا لا يحدث كثيرا
إلا بعد بلوغهم المرحلة الأخيرة من منتصف سن الطفولة.

• تقدم الأمهات المساندة والتغذية للأطفال بقدر ما
يضمن أن الأخريات سوف يشاركن بالتكافؤ في عمل النسيء
نفسه وكنهن يؤمن عملا لأنفسهن بشكل مباشر ، وتشجيع
عادة الإرضاع وغيرها من صور المشاركة في الأطفال.

• كثيرا ما تحدث الرعاية في سياق الاعمال المنزلية الأخرى التي يؤديها الأبناء.

• العدوان والمشاحنات والتسلط مقتصرين بالتغذية والمساندة، ويصدر عن الأشخاص أنفسهم ، وتزداد نزعات التسلط مع تزايد العمر.

• يمثل الطعام والسلع المادية هما ثقافيا قويا ويجرى استخدامه قصد التهديد والسيطرة والاسترضاء والتغذية.

• التبادل اللفظي والخطاب المحكم في صيغة الأسئلة نادرا ما يتنى مصاحبا للمساندة والتغذية للأطفال. كذلك قلبلا جدا ما تحدث مفاوضات كلامية بشأن الحقوق والامتيازات بين الأطفال والمسؤولين عن رعايتهم.

• الأهلية الاجتماعية والفكرية لدى الأطفال يكون الحكم عليها جزئيا في ضوء أهلية الطفل في إدارة المهام المنزلية والبرهنة على أن سلوكه الاجتماعي صحيح وملائم، علوة على القيام برعاية الأطفال وتغذية ومساندة الآخرين - وكذلك في ضوء دلائل التحصيل المدرسي.

• تجرى التشيئة الاجتماعية للأطفال في إطار هذا النظام عن طريق تعلمهم أنوار الأسرة ومسئولياتها والتدريب عليها على أيدي الكبار.

ويدعم هذا النمط في الحياة الأفريفية روح التوفير للأشقاء الكبار وتكبار السن بعامة. كما يدرج النش- على روح المشاركة الاجتماعية والاهتمام بشئون الآخرين. والعبارة والقضب تجاه أعضاء هذا المجتمع المحلي نفسه، والاجتهاد في المناقسة، مع قدر من عدم الثقة في من هم من خارج الجماعة التي ينتمى إليها امرء.

والملاحظ أن المساندة الموزعة اجتماعيا هي جزء من مركب ثقافي - مجموعة من الظروف الإيكولوجية والمعتقدات والممارسات المتزاوجة على نحو فضفاض، تتداخل معاً، ويسهم كل منها في نشاط الآخر وهذه هي رانما حالة القسّمات الخميرة لثقافة ثالثة وعمدة وعصية عن التغيير وتكون كذلك جزئياً بسبب أنها فسحت ثابته في إطار مركب ثقافي يجسرى تعلمه على أساس وجداني وفي إطار من توافق الآراء. الإضافي مثل، نموذجاً ثقافياً عن العالم يجري تعلمه بعاطفه وجدانية وفي إطار من الإجماع والفهم المشترك. والملاحظ أن ثقافة المساندة المشتركة تتزوج على نحو عضفاض مع قسّمات أخرى مثل الخصوية العالمية، والاهتمام بصحة الطفل وأخلاقياته، وأنماط الأسرة الموسعة أو المعتدة أو المشتركة، وعبه العغل اليهبط الذي نحملة الأمهات، والأنماط التعددية للصدافة وروح المؤدة للسلوك الاجتماعي والعائلي المنتشر. وإن تحليل مجمل لتركيب الثقافي المتناسق يمثل ضروره جوهريه، وليس من المرجح حدوث تغيير لجرا. الإشارة إلى جزء أو حر من التركيب الثقافي ثم ننوع ثن روي هذا الجزء وقد تغير فعلا.

وإن الرعاية الموزعة اجتماعيا بوسعها يقينا أن تعوق نمو التربة الفردية والاستقلال الذاتي لدى الأطفال. عن طريق انتشار الروابط الوجدانية والإسهام في نرس حسر بالشخصية والذات قائم على المحورية الاجتماعية، وهو ما من شأنه أن يحد من روح الاستقلال الذاتي ولا ريب في أن إسهامات العغل في فترة باكرة في أعمال الأسرة يمكن أن تتعارض مع عمل المدرسة ووقت اللعب والنمو الاجتماعي كذلك فإن التحكم في جهود الأطفال في مجال العمل يمكن أن يتنافس مع استيلاهم الذاتي. وقدرتهم على استكشاف أنواع جديدة من العمل والتعلم.

وعلى الرغم من ترابط هذه الخصائص ببعضها إلا أن الروابط قضاضة وبعين الموقف، فضلا عن أنها تتباين من أسرة إلى أخرى ومن طفل إلى آخر. مثال ذلك أن الأبناء المسهمين في الرعاية المشتركة يكونون أفضل قليلا في المدرسة. وجددر، الملاحظة أن الكفاءة فيما يتعلق بالقدرات المدرسة لا تنخفض سواء بالنسبة للأولاد أم للبنات بسبب المشاركة في الرعاية الموزعة اجتماعيا. أما إرضاع وبنشئة الطفل

فإنه ممارسة أخرى حيث لها نتائج إيجابية أو مختلطة ذلك أن الإرضاع والرضاعة من شأنهما أن تعزيزا الرابطة الاجتماعية الأتقوية حيث ينقل الأطفال من وضع أدنى إلى وضع أرقى في البيت . والملاحظ أن نتائج ذلك والنسبة للحقل تعتمد جزئيا على ما إذا كانت الأم بالإرضاع والتنشئة رغبة في الطفل (ومثل هؤلاء الأطفال بحاجة ووز نتائج طيبة) أم أن الطفل أجبرته الظروف على التحول قسرا (كاستل ١٩٩٥).

ممار أخلاقي مركب ومتنوع للرعاية النواندية والأطفال

يكون التغيير الثقافي أكثر صعوبة عندما تكون القيم والممارسات موضوع إيمان عميق الجدور، ومقبولة ضمنيا بحيث تغدو العقول والخضبات سعلقة . ولكن يبدو أن الحوار الأفريقي مناح تمام . وعرضت كارولين إدواردز صورة ذات دلالة على الحوار المفتوح حيث أن قيمة المساعدة المشتركة، وذلك في قصتها بعنوان "دانييل ومصروفات المدرسة" (إدواردز ١٩٩٧ - ٥٠ - ٥١) ويحط من استمدت مهم معلوماتها بين مفاهيم عن "المقبولة" والنزوة في قرارات الآخرة وبين قيم الاحترام

وتقرأ في هذه المعاناة الأخلاقية أن دانييل يكمل دعاه بالمدرسة الثانوية لأن أخاه يسهم في سداد مصروفات المدرسة . ويحصل دانييل بعد ذلك على وظيفة في نبروبي بينما كانت زوجته وأطفاله يعيشون في الريف . وبعد ثماني سنوات أصبح ابن دانييل في سن يؤهله لبدء مراحل تعليمه بالمدرسة، ومن ثم فإنه بحاجة إلى مصروفات المدرسة . حضر أبوا دانييل والنقما به وقالوا إن أخاك الذي سدد نفقات تعليم دانييل أصيب في حادثة، وإن ابن أخيه (الذي هو من عمر ابن دانييل) بحاجة الآن إلى المصروفات الدراسية، ومن ثم يجب على دانييل أن يساعدها . ولكن دانييل لا يملك من المال سوى ما يكفي لسداد نفقات تعليم ابنه. ويقول له زوجته إن غيبه أن يفي بحاجة ابنه فولا . ما رأيك فيما يتعين على دانييل وأمثاله أن يفعلوا؟ ولماذا؟

طرحت كارولين إدواردز هذه المعضلة على زعماء أخلاقيين في مجتمعين ريفيين في كينيا . وهؤلاء الزعماء أفراد مشهود لهم بالالتزام بالمسئولية . وبالاستقامة

والمدرسة، فإنهم لم يتركوا الصنعة الحكيمه وخزان حوالى الصف من لم يذهبوا إلى مدرسة حوالى الصف الآخر، كملوا قسطاً من التعليم الثانوي، والنفت أيضاً عندنا من طلاب المدارس الثانوية - وجلسات العينة من مجتمعين في كيبينا أبالويا والشمسويين ووجدت أن:

“جميع الرجال - شباب وشيوخ، متزوجون وغير متزوجين - اشتركوا جميعاً في لغة واحدة عند الحديث عن القضايا الأساسية والتزاعات الأخلاقية التي تثيرها المعضلة، ولم تكن القيم الجوهرية عن الاحترام والتناغم والتكافل والوحدة قيماً مفضلة حيوية ومستصوية فقط بل كانت موضع تأكيد وتشديد مرات ومرات باعتبارها فضائل الحياة الأسرية ... وبدأ أن المثل الأعلى في التماس “العقولية” في تفكير المرء وسلوكه هو الأهم والأبرز في حديث أهل أبالويا، بينما الحفاظ على العلاقات المحترمة هو الذي يشغل بال أهل كيبيسيجيس كباراً وطلائعاً.
(إدواريز ١٩٩٧ - ٨٢).

برزت فروق واضحة في عملية الاستدلال العقلي بسبب خلفية الأجيال، والمجتمع الأعلى الثقافي، والخلفية الدينية والثقافية عامة. مثال ذلك أن طلاب المدارس الثانوية الذين هم على حظ وافر من التعيين، بدأ أهل ميلا إلى استعمال معايير المنظمة في تقسيمهم للقضايا الأخلاقية، ولكن أهل أبالويا، وهم مجتمع على حظ أوفر في التعليم واستأثروا بالهدايا التبشيرية للكويكورز، الرومنس، أنت فقد كانوا كثيراً ما يذكرون كلمة العقولية

واختلفت الحجج بشأن ما ينبغي عمله بالنسبة لصروف الدراسة، ولكن سادت بين الجميع مفردات وقيم أساسية مشتركة كإفهمه لإنجاز حوار قيم ذي دلالة. ويعني هذا الإطار المشترك، أن الحجج المؤيدة والمضادة مدركها كل من المشاركين. ونعمت الصوارات بالبروزة، وجرى تداول العديد من المخطوطات تزيد من الفهم. كما نجى

استعداد واضح للتعلم في استخدام الناس للبربراب الخاصة بالفهم بهدف تفسير
عبارات مختلفة اتحددا داييل أو احرون ونجربى حوارات مماثله سنن
الاستراتيجيات الاقتصادية أو توزيع موارد الأسرة على الأطفال إسوير وهاركتيس
(١٩٩٧)

وجدير بالذكر أن مثل هذه الحوارات الاخلاقية ستن نشئة الطفل دائرة
الآن وكل يوم داخل المجتمعات المحلية كتي، ونظهر مواضع التماس وناقض عند
اختيار أفضل الخطة لتحديد ما هو صواب ونسمع هذا كله في الدورات
الاخلاقية التي تتناول هذه القضايا بمعنى هذا أن المعتقدات الثقافية والنقل
العليا الاخلاقية الخاصة بكيفية تنظيم حياة الأسرة وربية الطفل لا تبقى على قيم
جامعة متغيرة

الأهداف الوالدية لسلوك الأطفال

السمات التي يريدها الوالدار لأبنائهما تتغير بمرور الوقت وحدثت بياتريس وانتج
ثمانية سمات للشخصية تؤثرها الأمهات والبنين أن ينحلي بها الأبناء وحديث هذا
يتعلق على لغات تخصصية في المجتمع المحلي مع أمهات كيكوي في وسط كينيا.
والسمات الأربع هي: الثقة، الفصول، الاجتهاد، الشجاعة، واختارها الامهات كاه
أخبارها الطلاب في كيكوي باعتبارها سمات الشخصية التي تؤهل صاحبها لنجاح
في المدرسة (ربما حياة السوق الاقتصادية والمشاركة السياسية، ولغة أربع سمات
أخرى وهي: سمحة البدع والاحترام والصراحة والكرم، وتم اختيارها كأمثلة
للخصائص التي تؤكد على التقبل المتناغم داخل مجتمع محلي نراتي وأبوي ويجمع
بين الصفات الرغوبة وشبه الحضورية

ويرى بعض المنطقة أن هاتين المجموعتين من السمات مرغوب فيهما على أن
يغير ويوضح: بعد السنين تبين المزايا النعمة للتعلم في المدرسة فقط وليس كل
جانب الاستصواب الثقافي. علاوة على هذا، فإن هذه السمات مطلوبة للبنات والبنين

على الدوام - وقد أول الأيوان تدريب أطفالهم على التحلي بالمراد من هذه السمات
وتمرا لى من الموقف المهور ندين من الحالة المزاجية وغيرها بين جماعات شغفة،
ونظرا أيضا لتباين مظهر المدائن من بيت إلى آخر، فإن كثيرين من الأباء سلون
أكثر إلى الكشف عن هذه المجموعة عن السمات أو الأخرى كما وأن كثيرين يكشفون
من يوازن جيد في الجمع بين المجموعتين

وسئل أباء وأمهات عن أى من هذه السمات يعنون بالفعل على غرسها في
أطفالهم وأيها تكون على الأرجح فطرية أم وراثية؟ وأعرب الأباء عن إدراكهم بأن
كلا من الطبيعة والفربية يؤثران في النمو، وهم في هذا شأن الأباء في كل أنحاء
العالم. ويسود اعتقاد عام بأن سمات الأطفال التي تتجلى واضحة خلال الممارسات
التفافية اليومية - أي تلك التي يفعلونها من خلال المشاركة الموحدة أو الانسكال
المختلفة من الفلمذة الصناعية والدلم غير الرسمي - هي المستولقة على الأرجح عن
وجهة نفوذ الأوين

ويعتقد أغلب الأباء ان حب الاستطلاع وعادات إنفاق العمل، والاجتهاد والطاعة
واحترام الكبار جميعها صفات يمكن التدريب عليها ما السبب؟ يمكن للأبناء تعلم هذه
السمات من خلال دفعهم إلى العمل في البيت أو إرسالهم لدى آخرين للعمل لديهم
وقال الأباء في كذكوبو إنهم يفينا يسمحون للأبناء بأن يسألوا. وأن يتعلموا الإجابة
من خلال تعميمهم في البيت أو في المدرسة. وقالوا أيضا إنهم يشجعون حب
الاستطلاع عن خلال الممارسات التي يرضونها في أعمالهم اليومية الخاصة. أما أن
ينحلي الأبناء بالاجتهاد أو الكفاء أو الشجاعة أو الكرم أو التسامح فهذه سمات
فطرية، وجزء من مكون الشخصية (وابتج)

واستحدث وابتج أيضا دللا لأرقام قياسية مزاقة من الحداثة ونضمن مستوى
مع الأباء، مستوى معرفة الأمهات للغة الكيسواهراي أو اللغة الإنجليزية أو كليهما.
واعتلاك مذاياع وعضوية الكيسة وغير ذلك. ولوحظ فن الأباء الذين تتوفر لديهم هذه
الخصائص أميل إلى إعلاء قيمة سمات معينة لدى الأبناء مثل الثقة والفضول
والاجتهاد والشجاعة. ويكونون نسبيا أقل ميلا إلى تقديم تحفي الأبناء بالشجاعة

والقائمة، الاحترام للاخريين ولكن دعور المؤكد أن العالمة العظمى من الاباء-ربوبون
أن يدعى الابناء. بكلمة المجموعتين من السمات

الحدثة مقترنة بالمزيد من الروابط الاجتماعية والانتساب إلى جماعات جديدة

أخيرا يوجد الكثير من الاتجاهات الحديثة سائدة بين أسر تجمعها روابط مع
مجتمعات ريفية وحضرية على السواء وليس مع واحدة منهما دون الأخرى. وتتبع
عند عام ١٩٧٠ أسر من غرب كينيا حذوت، أن تنشئ لنفسها مستوطنات في كل من
المدن ومناطق ريفية أخرى لتحقيق مضم اقتصادي واجتماعي (وايزير ١٩٩٧). وتبين
أن الأسر التي لها اقارب في مواقع عديدة ورائحة الانتقال جيدة وذهابا بين هذه
المواقع العديدة بصفة أطفالهم أنه عند مغادرتها بأسر تعيش أساسا في نيروبي فإن
التقرير تفيد بأن مستوياتهم أقل من حيث الضغط النفسي الفسيولوجي، ربما تتماثل
مستويات الإنس فيما يتعلق باتجاهاتهم إزاء الحدثة عموما. ويكشف الابناء في المدن
عن مستويات مرتفعة في النزاع والعنوان بين بنين وبنات أو ابن وأحد الأبوين، بينما
تكون المستويات أدنى من حيث قابلية المعاشرة الاجتماعية والتربية عند المقارنة
بالابناء المقدمين في الريف أو الأبن- الذين يستقلون بين الريف والحضر وتتباين خطط
الأبوين بشأن توزيع الابناء، وغيرهم عن الاقارب لضمان البقاء والأمان. والملاحظ أن
الاسر والابناء ممن لهم شبكات موزعة اجتماعيا بين الأجيال والأمكن تكونون في
وضع جيد مماثل، وربما أفضل من نظرائهم الذين يحاولون ذلك في عوطف واحد فقط

خاتمة

لندع الاباء والابناء في كل أرجاء العالم يفكرون هم كيف يستكروا ويجزروا.
التجارب في ضوء ممارساتهم الثقافية. وإذا كان من يملكون الوسائل لعجل ذلك
يعتقدون توفير الأنشطة والأطر الأساسية الجديدة التي تتسجم تراكم السوق
أو التعددية في الحياة السياسية فإن الشواهد تجي بأننا سوف نرى الكثير من الاسر

والآباء. مهتمين بالانخراط في تلك الأنشطة ، وإذا جاء السحطط والإعذار لهذه التوجهات المبرره والأنشطة المجتمعية دون أن يغيب عن عقلنا العهم الواضح للثقافة اأحية (كلينجار ، ١٩٩٤) فإنها سوف تحقق الهدف منها بيقيناً . وإذا توفرت غى أفريقيا الأنشطة الاقتصادية للسوق مع المزيد من الصور الإيجابية الجديدة للحياة السياسية المناسبة سوف يتبين لنا أن هناك أبناء وبنات فى المجتمعات الأفريقية ، المعاصرة ملانمون جد الملائحة للانخراط فى تلك الأنشطة

وطبيعى ، شأن جميع الوسائل الثقافية للحياة ، أن التنشئة الاجتماعية الموزعة على نطاق المجتمع لها كلفتها كبا وأن لها منافعها بالنسبة للأفراد وللتطوير الاقتصادى أيضاً . هذا هو الوضع على سبيل المثال نتيجة استمرار انفصل الثقافى من الجنس الذى يقيد المسرة الثقافية فى حياة الفتيات والعقيات والخيرة الراضة فى المؤسسات والمخاوف من الجيران وعن الجماعات الثقافية الأخرى خارج اجتماعه الذى ينتمى إليها المرء ، وعلى الرغم من أن الأباء كثيراً ما يقولون إن الأولاد والبنات يعملون بغير متكافئ لأن يتحلوا بها الذوبج من النساء (والقدر الأكبر عن التعليم الرسمى والتجاح الاقتصادى يزيد من احتمال أن يردد الأباء هذا الكلام) إلا أن المسرة الثقافية لجة الأولاد والبنات تبقى على الفاصل بين الجنسين واضحا غاية الوضوح . هذا على الرغم من الزيادة المطردة فى التحول تجاه مزيد من المساواة ولا ريب فى أن المعتقدات المحلية يمكنها بيقيناً أن نجعل لتوزيع المتكافئ للثروة وللنخل لصالح الأبناء والأسر مهمة صعبة ومعقدة (هووارد وميلارد ، ١٩٩٧) .

إن الملايين من الأباء والأبناء الأفارقة على استعداد للتعبير وأن يتزايد طارداً نوجههم العالمى أو أن يكونوا على الأقل مدركين للبدائل ، وأن يغيروا على نحو إبداعى حياتهم الأسرية وممارسات رعاية الأبناء . ولكن ثمة كثيرين يقاومون التغيير فى الوقت نفسه . وطبيعى أن الأباء والمجتمعات المحلية يعمدون توجهات متكافئة للضدين ، إن لديهم الحافز للدفاع عن إمكانية التنبؤ بالحياة ... وهو مبدأ أساسى وكونى فى علم النفس البشرى (مارس ، ١٩٧٥ : ٢) . ونلاحظ أن الرعاية الوالدية وممارسات رعاية الأبناء أخذت فى التعبير والتكيف ولكن من الواضح ان هناك نماذج ثقافية قوية

التأثير وراسخه في الوجدان تجعل مثل هذا التغيير المنشود ممكناً ولكن صعباً في الوقت ذاته.

وإن سلمنا بالأهمية الثقافية وبالحميمية الشخصية وبالتكافؤ النفسى إزاء الرعاية الوالدية ومنظمة الأطفال، إذاً لماذا التركيز على تغيير القيم والممارسات الخاصة بالسيرة الثقافية للأطفال والتي تدافع عنها الأسر وتصارع في الوقت ذاته من أجل تغييرها؟ إننى لأعجب حقيرة لماذا يعمد أولئك المعنويون بإنجاز تطوير اقتصادى وخلق أشكال جديدة للحياة اثنوية إلى تحويل اهتمامنا بالتركيز على تفاصيل تتعلق بالأساليب التي ينبغي على الآباء اتباعها في تنشئة الأبناء.

يمكن للأسر أن تجد مساعدة جمة بسهولة كبيرة من خلال توفير الوسائل اللازمة لتأسيس المساندات الاجتماعية الأساسية التي يسدها العالم كله، والتي يمكن بها إنجاز نظام جوسى ذى دلالة لمياة الأسرة. وليس ثمة أساس متين يبرر وصف تدخلات وتوجيهات ذات قدم جديدة والتي تتنازم معدرات محددة في أهداف الوالدين أو في ممارسات رعاية الأبناء - داخل نظام الأسرة الخاصة وقد ذات الدواهد على أن التغيير جارٍ بالفعل على نطاق واسع مع توفر قابلية اصيلة للتغيير في عملية نمو الطفل ، ولكن هناك يقيناً سبباً يدعو إلى تهينة أسس يدعم قواعد قدرة التقاعد على توفير رفاه الأبناء ، الممانعات الاجتماعية الأساسية لتوفير الأمن والاستقرار. والموارد التي نهين للأسر إمكانية تحقيق روتين يومية مستدام لأبنائهم في المجتمع ولدى أبى أهدافهم وهذا هو التقدم

المراجع

Baht, F. 1983. Are Values Real? The Emergence of Nationalism in the Anthropological Imagination of Values. In *The Origin of Values*, edited by Michael Hetherington, Lynn Madell, and Hal and C. Michod, pp. 31-46. New York: Akira de Gruyter.

Bradley, C., and T. S. Weisner. 1997. Introduction: Crisis in the African Family. In *African Families and the Crisis of Social Change*, edited by T. S. Weisner, C. Bradley, and P. Kilbride, pp. xix-xxxii. Westport, Conn.: Greenwood Press/Bergin & Garvey.

Bradley, C. 1987. "Why Fertility is Going Down in Mali." In *African Families and the Crisis of Social Change*, edited by T. S. Weisner, C. Bradley, and P. Kilbride, pp. 272-197. Westport, Conn.: Greenwood Press/Bergin & Garvey.

Castle, G. L. 1995. "Old Fostering and Children's Nutritional Outcomes in Rural Mali: The Policy-Female Status and Decamp Child Transfers." *Social Science and Medicine* 41 (11): 1679-1693.

D'Agnone, D. 1991. *Approach to African Values and Cultural Models*, edited by D. A. D'Agnone and G. Strauss, pp. 221-232. Cambridge: Cambridge University Press.

Ellis, L. 1978. *The Development of Cognitive Anthropology*. New York: Cambridge University Press.

Estroff, M. S. 1973. "The Anthropology of Values." In *Culture and Life: Essays in Memory of Clyde K. Meiloh*, edited by W. Taylor, J. L. Fischer, and E. Z. Vogl, eds., pp. 117-117. Gainsville, Southern Illinois University Press.

Edwards, C. G. 1997. "Morality and Change: Family Unity and Paternal Authority Among Kpelle and Abanyia Elders and Students." In *African Families and the Crisis of Social Change*, edited by T. S. Weisner, C. Bradley, and P. Kilbride, pp. 54-85. Westport, Conn.: Greenwood Press/Bergin & Garvey.

Fischer, J. L., and E. Z. Vogl. 1975. "Introduction to *Culture and Life: Essays in Memory of Clyde K. Meiloh*," edited by W. Taylor, J. L. Fischer, and E. Z. Vogl, eds., pp. 1-11. Carbondale: Southern Illinois University Press.

Hall, A. P. 1961. *Structures of Social Life: The Five Elementary Forms of Human Institutions*. New York: Free Press.

Child: The Local Environment Council of Society. *Environment & Society: A United Theory of Social Relations*. *Psychological Review*, 10 (1903/04).

Schulzinger, W. 1990. *The African Course*. London: Heinemann, 480 pp. £21.1

Harkness, S., C. M. Super, and B. Newman. 1986. *Parents' Culture: Bond Systems*. New York: Guilford.

Howard, M. and A. V. Millard. 1987. *Hunger and Starvation: Poverty and Child Malnutrition on Mount Kilimanjaro*. New York: Knoutledge.

Johnson, A. W., and T. Cole. 1987. *The Evolution of Human Societies: From Foraging Group to Agrarian State*. Stanford University Press.

Kidgaard, E. 1994. Taking Culture into Account: From Let's to How? In *Culture and Development in Africa*, edited by J. Saragodin and J. Laboroff, pp. 10-120. Washington, D.C.: World Bank. Proceedings of an International conference held at the World Bank, Washington, D.C.

Kluckhohn, F. H. and F. L. Strodtbeck. 1961. *Values in Public Orientations*. Evanston, IL: Row, Peterson.

Lancy, D. 1986. *Playing on the Mother-Ground: Cultural Practices for Children's Development*. New York: Guilford.

Lantieri, C. 1990. *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor*. New York: Norton.

LeVine, R. 1983. Patterns of Personality in Africa? *Ethos*, vol. 2, 123-147.

LeVine, R., S. Dixon, S. LeVine, A. Peterson, F. H. LeVine, C. H. Kertter, and U. D. Brazellon. 1984. *Child Care and Culture: Lessons from Africa*. Cambridge: Cambridge University Press.

Marris, P. 1975. *Loss and Change*. New York: Doubleday Anchor.

Habibovic, W. C. 1982. *Except Africa: Retaking Democracy, Retaking Power*. New Brunswick, NJ: Transaction.

Serpell, R. 1983. *The Significance of Schooling: Life Journeys in an African Society*. New York: Cambridge University Press.

Super, C. M., and S. Harkness. 1997. Modernization, Family Life, and Child Development in Koweit. In *African Families and the Case of Sierra Leone*, edited by T. D. Wessner, C. Dorsey and P. Kibule, pp. 341-353. Washington, DC: Greenwood Press/Dergin & Carver.

UNICEF. *The State of the World's Children*. 1984. New York: UNICEF.

Wessner, T. S. 1984. A Cross-Cultural Perspective: Educational Niches of Middle Childhood in *The Elementary School Years: Understanding Development During Middle Childhood*, edited by Andrew Collins, pp. 335-351. Washington, D.C.: National Academy Press.

1994. "The Case for Family Child Care in Africa: Steps and Clinical Level Support for Children." *World Affairs Journal of Law Medicine* 4 no. 3: 1-20.

----- 1994a. "Support For Children and the African Family Care." In *African Families and the Crisis of Social Change*, edited by T. S. Weisner, C. Bradley and P. Kilbride, 141-201. Westport, Conn.: Greenwood Press/Bergin & Garvey.

----- 1997b. "The Ecocultural Project of Human Development: Why Ethnography and Its Findings Matter." *Ethos* 25 no. 2: 177-190.

Weisner, T. S., with C. Bradley and P. Kilbride, eds. 1997. *African Families and the Crisis of Social Change*. Westport, Conn.: Greenwood Press/Bergin & Garvey.

Whiting, B. B. 1991b. "The Effect of Social Change on Concepts of the Good Child and Good Mothering: A Study of Families in Kenya." *Ethos* 29 no. 1: 3-35.

Widavsky, A. 1994. "How Cultural Theory Can Contribute to Understanding and Promoting Democracy, Science, and Development." In *Culture and Development in Africa*, edited by J. Sarrage de and J. Tzoroff, pp. 157-164. Washington, D.C.: World Bank. Proceedings of an International Conference held at the World Bank, Washington D.C., 1994.

خرائط أخلاقية أوهام "العالم الأول" والإنجليس الجدد

ريتشارد إيه . شويدر

هل أكل لحوم البشر له قيمة غذائية أم أنه مجرد صورة من صور المطبخ الراقى؟ على الرغم من أن هذا السؤال موضوع جدل جاد في علم الأنثروبولوجيا إلا أن علماء الأنثروبولوجيا معروف عنهم أن لهم حسن دعوى ساخر في المناسبات الاحتفالية الكبرى . وأحسب أنني باعتباري أنثروبولوجياً، سوف أبدأ هذا الباب بتنويعه غريبة يعترف بها الجميع للطرفة قدسة عن سوق لبيع الأمخاخ في بابوا نيوجينيا

هذا غنى عن العالم الأول يسير بخطوات وتبديداً داخل محرن تبيع أطيب اللحام في بابوا نيوجينيا، عصد فسم اللحوم حيث رأى إعلاناً يحمل العنوان التالي تشكيلة من المرابين . ووجد بداخله عرضين رئيسيين بعثات شمسية تجليلية (دينيزون وعلمانيون) من ظنوا أن رسالتهم في الحياة أن يجعلوا عالمنا خيراً بمفضل تطبيق حقوقهم الأخلاقية. ويمثل العرض الثاني التسميون الرومانسيون الذين يرون أن كل شيء، وأنا كان فإنه صواب وفانم بالفعل هنا. ولحظ الكثير من أطباء الأظعمة الشهية مرتبة ترتيباً حسناً داخل أحواض زجاجية

يحمل الحوض الزجاجي الأول علامة تفوق أمخاخ اقتصاديين من البنك الدولي ٢٠٢٩ دولاراً للرطل . ونقرأ على إعلان ملصق بالحوض ما يلي: يريد هؤلاء إقراضاً أموالاً ضائلة بأسعار فائقة مجرية للغاية (والذي لن نردها على الإطلاق بطبيعة الحال)

بشرط واحد أن نصرف في أمور حياتنا وفق الأسلوب نفسه الذي ينصرفون به في الغرب. ويريدون منا أن نؤدق العقود رسمياً، وأن نقيم مضاءً مستقلاً، ونحظر تفضيل أبنائنا، عرفنا عند الاختيار للتوظيف في أعمالنا وهذه فقط المقبلات الأولى.

ونقرأ على العلامة المعلقة على الحوض الثاني عبارة أم خاخ أحلافيين بروين، دانت ٢٠٤٢. دولارا للطل. وتجد مكتوباً على الإعلان الملصق بها ما يلي أهولاً: يريدون منا أن نغير عاداتنا في العمل وأن نغير أفكارنا عن الحياة الخبيرة. يريدون منا أن نكف عن تبذير وقتنا في أداء طعوس وشعائر باسم الموتى من أسلافنا ويريدون إرضاء أموالا كثيرة بمعدلات فائدة مجرية للغاية (والتي لن نردها بالطبع إلسهم) ولكن بشرط واحد وهو أن نبدأ في التفكير في أمور الدراه على نحو ما يفكرون هم في الغرب (أو على الأقل مثل أقصى القطاعات الشمالية في الغرب). إن عامة الشعب في القطر الشمالي من الغرب مقتنعون بأن كل شيء مرزول كربه إلى النفس فيما عدا الانصرام الموضوعي بالعمل، وأن العني وحده هو الذي سوف ينعم بالخلاص. ويقولون لنا النمو المستدام هو كلمة البهر المعاصرة للدلالة على تبنى القيم المره تستانتيية، ويؤمنون بأن أثوب ببارك الناس في مسوره ما ينعمون به من رخاء مادي، خاصة ما يكتنزونونه من ثروات عن عمد، إنهم يشتمون لنا اخلاص. ويريدون أن يتولوا خلاصنا.

وتجد مكتوباً على العلامة المعلقة فوق الحوض الرجاسي الثالث عبارة أمخاخ دعاة المساواة بين الجنسين في إطار ثقافي أحادي ٢٠٤٩. دولارا للطل. ونقرأ في الإعلان ما يلي أهولاً يريدون منا أن نغير حياتنا الأسرية، وعلاقاتنا القائمة بين الجنسين وممارساتنا بشأن الإنجاب. إنهم يريدون منا أن نغض من قيمة الرحم الذي يقترن في أذهانهم بأمر سيئة مثل بناء أسرة كجيرة العمد، والترايط الأسرى، وتقسيم العمل على أساس جنسي. ويخالوننا بأن تعيد تقييمنا للبظر (الذي يقترن في أذهانهم بأمر أحسنه مثل الاستغلال والباؤة والإثارة الدائرية للذة) باعتباره الجوهر البيولوجي للداية والأنثوية، والرمز والوسيلة لتحرر المرأة من الترجيل. ويريدون من حلف الأطلسي التابع أن يرسل قوة عُرق لأغراض إنسانية بما لم نجد بالانضمام إلى المنظمة القوية للمرأة وعمهه حق المرأة في الإقتراع.

أما العلامة المعلقة فوق الحوض الزجاجي الأخير فمكتوب علىها أمخاخ علماء الأنثروبولوجيا ١٥٠٠٠ دولارا للطلل ونفراً على الإعلان ما يلي هؤلاء يعتقدون أننا ستقبض الأموال ونهرب سار صاحبنا الزائر مرعوباً، واتجه إلى الفنى الواقف خلف الطاولة وقال متسانلاً: ما هذا؟ ألم نسمعوا عن التفوق الأخلاقي للغرب (أو على الأقل الفطاعات التي في أقصى شمال الغرب)؟ ألا تعرفون أن السبب في أننا (في العالم الأول) أفضل منكم (في العالم الثالث) هو أننا إنسانيون بدعمون إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة؟ ألا تعرفون أن الأمر حين يتعلق بالأمخاخ تكون إزا- واحدة أساسية للبشرية؟ ألا تعرفون أن السبب الرئيسي للاختلافات في العالم (التباين في رأس المال البشري) هو أن الناس في جنوب الكرة الأرضية يشبون ويتربون وسط ثقافات فقيرة (ثقافات الفقر)؟ وهذا هو السبب في أنهم لا يصلحون للحياة القائمة على ضيق الثغوبعات السريع وانحمار الكوكبي السريع. هذا هو السبب في أنهم غير جديرين بالثقة. وقاسدون وغير منظمين وعاطلون من المهارات، وفقراء- حسن. نستطيع أن أفهم أن يكون هناك فارق بسيط جدا في الأسعار بين أمخاخ الاقتصاديين وأمخاخ الأخلاقيين البروتستانت وأمخاخ دعاة المساواة بين الجنسين (٢.٢٩ دولارا للطلل و ٢.٤٢ دولارا للطلل و ٢.٤٩ دولارا للطلل على الترتيب) ولكن لماذا ٠٠.٥٦ دولارا للطلل من أمخاخ الأنثروبولوجيين؟ هذا سخف! أمر غير منطقي! ليس في هذا عدل ولا إنصاف! إنه ضد انشغافية!

أجاب الفنى الواقف خلف الطاولة محل نعرف كم عدد الأنثروبولوجيين الذين تضطر إلى فتحهم للحصول على رطل واحد من الأمخاخ؟

لذلك شعرت وكأنني فقدت صوابي إلى حد ما إذ أشارت في تأليف كتاب يضم بين مساهميه عددا كبيرا من الباحثين والإنجيليين المتميزين في تخصصات علفية غير التخصص الذي أنتهي إليه. أفترض لورانس هاريزون بأن أضرم جهدي إلى هذا الجهد الكبير بأن أوضح لي في صراحة وصدق أنه يريدني أن أكتب كناقذ وشكوكي. ذلك لأنه ظن أنني أؤمن بالثقافة وليس بالتقدم. وقال لي إنه يخطط لدعوة أنماط أخرى من الشكوكيين والنقاد ممن يؤمنون بالتقدم وليس بالثقافة.

إسئ أؤمن قعلا بالقدم، ولو بمعنى محدود على الأقل (أكثر مما هو ميسر فيما بعد). وأشك في أن المعنى المحدد الذي أؤمن به بالنسبة للثقافة (أكثر من ذلك أيضا) قد لا يبدو مقبدا جدا (أو حتى معقولا) بالنسبة لمن أكتبوا هنا بأن الثقافة أساسية^(١)

ما معنى قولنا الثقافة أساسية؟ الأمر رهز من المتحدث. الفكرة المحورية في هذا الكتاب تعبر عن موقف فكري معروف بأنه التزعة التطورية الثقافية، ذلك لأن المؤمن بالتطوير الثقافي يرى في تكويد أن الثقافة أساسية وسيلة للقول بز بعض الثقافات فقيرة أو متخلفة، بينما ثقافات أخرى غنية أو متقدمة. معنى هذا أن هناك أشياء جيدة في الحياة (مثل الصحة والسكينة المنزلية والعدالة والرفاء المادي والإثارة الذاتية للذة والعائلة الصغيرة الحجم، وأن حرى بالبشر جميعا أن ينشوا هذا كله غير أن ثقافتهم تحول دون أن يربوا و/أو أن يحققوا.

منا نوضح كيف يمكن أن نقول ذلك إذا ما كنت أحد دعاة التطوير الثقافي هل تحب أن تتفحص الكوكب من خلال محهر (ميكروسكوب) أخلاقي ويرسم خرائط أخلاقية عن العالم؟ أو، لكي بفعل الشئ، نفسه، فز نبني مؤشرات دالة على نوعية الحياة يمكن استخدامها لتحديد مراتب الثقافات والحضارات والأديان وفق درجات نازلية من الأفضل إلى الأسوأ؟ إذا كنت من دعاة التطوير الثقافي سوف نشعر على الأرجح بفدر عميق من نشوش الفكر إزاء القوة الراسخة والشعبية الواسعة لوسائل العيش القديمة المتساوية ومنظومات العقائد الضرافية ذلك لأنك ترى أنها تسببا فارغة من الصدق أو الخيرية أو الجمال أو الفعالية العملية. وربع تساورك الرغبة في أن تعمل على تطوير مواطني القارات المظلمة في العالم، وربما تساورك الرغبة في أن تتشظلمهم من مهاوى الخطأ والتجهل والعادات السيئة واللا أخلاق، والفساد السياسي، ثم تحاول أن تعيد صياغتهم من جديد ليكونوا أكثر تقدما، وأكثر بيمقراطية وأكثر التزاما بالعلم، وأكثر تبنيا للفكر المدني، وأكثر انخراطا في التصنيع، وأكثر اهتماما بنظام مقاولى المشروعات، وأكثر ثقة، وأكثر عقلانية وأكثر شبها بنا نحن المثل الأعلى.

الثقافة مهمة في نظري ولكن على نحو آخر إذا كان لي يوما ما أن أشير إلى ثقافة فقراً فإنني سوف أحفظ بهذا الوصف لأصف به طوائف الزهاد حيث يسود التخلي عن الثروة، وإنكار طبيعات الحياة الدنيا وينظرون إلى هذا السلوك باعتباره فضيلة وخيراً موضوعياً. علاوة على هذا أرى أن بإمكاننا، تقييماً على مفهومى كيف يمكن تحديداً أن نبين أهمية الثقافة، أن أحاول الكشف عن بعض مزايا هذا المفهوم عن الخير.

وعلى الرغم من أن فكرة "الثقافة الفقيرة" ليست بالدقة نوعاً من الإدراك الخلفى الذى يجمع بين كلمتين متناقضتين إلا أنها لم يكن لها أى دور تقريباً فى مجال بحثي، ولكني أزيد الطين بلة أقول إن التزامى بذات فكرة "الثقافة" ينبع من اهتمامى بثقافات أخرى باعتبارها مصادر تنوير (شويدر ١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٦، ١٩٩٧ وشويدر وفخرون ١٩٩٨). إننى لم أودع قدراً كبيراً من الرصيد فى الرأى القائل بأن أحد الأسباب الوجيهة للاهتمام بالثقافات الأخرى هو أنها تمثل عائقاً يحول دون تحقق قدر من النطاعات الشاملة المنخيلة التى تراود جميع الشعوب أملاً فى أن يكونوا مثل الأوروبيين الشماليين، ومع إيماني اليقيني بأهمية أسلوب حياتنا وما فيه من أداب أخلاقية إلا أتنى لا أؤمن بتفوقنا الأخلاقى على كل الباقين.^(٢)

وهكذا لا أظن أن الأوروبيين الشماليين لهم الرواج فى السوق من أجل التقدم البشرى، وإننى لا أؤمن بأن التقدم المعرفى والروحى والأخلاقى والاجتماعى والسياسى والمادى يتحقق كله معاً فى نوازٍ مشتركٍ، ذلك أن مجتمعات تتمتع بثروات طائلة وسلطان قوى يمكن أن تكون معيبة روحياً وأخلاقياً واجتماعياً وسياسياً. ونجد الكثير من الثقافات ذات الحيوية والمتطورة فكرياً والمثيرة للإعجاب قلما حيث الفلاسفة يسكنون أكواخاً من طين، ونظورت فى بيئات ليس بها سوى بقايا أثرية من الثقافة والقليل نسبياً من الثروة المادية، ولهذا لا أؤمن أنه إما "نحن" أو "هم" الذين أنجزوا التجليات الوحيدة التى نثق فيها والمعبرة عن الحياة الجيدة.

واضح أنني واحد من عرابة. هذا العاقل. وليس هذا هو أعظم شعور جدير بالزهو، بل أنك أستعصحك أن أوصل عرضي بعد تقديم اعتراضين ربما بقلان من شعوري بالقلق من أن أوصف بأنني شكوكي ممن في شكّي

الاعتراف ١ : أنا عالم أنثروبولوجيا

أول اعترافاتي بضعمة الحال هو أنني أنثروبولوجي وليسوا. الحظ أن هذه الاعتراف لا ينطوي على معلومات كثيرة في ضوء كل الاضطرابات السائدة في مهنة الأنثروبولوجيا هذه الأيام، إنه لا يحمل أي دلالات ضمنية (علي نحو ما كان عليه الحال منذ خمسين عاماً أو حتى عشرين عاماً مضت) عما يمكن أن أشعر به إزاء مفهوم الثقافة وهل أنا معه أم ضده، أو عما إذا كان يضحكني أم يبكيني.¹²

ونوخباً للذقة في وصف المشهد الراهن لعلم الأنثروبولوجيا اسمحو لي أن أشير إلى أنه كان في وقت مضى من تاريخ الأنثروبولوجيا إذا وردت كلمات مثل "داني" وبربري" وأنصجي" أو حتى "متخلف" توضع الكلمة بين حاصرتين هذا إذا ما استخدمها الباحث أصلاً. وجاء حين من الزمن إذ ما وردت فكرة تقول إن هناك طريقاً واحداً فقط يفضي إلى قيام حياة أخلاقية وعقلانية، وإن هذا الطريق هو ضيقنا. بدت الفكرة وأقولها صريحة، توعد من الفحص

ولكن الأمور تغيرت. إن الحركة المسندة الداعية إلى ثقافة واحدة وضعت ثوباً لى نزعة نسبية سخرية في الأنثروبولوجيا وأضفت معنى جديداً على فكرة "الصواب السياسي"، لذلك نجد في مؤنة الحركة الدولية لحقوق الإنسان والهيئات المختلفة الداعمة للعبوة بأسلوبها الغربي (اليونيسيف ومنظمة الصحة العائسة وربما أيضاً يصل الأمر إلى حلف الأطلسي، النانو) الكثيرين من الأنثروبولوجيين في هذه الأيام بدون اهتماماً بثقافات أخرى ولكن باعتبارها أساساً موضوعات تشير الأبداء وإن عبارة: هذه ليست من الثقافة وإنما عمل (وأملاً أنت الفرائدات إجرامى. لا أخلاقى، فاسد، غير كفوء، بربرى) أو الدليل، إنه أمر ثقافي منه عمل (وأملاً أنت اعتراضات

إجرامى، لا أخلاعى، هاسد، عبر كفض، بربرى) أضحت صيحة التنادى لدى أنصار
نزعة التطوير الثقافى، ودعاة التدخل الغربى عنى اختلاف شاكلتهم، وكذا بعض
مدارس الأنثروبولوجيا الثقافية

اعتذر عن هذا التحول السافر للأحداث. لقد كانت الأنثروبولوجيا الثقافية يوما
ما بحثا علميا يزهو بمعارضته لسوء الفهم القائم على المحورية العرقية والخرسة
الأخلاقية، ويزهو كذلك بدفاعه عن الأساليب الأخرى للصباة فى موقف مناهض
للاستعمار، كان هذا فى سنوات سابقة.

ولكن اليوم نجد الكثيرين من الأنثروبولوجيين (ما بعد النزعة الثقافية، الذين
يريدون التكرار لفهوم الثقافة، وينهجون إلى أن كلمة ثقافة استُخدمت بسوء نية
للدفاع عن الترتيبات الاجتماعية التسلطية والسماح لطغاة بالإفلات مجرماتهم
والحقيقة أنه وكما تحول عالم النظرية فى الأنثروبولوجيا الثقافية يبدو أن الأمر وكأنه
أُعيد على بدء، إذ على الرغم من مضى قرن من الاعتراضات على لسان علماء
الأنثروبولوجيا التعدديين والنسبيين، والمسابقيين عن أمثال فرانز باوس وروث
سندبك، وملفيل مرسكوفيتس وروبرت لوفين، وكليفورد جيرتس وآخرين إلا أننا نجد
موقفا فكريا يعود إلى الظهور ثالثة بذكرنا بمقولات القرن التاسع عشر عن عبء
الرجل الأبيض والنزعة التطويرية الثقافية إن الفكرة المزهوة بنفسها المتحررة من
الديرية عن الليبرالية الغربية (وصور معينة منها والتي تتضمن انتهاء مشيرا بأن
الاعوات الإفريقيات أمهات سيئات، ومستهكات لحقوق الإنسان إذ بعض يباهن) عادت
لظهور مرة أخرى على مسرح الأنثروبولوجيا وبدأت فى صورة رسمية على الأقل بين
علماء الأنثروبولوجيا أصحاب أصح موقف سياسى.⁽¹⁾

ويبدو الموقف الآن داخل علم الأنثروبولوجيا معقدا بما فيه الكفاية (ومعكس) إذ
وصل الأمر إلى حد أن هناك أنثروبولوجيين يظنون أنهم أصحاب مفهوم الثقافة
ولا يريد أحدا، بمن فيهم هم أنفسهم، يتدخل فيه وأنا لست منهم، إننى أحب فكرة
الثقافة نفس النظر عما إذا كانت تضحكنى أم تبكىنى، أنا لا أملك التخلّى عنها،
إننى أرى أن ليس بالإمكان أن نحيا بالنزعة السكونية وحدها، إن الانتماء إلى نراث

مميز من المعاني شرط جوهرى للهوية الذاتية وللسمعة الفردية. وفي رأيه أن العرقية المفرطة والتنوع الثقافى كلامهما لهما مكانهما، وهما جزء من النظام الطبيعى والأخلاقي للأمور. ولا أظن أن أمتنا الطبيعية نريدنا أن نتعائل جميعا

ما الذى أعنيه بكلمة "الثقافة"؟ أعنى بها أفكارا محددة مميزة لمجتمع ما عن ما هو صواب وخير وجميل وكفء. وإن هذه الأفكار عن الحق والخير والجمال والكفاة لى تكون "ثقافية" لابد وإن تكون موروثة اجتماعيا وتشكل عرفا سائدا، ويتعين أيضا أن تكون هي مقومات سبل الحياة المختلفة.

أو لنقل ذلك بعبارة أخرى. تشير الثقافة إلى ما سماه إيسايا برلين أهداف وقيم وصور العالم التى تتجلى فى الكلام والقوانين والممارسات الروتينية لدى فريق مسئول عن توجيه نفسه

ويشمل هذا التعريف على الكثير جدا مما لا يسعنى أن أفصح عنه فى فصل واحد كهذا. وشمة فكرة تقول إن الأفعال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات. وإن الممارسات وحدة محورية لتحليل الثقافى. وهذا أحد الأسباب التى تجعلنى لا أميل كثيرا إلى الاستبيانات عن القيمة. وأجد عسيرا على أن أتحمس لبحث قائم على تحليل المعتقدات الرسمية أو على أتمام المصادفة على قضايا مجردة مستقلة بذاتها.^(٤٥)

أضف إلى هذا أن أحد الأشياء التى لا تدل عليها الثقافة بيقيناً هي الطابع القومى. أنا لا أعتزم الإسهاب فى الحديث هنا عن الدراسات المتعلقة بموضوع "الطابع القومى" بيد أنها أضحت منذ حوالى أربعين عاما نهجا بالملأ، وذلك لسبب مقبول. أضحت دراسات يالية لأن من الأفضل أن نفكر فى السلوك البشرى والذافع البشرى على نحو ما يفعل أصحاب النظريات عن الاختيار العقلانى، أو الاقتصاديون نور الفكر القويم بدلا من الأسلوب الذى يتبعه أصحاب نظريات الشخصية، نعرف أن أصحاب نظريات الاختيار العقلانى يرون السلوك أو الفعل شيئا صادرا عن عنصر فاعل. معنى هذا أن العقل عند تحليله يمثل المنتج المشترك للتفضيلات (بما فى ذلك الأهداف والقيم والغايات على اختلاف أنواعها) والقيود أو الضغوط (بما فى ذلك الوسائل على اختلافها مثل المعتقدات كأسباب، والمعلومات والمهارات والموارد المادية

وغير المدية) وتوسط هذا كله إرادة الكائنات العاقلة. يناقض هذا مع طريقة أصحاب نظريات الشخصية في التفكير في السلوك ، إذ يذهب هؤلاء إلى أن الفعل قسريٌ ويحاولون تفسير الفعل باعتباره المنتج المشترك لمنطقتين من القوى الموجهة، إحداهما تنفع من داخل وتسمى الشخصية (ويوصف في كلمات عن الحوافز العامة والخصائص الكوكبية صعبة الإرضاء)؛ والثانية تدفع من خارج وتسمى الموقف.

وثبت أن النظر إلى أنماط الأشخاص كوسيلة لتفسير الممارسات الثقافية نهج غير مفيد كثيراً. إذ لو حاول المرء أن يعاين بين الأفراد على أساس السمات الشخصية أو الحوافز العامة سوف يكتشف عادة أن الأفراد داخل الثقافات يتمايئون وأن هذا التماين في داخلهم أكثر كثيراً مما هو الحال من حيث اختلافهم عن أفراد من ثقافات أخرى. (كابلان ١٩٥٤). ويكتشف المرء ثانياً، أنه إذا كان هناك أي نمط مميز الخواص (مثل نمط لشخصية التسلطية أو نمط شخصية بحاجة إلى إنجاز) فإن هذا يمثل خصية مميزة لما لا يزيد عن ثلث المجموع. ويات من المسكّم به منذ زمن طويل بين علماء الأنثروبولوجيا النفسيين وعلماء نفس الثقافة أنه (وأقنيس هنا عبارة ميلفورد سبيرو ١٩٦١) من الممكن أن نقرن منظومات مختلفة لشخصية مميزة الخواص بمنظومات اجتماعية مماثلة، وأن نقرن منظومات متماثلة لشخصية مميزة الخواص بمنظومات اجتماعية مختلفة ومن ثم فإن البحث عن أنماط للشخصيات لتفسير الاختلافات في الممارسات الثقافية طريق مسدود (انظر شويدر ١٩٦١)

الإعتراف ٢ : أنا تعددي

اعترافي الثاني أنني تؤمن بتعددية الثقافات ، وتبدأ صيغة التعددية الثقافية عندي بحقيقة كلية شاملة، أشير إليها بوصفها مبدأً اللانظامية. إن المفكر الملتزم بمبدأ اللانظامية يؤمن بأن العالم القابل للمعرفة عالم ناقص غير مكتمل إذا نظرنا إليه عن زاوية نظر واحدة بون سواها، وعالم مشوش إذ نظرنا إليه من كل زاوية النظر دفعة واحدة، وعالمًا فارغًا إذا نظرنا إليه من لا مكان بذاته. وإذا كان لي أن

أحمار بين النعصن والنشوش والعراع فبإسب أن أار النقصان مع استمرارى فى
الحركة بين الطرق المختلفة فى النظر إلى العالم ونفسه

وهذه الصيغة لتعددية الثقافية لا تتعارض مع النزعة الكلية الشاملة نعرف أن
الباحثين فى الثقافة لا ينقسمون إلى نمطين اثنين فقط. أولئك المؤمنين بأن شيئاً واحداً
فقط هو الصحيح (أصحاب النزعة الكلية الشمولية) إننى أؤمن بقوة بالنزعة الكلية
أو الكونية ولكن نمط النزعة الكلية التى أؤمن بها هى نزعة كلية غير شمولية. وهذا
هو ما يجعلنى نعدداً، أو أننى بعبارة أخرى أؤمن بأن هناك قديماً كونية ملزمة ولكنها
كثيرة جداً. (مثل العدالة ، الضمير ، الاستقلال الذاتى ، التضحية ، الحرية ، الولاء ،
المهارة، الواجب) وأؤمن بأن غايات الحياة التى لها شبيعة موضوعية ترمات
متنوعة ، متقايرة الخواص ، غير قابلة للاختزال بحيث نردها إلى صفة
أخرى مشتركة مثل المنفعة أو اللذة وأنها بحكم طبيعتها فى تنازع مع بعضها
البعض وأؤمن بأن جميع طبيبات الحياة لا يمكن تعظيمها إلى أقصى حد لها
تلفانياً. وأؤمن بأننا حين تكون يصعد إنجاز قيم حقيرة فإننا نكون دائماً إزاء
موازناات وبدائل. وهذا هو السبب فى وجود تقاليد مختلفة عن القيم (أى الثقافات)
وهو السبب فى أنه لم يكن بوسع أى تقليد ثقافى وحده أن يمجذ كل ما هو خير¹⁷

وثمة دلالات أخرى لتعددية الثقافية بعضها يشير الغضب. مثال ذلك الرعم بأن
أعضاء الجنس التفتينى لرابطة الأنثروبولوجيا الأمريكية اتخذوا إجراء صائبا
وشجاعاً عام ١٩٤٧ حين قرروا عدم مساندة إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم
المتحدة بجمية أنه وثيقة تركز على محورية عرقية . لقد كان الأنثروبولوجيون عام
١٩٤٧ لا يزالون فخوزين بموقفهم المناهض للاستعمار والمنحطل فى الدفاع عن
الأساليب البدية فى الحياة. (انظر شويدر ١٩٩٦)

التقدم والتعددية . هل يتعايشان؟

التعددية لا تعنى رفض أفكار التقدم والانهيـار . والتقدم يعنى امتلاك ما هو أكثر وأكثر من شىء مرغوب فيه (أى شىء حري أن تنشده لأنه خير) . والانهيـار يعنى اطراد نقص هذا الشىء إذ يصبح أقل فأقل . ولنحاول أن نسمى خيرا محددًا (مثال ذلك رعاية الأيوين فى حالة الشيخوخة أو القضاء على مرض معدى) ، وهنا نستطيع أن نتخذ حكمًا موضوعيًا عن التقدم بالنسبة لهذا "الخير" . وإذا كانت الزيادة إلى أقصى حد ممكن فى احتمال بقاء الطفل هنا خلال الأشهر التسعة بعد الميلاد مقياس للنجاح فإن الولايات المتحدة تعتبر موضوعيًا أكثر تقدمًا من أفريقيا والهند ، وإذا كانت الزيادة إلى أقصى حد ممكن فى احتمال بقاء الطفل حيا خلال الأشهر التسعة الأولى بعد الحمل (فى الرحم) هو مقياس النجاح :ذن أفريقيا والهند (التي ننخفض عنده معدلات الإجهاض) هما موضوعيًا الأكثر تقدمًا من الولايات المتحدة (التي ترتفع فيها معدلات الإجهاض).

وطبعي أن أى قرار ينطوى على نسبة كبيرة من التقدير الشخصى (أعنى لا يملية منطلق أو دليل) وهو ما يتعلق بكيفية اختيار وتحديد خيارات محددة بذاتها . ومن ثم رسم خارطة أخلاقية للعالم . مثال ذلك الكم المطلق للحياة أو الملاحة النكاثرية يمثلان مقياسًا يستخدمه علماء البيولوجيا التطورية لتقييم نجاح تجمع سكنى ما . وكيف لنا ، بناء على هذا المقياس للنجاح ، النكاثر الجينى لقبيلة ما أو خط تسلسل سلفى - أن نقيم حبوب ضبط النسل وتشريع الإجهاض ، وخفض حجم الأسرة فى مجتمعات الثقافة العليا فى العالم الأول؟ ترى ، هل تحكى قصة اندثار؟

أو لتتخذ مثالًا آخر ، أى نمط قصة ينبغي أن نحكيه عن مقاييس نوعية الحياة مثل متوسط العمر المتوقع عند الميلاد؟ نعرف أنه كلما طالت حياة تجمع سكانى زاد نواتج المرض الزمن ، وزاد احتمال الخلل الوظيفى ، ومن ثم ارتفعت كمية الألم المتراكم (وهو مقياس نوعى صحيح) الذى يعانى منه الناس ، وإن الأشياء الجيدة (مثل زيادة سنوات العمر ، والتحرر من الألم البدنى) لا تترايط دائمًا . ذلك أن الحياة الأطول ليست بالضرورة حياة أفضل ، أم أنها كذلك؟ أو إذا كان طول العمر مقياسًا

للتجّاح فلماذا لا نكون للتجمّعات السكانية الأكثر عدداً وحجماً مثل الصين والهند عنى
قمة القائمة؟

ولكن لماذا متوسط العمر المتوقع عند الميلاد؟ أى مبدأ منطلقى أو قانونى فى علم
الاستقراء، يفرض هذا المعيار لرسم خرائط أحلاقية ولتقييم التقدم الثقافى؟ لماذا
لا نأخذ العمر المتوقع عند سن الأربعين أو عند الحمل؟ لماذا لا نأخذ الإطار الأكثر
شمولا لمسار حياة الجنين وليس فقط زاوية النظر الأخيرة له كرضيع حديث الولادة ؟
إنما، كما أشرنا، إذا أخذنا فى الاعتبار مخاطر الرحم فإن العالم الأول وكذا العالم
الثانى السابق سيكون أسوأ حالا من مجتمعات كثيرة فى أفريقيا وآسيا،
ولنتأمل مدى اختلاف جداول متوسط العمر المتوقع إذا ما حددنا عوامل
معدلات النسبة المئوية للإجهاض من ٢٠ إلى ٢٥ فى الولايات المتحدة أو كندا
أو معدلات النسبة المئوية للإجهاض من ٥٠ - فأكثر فى روسيا مع مقارنتها بمعدلات
منخفضة تصل ما بين ٢ و ١٠ بالمائة فى الهند وإندونيسيا وأجزاء أخرى من
العالم المتخلف.

وليس تضييقنا هنا الجدل بشأن الصّحج المؤيدة للحياة/ واتصّيح المؤيدة
للاختبار (وإن كنت أؤيد الاختيار). قضيتنا هى الجانب التقديرى عند رسم الخريطة
الأخلاقية ودرجات الضرية التى يتمتع بها المرء بشأن تقرير أى مثل عليا سوف
نختارها لتكون المعيار الذهبى للحياة الجيدة - إن معدلات الإجهاض ترتفع غالباً مع
تقدم المجتمعات ثقافياً. ومن ثم ينخفض معدل متوسط العمر المتوقع للسكان (مع
افتراض حساب العمر المتوقع من نقطة الحمل وليس الولادة) - والملاحظ أن الطفولة
الباكرة تمثل فترة زمنية خطيرة نسبياً فى حياة المرء فى بعض أجزاء من العالم وغالباً
ما تكون المرحلة التى تلى من قيمة نجاح عملية التكاثر وبناء أسر كبيرة. ولكن فى
أماكن أخرى وغالباً ما تكون أماكن متمتعة بالتفان العلى وتعالى من قيمة الأسر
الصغيرة الحجم ولم تعد تنظر إلى الرحم كنسأس لإلزام شرعى، تاتى المخاطر
الحقيقية فى فترة باكرة من الحياة، وإذا كنت طفلاً غير مطلوب فإن الرحم يكون مكاناً
محفوظاً بالأخطار على صحتك.

وما لم ينم اخنار ومعين "خير" بذاته حتى ينبرس عمل التقييمات الموضوعية للتقدم والانتحار، بيد أن هذا النمط من التقدير المميز للقيمة مختلف تماما عن أية صورة من صور النزعة التقدمية المنتصرة التي تحاول أن تنتفي تقليدا ثقافيا معيناً باعتباره متفوقاً عن كل ما سواه، ويمكن جعل الأشياء تبدو في صورة أفضل أو أسوأ، والأمر رهن معايير القيمة التي تنتقي على أساسها. وعندما يتعلق الأمر باستعراض جديد لجميع الأشياء الكثيرة التي يهتمل أن تكون أشياء خيرة في الحياة، فإن أنصار التعددية الثقافية يؤمنون بأن هناك زوائد وتوافض في غالبية التقاليد الثقافية العريقة (انظر شويدر وآخرين ١٩٩٧). وعندما يتعلق الأمر ببناء سرديات عن التقدم فإنهم يؤمنون بوجود مجالات كثيرة لتتحفظ والتشعير (والإيديولوجيا) من حيث كيف يروي المرء قصة ما هو أفضل وما هو أسوأ

ومن الممكن أيضاً عمل هذه الأحكام القيمية المميزة عن التقدم دون الإيمان بالنفوق الشامل للحاضر عن الماضي، أو الإيمان بأن غالبية التغييرات إنما هي تغيرات نحو الأخصن. بل إن من الممكن حتى عمل أحكام معيارية مميزة عن التقدم والانتحار مع بقاءك من الأثريين الجدد. أعني من يرفضون فكرة أن العالم استيقظ وخرج من محيط الظلمة وأصبح عالماً صالحاً لأول مرة بالأمس أو منذ ثلاثمائة عام مضت في شمال أوروبا. ذلك أن الأثري الجديد لا يرى الجودة مقاساً للتقدم، ولديه استعداد تام، باسم التقدم، ليعيد تقييم الأمور من أماكن بعيدة ومن اناسي البعيد.

ويصدر التعدديون بالفعل أحكاماً نقدية. حقا إن "موقف التبرير" محوري إلى حد كبير في أسلوب التحليل الثقافي حتى إنني ربما أحدث معنى الثقافة الأصيلة بأنها ثقافة جذيرة بالتقسيم وأنها أسلوب حياة يمكن الدفاع عنه في مواجهة النقد من الخارج. وإن التعددية هي محاولة توفير الدفاع أمام الآخرين، وليست مجرد أداة تصحيح للانحياز والمبالغات من جانب مختلف الأشكال الحديثة للمحورية العرقية والشوفينية (بما هي ذلك الزعم بأن الغرب أفضل من بقية العالم)، وإن كان هذا وحده يشكل ممبياً كافياً، ولأن فقط مع سقوط الشيوعية وبعود الأسهم الكوكبية بما هي ذلك توسع شبكتنا العثمانية (الإنترنت) نشعر نحن (في الغرب) بالإعجاب

الكامل بأنفسنا وخرى بنا أن نتذكر أنه في أوقات كهذه حين أصدر ماكس هير كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية لم يعرب عن تفضيله للبروسنتانية على الكاثوليكية أو الشمال على الجنوب، إذ كان تعديبا نقديا وعرض تحذيراه بشأن القفص الحديدى للحداثة، والقواعد اللاشخصية لنقولة البيروقراطية التي تعيد تحديد التزامات المرء الأخلاقية إزاء أهل الحسب والنسب باعتبارها صورة من صور الفساد، وبشأن أخطار العقلانية الاقتصادية الجامحة.

إننا نرى على مدى التاريخ أن كل من كان هو الأغنى والأكثر تقدما تقانيا ظن أن أسلوبه في الحياة هو الأفضل والأكثر طبيعية والنعمة التي أنعم الله عليه بها، وأنه بطلك أضمن أسلوب للخلاص أو على الأقل أسرع طريق إلى الرفاه في العالم، وبذكر أن المبشرين البروتستانتين الذين ذهبوا إلى الصين كانوا يؤمنون بأن اختراعهم للساعات التي كانوا فخورين بها إلى أقصى الحدود، مثل بوهانا قاضيا وهاسما على نفوق الكاثوليكية على أنديان العالم قاطبة. (لاتيس، ١٩٩٨ - ٢٢٦ - ٢٢٧). وإن كل ما أعرفه هو أن ساعنهم الميكانيكية ربما اعضرت حجة لصالح الملكية المطلقة وما نحن إذ نعيش منهولين بابتكاراتنا وألعابنا المعاصرة (مثل شبكة سي إن إن، وأي بي إم، وماكدونالد، أو بيج ماك واليو جينز وحبوب تنظيم النسل ويطقات التامين [كريدت كارد])، ومدهولين في الدخل بأسلوبنا في الحياة، نعيش أسرى أوهام معائلة وخداعات من القمط نفسه.

نبوءات ألفية: ثلاث صور عن النظام العالمي الجديد

هذه أزمئة تشير الحيرة والارتباك خاصة حين يحاول المرء تخيل الضغوط العامة للنظام العالمي الجديد الذي من المحتمل أن يحل محل مخطط العوالم الثلاثة القيمة الرأسمالي والشيوعي والمتخلف.

أجد أسباب الحيرة أن المنشأة الأولى للتطوير والتي تحكى عن صعود العلمانية والنزعة الفردية والعلم قد نالت ما شحقه من جزاء في التسعينيات، وربما لا يكون

هذا كاهيا ومفيدا للتنبؤ بانجاء النغير في مطلع القرن الواحد والعشرين. إن كثيرين من علماء الاجنماع تفصلوا منذ ثلاثين عاما مضت أن الدين سينفوى وينلاشى في العالم الحديث ليحل محله العلم وتنبؤوا بأن القبائل سوف تندثر ويحل محلها الأفراد. وأخطأوا. إذ لم يحدث ولن يحدث ما تنبؤوا به سواء على الصعيد الكوكبي أو المحلي. إن التعددية الثقافية واقع حياتي. وإن العالم الثاني السابق. وقد كان إمبراوضرية. بات اليوم عوالم صغيرة كثيرة. ويبدو أن تصور نظام عالمي كوكبي وظهور حركات إحيائية ثقافية أو عرقية محلية سوف يجران على التوازي. ولعل أقصى شيء أن الوراثة السياسية ربما يكون لها عائدها الذي تجنيه الأقليات الثقافية. ومتضمن العوائد المحتملة تلقى مساعدات مالية مباشرة وحماية عسكرية من عبوان مراكز قوة مختلفة حتى وإن كان لها صوت داخل الأمم المتحدة.

علوة على هذا فإن أكثرنا يعيش الآن في دول أمة مزلفة. كما يقول جوزيف راز من آجماعات ومجتمعات محلية لها ممارسات ومعتقدات مختلفة. من بينها جماعات لا تنسق عقاندها ولا سسجم مع بعضها بعضا وسوف نواصل ونستعر في هذا الوضع ما لم يكن ذلك لسبب آخر غير حقيقة الهجرة الكوكبية وواقع أن للمجتمع المحلي والذمني مزايا جوهرية ويتمين الاعتراف بها لصالح الهوية الفردية والتقدم البشري. وطبعى أن الحياة في مثل هذا العالم محفوفة بالآخطار خاصة لأعضاء الجماعات المهاجرة أو الأقليات ممن يعيشون في بول متعددة الثقافات أو لأعضاء ينتمون لحضارات أو ثقافات مختلفة ممن يعانون نزاعات جيوبوليتيكية. ويأمل المرء في مثل هذا العالم أن لا تكون الثقافة وحدها هي العنصر المهم والأساسي بل أيضا فهم تعددي مميز للثقافة ذلك لأن الفهم الصحيح للثقافة يمكن أن يفيد في تقليل المخاطر المترنة بالاختلاف وبالحياء متعددة الثقافات إلى أدنى حد ممكن

ثمة سبب آخر لهذه الأوقات المتيرة للحيرة. قد يكون مفيدا وجميلا أن نملك بين أيدينا تفسيرا سببيا عاما وصحيحا لثروة وفقر الشعوب أو الثقافات أو الأمم. بيد أن هذا لا وجود له. وإذا كنا نعنى بالتسبب ما يعنيه جون ستيوارت ميل - جميع الشروط الضرورية التي تفي مجتمعة لإنتاج نتيجة - فإننى أؤمن بضرورة التسليم

بأننا لا نعرف حقيقة ما الذي يسبب النمو الاقتصادي هناك صقلية في القرن الرابع عشر وهولندا في القرن السادس عشر، واليابان اليوم. ويمكن لعلماء الاجتماع أن ينتقوا شعبا ما أو ثقافة أو أمة ما ويحكون لنا قصة مستصوية عن بعض أسباب الانهيار أو النجاح الاقتصادي في هذه الحالة. بيد أن هذا بعيد كل البعد عن نظرية سببية عامة. ولنداول كتابة قائمة بجميع الشروط السببية المحتملة لإنتاج الثروة والتي ذكرها دافيد لانديس (١٩٩٨) في كتاب الفريد تاريخ العالم الاقتصادي، ثم نسأل أنفسنا السؤال التالي: هل أي من هذه الشروط كاف لإحداث نمو اقتصادي؟ الإجابة لا. بل هل أي من هذه الشروط ضروري؟

إن سنغافورة ليست ديمقراطية ليبرالية ولكنها غنية. والهند أكثر بلدان العالم ازدهاما بالسكان وديمقراطية ولكنها فقيرة. وكانت السويد في القرن الثامن عشر ديمقراطية التجمع السكانية المتناثرة وكانت فقيرة. والشعوب الأرتوذكسية أي النمسا بحرفية التقاليد ولا تؤمن بالمساواة بين الجنسين يمكن أن تكون غنية. وإن المجتمعات العلمانية للغاية والمؤمنة بالمساواة (البلدان الشيوعية السابقة في شرق أوروبا) قد تحقق في تحقيق الازدهار من وجهة نظر اقتصادية. وفي عام ١٩٥٠ كانت اليابان ملتزمة بالقيم الكونفوشية (والتي لم تكن آنذاك تبدو غريبة تماما) وكانت أفقر من البرازيل. وفي عام ١٩٩٠ لا تزال اليابان ملتزمة بالقيم الكونفوشية، ولكنها بدت فجأة وكأنها شبه بروكستانتية وتجاوزت البرازيل. لو أنني سأخبر لقلت إن أقدر مؤرخينا الاقتصاديين يجيدون تماما تحديد بعض الشروط غير الضرورية التي ربما كانت كلها مجتمعة كافية لإنتاج ثروة في أي حالة خاصة مميزة. وبحث إنني أقل سخيرية أقلن أن من الإنصاف القول إنه على الرغم من الكثير من التفسيرات التاريخية المثيرة التي تحدد الشروط النوعية المميزة لحالات خاصة وكانت سببا في دعم النمو فإنني على حق إذ أشعر بالحيرة إزاء الأسباب العامة للنجاح الاقتصادي إذا ما كنا نعني بالتسييب ما كان يعنيه جون ستيوارت ميل حين حدد معنى المصطلح

كيف لنا إذن أن ندرك التغيرات الكبرى التي تجري في النظام العالمي؟ ما هي العلاقة بين العولة (الربط بين اقتصادات العالم) والتفريب (تبني الأفكار والمثل العليا

والمعايير والمؤسسات والمنتجات الغربية) وبين النمو الاقتصادي؛ إننا إذا أصغنا السمع لما يجري هذه الأيام يمكننا أن نسمع نبوءات أو مضاربات كثيرة عن شكل النظام العالمي الجديد، وسوف أختتم حديثي بذكر ثلاث منها.

نبوءة ١ : الغرب هو الأفضل وسوف يصبح كوكيبيا (أو إنه على الأقل سوف يحاول أن يسود العالم)

التنبؤ هنا أن التطلعات شبه الغربية سوف تنطلق أو تحررها العمولة وستكون سببا ونتيجة ملازمة للنمو الاقتصادي. وتتضمن التطلعات شبه الغربية رغبة في تحقيق ديمقراطية ليبرالية، ولا مركزية السلطة، ومضروعات الأعمال الصرة والملكية الخاصة والحقوق الفردية والمساواة بين الجنسين ... إلخ وربما تشتمل أيضا على تنسيق المنتجات الغربية أما عن العمولة والتفريب والنمو الاقتصادي فإن هذه النبوءة تتصور حدوث نتائج سببية في كل الاتجاهات ، ويمثل هذا أساسا قصة منشأ التتوير الغربي وقد شملت العالم كله وتطلعت إلى المستقبل.

نبوءة ٢ : آخرون سيكون لهم نصيب ويظلون متعسكين بثقافتهم المميزة

في مطلع السبعينيات كان عندي طالب سوداني يعد رسالته لنيل درجة الدكتوراه عن اتجاهات نحو التحديث بين الطلاب الأفارقة واستخدام في الإعداد لرسالته اسنييانا عن المعتقدات والقيم. واكتشف أن عامل "أماوية" في استقباليته متعاقد مع عامل النزعة الفردية ، إذ يمكن أن نجد من يضيف قيمة على الثروة المادية دون النخلي عن القيم الجمعية للقبيلة . ونالت الرسالة إعجاب السعودية بحيث عينوه للتدريس في جامعاتهم ، ربما لهذا السبب شاعت في العالم غير العربي أطروحة صمويل منتجيتون (١٩٩٦) عن أن الغرب متفرد وليس كونيا، وأن الحضارات الأخرى ليست بحاجة إلى أن تصبح مثلنا وتفيد من تقانات العالم الحديث ، ويتصور هذه

السوء عوله ونمو اقتصاديا دون أن يتغلغل الغرب ثقافيا إلى أعمقها . إن التعاهدات والحضارات نجد ما يدعمها على البقاء . متنوعة مادام كل طرف يحصل على نصيبه من الكعكة (١٠)

نبوءة ٣ : إمبراطورية ليبرالية بالأسلوب العثماني تضم طائفتين (الليبراليين الكوزمبوليتانيين والمحليين غير الليبراليين)

أقرن التبوع الأولى بفرانسيس فوكوياما (١٩٩٢) والثانية بصمويل منتجنون (١٩٩٦) واسمحو لي أن أختتم بيوتي عن السنقل . لتخيل نظاما عالميا ليبراليا بالمعنى الكلاسيكي . ويتخذ زعماءه موقف الحياء إزاء قضايا ثقافية موضوعية إنهم لا يشترطون مساعدتهم وحمايتهم بإجراء تغييرات في المثل العليا المحلية بشأن الجنوسة أو أشكال السلطة أو هياكل القرابة أو طفوس بلوغ سن الرشد . وإنهم لا يحاولون إبلاغ أبناء الجماعات الثقافية المختلفة أن عليهم العيش معا أو أن يحبوا بعضهم بعضا أو أن يتفسموا ربود الأفعال العاطفية ذاتها أو المثل العليا الجمالية أو المعتقدات الدينية نفسها . لن يحاولوا أن يقولوا لهم كيف يدبرون حياتهم الخاصة أو أن عليهم أن تكون لهم حياة خاصة . ولتخيل أن هذا النظام العالمي اشتعل على أليات مختلفة لتوقيع الجزاءات مما يسر فرض الحد الأدنى من قواعد الحياة المدنية تأسيرات الخروج عتاحة دائما . وحظر الاعتداء عبر الحدود الإقليمية . ولتخيل أن مثل هذا النظام العالمي أقيم بدعم السيطرة اللامركزية على القضايا الثقافية . ومن ثم لتعزيز الازدهار الثقافي المحلي وأن مثل هذا النظام العالمي الجديد الطارئ ربعا يشبه نظام الأمة العثماني في صورة بُعد حدثية على نطاق كوكبي .

وأخيل أن هذا النظام مؤلف من طيقتين ويعمل على مستويين كوكبي ومحلي . وأتصور أن العاملين فيه سوف ينتمون إلى طائفتين سيكون هناك الليبراليون الكوزمبوليتانيون البريون على تقدير قيمة الحياء والتنوع الثقافي ودييون المؤسسات الكوكبية للنظام العالمي وسيكون هناك العاملون المحليون غير الليبراليين

اندرين ندرهوا انفسهم لـ... (أو آخر من أسدال العرفه المفرطه و... من اجل
انفسهم عن الاخرين وبذلك... وفر صمان بأن سيبقى في العالم نوع كالف... لكي
ينظر إليه الليبراليون الكوزمبوليتانيون بعين التقدير، وضيحي أن النخبة الكوكبية
(وهم كوزمبوليتانيون ولبيراليون) ينالون عن جميع القديسات، وهدر بالذكر أن
الثقافة كوزمبوليتانية الكونية الجديدة للطبقة الكوكبية في النظام العالمي ستعتمد
السلف الذي ننتمي إليه ولون بشرتك أقل أهمية بكثير من عمق تعليقتك وقدمك
وخطك لسفري. إن العالم الكوزمبوليتاني بعد الحديث ليس عالما يجعلك تشب وتنشأ
في الغرب لتكون عريه تماما مألما أن لبس عليك أن تشب وتنشأ في العالم الجنوبي
لمتبنى وجهه نظر أمسية للعالم لثالث وإنجيل آخر أن سوف يكون بالإمكان في هذا
النظام العالمي الجديد أن يغير الأفراد أوضاعهم و... منانهم إلى إحدى الطبقتين
و... في الاتجاهين المتقابلين. أي التحرك من الليبرالية الكوكبية إلى الثقافة
ملحلية غير الليبرالية ثم العودة ثانية على سبيل مسار حياة الفرد

وسوف أجازفه بالتضمين التالي فيما يتعلق بالهولة والتخريب والنمو الاقتصادي
إذا تبين أخيرا كقاعدة عامة أن النمو الاقتصادي يمكن إنجازه على الرغم من
المصاعب اعتمادا فقط على مظاهر هشّة أو ضحلة للمجتمع العربي (مثل الأسلحة
وتقانة المعلومات وبطاقات الائتمان) فإن الثقافات لن تتحول حتى وإن اغتنت ، وإذا
كان النمو الاقتصادي معتمدا على قبول المظاهر العميقة أو الراسخة للثقافة الغربية
(مثل النزعة الفردية والمثل العليا الخاصة بالأثوة ونزعة انمناوة ووشبقة حفوق
الإنسان) فإن الثقافات لن تتحول ولن تتطور اقتصاديا لأن إحساسها بالهوية سوف
يجب رغبها في الثروة المادية

المراجع

- Fukuyama, Francis. 1992. *The End of History and the Last Man*. New York: Free Press.
- Harrison, Lawrence H. 1992. "Who Prospers? How Cultural Values Shape Economic and Political Success." New York: Basic.
- Huntington, Samuel P. 1991. "The West Joins 'Not Universal' Foreign Affairs 75: 28-54.
- Kaplan, B. 1954. "A Study of Rorschach Responses in Four Cultures." *Papers of the Peabody Museum of Archaeology and Ethnology*, 47: 7. Cambridge: Harvard University Press.
- Laudes, David S. 1998. *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some Are So Poor*. New York: Norton.
- Obermeyer, D. M. 1999. "Female Genital Surgeries: The Known, the Unknown, and the Unknowable." *Medical Anthropology Quarterly* 13: 79-105.
- Oliver, J. A. 1997. "Rethinking Pluremics and Transgender in the Campaign Against Female Circumcision." *Case Western Reserve Law Review* 47: 275.
- Shweder, Richard A. 1991. *Thinking through Cultures: Expeditions in Cultural Psychology*. Cambridge: Harvard University Press.
- . 1960. "Cultural Psychology: Who Needs It?" *Annual Review of Psychology* 11: 497-523.
- . 1966a. "True Ethnography: The Lore, the Law, and the Lure." in *Ethnography and Human Development: Context and Meaning in Social Inquiry*, edited by R. Jessup, A. Galby, and R. A. Shweder. Chicago: University of Chicago Press.
- . 1966b. "The View from Manywheres." *Anthropology Newsletter* 37 no. 9: 1.
- Shweder, Richard A., ed. 1998. *Wisdom to Middle Age: (and Other Cultural Fictions)*. Chicago: University of Chicago Press.
- Shweder, Richard A., with M. Mahapatra and J. G. Miller. 1986. "Culture and Moral Development." in *Cultural Psychology: Essays on Comparative Human Development*, edited by J. S. Sagler, R. A. Shweder, and G. Herdt. New York: Cambridge University Press.

Gilman, Deborah A. with N. G. Muth, M. Makotsko, and L. Park. 1997. "The Big Three of Mindfulness: Autonomy, Community, Diversity and the Big Three Explanations of Wellbeing." In *Mindful and Healthy*, edited by P. Paine and A. Brandt. New York: Routledge.

Seligman, M. 1961. "Goal Systems, Personality, and Functional Analysis." In *Studying Personality Cross-Culturally*, edited by Kaplan. New York: Harper & Row.

Slotznberg, N. M. 1997. "A Tale of Two Villages (or, Legal Healer Comes to Town)." In *Ethnicity and Group Rights-Norms XXXIX*, edited by I. Shapiro and W. Kyrlicka. New York: New York University Press.

تعقيبات

ملاحظة ريتشارد شويبر الأولى (انظر ما يلي) أثارت ردود أفعال لدى كل من دانييل إيتونجا - مانجويل، وكارلوس ألبرتو مونتانو وماريانو جرونونو وثاني تعقيباتهم نالية للهامش مع تعقيب آخر قدمه ريتشارد شويبر .

من بين الملاحظات الكثيرة التي سمعتها ها هنا في المؤتمر واستحوذت علي انتباهنا العديد من الشهادات "الأصيلة" التي جاءت على لسان مثقفين كوزمبوليتانين من أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، إن هؤلاء المثقفين للعالم الثالث أدوا دور المظلمين على بواطن الأمور من الداخل والساحطين، وتحمل كلامهم شهادة على فقر ثقافتهم الخاصة القومية

وأخبرونة عن مدى سوء الحال في أوطانهم ، وتزايد عدم النور تعفدا بل وعموضا في عالمنا بعد الحديث حيث أصبح الخارج في الناحل والداخل زائعا في كل مكان (ولنفكر معا في سي إن إن، والقرن وبيع ذلك) ، إن الغالبية العظمى من مديري النظام العالمي الجوايين في كل أنحاء الكوكب يمن فيهم المثقفون الكورمبوليتانيون من العالم الثالث يعتبرون خطب السفر أهم شأنا من الساف. ومن ثم يشعر المرء بميل إلى إثارة الشكوك إزاء أى ادعاء لقيام سلطة غنى أساس مساواة المواطنة (أو الأمل القومي) بالصوت الوطني الأصلي. وتساءل أخيرا: من صوته أكثر وطنية أصيلة ؟ صورت "معلم غربي" يحمل درجة البكالوريوس أو الدكتوراه من دكار أو بلهي الذي ينظر نظرة يونية إلى تقالده الثقافية ونظرة الإكبار إلى الولايات المتحدة بفضل ما تقدمه من توجيه فكري وأخلاقي ومساعدات مادية؟ أم صوت الباحث العربي الذي يقضى سنوات في بحث عيداني وسط قري ريف أفريقيا أو آسيا ويفهم ويشهد انقبة في تقاليد الآخرين ؟

تعقيبات مونتانا وايتوجا - ماجويل وجرونونا مع تعقيب آخر لشوييدر

كارلوس ألبرتو مونتانا

تعقيب ريتشارد شوييدر نموذج لرأي أولئك الذين يتوقعون من بلدان أمريكا اللاتينية ردود أفعال هي للعالم الثالث. إنه لا يدرك ببساطة أن أمريكا اللاتينية امتداد للعرب، وأنا لا أفهم لماذا يفكر شوييدر في أن من واجبنا أن نسلم أنفسنا لحكومات سلطوية ونعاند اقتصادية تلمى بنصف شعبنا إلى مهوى اليأس بينما يؤمن العالم كله - ابتداء من اليابان - أن من الأمور المثيرة للإعجاب أن اليابان حاكت تقنيات الإنتاج والتنظيم الاجتماعي لدى الغرب. ربما بدت له صورة الغافليين *tavelas* البرازيليين صورة حياة معبرة عما يريد نظرا لما يعانونه من بؤس وحشي ولا نهائى. وأنا لا أقبل تلك الظروف بون المستوى الإنسانى وأؤمن بضرورة استنصافها وأن تتوفر لمن يعيشون في هذه الظروف فرصة لحياة أفضل وأكثر إنسانية

كيف لى أن أعرف ما يريده الأمريكسون اللاتينجون؟ الأمر غاية فى البساطة بمتابعة اتجاهات الهجرة. تثبت الدراسات الاستقصائية أن نصف أو أكثر من نصف سكان المكسيك وكولومبيا وجواتيمالا بين آخرين يهجرون بلدانهم فاصدين الولايات المتحدة لماذا؟ لأن الولايات المتحدة تقدم لهم ما لا يجدونه فى بلدانهم

وإن ما يقوله شوييدر عن هؤلاء المثئين للعالم الثالث وأنهم يؤنون بعد الساخطين من أبناء الداخل يمكن أن ينطبق أيضا على الأمريكيين المعنيين بتعسين الظروف بون الإنسائية فى معازل أو جيوتو السود وأبناء بورتوريكو. وإذا كان صاحب موقف منسق غير نقدى لقيم واتجاهات ثقافة ما فإنه لن يجد مشكلة مع أوميرتا *Omerita* الصقلية

دانييل إيتونجا - مانجويل :

باعتباري من الساخطين في الداخل ومفكر كوزموبوليتاني من أفريقيا، أعرب عن تقديري للزمن المتاح لي للتعمق على ملاحظة ريتشارد شويدر وإني أقول ذلك وفي نفسي بعض الحياء. إنني في نهاية الأمر أجيء على باحث غربي يرى نفسه أكثر أصالة في الانتماء للوطن مني أنا لأنه قضى سنوات في البحث الميداني داخل قري الريف في آسيا ويفهم ويشهد القيمة في تقاليد الآخرين.

وأجد لزاما علي أن أعترف بأنني أخفقت في تلقي التوجيه الفكري والمعنوي والمساعدة القادية التي توقعتها في ندوة هارفارد. لذلك ستقول الحق نحن الأفريقيين نسلمتع حقا بالحياة داخل مدن الأكواخ حيث لا طعام كافياً ولا رعاية صحية ولا تعليم للأطفال. علاوة على هذا، فإن نطفنا السياسية الرئاسية الفاسدة مثيرة للدمشة حقا وسبخت لبلدان مثل زامبيا مويوتو أن تحقق لنا مكانة واحتراما دوليين.

علاوة على هذا، فسوف يكون من المروع يقيناً إهراء انتخابات حرة ديمقراطية في كل أنحاء أفريقيا. وإذا قدر وحدث هذا قلن نكون أفريقيين حقيقيين. وإذا نفقد هويتنا، ونزعنا التسلطية وحروبنا الأهلية النموية وسوسط عمرنا الذي لا يجاوز الخامسة والأربعين - فإنتنا بذلك، لن نخذل أنفسنا غفط بل ونخذل أيضا علما- الأنثروبولوجيا الغربيين الماكفين على دراستنا في تعاطف وجداني ويفهمون أن ليس من المتوقع لنا أن نسلك مثل البشر الذين يكتسبون لأنفسهم كرامة ومنزلة رفيعة عشية اللفية الثالثة. نحن أفريقيون وهويتنا لها دور أساسي

لذلك دعونا ناضل من أجلها مع دعم كامل من الباحثين الغربيين ممن لديهم الحكمة والشجاعة للاعتراف بأن الأفارقة ينتمون إلى عالم مختلف.

ماريانو جروندوتا :

ثمة فارق منهجي بين ريتشارد شويدر والأمريكيين اللاتين من أمثال كارلوس ألبرتو مونتازر وأنا. إذ لو كان هدف شويدر التركيز على أمريكا اللاتينية إذن كان

من عمله أن يعدها بحزن فزده بتغييرها وإن علمنا الأثروبولوجيا وبرهون من
المجتمعات التي درسونها أن ما في نسبنا على حالنا، وقابلة للتعديل شأن عالم
الخصومات الذي درس سلوك النحل أو النمل، ولكننا وبما أننا نلتزم نهجنا
وهدانا إذا ما عطفنا إنه عالمنا نحن، الذي أتيت معه، والذي نحبه ونطرا لالتزامنا
بأن نزيد له التقدم إلى مستويات جديدة من الإنجاز المشرى أقرب إلى إنجازات
العالم المتقدم.

ويجب أن نسال من الذي يمثل أمريكا اللاتينية على نحو أفضل، شويدر وغيره
من العلماء الاجتماعيين الأجانب أم مونتاز وأنا؟ نحن ننتمى إلى مطلقنا، ونحس
بها وإن واقع حال الملايين من الأمريكيين اللاتينيين إذ يفرعون بقضاياهم، أي أن
مخربهم تعبير عن رأيهم إذ يقصون البلدان المتقدمة، وإن الغالبية الساحقة من
الذين يساعدون الحكومات المتقدمة في كل أنحاء الإقليم إنما يمثل كل هذه شهادة
بأنه على أن نراهم ونهتم ماننا مشتركة فيما بيننا على نطاق واسع.

إننا يعنيًا نأمر بالترحال ذهابا وعودة بين أمريكا اللاتينية والبلدان المتقدمة. بيد
فإن هذه التغيرات لا نجعلنا نغترب عن أمريكا اللاتينية، ولعل الأصح أنها تزيد عن
انتماءنا بطرفنا خاصة ظروف الفقراء من أبناء شعبنا في أمريكا اللاتينية وتجعلنا
مركز أنصارتنا على ما يتعين عمله لتغيير تلك الظروف ونحن، شأن الغالبية الساحقة
من أبناء بلدنا، نريد الأمانا استقرارا ديمقراطيا وعادلة وفرصا للتقدم ورخاء ملك
ما سببه في البلدان المتقدمة.

رد ريتشارد شويدر على إيتونجا - مانجويل وجروندونا

كل ما أستطيع أن أقوله إن لا شيء في الملاحظة الأولى (أدنى الفصل الذي
كتبت) يذكر نظام الحكم التسلطي أو حياة الفساد السياسي أو الموت في عمر
مبكرة، إن من يتربعون على كرسي الحكم في نظم الحكم انتسلطية ينصرفون بحسب
مقتضى الخدمة هي مصالحهم هم فقط، ولا أحد يستطيع أن يوقفهم ويمنعهم من ذلك.

بأنه يجب أن العالم سيكون أفضل حالاً إذا خلا من مثل هذه النظم على الحكم ولا شيء. يشير إلى ضرورة أن لا نتخذ موقفاً نقدياً أو أن نكون راضين إزاء الأفكار والاتجاهات والممارسات التي يتلقاها الناس من أي تقليد ثقافي بما في ذلك ثقافتنا وأعيد ما قلته في الفصل الخامس بي أن التعدديين يصدرين فعلاً أحكاماً نقدية. حفظ إن موقف التوسر محوري جداً في أسلوب التحليل الثقافي بحيث إنني أحدد معنى الثقافة الأصلية بأنها ثقافة منفتح التقدير والإكبار كنسلوب حياة يمكن الدفاع عنه في مواجهة النقد من الخارج.

وإذا كان المرء حريصاً على الوصول إلى بعض التقدير لتقليد ثقافي ما فسوف يكون لازماً عليه عادة أن ينخرط في بعض المشاهدات كمشاركة معها وفي عملية فهم تتسم بالمشاركة الوجدانية. ويحاول المرء أولاً أن يضع بين قوسين كل ردود الفعل القائمة على محورية معرفية وأن يكتشف ما هو خير أو حق أو حميل أو كفوف في الأفكار والاتجاهات والممارسات لدى الآخرين. وليس هذا ضماناً بأنه سوف يصل إلى التقسيم المنشود. إذ لا ضمان هناك بأن كل ما هو قائم صحيح أو أصيل كما وأن الأفكار والاتجاهات والممارسات التي يتبنت بالدليل أنها سيئة أو زائفة أو قبيحة أو غير فعالة ينبغي انتقادها، بل وربما تغييرها وإن مقالتي عن في واقع الأمر انتقاد لكل من السببية الراديكالية (كل ما هو قائم وأيا كان فهو صحيح) والواحدية القائمة على المحورية المعرفية (هناك طريق واحد يقضي إلى حياة وديعة أخلاقياً وعقلانية وحافذة بالإنجازات وهذا هو طريقنا) هذا على الرغم من أن أضواني لا تكشف لي عن وجود كثيرين من النسبيين الراديكاليين داخل المؤتمر

وسوف أرى، بإيجاز شديد على نقطه أو نقطتين أخريين آثارهما كارلوس ألبرنو مونتازر ودانييل إيه واجام - مانجويل وماريانو جروندونا. ولكن أريد أولاً أن أؤكد على ما قبل بالفعل في الملاحظة وأعني أنه في عالم ما بعد الحديث ينبغي أن يكون المرء شككاً في جميع الادعاءات الخاصة بالسلطة والمونكزة على المساواة بين المواطنين (أو المنشأ القومي) وبين الصوت الأصلي. وأريد أن أحكي لكم قصة توضح هذه النقطة

راسدراوات طاغور أهم شاعر سجنفى مه الهند الحديثة مال جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩١٣ وكان متحدثا باسم الحركة الصومبية لهنديه، وأحد المعجبين والشراح والمستعبيين أيضا من آداب الهند السنسكريتية الكلاسيكية. وفى عام ١٨٧٧ زار طاغور إنجلترا لأول مرة. وكان فى السادسة عشرة من العمر. ذهب إلى هناك لدراسة القانون. وسحى لنا انطباعات طاغور فيقولم هابفاس فى كناية الهند وأوروبا: مقال فى الفهم، الذى نقتبس منه ما يلى:

ظننت أن جزيرة إنجلترا هسغيرة الصجم، وسكانها منصرفون تماما للتعلم حتى إننى قيل أن أصل إلى هنا توقعت أن البلد من أقصاء إلى أبناء تنصره أصداء، ورجع أصداء مقالات تيمسون الغنائية. وظننت كذلك أنتى حيث أكون داخل هذه الجزيرة المنوذة الصغيرة سوف أسمع، ولا أكف عن سماع خطبة جلاستون وتفسير ماكس موللر للقيدا والمحيقة العلمية عند تدال، والأفكار العميقة عند كارليل وفلسفة بين، كنت أسير انطباع بأننى حيثما أذهب وأكون سوف أرى الكبار والصغار سكارى بلذة المتعة العقلية، ولكن خاب ظنى فى هذا:

وأضح أن الفخرى طاغور العربى سياسيا ومدنيا عن الجزر البريطانية كان ثقافيا أكثر إنجليزية، ويحدث اللغة الإنجليزية أفضل كثيرا من غالبية الإنجليز. وإن إشارته إلى ماكس موللر وثيقة الصلة جدا بالملاحظة، ذلك لأن ماكس موللر ألمانى وعالم لغة ألمانية ومستشرق تعلم فى أكسفورد وفصده البرهعاتيون الهنود لينصموا السنسكريتية وتقاليدهم الكلاسيكية

هذا الموقف يشان مقايضة مواقع الأعيان outsiders والاشتمين insiders والحفاظ على التراث الثقافى ألقيم لكل طرف حبا وقاعلا ليس بالأمر غير المكوف خاصة فى عالمنا المعاصر محل نعيش فى عالم يترجم فيه الباحثون الأفرقة - الكاربييون النصوص الإغريقية القديمة، ويكتب فيه باحثون من أفريقيا وآسيا وأوروبا كتباً تتسم بقوة الملاحظة والفهم عن الولايات المتحدة، ولا تزال فيه أيضا ظامرة

هاكس مولر ينبض بالحياة مثال ذلك مفكرو الجوسى Guss من كينيا وبعضهم خبراء متميزون في الفلسفة وفي العلوم الغربية قرأوا أعمال روبرت لوفين (الممتدة من خمسينيات إلى تسعينيات القرن العشرين) لكي يتعلموا شيئا عن معنى وقيمة وتاريخ معايير الجوسى وأساليبهم الشعبية. والنقطة الرئيسية في هذه الملاحظة نقطة بسيطة: البيانات التي تعرض الحجج المؤيدة والمعارضة لثراث ثقافى لا تكنسب مصداقية ومرجعية، ويجب أن لا نضفى عليها ذلك على أساس ادعاءات تتعلق بالسلف أو الانتماء أو المنشأ القومى.

إن الملاحظة '٦' كانت كلمة جانبية، ملاحظة بين قوسين عن افتتانى بجانب من جوانب التنظيم الهيكلى للمؤتمر. جاء المؤتمر فى نسيقه أشبه بلحن متناغم بحيث تهيأت بورة من دوراته ليكون جميع المتحدثين فيها من 'العالم الثالث' وتحدثوا جميعا بما يشبه صوتا واحدا يساند فكرة أن 'الحضارة الغربية' متفوقة عن كل الآخرين. وطبيعى أن هذه الفكرة الآن ليست غريبة فى كثير من عواصم آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. إنها رائجة بوجه خاص بين النخبة الغربية أو المتفربة أو العاملة على التغريب وتترج إلى النظر إلى ما لدى الشعوب غير القريبة بل وإلى ما لدى شعوبهم هم من معتقدات واتجاهات وممارسات يومية بأنها أمور منافية للتثوير أو خرافية أو سحرية أو نسلطة أو فاسدة أو أنها، بأسلوب آخر، غير ذات قيمة ومثيرة للخرج. بيد أن هذا النمط من القبول الشامل جملة وتفصيلا 'للحدائة الغربية' باعتبارها أسمى من النزعات التقليدية غير الغربية على اختلاف أشكالها لم يكن هو الصوت الوحيد المسمرع فى المدينة سواء فى 'الغرب' أو فى 'الشرق' أو فى 'الشمال' أو فى 'الجنوب' أو فى العالم 'المتقدم' أو 'المخلف'. ولو حدث وظهرت أنماط لأصوات أخرى أثناء دورة المؤتمر، كأن نسمع صوت مفكرى 'العالم الثالث' ممن قد يحدثوننا بكبرياء وزهو وإعجاب عن الأفكار والاتجاهات والممارسات الأصيلة ربما بدت الدورة تغل سحرا وإثارة للاهتمام. ربما ما كان لى أن أرى نفسى مدفوعا إلى استخدام شهادات 'المتنص' من 'العالم الثالث' لكي أضفى مصداقية ومرجعية على الفكرة التى فهمها 'العالم الأول' البروتستانتى على وجهها الصحيح دون سواء.

والملاحظ أن كثرناوس البربر ووندانر وسارامو جروينوما مفترين ، فمساط الهجرة
وبواقع أن الملايين من أبناء أمريكا اللاتينية يهجرهم إلى العالم المتقدم إنما يفترعون
لصالح هذا العالم

وأذكر أن أول مرة أسمع فيها مثل هذه العبارة كان في الستينيات عندما تحدث
مفكر محافظ مشهور وساق حجة تقول إن أمام هجرة السود إلى داخل جنوب
أفريقيا فامت في عددها أنماط هجرة السود إلى خارج جنوب أفريقيا. ورأي في هذا
دليلا على أن الأفارقة السود يفترعون في ضوء رحلات الهجرة لصالح حكومة العزل
العنصري الأبارتهد في جنوب أفريقيا إذ يعطلونها على الذول الأفريقية الأخرى .
وأنا أشك في أنهم بسلوكهم هذا كانوا يفترعون أو يعجزون أصلا عن تفضيلاتهم
الأخلاقية والثقافية . إنما المسألة مجرد الذهاب إلى حيث فرص عمل بأجور أعلى.

ويبدو أن د سبل إينونجا - مانتويل يشير ضمنا إلى أن المرء لا سمعه أن يعيش
حياه كريمة هي في الوقت ذاته حياة أفريقية مميزة. وكما قلت في كلمتي إنني لست
من هواة الفئات الواسعة مثل أمريكا اللاتينية أو الأفريقي كوسيلة لتحديد
الجماعات والطوائف الثقافية - ذلك أن باهيا ليست هي سان بلولو، ويوروبا ليست
إناساي. بيد أنني مع هذا أؤمن بما يؤمن به إنوار. سايير بان المجتمعات التي تضم
مبعضات مخلقة تمثل عوالم متغايرة، وأنس عالما واحدا بأسماء مخنفة وإن التعيز
أو الاختلاف بالنسبة للمفكر الهمدي ليس مصطلح تقصود به الإزدراء إنني أتحدث
بكال الاحترام الكامل للمفكرين الثلاثة جميعا الذين انتقويهم، وأدب لا أشك لحظة في
إخلاصهم، وقد استمعت بصدقهم وصادقائهم، ووجدت في شهاداتهم ودفعهم ما
ينسرمي ويبهمني وأقول لهم إنني أعترف بصراحه كاملة بأنني أرفض الفكرة القائلة
بأن الأسلوب الوحيد أو الأفضل لكي أكون إنسانا كاملا كرسا ومحترما وعقلانيا هو
أن أعيش حياه عويطن أمريكا الشمالية أو أوروبا الشمالية.

الباب الرابع

الثقافة وأجنوسة

الثقافة والمجنوسة وحقوق الإنسان

باربارا كروسيك

على مدى العقد الماضي كانت الولايات المتحدة وكتدا هما المجتمعين الوحيدين في العالم الذين اشغلا في حوارات مهمة عميقة وشاملة عن الهوية الثقافية وحقوق الإنسان وسار مع الصحافة والأكاديميات والمجتمعات العرقية وبين التنظيمات الدينية الكبرى إحساس واضح ولمسوس بنقله في الحضارة الأمريكية الشمالية وصادفت ترحيباً ومدحاً في غالب الأحيان.

فما عن التوجسات والمخاوف فهذا ما ليس لنا أن نعتبره مفاجأة إذ لا يوجد بلد على مدى التاريخ غير طوعياً واقعه العرقي خلال فترة قصيرة على نحو ما فعلت الولايات المتحدة وتكيفنا نظرة إلى الأقدام الأولى التي أنتجتها هوليدو وإلى برامج التلفزيون في الخمسينيات لتري الصورة الزميمة التي كانت تطورا إلى المنح عند نطق كلمة أمريكي. لم تكن تشهد عبر غالبية أنحاء الولايات المتحدة سوى نوعين من الوجوه الأوروبية والأفريقي. واقتسمت روس وقلوب الناس في جميع الأحوال، تيارا رئيسا مئامثلا للثقافة يغلب عليه الطابع الأمريكي وأقل شيها بكذير لأية ثقافة نخرس أسلافهم. ولكن مع بداية القرن الواحد والعشرين تعكس الوجوه الأمريكية وانعبا جميع المجتمعات الإثنية في العالم، وعقدت قلوب وعقول الكثيرين العزم على أن

لا يفهموا - أو أن يعسوا إذا اعتضت الضرورة ابتكار - ثقافات السلف. ترى هل هذا من ذاته أن مرفعا إلى تضيقات أم يجعل منا أول أمة كوكبية حقيقية؟

أما كانت النتيجة، فإن مزيجتنا المتغير يشدنا على نحو متواتر مرات ومرات إلى حوارات بسنن الوصول إلى تعريفات أكثر تعميما لحقوق الإنسان وعلاقتها بالأسس الثقافية وحرى أن تقودنا البيئة الجديدة أيضا إلى دراسات أكثر معلومات وأوضح بصيرة وأصدق حكمة عن مشكلات حقوق الإنسان في الخارج، ولكن مثله أن التنوع اللغوي لأحدنا لم يجعل منا أمة متعددة الأسس فإن أنواع الخلفيات الثقافية ربما، هل هذا. ومن الإعلام 'الميديا' قضية أصدق حكما على الممارسات أو التقليد أو الأسباب البعيدة عنا والتي تظهر لنا على حواف شواطئنا في أمتعة انهاجرين وجد انفسنا هنا إزاء أمرين حتميين يتصدمان أن نسترده لب الثقافة الأمريكية بينما يفسح طريقا لانماط الحياة المختلفة، ودون أن تتغير لنا دائما المعلومات الضرورية لفهمها على نحو كاف. وهنا يمكن أن يعاقص ربود الأفعال إزاء الممارسات الثقافية التي تجري في سياتات وأماكن مخلقة. في أفريقيا وأفغاندا، ان مثلا القتين جرت محاولات دراستهما من اتجاهات متضاربة

وسلطت حقة إعادة الفحص والمدرس في الولايات المتحدة مع عصر جديد للمعى الثقافى فى الخارج. وأفرع هذا على أسوأ الأحوال، النزعة العرقية اندمجة (والتي هافمت من تلججها الانكسالات الانحصارية وفقدان اليقين السياسى) والتي نشهدا فى أفريقيا والبلقان وإندونيسيا. وتشعر فى الوقت ذاته البلدان فى مختلف الأقاليم بنتائج تحول اجتماعى مهم مثال ذلك أن لتأكيد الوليد على حقوق المرأة ستكون له آثار بعيدة المدى على الممارسات الاجتماعية التقليدية. والملاحظ أن الضغط الشديد لتضخم السكان فى أفقر بلدان العالم يضع المفاهيم الأساسية للحياة الطعم والماء والهواء - تحت ضغوط متزايدة كل عام.

عدا العالم متاخر، يكتشف أن المرأة ليست من الثوار، العريضة. والملاحظ فى بلدان مثل بنجلاديش وإندونيسيا أن المرأة تستحوذ على قدر أكبر من السلطة. وأدى هذا إلى خفض معدلات المواليد كما اقترن بزيادة الطلب على التعليم وتحسين تقنيات

الزراعة والمزيد من الاستثمارات في الأرض وفي القرى. ويعيد تقرير اليونيسيف حالة الأطفال في العالم - ١٩٩٦ أن الأمهات في أفريقيا يدأن يتكافئن من أجل المطالبة بالمدارس إذ يرين فيها السبيل إلى حياة أفضل لأبنائهن بل لأنفسهن . ونجد في بوركينا فاسو أن ٩ بالمائة فقط من النساء اللاتي فوق سن الخامسة عشرة يستلطن القراءة لذلك شكلت النساء ثلاثاً وعشرين رابطة لأمهات التلاميذ مهمتها مراقبة التحاق الفتيات بالمدارس والمواظبة على التعليم. وتشهد في باكستان ومصر، من بين بلدان أخرى، كيف أن المجتمعات المحلية اهتمت إلى طرفها الخاصة لتدريب المعلمين على التعليم في مدارس القرية.

وسرعان ما تحققت نتائج بارزة: زادت نسبة تعليم البنات -١٠ بالمائة. ومن المتوقع أن يؤدي الالتحاق بالمدارس الابتدائية إلى خفض معدل الوفيات بين الأطفال الرضع إلى ٤,٦ بين كل ألف. وإن زيادة مماثلة في التحاق البنات بالتعليم الثاني سنوذي إلى خفض آخر بمعدل ٥,٦ حالة وفاة بين كل ١٠٠٠. معنى هذا في بلد مثل باكستان أن زيادة عام في تعليم ١٠٠٠ بنت سيمتج حوالي ٦٠ وفاة بين الأطفال الرضع. ولكن الاستماع إلى رأي المرأة لا يزال بحاجة إلى خطوة ثقافية حاسمة في عدد غير قليل من المجتمعات التقليدية.

وبينما العالم في حالة اختتام اجتماعي تزايدت خلال السنوات الأخيرة النزاعات العنصرية بشأن الثقافة وحقوق الإنسان خاصة حين تأخذ القضايا أبعادا دولية. وها هي بعض جماعات حقوق الإنسان الدولية الكبرى التي كانت حكومات كثيرة تنظر إليها يوما باعتبارها تنظيمات لناشطين متطرفين، حققت لنفسها سمعة وشهرة راسخين بفضل جهودها القانونية والاستقصائية. واستطاعت هذه التنظيمات أن تحيي مبادئ نوايا ظلت في سبات زمن طويلا لتحل بؤرة الحوار العالمي، ونجحت في التحول إلى مراكز تأثير في عديد من المؤسسات الدائمة (مثل محكمة الجنائيات الدولية) وتحركت أيضا إلى ساحة السياسة الخارجية. ويقصد الرسميون في وزارة الخارجية هذه التنظيمات لاستشارتها، وتوجه إليها الدعوات لإقامة مراكز جامعية، ولحضور جلسات استماع يعقدها مجلس العلاقات الخارجية. ولكن هؤلاء الخبراء في

شأن حقوق الإنسان، وبالمثلهم محامون على قدر عال من التدريب، هم بطبيعتهم أصحاب نزعة تطهيرية وكونية راغضين تطويع المبادئ وإخضاعها للتباينات الثقافية علاوة على هذا، فإن إصرارهم الدائم على أولوية الحقوق المدنية والسياسية المحددة بشكل واقعي ملموس وضخم في صراع مع المؤمنين بأن الأولوية للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، أو بمعنى أشمل أن الثقافات خارج التيار الرأسمالي الغربي ترى السياسة والمجتمع المدني رؤية مغايرة ويتعين عليها الالتزام بقيمتها هي عند تحديد الأولويات وسن المبادئ والتشريعات.

وأرى أن تضيق إلى الجدل المنشعب حول الحقوق والثقافات في العالم، أولئك المدافعين عن الاستثناءات الثقافية من الضاحج الدولية لحقوق الإنسان. إذ يتعرض هؤلاء للهجوم من المنتسقين عن مجتمعاتهم. مثال ذلك، في جنوب شرق آسيا حيث نرى الداعين إلى دعم القيم الآسيوية يخوضون معارك في الشوارع ضد قوى الإصلاح Reformasi - وهذا موقف لم يكن أحد ليستتبع به منذ بضع سنوات فقط ويقول المنتسقون الذين استنارتهم وأغضبتهم الظروف الاقتصادية العصبية، إنهم عاشوا ما يكفي مع القيم الآسيوية التي جلبت الفساد والتسلية ومحاياة الأصدقاء، بختفت النمو السياسي. وتسمع في العالم الإسلامي سؤالا يتردد كثيرا من شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط وجنوب آسيا وحتى المحيط الهادي من الذي له أن يتحدث باسم الإسلام؟ النزعة الفهدية غير ذات أساس، وأصوات المنتسقين أصوات نساء ورجال معا.

الدور الرئيسي للمرأة

إن بعض الجهود المبذولة أكثر كثافة من أجل إعادة حشد القوى وتجديد الفكر في مزيج من الدين والحقوق والثقافة لتمسها حقيقة لدى المرأة المسلمة اليوم وإن لم تكن وحدها في هذا. هناك جهود مبذولة الآن من أجل إعادة حشد القوى وتجديد الفكر تجمع بين الدين والحقوق والثقافة، وتلمس أكثر هذه الجهود كثافة لدى المرأة المسلمة اليوم، وإن لم تكن وحدها منفردة في هذا. إذ خلال شهور التحضير لمؤتمر

المرأة العالمي الرابع للأمم المتحدة لعام ١٩٩٥ انعقدت لغايات على الصعيدين المحلي والإقليمي في أفريقيا وآسيا وأوروبا والأمريكتين ، واستهدفت الاجتماعات إعداد جدول أعمال مؤتمر بكين حيث انعقد كل من المؤتمر الرسمي وتجمع غير رسمي مواز له يضم المنظمات غير الحكومية. واستمع المؤتمر والتجمع إلى خطب وأوراق بحث تلتهم حماسا عرضتها المجالس الإقليمية الوافدة من مواقع جغرافية وثقافية شديدة التباين وتضمنت الخطب وأوراق البحث أهدافا متماثلة على نحو يشير الدهشة . ونشيسا على مؤتمر السكان والتنمية المنعقد في القاهرة عام ١٩٩٤ حاولت المرأة توضيح وتحديد ضرب من الحقوق العالمية لها

وتداخلت معها مع قطاعات قديمة وكشفت عن أن بعض النزاعات الثيالية عن المقوق المدنية أو الاقتصادية بآث غير ذات صلة . وتحدثت المرأة بمنهج برجماتي عن حقها في أن تمتلك وأن توث العقارات أو أن تشرع في مباشرة مشروع في قطاع الأعمال. علاوة على الحاجة إلى تأسيس وحماية هذه الأنشطة بناء على القانون -واقترن مطلب اقتصادي بتداء سياسي من أجل عهد أكبر من النساء في المجالس التشريعية. والبهست المرأة أيضا إحداث تغييرات في قوانين الأسرة بحث تتساوى حقوقها مع الأزواج أو الوالدين ، وطالبت المرأة بحقها في رفض إنجاب أطفال لا ترغب فيهم، وأن تقول لا لممارسة جنس لا تريده، وحقها في السيطرة على جسدها والحياة التناسلية باعتبار ذلك ضمن الحريات الأساسية، وأضحى الشعار السائد لحقوق المرأة في حقوق الإنسان". وها هي امرأة من نيبال تجرأت على مدخراتها القليلة وأنفقتها من أجل السفر إلى الصين حيث يمكنها أن تتلقى بفلاصا من تانانيا أو كاتبات من طهران، وأمريكيات ممن يعملن في مهن مختلفة. وعلى الرغم من تنوع خلفيات النساء إلا أن الغالبية العظمى منهن وجدن أن هناك الكثير والكثير جدا مشترك بينهن على عكس ما كن يتوقعن . وعادت النسوة إلى أوطانهن تدعمهن شبكات عمل جديدة. وأضحت لغالبية منهن نظرة جديدة إزاء الرؤى الثقافية المحيطة بهن .

ويرى المرأة أن التفاعل بين ثقافة أو سلوكيات سائدة وحياتها اليومية ليس موضوعا افتراضيا ، إذ على الرغم من المكاسب الكبيرة السياسية والاقتصادية التي تحققت في أماكن كثيرة فإن المرأة في كل أنحاء العالم لا يزال لديها المبرر لتكون

شديدة الحساسية إزاء الكيفية التي نؤثر بها الثقافة في حياتها ، حقا إن الحساسية الثقافية بالنسبة لأعداد كبيرة من النساء ، ليست ممارسة فكرية أو اتجاه اجتماعيا تتعلمه على أيدي مستشارين في النوادي . إن التحولات الثقافية والاستخدام السياسي للعمارسات التقليدية يمكن أن يؤدي إلى نشوء مواقف تتسم بالنعصب بل ربما بالخطر على حياة المرأة . وتعرف أن نساء الطبقة المتوسطة في إيران وأفغانستان والجزائر كُشفن على مدى العقدين الأخيرين كيف يمكن أن تنقلب الحياة سريعا رأسا على عقب وكيف يصبح فجأة بلا حول ولا قوة في مواجهة تحول عاصف .

هيمنة الرجل

القواعد الثقافية في مجتمعات كثيرة صاغها صراحة الرجل الذي اعتاد أن يفتار، عن عمد أو غير عمد ، استخدام المرأة كرمز لمعتقداته أو سياسته . ويمكن أن تتغير الثقافات حين يتغير القادة أو السياسات المرأة بأموها الرجل ماذا تلبس وأين تذهب أو لا تذهب وكيف تعيش . وعلى الرغم من أن القميص الذي لا ياقة له أصبح زيا سائدا بين الذكور المسلمين من أهل التقوى والورع في إيران وغانبانا في أفغانستان اللذين بفرغانا طولا مقننا لنحية الرجال ، نجد في هذين البلدين - أحدهما سنن والأخر شيعي - أن هيئة المرأة مفروض عليها قيود شديدة الصرامة من حيث شروط اللبس وقيود على العمل واللعب ، وتندرج العربية السعودية بين هذه الفئة من الأمم حيث تقاس فداسة الرجل بدرجة إخفاء المرأة لأجزاء مختلفة من جسدها وإتكار حقها في أبسط الأعمال لديها كأن تقود سيارة على سبيل المثال .

وهذه الظاهرة ليست مقصورة على البلدان الإسلامية المحافظة . مثال ذلك أن اللغات من طائفة المينونيين والأميش^(١) في ينسلفانيا اللاني مازان يتعلمن القيود

(١) المينوني Meriondo . طائفة إنجيلية بروتستانتية ترفض القسم أو تولي الوظائف العامة والخدمة العسكرية والأميش Arrish . طائفة أرثوذكسية تؤمن بتجديد التعميد للبالغين ، وموجودة أساسا في ينسلفانيا ، وتتميز بالشروط القاسية التي فرضتها الكنيسة على أعضائها . (المترجم)

العصاة التي يفرضها الكتاب المقدس ويحظر عليهن ارتداء البنطلون. هذا على الرغم من أن عددها قليلا منهن هو الذي ينصت للتحذيرات من فرض العقاب البدني بسبب انتهاكهن للأوامر . وظل ارتداء السارونغ (الإزار) في لاوس للعمل في مكاتب الحكومة إلزاميا على النساء لسنوات طويلة بينما يرثي الرجال ما يشاؤون من لباس نون خوف من أن يفسد هذا من الطابع القومى للبلاد ، وجدير بالذكر أيضا أنه حين أتاح الجنود المتمردون بنظام مويوتو سيسى سيكو وبخلوا كينشاسا عاصمة زائير في عام ١٩٩٧ أمروا النساء اللاتي يرتدين الجينز بالاختفاء من الشوارع ولوجوا لهن بالرماح مهبدين خلال أيام العنف الأولى من التمرد. كذلك فإن العديد من جمبوش حرب العصايات وسيارات أيديولوجية مختلفة بل بعض مصممي الأزياء شاركوا في تجارة إصدار بيانات سياسية أو اجتماعية تفضي بأن يكون لباس الأنثى الذي يغطي جسدها بهذا الشكل أو ذاك

إن المرأة التي تادرا ما تتولى مسؤولية التشريع الديني أو الاجتماعي يكاد ينتقى وجودها بالمعنى الواسع للكلمة في ثقافة تستوعب الدين والاقتصاد والفنون والقانون والترويج علاوة على مبادئ السلوك الاجتماعي بما في ذلك الحياة العامة والعلاقات الأسرية ومنزلة الأطفال . وتمثل الثقافة النكورية أي التي يهيمن عليها الذكر باختصار المناخ الذي تعيش فيه الغالبية العظمى من النساء كل حياتها ، حيث الحدود الفاصلة بين العمل والبيت، وبين الأسرة والمهنة أقل كثيرا مما يتمتع به الرجل في أغلب البلدان.

علاوة على هذا فإن أي وسط ثقافي يمكن أن تولد عنه نتائج غير متوقعة ولا يمكن التنبؤ بها بل ومناقضة. وإن المجتمع الحر بالمعنى السياسي لا يعني بالضرورة حياة أفضل وهذا ما يبرهن عليه أكثر من مائة مليون امرأة فقيرة وأمية بل يعيش حياة الضحية في الهند وعاجزات عن الإفلات من المعزل (الأبارتهيد) الثقافي الذي تفرضه الطائفة . وطبيعي أن الحياة في ثقافة مسامحة إلى حد كبير. بل مؤمنة بالمساواة لا تعنى بالضرورة تحرير المرأة أيضا. ففي بلدان مثل تايلاند حيث جفقت

المرأة مكاسب مهمة في الاقتصاد وفي التجمع. وكذلك كمبوديا حيث مناح الحرية المطلقة يسمح بأن يكون الاسترقاق الجنسي للنساء والتجنات أيسر كثيرا بسبب انتشار الاعارة على نطاق واسع، لن يصدنا كثيرا إشباع كل الحاجات والرضات.

وبدا الآن فقط نَعْمُ تعقد حياة المرأة داخل سياق ثقافتها المتغيرة بعد أن ركز خبراء التطوير الاجتماعي على دراسة الناس باعتبارهم المحور وليس المشروعات . وجرت هذه الدراسات في كل من البلدان الأفقر في الجنوب وفي جيوب النخلف القائمة في المجتمعات للصناعية الأغنى في الشمال والشرق، اليقيني الآن أن البلاد تعطل حياة المرأة عند تمرضها لخطر اقتصادي واجتماعي.

وها هي الهند التي تتطلع لكي تحتل مكانتها بين البلدان الرائدة في العالم تعاني من مشكلة في هذا الصدد حسبما يقرر خبراءها في التطوير الاجتماعي . فتميز سكانها الألف مليون وتكاد تتجاوز الصين كأكثر البلدان ازدحاما بالسكان في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين ، ولكن عدد المعوزين فيها مهول . إن قرابة نصف سكان الهند هم المتعلمون، ومن ثم يلزم اتخاذ خطوة ضرورية بكل المقاييس للوصول إلى مجتمع منتج كامل . وأكثر من ثلث نساءها قريبا يعرفن القراءة والكتابة. وقرابة نصف المواليد لا يتم تسجيلهم مما يعني وضع ملايين الأطفال موضع الإهمال رسميا مما يحرمهم من خدمات أساسية لأنهم غير موجودين رسميا . علاوة على هذا تفيد تقارير دراسات التنمية أن المؤشرات الاجتماعية العامة في الهند تهبط بمستوى منطقة جنوب آسيا لتصل إلى، وربما أدنى من، مستوى أفريقيا جنوب الصحراء.

وتبلغ المشكلات أقصى قدر من الحدة في شمال الهند ويقيد تقرير اليونيسيف حالة الأطفال في العالم عام ١٩٩٩ أن لا وجود لامرأة متعلمة في كثير من القرى في ولاية بيهار الفقيرة. ويعاني نصف أطفال الهند من سوء التغذية بحيث إن واحدا من كل خمسة يعاني من إعاقة النمو كذلك فإن عشرين بالمائة من الأطفال دون الخامسة يعانون من نقص خلطير في الوزن، وأقل من ٣٠ بالمائة من السكان تتوفر لديهم الوسائل الصحية - همام أيا كان نوعه بما في ذلك مرحاض بدائي - ويفتقر ٢٠ بالمائة من السكان إلى ماء الشرب النقي وتفيد تقارير اليونيسيف والبنك الدولي وغيرهما

من المنظمات أنه ما لم نشارك المرأة في التطوير على المستوى المحلي فإن الطبقة الوسطى التي تحظى بالرعاية سوف تحتل موقع القمة فوق أعداد أكبر وأكبر من المعوزين المحرومين الذين بلغوا مئات الملايين. ويطبع أنه مع اتساع الهوة بين مستويات المعيشة، وثقل الموارد فإن الاضطراب الاجتماعي يصبح أمراً محتملاً.

ختان الأنثى

من الصعب أن نقرر على وجه الدقة والتحديد كيف يمكن للنظريات الجديدة عن التطوير والتي تتخذ المرأة بؤرة اهتمام لها أن تترجمها إلى أدوات محورية للمرأة في تحديد الثقافة المهيمنة أيا كانت هذه الثقافة، إننا اليوم إذ ننظر إلى الممارسات الثقافية من أي نوع في إطار نزعة النسبية لا نجد لا حركة المساواة بين الجنسين ولا حقوق الإنسان تؤلف مفهوماً موحداً راسخاً شاملاً لجميع الصيغ المعبرة عن كل الأهداف المنشودة والتي يمكن تطبيقها في كل أنحاء العالم. زد على هذا أن النساء والرجال لا يرون بالحتم ثقافتهم بالعين نفسها، فضلاً عن أن اعتبار المرأة شيئاً للجماع فقط يزيد الصورة تعقداً، ويمكن للرجال أيضاً التحكم في الثقافة من خلال التحكم في السلطة، ابتداءً من شرطة القرية وصولاً إلى الحكومة القومية. ويعيلون إلى إغفال شكوى المرأة باسم التقاليد، وتجد في أماكن كثيرة أن المرأة لا يمكنها أن تحقق تقدماً إلا حين تكون الهيمنة في يد رجل - عمدة القرية أو رئيس المحكمة العليا أو رئيس الدولة - له نزوع تقدمي.

تنعكس هذه التعقيدات في المعركة الفكرية الدائرة بشأن ما يسمى ختان الأنثى أو بتر جزء من عضوها التناسلي - وإذا أخذنا بمنطق عزيزة حسين - الخبيرة المصرية في تنظيم الأسرة ومؤسسة جمعية مصرية لمنع الممارسات الضارة بالمرأة والأطفال - فإن تطور عملية البتر لبعض العضو التناسلي للأنثى جرى تقريباً كما يلي.

المنظمة الأولى أن الممارسة أفادت الرجال زمناً طويلاً إذ جعلت النساء اللاتي يتزوجونهن أقل اهتماماً بالجنس أو لا يمتنهن الرجل ومن ثم غير ميسورة لأي

رجل اخر ، قطعة ممتلكات امته وإن كانت مدمرة يلى ذلك الترشيد/ الاعتقاد بأن أبة فتاة أو امرأة لن يكون بإمكانها الزواج إن لم تكن أجريت لها هذه العملية بدأت جماعة الضغط ممن لهم الرأي نفسه يسهمون في القضية وحتى ذلك الحين كانت النساء وليس الرجال هن من يفرضن هذه الممارسة. يحافظن عليها ويؤكدن ضرورتها داخل ثقافة معينة. وتقول عزيزة حسين: ولكن هذا لم يلغ الحقيقة الأساسية وهي أن هذه الممارسة إجراء نشأ بداية لصالح الرجل ، وهو ما لا تدركه القالبية العظمى من النساء ، وأخبرتني طبيبة في إحدى مستشفيات الأطفال قائلة إنه لعل أخرق، ناهيك عما ينشئ علىه من خطر ووحشية أن يبتز جزءا من المرأة باسم تدمير الشهرة. وأضافت قائلة لكل الدوافع بما فيها الدوافع الجنسية تبدأ في المنح

وعندما نسمع، ونحن على البعد، حجة تقول إن بتر جزء من العضو التناسلي للأنثى (وغالبا ما يتضمن كل المنطقة التناسلية مما يؤدي إلى الإصابة بالسنس والعدوى على مدى الحياة، بل قد يكون خطرا على الحياة ذاتها) تقليد له قبيحة بالضرورة؛ لأن الناس نسائه فإتنا تسأل: أصوات- من تلك التي نسمعها؟ وأي ناس هؤلاء؟ وتؤكد عزيزة حسين أن العجبة الثقافية ثبت بملانها وأصبح لزاما على المجتمعات أن تتخذ قراراتها تأسيسا على العلم والطب. وربما أيضا الفهم المعاصر للسلوك الجنسي البشري مادام حرمان المرأة من إمكانية الاشتهاء الجنسي وهزة الجماع إنما هو حرمانها من بعض حياتها

ومن مظاهر التهاوت في استجابات الغرب نحو حقوق الإنسان الخاصة بالمرأة في العالم الإسلامي أن بعض الباحثين من توى النفوذ والخبراء الثقافيين يحاولون إثبات أن عملية بتر بعض العضو التناسلي إنما هي جزء من طفوس أفريقية، ولكنهم يرفضون رفضا مطلقا التعبير عن أي قدر من التأييد لجماعة طالبان السابقة في أفغانستان عندما حاول هؤلاء المتعصبون منع التحاق المرأة بالمدارس أو الوظائف. ونعود لتسأل: أصوات من تلك التي نسمعها؟ الإجابة في هذه الحالة: المرأة ابنة الطبقة الوسطى في كابول وعدد قليل من أبناء المدن ، ليس الرجال هذه المرة وليست نساء القرى أيضا.

أُس حساسينا الثقافية مما إن التحسنات الجديدة التي تم إدخالها على حياة المرأة الأفغانية استبعدتها النزعة المطلقة النسائية ، ورفضت جماعة طالبان كل المشورات بشأن منح المرأة حقوقها ، ورأوا أنهم يبنون نظامهم التعليمي على أسس إسلامية وحسب رؤيتهم المحافظة للثقافة الإسلامية. وسمحت جماعة طالبان في بعض المناطق بعمل مدارس داخل البيوت للبنات ، وتستطيع البنات في بعض القرى أن يجدن فرصة أكبر للتعليم الابتدائي.

حالة بوتان

التفكير في حالة بوتان يختصر الحوار الدائر بشأن الثقافة وحقوق الإنسان ليقترن على حالة واحدة محدودة للغاية ولكنها ذات دلالة ، وبوتان مملكة بوذية صغيرة تقع على جبال هيمالايا محصورة بين الصين والهند ، وهي آخر حلقة في سلاسلها الثقافية - الملكية التانترية في التبت والتي كانت تضم ذات يوم لاداخ وسيكيم والتبت، وفي منتصف السبعينيات من القرن العشرين عمدت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند آنذاك وشيكات مخابراتها إلى تفويض أركان ملكية سيكيم البوذية وأعدت خطة لاستكمال انهيارها واستيعابها داخل الهند . وفي ثمانينات القرن العشرين ظهر طايبو خامس من نيبال، هندوسي العقيدة في الغالب ويمثل الحركة التي سلمت سيكيم، وخطط ليفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى بوتان ، وهنا استبد الذعر بالنخبة البوذية من أبناء بوتان. وكانوا عاجزين عن مراقبة حدود طويلة لبلادهم متاخمة للهند والتي يتسلل إليها مهاجرون من نيبال بطريقة غير شرعية لاستئثار الجنود التابعين للأقلية من السكان المحليين.

عمد البوتانيون بدلا من ذلك إلى اتباع سياسة فرض أسلوب ثقافي، إذ لكي يكون المرء بوتانيا فإن هذا يعني ارتداء بزة قومية محددة الأوصاف، وبناء بيت بأسلوب معين، وقبول زعامة الملكية البوذية. واستاء النيباليون من أبناء بوتان وكان

لهم ما يبرر ذلك. ولكن قبل أن يعقدوا سلامهم مع ملك بوتان جيمي سنجاي وانجشوك، وهو ليس بالرجل المتعصب، انضموا إلى حركة مزيدة للديمقراطية وأوسع نطاقا عنهم وأخذة في الازدهار في نيبال، وتلقوا دعما من فريق من الطلاب المتطرفين الذين وغنوا بالطائرات من أنحاء آسيا، وتم منع الكثيرين من النيبالوين البوتانيين من الانضمام إلى تمرد ضد الملكية. وهربوا أخيرا عن بوتان عبر الهند إلى معسكرات اللاجئين في نيبال التي لم تفتح شيئا أول الأمر لوقف الحركة، وإذا استُخدمنا البيانات المثيرة للشك والتي تقدمها مصادر نيبالية أساسا وعدد من المنظمات من بينها منظمة بيت الحرية^(٤) نجدها جميعا على اتفاق في وضع بوتان في مرتبة شديدة التدنى بالنسبة للحقوق المدنية وحقوق الإنسان، هذا على الرغم من أن نيبال في ضوء التطور الإنساني بمقاييس وكالات الأمم المتحدة تتجاوز أغلب جيرانها.

وكانت منظمات حقوق الإنسان الغربية مفتنعة أول الأمر بأن هناك عملية تطهير عرقي في منقلقة الهيمالايا. ولم يكن للبلدان الغربية ممثلون في الملكة البوذية المعزولة نظرا لأن الهند أصرت على التحكم في سياستها الخارجية، لذلك لجأ الغرب إلى دبلوماسيين في كاتماندو عاصمة نيبال والذين كانوا بنورهم تحت تأثير جماعات حقوق الإنسان في نيبال أو منظمات أجنبية لها فروعها في نيبال. ولكن هذه المنظمات التي حظرتها غابها حكومة بوتان ذات النظرة القصيرة، عمدت إلى تصوير الموقف بأنه صراع نخوضه القوى الديمقراطية ضد طغيان الحكم المطلق.

ورأى البوتانيون من جهتهم أن المعركة هي الخندق الأخير في صراعهم من أجل الحفاظ على ثقافة تتهددها الأخطار. ومضت سنوات قبل أن تعرف منظمات الحقوق الدولية قصة ملك بوتان وأنها أقرب إلى الحقيقة من القصص المثير الذي

(٤) Freedom House Org منظمة بيت الحرية . منظمة لا تستهدف الربح وغير منتسمة إلى أحزاب ، وتعتبر نفسها صوت الدفاع عن الديمقراطية في العالم ، ولها مجموعة كبيرة من البرامج الدولية والنشرات التي تعنى ونشرها من أجل دعم نطاق الحريات الاقتصادية والسياسية في العالم وتطويره وتوسيعه .
وتصدر تقريرا سنويا . (المترجم)

حكيمه أعداؤه الذين يرون في بونان أرضا فسيحة فتيحة السكان هي بعض أراضي الهيمالايا الخشبية والتي يمكن أن يشغلها بعض أهل نيبال المزدهرة بسكانها. والشئ الذي لا أجد له تفسيراً أن جيش الغربيين الذي يحاول أن يقدم البراهين على صدق دعوى الداي لاما في التبت لزموا الصمت في مواجهة الإبادة الثقافية لبونان. وتظل القضية بدون حل، ويستبد القلق والفضب بنفوس الكثيرين من أبناء بونان. وهماح في وجهي موظف بوناني في ثورة غضب قائلاً: ماذا تريدون منا بالضبط؟ وذلك عندما سألته عن تقارير عن العنف ضد النيباليين في منطقتة. وإنه لسؤال جيد

مشكلات التاميل، وتيمور الشرقية وكشمير

كثيرا ما تخفى الأرض التي تتفاعل عليها حقوق الإنسان والقيم الثقافية ألقاما أرضية، وثمة جماعات مصالح محددة ليست أهدافها الرئيسية بالضرورة تحسين وضع حقوق الإنسان تعلمت كيف تتلاعب بوسائل الإعلام وأجهزة التشريع وذلك عن طريق مناصرة قضايا على أساس نظرة ذات بعد واحد. ولكن على الرغم من أننا نعيش في عصر تفجر المعلومات فإن هناك قصة فاجعة يتفطر لها القلب لا تخضع دائما للفحص والتعويض الدقيقين.

إن حكومة سيريلانكا بقيادة السنهالين والتي يهيمن عليها البوذيون ظلت لسنوات في موقف الدفاع بسبب الدعاية العرقية المتلاحقة من جانب التاميل في الخارج والزعم بأن نوعا من الإبادة الجماعية تشنها الحكومة ضد مجتمعهم المحلي، وقالت حكومة سيريلانكا إن التاميل، وهم هندوس وسيخ وجدوا ملأنا لهم في الخارج ليستثمروهم ويجمعوا الأموال والصلاح لتزويد منظمة وحشية تعرف باسم تعوير تحرير تاميل إيلاام. وتاميل إيلاام اسم منطقة يعتمرون اقتطاعها من شمال شرق سيريلانكا لتكون وطنا لهم، وثمة تاميل انصريين منفصلين عن هؤلاء، بحكم التاريخ والطائفة

ويهيمنون على مزارع الشاي في الجزيرة في التلال الوسطى، ولم يدعوا الآخرين والتبجة أن العالم بوغت بشراسة وضراوة النعمور التاميل ووضعهم الولايات المتحدة الآن ضمن قائمة التنظيمات الإرهابية، وساء على مدى سنوات جهول قاضح ونام بالأحداث التي تجرى على أرض سيريلانكا على الرغم من التغطية الإخبارية الواسعة. وأدى هذا إلى أن وضع الغربيون افتراضات ثقافية عن البلد والتي كانت بعيدة عن الواقع أو لا تكشف عن جزء من القصة.

وشجعت الهند هذا الإدراك الخاطئ، إذ إنها ظلت لسنوات تساعد في تسليح وتدريب رجال حرب العصابات التاميل ضد حكومة سيريلانكا - وقلق الحال على هذا الوضع على أقل تقدير إلى أن حول التاميل قوهات بنائهم ضد قوات حفظ السلام الهندية الذين حاولوا عكس اتجاه المسار الذي تسير فيه نيودلهي، وانتهى الأمر باغتيال (أو هكذا تعتقد نيودلهي) راجيف غاندي رئيس وزراء الهند السابق الذي أرسل إلى الجزيرة المحاصرة قوات هندية قوامها ٥٠.٠٠٠ وتم أيضا اغتيال عدد من الشخصيات البارزة السيريلانكية. ونذكر من بين هؤلاء نيلان تيروشيلفام الزعيم التاميلي المحتدل والمعروف دوليا بأنه دستوري ويعمل وفقا لخطة تحقيق استقلال ذاتي لمناطق التاميل، ولكن النعمور رأوا في خطته أنها ليست راديكالية بما يكفي.

وجدير بالملاحظة أن القسم الأكبر من الصراع السيريلانكي هو صراع سياسي أو اقتصادي بل أيديولوجي وليس صراعا عرقيا أو دينيا بالمعنى الدقيق، ولكن الثقافة لها دور واضح في كل من نيمور الشرقية وكشمير. نجد في نيمور الشرقية تركيبة من الخلافات والنزاعات الكاثوليكية ذات التوجه البرتغالي، والدينية والعرقية الأصيلة مع جارة المسلمة والجيش الإندونيسي الذي يهيمن عليه جاوة، ومستوطنين من مجتمعات محلية عرقية أخرى خاصة البوجيس Bugis في سولاويزي الجنوبية. جميع هذه التجمعات تطرح مشكلات رئيسية حتى وإن لم نقترب بأساليب عنف سياسي.

وفي كشمير التي يدور صراع بشأنها بين باكستان والهند منذ عام ١٩٤٧ تجد شعبها منفصلاً عرقياً ولغوياً، ولا يشعر أبناء كشمير بأنهم في وطنهم في أي من البلدين، الكشميريون مسلمون ولكن القليل جدا هو المشرك بينهم وبين مسلمي الهند نو مسلمي قطاعات واسعة في باكستان، وإن مشكلاتهم في وادي كشمير والتي اشتعلت بسببها حرب امتدت عقدا من الزمان مع هندوس الهند ليست في الأساس مشكلات دينية بل ثقافية وسياسية.

وتعتبر الأمم المتحدة كلا من تيمور الشرقية وكشمير مناطق متنازع عليها، ولكن التيموريين لهم ظهور واضح جدا وذلك لأنهم يتلقون دعما قويا من الكاثوليك والمنظمات المتمركزة في أوروبا التي ساندت جماعات ثورية في مستعمرات البرتغالية أخرى (نخص بالذكر موزمبيق وأنجولا).

خاتمة

منذ عهد قريب جدا كشف الجدال الدائر بشأن حياة الجوانيمالية ويجويرنا منشو الحائزة على جائزة نوبل عن دور المحك الثقافي الذي بدأ إشكاليا في بعض الأحيان ويقول الآن الباحثون والمحققون للصحفيون إنه على الرغم من القسوة التي عانت منها يقيناً، خلال طفولتها وشبابها، إلا أن هذه الفترة من عمرها لم تكن طافجة بالحرمان والمساءة كما كانت الصورة المعلنة قبل ذلك، ويبدو أن القوالب النمطية الثقافية كان لها دور كبير في ابتداء تفسير لا سبيل إلى مقاومته بشأن فتاة هندية جوانيمالية عاشت تحت رحمة نظام عسكري ديكتاتوري غربي شرس، وجعلت منها هذه الصورة، واستخدمتها هي أيضا - أيقونة ثقافية تمثل الشعب الأصلي في كل أنحاء المنطقة، ولا تزال تجد حتى الآن من يدفعون بثمن هذه الرمزية الثقافية الشاملة أهم من الوقائع المجردة

إن البحث العلمي والصحافة ومؤسسة حقوق الإنسان، والتاريخ - يستلزمون معياراً أرقى، يوضح أن الأسلوب الذي يتعامل به الأمريكيون مع النزاعات العرقية

المعقدة في الخارج (أو النزاعات السياسية ذات الخطأ العرقي) تشير في الغالب إلى أن حساسيتنا الثقافية تتوقف عند حدود المياه الإقليمية ، وإن من دواعي السخرية أن معارك خاضها أهلها مفترنة بأفضل النوايا ولكن معلوماتنا عنها ضحلة وربما خاطئة في أغلب الأحيان ، ويعمد قادتنا إلى التحريض عليها سياسيا في هذا البلد متكلمين يفعل نظراؤهم في المجتمعات القاصية.

وختاماً لابد أن تنشأ رابطة ذات دلالة وأهمية بين منظومة القيم التي نؤمن بها وبين سياستنا الخارجية. وتتضمن منظومة القيم هذه عن دين أمور أخرى الأهمية التي توليها للأمانة وللصدق مبرأين من أي همجية أيديولوجية ، وحرى أن نترك في النهاية أن عناصر مصورية في منظومة القيم، الضارية يجتورها العميقة في الثقافات الغربية والشرقية، اكتسبت شمولا كونيا من خلال إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة

الثقافة والمؤسسات وعدم المساواة بين الجنسين في أمريكا اللاتينية

مالا هتون

ظل التمييز بين الجنسين قسمة ثابتة ومطروبة بشكل واضح للغالبية العظمى من الثقافات. واحتلت المرأة في كل مكان وضعا أدنى اقتصاديا واجتماعيا وتشريعيًا. وإن التشمول العالمي لظاهرة التفاوت على أساس الجنس وتنوع الثقافات القومية يجعلان أي ربط بسيط بين التمييز الجنسي والاتجاهات الثقافية أمرا ملتبسا. والسؤال لهم هو ما إذا كانت الصفات الثقافية، وأبها، يسهم في، ويدعم التغييرات التقدمية في العلاقات بين الجنسين

ويتناول هذا الفصل بالتفصيل دور الثقافة في التغييرات المعاصرة بالنسبة لوضع المرأة في أمريكا اللاتينية. وعلى الرغم من أن التمازج التقليدية للتأثيرات الثقافية على التطوير الاقتصادي وعلى الديمقراطية مقتنعة من نواح كثيرة إلا أنها لا يمكنها أن تفسر الحافز إلى التغيير في علاقات الجنوسة عند المقارنة بين البلدان والثقافات. وذهب بعض الباحثين إلى أن الثقافة الأنجلو برونسنتانية كان لها دور معيّن في التحول إلى طريق التطوير الرأسمالي والديمقراطية الليبرالية ولكن ظلت هذه الثقافة تاريخيا متوائمة مع التمييز على أساس الجنس بشكل مطرد، وتلاحظ أن مظاهر التقدم المهمة التي شهدتها الولايات المتحدة في العلاقات بين الجنسين منذ الستينات يمكن ربطها بالتحولات الاقتصادية والحركات النسائية وبالتغيرات في تشريع

المحكمة العليا أكثر من أن نعروها إلى الثقافة . وعلى النقيض من ذلك هي أمريكا اللاتينية إذ ظل التراث الثقافي معاديا للتواكُم الرأسعالي الخاص والديمقراطية الليبرالية . ومع هذا لم يحل هذا التراث دون أمريكا اللاتينية واتخاذ خطوات كبيرة على طريق المساواة بين الجنسين خلال العشرين عاما الماضية

ويستكشف الجزء الثاني من هذه الدراسة وسيلتصن تسهم بهما الخصائص الثقافية في إحداث ومساندة التغييرات في العلاقات بين الجنسين الأولى القيم الثقافية الأساسية التي تفسر شئوع السبل التي تتخذها المجتمعات المختلفة المتأهبة لإنجاز المساواة بين الجنسين، والثانية الخصائص الثقافية ذات العلاقة بأداء وكفاءة مؤسسات الدولة والتي تؤثر على قابلية استدامة التغييرات في العلاقات بين الجنسين. وإذا ظهرت هوة كبيرة بين السياسة المرسومة وأسلوب التنفيذ، وهي قسمة شائعة بين بلدان أمريكا اللاتينية، فإن مظاهر التقدم في حقوق المرأة في مجال السياسة والقانون تبدو سراها.

مقارنة الثقافة والجنوسة في شمال وجنوب أمريكا

المفكرون المبرزون من أصحاب النظريات الاجتماعية والسياسية ابتداء من نوكفيل وغير وحتى المساهمين المميزين ينصيب في هذا الكتاب انطلقوا جميعا من مقدمة تقول إن الثقافة تؤثر تأثيرا حاسما على فهم التطوير السياسي والاقتصادي لأي شعب من الشعوب. ويؤكد باهثون من أمثال هوارد غيارد ولورانس هاريزون أن الخصائص الثقافية لأمريكا اللاتينية تفسر المسارات التاريخية المميزة للمنطقة. وتتمثل هذه الخصائص في دورات من الحكم التسلسلي المقترن بتفاوتات اجتماعية واضحة، ونجد على النقيض من ذلك القيم الأنجلو بروتستانتية التي برونها مسئولة عن قدرة المجتمعات الأنجلو أمريكية على توليد ثروة ودعم مؤسسات ديمقراطية مستقرة. ويدفع هاريزون في هذا الصدد بقوله: أعتقد بأن لا وسيلة أخرى نفسر لنا بصورة مقنعة التطور المتباين تباينا حادا بين الشمال والجنوب في نصف الكرة

(العربي) غير الثقافة - التقدم والاتجاهات والمؤسسات المختلفة عن بعضها إذ لاها مذهباً - وهي الثقافة التي فاضت من معين التراث الأنجلو برويسنانتى والترات الكاثوليكي الأيبيري.¹¹

ليس هدفى تقييم الادعاء بأن الثقافة تقسر النياين بين الأمم فى مجال التطوير الاقتصادى والديمقراطية. ولكنى أحث فقط على الحذر فى استخدام الصيغ الثقافية لتفسير الاختلافات فى علاقات الجنوسة بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. حقا إن الثقافة الأنجلو برويسنانتية بما تشتمل عليه من مبدأ أخلاقى قوى، ونزوع إلى الأرخار، وتوطيد أركان حقوق الفرد ربما أسهمت فى إنجاز ضييات الرؤسمالية والديمقراطية. بيد أنها كانت تاريخياً متوائمة مع القوانين والسياسات التى اتخذت موقفاً قاسياً فى التمييز ضد المرأة. ونعرف أن أهم التغييرات التى طرأت على مكانة المرأة إنما هى تغيرات معاصرة نسبية، ولنتأمل مؤسسة عصمة المرأة أى وضعها فى عصمة الرجل شرعياً، إذ إن قوانين الولايات المتحدة ظلت وحتى فترة طويلة بعد تأسيس الجمهورية تدعم قوانين وضع المرأة للشرعى فى عصمة الرجل والتى عنحت الأزواج حقا شرعياً فى الهيمنة وحده على جسد الزوجة وممتلكاتها، وأمكن إلغاء بعض عناصر الوضع الشرعى للمرأة فى عصمة الرجل ابتداءً بقانون ممتلكات المرأة المتزوجة فى منتصف القرن التاسع عشر وحتى نهايته، ولكن ظلت امتيازات الذكر فى الزواج والأسرة راسخة بقوة فى القرن العشرين، ولم يحم القضاء على آخر بقايا وضع المرأة الشرعى فى عصمة الرجل إلا بقاءً على قرار من المحكمة العليا فى الولايات المتحدة عام ١٩٩٢ والذي نص على أن المرأة لا تفقد بالزواج حرمتها المصونة دستورياً.¹²

وظلت الثقافة الأنجلو برويسنانتية قروناً فى الولايات المتحدة تنغاضى عن، كما ظل القضاء يتسامح مع، المعاملة القائمة على التفرقة والتمييز ضد المرأة فى أماكن العمل، واستبعاد المرأة من مهن معينة. وقبل صدور قانون الأجر المتساوى عام ١٩٦٣ وتشريع الحق السابع من قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤ كانت القوانين والنظم الأساسية واللوائح التى تمايز بين الجنسين واسعة الانتشار فى ولايات كثيرة وفى هيئات فيدرالية عديدة، وأفاد إعمال هذه القوانين فى توسيع نطاق فرص العمالة

للمرأة هذا على الرغم من ممارسات تمييزية دعمتها كآمر واقع المحاكم التي استخدمت معايير فضفاضة عند البحث والنحري

وثمة نخوة بيروغراطي لمسائل شخصية وقضايا تتعلق بالخصوصية الزوجية مثل العلاقة الجنسية والتناسل وهذه، فيما يبدو، تمثل انتهاكا للقيم الليبرالية، وظل الحال كذلك حتى عام ١٩٦٥ حين أصدرت المحكمة العليا بالولايات المتحدة حكما يقرر أن الحق الدستوري بشأن الخصوصية الزوجية يمنع الولايات من حظر استخدام الزوجين لمواقع الحمل.

ويمثل العنف ضد المرأة مجالا آخر لم تتخذ الولايات بشئنه إجراء إلا منذ عهد قريب جدا نسبيا، ولم يصدر إلا عام ١٩٩٤ قانون العنف ضد المرأة الذي نص على عقوبات فيدرالية على جرائم العنف ضد المرأة. كما نص على إنشاء صناديق خاصة بالولايات لبرامج المنع والعامة، معنى هذا أن المساواة الاقتصادية والاعتراف بحق المرأة في ضبط الخصوصية، والإدانة الرسمية للعنف ضد المرأة، كل هذا لم يكن جزءا من التراث الثقافي الأنجلو برونسنتاني. وإنما يعقل، كما هو واضح، وقائع معاصرة نسبيًا حدثت بفضل التغيرات الاجتماعية والحركات النسائية.

ويعتقد أنصار مدرسة الثقافة والتطوير أن الثقافة الكاثوليكية الأيبيرية في أمريكا اللاتينية أقل من ثقافة الولايات المتحدة الأنجلو برونسنتانية من حيث القدرة على التحول إلى أترسماوية والديمقراطية. وفي هذا يقول فياربا:

كان ولا يزال اقتصاد أمريكا اللاتينية اقتصادا تجاريا
ميركانتيليا، خاضعا لتوجيه الدولة، وليس رأسماليا أو خاضعا
للتوجيه الفردي، وتتألف بيئتها الاجتماعية من طبقتين وليست
متعددة الطبقات أو تعديبية المكونات. وانصرفت مؤسساتها
السياسية بالتراتبية والتسلط وليست بالديمقراطية، وتتصف
ديانتها وثقافتها بالأرثوذكسية والفرقة الاستبدادية المطلقة
ورأخرة بالتحاليم الكاثوليكية المنسوبة إلى نوما الإكويني هذا

على نقض اللاعنفية الدينية والمبادئ التعددية في المستعمرات الأمريكية الشمالية^(١٧)

وإذا تأملنا القسمات القسطنطينية والترانينية المسيزة للثقافة الكاثوليكية الأيبيرية في ضوء النزعة الجنسية التقليدية للأخلاق الرومانية وفي ضوء الأيديولوجيات العلمانية مثل الماشيزمية^(١٨) Machismo والماريانية^(١٩) Marianismo يظهر لنا أنها قسيمات معادية بوجه خاص لتقدم المرأة. وإن علاقات الجنوسة في أمريكا اللاتينية، كما لاحظ أحد الباحثين هي "منظومات أبوية" مجتمعة بطريركي - قاسية لا تجد منافسا لها سوى في العالم العربي. وإذا كانت بعض البيانات تبين أن القيم الثقافية لأمريكا اللاتينية ظلت عنماشكة ومستقرة على مدى الزمن^(٢٠) إلا أن التغيرات الأخيرة التي طرأت على علاقات الجنوسة وعلى مكانة المرأة تغيرات واضحة وملحوظة، وشهد المجتمع تحولات في البنية وفي القانون وفي السياسة ليست أقل ثورية مما حدث في الولايات المتحدة منذ ستينيات القرن العشرين. وثمة دلالات على حدوث تقارب في وضع المرأة بين بلدان لكل منها تراث مغاير، كما أن هناك تباينا مضمدا بين البلدان داخل منطقة ثقافية واحدة.

وحققت التغيرات في علاقات الجنوسة في أمريكا اللاتينية نتائج واضحة ومهمة في السياسة والاقتصاد والتعليم والتشريع، تمثل المرأة في الإقليم الآن حوالي ١٥.٤ بالمائة من بين أعضاء الكونجرس، وهذه النسبة هي النسبة الأعلى الثانية من حيث المتوسط الإقليمي في العالم وتتجاوز نسبة ١٣ في المائة في الولايات المتحدة (المتوسط العالمي ١٣ بالمائة). ونجد نسبة مشاركة المرأة في بعض البلدان مرتفعة جدا كما هو الحال في الأرجنتين وكوبا (٢٨ بالمائة)، وكوستاريكا (١٩ بالمائة) وإكوادور والسلفادور والمكسيك (١٧ بالمائة) وجمهورية البومينيكان (١٦ بالمائة). وزادت نسبة

(١٧) الماشيزمو - عقيدة الذكورة المفرطة بموجبها من عنف ومحولة وشجاعة وقوة نسبية ومهمة على المرأة وعنوان، والمارييزمو - النظر الإثني الماشيزمو، نسبة إلى العزراء مريم التي أنكرت دنائها وخرقتها وفي عقيدة انطلق الأضلاقي والريسي للمرأة، تفوق يندوا قوة التخلي عن احتياجاتها وإنكار ذاتها وإبشار حاجة المرأة على نفسها. وإن بعض النساء يمارسن تكرار الذات على نحو مفرط لا يكاد يصدق على أجداد، لعركة النسائية والمساواة بين الجنسين. (الترجم).

مشاركة المرأة في الاقتصاد زيادة صاروخية إذ كانت تمثل المرأة على نطاق الإقليم ٢٠ بالمائة من القوى العاملة في ١٩٧٠ وبحلول عام ١٩٩٥ ارتفعت النسبة إلى ٢٥ بالمائة (وتمثل المرأة في الولايات المتحدة ٤٥ بالمائة من القوى العاملة)

ولا تزال هوة الأجور بين المرأة والرجل كبيرة ولكنها لا تختلف كثيراً عن هوة الأجور المسجلة في البلدان الصناعية. وفي مطلع التسعينيات كانت فجور المرأة أدنى من أجور الرجل بنسبة تقراوح ما بين ٢٠ و٤٠ بأثانة. بيد أن هوة الأجور أصغر كثيراً بالنسبة للفتيات. وتفيد إحدى الدراسات أن المرأة العاملة البالغة من العمر ما بين خمس وعشرين وأربعة وثلاثين سنة تحصل على ما بين ٨٠ و ٩٠ بالمائة من راتب الرجل. وحققت المرأة مكاسب مهمة في مجال محور الأمية وفي التعليم بعمامة وانخفضت نسبة الأمية بين النساء بنسبة كبيرة. وتمثل المرأة الآن حوالي نصف تلاميذ التعليم الابتدائي والثانوي وما بعد الثانوي، وتمثل المرأة أيضاً أكثر من نصف طلاب الجامعة. وتعرف أن المرأة في الولايات المتحدة تؤلف ٥٠ بالمائة من طلاب الثانوي و٥٥ بالمائة من طلاب ما بعد الثانوي.^(٥)

وحققت شعوب أمريكا اللاتينية تقدماً ملحوظاً في سبيل إنجاز إصلاحات تشريعية تعطي للمرأة مساواة رسمية، وتعترف بمساوئير عديد من بلدان أمريكا اللاتينية بالحقوق المتساوية للرجل والمرأة. إذ إن دساتير البرازيل وكوبا والإكوادور وجواتيمالا والمكسيك وباراجواي نصص على المساواة بين الجنسين كعبدأ أساسي. وتم إصلاح القوانين المدنية بحيث ألغت مؤسسة السلطة الزوجية (Patria potestas) ومنحت المرأة حقاً مساوياً في إدارة الممتلكات المشتركة وفي اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون البيت والسلطة على صفار الأبناء.

وهناك على الأقل اثنا عشر بلداً من أمريكا اللاتينية أقرت قوانين جديدة ننص على عقوبات ضد العنف المنزلي، وتوسع من نطاق سلطة تنفيذ القانون لحماية الضحايا في مختلف أنحاء الإقليم ويوجد المئات من مراكز الشرطة التي تضم ضابطات نساء مهمتهن تنفيذ القانون وتلفين تدريبات خاصة بشؤون العنف المنزلي وجرائم الجنس وصدّق تسعة عشر بلداً من أمريكا اللاتينية على ميثاق الأمم المتحدة

بشأن القضاء على التمييز ضد المرأة، كما وأن البرازيل ضمنّت هذا الميثاق في دستورها الوطني، ويجدير بالذكر أنه في العام نفسه الذي أقر فيه الكونجرس الأمريكي قانون العنف ضد المرأة، أقرت البلدان أعضاء الدول الأمريكية ميثاق ما بين الدول الأمريكية بشأن العنف ضد المرأة، والذي صدق عليه بعد ذلك ما لا يقل عن ستة وعشرين بلداً من بلدان أعضاء المنظمة.^(٦٧)

ومع ذلك لا تزال نرى تبايناً واضحاً بين بلدان أمريكا اللاتينية من حيث التمثيل السياسي للمرأة والفرص الاقتصادية المتاحة لها وحقها في التعليم ووضعها القانوني. وعلى الرغم من أن المرأة تشغل ٢٨ بالمائة من مقاعد الكونجرس في الأرجنتين إلا أنها لا تشغل سوى ٢ بالمائة في كونجرس باراجواي، و٦ بالمائة في البرازيل. وتعمل المرأة ٤٦ بالمائة من القوى العاملة في أوروغواي، ولا تزيد هذه النسبة عن ٢٦ بالمائة في الإكوادور، والملاحظ في بلدان مثل بوليفيا وجواتيمالا وبيرو حيث تضم نسبة كبيرة من السكان الأصليين أن الأمية بين النساء في الريف أعلى كثيراً منها بين الرجال، ففي بيرو على سبيل المثال ٤٦ بالمائة من النساء أميات بالمقارنة بعشرة بالمائة من الرجال في الريف. ويكشف الوضع الصحي للمرأة عن تباين مهول بين البلدان. إذ نجد في كوستاريكا أن معدل الوفيات بين الأمهات *mater-natmortality* ٦٠ بين كل ١٠٠٠٠٠ حالة ولادة وتصل النسبة في بوليفيا إلى ٦٥٠ بين كل ١٠٠٠٠٠ حالة ولادة وأجرت الأوروغواي عام ١٩٤٦ إصلاحاً في القانون المدني منح المرأة المتزوجة وكالة شرعية كاملة ومساواة في الحياة الزوجية. هذا بينما لا تزال مؤسسة السلطة الزوجية القديمة قائمة في شيلي وتسمح بنظام عدم التول أمام القضاء. في القضايا المتعلقة بعلاقات الملكية بين الزوج وروجه حتى عام ١٩٩٥، وشرعت كوستاريكا وفنزويلا حق الطلاق في عامي ١٨٨٦ و ١٩٠٨ على الترتيب. ولكن الإصلاحيين المؤيدين لحق الطلاق لم يحققوا أهدافهم في البرازيل إلا عام ١٩٧٧، وفي الأرجنتين عام ١٩٨٧. وثمة تباين واضح فيما يتعلق بمكانة المرأة داخل الطبقات الاجتماعية والمهنيين داخل كل بلد.

ونصل بها هذه الأمثلة إلى نتيجتين الأولى أنه في ضوء المشاركة المتزايدة في الاقتصاد والتعليم والسياسة تتفارق مكانة المرأة في أمريكا اللاتينية مع الولايات المتحدة. وأنه على الرغم من الفوارق الثقافية بين المنطقين إلا أن هناك درجة متزايدة من التماثل في وضع المرأة والثاني أن هناك تباينا واضحا ومطردا في وضع المرأة بين بلدان أمريكا اللاتينية التي لها ميراث ثقافي متماثل. معنى هذا أنه لا توجد علاقة بسيطة بين الثقافة والجنوسة. وذلك لأن السمات الثقافية على ما يبدو لا تفسر بالكامل التحولات في علاقات الجنوسة. ويبدو أن ترميز المبدأ الثقافي للمساواة بين الجنسين إنما هو نتاج وليس سببا لتغيرات في هيكل علاقات الجنوسة، إذ حينما تتغير علاقات الجنوسة تتغير الثقافة استجابة لها

الأطر الثقافية وقابلية استدامة تقدم المرأة

على الرغم من أن ليس بالإمكان افتراض أن الثقافة علة لتحولات كبرى في علاقات الجنوسة، إلا أن العوامل الثقافية تؤثر بعمق في طابع مظاهر التقدم في وضع المرأة وقابلية حالات التقدم للاستدامة، إن المعايير والقيم الثقافية تشكل الأطر التي تفسر في ضوءها التغيرات التي تحدث على علاقات الجنوسة. وهي التي تحدد كيف نفهم ونتقبل المجتمعات المختلفة موضوع تحقيق المساواة بين الجنسين، ونجد في الولايات المتحدة أن التحولات المرحلية في حقوق المرأة موسومة بطابع قري ووضح لقيمنا. مثال ذلك أن قوانين الأسرة والطلاق والإجهاض تعكس سلوكا فرديا إلى مدى كبير أكبر مما هو الحال بالنسبة للقوانين في القارة الأوروبية أو في أمريكا اللاتينية. وبينما قررت محاكم الولايات المتحدة أن الحرية الفردية وبحرية الإرادة هما القيمتان الأساسيتان اللتان يتعين حمايتهما نجد القضاة والمشرعين في قارة أوروبا غارقين في مناقشات أخلاقية لا تنتهي بشأن الإجهاض والطلاق والتبعية، والحقوق الفردية المتواضعة مع الاهتمام بالسياق الاجتماعي والمسئولية الفردية⁽⁴⁾ ومضت الولايات المتحدة شيئا أبعد من أي بلد غربي إذ جعلت الزواج علاقة يمكن إنهاؤها بحرية حسب إرادة أي من الطرفين، وأيضا من حيث صياغة قضية الإجهاض

واعسارها خصوصية فردية وحرية بدالة إلى أن يكون الحمل fetus كيانا قابلا للحياة، وأقرت أيضا بأن الخصوصية الزوجية حق دستوري.

والتراث الثقافي المختلف لبلدان أمريكا اللاتينية يعني أن التغييرات في حقوق المرأة أقل من الولايات المتحدة من حيث التعبير عن الفزعة الفردية الليبرالية ومبدأ عدم تدخل الدولة، وأدى هذا من ناحية إلى خلق عوائق أمام دعاء المساواة بين الجنسين والليبراليين الداعين إلى تخفيف حدة القيود المفروضة على الإجهاض. والمعروف أن الإجهاض يُعتبر جريمة في كل بلدان أمريكا اللاتينية فيما عدا كوبا، هذا على الرغم من أن غالبية البلدان نجيز الإجهاض في حالة تجنب خطر بهتد حياة الأم أو حينما يكون الحمل نتيجة اغتصاب. وعلى الرغم من أن الإجهاض السري واسع الانتشار في المنطقة إلا أن الحملات الداعية إلى إباحة الإجهاض بالقانون لا تصادف دعما ومساندة من ائناس، وواضح هنا أن الصغوط الأخلاقية والسياسية من جانب الأساقفة الكاثوليك الرومان تمثل عاملا رئيسيا يعوق إضفاء طابع الليبرالية على قوانين الإجهاض، كذلك فإن الافتقار إلى تراث ثقافي وتشريعي يدافع عن حق الخصوصية وحرية الإرادة يجعل أيضا من الصعب التقدم بدعوى أن مصلحة المرأة في ضبط حياتها الإنجابية تفوق مصلحة الدولة في حماية الجنين

وئمة إجراء إيجابي من ناحية أخرى يكفل وجود المرأة في ساحات صناعة القرار نراه رائجا في كل أنحاء أمريكا اللاتينية وفق تدبير سياسي لم تكن لتفكر فيه عمليا الولايات المتحدة. إذ في النمسينيات أقرت تسع بلدان في أمريكا اللاتينية - الأرجنتين وبوليفيا والبرازيل وكوستاريكا وجمهورية الدومينيكان والإكوادور وبنما وبيرو وفنزويلا - قوانين قومية تحدد حصصا لمشاركة المرأة كمرشحات في الانتخابات العامة. ويقضى قانون الحصص بأن تقدم الأحزاب السياسية ما بين ٢٠ إلى ٤٠ بالمائة من مرشحيها من النساء والملازمة بعد صدور قانون الحصص أن ارتفع تشغيل المرأة في الكونغرس من ٥ إلى ٤٨ بالمائة في الأرجنتين، ومن ٧ إلى ١٢ بالمائة في بوليفيا، ومن ١٦ إلى ١٩ بالمائة في كوستاريكا، ومن ١٠ إلى ١٦ بالمائة في جمهورية الدومينيكان، وتملك بلدان أمريكا اللاتينية تقليدا جماعيا يرتته عن فكر توما الإكويني والتعاليم الاجتماعية للمنشورات البابوية العامة. ويشكل هذا كله بيئة ثقافية مؤانبة

للدعاوى بغير حق المرأة هي التمثال عن الجماعة وهكذا فإن السمات الثقافية من شأنها أن تعدل الحركة تجاه المساواة بين الجنسين في مجتمعات مختلفة، وأن تحدد أولوية بعض القضايا على غيرها وإضفاء طابع خاص مميز على الحوارات القومية بشأن حقوق المرأة.

الفجوة بين القانون والسلوك

على الرغم من أن مجمل الإحصاءات والقانون والسياسة القومية مكونات حاسمة للحركة تجاه المساواة بين الجنسين إلا أنها لا تحكي القصة كاملة. إن تولى ممثلين منتخبين بديمقراطية مهمة سن القوانين بشهد على أحد المستويات بالمساعدة الثقافية للمساواة بين الجنسين ، كذلك فإن التغييرات القطبية والرمزية في القانون والسياسة تبلغ رسائل عن المساواة إلى المجتمع كله بمعناه الواسع. ولكن يظل التناقض بين السياسة البيروقراطية حسنة النوايا والتطبيق والتنفيذ غير المتساوي على أيدي البيروقراطية قسمة زائفة في كل أنحاء المجتمعات الأمريكية اللاتينية وليست المشكلة خاصة محددة تتعلق بالجنوسة مادامت الميول تجاه الفساد وانتهاك حقوق الإنسان والتهرب الضريبي والفرص التسعفي للقانون كل هذا يحد كثيرا من فعالية مؤسسات الدولة في مجالات كثيرة.

ولكن الفجوة بين القانون والسلوك تكون يمثل هذه الشدة، على الأقل عندما يتعلق الأمر بقوانين ذات صلة بمعاملة الجنوسة، ومن ثم تحول تلك الفجوة نون قابلية استدامة مظاهر التقدم المعاصرة في مجال حقوق المرأة، ونجد من ناحية أن القوانين اللغاة منذ زمن طويل مستعمرة في تأثيرها على السلوك ، ويتذكر كمثال الدفاع الشرعي عن الشرف المستخدم في البرازيل تكأة لتجربة الرجل الذي يقتل زوجته الزانية ، وتجد من ناحية أخرى قوانين جديدة تم إقرارها، مثل الإصلاحات الأخيرة بشأن العنف الجنسي والمنزلي غير منظمة في أغلب دول أمريكا اللاتينية ، ولا ريب في أن تطبيق الفجوة بين القانون والممارسة يستلزم عمليات حلالة ثقافية علوية على

"الدفاع الشرعي عن الشرف" في البرازيل

ذاعت في البرازيل خلال ثمانينيات القرن العشرين مسألة الدفاع الشرعي عن الشرف وذلك حينما صدقت هيئة المحلفين في ولاية باراينه الجنوبية لصالح تيرنة رجل قاتل ، وبنت الهيئة حكمها على أساس أنه تصرف على نحو مشروع دفاعا عن شرفه حين قتل زوجته الناشز وعشيقتها . وأيدت محكمة الاستئناف القرار . ولكن محكمة العدل العليا ، وهي أعلى مستوى قضائي في البرازيل والمختصة بالقضايا المدنية والجنائية حكمت ببطالان قرار هيئة المطلقين عام ١٩٩١ . وأمرت بمحاكمة جديدة وعند إعادة المحاكمة في فترة متأخرة من هذا العام في ولاية باراينه قررت هيئة محلفين أخرى تبرئة المدعى عليه تأسيسا على الدفاع المشروع عن الشرف ، وأثار قرار المحلفين غضبا عارما محليا ودوليا ووصلت إلى البرازيل بعثة خاصة من قبل مراقبة حقوق الإنسان لتقصي مشكلة العنف ضد المرأة .

وجدير بالذكر أن مسألة الدفاع المشروع عن الشرف ليس لها أساس صريح في القانون البرازيلي . والمعروف أنه خلال الفترة الاستعمارية أجازت مراسيم فلبينية لرجل قتل زوجته حال اكتشافه ارتكابها حالة زنا ، وكذا قتل رفيقها الذي عاشرها . ولكن في فترة تالية نص صراحة القانون الجنائي لإمبراطورية البرازيل (المقرر عام ١٨٢٠) وقانون العقوبات للجمهورية الأولى (١٨٩٠) وقانون العقوبات الحالي (الذي أقر عام ١٩٤٠) منع القتل كحل لجريمة الزنا . ومع هذا أضاف القانون الجنائي لعام ١٩٤٠ فكرة الدفاع الشرعي ضد عدوان غير عادل يعرض للخطر حقوقا أساسية . وتعتبر بعض المبادئ القانونية أن الشرف خير أو حق أساسي . والملاحظ هنا أن المبدأ القانوني الخاص بالدفاع المشروع مع وجود أساس ضمني غير صريح لاعتبار الشرف خيرا . شرعيا أفسح المجال لممارسة قانونية تسمح للرجل بقتل زوجته الزانية وتبرئته من تهمة القتل .

ويرجع أطراف بقاء فانون الشرف إلى أهمية السمعة في العلاقات الاجتماعية.
ونقرأ فيما يلي تفسيراً مشهوراً لقانون العقوبات

**السمعة الحسنة مسألة جوهرية للرجل ، وتمثل القاعدة
التي لا غنى عنها لوضعه وفعاليتها في المجتمع ، والرجل الصالح
هو من يحيط نفسه برجال ذوي سمعة حسنة ، وإذا أصاب
أدهم ما يشوب اسمه وسمعته فإن استناده بمعارفه يهجره
على الفور ، ولا تقبله بينها الأوساط الاجتماعية السليمة ،
وسوف يحرمه المجتمع من مظاهر الثقة والمكانة التي يسبغها
على السادة ، علاوة على هذا فإنه بدون السمعة الحسنة
يستحيل على الرجل أن يحقق لنفسه أو أن ينجح في تولى أي
منصب متميز أو مؤثر أو مسئول ذلك لأن أصحاب السمعة
السيئة ليسوا أهلاً للثقة.**^(٨)

وتطلق العامية البرازيلية على الرجل زوج الزانية كلمة كورنو como
(شخص يضع على رأسه قرنين - البيوت). وهكذا يخسر سمعته ووضعه الاجتماعي
وأى فرصة جديدة له. ويلجأ محامي الدفاع عادة إلى حق الدفاع المشروع عن
الشرف، وتقبله هيئة المحلفين: ذلك لأنهم يرون أن اللجوء إلى القتل في مواجهة
واقعة تهدد الشرف أمر مفهوم له ما يبرره. ويكشف سلوك الخلفين عن أن شرف
وسمعة الرجل وكل الأسرة رهن تصورات عن أخلاقية المرأة والسلوك الجنسي
ويرى المجتمع أن قتل الزوجة الزانية وشريكها يسمح للرجل بأن يسترد شرفه
وسط المجتمع.

وبدأت المحاكم العليا في البرازيل منذ عام ١٩٩٥ تسقط قرارات المحاكم
الابتدائية التي تبرئ القتلة على أساس الحق المشروع في الدفاع عن الشرف ،
ولكن حسب منظومة القانون المدني في البرازيل فإن قرارات المحكمة العليا لا تؤسس
سابقة ملزمة للمحاكم الأدنى مستوى. لذلك فإن محاكم الاستئناف البرازيلية تقتصر
إلى السلطة التفسيرية التي تخول لها إصلاح الخطأ التشريعي الذي نوب على

••••• الدافع عن الشرف. علاوة على هذا ، فإن قضاء المحاكم الابتدائية بمارسون دائما حقهم باعتبار في أن يحيطوا أعضاء هيئة المحلفين علما بالنظريات والدفع التي يجيزها القانون. ولكنهم أثروا بدلا عن ذلك للإذعان لسيادة هيئة المحلفين حتى وإن كان استدلال المحلفين على غير أساس من القانون للرسمي، ويشير استخدام الدافع الشرعي عن نزوع راسخ داخل الثقافة البرازيلية بشأن ممارسة الأئس للجنس، وداخل المؤسسات القضائية البرازيلية بشأن مكانة الشرف ونطاق الدافع الشرعي.

العنف الجنسي والأسري

في تسعينيات القرن العشرين أدخلت جميع بلدان أمريكا اللاتينية إصلاحات على قوانين العقوبات فيها لإعادة توصيف جريمة الاغتصاب. وأدخلت تشريعا جديدا يهدف إلى معاقبة وحظر العنف الأسري ، وكان الاغتصاب تاريخيا يعتبر جريمة ضد العرف أو للاستقامة أو الآداب العامة ثم وضع في صياغة جديدة باعضاره جريمة ضد الحرية الفردية الجنسية وضد الكرامة ، وتقرر أيضا تجريم الاغتصاب في الحياة الزوجية وفرض عقوبة عليه. وأنشئت منات من مراكز الشرطة النسائية في كل أنحاء الإقليم لتلقي شكاوى العنف ضد المرأة وإجراء بحريات عنها ، وسبق أن نكون أن هناك على الأقل اثني عشر بلدا أقرت فيها قوانين بشأن العنف الأسري يخول للقضاة وللرسميين المنوط بهم إعمال القانن صلاحيات لحسم مواقف العنف. وتمثل هذه القوانين الجديدة حافزا لتحول ثقافي. وتزايد الاتجاه إلى اعتبار العنف ضد المرأة وأعضاء الأسرة انتهاكا لحقوق الإنسان وعن ثم مشكلة تتعلق بسياسة البلد إذ لم تعد الأسرة أمرا خارج نطاق سلطة الدولة والقوانين الرسمية ، ولكن سلوك المواطنين والمسؤولين، عن إعمال القانون لم يرق بعد إلى روح القوانين الجديدة

ونلاحظ قول الأسر أن الإبلاغ عن حوادث العنف الجنسي أقل كثيرا جدا مما يجري في الواقع . وتشير التقديرات في المكسيك وبيرو إلى أن ما بين ١٠ إلى ٢٠

بالمائة فقط من حالات الاغتصاب هي التي يبلغ عنها أصحابها الشرطة تانيا، إن معدل عمليات التحري وانقضاءه والمحاكمة ضد مرتكبي العنف منخفضه جدا وتوضع تقارير من المرأزيل أن ثلث حوادث العنف في ولاية سان باولو هي فقط التي تتحرى عنها الشرطة وأن عددا محدودا جدا من إجراءات التحري هي التي نذت إلى مفاضاة أو إدانة مرتكبي العنف. ونلاحظ في المكسيك أن ٦٠ بالمائة فقط من المعتدين في عينة من دراسة لحالات الاغتصاب هم الذين صدرت ضدهم أحكام وتوضع تقارير الإكوادور أن واحدا بالمائة فقط من إجمالي حوادث العنف الجنسي التي تم إبلاغ السلطات عنها هي التي أدينت^(١١) وتتناقض بشدة ظاهرة الإهمام عن إجراء التحريات ورفع الدعاوى في حالات العنف الجنسي مع تسليم الدولة بالإدانة في مجالات أخرى من القانون الجنائي وحماسها الشديد بمفاضاة المشتبه فيهم.

ويرجع انخفاض معدلات التقاضي والأحكام ضد مرتكبي العنف إلى حساسية المسؤولين عن فرض القانون إزاء ضحايا العنف والذي يعكس شعورا سائدا بأن المرأة الضحية تستحق بالضرورة ما أصابها أو أن ما حدث كان مرضاهما، وتوضع الدراسة التحليلية للحالات المعروضة على المحاكم أن القضاة أكثر تعاطفا مع العذاري وكثيبرا ما يوجهون اللوم إلى الضحايا لأنهن اللاتي يفرين بالاغتصاب، وجدير بالملاحظة أن كثيرين من القضاة ورجال الادعاء يضغطون على المرأة للتصالح مع شريكها بدلا من الإصرار على الاتهام، وشككت النساء ضحايا الاغتصاب من أن المسؤولين عن فحصهن طبيا يعملون إلى الإسهاب في سؤاليهن عن تاريخهن الجنسي^(١٢).

ونجد من ناحية أخرى أن الضحايا أنفسهم غالبا ما يخفقن في التعاون مع عمليات التحري أو يتوقفن عن الاستمرار في الدعوى ضد مرتكبي جريمة العنف، ويتصالح بعض الضحايا مع شركائهن ومن ثم لا يرين حاجة لمواصلة الدعوى. وتخفض أضرابات لضغوط اجتماعية من جانب أصدقاء وأعضاء الأسرة، ونوعا قضية في بيرو عام ١٩٩٧ رفعتها امرأة ضحية اغتصاب عصابة ولكن أعضاء الأسرة ضمحطوا عليها للتزوج بواحد من المعتدين بقاعا عن شرف الأسرة. وهكذا سقطت

الدعوى ضد المعتصب. (وقد كانت هناك ثغرة في قانون العقوبات تعفى المعتصب الذي يتزوج ضمنياً، ولكن ألغى هذا الوضع في أبريل/ تيمسان ١٩٩٧ بعد احتجاجات عارمة في الداخل والخارج).

وعلى الرغم من أن تشكيل الشرطة النسائية كان الهدف منه تخفيف حدة بعض المشكلات المذكورة آنفاً، إلا أن مراكز الشرطة النسائية المختصة تعاني من نقص التمويل والموارد المادية وتفتقر إلى إجراء معياري للسير في الدعوى أو للتعامل مع الضحايا، وغالباً ما تكون مواقع هذه المراكز غير ملائمة، كذلك فإن جهاز الشرطة يواجه عام يعتبر العمل في مراكز الشرطة النسائية أرضاً مكافئة، والخلاصة أن تطبيق وتنفيذ القوانين القائمة يمثل تضخم تحدٍ يواجه أنصار حقوق المرأة في أمريكا اللاتينية

خاتمة

الثقافة مفهوم جوهري ولكنه غير كاف بذاته لفهم التقدم على طريق المساواة بين الجنسين. وأفاق هذا التقدم في أمريكا اللاتينية والقيم الثقافية وحدها لا تفسر أنماط التغيير والاتصال بشأن مسائل الجنوسة، والملاحظ أنه على الرغم من التحولات الثقافية القديمة والممتدة ضد المرأة إلا أن قدرات وفرص المرأة بالنسبة إلى الرجل تحسنت موضوعياً على مدى العقود القليلة الأخيرة في أمريكا اللاتينية، وإذا كان ثمة تباين واضح بين البلدان، إلا أن سن الحكومات الديمقراطية والمجالس التشريعية قوانين وسياسات مساواتية يعكس التزاماً ثقافياً متتاماً بإزاء الفرص المتساوية، ولكن الثغرة القائمة بين القانون والسلوك تشهد بوجود ممارسات تمييزية واضحة. وإذا كانت التغييرات الثقافية لا تشجع وتحت مظاهير التقدم المعاصرة في مكانة المرأة في أمريكا اللاتينية إلا أنها لا غنى عنها لضمان التنفيذ واستدامة التقدم على المدى الطويل

تُرى ما الإستراتيجية السياسية التي ترسم مخرجاً من هذه المعضلة؟ لقد كانت ممارسة الزعامة الرئاسية قوة دفع مهمة لتغيير السياسة، والواقع أن المساندة

الحماسية من جانب الرئيس وجزبه كانت مؤشرا مشتركا لبعض من أكثر التحولات العذرية التي طرأت على القانون والسياسة الضاهين بالجنوسة في تمهينيات القرن العشرين. ذلك أن الترام الرئاسة يسر أيضا عملية التنفيذ إذ بدون المراسم التنفيذية التي حدثت مراحل الإنتاج لقانون الحصص في الأرجنتين على سبيل المثال، ما كان لهذا القانون أن يجعل نسبة تمثيل المرأة ترتفع في الكونغرس من ٥ إلى ٢٨ بالمئة. ونظرا لأن الرئيس يملك بين يديه سلطات مؤسسية ومعيارية فقد مارس سلطاته الرئاسية ضمنا لإحداث تغييرات تتعلق بعلاقات الجنوسة، هذا على الرغم من أن الجميع ليسوا بالضرورة بشاركون الرئيس أفكاره، ولكن الالتزام بمسألة الجنوسة قولا وممارسة سوف يجعل من هم على قمة السلطة رأس رمح لإحداث التحولات الواسعة والضرورية لإتجاز المزيد من التقدم الأساسي في مسألة الجنوسة في كل أنحاء أمريكا اللاتينية خلال القرن الواحد والعشرين.

الباب الخامس

الثقافة والأقليات الأمريكية

الثقافة في صورة جامدة : إطار عام وصورة توضيحية للأفارقة الأمريكيين

أورلاندو باترسون

نهج نقیض في دراسة الثقافة

ثمة شيء شديد الغرابة حول الكيفية التي يجري بها استخدام مفهوم الثقافة اليوم . إذ نجد من ناحية أنه لأول مرة في التاريخ أضحي المفهوم موضوع تفكير أكثر شيوعاً وجدية من أنه فترة سابقة . وازدهرت في الأكاديميات دراسات تمثل مباحث علمية جديدة عن الثقافة . ودارت على الساحة الأمريكية العامة حروب تحولت إلى ما يسميه هنتر واقعا فذا . . . القوي المحددة للحياة العامة.^(١) ونجد في الوقت ذاته داخل الأوساط الأكاديمية والفكرية بمن فيها من جماعات مؤثرة من علماء الأنثروبولوجيا وجميع علماء الاجتماع تقريبا مقاومة ضارية ضد محاولات تفسير أي وجه من السلوك البشري في ضوء المفاهيم الثقافية^(٢)

وتسود الدراسات الإنسانية والأوساط الليبرالية بعامة اليوم نزعة تقليدية جامدة يمكن تلخيصها فيما يلي: الثقافة منطلومة رمزية يمكن تفسيرها وفهمها ومناقشتها بوصف معالنها واحترامها والاحتفاء بها باعتبارها المنتج المعين لجماعة محددة من الناس، وأنها مساوية في القيمة مع كل المنتجات النظرية . ولكنها لا تستلزم أبدا لتفسير أي شيء يتعلق بالناس الذين أنتجوها . وغالبا ما يجري تشييب الثقافة في

ضوء المصطلحات الإنشائية بنس نقرؤه ونفسره . وعلى الرغم من إجازة التفسيرات العديدة للنص لا سبيل إلى أي ادعاء بموضوعية هذه التفسيرات لذا فإن فهم الثقافة مسألة ذاتية خالصة وتعكس عن المفسر بقدر ما تعكس عن النص موضوع التفسير .

وتشغل الثقافة في الدوائر السوسولوجية ما يسميه مايل بيريزين الأرض ذات الصدع حيث يسود شقاق إبستيمولوجي بين باحثين يعطون الأولوية والامتياز لإمكانية التفسير .. وأولئك الذين يعطون الأولوية والامتياز للتأويل أو التحليل النقدي⁽¹⁾ . ولكن حتى من يؤثرون التفسير ينزعون إلى تجنب أي دور سببي للثقافة .

وتعتبر الثقافة المتغير المشروط، على نحو ما نجد ويشكل نموذجي فيما يُسمى مدرسة المنهج الثقافي، في أنها شيء نَصَفَه ونفسرُه، بعد توخي الحذر الشديد، في ضوء متغيرات تنظيمية واقتصادية وغيرها من متغيرات مستقلة "راسخة" وتغلب نظرة الشك إلى جميع المحاولات التي استهدفت عكس هذه المعادلة التفسيرية وجعل الثقافة أو عناصر منها متغيرا غير مشروط والشيء الغريب أن هذا هو عين النقبيص لما ساد خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتماما انعقد لواء الهيمنة لنظرية بارسونز عن القيم كغايات وعوامل معيارية لتنظيم الفعل . ولكن، كما أوضحت أن سويدلار أن الرقص العام لنهج بارسونز خَلَفَ علماء الاجتماع بكون صياغة بديلة عن الأهمية السببية للثقافة . وأدى هذا الرفض بالباحثين إما إلى تحاشي الأسئلة عن الأسباب أو التسليم بإطار فكري عن القيم من باب خلفي⁽²⁾ . وافترحت سويدلار نهجا لتناول المشكلة وهو النهج الذي حظي بتأييد واسع . وعنى الرغم من أن هذا يمثل بداية في الاتجاه الصحيح إلا أن مفهومها عن الثقافة باعتبارها مُصنوق عدد وأدوات يتسقى الناس من بينها إستراتيجيتهم للعمل بما يتلاءم مع أغراضهم وإنما هو مفهوم مفتوح النهاية ويهيئ فرصة لحرية الإرادة في تقديم سلطة تفسيرية حقيقية . وهكذا تم اختزال التحليل الثقافي إلى مجرد مكمل لنظرية الاختيار العقلاني .

ويتجلى العداء للتفسيرات الثقافية واضحا بشكل خاص في دراسة الأفارقة الأمريكيين والعديد من المشكلات التي يواجهونها . وهذا أمر له حسنة وسيئات في أن .

إن الكثير جدا من الدراسات عن مشكلات الأفارقة الأمريكيين حتى أواخر الستينيات - تاريخ بداية رد الفعل - ارتكزت على مفهوم عن الثقافة تبسّطي أو واه لا يمكن الدفاع عنه واستخدمه الباحثون من منظور جبري فج لتفسير المشكلات الاجتماعية عند الأفارقة الأمريكيين. ونظروا إلى ثقافة الأفارقة الأمريكيين وكأنها نمو متعاطف ومطرّد لماضى الأفارقة الأمريكيين. وقد غلغفه قشرة مظهرية. وأصبحت هذه الصورة بمثابة الصندوق الأسود الثابت الذي تلجأ إليه لتفسير أي شيء وكل شيء عن الجماعة. وتراجعت في كتابات كثيرة آراء القرن التاسع عشر البالية التي كانت تنظر إلى الثقافة وكأنها قالب من الأعراف ولم تكن النزعة الوظيفية المبالغ في حتميتها وإطار القيم عند مدرسة يارسونز أكثر من تلك استنساغة وقبولاً، وعلى الرغم من أن دعاة مدرسة ثقافة الفقر، وهم من الأكثر تقدماً، من أمثال أوسكار لويس لم يرتكبوا الكثير من الأخطاء التي يتهمهم بها. وعلى نحو روتيني، غير المتخصصين إلا أن التفسيرات الثقافية لمشكلات الجماعة غالباً ما تكون تفسيرات بورية واختزالية وسكونية.

ولسوء الحظ إن هكذا كان الحال ولا يزال حين يستخدم محللون رجعيون وشخصيات عامة التفسيرات الثقافية ويرمون للمشكلات الاجتماعية للفقر إلى قيعهم ومن ثم يغسلون أيديهم وأيدي الحكام ودافعي الضرائب ويعفون الجميع من أية مسئولية للتخفيف عن الفقراء، حقا ربما كان السبب الرئيسي لتجنب علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع - وكلاهما مبحثان ليبراليان جدا - التفسيرات الثقافية هو أنهم واقعون تحت ضغوط قوية لشخصيات عامة رجعية أو ساذجة الفكر وتنبؤ الثقافة كتفسير داخله نفي فكري لإدانتها جزئياً بالتراخي.

وهذه الأخيرة هي فقط الأسوأ بين بعض الأسباب الشديدة السوء لرفض التفسيرات الثقافية. وسبب آخر من بين هذه الأسباب تلك الصلاة القدسية الليبرالية التي لا يزال ترتيلها مطرداً وتغيد بأن التفسيرات الثقافية تصل إلى حد لوم الضحية، وهذا وراء فاصح ومماثلة ساذجة تكشف عن سقمها. ولتأمل تلك الحالة الشائعة عن شخص يعاني من شعور بالدونية ويمارس سلوكاً ينطوي على تدبير للذات ويقال إن هذا نتيجة مباشرة لما عاناه من اعتداء جنسي عليه وهو طفل، وقد يتعاطف معه

شخص ما ويكشف عن اشكالات النفسية التي يعانيها هذا الآخر ويحثه على المماس
علاج نفسي . وإنه لعبث أن نتهم هذا الشخص بأنه يلقي اللوم على الصحبة .
ولكن هذا تحديدا ما يحدث عندما يُدان محلل مذهبنا بأنه فقط ألاج إلى أن بعض
مشكلات الامارة الأمريكية ربما تكون نتائج متساوية مرتبة على مكابهم ثقافيا
مع ماش بنى .

سبب سببى اخر للرقابة على التفسيرات الثقافية فى دراسة الأفارقة الأمريكيين
هو النزعة القومية العرقية وما يسمى الكبرياء الأسود إن الكبرياء العرقى الذى كان
يوما عامل تصدح مع ضرورى لقرون من العار العرقى والتنميط السلبي تحول الآن
مساوفا بالقسوة إلى تجيد عرقى وإلى نزعة محورية أفريقية . وأصفت الدراسات
العلمية على التعددية الثقافية عليها مشروعية أكاديمية . ومن ثم عيان كل باحث
يسنحضر تفسيرات تاريخية ثقافية للمشكلات الاجتماعية يتظرون إليه كعناصر حاء
داعيا إلى التناسى وليس للثناء . وأنه بذلك خطر يهدد الإصرار على مشاعر جيدة
إزا ، ماش قابن لأن يعود ، وثقافة ذات كبرياء ، وغير إشكالية بوسعها الحفاظ على
مكانها وترهوا بأكاليل الفار فى المهرجان الأمريكى العظيم متعدد الثقافات

ولكن ثمة سبب آخر للرغبة فى التفسيرات الثقافية الأ وهو سوء الفهم خاصة
من جانب أهل الاختصاص فى وضع السياسات وغيرهم من المعنيين بتصحيح الأدواء
الاجتماعية ، إذ يؤمنون بأسنحالة عمل أى شىء ، إزاء الثقافة وينبع سوء الفهم هذا عن
النظرة إلى الثقافة كشىء ثابت لا يتغير ويقترن بهذا السبب فى رفض التفسيرات
الثقافية إيمان الكثيرين باشها نغرة عنصرية للجماعة . ويكمن وراء هذا الاتهام كم
سهول من مفاهيم السخرية الفكرية ، لقد بدأت الدراسة الأنثروبولوجية الحديثة للثقافة
كرد فعل صريح معاد للعنصرية ضد النزعة العنصرية للدروينية الاجتماعية خاصة
تحت التأثير الليبرالى للنزعة النسبية الثقافية التى قال بها فرانز باوس ، والملاحظ
على مدى النصف الأول من القرن العشرين أن كانت الثقافة تحديدا هى ذلك الشىء
غير البيولوجى فى تطور الإنسان ، ولكن النزعة النسبية الثقافية لها أسلوبيها فى
نقويض دعائمها والهبوط إلى مستوى النزعة الجوهرية أى القول بإن الجوهر ثابت
مطلد وله الأولوية على أية تحولات ظاهرية . وهذا ما أسسرت إليه فى نفسى

لاستخدامها خلال السبعينيات على أدي كل من دعاة النسبية العرقية في أمريكا والمدافعين عن نظام العزل العنصري البارنهيد في جنوب أفريقيا.^(١٣) ومنذ عهد فريد. جدا وجه والبر بن ميشيل النقد ذاته للموجة الأخيرة من القديس العرقى فى أمريكا وأفاد والتر من ميشيل صراحة أن المفهوم الثقافى التعددى الحديث عن الثقافة والهوية العرقية تحول ببساطة ليكون الين عن النزعة العنصرية.^(١٤) وعلى الرغم من أن منتقدى النزعة الثقافية: التعددية من أمثال ميشيل يديون الاستخدام الثقافى التعددى للثقافة باعتبارها عنصرياً من زاوية شعولية عالمية، إلا أن الكثيرين من دعاة التعددية الثقافية يديون التفسيرات الثقافية وينفس الحماس بأنها عنصرية على نحو ما يتضح من تقرير دانييل بانويك موشيهان وسلسلة الهجمات ضده، وهكذا نجد عالم الاجتماع الليبرالى روبرت بلونر فى عام ١٩٧٦ يصف وفاقه الين فكروا دونية طبقة الأبارقة الأمريكيين وليس التمايز العرقى بأنهم دعاة نزعة عنصرية جديدة.^(١٥) وهكذا أصبح مفهوم الثقافة، على نحو لا يصدق، مصطلحاً عبثياً يجرى استعماله لأغراض سبئية، ومدسه كل من أصحاب النظرية الكلية وأصحاب النظرة النسبية بأنه مفهوم عنصرى فى صراعاتهم الفكرية مع بعضهم البعض.

وثمة سخرية أشد، وأنكى فى الهجوم على التفسيرات الثقافية باعتبارها عنصرية. ويتمثل فى أن جميع منتقدى النور التفسيرى للثقافة يقدمون سرا ومن باب خلفى استثناء، لسبب استخدام المفهوم وهذا الاستثناء هو استخدامهم فى الحرب الفكرية بين دعاة تأثير البيئة ودعاة لستمعية الجينية. للوراثة، ونذكر هنا ما كان يسمى حروب المنحنى الناقدوسى منذ بضع سنوات، وقت احتدام الجدل بشأن معامل الذكاء فى أضر دوراته فى أمريكا. إذ خسر ريفشارد هرنشستين وشارلى موراي الحرب بعد أنهما على الرغم من هذا وجهها إصابة بالغة نعام من عهد الدفاع الليبرالى عن الوضع السئى الذى يقضى بأن فارق الانحراف المعيارى الوحيد فى درجات معامل الذكاء، بين الأفارقة الأمريكيين والأوروبيين الأمريكيين يمكن تفسيره أساساً فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية الاجتماعية، واعتمد هرنشستين وموراي على الحكم الكبير من الشواهد والأدلة التراكمية ليوضحا أن هذا الوضع لم يعد مقبولاً، إن غالباً ما أفسدت التفسيرات الهيكلية للاختلافات فى معامل الذكاء ما يسمى أرثر جيسين الزيف

السوسبيولوجي والذي يشير إلى واقع أن المتغيرات الهيكلية المستقلة التي من المفترض أن تفسر دائما نتائج معامل الذكاء إنما هي نفسها حدثت جزئيا كنتيجة لمعامل الذكاء عند المفروضين.

إنني لا أنوي أن أعيد من جديد الجدل القديم بشأن معامل الذكاء ولكن أريد فقط أن أشير إلى أنه بعد أن استقر خيار المعركة ظهرت نقطة واحدة واضحة كالشمس، لها جانب سلبي وآخر إيجابي أما الجانب السلبي منها فهو أنه على الرغم من أن العوامل الجينية تفسر فقط جزءا صغيرا من الاختلافات في النتائج الاجتماعية والاقتصادية القائمة بين الأقران الأمريكيين والأوروبيين الأمريكيين إلا أن أيًا منهما لا يفيد كمييار لقياس المتغيرات الاجتماعية الاقتصادية مثل بخل الأسرة. وهذه نقطة مهمة ضاعت تقريبا وسط حرارة الجدل. ولكن أؤكد هنا نتائج حديثة العهد وأحيثها من جديد خاصة تلك النتائج التي تضمنتها دراسة تتصف بقدر من التعاسك العلمي فكبر من منحنى الناقوس، وأغنى بها فجوة درجة اختبار السود والبيض، وأشرف على تحريرها كريستوفر جنكس ومريدith فيليبس، وتتلخص النتيجة العامة التي توصل إليها فريق الباحثين فيما يلي أولاً، هوة درجة الاختيار بين الأقران الأمريكيين والأوروبيين الأمريكيين مهمة في الحقيقة لتفسير الوضع المهني والدخل قيمة بعد، هذا على الرغم من أن ما يجري قياسه ليس النكاح الفطري بقدر ما هو قياس مهارات تعليمية ومعرفية يمكن تعلمها. ثانياً، إن هوة درجة الاختبار هذه تفسرها جزئيا فقط خلفية الوضع الطبقي أو الاجتماعي للطلاب، أما القارق الموضوعي والكبير ففي الدخل والذي لا يزال قائما إنما يفسره على أحسن الفروض، نقطة واحدة من الفجوة المرقبة الضخمة في برجات اختبار الطلاب. والملاحظ أنه حين نضع في الاعتبار جميع عوامل الخلفية الاقتصادية الاجتماعية مثل الثروة والمهنة، فإننا نفسر فقط ما لا يزيد عن ثلث الفجوة العرفية وهو ما يماثل تقريبا تقديرات هرنشمان وهوراي.^(A)

إذا كانت الإجابة بشأن فجوة المهارات لا نجد لها في عامل التشبع الخاص بدرجات معامل الذكاء، ولا في الفوارق الاقتصادية الاجتماعية بين المجموعتين، إذن

أين نجدها؟ هنا نضى إلى الجانب الإيجابي لما ظهر من خلال الجدل بشأن منحى الناقد. الإجابة هي كلمة واحدة هي الثقافة. ويقول عالم النفس هوارد جارنر في نقده لمنحى الناقد المعتقدات والممارسات الثقافية تؤثر على الطفل منذ لحظة الميلاد على أقل تقدير وربما قبل ذلك ، وأكثر من هذا أنه حتى توقعات الوالدين إزاء الطفل الذي لم يولد بعد ووجود أفعالهما عند اكتشافهما لنوع جنس الوليد كل هذا له تأثيره ، وإن الأسرة والعلمين وغير ذلك من مصادر التأثير في الثقافة يشير إلى ما هو مهم بالنسبة للطفل في طور النمو، وهذه جميعها مسائل لها أثرها على المدى القصير والبعيد¹⁰¹

ومن الأمور ذات الدلالة أن ميريديث فيليبس ومعاونتها وجدوا أن نتائج اختبار الأطفال كشفت عن آثار واضحة وكبيرة هي نتيجة ممارسات الرعاية الوالدية، وتفسر ما يزيد عن ٢.٥ نقطة من فجوة الاختيار بين الأفارقة الأمريكيين والأوروبيين الأمريكيين. وأكثر من هذا أن ما نجره من ضيق ومراقبة أشار بقوة إلى أن هذه الممارسات جميعها بيئية.

وتدعم الدراسات النفسية هذه النتائج، ومن الأمور المثيرة للانتباه أنه قبل خمس سنوات من تاريخ نشر "منحى الناقد"، جاءت مفاجأة آرثر جنسن وهو دون منازع أكثر المدافعين دقة وتطوراً عن النظرة الجينية إلى الفوارق العرقية. ذلك أنه أعلن أنذاك هزيمته ونخيله عن مسلماته وأن الفرض الجيني سوف يبقى دون اختبار بأي طريقة محكمة ومقبولة لمدة غير محددة وأنها سوف تتجاوز على الأرجح أعمار علماء اليوم¹⁰² وقدّم عالم النفس ناتان بروبي عرضاً شاملاً لحالة المعرفة في هذا الموضوع وقال أسباب الاختلاف ربما نجدها في الخبرات الثقافية المتميزة التي تكتنف السود في الولايات المتحدة¹⁰³ وأجاب عالم نفس مبرّز آخر وهو ريتشارد نيسبيت على هرنشترين وموراي وانتهى في إجابته إلى النتيجة نفسها تقريباً. إذ دفع بأن هناك "فوارق منهجية ومنظمة في التنبؤات الاجتماعية للأطفال السود والبيض وتبدأ من انحدار. واستعرض عدداً من الدراسات التي تهتم إحصاءاً بأبناء الزواج المختلط

هناك الافتراض القائل بأن الأمهات أهم شأنًا بكثير من الآباء بالنسبة للتنشئة الاجتماعية العقلية للأبناء، وأن ممارسات التنشئة الاجتماعية للبيض تفضل اكتساب المهارات والتي تتمثل في درجات عالية في اختبارات الذكاء، وحسب هذا الافتراض لنا أن نتوقع أن أبناء زواج مختلط حيث الأم بيضاء والآب أسود سيحصلون على درجات في معامل الذكاء أعلى من أبناء زواج مختلط حيث الأم سوداء والآب أبيض. وهذا هو ما أكدته الواقع، إذ ثبت أن أبناء الزواج المختلط يحصلون على تسع درجات في اختبار الذكاء أعلى إذا كانت الأم بيضاء^(١٢)

وإذا كانت عوامل الانتخاب لا يمكن إسقاطها إلا أنها فيما يبدو تؤثر في الاتجاهين وأنهم ليس يسيرون على نحو عقول إلى نتيجة مفادها إن معامل الذكاء الأعلى للأبناء المولودين من أمهات بيضاوات يجب أن تعزوه أساساً إلى عملية التنشئة الاجتماعية^(١٣).

وثمة تجاهل شديد الواقع إزاء استخدامات هذا الضرب من النتائج المذكورة نواب وإزاء الاستجابات نحوها. إذ حين يجري استخدامها في الجدل بشأن معامل الذكاء دفاعاً عن الوضع الليبرالي والبيسي تكون مقبولة بل سرمد ما جاء بهاء المتحاورين. ولكن استخدام هذه النتائج ذاتها في أي سياق آخر يجعل المتحاورين ينظرون إليها تنقراً وبغضب شديد. لماذا؟ لأن مثل هذه النتائج أشبه بلعنة تحمل على الكرياء العرقي وسياسات الهوية والنزعة النسبية السائدة داخل الأوساط الأكاديمية الليبرالية. ولكن إذا حدث في أي سياق آخر أن تردت آراء فيليبس ومعاونيه والتي تقرر أن الوالدين اللذين يريدان أن يحقق أبنؤهما نتائج جيدة في الاختبارات (وهو ما يعني جميع الآباء والأمهات) فإن ممارسات الطبقة الوسطى في الرعاية الوالدية ستبدو فعالة. أو القول إن الفوارق العنصرية في ممارسات الرعاية الوالدية تبدو

أصبحت موهبة. كذلك الحال إذا قيلت حجة ببسبب التي نفرد أن الممارسات الثقافية
للأمم الأمريكية من أصل أوروبي أكثر كفاءة من ممارسات الأمم الأمريكية
من أصل أفريقي إذا قيل هذا في أي حرج أمهي سوف يدان قائلوها بأنهم
عنصريون أقبح ومتعصبون متصرفون للثقافة قومية

وهذه مسألة مثيرة لسخرية. إن الأفارقة الأمريكيين ومسانديهم الأكاديميين
أعجز من أن يختاروا الأمرين معاً، إذ لو أن العوامل الثقافية كان لها الأولوية
كأساس للتفسير في التحروب الإدارية بشأن معامل النكاح فسوف يكون من المنسحب
على النقاد أصحاب النزعة التعددية الثقافية وعامة الاجتماع الليبراليين أن يختزلوهم
إلى ما سمته مارجريت أرسو: وضع لتبعية الكسولة.⁽¹³⁾ إن هذه الرقابة الانتقائية
للاستخدام المهيمن لفهوم الثقافة شوهت وأمسدت دراسة التاريخ الاجتماعى للأفارقة
الأمريكيين وقضاياهم المعاصرة

وضيحي أن الحقيقة البسيطة والصريحة تتمثل في أن لا ضرورة لصراع بين
الاستخدام السببي للثقافة ومعالجتها في ضوء عبارات وصفية خالصة أو مشروطة
ويكمن عادة حسم الصراع على أن يفهم المتحورون أنهم يستخدمون مفاهيم مختلفة
عن الثقافة، وأن الدراسات السببية تنطلق غالباً من مستويات مختلفة في التحليل عن
مستوياتها عند تناولها في ضوء عبارات رمزية أو وصفية. علاوة على هذا فإن
التفسير الثقافى لا يلقى الأسباب الاجتماعية. والملاحظ غالباً أن الأهم والأكثر إفادة
في أي دراسة تحليلية هو تحديد وتفكيك التفاعل التفسيري المعقد بين العوامل الثقافية
وغير الثقافية ويمكن في هذا التفاعل أن تكون كلا من مجموعتي العوامل عوامل
مستقلة ومشروطة في نموذج سببي واحد. ويجب أولاً أن نفهم أن التفسير لا يعنى
اتخاذ نظرة حتمية. وأنكر هنا ما قاله جود إاتف ساعدنا البيولوجيا على تفسير
السلوك البشرى ولكنها لا تحده ولا تجعله حتمياً، كذلك بالمثل تساعدنا الثقافة على
تفسير السلوك ولكنها أيضاً لا تحده على نحو حتمى.⁽¹⁴⁾

مفهوم الثقافة

أغنى بالثقافة رصيدا من الأفكار تنتقل اجتماعيا وتولد عبر الأجيال عن كيفية العيش وإصدار الأحكام سواء عامة أو فيما يتعلق بعجالات محددة ومميزة للحياة. إنها منظومة معلومات ذات مستويات متباينة من الخصوصية فهي عند أحد المستويات عامة كأنها إطار من أفكار عن الأساليب التي تعرض بها الذات نفسها في نطاق عام؛ وهي على مستوى آخر منظومة معلومات صفري تصف أقل وسيلة لصناعة أطعمة يشتهر بها المجال مثل الممص بالكارى أو القديد. وهذه المنظومة المعلوماتية كما غير عنها جود إناف في جملة واحدة أكثر مما يجب على الناس تعلمه لكي يتسنى لهم العمل على نحو مقبول كأعضاء في جماعة اجتماعية والمشاركة في الأنشطة التي يباشرها أعضاء الجماعة مع بعضهم⁽³⁶⁾ والثقافة كما أوضح أوجين هن هي مفهوم يتناول بالضرورة ما هو ملائم شكليا وأيضا ما هو كفه وفعال أيكولوجياً. ومن ثم فإن الثقافة هي ما يعين على المرء معرفته للعمل على نحو كفه في بيئة ما.⁽³⁷⁾ والثقافة من ناحية أخرى تشتمل على سلوك منقول مناهض اجتماعيا وليس فقط السلوك المقبول من جماعة ما⁽³⁸⁾ وهذه نقطة لها أهمية خاصة بالنسبة لمن يدرسون تجربة الأفارقة الأمريكيين نظرا لأن العمليات الثقافية التي يريد البعض أن يفهمها تكون غالباً هي على وجه التحديد العمليات المنحرفة وغير المقبولة سواء لدى المجتمع الواسع الأوروبى الأمريكى أو لدى جماعة الأفارقة الأمريكين. ونحن لا نستطيع أن نقصر الثقافى فقط على ما هو معيارى.

وأنا ألتزم بالتصبيحة المهمة للغاية التي قال بها روجر كيسنج إذ يرى أن من الأفضل تضييق مفهوم الثقافة بحيث يتضمن الأقل ويكشف الأكثر.⁽³⁹⁾ وهكذا يحدثنا روى داندراد عن نظرية جزئية عن الثقافة، أى نظرية عن أجزاء الثقافة وتكوينها وعلاقتها بأمور أخرى.⁽⁴⁰⁾

والثقافة يكتسبها أو يتعلمها الأفراد. إنها ما يعرفونه، ولكن هذا لا ينفي وجود بُعد جمعى أو مشترك للثقافة، كيف يمكن لنظرة فردية باطنية عن الثقافة أن تتوافق مع أية فكرة عن الثقافة كمجموعة ظواهر تمثل قاسما مشتركاً يجرى هذا من خلال مفهوم التعاذج الثقافية، كما يؤكد كيسنج، والتي هي فى آن واحد ثقافية وعامة شأن

معارف الناس التي تراكمت تاريخياً وتجسيديات اللغة والمعرفى أو الإدراكي في صورة
نظر معرفية نبني العالم على هديها.^(٢٦)

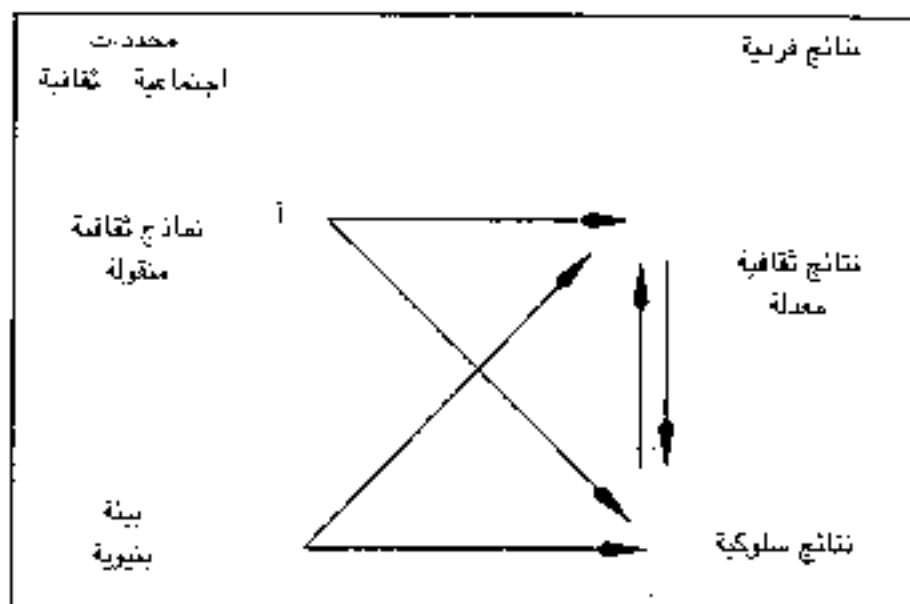
ولكن هذه النماذج ليست مجرد صندوق عدد وأنوات على نحو ما أكدّت أن
سويدار، عالمة الاجتماع في ورقة بحثها التي يأتي نكرها كثيراً.^(٢٧) وإذا كانت هي
نظرة قيعة عند علماء الاجتماع لكي يؤكدوا دور العنصر الفاعل في التحليل الثقافي.
إلا أنها تشغل في إدراك وتعميد وجهين آخرين حاسمين للثقافة. وإن صندوق العدد
والأدوات لا تقع منه إذا لم يكن هناك ما نصنعه أو نعمله وإن العناصر الثقافية هي
دائماً، أولاً، خطط للعيش، ومخطط عام للكيفية التي يفكر بها المرء، ويعكم ويعمل
أشياء في حياته. كذلك يكون صندوق العدد والأدوات لا نقتسح منه بدون الصبرة
أو المهارة اللازمة لاستخدام العدد. وتعتبر النماذج الثقافية كذلك قواعد ومبادئ لبيان
كيف نحقق وننجز الخطط الثقافية

ويبور بعض الجدل حول مصدر هذه القواعد. من المرجح أن ذات القدرة على
صناعة القاعدة والتي توجه تحصيلنا للغة هي أيضاً تعمل من أجل اكتساب بعض
النماذج الثقافية، خاصة نماذج السلوك الاجتماعي. وإذا كان المرء يستنتج بعض
القواعد بفضل قدرته الفطرية على صوغ القواعد، إلا أنه يكتسب أخرى عن طريق
التعليم، ويستمد بعضها بطريقة تجمع بين المنهجين.

ويعارض دوروثي هولاند ونعموس كورين أية دراسة نمطية للنماذج الثقافية
ووضعها في "نماذج من" أو "نماذج لأجل" كما ذهب البعض. ويقترحان بدلا من ذلك:

"يجري استخدام النماذج الثقافية الأساسية للنظام ذاته -
وهي بعض الصالات النموذج الأساس نفسه - لأداء ضروب
متباينة من المهام المعرفية المختلفة. وتفيد هذه النماذج الثقافية
أحيانا لتحديد أهداف العمل، وتفيد أحيانا أخرى لتخطيط نهج
تحقيق الأهداف المطلوبة، وأحيانا ثلاثة لتوجيه الإنجاز العملي
لهذه الأهداف، وأحيانا رابعة لفهم دلالة الأعمال، وسبب تور
أهداف آخرين، وتفيد علاوة على هذا لتزويد تعبيرات يمكن أن
تؤدي أنوارا متباينة في جميع هذه المشروعات وكذا هي تفسير
ما حدث بعد ذلك."^(٢٨)

معبارة أخرى فإن النماذج الثقافية هي انقالب السوسولوجي للحلما الجذعية البيولوجية Biological stem cells كيف تكتسب هذه النماذج؟ بوساطة الوراثة من جيل سابق عن طريق التثنية الاجتماعية. والتعلم بين أبناء الجيل من الأة وان وانظرا، وآخرين من نوى الحيثية عن طريق المحاكاة والتعلم، وكذا بطريفة عبر مباشرة عن طريق فعاليات مختلفة مثل وسائل الإعلام اتجيباً أو الشخصيات العامة. وإننى أتفق مع روبرت بويد وبيتر ريتشيرسون فى أن التعلم الاجتماعى هو نقل استعدادات سلوكية مستقرة، وأن الاستقرار هنا يعنى تلك الاستعدادات المستقلة عن الأحداث البيئية غير المتوقعة^(٦١) وإذا كنت سوف أعتمد فيما بلى على النظرية الثقافية عند بويد وريتشيرسون، إلا أننى أريد أن أوضع أننى أختلف معهما من حيث أننى أدرج ضمن نماذج التطاق الثقافى لسلوك كل ما ينطلم المرء من خلال المحولة والخطأ عند استجابته إزاء تفاعلاته مع الآخرين والقوى السنية أو البيئية



شكل ١٤ - ١ التفاعلات بين النماذج الثقافية والبيئة السانحة والنتائج السلوكية

وحرى أن نشير هنا إلى «معلمين ثقافيتين آخرين، الأولى أنه يجب ألا نخلط بين النماذج الثلاثة والسلوك، ويلحظ بويد وريبنشيرسون أن تخصصين لهما مجموعتان متطابقتان من الاستعدادات المكتسبة ثقافياً يمكن أن يسلك كل منهما على نحو مختلف عن الآخر تماماً في بيئتين مختلفتين»^{١٧٤}. ثانياً: إن التغيرات الثقافية والقوى التي تفسر التباينات وحالة عدم الاستقرار لهما نفس درجة الأهمية في أي نظرية عن الثقافة التي توليها ثقوى التي تقضى إلى نقل النماذج المستقرة.

النهج التفاعلي مع الثقافة والبيئة البنائية: مثال من الأفارقة الأمريكيين

اسمحوا لي أن أصور العلاقة بين الثقافة والبيئة الاجتماعية من خلال مثال من التجربة الأفروأمريكية إن النماذج الثقافية والعوامل البيئية أو البنائية لها عاندها الثقافي والسلوكي بالنسبة للأفراد، وينتج عنها نموذج سببي يتألف من أ - نماذج ثقافية موروثية عن الجيل السابق، ب - نماذج ثقافية معدّنة هي نتاج تغيرات طرأت على النماذج الموروثة بسبب أخطاء منقولة عند التعلم والمحاكاة، وكذلك بسبب ملاحظات لاستراتيجيات جديدة للتكيف مع البيئة من خلال المحاولة والخطأ ج - مجموعة الأحداث الطارئة البيئية وكذا البنائية بخاصة د - النتائج السلوكية التي تريد تفسيرها. ويوضح الشكل ١٥ - ١٦ هذه التفاعلات السببية.

وإنفترض أن (د) هي المشكلة المطلوب تفسيرها وهي المعدل المرتفع حالياً لهجرة الأب للأطفال بين الأفارقة الأمريكيين ويبلغ هذا المعدل الآن ٦٠ بالمائة بين جميع الأطفال الأفارقة الأمريكيين. وهذه المشكلة الوحيدة الأكبر لدى الجماعة، وهي أيضاً مصدر مشكلات أخرى كبيرة. ترى ما هي التفاعلات السببية التي تفسر هذه المشكلة السنوكية؟

ورث الجيل الراهن نموذجاً ثقافياً (أ) الذي نشأ أصلاً في بيئة سابقة وهي العبودية (١٦٤٠ - ١٨٦٥). ثم تكيف بعد ذلك مع بيئة ثانية ونقل عبرها الحصار المرهون أو الغلة المشتركة (١٨٨٠ - ١٩٤٠) حسب نظام المزارعة. نعرف أن الأفارقة

جلبوا كعبيد وأتوا معهم نماذج محددة من نظام القرابة وأدوار الحنوسة ومفاهيم عن العلاقة الجنسية والرعاية الأبوية ولكن النظام الجديد اكتسح وأطاح بالغالبية العظمى من هذه النماذج. خاصة دور الأب والزوج إذ لم تعد له شرعية أو سلطة. ولم يعد للرجل حق القوامة على الزوجة أو الأبناء. ولكن نموذج غرب أفريقيا لخصوبة للغاية والاعتماد بأن ذكورة الرجل ومكانته ومن عدد أبنائه تشابك مع متطلبات نظام العبيدية. وكان أحد الهموم الأساسية لهذا النظام هو الحاجة إلى المزيد من السكان العبيد، خاصة بعد إلغاء نظام تجارة العبيد عام ١٨٠٧. ومن هنا شجع أصحاب المزارع قيام وحدات تناسلية ثابتة. والنتيجة نشوء نمط سلوكي نجد فيه تثنى مجموع الزوجات تتألف من رجل وامرأة وأطفالهما. وثلاث من نساء تركهن أزواجهن ويرعين أطفالهن بمساعدة أقاربهن.^(٣٦)

ويسبق لي أن نقف في كتابي "شعائر الدم" بأن الزعم بأن الزوجات القاشة بين رجال ونساء عبيد هي "زواج" وأن البيوت التي يقيمونها أسر نواة مستقرة إنما هو تزييف سوسبيولوجي. ذلك أن تركيز الاهتمام البحثي التصحيحي على الشكل البنائي لزوجات العبيد حرق الانتباه بعيدا عن الأداء الوظيفي لها وعن طبيعة العلاقات التي شكلت هذه الزوجات وعن النماذج الثقافية المقترنة بها، إن الغالبية العظمى من الرجال لم تتح لهم فرص الحياة المنتظمة مع زوجاتهم. وإن نصف أصحاب الزوجات المستقرة عاشوا في مزارع أخرى، وثلاث من لهم أبناء لم تكن لهم مثل هذه الزوجات المستقرة. وعن ثم، وتأسيسا على الأرقام التي قدمها المؤرخون النصححيون نجد على الأقل أن ثلث البالغين من الرجال ممن لهم أبناء لم يعيشوا في القر نفسه، بل وغالبا لم تكن لديهم فرصة العيش في المزرعة نفسها التي تعمل فيها زوجته وذريته. علاوة على هذا كانت كل مقاطعة تضم فريقا من الرجال الذين هجروا زوجاتهم وليس معهم أبناءهم. ويؤلف هؤلاء ما بين ١٠ إلى ١٥ بالمائة من مجموع الرجال، والذين يتعين عليهم الاستجابة لاحتياجاتهم الجنسية بطريقة أو بأخرى. وهكذا فإن الغالبية العظمى من الرجال (ثلاثة أرباع الرجال على الأقل) اعتنقوا أن يعيشوا أطول فترة من حياتهم يعيدون عن أي بيت مستقر مع أطفالهم بما في ذلك عدد كبير ممن نعتبرهم في زوجات مستقرة. علاوة على هذا، فإن العبيد أيا كانت

طبيعة زيجاتهم نابرا ما كان يتوفر لهم وقت للتفاعل مع أطفالهم. إن الموضوع كله بالنسبة للعبيد هو أنهم عبيد، ويحملون عبداً.

وبعد قرنين ونصف ظهرت نماذج ثقافية عديدة استجابة لهذا النظام، أحدها نموذج الجنسانية التحويلية أو النشاط الجنسي التحويلي، ونظراً لأن الوضع الجديد يذكر على الرجال أي ادعاء بالمكانة في المجتمع الأوسع، أو أي ادعاء بالمشروعية إزاء الزوجة أو الأبناء فقد أدى هذا بالرجال إلى ترسيخ نموذج منقول معهم من غرب أفريقيا خاص بالفحولة والخصوبة العالية كرمزين للكبرياء والمكانة لدى الذكر. ويرتبط بهذا برباط وثيق نموذج الرعاية الأبوية غير الأمنة، وهذا نموذج غير أفريقي. وإنما هو تكيف مباشر مع النظام العبودي. وتظاهر السيد بالمسئولية عن أن يعيل أبناء العبد، وشجع الكبار على إنتاج أكبر عدد ممكن. وربما انهمك بعضهم عن عمد في ذلك وكأنه تخصص للإنتاج.^(٣٧) ونظراً لأن السادة أرادوا امتلاك نتاج العلاقة الجنسية لعبيدهم الذكور فقد شجعوا العبيد الذكور على معايشة العبيد النساء الموجودات في مزارعهن. وأدت هذه الزيجات أيضاً إلى خفض كبير جداً في كلفة ضبط وتوجيه العمالة نظراً لأن العبيد المقيمين في مثل هذه الزيجات التناسلية المستقرة أقل رغبة في الهرب. ومع هذا، وكما أشرنا أنفاً، فإن نصف الزيجات المنتظمة فقط للعبيد هي التي جمعت بين الرجل وشريكته على أرض مزرعة واحدة.

ونشأت نماذج أخرى مكملة للنموذجين السابقين، الأول نموذج التمركز حول الأم الذي يثبت بدرجة عالية علاقة الأم - الطفل ويقوِّمها على حساب رابطة الأب - الطفل، ونموذج آخر هو استقلالية الأنثى، وهو نموذج منقول ولكن بيئة العبودية دعمته وعدلته. والمعروف أن مجتمعات غرب أفريقيا التقليدية لم تتألف من مستوى المشاركة الاقتصادية للزوجة واستقلالها النسبي. ولكن هذا النموذج المنقول دعمته بقوة العيانية الاقتصادية بين الجنسين داخل النظام العبودي بالنظر إلى العبيد. إذ كان النساء يعملن على قدم المساواة مع الرجال في الحقول. ثم إن الطلب على المزيد من العبيد عزز طاقة العبيد على الإنتاج، وعلى الرغم من أن الملاك شجعوا كلا الجنسين على التكاثر إلا أن الملكية الشرعية لذرية العبيد تحددها الأم حقا إن بعض

الملك نجبروا بقوة للروابط الأسرية الأنثوية أي الحرص على الاحتفاظ بالعلاقات بين الأخوات والأم - الأب وغير ذلك من روابط التمركز حول الأم معما يعتمدون يفاد، وه ضارية إلى بيع الأبناء والأخوة^{١٧٨}

أخيرا كانت هناك حفيظة بسيطة ونسابة وهي أن العبيد الرجال افتقروا إلى الشيء الوحيد الذي يعتمد عليه جميع الرجال الآخرين عند الهيمنة على المرأة التحكم في الممتلكات. وأدت النماذج المرتبطة بثرأة إلى ترسيخ التعويضين التذكيريين موضوع الدراسة الجنسانية التعويضية والرعدية الأبوية غير الامنة أو عديمة الحيلة. غير أن العبيد تعموا أيضا الكثير من التماذج الثقافية الأخرى على مدى فترة العبودية إذ نثر العبيد الأمريكيون، بحكم الضرورة نائرا قويا بالنماذج الثقافية للأولاد الأمريكيين، وتبنوا وعدلوا من لغة وديانة وموسيقى مملكتهم (إذ اكتسبوا بعض جوانب موسيقاهم). وتبنوا بطبيعة الحال نماذجهم المتعلقة بالجنوسة والعلاقة الزوجية والأسرية. وعلى الرغم من أن بعض هذه التماذج، مثل المثل الأعلى الأبوي النسقة وللزواج المشروع والأسر والتي يكون فيه الزوج - الأب العائل الرئيسي، كانت بعيدة المنال بالنسبة للعبيد (وتم استفادتها كمثال علما في التفكير) إلا أن نماذج أخرى مثل ازواجية المعيار الجنسي، والجنسانية القائمة على الاغصاب من جانب كثيرين من رجال الجنوب الأورو - أمريكيين كانت داعمة للنماذج الطارئة للجنسانية التعويضية والتي ظهرت بين العبيد الذكور

وتضمن نظام المأصصة الذي جرى تضييقه عقب مرحلة العبودية سمعتين لهما أهمية خاصة. الأولى، أنه على الرغم من إلغاء حق ملكية شخص لشخص آخر عام ١٨٦٥ إلا أن ثقافة العبودية لم تختف. والحقيقة أنها ترسخت أكثر بعد نهاية مرحلة إعادة البناء وأبقت على إنكار الرأي العام على الذكر الأفروأمريكي حقه في الشرف والذكورة. وطبيعي أن كان الأسلوب الكلاسيكي الذي يتبعه الجنوب لتحقيق هذا هو الإعدام بدون محاكمة قانونية والذي كان، كما أوضحنا في مكان آخر، ضربا من الاحتفال الشعائري بالنضحية البشرية والتي تبلغ ذروتها في الخصاء الرمزي والحرفي للذكر الأفروأمريكي.

القسمه الذابجه المهمه لنظام المحاصصه بنعمل فى انه على الرغم من ان الرجال
الافروامريكى - حروم من اغلب أشكال العمالة ذات القصة والمعنى ومحروم كذلك
من املاك ارض إلا انه كان بإمكانه الحصول على أى ارض زراعية مادام قد عمل
نظام المحصول المربهنز. وكان لهذا النظام نتاجه المدمرة. والى لخصها طويلا
فى ما يلى

"الشخصية" الشخصية بالتكوين المرجا والمفانقر للأسرة
اقترون غالبا بوضع مصدر وهو أن تميمين أسرة داخل
الاقتصادات الزراعية ليس فقط أمرا غير ضرورى للسود
الريفين. بل وكان أمرا غير ذى حدود إلى حد كبير. كذلك تم
فرض قيود على الفرص الاقتصادية الريفية بسبب عدم توفر
تسمى لفرص العمالة غير الزراعية للسود عمالة على المفاخ
العنصرى المعادى الذى ساد بعد الحرب الأهلية.^(١٢)

ماتان القسمتان الجديدتان فى البيرة شجعتا بقوة على ظهور نمط الزواج المبكر
والخصوية القائية إذ إن الوسيلة الوحيدة أمام الرجل لكى يشق طريقه على الحياة هى
الكدح إلى أقصى حد ممكن فى الأرض المتاحة له. وإن الوسيلة الوحيدة للحصول على
عذا العمل تتوفر له من خلال زويته وأبنائه. وهكذا أعقب العبودية ميل سلبوكى نحو
الزواج وتكوين أسر كبيرة بين جماهير الافرو أمريكبين الفقراء. والملاحظ أن الرجال
والنساء من بين الطبقة الوسطى الصغيرة والطبقة العاملة فى المدن و اى لا تريد
حجب عن تلك. أصبح يوسعهم أخيرا تحقيق المثل الأعلى التنفاسى للزواج. وتكوين
زيجات محترمة وأبوية بعد العبودية. وهذا ما فعلوه وساعد إيمانهم الأسولى على
ترسيخ هذا الاتجاه. بيد أن ما يعنينا هنا هو التطورات بين جمهور الخاضعين لنظام
المحاصصه فى الريف.

ما الذى كان يجرى بين جمهور الفقراء الخاضعين لنظام المحاصصه ورا -
زواجهم الشكلى المبكر وأسرعهم التكويرة الشئ. المفجع أن هذا النظام وسخ
التميزجين النكريين الذين نشأ خلال فترة العبودية أولاً. وسخ نموذج الآبوة نمز

الامته. لم يكن على الرجل أن يفكر مليا في أمر موارده قبل أن ينهب الأرض وغيرها من وسائل الإنتاج المتاحة. إن كل ما يحتاجه هو الأيدي العاملة - من امرأة طليبة قوية ضامنا لأكبر عدد من النسل. والمفجع أن الأبناء كفوا عن مساندة الأب بدلا من أن يحدث العكس (إن كانت الأسر غير ذات كيان خلال هذه الفترة نظرا للاستغلال المفرط للأبناء). وكان الأبناء ممنوعين في الغالب الأعم من تحصيل أي قدر من التعليم حتى الإبتدائي ضامنا لخدمة هذا الغرض.

تاليا - السخرية البشعة من رجولة الأفروأمريكي على أيدي مجتمع السادة الأوروأمريكيين أدت إلى تعاطف الصاحبة إلى التعويض الذكوري من جانب الجماهير الفقيرة من الذكور الأفروأمريكيين. كان الأفارقة الأمريكيين محرومين من أي فرصة لإثبات جدارتهم وقيمتهم في المجتمع الواسع، محصورين أو أسرى وضع يشبه وضع الأفغان، وعرضة للسخرية والاستهزاء للوجه الأسود مع الغناء الجماعي على القيثارة طبقا للثقافة الشعبية في النصف الشمالي من البلاد. ودلالهم بوحشية وضراوة في أعمال عامة وضيعة وطقوس الضعاء حيث يسكن ويقيم الأفريقي. في مثل هذا الوضع لم يكن أمام الأفروأمريكي من وسيلة للتعبير عن رجولته إلا وسيلة واحدة الفحولة والتحكم في المرأة. ولكن النساء اللاتي يربون التحكم فيهن كن خارج حدود سيطرتهم. وهذه ثمرة قرنين ونصف في ظل عذاب العبودية والحيابية - الجنوسية. وكانت النساء في أعماقهن ساخطات على هذا السلوك التعويضي خاصة حين أخذ صورة الخيانة الزوجية، والسوء الحظ لم يكن لأغلبهم فرصة للاختيار سوى أن يبقين محتفظات بزواجهن حيث المزرعة التي يعملن عليها نظرا لانعدام الفرص أمامهن كما هو الحال بالنسبة للرجال. والتمسكن الدعم والعزاء من قريباتهن. وفي هذا السياق، كما تقول أنبينا واشنتنن تفهم بسهولة الأوهام القوية التي تلحظها بين الأمهات السوداوات وأبنائهن، والقيمة الكبرى التي توليها المرأة، كما تلحظ، لزوجها كأم، وأولوية هذا كله على دورها كزوجة وعاملة. (٢)

هنا إذن وراء الهدوء الظاهري للوحدات المؤلفة من والدين جسيما سجلت الإحصاءات السكانية. والتي تعتبر بؤرة الاهتمام الوحيدة للمؤرخين التصحيحيين، تطور أكثر وأكثر النزاع بين الرجال والنساء الأفروأمريكيين، وتولدت النماذج الثقافية

الذكورية خلال العبودية. وهذه هي التي انتقلت مع حركة الهجرة الواسعة إلى الشمال واستمرت حتى وقتنا هذا في المدن الرئيسية. وهذه هي الفترة التي أنقل إليها الآن.

تضيق النقطة (ح) في الرسم إلى التفسير الثنائي الغالب للسلوك والذي يؤكد علماء الاجتماع. وأوضح الأمثلة في هذا البطالة والدخل المنخفض، والآثار المترتبة على الجوار في المواصلات المنفصلة وكذا التمييز العرقي والجنس في العمالة. ويندرج ضمن هذا أيضا برامج الحكومة التي تهدف إلى مساعدة الفقراء، الائتمان الضروي على الدخل وأيضا برنامج AFDC وما أشبه. وثمة قسمة أخرى مهمة لهذه البيئة وذات أهمية خاصة بالنسبة للأفارقة الأمريكيين إلا وهي أهمية صناعة الرياضة والفرص التي توفرها لقلّة ولكنهم نجوم رياضيون نوابغ شأن كبير جدا. والملاحظ أن هذه الأوضاع وإن بدت مهمة في أي تحليل نهائي إلا أنها لا تفسر بشكل مباشر سوى جزء ضئيل من النقطة د.

ودفع كثيرون بأن التوقعات الاقتصادية المتدنية للشباب من الأفارقة الأمريكيين في المدن تفسر كلا من انخفاض مستوى معدل الزواج وارتفاع معدل الولادات غير الشرعية.⁽⁷³⁾ وأشار آخرون إلى وضع عمالة المرأة وعلاقة ذلك بشركائهن.⁽⁷⁴⁾ وقد يكون صحيحا، كما أشارت أخيرا كاترين نيومان، من أن الرجال الذين يفتقرون إلى ما يجعل منهم آباء جيدين، غالبا ما لا يكونون كذلك.⁽⁷⁵⁾ ولكن تظل حقيقة واقعة وهي أن الفقر لا يفضي إلى حالة الهجر الواسعة النطاق التي يتخلى فيها الآباء عن الأبناء. وهذا ما تشهد به تقريبا كل الجماعات العرقية الأخرى في أمريكا بما في ذلك المكسيكيون الأمريكيون الذين ترتفع مستويات الفقر بينهم إلى أعلى من الأفارقة الأمريكيين. ونشهد أيضا لدى جميع المجتمعات البشرية تقريبا بما في ذلك الهند بكل كثافتها السكانية المهولة وما يعانيه سكانها من فقر وبطالة. وواقع الحال أن أفضل المعلومات المتاحة تبين ضعف العلاقة بين توفر الوظيفة ومعدل الزواج.⁽⁷⁶⁾ وأكد مؤخرًا الاقتصادي جورج أكيرلوف أن الزواج يفسر نشاط قوة العمل لدى الرجال علاوة على الكثير من النتائج الاجتماعية الأخرى الطيبة. ذلك أن الرجال المتزوجين يحصلون على أجور أعلى، وأكثر ميلا للبقاء ضمن قوى العمل وأقل ميلا للبطالة بسبب ترك العمل كما أن معدلات البطالة بينهم أقل كثيرا. وهم أميل إلى العمل وقتنا كاملا ونقل رغبة

في العدل لغمره مضمونه في السنة¹⁴ ويذهب أكبرلوف إلى أن تعبير العوامل الاجتماعية (بمعنى ذلك أساسا ما نسميه نحن النماذج الثقافية) يفسر الهيوط الحداد في معدل الزواج على مدى العقود الأربعة ويرى أن هذا الاتجاه يفسر حسب تقديره جزئياً مهماً من زيادة الجريمة وغيرها من مشكلات اجتماعية. ولكنه لا يبدل أي محاولة تفسر هذه التغيرات الثقافية، وربما كان إسعاطه للتغيرات الاقتصادية عملاً سابقاً لأوانه. ونة، رح هذا نوع لتمودج، فدا على أفدر على تفسير كيف أن الأماط الثقافية تتفاعل مع الأماط البنائية وتتولد عن ذلك نتائج غير مرغوبة

هذا يمثل النموذج للثقافي المقبول (أد) إجابة ممكنة إذ من الممكن بقينا أن اعلت هفيرة من الرجال الأفارقة الأمريكيين الفقراء يحققون في الواقع العمل نماذج الرعاية الوالدية التي تعلموها من الجدل السابق. بيد أنني أعتبر مثل هذه النتائج المباشرة ثانوية شأن النتائج البنائية المباشرة أولاً، لتتذكر أن النماذج ليست هي السلوك ذاته، وإن الغالبية العظمى من رجال الأفارقة الأمريكيين الذين تعرضوا لهذه النماذج إنهم تبينوا من الواقع نماذج أخرى ويسلكون سلوكاً مختلفاً. وأنا لا أمك المبالغة عن التأكيد على النقطة التالية، واقع أن ٦٠ ٪ ينشأ من الأطفال الأفارقة الأمريكيين بدون بناء، لا بعض من نسبة مئوية مماثلة من الآباء الأفارقة الأمريكيين هجروا أنماطهم والحقيقة أن الغالبية العظمى من الآباء الأفارقة الأمريكيين يسلكون سلوكاً ينضوي على مسنوية نجاه أبنائهم ويهجون وفق التيار الرئيسي لنماذج الرعاية الأبوية، والصحيح أن أغنية من الرجال الفقراء، عادة ذوي التعليم، لحدود هم من يكتفون عن مثل هذا السلوك، ولكن نظراً لارتفاع معدلات التصحية لديهم يسهي الأمر بالنسبة إليهم يخلق مشكاة الحرمان من الأب لدى غالبية من الصبل الأصفر للجماعة كلها. وإنه لخطأ كبير أن نقال من تقديرنا للنماذج المترتبة على نطاق الجماعة للسلوك التكاثري لهذه الفلة من الرجال مثلما أنه من الغضاً أيضاً أن معمم الأمر على الآباء الأفارقة الأمريكيين على أساس نماذج وسلوك هذه الأقلية

ونجد في المقابل التفسيرات الأساسية لنتائج السلوكي د متعل في المسارات غير المباشرة (ج ب د) (و أ ب د) وكذا المسار اللولبي المركب السببي مثل (ح د ب د).

ولذلك نأمل أولاً المسار (ج ب د) أعطانا كى ريبوار تحدياً مائراً (ولا يزال هو الأمام) لهذا المسار¹⁴⁵ وفتح بأن ثقافة الطبقة الدنيا تمثل مآلات تكيف مع متطلبات المجتمع بعبء الأداء المتوسط والموارد التي يمكنهم أن يستطروا عليها في حياتهم اليومية¹⁴⁶ وبينما يتمسك الرجال والنساء من الطبقة الدنيا بالعايير الرئيسية فإنهم يطورون تقنيات بقاء تعمل على عالم المسائل غير المبروتة ومع الزمن تكسب تقنيات البقاء هذه نتائج الألعاب البديلة. ولها قواعد خاصة الموجهة للسلوك. ولكن قواعد التشغيل هذه نادراً ما تتبع وتديم تحدياً ثابتاً للصواب المعايير الأكثر للمجتمع والحاكمة لعلاقات بين الأشخاص وكذا الكائنات الأساسية الاجتماعية في الزواج، والعلاقات بين الأبناء وما أشبهه¹⁴⁷ وبدلاً من هذا تكسب الثقافة التنبؤية للطبقة الدنيا استقلالاً وظرفياً محبواً عن الثقافة التقليدية العامة حيث المعايير الاجتماعية الحاكمة الدنيا يكون لها ضرب من الاستقلال الذاتي الموظف في الحدود مقابل بقية المجتمع. ولشيء الفاجع أن هذا الانعصال الحادث بين الالتزام القاتل إزاء النماذج الثقافية الرئيسية للسلوك الأبوي، فأنتم من جاشد. الأم هو الذي يؤدي إلى نتائج السلوكي للثقافة بين الزوجين وتخلي الأب عن الأبناء. إذ فإن الرجل يكونون في نهاية السعادة فقط حين يعيشون مع نسوة بصبر على إغراقهم في المغازلة، ولكن نسبة الطبقة الدنيا من الأفارقة الأمريكان برين مصلحتهم في رفض هذا وإبتار ممارسة دور الأم الوحيدة أكثر من الوصول إلى حل بسيط مع النماذج الثقافية المستقرة في أعماقهم بشأن ضرورة السلوك الصحيح الأبوي والزوجي وثمة أعد مهم في النموذج (ج ب) وهو أن البيئة الحضرية الحديثة تقدم لأول مرة فرصاً اقتصادية أفضل نسبياً للمرأة علاوة على ما تقدمه الدولة من إعانة رفاه. وهكذا، على عكس زوجات حقبة نظام المحاصصة غير مجبرات على العمل نماذج ثقافية وسلوكيات ذكورية تمثل انتهاكاً لنماذجهم الثقافية ولحسن الخاسر بالاستقلال. وهنا يكون نموذج (ج ب د).

وحرى بنا أن نلاحظ أن هذا التفسير يميزه ويعلو من قيمته أنه يضع في الاعتبار النماذج الثقافية للمرأة ووضعها. للاقتصادى الاجتماعى مثلما وضع في الاعتبار

نماذج الرجال وسلوكهم بدلا من أن يقتصر ببساطة مخرطة على ظروف الذكر (ج د)
عند تفسير النموذج (د)

ويشير المسار (أ ب) إلى تعديل النماذج الموروثة تحت الضغط البيئي (ج)
واستجابة لاستراتيجيات التكيف التي ناقشناها تواتر. ونحن نرى الآن أن كلا من
نموذجي الرعاية الأبوية غير الأمانة والجنسانية التعويضية دعمتهما مجموعة الأحداث
البيئية الجديدة. وتلازم النموذجان الآن في نموذج جديد يسمح أحيانا بأن له حدا
بعض من الكراهية للنساء، إذ الملاحظ أن الرجال من أبناء الطبقة الدنيا نوى التحصيل
العلمي المنزلة، والأجور العالية على نحو غير واقعي، أصبحوا غير متلائمين مع
مجتمع ما بعد التصنيع الذي ظهر إلى الوجود مؤخرا، والأسوأ من هذا فيض
الهنرات بعد عام ١٩٦٥ لعمالة متدنية للمهارات، والذي انضاف إلى المنظومة.
ويفضلهم أصحاب الأعمال في الكثير من المدن الكبرى.^(٢٩) وأدى كبرياء وتطلعات
السود إلى مستويات مرتفعة من الاعتراض. واكتسب النموذج الموروث للجنسانية
التعويضية قوة دفع وإنتاج أكبر. ونظرا لأن النساء الآن لديهم وسائل المقاومة، فإن
هذا، إلى حد ما، يضاعف من إشباع الانتصار الجنسي، وتحدد كبرياء الذكر الآن.
أكثر مما كان في السابق، في ضوء تخصيص امرأة. والملاحظ أن غالبية من أجابوا
على رين وانتر أشاروا إلى أن الأولاد إما لا يعجبون ويكونون غير مبالين بواقع حمل
حديقاتهم من البنات، أو أنهم، وهو ما يحدث مرارا بصورة مثيرة للدهشة، يشعرون
بالفضح لأن كون بنت تحمل من الولد شهادة على أنه رجل.^(٣٠) وبعد ربع قرن من
إجراء هذا البحث في منتصف الستينيات اكتشف إيليا أندرسون وآخرون نماذج
ثقافية مطابقة مما يفيد بمنظومة انتقال ثقافي.^(٣١)

فلسفة جديدة أخرى عن البيئة، إذ يؤدي النموذج ج مباشرة إلى تعديل وتعزير
وتكليف هذين النموذجين الموروثين، وينضخ هذا في إلغاء حاجز اللون في مجال
صناعة الرياضة، مما يؤدي بالتبعية إلى صعود عدد كبير من الشباب الأفروأمريكي
إلى مستوى نجوم الرياضة نوى الشهرة الفائقة. وينتهي غالبية هؤلاء، من المعازل
العنصرية (الجبتي) الفقيرة للسود، وعلى الرغم من أن أعداد هؤلاء النجوم أصحاب
الملابيين الكثيرة قليلة جدا قياسا إلى جمهور السود من أبناء الطبقة الدنيا إلا أن

نتيجهم واسع النطاق. إنهم كتمازج لدور يؤبونه ورسخوا ودعموا كلا من النموذج الثقافي للجنسانية القائمة على السلب *Predatory sexuality* ونموذج الرعاية الأبوية غير الآمنة. واقترنت هذه التطورات بتطور آخر لظاهرة يقلب عليها الطامع الثقافي: ظهور ثقافة للهيبة هوب التي شهدت، مثل الرياضة، ظهور العديد من النجوم نوى الشهرة الفاتحة الخارجين من بطون المعازل العنصرية الفقيرة، ودعمت هذه الثقافة بطريقة صارخة أكثر التمازج تعارضا مع حياة الطبقة الدنيا في الحضر، إذ تُصنفي بالاعتصاب الجماعي على يد عصابة على نحو لم يحدث من قبل، والجنسانية القائمة على السلب، وتحلل الأبوة من مسؤوليتها. ولعل من المعقول أن نخلص هنا إلى أنه بين عدد كبير من شباب الطبقة الدنيا من الأناقة الأمريكيين في الحضر أضحت هذه التمازج معيارية تماما، وأن الرجال يتصرفون وفقا لها حيثما استطاعوا.

وهكذا لدينا أوج يقودان إلى تمازج متباينة ب فيما بين الأجيال وداخل الجيل. ويقضى كل من النموذجين إلى نموذج معدل موحد للجنسانية والرعاية الأبوية بين شباب الرجال ويتجلى هذا في النموذج (د) الذي يشجع بدوره اتجاهات نحو المجتمع الرئيسي والعمل (د ب) وأسلوب حياة نابع من المعزل العنصري (الجيوتو) والذي يقوى التمازج المعدلة الجنسانية التعويضية مع القائمة على السلب والرعاية الأبوية غير الآمنة وفي هذا السياق المعارض للمعايير الرئيسية يزيد احتمال أن يتحقق عمليا النموذجان المعدلان الجنسي والأبوي في شكل النموذج (د).

خاتمة

مدى الرئيسي من هذا الفصل أن أرد مفهوم الثقافة كعامل سببي إلى دراسة مشكلات الأناقة الأمريكيين دون أن أقع فريسة للمشكلات المنهجية والنظرية والأيدولوجية التي يعاني منها كثير من الدراسات السابقة. وتكثرت أن هذه المهمة ذات شأن كبير للغاية الآن نظراً لأن أفضل ما قدمه علم الاجتماع أخذنا إلى حدود تفسيرات بنائية خالصة لهذه المشكلات.

وأشهره، حيث لم يرد بدء الدراسة إلى أن كثرت من علماء الاجتماع المحضين
على هذه النهج المنهجى للثقافة، وكان هذا يسير الطراد شيوع نظرية تدعيه بالية عن
العدسور الذي النهجى ولكن وكما ذكرت في هذا الفصل، فإنه على الرغم من أن
مظاهر الاتصال الثقافي فننتجها، إلا أن الناس لمحبوا عبيدا لها، إنهم
مستخدمونها وبمكانيهم يغيرها إذا أرادوا ذلك حقيقة.

وواقع الحال في الغالب الأعم أن الممازج الثقافية يمكن تغييرها على نحو أسرع
وأكثر من تعبير العوامل البنائية وأن الإمانة عن دورها الطبيعي لا يعنى بحال من
الأحوال أداته للنفس بسبب الوضع القائم. حقا إن النقد السوسبيولوجي بغزو كثيرا
السخرة، إلا ما ذهبنا إلى أن الطيفه هي التفسير الأفضل لأغلب الموضوعات في
المبحث. ولكن ما هو المسمى الذي يمكن أن يكون أكثر شيئا من الشقة؟

ولمحاوّل أن نعد في مجال مهم للثقافة الأمريكية ونظامها: الحمقى على مدى
الصف الثاني من القرن العشرين. إذ خلال هذه الفترة تم إلغاء كل ثقافة التمييز
الذي ضد الزواج. النظام الذي يشرع بالقانون ويقر بمقتضى الثقافة الفصل
والدماء، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا بشكل سافر صريح وهو النظام الذي نشأ
ونرسخ خلال ثلاثة شرون ونصف سابقة. وشهدت هذه الفترة تحولات أساسية
في النهج الثقافية للجنسية والتي تأسست على مدى آلاف السنين السابقة من
تاريخ البشرية.

ولكن خلال هذه الفترة ذاتها تفاقمت مظاهر التفاوت وعدم المساواة في الحياة
الاقتصادية الأمريكية أكثر مما كان عليه الوضع في أي وقت مضى من تاريخ البلاد.
وأصبحت التغيير من غير الطبيعة، الأثير جدا لدى علماء الاجتماع والتي يرونه دائما
سماحها للتغيير

نرى ألم بحز الوقت بعد لكي نبدأ الحديث عن كعكة الطبقة؟

تفكيك الثقافة

ناتان جليزر

العلاقة بين الثقافة والمسارين الاجتماعيين والاقتصاديين لمتعدد الأقطاب والجماعات العنصرية والعرقية في الولايات المتحدة تراها واردة في حوار أوسع نطاقا عن دور الثقافة في مصير الأمم. وصيغ السياق على أساس أطروحات عميقة للغضب بشأن أسباب النزاع الدولي وثروات الأمم على نحو ما فعل مسمول هنتنغتون ودايفيد لاندس، ولورانس هاريزون، وفرنسيس فوكوياما وكذا الجدل الواسع النطاق بشأن القيم الأميركية، ونحن في هذا الحوار الأوسع نتعامل مع فنات فكبر من الجماعات العرقية الأمريكية. والتي بدأت حياتها بالنسبة للفعالية العظمى منهم، في أمريكا كمنظما لجماعات وأمم وحضرات أكبر كثيرا ثم سرعان ما دخلت في عمليات تتألف واستيعاب داخل المجتمع الأمريكي الأكبر ومع الوقت اضمحلت وذوت. بالنسبة للفعالية العظمى لهذه الجماعات. الحدود التي كانت يوما إطارا لتحديدها وتعريفها، وتحقق ذلك من خلال ملامات الزواج المتبادلة والتحول العميق وتعبير الهويات، وأصبح من المتشكك فيه الحفاظ على عناصر. بل كانت هناك عناصر، للمعنى اللغوي فيما بينها. وأصبح جميعا جزءا من مجتمع وحضارة أمريكيين كبيرين

ونحن في الحوار الأوسع المحدد لإطار هذا الفصل نتعامل مع ديناميات عميقة وفلسفات عميقة وثغافات عميقة على تطلق نظري، مثلما نتعامل مع أمد وبعثات،

ونفكر في أسباب النزاع الدولي والثروة أو الفقر القومي، أما في الحوار الأضيّق نطاقاً فإننا نتعامل مع قضايا أقل حجماً وأهمية مثل النجاح النسبي في مجال الاقتصاد والتعليم للجماعات العرقية المختلفة. والملاحظ أن تاريخ هذه الجماعات يصعب تتبعه في أغلب الحالات إلى أبعد من ثلاثة أجيال في أمريكا

تري ما علاقة وأثر نجاح أو فشل الجماعات العرقية والعنصرية الأمريكية إزاء التصنيفات الأضحى مثل الحضارات العالمية، والأديان العالمية والثقافات العالمية؟ وما الرابطة بين الحوار الواسع والحوار الضيق المحدود؟ أيأ كان من يفسر مصير الأمم والقارات، هل يمكنه أن يفتينا لفهم مصير الجماعات العرقية الأمريكية؟

مثال ذلك ما اثرابطة بين واقع مشترك يمكن أن نلحظه بين الجماعات العرقية الأمريكية، مثل تركيزهم في بيئات اقتصادية معينة والحضارات الأوسع التي وفدوا منها مهاجرين؟ نعرف أن قطاع أكشاك بيع الصحف والمجلات في نيويورك سبتي مجال الهندوس الآسيويين، وأن عَجال بيع الفطائر في كاليفورنيا احتلها الكومبويون، هل ثمة أية رابطة بين التمرکز انتهى الهندي في نيويورك والحضارة الهندوسية؟ (ويمكن أن نشير إلى تمرکزات مهنية أخرى للهندوس مثل الطب والعلم حتى يكون مسؤولنا أقل مدعاة للسخرية) هل هناك أية رابطة بين حضارة الخمير وتمرکز الكوبيين في مجال بيع الفطائر يبدو لأول وهلة أن الفكرة متكلّفة وبعبدة الاهتمام مهما كان الذي يقدّر في عقلنا حين نفكر في حضارة الخمير سواء أطلال الأنجكور^(*) أو الأوضاع الشديدة الاختلاف اليوم

وإنه لأمر مثير للخوف التحول في الحجم من الحضارة الهندوسية بتاريخها الممتد ثلاثة آلاف سنة، وسكانها البالغ عددهم الآن بليون نسمة، وتأثيرها على امتدادات واسعة داخل آسيا إلى الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المميزة لليون مهاجر هندي في الولايات المتحدة ويقوينا هذا إلى أن نتحقق من أن

(*) الأنجكور . المثلل واسعة شمال غرب كمبوديا تضم أنجكور توم ماصعة الخمير القديمة . ومعيد أنجكور ذات (المترجم)

أياً كان المعنى الذي نقصده للثقافة أو الحضارة بمعناها الواسع سوف نتور بعقلنا بالضرورة أمور مختلفة عندما نفكر في دورها في تحديد مصير الهند، ودورها بالنسبة للتقدم الاقتصادي للهند الآسيويين الأمريكيين. ومناقشتي في هذا الفصل يحدد شكلها ومعالمها التباين الواضح بين هذين النطاقين وسوف أحاول أن أمحص عن كُتب ما الذي يمكن أن نعني عندما نستخدم مقولة الثقافة كتفسير.

'الثقافة' في القرن العشرين

أستول حديثي بعدد من الملاحظات الأولية بشأن تحول مكانة الثقافة كتفسير على مدى القرن الماضي. نحن ندرك جميعاً أننا قبل أن نلجأ إلى الثقافة اليوم لتفسير الاختلافات في التقدم الاقتصادي أو الاتجاهات السياسية بين الأمم والجماعات العرقية نفضل أولاً أن نجد تفسيرات أخرى. فالثقافة من أقل المقولات التفسيرية تفضيلاً في نظر التفكير المعاصر. وأقل العوامل استحساناً وقبولاً هو العنصر أو السلالة - الخصائص الوراثية (الجينية) - والذي كان له دور كبير على مدى أطول فترة في النصف الأول من القرن. بكل ما ترتب عليه من نتائج سيئة والتي لا تزال مستمرة في الظهور بين الصين والآخر، ونحن نفضل أن لا نشير إليه أو أن نستخدمه اليوم وإن بدا أن ثمة رابطة بين السلالة والثقافة ولكن ربما على نحو عرضي فقط. ونعرف أن السلالات الكبرى إجمالاً تميزها ثقافات مختلفة، وأن هذه الرابطة بين الثقافة والسلالة هي أحد أسباب ضعفنا من التفسيرات الثقافية.

جاء حين من الزمن بيت الثقافة فيه أكثر نفعا واستحساناً من السلالة لتفسير الاختلاف. ولتأمل كتاب روث بينديكت أنماط الثقافة وهو عمل شديد الاحترام صدر عام ١٩٢٠، وكان مقروءاً على نطاق واسع في الجامعات خلال الخمسينيات والستينيات لأنه فسر الاختلاف بين الجماعات في ضوء أسس غير حينية وغير عنصرية. واعتادت التفسيرات العنصرية أن تكون تفسيرات محافظة، أو أسوأ من محافظة وتبدو وكأنها لا تسمح بالتغير. وقام علماء الأثنروبولوجيا التقدميون

وما حسموا انحراف السلالة أو العصر أساساً للخصائص والفهم، والاجتماعي ووجدت
للأهسيبات الثقافية على التقيض تفسيرات ليبرالية نقالية. إن المرء لا يسعه أن يغير
سلافته ولكن بإمكانه أن يغير ثقافته.

ولم يحل الزمن الذي أصبر فيه الباحثون الثقافة كمنعمر تفسيرى عاملاً ثباتاً
ومستحسناً أولاً. وكما أشرت، هناك الرابطة الحتمية، ليست رابطة منطوية بل
واقعية، بين السلالة والثقافة. ثانياً بدأ من الأمور البغيضة استعمال الثقافة لتفسير
النسب في أن جماعة أو أمة ما لجأ زدهر وحيث إننا جميعاً نرى التقدم الاقتصادي
أمراً مرغوباً فيه. إذن لابد من سببه- أي من شيء- غير مرغوب فيه كامن في الثقافة
وحقوق التقدم الاقتصادي، حقاً إن بعض الانتحارات في التفكير المعاصر (مثل
الانتحارات التي تنتقد النتائج البيئية الناجمة عن التطور الاقتصادي أو الناتج
الثقافية للعولمة) يمكن أن ننظر باستحسان إلى الثقافات التي تشجع التقدم
الاقتصادي، ولكن الملاحظة أن التفكير نخذ مساراً آخر في أغلب المجالات، وأحسب
أن التأويلات الجغرافية ستكون أكثر شيوعاً، ذلك أن بالإمكان كسأل ورس الأجو- إلى
السلالة أو الثقافة أن يفسر لنا التأويلات الجغرافية تخلفاً فكرياً جيد نجد المرامي
الطوعية الجديدة والمحسنة القائمة على سواحلها كن لها دور محسوس في تجارة
والتبادل بالقياس إلى اليونان أو أوروبا.

وجنى اليسار السياسي تفسيراته على أساس الإخالات في القوة ودرجة
الاستغلال، وشرهه التوجه لتفسير الفوارق بين الأمم والقارات، وكذا الفوارق
بين الجماعات العرقية والعنصرية الأمريكية، ولكن الراديكاليين وكذلك الليبراليين
نظروا برتيب إلى التفسيرات الثقافية وبدأ منهم يلومون الضحية.

وعكزاً فقدت التفسيرات الثقافية الهالة لليبرالية والتقدمية التي كانت لها أيام
فرانسوا جاكس، وروث بينديكت، ومرجريت ميد. وهكذا وضع أن السلالة أمر قابل
للتفسير على عكس الثقافة. وما نحن اليوم نجد الثقافة مقاومة للتفسير شأن السلالة
إنت إذا لجأنا إلى بيانات لعالم وحضارات العالم التي ترجع جذور نشأتها إلى أفى
أو ثلاثة آلاف عام وأردنا أن نستعملها لتفسير طبيعة الثقافات المتنايرة نرى ما هي

« دور الأمل الذي راودنا من أجل إحداث عصر حقيقي لخصوصيتها الأساسية »
وإذا فصرنا جهونا على نطاق أصغر للجماعات المعرفية الأمريكية. ونجنا إلى
الفسر الشفافية ترى ما هي حدود الأمل الذي راودنا من أجل تحقيق تقدم
للجماعات المختلفة:

تبدو لنا الثقافة اليوم عاملا مقاوما للتغيير عني ، نحو يقرب كثيرا السلالة. وزعت
علماء الأنثروبولوجيا التقدميون إلى أن الثقافة ثابتة لتغيير. وهذا نحن الآن ممنوعين
الوم من التفكير في انتقفة على هذا النحو. وإن أحد أسباب ذلك أننا نحذر التدخل
في ثقافة ما بهدف تغيير خصوصياتها. على افتراض أننا نعرف كيف نعمل ذلك.
ونحن حينما نفكر في أن جميع الثقافات جذيرة بأن نأقر احترامنا وتقديرا على قدم
المساواة. فما هو ميرر شخص إذن - سواء كان تدخل عاما أم خاصا - وتغييره
ثقافية نظر أنها. على فقد. التهور الاقتصادي؟ وما هي ولايتنا للتدخرا علاوة على هذا
قائنا لسا على يقين تام بشأن كيفية التدخل لتغير الثقافة. أو معرفة أي جوانب في
ثقافة جماعة ما بحاجة إلى تغيير. إن الثقافة مفهوم أسفنجي يشمل الكثير جدا
وجدير بالذكر أن التعريف الأنثروبولوجي الأول لمصطلح الثقافة تضمن حرفيا كل
شيء - بميز جماعة ما - غير ما يتعلق بالوراثة الجينية. وهكذا فقد الرؤية الواضحة
التي نكشف لها من الشيء المتضمن في الثقافة ويعوق التقدم الاقتصادي ترى
هل هو الأسرة، الدين، الموقف من العمل، الموقف من التعليم؟ عمارة على هذا فإن كل
مقولة من هذه المقولات يمكن أن نجد تحتها مقولات ثانوية قد يرى البعض أنها
مهمة النجاح

ليس معنى هذا أن على علماء الاجتماع أن يكفوا عن استخدام الثقافة وصولا
إلى القهم، ولكن حتى بهم أن يعرفوا أنهم يشاركون في مشروع خطر: إن اللجوء إلى
الثقافة كمتغير تفسيري من شأنه أن يثير مشكلات سياسية خطيرة مثل ما يتبره
لجونا إلى متغير السلالة، ولكن قبل الحديث عن هذا - علينا أولاً أن نفكر في كيفية
استخدام الثقافة كمتغير تفسيري

الثقافة كأداة تحليلية

كي ننقل من النطاق الأكبر للقارات والديانات العالمية والأمم إلى الجماعات العرقية الأمريكية نحتاج إلى إدخال تعديلات أساسيين. وبعد أن نمضى فيهما شرطاً بعيداً ربما لا يتبقى بين أيدينا سوى النثر اليسير لكي نفسر على أساسه الثقافة إذا ما تصورناهما على أنهما ثقافة بالمعنى الواسع.

التعديل الأول

الجماعات العرقية والعنصرية في الولايات المتحدة لم تترك عشوائياً الجماعات السكانية الكبرى ذات الثقافات المميزة. إن الملايون صينيين في الولايات المتحدة لا يمثلون صيماً أكبر حجماً من ذلك ألف مرة، كذلك الحال بالنسبة للعليون هدى اسيوي المقيمين في الولايات المتحدة، وهذا هو أيضاً حال كل جماعة عرقية أو عنصرية في الولايات المتحدة حتى وإن تجاوز نسلهم سكان الأمة التي وفدوا منها، الأمر الذي يصدق على الأيرلنديين وربما على بعض الجماعات الأخرى. إن من يزور أيرلندا وهو على علم بأيرلندية بوسطن سوف تصدمه على الفور بعض الفوارق المذهلة، ترى هل مرجع ذلك إلى المناطق أم إلى الطبقات في أيرلندا التي وفد منها المهاجرون الأمريكيون أو إلى تأثيرات الحضارة أو الثقافة الأمريكية التي تؤثر على المهاجرين الأيرلنديين ونسلهم؟

يفد المهاجرون من مناطق وطبقات وجماعات فرعية متميزة يضمها كل مجتمع، وغالباً ما يكونون من مناطق وجماعات فرعية لها تراث متعلق بالهجرة. معنى هذا أن النزوح قصد الهجرة يدعم نفسه لبستيم في الحركة من هذه المناطق الفرعية جغرافياً واجتماعياً، ويتأتى هذا من خلال الرابطة الأسرية وسلسلة من المعارف المفيدة يتواصلها الأقارب والأصدقاء في بلد النزوح إلى مناطق الهجرة المحتملة والملاحظ أن المهاجرين يشكلون مجتمعاً عرقياً محلياً في البلد المستقبل للهجرة ويفنون أحياناً من مناطق صغيرة بدرجة مذهلة في البلد الذي يحلون اسمه ويحدد هويتهم، ويصدق

هذا - كمثال. على أنها - بنجلاديش في بريطانيا وقد يفد المهاجرون من قطاعات النخبة في أحد المجتمعات كما هو الحال بالنسبة للمهاجرين الهنود الآسيويين، أو ربما يملكون طبقات مشتتة بالتجارة والأعمال كما هو الحال بالنسبة للبنانيين والسوريين. وتجد النقيض لذلك إذ ربما يفنون من بين فئات الفلاحين الكادحين نوى المكانة المتواضعة كما هو الحال بالنسبة للمهاجرين الأول من الصينيين واليابانيين والسيخ الذين هاجروا في فترة ياكزة إلى أمريكا. ويمثل هؤلاء، على الأرجح، الفئات المتواضعة بل أصحاب مشروعات الأعمال المتواضعة أكثر مما يملكون النخبة.

إذن على أي نحو يحمل أو يمثل هؤلاء ثقافتهم؟ لا ريب في أن لهم ثقافتهم - هكذا كل إنسان. ولكن إذا كنا نتحدث عن الثقافة بالمعنى الأعم، فما الذي نقوله لنا الكونفوشية أو البوذية أو الطاوية عن المهاجرين الصينيين الذين يفنون من الأراضي الساحلية الجنوبية ويعملون فلاحين ولا يتحدثون الماندارين^(*) ما الذي نقوله لنا إيطاليا الواسعة عن المهاجر الإيطالي النمطي الفقير وابن الجنوب وغير المتعلم؟ هل تأخذه مثلا للثقافة والحضارة في أوروبا الكاثوليكية، في البحر المتوسط وممثلا لحياة الريف بحيث نقول إن هذا كله لابد أن نضعه في الاعتبار كمعامل ميزته؟ إن هذه التصنيفات من وجهة نظر التفسير واسعة وفيها إطناب كثير، لقد مايز ماكس فيبر وغيره من المحللين بين أوروبا الكاثوليكية وأوروبا البروتستانتية وذلك ضمن جهودهم لتفسير التطوير الاقتصادي. ولكن المرء يعجب ويتساءل ما هي الرابطة بين كاثوليكية إيطاليا وكاثوليكية فنلندا، وهذان بلدان وفدت منهما جماعات كاثوليكية مهاجرة هي من أضخم الجماعات في الولايات المتحدة، وهل كاثوليكيتهم المشتركة سوف تفسر لنا الكثير عنهم؟

اللفظة التي أريد أن أوضحها من هذا التعديل الأول هي أن الثقافة بمعناها الواسع لابد من تفكيكها إلى عناصرها المتنوعة جدا والتي تسم ببسبمها المهاجرين الأمريكيين الذين وفدوا من مقاطعات وطبقات وجماعات فرعية متميزة داخل الثقافة

(*) لغة كبار موظفي الدولة في إمبراطورية الصين قبل ثورة 1911 - المترجم

الأوسم. ١٩٥٦م هذا أن رومرو، ريشة بلد وميلتون سيجر وكلاهما من أساتذة الأنثروبولوجيا بحاميه شيكاغو استحدثتا في خمسينيات القرن العشرين عكسه هي أساساً من نحدت. عن الثقافة، فإننا نتعامل مع كل من التراث الأعم والتراثات الصغرى، ويشير التراث العام إلى النصوص التشريعية والطقوس والراسم، والقداصة والتقاليد التاريخية الكرى والتي ربما لا تعنى الكثير بالنسبة لسكان الريف كما لهم من تراثات صغرى أو لأبناء المدن الجدد. ولا ريب فى أن بعض أحرار التراث الأعم يتم نقلها، ولكن بصورة معدلة أو شاتحة، وتمزج على مستوى القرية بالتراثات الشعبية التي ربما لا علاقة لها بالتراث الأعم، وتمزج على مستوى المدينة بالثقافة الشاملة الخاصة بالإعلام الجماهيرى وعندما يهاجر الناس من أبناء القرى أو أبناء مدن الأقاليم المتنامية إلى الولايات المتحدة، فإن بالإمكان هنا أن نعرضهم كافة مشين للتراث الأعم مع قدر قليل من الحذر، وأحسب أننا لو عدنا إلى تلك الدراسات والتحليلات سيجد عداً كثيراً موضوعاً للتفكير بشأن العلاقة بين الثقافة والمصادر المتباينة للجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة. وثمة شىء واحد لنا أن نعلمه وهو أنه أياً كانت خصائص التراث الأعم إلا أنها ربما لا يكون لها سوى تأثير طفيف على التراثات الصغرى

ثمة نقطة أساسية أخرى حرى أن تكون واضحة لنا وهي أنه نادراً ما ضمت صفوف المهاجرين أبناء التحية حملة التراث الأعم، وتكاد تكون تجربة المهاجرين اليهود مثلاً، مضياً فى هذا الشأن. إذ مع كل موجة هجرة ابتداءً من أول هجرة لسنغاريديم فى القرن السابع عشر ومروراًً بألمانيا فى القرن التاسع عشر، ثم إلى شرق أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر. ضمت هذه الهجرات عدداً قليلاً من الرجال المتعلمين وبضعة حاخامات وعدداً قليلاً من حملة تراث العام، أى التراث الذى ذكره عندما تفكر فى الديانة والثقافة اليهودية، أو تراث النصوص الكلاسيكية، ذلك كنت أندھش إذ أجد إنجازات يهودية غير متناسبة فى مجالات التعليم العالى والتي تؤدي إلى القيام بدور غير متناسب أبيض فى العثم والبحث العلمى والمهن العلمية وهي ظواهر بدأت واضحة جداً خلال النصف الثانى من القرن العشرين. والحقيقة أن التراثات اليهودية العامة اعزادت التطر بعين الوية والإزدراء إلى كل

المعارف، انه صرة بقرنا علاوة على هذا ، فإن المهاجرين ضموا عدداً محدوداً من الممارسين لسعائر اليهودية التقليدية ولكن بمرور الوقت شارك هؤلاء الخبراء الدينيين الفقه في الثقافة التقليدية في الهجرات - بيد أني أتساءل في دهشة ماذا أفادت جهودهم من أجل تأسيس التعاليم الدينية التقليدية داخل الولايات المتحدة وما علاقتها بإنجازات اليهود في الفيزياء النظرية أو في القانون أو الطب وغير ذلك من المجالات المعتمدة على التعليم العالي.

ثمة هفوات وفحوات كثيرة على طول الطريق أثناء الانتقال من التراث العام (الذي يمكن وصفه في ضوء نصوصه الشرعية الرئيسية والحواشي والطقوس والمراسم والتاريخ الخاص به) وصولاً إلى هؤلاء الذين ربما يمارسون مسيراً متباينة منه - تراثاً صغرى ربما لا تربطها سوى علاقات بعيدة تترى إلى أي حد يمكن للتراث العام أن يقدم في تفسير مصير أولئك الذين تربطهم به علاقات بعيدة

لقد شد انتباهي تعليق مثير الشك على لسان رجل لاقتصاد السنغافوري جون وونج يشآن الدور المحتمل للكونفوشية على نجاح الاقتصاد في سنغافورة وشرق آسيا بعامة. (إسمي لا أرى تعليقات كثيرة مماثلة مثيرة للشك مما يجعلني أفهم بهذا التعليق) يقول وونج إن الاقتصاديين لن يأخذوا التفسير الكونفوشي مأخذاً جاداً إلا إذا

تجلى في ضوء فرض قابل للاختبار، إذ لا يكفي الدفع بعبارة عامة بأن السلوك الكونفوشي يقضي إلى مزيد من المخبرات الشخصية ومن ثم إلى مزيد من التكوين الرأسمالي. وإنما يتعين البرهنة بدليل قوي ومحدد على ما إذا كانت مثل هذه المخبرات تم استثمارها على نحو إنتاجي في مشروعات أعمال أو صناعة أم تم تبيدها في مصارف غير اقتصادية مثل الوفاء بالقرضات خاصة والتي هي أيضاً وفي النهاية جزء من نظام القيم الكونفوشي. ويتعين كذلك توضيح كيف أن القيم الكونفوشية أدت بالفعل إلى تطوير فعال للقوى البشرية في

ضوء دعم عملية الارتقاء بالمهارات وليس فقط التثقيف الفكري
الذاتي أو الالتزام بحساسات أبيقية تعود بالفائدة على صاحبها
فقط. ولقد كان السيد الكونفوشي في صورته التمولوجية في
الماضي يكشف عن ارتداء سافر للعمل الوضيع.⁽¹⁾

إن ما يسأل عنه وونج يارتياح هو ما إذا كان بإمكاننا حقبقة أن نجري
تجربة الانتقال من التراث الأعم للكونفوشية إلى نجاح تلك المجتمعات. أو، وهو ما
أضيقه أنا، نجاح الجماعات العرقية التي يمكن ربطها بها وسألت السؤال نفسه
عن الرابطة بين التراث الأعم للتعالم اليهودية والنجاح غير اختاسب لليهود في
العلم المعاصر وفي التعليم والمهن الراقية. وكم هو يسير الفخر من التراث الأعم
إلى الجماعات الراحنة والأفراد الذين بإمكانهم ادعاء رابطة تاريخية. ويمكن
للمرء أن يتبين وسط النظرية المعاصرة من سلالة التراث الأعم النزر اليسير من
حقبقة الأميلة.

وليس جون وونج وحده المتشكك في جدوى التراث الكونفوشي أو الثقافة
الكونفوشية من أجل التطوير الاقتصادي ذلك أن صن يات صن وغيره من
الإصلاحيين والثوريين لم يكونوا متشككين فقط في قيمة التقاليد الكونفوشية. بل
بعوا عليها لما لها من نور رئيسي في الإبقاء على الصين منخلفة. وشجبوا الثقافة
التقليدية الصينية التي أدت إلى تخلف الصين اقتصاديا وسياسيا. هل كانوا على
خطأ؟ هل تغيرت الكونفوشية بحيث إنها في فترة ما فجدت التطور الحديث
لصين بينما يسرته في فترة أخرى؟ ألسنا الآن منشغلين بمحاولة تفسير واقع
عدد حدونه؟ ما حدود الكونفوشية في النجاح التلمسي والاقتصادي لأبناء الله في
في أمريكا؟

وطبيعي. وعلى الرغم من الامتناع بالتراثات الكبرى والديانات الكبرى والأخلاق
البروتستانتية، وكل ما هو مناظر لها في العالم ربما نستطيع تقديم تفسير جيد. تعاما
ودفاع جيد أيضا عن نور الثقافة في الإنجاز الاقتصادي للجماعات العرقية وسيبيلنا
أن نلجأ إلى التراثات الصغرى، الثقافات المنمايزة لمجتمع نجاري ومجتمع مشروعات

أعمال كسثال، أو ثقافات فلاحين كادحين ومستقرين. إن الجماعات العرقية الناجحة وفدت من كل من الخليفتين المذكورتين، ومن غيرهما. ولكن أيا كانت الخلفية الثقافية يلزم إدخال تعديل ثانٍ لربط الثقافة بالنجاح الاقتصادي، ونعني بذلك الظروف التي يجد المهاجرون أنفسهم فيها عند وصولهم إلى المهجر، وحالة الاقتصاد والفرس المتاحة وطبيعة المجالات التي استقروا فيها وما إلى ذلك.

اكتشف علماء الاجتماع المعاصرون أن لهذا العامل المتغير أثره مع ثبات كل العوامل الأخرى. وهكذا إذا حاولنا تمديد نور النصبير أو الثقافة في تفسير توى الأعمال المثنية بين السود سيكون لزاما إدخال مثل هذه المتوفيقات كمن نقارن بين جماعات من العمر نفسه، والتعليم نفسه والمنطقة الجغرافية نفسها - ونظرا لأن الأجور تختلف باختلاف البيئة سيكون لزاما، على الأرجح أن تضع في الاعتبار اختلاف مفار الإقامة بين الريف والحضر، مادامت الأجور تتأثر بذلك أيضا وما شابه ذلك، وواضح أن النتيجة المترتبة على ذلك هي خفض أو تفسير الفارق. وسوف يتخلف أو يتبقى شيء ما، وهنا ربما نتبين أثر التمييز أو أثر الثقافة، ويحدث أحيانا أن يتيسر تفسير كل مظاهر الاختلاف ولا يتبقى شيء. ولكن سواء تبقى أم لم يتبق شيء، فإنه أيا كانت طريقتنا في تحليل الثقافة إلى عوامل، مثل ماهضة التمييز، فسوف نكون دائما بصدده مشكلة.

التعديل الثاني

تظهر المشكلة عند صياغة النموذج التفسيري كيف نفصل الثقافة عن القسومات غير الثقافية التي تفسر الاختلاف؟ ذلك أن كل عنصر في المثل الوارد أعفا في محاولة تفسير فوارق عوائق السود - البيض إنما يمزج عناصر ثقافية بعناصر أخرى. ونحن نريد تفسير الفوارق في العوائد إذن نتبث عامل العمر، ولكن أليس واقع أن جماعة أصغر عمرا من جماعة أخرى، أو لديها أطفال أكثر من غيرها يمثل أيضا قسمة ثقافية؟ نريد أن نتبث عامل الجغرافيا - الناس في المدن أفضل إنجازا من سكان الريف، أو في الشمال أفضل من الجنوب. ولكن ألا توجد عوامل ثقافية في الهجرة

واختيار الأماكن التي يعصدها الناس للهجرة إليها سوف نُثبت في الفقرة عامل هيكل الأسرة، مع ملاحظة أن نسبة الأسر التي ترأسها نساء بين السود تقلل متوسط الدخل. ولكن ليس هيكل الأسرة فُسمة ثقافية بامتياز؟

إن الهدف من استخدام هذه النماذج في تحليل الفوارق هو تفسيرها ولكن لها أيضا نتائج سياسية جنسية. والملاحظ أن الجماعة موضوع البحث ترفض بوجه عام التفسير الثقافي سواء أكان أفضل أم أسوأ من بعض المتوسطات. إن لو كن أفضل نتيجة فإن الجماعة تخشى أن ينهها الآخرون بالكبرياء والمطرسة. وتخشى أن يكون اهتمامها بثقافتها التي يقال إنها أفضل، سببا في الحسد والغضب أو أي شرور أخرى، وإذا كانت نتيجة أداء الجماعة نتيجة سلبية فإنها تخشى ما تواجهه من استهجان واستكبار وإزدراء من الأغلبية. ومن ثم ترى كل جماعة أن من مصلحتها أن تبدو في صورة الضحية وليس في صورة متفوفة

مثال ذلك أنه كان واضحا منذ بضع عقود أن دخل الأسرة الاسيوية مرتفع شأن الأسرة البيضاء. الأمر الذي يبدو في ظاهره وكأنه صمم مسألة التمييز ولكن وضع أننا إذا وضعنا التحليل ضمن النموذج فإن عائلات الاسيويين لن تكون مرتفعة شأن نظرانهم من البيض عن حيث المستوى التعليمي. وبذل البعض جهودا لبيان أن لا شيء خاص بشبان عوائل اليهود المرتفعة. ذلك أن اليهود في نهاية الأمر يسكنون المدن حيث الدخول مرتفعة للجميع، ثم إن متوسط أعمارهم أعلى، ويزداد دخولهم مع زيادة العمر، ويلتحقون بجامعات ومعاهد أفضل، ويتركزون بنسبة أكبر في المهن ذات الدخل المرتفع، ولديهم أسر صغيرة ... إلخ. وفي النهاية يمكن أن تنتفي ميزة عوائد اليهود إذا ما شينا جميع هذه العوامل، غير أن هذا لا يحسم مسألة التفسير الثقافي التي تختلط على نحو معقد مع كل فسحة نحاول ضبطها لتفسير الفارق.

ويبدو اليهود عادة اهتماما بالأخبار المتعلقة بمكاسيهم واستخراج ميزة الدخل. والمعروف أن التعداد السكاني لا يسأل عن الدين ولهذا لا يظهر اليهود في حصصيات التعداد. وتعارض منظمات الدفاع عن اليهود بوجه عام أي سؤال عن الدين في التعداد السكاني لهذا السبب وتعييره من الأسباب. كذلك فإن جميع

الاسمويين بحسبهم التعداد السكاني كمسجلات مفردة، ويحاولون بوجه عام تفسير انشواهد الإحصائية لنجاحهم لأسباب متباينة منها رغبة البعض في أن يبدو في صورة الضحية لعله قد يفيد من ذلك شيئاً. (لا توجد فوائده الآن يمكن أن يجتهد أصحاب الهوية الأسبوية من أجل الالتحاق بالاعتماد، ولكن لا تزال النظرة إلى الاسمويين على أنهم أقلية مستضعفة إزاء عقود الحكومة). ويحاول آخرون التشبث بامكاسة الأسف. ع بحالف قوس قزح Rainbow Coalition الخاص باللونين، وإذا كان الاسويون أفضل حالا من المتوسط فإن أهليتهم للاقتناع بهذا الحلف تصبح موضع شك.

ويستطيع أن تلحظ بعض الانتقادات الغربية في الجهود المبذولة لحفاظ الاسويين على وضع الضحية - الادعاء بأن التمييز أضربهم ضرراً بالغاً على الرغم من واقع دخلهم واهن التي يشغلونها الآن. وتندعل كمثال ورقة بحث كتبها المؤرخ الأمريكي من أصل صيني واسمه جون كيويوي شن⁽¹⁾ أيحكي لنا بداية أنه يشعر بسعادة بالغة كل عام مع إعلان أسماء الفائزين في "محتوى المهمة العلمية لشركة وسفنجهاوس" لأنها تضم كثيراً من أسماء الاسويين ولكن حين تابعت التغطية الصحفية والحوارات العامة بشأن هؤلاء الطلاب بدأت أشعر بقلق مزايدي بسبب التباين الواضح بين إنجازاتهم الفاتحة وبين طريقة التعبير عن هذه الإنجازات والتصريح بأن الاسويين أقلية نموذجية. هذا على الرغم من الدليل الواضح الذي يكذب الميافة في التعميم إنه يشعر بالزهو إزاء إنجازاتهم، ولكنه يرفض فكرة أنهم أقلية نموذجية.

وليس من السهل نخعون طبيعة القلق بشأن هذه السمة ويكتب مقالة يتابع فيها قصة وسفنجهاوس في مجلة نيويورك تايمز يتناول فيها معهد كارنوروز العالي في كورنيل في نيويورك سيتي الذي تخرج فيه أحد عشر متفوقاً حاصلين على الدرجات النهائية وجميعهم اسويين. أنت هذه المقالة إلى دراسة من تأليف سبب جروبارد، ضمن كتاب نفذت طبيعته. ويكشف كيو عن رفضه لما ذهب إليه جروبارد لأنه يجعل من الأسر المستقرة ذات العائل الواحد السبب الأول لنجاح الطلاب الاسويين ثم دفع بالسؤال عن ما يمكن أن يحدث لمئات الآلاف من الأطفال الذين حرموه من الحياة في مثل هذه البيئات المستقرة. لقد افترض جروبارد أن عوارض الأسرة المستقرة ذات العائل الواحد هيأت الشروط اللازمة للنجاح.

ليس من الواضح لنا لماذا يقاوم كيبو هذا التفسير الشائع الذي لا يعكس
 الاصرار عليه ولكن نجد ما يفيد من طرف خفي عندما يقنيس رسالة إلى نيويورك
 -يمز من الطلاب الآسيويين الفائزين في معهد كارديوزو في معرض الرد على مقالة
 جروبارد والتي يرفض فيها أي أهمية لتفسير مجاحهم. تهاجم الرسالة تفسيرات
 جروبارد لأنها تصوغ المسائل في قالب واحد .. بحيث تبدو في أقصى أشكالها
 نظريا جذر التحيز، ومرضا لا يمكن للعلم أن يبرئ أحدا منه. وتؤكد الرسالة أن
 النور الأبوي في الحياة الدراسية لهؤلاء الطلاب يتراوح ما بين عدم الاهتمام
 أو اللامعناية وبين التبخل الكثيف، وأن أسباب مشاركة الطلاب في مسابقة
 سيسجهاوس ونجاحهم فيها متباينة وفردية. ويخلص كيبو إلى أن هذه الصياغة
 لنجاح الطلاب الآسيويين حولت ظاهرة معقدة إلى تعبير بسيط مخل وتاريخي (ولعله
 ناسد لا تاريخي) عن الطبيعة الثابتة للثقافات الآسيوية. يمثل هذا كله استهلاكا للعلم
 الأساسي في ورقة بحثه، التي هي دراسة عن التحيز المناهض للصين في نيويورك
 سيمس خلال القرن التاسع عشر ولا يبقى للمرء سوى أن يخرج بنتيجة مؤداها أن ثمة
 رابطة بين التحيز المناهض للصينيين في القرن التاسع عشر وأسطورة نجاح الأقلية
 النموذجية اليوم

الدور الرئيسي للتعليم

أشرت إلى أنه ليس من التفسير علميا أن تحدد موقع العوامل الثقافية في نجاح
 أو فشل جماعة عرقية، وأن ليس من مصلحة أي أحد أن يشدد سياسيا على دور
 العوامل الثقافية في فشل أو نجاح الجماعة العرقية.

وأعتقد، على الرغم من أفضل المناهج والنهج التي تلتزم بها العلوم الاجتماعية
 المعاصرة، أن من العسير أن تكشف بوضوح أن العوامل الثقافية المميزة لهذه
 الجماعة العرقية أو تلك هي المسؤولة عن النجاح أو الفشل الاقتصادي، وأن ما يمكن
 أن نعلمه من وجهة نظر العلم الاجتماعي هي أن تحدد العوامل التي تبدو مرتبطة

بإسقاط مفهوم الاقتصادى لجماعات العرقية. والملاحظ أن العامل الذى يظهر كأقوى ما يكون من خلال البحث هو التعليم، وهذا أيضا هو اختيار الأثير بالنسبة لرأس المال البشرى، ونجد عامل ارتباط كأقوى ما يكون بينه وبين ما يتحقق من نجاح بعد ذلك فى صورة المهن ذات المكانة للأرفع والدخول المرتفعة.

ويبدو أن الفوارق الكبرى بين الجماعات من حيث الإنجاز التعليمى والمهني تزداد مثلا واضحا لأهمية الثقافة، فإذام الولع بالتعليم سيكون أولاً وقيل كل شيء فى صورة واقع ثقافى ولكن المسألة ليست بهذه البساطة ذلك أن الولع بالتعليم وما يرتب على ذلك من نجاح مسألة تتباين باختلاف الطبقة ترى هل ندرج الطبقة ضمن الثقافة؟ يمكن هذا ولكنها لن تكون ذلك ثقافة عريقة تفوق إلى النجاح - أو أهمة الكثير من العناصر المشتركة بين الطبقات العاملة والوسطى فى كل الجماعات. علاوة على هذا، وكما حاولت أن أوضح، فإننا إذ نحاول أن نرد الولع بالتعليم إلى الثقافة الرفيعة للجماعة فإن ما نكتشفه من روابط سوف يشير بعض المشكلات، ومن المسلم به أن توجهها نحو التعلم من قبل ما يمكن أن يحدود إلى توجه نحو تعلم تعط مميزات تماما مثال ذلك الجراهمانيون الذين تخلوا عن السنسكريتية من أجل العلم، والنسبينيون الذين تخلوا عن كلاسسيكيات الكونفوشية من أجل دراسة الفيزياء... ونكر جميع هذه الحالات تستلزم دراسة ومقايمة أكثر مما حدث حتى الآن

كذلك أبناء الفلاحين فى اليابان وبناء ملاهى الفوارب الفييتناميين حققوا نقية فى المدارس. وقد يظن المرء أنهم بعيدون جيدا عن التسالبى للمعظمى للتعليم من مجتمعاتهم، وأن أسباب نجاحهم بحاجة إلى فحص ودراسة

إن أحد أسباب فحص ودراسة العوامل الثقافية المحتملة للنجاح التعليمى والذى ظهر كعامل معيارى رئيسى للنجاح الاقتصادى يتمثل فى الفكرة التى عبر عنها ستيفن جروبارد فى مقاله المشار إليه آنفا، أن بإمكاننا أن نتعلم من هذه الحالات، إن هدف التعلم توجيه عمليات التدخل فى أساليب حياة الجماعات الأقل نجاحا وأنا أو من بإمكانية مثل هذا التعلم، بيد أننى أتساءل ما إذا كنا نريد لأسباب سياسية أو حتى لأسباب علمية أن نصح أى شيء نتعلمه بأنه جزء من ثقافة جماعة محددة

مزاياها وهكذا يؤمن كثيرون بأن القراءة للأطفال سوف يساعدهم على تعلم القراءة وهذا عامل مهم لا علافه له سوى جماعة عرقية ولعل من الأفضل تأييده. وسببه لئلا أكثر من دعمه لأنه يسهم في نجاح أبناء الصينيين أو الفيتناميين (والحقيقة أنه مع الفائدة المرجوة منه لم يؤثر كثيراً بالنسبة لنجاح الجيل التالي من الصينيين واليابانيين واليهود ممن افترض أباء غالبيتهم على القراءة لهم بلغة غير إنجليزية. وربما بدلوا بهذا حارقاً للقراءة لهم أصلاً).

ولا ريب في أن المساعدة القوية من جانب الآباء في مجال التعليم أفضل للأطفال من الموقف العاكس (ولكن لننتذكر إشارة طلاب الصينيين الفاضلين بجائزة النحت إلى لا عبالة بعض أباؤهم) ولكن توضح لنا الدراسات بشكل منتظم أن آباء الأمازيغ الأمريكيين يهتمون أبداً بهم بقوة على أخذ التعليم في المدرسة مأخذاً جيداً. ويؤكدون لهم أهمية المدرسة ويمكن أن تسهم جميع هذه العوامل في النجاح التعليمي وهذا يمكن وصفها بأنها عوامل ثقافية ولكن يتعين أن نسبر غور أعماقها قبل أن نكتشف لماذا أن بعض الممارسات التي تبدو لأول وهلة معتادة أو منطوية تؤدي إلى نتائج مغايرة في مجتمعات مختلفة

أحسب أن الثقافة لا تسبب اختلافاً، ولكن كم هو عسير أن تحدث أي شيء في الثقافة هو الذي يسبب الاختلاف على نحو ما سنميز هذه الأمثلة. وأياً كان هذا السبب، اعتقد أنه سيكون أكثر دقة ورعاية من الخصائص العامة للتراث الكروي ثقافة ما، مادام الكثير من النتائج المختلفة تبدو في أوقات مختلفة مناخية مع كل تراث من التراث الأعم، لقد كان لكل منها أيام مجد وأيام محن، وفترات غم وفترات غم. وكان لكل منها مفكرها وجوهرها وانتصاراتها في مجال الإنجاز الفكري وكبرائها إلى هوية الضخالة بل وما هو أسوأ ولعل الأصوب أن نفكر فيهم كمستودع يمكن أن تصدر عنه ممارسات ملائمة ومفيدة للجميع، وعلى أية حال لقد طرأ على الجميع الكثير والكثير من التغييرات بحيث نبدو خياليين إذا ذهب بنا الضن إلى إمكانية أن نطبق دروسهم إذا ما تفقنا عنهم في الإطار العام، ولكن الممارسات المحددة والمميزة للجماعات العرقية والعنصرية في الولايات المتحدة والتي استكشفتها بدافع من التعاطف يمكن أن تدلنا على شيء مفيد.

الباب السادس

الأزمة الآسيوية

القانون والروابط الأسرية وأسلوب أبناء شرق آسيا في قطاع الأعمال

داويت إتش . بيركينز

خلال الأزمة المالية الآسيوية التي بدأت عام ١٩٩٧ ثم انتشرت إلى مسافات بعيدة فيما وراء حدود آسيا، قيل الكثير عن التعاون الوثيق الذي كان قائما بين قطاع الأعمال والحكومة في المنطقة. وبات المصطلح الذي نسمعه بتردد كثيرا "الشراكة" أو "محاياة الأصدقاء" ودلالته أن هذه العلاقة مسؤولة مباشرة عن الأزمة. وقبل أن اقتصادات شرق وجنوب آسيا انضت طريقا آخر، عماده سيادة القانون مع الاحتفاظ بمساحة نراع بين قطاع الأعمال والحكومة لما حدثت الأزمة المالية . هكذا قبل صراحة أو ضمنا .

وظهرت حتى الآن دراسات كثيرة عن نشأة وطبيعة الأزمة المالية الآسيوية، وتوافقت الآراء على أن طبيعة العلاقات بين نظام الحكم وقطاع الأعمال في المنطقة أسهمت بالفعل فيما حدث.^(١) لقد أتى سوء إدارة الاقتصاد الكبي في تايلاند إلى إثارة دعر مالي نمطي. امتد بعد ذلك إلى كوريا الجنوبية التي هبطت اقتصاداتها هبوطا صاروخيا . ولكن عمق الانهيار وشيق الارتباط بضعف النظم في هذين البلدين . وكان لطبيعة العلاقات بين نظام الحكم وقطاع الأعمال دور أكبر كثيرا في حدوث انكماش اقتصادي خطير عانت منه كل من إندونيسيا وماليزيا .

ولكن هل النتيجة حقيقية هي سبب حالات الكساد العميق في هذه الاقتصادات الأربعة، أم أنها كانت عرضاً لشيء آخر أكثر أساسية - الحجة الأساسية في هذا الفصل تفيد بأن العلاقات الوثيقة بين قطاع الأعمال ونظام الحكم كانت - عظماً لظاهرة أوسع نطاقاً وهي الاعتماد على العلاقات الشخصية لعدد صفقات قطاع الأعمال مما يكفل الأمن اللازم والذي يمثل عتسراً ضرورياً لأي نظام تجارى ناجح

من المجتمعات المتولفة من قرى مكتفية بذاتها، أو إقطاعيات لها استقلالها الذاتي لا تشعر بقلق كبير بشأن ضمان أمن الصفقات الاقتصادية، ذلك أن شبوخ القرية أو كبار الملاك الإقطاعيين يمكنهم فرض أى قواعد يختارونها لذواتهم. ولكن حين تجرى ممارسة التجارة عبر مسافات شوية، فإن السلطة المخلة تغدو عاجزة عن ضمان سلامة صفقة ما والتزامها بقواعد محددة. ومن ثم يمكن للتاجر حينئذ أن يكفل الأمن لنفسه عن طريق شحن البضائع على متن مركب نحت إمرته هو ويستطيع أن يصر على دفع الثمن له مباشرة نغياً أو قرضاً - ويمكنه أيضاً أن يستأجر جندا مرتزقة لحماية بضائعه على طول الطريق، ويحولون دون عصابات القراصنة وقطاع الطرق وسرقة مدفوعاته الذهبية. بيد أن التجارة التي تسجر على هذا النهج لها كفتها الباهظة ولن يكون لها من مبرر سوى ارتفاع قيمة البضائع بحيث تكون كلفة وزن الوحدة مرتفعة للغاية. وهذا هو النموذج الذي التزمته السفن التجارية البرية، البية والهولندية والبريطانية في أول عهدهما بالإنجار والإبحار إلى آسيا من أجل الحرير والتوابل ولم يكن أكثرها يختلف في شيء عن القراصنة

ولكن حين تكون التجارة خدسة بسلع عادية جداً وأقل قيمة يصبح لزاماً البحث عن وسيلة لتخفيض كلفة الصفقات. ومن هنا يتعين إنشاء سلطنة عامة توفر الأمن على طول الطريق أو النهر التجارى، بحيث لا يضمحل كل تاجر فرد أن يوفر لنفسه الأمن، وعنى تفقته، علاوة على هذا لابد من توفر وسيلة للدفع لا تتضمن عبء شحن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس في رحلات التجارة نهاراً وعودة، وطبيعى أن المتخصصين في التجارة والشحن والتمويل أكثر كفاءة من رجال يعملون في جميع المجالات ويتولون إنجاز كل ما يتعلق بإنجاز الصفقات إذ يجب أن يكون لكل أساس ما يجعله يعتمد على صدق نية أعمال الآخرين.

إن الأمر اللازم بوفره في أوروبا وأمريكا الشمالية الفوانين التي مدعها جهاز قضائي أصبح بمرور الوقت أكثر استقلالية عن الوظائف الأخرى للجهاز الحكومي. ولا ريب في أن تطور سيادة القانون على هذا النحو مدعوماً بجهاز قضائي مستقل إنما تحقق على مدى قرون، إذ بدأت العملية منذ القرن الثامن عشر. إن القضية الرئيسية التي يتعرض لها هذه انفصال هي أن بدان شرق وجنوب شرق آسيا لم يتوفر لها تاريخ مماثل لاستحداث وتطوير هذا النوع من النظام القانوني، ولكن عرفت هذه المنطقة تطور التجارة بعيدة المدى عبر مسافات طويلة سواء داخل أو فيما بين اقتصادات آسيا وإن كان لابد للتجارة أن يتوفر لديها البديل عن سيادة القانون. واعتمد هذا البديل على عنصر من عناصر قوة ثقافة شرق آسيا ألا وهو العلاقات الشخصية الوثيقة المتركرة على الروابط الأسرية وكذا على روابط استتت إلى ما وراء الأسرة.

الأصول التاريخية لطريقة شرق آسيا في التجارة والأعمال

يرجع تاريخ الدور المحوري للأسرة في المجتمع الصيني إلى عهد كونفوشيوس على أقل تقدير. مما يستلزم تقديم عرض موجز له، يؤسس النظام الكونفوشي علاقات تراتبية هرمية واضحة داخل الأسرة وفيما بين الأسرة والمستويات الأعلى للحكم الذي يبلغ ذروته في صورة الإمبراطور. ولا يزال هذا النظام مكوناً محورياً من مكونات الثقافة الصينية والكورية واليابانية. ونظراً لأن القدر الأعظم من مجتمع الأعمال في جنوب شرق آسيا صيني النشأة لذلك نجد هذه القيم ذاتها لها دور محوري في المنطقة ككل.

وثمة كتابات باكرة عن العلاقة بين القيم الكونفوشية للأسرة والتطوير الاقتصادي. وبغيت هذه الكتابات بأن هذه القيم شكلت عائقاً خطيراً حال دون نمو قطاع أعمال واسع وناجح.¹²¹ ويتمثل جوهر حجتي هنا في أن الروابط الأسرية الوثيقة أدت إلى نزعة محاباة الأقارب الأمر الذي يتنافى مع اقتصاد حديث موحد حظت فيه القيم العالمية الشاملة محل القيم الجزئية للنظم القائمة على الأسر. وعلى

الرغم من أن البحوث والدراسات الصينية النالية أوضحت على نطاق واسع زيف تلك الكتابات المبكرة إلا أنه يمكن النظر إليها باعتبارها المقدمة الأولى للدراسات الحديثة عن الضعف المتولد عن نزعة الشغلة أو سحابة الأقارب والأصدقاء.

وطبيعي أن الصين كانت لها قوتينها على مدى تاريخها. وكذلك كان للحدان جنوب شرق آسيا قوتينها التي جاء أكثرها على أيدي السلطات الاستعمارية. ولكن في حالة الصين كانت القوانين مسئولية إعمار وإدارة حكام المقاطعات الذين يشغلون أدنى درجات سلم نظام الحكم المركزي للإدارة والسياسية. وهكذا توفرت للقضاة سلطات على نطاق واسع ابتداءً من جباية الضرائب وحتى الشرطة لحسم النزاعات. ورأى بعض الحكام أن حماية التجار المحليين أحد مهامهم. ولكن لم يكن هذا هو العيار السائد، وغادرا ما لجأ التجار إلى إجراءات قانونية لحماية عقولهم نظراً لأن القانون لم يكن موضوعاً بهدف حماية مثل هذه العقود، وكان الذهاب إلى القاضي صيغة تعنى خراباً اقتصادياً في أغلب الحالات.

وهكذا استحدث التجار الصينيون نظمهم الخاصة في توقيع الجزاءات على السلوكيات التي تقوض أمن التجارة، وأنشئوا النقابات الطائفية التي تركز على أساس إقليمي ومهني، مثال ذلك أن تجار شنغهاي من مدينة ننجيو أنشئوا نقابة طائفية بينما نجد المصرفيين أبناء مقاطعة شانكس يسيطرون على النظام المصرفي الصيني حتى نهاية القرن التاسع عشر. وكانت هذه الروابط كبيرة الحجم جداً بحيث لا يمكن أن تركز على أسرة معقدة واحدة وإنما تركزت على أواصر تحمل الكثير من الخصائص المميزة للعلاقات الكونفوشية. إنه لايسر على المرء أن يثق في شخص من مقابلته التي ينتمي إليها مادامت تعرف الشخص نفسه أو تعرف أبناء أسرته علوة على سمعته.

ولكن لم يكن لزاماً الاعتماد على السمعة وهذا. ذلك أن الأسر في الصين مسئولة على نحو جمعي عن سلوك أبنائها. مثال ذلك أنه في حالة رجال المصارف في شانكس تم القبض على أعضاء أسرة رهينة نتيجة سلوك فرد منها متهم بمسئوليته عن التلاعب بأموال آخرين. وإذا حدث أن فر هذا الشخص بهذه الأموال لم يكن

دائما العودة إلى أسرته. وعلى الرغم من أن بإمكانه أن يتخفى في مدينة بعيدة منطولا من الروابط الأسرية، إلا أنه سيصبح إنسانا غير معترف به داخل المجتمع الصيني. ونتيجة لهذا استطاع رجال المصارف في شانكس أن ينقلوا باطمئنان كميات ضخمة من الأموال من منطقة إلى أخرى داخل الصين في إطار من الأمن التسيبي.

كذلك كانت علاقات قطاع الأعمال داخل المجتمعات الصينية فيما وراء البحار في جنوب شرق آسيا مماثلة لتلك داخل البر الصيني التقليدي. طورت بلدان جنوب شرق آسيا نظاما تشريعية كاملة تخضع لإدارة بريطانية أو هولندية أو فرنسية، ولم ينتفت غير قليل من الصينيين فيما وراء البحار إلى هذه النظم مادام لديهم البديل. وطبعي أن أديرت هذه النظم بلغة لا يتحدث بها غالبية الصينيين فيما وراء البحار، كما سيطر عليها قضاء استعماريون لهم ثقافة وقيم لا يفهمها الصينيون، واعناد الصينيون في أغلب الأحيان حسم خلافاتهم داخل مجتمعاتهم المحلية وروابطهم الإقليمية. وكما كان يسيرا عليهم بوجه عام حسم النزاعات داخل رابطة إقليمية (مثل فوجيان أو جوانزونج أو هاكا) بدلا من حسمها بين الروابط وبعضها. لذلك تأثرت علاقات قطاع الأعمال كثيرا بموطن نشأة أسرة المرء داخل الصين.

وتطور هذا النظام مع الوقت، وتعلم بعض الصينيين فيما وراء البحار العمل داخل النظم التشريعية الاستعمارية. وتطبيق هونج كونج الآن الكثير من حيث ما يتعلق بدور سيادة القانون. ويعكس هذا واقعنا محيدا وهو أن ما كان في نشأته نظاما بريطانيا تديره السلطات الاستعمارية ومصالحها تحول تدريجيا ليصبح نظاما يديره السكان المحليون باسمهم ومصالحهم. ولكن انتهى النظام الاستعماري في أغلب أنحاء شرق وجنوب شرق آسيا قبل أن يدرك السكان المحليون بزمن طويل قسمة النظام التشريعي الاستعماري كشيء خاص بهم ويخدم المصالح الذاتية لاجتماعهم هم.

التغيرات التي طرأت على النظام بعد ١٩٤٥

أما كانت عناصر القوة والضعف في النظم الصينية التقليدية والاستعمارية الخاصة بعلاقات وقانون قطاع الأعمال. إلا أن هذه النظم بخرت بعد وصول الحزب الشيوعي إلى السلطة في الصين ونهاية النظام الاستعماري في جنوب شرق آسيا وفي كوريا وتايوان

كان النخب أكثر جذرية في الصين حيث إن الحزب الشيوعي الذي هو مسؤول إدارة دقة الحكم بعد أول الأمر إلى استيراد النظام الاقتصادي المطبق في الاتحاد السوفييتي بما في ذلك العديد من القوانين واللوائح التنظيمية وقاد ماو تسي تونغ خلال الثورة الثقافية جهوداً مضت إلى الطرف الأقصى الذي تمثل في إلغاء غالبية القوانين وإزاحة جمع المدافعين عنها. ولم بعد أحد يتمتع سوى بالقليل من الأمن وربما لا أمن على الإطلاق. وكان من له صلة بقطاع الأعمال هو أفقر الناس شعوراً بالأمن حتى وإن كان القطاع ممنوكاً للدولة. وأنهت هذه التجربة الراديكالية بوفاة ماو تسي تونغ عام ١٩٧٦ ويات لزاماً على الصين أن تبدأ من جديد وضع نظام تشريعي جديد ابتداء من الصفر. وبدت مسألة غاية في الدقة نسبياً وهي العمل على صياغة أعداد كبيرة من القوانين التجارية وإقرارها رسمياً. ولكن كان الأمر وجه آخر خاص بصياغة نظام تشريعي قادر على إنجاز وإدارة القوانين بكفاءة ونزاهة. إذ كانت عملية حسم النزاعات لا تزال تعتمد في الصين على السلطة التنفيذية أدنى المستويات العليا من أعضاء الحزب الشيوعي الصيني والحكومة الخاضعة لهيمنة الحزب. وكان لزاماً على كل من يعنيه العمل في قطاع الأعمال في الصين أن يضع هذه الحقيقة في الحسبان.

ولم يكن تغيير النظام في جنوب شرق آسيا وإلى حد ما في كوريا الجنوبية بالقدر نفسه من الراديكالية التي حدثت في الصين. إذ ظلت غالبية القوانين الاستعمارية، خاصة ما يتعلق منها بالتجارة مسطورة كما هي بون إلغاء. ولكن انتقلت مسئولية مباشرة تنفيذ القوانين إلى الحكومات المستتقة حديثاً. وحدث في بعض الحالات مثل سنغافورة وماليزيا أن تولي إدارة الحكومات الجديدة رجال نوب

خبره، ووضعيته بالنظام التشريعي الاستعماري واحتفظوا - على الأقل لفترة - على النظام بما أوروخا فيما خلقه بالنطاق التجاري

ولكن في - الآلات أخرى، خاصة في إندونيسيا - كان الرسميون الجدد لا تتوفر لديهم سوى خبرة محدودة مع النظام القديم - وسرعان ما طهروا النظام التشريعي بعد الاستقلال، وبعد عقود من صياغة قوانين جديدة وتدريب رجال القضاء - والقانون بإندونيسيا، ولكنها بقيت حتى نهاية القرن العشرين ذات نظام تشريعي بسيط أخراقة والتلاعب به بالمال أو من جانب السلطة السياسية - وانجحت بلدان أخرى في المتقلة إلى جعل السلطان تشريعي خاضعا أكثر وأكثر للسلطة التنفيذية للقيادة السياسية.

والملاحظ أن هذه التغييرات في أسلوب إدارة وصياغة القانون التجاري في جنوب شرق آسيا وكوريا وتايوان إنما تعنى أن أعضاء مجتمع قطاع الأعمال - خاصة من هم من أصل صيني، عليهم مواصلة التركيز إلى جهودهم الذاتية لتوفير الأمن لهم، فقامت. وعلى الرغم من أنهم لم يكفوا عن الاعتماد على بعضهم بعضا وعلى روابطهم إلا أنهم بدأوا العمل أكثر فأكثر لخلق روابط مع حكوماتهم المحلية - روابط من نوع لم يكن مجدياً في الحقيقة خلال الحقبة الاستعمارية، وقبما احتفظت السلطات الاستعمارية بمسافة فاصلة بينها وبين قطاع الأعمال، خاصة رجال الأعمال الصينيين فيما وراء البحار

وتباينت طبيعة هذه الروابط مع نظام الحكم، إذ اعتمدت جزئياً على درجة تناغم ثقافة مجتمع الأعمال مع ثقافته ومصالح المسؤولين عن إنزارة دقة أمور الحكم ففي بلدان مثل كوريا الجنوبية واليابان نجد أن أبناء مجتمع قطاع الأعمال وموظفي الحكومة وأقرب من جماعة عرقية واحدة وربما من مدارس واحدة تعلموا فيها، وواقع الأمر أنه لم يكن من السهل دائماً أن نقول أين ينتهي دور الحكومة وأين يبدأ قطاع الأعمال الخاص، وكانت في تايوان قيادة سياسية حرصت على التمييز الجاد ضد المجتمع المحلي الصيني في الخمسينيات ثم تغيير الاتجاه إلى هجوع أدمج بالكامل الصينيين المحليين في المجتمع التايواني.

وعلى العكس من ذلك في إندونيسيا وماليزيا حيث كانت الهوية بين الحكومات وقطاع الأعمال كبيرة، وظلت كذا حتى النصف الثاني من القرن العشرين. ولكن الحكوميين من الوقت مفرده عمدنا إلى تنفيذ سياسته اقتصادية نشطة، وبدأ واضحاً أن نجاح قطاع الأعمال يعنى بالضرورة إقامة روابط مع الحكوميين والتي تحكم جهود القطاع للحصول على التصريحات ورأس المال وغير ذلك كثير، بيد أن هذه الروابط لا يمكن بناؤها على أساس الأسلوب الكونفوشي للأسرة والولاء الاقليمي مادام هذا الولاء لا وجود له غير الضيق الفاصل بين ثقافتى الماليزيين والصينيين، إذ إن الثقة بينهما ازدادت شعورية نتيجة تاريخ طويل من العنف الطائفي.

لذلك فإن العلاقة بين الصينيين المحليين والسلطات السياسية في بلدان مثل إندونيسيا وماليزيا ارتكزت على زيجات تقام خصامح مالية ونظراً لأن الصينيين أسهروا بالنجاح في قطاع الأعمال فقد كانت القيادة السياسية يمكن أن توجب إليهم طلباً للمال سواء أذعم حزبها السياسي أو لاستخدامات شخصية، والملاحظ كمثال أن صينيين عديدين مقيمين في إندونيسيا بدأوا مسيرتهم وصولاً إلى وضع التليونييرات عن طريق معرفة الوصول إلى تصاريح تجيز لهم تقطيع أشجار الغابات الاستوائية لتجارة الأخشاب. واستطاعوا بذلك أن يدعروا مكانهم أكثر اعتماداً على هذه الشبكات وإقامة علاقات عمل وثيقة مع عديد من أبناء أسرة الرئيس سوهارتو، والملاحظ أيضاً في السنوات الأولى لحكم أحزاب الائتلاف في ماليزيا أن مجتمع الأعمال الصيني هو الذي تجعل فسطاً كبيراً من الأموال اللازمة للنشاط السياسي، ولكن ما إن حاز المالايوى أو بوميديوترا الذي ترأس الحكومة، على الثقة شرعوا في اتخاذ خطوات لمساعدة قطاع الأعمال المملوك للحاكم بوميديوترا وهو القطاع الذي أصبح مصدر التمويل الرئيسى للحزب المهيم على الائتلاف الحكومى التنظيم الوطنى للمالايو المتحدة.

وربما يقول مفكر اقتصادى من أخصار المذهب الكلاسيكى الجديد والذي ينشد بساطة الفكر إن كلا من روابط الأسرة الكونفوشية المعتدة والتحالفات القائمة بين قطاعات الأعمال الصينية فيما وراء البحار والقيادة السياسية المحلية غير الصينية إنما ارتكزت على توقعات في أن تحقق هذه العلاقات عائداً اقتصادياً، ولكن حتى

نحسب أننا جميعاً نبحث عن الأساس المالي نجد أن الروابط التي تلزم أعضاء الأسرة في المجتمع الكونفوشي أقوى من وربما أطول عمراً من الصداقات الشخصية التي تشكلت عبر خطوط عرقية

النظام الذي أنتجته هذه القيم

نظام قطاع الأعمال الناتج بالاعتماد على الأسرة وغير ذلك من روابط شخصية ضماناً للأمن له قسومات كثيرة مشتركة في أغلب أنحاء شرق وخطوب شرق آسيا ورجال الأعمال أنفسهم هم أبناء أسر مقربة ويخضعون لسيطرتها. وأكثر من هذا فإن الشركات ذات المسئولية المحدودة التي باعت حصصها في سوق الأوراق المالية المحلية كانت خاضعة لسيطرة أسرية، ولكن الأقلية من حاملي الأسهم، بل حتى ولو كانوا أكثرية، ليست لهم كلمة ماداموا حملة أسهم لا تدعمهم أسرة في إدارة وتشغيل قطاع الأعمال ولا تتمتع الأقلية من حملة الأسهم سوى بحماية ضعيفة.

وتنتقل السيطرة، كلما أمكن ذلك، من المؤسس إلى أبنائه أو، في حالة نادرة، إلى ابنة أو ابن أخ. والملاحظ أن التغييرات عبر الأجيال في الشركات المملوكة للصينيين غالباً ما تشكل خطراً على صحة هذه الشركات وذلك لأن ذرية المؤسس غالباً ما تكون بؤنة أهلية وجدارة، أو لأن الإخوة الأشقاء لم ينسجموا ويتفقوا معاً، ونشاهد حتى نهاية التسعينيات عدداً قليلاً جداً من المؤسسات المملوكة لرجال من كوريا وتايوان وهونج كونج وماليزيا هي التي نجحت في التحول إلى نظام إدارة وتوجيه على أساس مهني (مقابل النظام القائم على الأسرة).

ونجد الآن في كل أنحاء منطقة شرق وجنوب شرق آسيا مؤسسات كثيرة يديرها مدبرون مهنيون أو تكون مملوكة للدولة. وتعتمد الحكومات، مثل حكومات ماليزيا وتايوان، على استغاورة على ملكية الدولة لأهداف من بينها ضمان أن الجماعة العرقية المسيطرة على الحكم حصلت على حصتها من السلطة الاقتصادية ففي ماليزيا نجد نخبة البروميبوترا هم الذين أفايروا من سيطرة الدولة ومن الخصخصة التي حدثت بعد

ذلك لعدد من الدساتير الضمنية وتوجد بالنسبة لدالة تاوان أن الأمر الرئيسي الحصري الذي هاجم إلى الحزيرة عام ١٩٤٩ هو الذي له المسطرة على المشروعات المملوكة للدولة. هذا سمى الجزء الأكبر من القطاع الخاص بين أيدي المولودين. هي تاوان خلال فترة الاحتلال الياباني كذلك الحال في سنغفورة إذ إن النخبة السياسية والسيولة عن الخدمات المدنية وينمى بقوة وسخاها هي التي تدبر مشروعات الدولة، بينما الجزء الأكبر من القطاع الخاص يهيم عليه مباشرة مستثمرون أجانب.

وأثر ذلك الروابط الأسرية والأقليمية تأثيرا كبيرا على العلاقات بين مشروعات الأعمال، وأيضاً على العلاقات من رداً إلى الأعمال الأفراد. ولكن لا توجد سوى دراسات قليلة عن شبكات العلاقات التي لها شأن هذا الدور المهم في العلاقات بين الصينيين فيما وراء البحار وبين أفتار الإقليم^{١٢} ونظراً لأن هذه العلاقات تمر رسمياً ولأنها موجودة داخل بيئة تجدي وكتابها بيئة معادية، فقد لا يكون ممكناً الوصول إلى فهم كامل لطبيعة وشناق هذه الشبكات.

وإذا لم تكن هذه الشبكات قائمة في أماكنها فإن رجال الأعمال الصينيين يقضون وقتاً، وينفقون موارد في محاولة لاستخدامها حتى ولو عبر مسارات عرقية. ونه حالة قياسية بشأن ممارسات قطاع الأعمال في الصين إذ يحضر رجال الأعمال الأمريكيين والأوروبيين بصحبة محامييهم وبدوون. تحرير عقود رسمية والتفاوض بشأنها ضعدنا لكي تغطي جميع الاحتادات. ولكن رجال الأعمال الصينيين في مقابل ذلك يكونون على استعداد لفضاء سنوات في زارات وصيافات وتفكير واستكشاف حفيقة الأجانب قبل أن يكونوا مدسدين لعقد صفقات فعطب بناء على عقود أو بدون عقود.

ويحظ بعض اليابان في الإقليم في مجال علاقات قطاع الأعمال والحكومة، وقد عرضنا بعضها في ما سبق ولكن أكثر هذه الأنماط يرتكز على محاولة كفالة الأمن حيث تغيب سيادة القانون وحيث تكون الحكومة منهكة في محاولة توجيه الاقتصاد. مثال ذلك أن أكثر من ٨٠ بالمائة من الاستثمار الأجنبي المباشر في الفترة الأولى في الصين جاءت من مستثمرين من هونغ كونج أو من رجال أعمال صينيين آخرين.

يتمولون، كما وراء البحار. وحصد العذر الأكبر من هذه الآراء، أشارات في معاداة
حوادونج التي هي ممتنة الغالبية من أسر رجال الأعمال هؤلاء.

ومع عام 1997 بدأ تضيق النظام التشريعي الذي يملكه السخلية في انحصار
الذي كان له دور بنائى متزايد في مجال قطاع الأعمال. ولكن حتى خلال هذه الفترة
بلغ إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر من أوروبا وبنسبة أمريكا ما لا يزيد عن 1.8
بليون دولار أمريكي. ولكن إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر من هونج كونج وحدها
قد بلغ، يتفائل، 21.66 بليون دولار. وكان التقدير الرسمي للاستهةام الأجنبي
المباشر من تايوان هو 2.2 بليون دولار، ولكنه كان عمليا أكثر كثيرا بينما لم يتجاوز
الاستثمار الأجنبي المباشر من سنغافورة 2.66 بليون دولار.¹¹

وعرف قطاع الأعمال المملوك للصينيين كيف يعمل في عالم لا يملكه غالبا عقودا
قانونية لقد أسسوا علاقات عمل مع الحكومات المحلية، واستطاعوا تحويلها إلى أداة
لمساعدتهم وقت الحاجة ويمكن لهذه العلاقات مع الحكومات المحلية أن تضمن، كحد
أدنى أن هذه الحكومات لن تدخل في عمليات وأنشطة قطاع الأعمال، ولكن
الأمريكيين والأوروبيين من ناحية أخرى، لا يملكون مثل هذا النوع من العلاقات ولذلك
فإنهم يحاولون العودة إلى النظام القانونى المتخلف

وإن الساعا ينحى الخط العاصل بين نطاق الحكم ونطاق قطاع الأعمال حيث
ترتكز الروابط المتخصصة بين الرسميين الحكوميين ورجال الأعمال على العلاقات
الأسرية وشمه الأسرية (مائل زعالة دراسة، أو وحدة المنفاى فى المقاطعة أو البلاد).
ويؤمن طلاب جامعة طوكيو إيمان تسلطهم سوف يشعلون أعلى المستويات فى
انحسب الاقتصادية الرئيسية ثم بدلون إلى النقاد فى سن مكرة نسبيا للعمل فى
مناصب مربحة فى الشركات التى كانوا حتى ذلك الحين يتولون مسئولية تنظيمها.
وينقل كبار موظفى الحكومة فى كوريا بسهولة إلى مراكز التفكير الإستراتيجى
أو لمراسلة روابط لشروعات الأعمال.

وحدثت الحكومة فى ماليزيا واحداً من أهم أهدافها خلق نخبة من أصحاب
الأيلاف من أبناء بومبيوترا. ووجهت الاستثمارات والتراخيص الرسمية لهذا الغرض

وكما سببو أن أشربنا عقد كان من المتوقع لهذه النخبة أن تدولي مهمة تمويل السياسيين المسؤولين عن نظام الحكم والحل السياسيين في تايلاند. وأكثرهم صلب سابقون، ومقاعد مجالس إدارات كثير من انشروعات العامة والخاصة. ولم يبق شي من هذه العلاقات سرا خافيا ولكنها داخل النخبة على الأقل مقبولة كمنسوبي معياري للقيام بمشروعات أعمال.

ولكن حيث تكون هناك انقسامات عرقية عميقة تفصل النخبة الحاكمة عن قطاع الأعمال. فإن علاقات الحكومة، كما أسلفنا، تكون أميل إلى الاعتماد أكثر على تبادل الأموال مقابل مساندة الحكومة. وتبدو هذه الصفات على الأرجح في نظر الرأي العام أو المشاركين فيها عمليا بمثابة رشوى غير قانونية

أثر هذه العلاقات على الأداء الاقتصادي

هذه الطريقة في إنشاء وإدارة مشروعات الأعمال أفانت آسيا كثيرا على مدى أكثر من ثلاثة عقود. ولم يكن على بلدان شرق وجنوب شرق آسيا الانتظار إلى حين أن يوفّر لديها نظام قانوني تجاري متطور قبل تسارع عملية النمو. وقفز الاستثمار إلى حصة مرتفعة جداً من إجمالي الناتج المحلي في أغلبية بلدان الإقليم، واستخدمت هذه البلدان، فيما عدا استثناءات ملحوظة، هذه الاستثمارات بكفاءة وفق المعايير الدولية. ولقد كان بالإمكان أن تكون معدلات الاستثمار المرتفعة أمراً غير ملحوظ أو غير مؤثر لو أن المستثمرين ساءورهم الخوف من أن يفقدوا استثماراتهم لدى حكومات تعتمد الجشع والسلب وسيلة أو لدى منافسين أسرى الشكوك والهواجس. ولو افترض هؤلاء المنافسون الأمن شأن حال نظائرهم في أمريكا اللاتينية لأرسلوا أكثر أموالهم إلى نيويورك وزيوريخ ونيهاطاً النمو كثيرا عما يشهد به الواقع. وكان بإمكانهم أيضاً أن يوجهوا استثماراتهم لأرباح قصيرة الأمد وتخاصسوا عن الاستثمارات الطويلة الأمد التي هي العاصمة للنمو المستدام ولكنهم على العكس احتفظوا بأموالهم داخل البلاد واستثمروها في شركات صناعية وفي البنية

ولكن صحيح أيضاً أن هذا الأسلوب في مجال قطاع الأعمال لا يؤدي دائماً إلى خلق مؤسسات يمكنها أن تصمد حين تدلُّهم الأمور، وهذه فترات تمثل حزمة حتمياً من عملية النمو. ولم تكن المشكلة الرئيسية هي التركز على الروابط الشخصية داخل قطاع الأعمال أو فيما بين مشروعات الأعمال الخاصة تلك أن الشركات الغربية يمكن أن تفضل بسبب أن وريث مؤسسها غير أهل لذلك أو لأن الروابط الشخصية المطلوبة الأمد أدت بهم إلى تفضيل ومحاباة مورد غير كفاء، ولكن سوف نحل محلهم شركات أخرى. لقد ظهرت إلى الوجود في الواقع المشكلات التي تهدد الاقتصاد بسبب طبيعة العلاقة بين قطاع الأعمال وحكومات تلك القدرة والسلطة للتدخل وتؤمّن عبداً للتدخل في مشروعات القطاع.

ونظراً لأن الروابط بين الحكومة وقطاع الأعمال وثيقة جداً فإن رجال الأعمال استنادوا إلى أن الحكومة سوف تساعدهم للغاية إذا ما واجهتهم مشكلة. ومع التسليم بطبيعة دور الحكومة في هذه البلدان المستشري والنافذ إلى كل مجال اقتصادي، لم يراود رجال الأعمال أدنى شك في أن الحكومة تلك سلطة التدخل لمساعدة مشروعات الأعمال بعامة، ومشروعات الأيمان الفردية بوجه خاص. وستكون الحكومات رغبة عن صدق وعزم في التدخل لأنها بذلك تعد يد المساعدة لأصدقائها ومؤيديها. لذلك كله اطمأن رجال الأعمال وشعروا بالثقة عند الإقدام على مخاطر كبيرة لتنفيذ استراتيجياتهم الاستثمارية، والجانب الإيجابي في هذا تمثل في الإسهام في إنجاز معدلات مرتفعة من الاستثمارات والكثير من المشروعات الناجحة. ولكن الجانب السلبي في بعض الظروف تعطل في أن المخاطر التي أقدموا عليها مبالغ فيها جداً ويمكن أن تهدد الاقتصاد برمته.

هذا الجانب السلبي، أو جانب المخاطرة المعنوية الذي تنطوي عليه علاقة الحكومة - قطاع الأعمال هو الذي حل مكان الصدارة في الأزمة المالية عام ١٩٩٧ وتحولت البنوك والمؤسسات المالية غير المصرفية لتكون هي المعرضة بخاصة للأخطار. والمعروف أن بنوكاً كثيرة في آسيا تملكها الدولة، ولهذا كان على ثقة كاملة

من أن انتهاء سوق سوارج بمساعدتها على الخروج من الأزمة وكان ذلك أكثر من
البدول الخاصة والمؤسسات المالية غير المصرفية. مثل تلك التي أنشأت في نابلند
و يدونيدا. تسبب لها شخصيات سياسية ذات سلطة قوية ولهذا غلب عليهم
الشحور ناز بإمكانهم الاعتماد على الحكومة. وبالفعل حاولت الحكومات في نابلند
والمغرب وإثيوبيا مساعدتهم

اتحدت نابلند قرارا بهدف تثبيت سعر الصرف إلى فن أوشك المصرف الأجنبي
على التنازل. وكان دافعها إلى ذلك حثيا الرغبة في مساعدة المؤسسات المالية التي
استفادت وأثقلتها قروض باهظة من الخارج وسوف تواجه بزيادات ضخمة في
مدى. وانها المقومة بعملة نابلند البات إذا ما تم خفض العملة المحلية بنسبة كبيرة
وفي إثيوبيا حيث كان الرئيس سوهارتو يتلاعب بالمجلس المدون عن تحديد
أسعار العملة تحرك ربما بدافع رغبته في مساعدة أصدقائه للإفلات من القتاخ
المرتبطة على مضارباتهم يدونهم الثغمة بعملة أجنبية بالدولار والين. وانخذت ماليزيا
قرارا بوقف تحويل عملة الرنجيت الماليزية. وكان دافعها إلى ذلك حثيا رغبته في أن
لا يهاوى وضع بلونيرات بوميوترا. بسبب مساواتهم المالية.

وثمة خلاف في الرأي بشأن هذه البيانات عن الدوافع الخفية لتدخلات هذه
الحكومات والتي لا يمكن تقديم برهان عليها. ولا ريب في أن أكثر المشاركين في هذه
القرارات سوف يذكرون هذه التنازلات. وسوف يصفون هذه الدوافع على أنها نافع
عمامة للمجتمع كله. وربما يرى بعض المحللين الخارجيين في هذه المحاولات إنقاذ
الوضع أخصاء في التفكير. ويطعن أن اعتبارات أخرى كثيرة كان لها دورها أيضا.
ولكن ناسيسا على ما نعرفه عن الدوافع العامة لدى أكثر القادة السياسيين في هذه
البلدان الثلاثة نرى أن الدوافع إلى تلك الأحداث المحددة المذكورة انفا دوافع
مسنوبة ومقبولة عقلا.

وواضح أن المخاطرة المعنوية وثيقة الصلة من تواج كثيرة بالسلوك الاستثماري
المعاصر وضعف المؤسسات المالية. وهذا السلوك بنوره وثيق الصلة بعمق الانهيار

الأمم المتحدة التي عانت معه البلاد أثناء الأزمة المالية الآسيوية وليس هناك من شك كثيرا في أن المخاطر المعنوية التي نطقت إنما هي نتيجة للروابط الوثيقة بين الحكومة وقطاع الأعمال ولكن وصف هذا كله على أنه نتيجة محايدة الأقارب والأصدقاء. يعني ضمنا الموافقة على التفسير القائل بأن فساد الحكومة مسئول عنه حدث. وأن الأسلوب الآسيوي في قطاع الأعمال أسلوب فاسد إجمالا.

إن ما حاولت أن أتكره هنا هو أن الأسلوب الآسيوي في قطاع الأعمال وفي العلاقات بين الحكومة وقطاع الأعمال ظل أسلوبا ناجحا زمنا طويلًا في التكيف بالنسبة لقطاع الأعمال وللحكومة مع موقف يفتقد سبابة القانون التي هي شرط للنمو، وعلى الرغم من أن هذا النظام خلق العديد من المفرض التي يراه الكثيرون نوعا من الفساد إلا أن النظام في ذاته لم يكن فاسدا بطبيعته. على الأقل من حيث القيم السائدة في شرق وجنوب شرق آسيا خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وخلق النظام أيضا مخاطر معنوية أفضت إلى مسرب من السلوك الاستثنائي المفرط في مفاخرته وفي فدااته الكريمة اللازمة. إن أنواعا كثيرة من التزمين تخلق أيضا مواقف للمخاطر المعنوية. ولكنها لا تزيد أن نخلص بالدعوة إلى إعانتها

دلالات للمستقبل

العلاقات الشخصية في مجال قطاع الأعمال. والمرتكزة على الروابط الأسرية وغيرها أدوات كثيرة شرق وجنوب شرق آسيا على مدى ثلاثة عقود ولكنها أضرت بها خلال السنوات الثلاثة الأخيرة. وربما يمضي سنوات كثيرة قبل أن يتمكن النظم المالية التي تولدت عن هذا النهج للتطوير من أن تستعيد عافيتها. ولكن الشفاء في هذه الاقتصادات بتحقيق على الأرجح أسرع كثيرا. وتحقيقة أنه بدأ الشفاء في صيف ١٩٩٩. شئ هذا يلزم عن هذا القول إن النهج الآسيوي في مجال قطاع الأعمال والعلاقات بين الحكومة وقطاع الأعمال تسبب في مجرد عثرة على الطريق وأن الأمر لا يحتاج إلا لكي نعيده إلى حيث كان لبدء المسيرة من جديد.

الخطوة الرئيسية في هذا المجال ليست هي القول إن الروابط الشخصية المرتكزة على علاقات النمط الأمرعي أفضل وأقوى من السبل البديلة في توفير الأمن للصفقات الاقتصادية. ذلك أن هذه الروابط الشخصية ظلت زمنا بديلا ملائما من الأسلوب الذي تحقق به المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية الأهداف نفسها. ولكن هناك على الأقل سببان يدفعاننا إلى القول بأن ليس من المرجح في المستقبل أن يتحقق الأمر في بلدان شرق وجنوب شرق آسيا من خلال الروابط الشخصية.

السبب الأول أن الأزمة الآسيوية كشفت كل مظاهر ضعف للنظم المالية التي ظهرت في مثل هذا النوع من الهياكل. وثمة مشكلات عديدة من بينها أن هذه النظم المالية عندما بدأت نشاطها كانت أضعف من أن تصمد وتحصى أو تعمل نوعا من حركات رأس المال التي سبقت بها النظم المالية الغربية الدولية. لقد اتهارت ببساطة وانهارت معها الاقتصاد.

ويشهد الآن جهودا واسعة النطاق وبرسالة مرهنة بنسب ما الذي نحتاجه بلدان آسيا لإصلاح نظمها المالية، وثمة اقتراحات كثيرة مطروحة من بينها معايير محاسبية يمكن الاعتماد عليها، قانون تنظيمي قوي حصري، ومنافسة من جانب البنوك دولية راسخة الأركان. ولكن ليست المهمة مجرد مهمة تقنية بحتة - حدوده تتمثل في إعادة تحرير القوانين وتدريب المشغلين في البنوك.

وجدير بالذكر أن معهد هارفارد للتنمية الدولية، وآخرين، شاركوا في هذا الجهد في إندونيسيا على مدى سنوات وأعدت كناية القوانين. وتم تدريب العاملين في البنوك، وتهيأت للبنوك الخاصة السلطة اللازمة وبدأت إجرائاتها للنمو السريع، وتمتعت البنوك التجارية باستقلال ذاتي موضوعي من البنك المركزي. ومع هذا كله ونحن في عام ١٩٩٩ نجد أن جميع بنوك إندونيسيا مغلسة حسب التقويم الفني.

ربما لا يوجد نظام مصرفي يمكنه تحمل خفض العملة القومية ٨٠ بالمائة ولكن مشكلات إندونيسيا المصرفية حدثت أيضا نتيجة عقد كامل كانت خلالها البنوك لعبة في أيدي أبناء النخبة الحاكمة وما كان بإمكانها أن تصمد أمام حتى أزمة متوسطة

سور معاهدة حكومية. وكانت المشكلة في عام ١٩٩٨ أن الحكومة لم تعد في وضع يمكنها من المساعدة، وإن منع حدوث أزمات مماثلة مستقبلا يستلزم بالضرورة ألا نخضع البنوك لتدخلات تقديرية حسب عوى كبار الرسميين لدعم مشروعات أثيرة لديهم، ونحن سنتخذ البنوك عرضة للأخطار مادامت الحكومة تتدخل بشكل مباشر ومكلف لدعم مشروعات بذاتها، وهذا ما أكدته اليابان في تسعينيات القرن، وإذا ما أردنا تغيير موظفي الحكومة ومنعهم من مثل هذه التدخلات يتعين أن تكون هناك مؤسسة قادرة على فرض هذه القيود، وغنى عن البيان أن هذه المؤسسة في غالبية المجتمعات الصناعية وبعد الصناعية هي سيادة القانون التي يتولى رعايتها ونفيها جهاز قضائي مستقل

سبب تان يدعو إلى الاعتقاد بأن العلامات الشخصية بين الحكومة وقطاع الأعمال لن تكون مستقبلا بالقدره نفسها على ما تقدمه من خدمات هو أن النظام الاقتصادي الدولي ذاته تغير. وجدير بالملاحظة أن قواعد هذا النظام كما تتجلى في مؤسسات مثل منظمة التجارة العالمية، متداخلة مع منظومات اقتصادية قائمة على مبدأ سيادة القانون وربما كان بالإمكان صياغة النظام الاقتصادي الدولي على نمو مغاير ولكن لن يجرى تغييره بشكل أساسي لكي يتلائم مع البلدان النامية. ويمكن للاقتصادات النامية الصغيرة والفقيرة أن تختار البقاء خارج النظام أو معاملتها باعتبارها استثناء ولكن بلدان شرق وجنوب شرق آسيا ليست صغيرة ولم تعد فقيرة، إن أكثرها في عداد الأمم التجارية الكبرى في العالم، وتريد جميعها بل هي بحاجة إلى الوصول إلى أسواق أوروبا وأمريكا الشمالية وسواء كنا منصفين في ذلك أم لا، إلا أن هذا الوصول سوف يستلزم من بلدان شرق وجنوب شرق آسيا أن تعزز درجة خضوع والالتزام نظمها الاقتصادية لقوانين شفافة بدلا من إجراءات الموظفين الرسميين التي تتسم بالغموض والحماة.

إن القيم الآسيوية خدمت التطوير الاقتصادي جيدا على مدى نصف قرن تقريبا وليس مرجحا أن تخيم للمنطقة على النحو نفسه مستقبلا، ومن ثم فإن التحدي الآن هو استكمال عملية إنشاء اقتصاد حديث قوى مرتكز على أساس من القانون.

القيم الآسيوية هل تتحول من قوى محركة إلى أحجار دومينو؟

نوسيان ديبنيو ، باي

ليس في التاريخ كله مثال يناظر تلك الانقلابات الدرامائية في ثورة الاقتصادات الآسيوية خلال النصف الثاني من القرن العشرين. إن آراء منتشرة ومشاركة على نطاق واسع بشأن المحددات الثقافية الأساسية للبلدان الآسيوية تنقبت جميعها رأساً على عقب مرتين خلال أربعة عقود. أولاً، انبعاث استنقار طويلًا يقصر بأن الثقافات الآسيوية عنتفت إلى القدرة على توليد النمو الاقتصادي، فإذا به نهاري فجأة في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين إثر ظهور الاقتصادات المعجزة خاصة النمور الصغار الأربع وأصبحت المنطقة محط بحيرة العالم الزامي وكثر الحديث عن نموذج أسيري لسطور الاقتصاد. ولكن وعلى حين فجأة ظهرت في أواخر التسعينيات، أزمت وإسهارات. أولاً دخلت اليابان في حالة كساد خطير لم يكن ركوداً استمر عفداً كاملاً. وبعد ذلك انتقلت اقتصادات جنوب شرق آسيا وجنوب كوريا من أزمت مالية إلى نكسات أشد جذرية، وانحسر بوضوح عفد من العصابة عن نفوق القيم الآسيوية^{١١}

وبعد عفد من معدلات نمو سنوي بلغ ١٠ بالمائة، انكمشت الاقتصادات الآسيوية بمسبة ١٤ بالمائة عام ١٩٩٨ وخسرت أسواق الأسهم بها أكثر من نصف، قيمتها كذا خسرت عملاتها ما بين ٢٠ و ٧٠ بالمائة من قيمتها وفي عام ١٩٩٦ ترقق

١٠٠ إلى ٩٦ بليون دولار، وبين أموال إلى داخل خمس بلدان هي كوريا الجنوبية، والدانمارك، وماليزيا، وإندونيسيا، وسنغافورة. ولكن في عام ١٩٩٧ نافق إلى خارج هذه البلدان أكثر من ١٥٠ بليون دولار وانخفض نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي في إندونيسيا خلال سنة واحدة من ٢٠٢٨ دولار إلى ٦٠٠ دولار ودهبت منظمة العمل الدولية في تقديراتها إلى أن حوالي ١٠ مليون آسيوي فقدوا وظائفهم^(١)

وهكذا، وخلال عام واحد، أصبح مستقبل الاقتصادات الآسيوية موضع شك، وصعدت الطبول التي كانت تفرع مباشرة بعظمة الممارسات الآسيوية ولكن انهيار المعجزات لم يكن لينهي الحوار عن القيم الآسيوية بل أصبح الاهتمام بالمزيد من الدراسات التحليلية عن أهمية القيم في إحداث تطوير اقتصادي مستدام وبدلاً من الأسلوب اليخض من ضرب الصدور الذي افتقرن بقدر كبير من صورة أجدل في سنغافورة وماليزيا يشن القيم الآسيوية، أصبح المطلوب الآن تفسير كيف أن مجموعة القيم الثقافية ذاتها أنتجت كلا من القوى المحركة الدينامية وأحجار المومينو. شمة واقع مشاهد وهو أن أسبا انتقلت من أقصى الركود إلى نمو اقتصادي دينامي ثم إلى انهيار. يشكل هذا الواقع تحدياً خطيراً لصواب مفهوم العوامل الثقافية وبرزها في تفسير النضور القومي. وواضح هنا أن الثقافات الأساسية لم يعنوها أي تغيير.

ولكي تدرس وتتفحص هذه المشكلة المهمة نكون أولاً بحاجة إلى كشف الخطابات المغالية التي تحدثت عن تفوق افتراضي للقيم الآسيوية، ومن ثم للتمس فهماً أكثر واقعية للأداء الاقتصادي للبلدان الآسيوية. ونحن بحاجة أيضاً إلى توضيح بعض النقاط التي تضمنتها نظريات عن الثقافات الآسيوية والتطوير الاقتصادي بما في ذلك تقديم نظرية مغايرة إلى ما قاله ماكس فيبر عن الكونفوشيية وتطور الرأسمالية.

وسوف أقترح فرضين يمكن أن يفيدا في تفسير كيف أن القيم الثقافية نفسها يمكنها أن تنتج مثل هذه النتائج المختلفة جذريا. الأول أن القيم نفسها وإن كانت فاعلة إلا أنها في ظروف مغايرة يمكن، بل عادة ما تنتج عنها آثار مختلفة. معنى هذا

إن فهم الثقافات الآسيوية ظنت هي نفسها ولكن السياقات -عبرت، ومن ثم ما كان نتائج إيجابية قبلًا أصبح نتائج سلبية فيما بعد.

الفرص الثاثة أن القيم الثقافية هي دائما مجموعات أو مناقب من القيم بحيث إنها في أوقات مختلفة يمكن أن تتراكم وتندمج بأساليب مختلفة ومن ثم تكون لها نتائج مختلفة، ولكن هذه حجة تستلزم براعة لأنها مخادعة لذا يلزم الحرص تحاشيا لخطر دعم النزعة النفعية التي تلمس دائما وسيلة لاكتشاف اعتبارات ثقافية تفسر بها أي شيء يحدث. إن التفسيرات الصحيحة تستلزم تحديد مقبولات ثقافية ملموسة، واكتشاف روابط محددة بين العلة والخلول.

الوقائع فقط وليس الدعاية عن اقتصادات معجزة

يسيرُ أن نسطع الكثير من الخطاب الإنشائي الذي يحسمه الجدال بشأن القيم الآسيوية باعتباره مجرد تعبير عن نزعة الانتصار الآسيوية إثر النجاح الذي تحقق ولعل هذا عكس الحاجة إلى أن يصل الصوت إلى الأسماع وسط صخب نزعة انتصار الغرب بشأن كسب الحرب الباردة. ولكن ظهور النور الأربعة الصغار والظهور الوشيك للصين كقوة عظمى جديدة محتملة، والجميع يحاكي بدرجات مختلفة النموذج الياباني للرأسمالية الخاضعة لتوجيه الدولة، إنما يشكل كل هذا أساسا للقول بالتميز الآسيوي، ولا ريب في أن الحمم بين النجاحات الاقتصادية والحكم التسلسلي أفاد أن الاقطار الآسيوية أثارَت شيئا جديدا بلغت الانبعاث وسرعان ما أصبح مفهوم القيم الآسيوية عبارة موجزة تختزل تفسير الإنجازات الاقتصادية، وتمثل تبريرا لممارسات الحكومات التسلمة.

وإزداد الجدال بشأن القيم الآسيوية تعقداً إزاء أحداث السبعينيات. ذلك أن الغرب أيضا وليس الآسيويون فقط أصبحوا مهولين إزاء الاقتصادات المعجزة في آسيا بينما العرب في انحسار وظهرت الحاجة إلى منظر بعض من المزاعم المتداول فيها لكي نفهم إلى أي مدى تعتبر الإنجازات الآسيوية حدثا استثنائيا في الواقع والحقيقة.

أولاً، ظهر ميل غروب داخل بعض الأوساط بمدى في النظر إلى اليابان، رائد هذه الآراء، سادات المعجزة كبر من العالم الثالث والذي لم ينجح من عيشه وصحتها تأتي أضخم اقتصاد في العالم، والحقيقة أن اليابان بدأت التصنيع مع عصر البحري أو الإحصاء في الثالث الأخير من القرن التاسع عشر. وهذا هو ذات التاريخ تقريبا الذي بدأت فيه الولايات المتحدة التصنيع، وبحلول الحرب العالمية الأولى أضحت اليابان قوة صاعدة مهمة وقادرة على استغلال مظاهر النموذج داخل الاقتصادات الأوروبية للسيطرة على أسواق السلع الاستهلاكية خاصة النسيج حيث بدأت أولاً بكل من آسيا وأوروبا، ثم بأوروبا وأمريكا.

ومع حلول عشرينيات القرن كانت اليابان تتفكك ثالث أكبر أسطول في العالم واستطرد سحاري بمعدل هذا ضخامة، وبحلول أواخر الثلاثينيات أصبح اقتصادها ثالث أو رابع أضخم اقتصاد في العالم مع إخراج استثمارات في كوريا وتايوان وسنغافورة، وأضحت صناعاتها قبيل الحرب بدأ تغيب الصناعات على أوروبا وأنتجت، طابرة اندال قوة جوية عسكرية مذهبة. ومن ثم فإن من ينظرون إلى صعود اليابان القوة في عشرينيات القرن العشرين فقط إنما ينسون التحدي الذي كانت تتفكك اليابان وفرضته على حرب المحيط الهادئ.

كذلك هناك معالفة هي تغيير تخلف نول آسيا الأخرى خلال فترة ما قبل المعجزة وكلم كان يسير النظر إلى الإمبراطور فيانلونج باعتباره مخرجاً بسبب رسالته التي يطغح نحوسه إلى ملك جورج الثالث والتي قال فيها لم تجد شيئا عبقرياً يستحق التقييم كما وأن ليس لك أدنى حاجة لصناعات بلدكم. ومع هذا كان الاقتصاد الصيني في واقع الأمر. أثناء حكمه أكبر من اقتصاد بريطانيا. وحقيقة الأمر أنه قبل أن تغير الثورة الصناعية اقتصاد العالم وحينما كانت الزراعة لا تزال تتربع على عرش الاقتصاد، كانت شعوب آسيا الزراعية تنتج حصصاً كبيرة من الناتج الاقتصادي. ومع نهاية القرن الثامن عشر سجلت آسيا في مجموعها ٢٧ بلداناً من الناتج الاقتصادي العالمي. ولكن مع كل الدعاية المثارة عن اقتصاداتها المعجزة، نجد أن حملة أسوأ في منتصف تسعينيات القرن العشرين تراجمت إلى ٢٦ بلداناً، وكانت المطرة قد الكارثة بتدبير إلى أن آسيا لن تستعيد حصتها قبل عام ٢٠١٠.

وطببعي أن الشيء الذي أثار اهتمام الناس خلال العقود الأخيرة هو معدلات نمو الاقتصادات الآسيوية. وأحسن الآسيويين بالرهبة إزاء اقتصاداتهم التي تزهر بتحقيق معدلات نمو ١٠ بالمائة بينما القرب ٣ بالمائة وبعياً أقل. ولكن تركّز الاهتمام على أرقام النسب المئوية وليس على صافي النمو بالصناعات المنطقية. إذ على الرغم من الإثارة حول نمود ١٠ بالمائة في الاقتصاد الصيني، تظل الحقيقة الواقعة وهي أنه لم يحدث خلال سنة واحدة من سنوات هذا العقد أن حقق النمو إنتاجاً يعادل إضافة للاقتصاد الصيني وبقارى صافي النمو في اقتصاد الولايات المتحدة في تلك السنة ذاتها. وهكذا فإن الصين في كل سنة من السنوات المسمعة عقد النمو لم تكن قادرة على اللحاق بل كانت عملياً تتراجع أكثر إلى الخلف. والواقع الصائبي الذي لا مغيص عنه هو أن ١٠ بالمائة من اقتصاد ٦٠٠ بليون دولار أقل من ثلث ٢,٥ بالمائة لاقتصاد ٧,٥ تريليون دولار - ٦٠ بليون دولار مقابل ١٨٧,٥ بليون دولار. والمغزى هنا أن تركيز الاهتمام على أرقام النسبة المئوية للنمو دون اعتبار للأرقام الأساسية يمكن أن يؤدي إلى انطباعات زائفة خطيرة.

وليس هدى مما أشرت إليه التقليل من قدر إنجازات الآسيويين ولكن فقط أن أعارض ميلا إلى التكبير وكأننا إزاء سحر يتعمل فيما نسميه المعجزات. حقا حدث تحول تاريخي في ظروف المعيشة وأفاد الأسر الآسيوية من معدلات النمو. ولا ريب في أن الصيني إذ يرتفع دخله من ١٠٠ دولار للفرد عام ١٩٨٥ إلى ٣٦٠ دولار عام ١٩٩٨ إنما يعني أنه يوجد الآن أكثر من جهاز تليفزيون ملون لكل بيت، بينما كان أقل من أسرة من بين خمس أسر تملك جهازاً واحداً. وبعد أن كان ٧ بالمائة من الأسر نملك ثلاثة أصبحت النسبة الآن ٧٣ بنقائة^(٢٧) حقا شهدت ظروف المعيشة تحسناً واضحاً وأن الصينيين لهم كل الحق في الاعتقاد بأن مستقبل أبنائهم سيكون أزهى وأجمل.

ماذا قال ماكس غيبر حقيقة

بعد أن وضعنا الوقائع إلى حد ما، أعود الآن لتفحص: لا اعتبارات النظرية في تحليل العلاقة بين القيم الثقافية الآسيوية والتطوير الاقتصادي، ولكنني سوف

استعرض كمقدمة ما اضطر إليه ماكس فيبر ليقوله في هذا الشأن وضيبي أن ماكس فيبر لا يزال الأستاذ الذي لم يبره أحد في دراسة الأصول الثقافية للرأسمالية. وقد وجد، كما يعرف الجميع، هذه الأصول في الأخلاق البروسنانتية التي تحولت للأسف بعد بواجها إلى مجرد صيغة، تزيد قليلا عن قسم الكشافة إذ تحولت إلى سرد مبتذل لقائمة من فضائل مثل الجدية في العمل، والتفاني، والأمانة والانضار والأهلية للثقة، وإرادة الإشباع المرجأ واحترام التعليم. ورأى فيبر، الأصول الثقافية للرأسمالية في صورة معقدة كثيرا ، ووقع أسير مفارقتين على وجه الخصوص.

الأولى تتمثل في الواقع التاريخي من أن الرهمان نذروا حياتهم فقط لاعتبارات تتعلق بالعالم الآخر، وعاشوا حياة نسله كامل في أويرتهم وأنشروا منطعات ذات كفاءة فريدة لتحقيق أرباح دنيوية. والمفارقة الثانية أن العناصر الحاسمة في خلق الرأسمالية هم الكالفينيون الذين آمنوا بالتدبير المسبق، وليس أولئك المسيحيون المؤمنون بأن الحياة الفاضلة والأفعال الصالحة سوف تلقى الجزاء في عالم آخر. وأخر فيبر بان نهج بفتن المحاسيات إزاء الثواب والعقاب يجعل الناس ناجو بيسر شديد، بينما القول بالتدبير المسبق خلق حساسا عميقا يهدم الأمان النفسي من شأنه أن يدفع الناس إلى الإمساك بثابة إشارة ممكنة تفيد أن بالإمكان أن يدخل ضمن زمرة المختارين ، ومن ثم فإن الدافع الرئيسي هو القلق النفسي.

وعقد فيبر دراسة تحليلية مفصلة عن الثقافة الصينية في مقارنته بين الكونفوشية والبيوريتانية. وأكد في دراسته هذه على الدرجة العالية التي يسود فيها السمد الكونفوشيوسي على مثله الأعلى التوافق مع الخارج، مع ظروف وأوضاع العالم⁽¹⁾ وأن الثقافة الكونفوشية صاغت المثل الأعلى في صورة التناغم بين توترات باطنية حادة أو قلق نفسي. ومن ثم لا مشكلات بالنسبة للأعصاب شأن الأوروبيين، كما يقول فيبر. وهنا إشارة إلى المشكلات التي تناولها فرويد بالتحليل.

ويسهب فيبر كثيرا في عرضه التفصيلي للشخصية الصينية لكونها في حالة توافق جيد، وأصير غير محدود و داب محكومة مع عدم إحساس بالرتابة وقدرة على العمل الدائب بوز انقطاع. ولكنه يؤكد أن هذه الخصال ليست هي النوعيات

التي يمكنها أن تنتج تلقائياً النظام الرأسمالي، وكان فيبر في الوقت نفسه صاحب بصيرة نافذة إذ أقر بأنها خصال يمكن أن تحقق لصاحبها مهارة فائقة في محاكاة الممارسات الرأسمالية. وقال "سوف يكون الصينى في جميع الاحتمالات قادراً تماماً، بل ربما يكون أقدر من اليابانى، على تعلم الرأسمالية التي تطورت تقانياً واقتصادياً تطوراً كاملاً في مجال الثقافة الحديثة".⁽⁹⁾

وهكذا بين بوضوح أن النقد الزاعم بأن التجارات الاقتصادية المعاصرة للبلدان الكونفوشية تثبت خطأ فيبر إنما يعبر عن قراءة غير سليمة لنظرياته، وتنبؤ فيبر بأن الصين ستكون قادرة على محاكاة الممارسات الرأسمالية في وقت ما، وواقع الأمر أن فيبر من نواح كثيرة يقاسم التنوير أراءه الإيجابية بشأن الصين، ولكن تظل الحقيقة التاريخية المتعسفة في أن النجاحات الأسبورية جاءت نتيجة الاتصال بالنظام الاقتصادي العالمي وليس نتيجة تطورات داخلية مستقلة ذاتياً.

التناقضات الظاهرية للعلاقة بين القيم الكونفوشية والسلوك الرأسمالي

عند النظر إلى تمثل الثقافات الكونفوشية للنظام الرأسمالي تواجهنا بعض المفارقات أو التناقضات الظاهرية التي تناظر تلك التي تعرضها نظريات ماكس فيبر عند حديثه عن السلوك الاقتصادي للرهبان وأتباع كالفرن مثال ذلك أن الكونفوشية وضعت الناجر رسمياً قرب أسفل السلم الاجتماعى دون الفلاح مستوى. ولكن التجار الصينيين وقد بات لزاماً عليهم أن يحيوا مع هذه الوضعة الاجتماعية، لم يكن أمامهم من خيار سوى التماس التقوى في جمع المال حقاً كان بإمكانهم تعليم أبنائهم لكي يجتازوا الامتحان الإمبراطورى ويصبحوا موظفين من الإدارة العليا (المناظرين). بيد أن هذا يعنى أن مشروعات الأعمال الناجمة سوف تمتد حيلاً واحداً فقط. ومن ثم لم يكن أمامهم من بديل سوى التخصص في مهارة ما يزدريها الباحثون الكونفوشيون من طبقة المناظرين. وحيث إنهم مهمشون داخل مجتمعهم فقد كان وضعهم مماثلاً إلى حد ما لوضع اليهود في أوروبا الإقطاعية.

المفارقة الثانية والتي تحير الأمريكيين وأثارتها قصص هوراثيو ألجير إذ تعجد العمل الدؤوب الشاق باعتباره السبيل المؤكد للانتقال من الأسعمال البالية إلى الثراء، تتمثل في أن الكونفوشيوسية احتفرت العمل الدؤوب الشاق وجميع أشكال الإجهاد البدني بينما رأت المثل الأعلى في حياة الفراغ والراحة دون مجهود، وكان السيد الكونفوشيوس يضع على أظافره صناعات طويلة ليثبت أنه غير مضطر إلى العمل بيديه. وعززت الطاوية بطبيعة الحال هذه النظرة حين رفعت إلى أسنى المستويات الفلسفية مبدأ يوه أو لا مجهود لإنجاز الأمور بأقل قدر من الطاقة التي يفقدها المرء. وتجد المثل الأعلى في التفكير العسكري الصيني هو كسب المعارك عن طريق إجبار خصمك على إنهاء نفسه دون أن يبذل المرء جهدا غير عادي، وأعتقد، في حدود علمي، أنه لا توجد ثقافة أخرى تناظر الثقافة الصينية في النظر إلى عدم بذل الجهد الشاق باعتباره مثلا أعلى، والتدبير بالعمل البدني الشاق باعتباره ضربا من الحق. ولهذا لا يرى الصينيين في سيدزيف منسأة بطولية بل رعاية للمرج، إن الثقافة الصينية بقت لا تضع العمل الشاق بصنائة كبرى الفضائل في ذاته بل أمرا لا فكاك منه عملية الضرورة.

إن الصينيين يدلا من أن يرى للعمل الشاق مثلا أعلى، سواء يؤكد على أهمية الحظ السعيد - باعتباره احتمالا نرجحه أكثر وأكثر الطقوس والشعائر الصحيحة والمناسبة. وأعود لأقول إن الطاوية بمفهومها عن الطاو، أي الطريق أو الشرع، أو قوى الطبيعة والتاريخ هي التي صاغت الأساس الفلسفي للنظرة الصينية الأساسية عن الحياة. وقد حددتها قوى خارجية للعناصر الفاعلة المعنية وإن بعض الناس أكثر مهارة من غيرهم في السباحة والاندفاع مع التيار ومن ثم ينعمون بالحظ السعيد. ولكن آخرين يقاومون التيار بحمق وعناد وهم الخاسرون منذ الميلاد. ولكن هذا التأكيد على الحظ السعيد يؤكد نهجا قديما إزاء الحياة - إذ هناك دائما أمور يمكن للمرء أن يتجزها لتزداد فرصه مع الحظ السعيد. ولكن إذا سارت الأمور على غير ما يشتهي فإن هذا مجرد سوء حظ ويأمل أن يتغير مع الوقت.

إن التأكيد على دور الحظ لا يدعم نهجا استبطانيا إزاء الحياة بل بدعم النظر إلى القارج والتوجه المفرط إلى الواقع. ذلك أن الناس سحاجة إلى اليقظة لاستغلال أي

شيء على نحو انتهازي يمكن أن يحسن من فرصهم للحظ السعيد. وأن هذا التقدير العالي للأهمية الكبرى للقوى الخارجية يخلق حساسية مفرطة تجاه الظروف الموضوعية ونجاح موقع الأرض وأهمية تحديد الوقت اللازم عند التصرف، ولذلك تتركز بؤرة الاهتمام عند اتخاذ القرار على الحكم الحذر والدقيق بشأن الموقف واستغلال أي مزايا متاحة.

لذلك فإن ما يبدو للوهلة الأولى تأكيداً على الحظ اعتماداً على العالم الآخر إنما له نتيجة مناقضة في الظاهر هي غرس تقويم عالٍ للحقائق الواقعية الموضوعية. وجعل هذا الترجيح من الصيني إنساناً يحلى من قيمة طابع وهيكل الأسواق. فالأسواق ليست تجريداً نظرياً عند الصيني بل حقائق دينامية مفعمة حيوية ونشاطاً

هذا الاستعداد للتفكير في ضوء أسواق محددة المفاهيم بوضوح يفسر لنا فارقاً مهماً بين الرأسمالية الصينية والغربية، الرأسمالية الغربية قوتها الدافعة هي التقنية. تبنى مصيدة فئران أفضل صنعا وعلى الناس أن يأتوا إلى عنينها. ولكن القوة الدافعة للرأسمالية الغربية اعتمدت دائماً على اكتشاف من بحاجة إلى ماذا لإشباع حاجة السوق. تسعى المؤسسات الغربية إلى تحسين منتجاتها وتقوية هيكلها التنظيمية، والعمل المشاق للحصول على اسم واعتراف بهذا الاسم. ولكن أصحاب المشروعات الصينية يحاولون التنوع، ويتجنبون الحصول على شهرة لإنتاج المنتج المتميز الأوسع. وهم دائماً على استعداد لتغيير الإنتاج استجابة لحاجة السوق. ويعرف الأمريكيون أنهم غارقون في قبض من السلع الاستهلاكية الواردة من تايوان والصين، ولكنهم لا يعرفون أسماء الشركات المنتجة لهذه السلع.

وعلى الرغم من أن الكونغوشية ازدرت الجهد المشاق البدني إلا أنها تؤمن بأهمية تحسين الذات، ومن هنا احترمت الثقافة حافز الإنجاز، إن مفهوم الحاجة إلى الإنجاز كما صاغه دافيد ماكلياند يصف قيمة ثقافية صينية مهمة. أثبت ماكلياند أن البلدان التي حققت نجاحاً في التطوير تحصل أيضاً على معدل مرتفع في الحاجة إلى الإنجاز الذي يجرى قياسه بوسائل شبيهة الحوافز التي تُعنها كتب الأطفال، إن كل محاولة لقياس الحاجة إلى الإنجاز بين الشعب الصيني تؤكد ما يمكن أن يفيد به

أي فهم عام وانطباعي عن الثقافة الصينية - أن الصينيين يحطون مرتبة مرتفعة في تقدير هذا الحافز، ويحلم الأطفال الصينيون أهمية الكد من أجل النجاح وأن من العار أن لا يرقى إلى مستوى توقعات الأبوين.

ومع هذا، وهو ما يبدو مناقضا في ظاهره، تؤكد الثقافة الصينية أيضا على عادة التراكل، وهو توجه نفسى يعارض مع المزاج العام للمتل الأعلى عند هوراتيو. ألجبر بشأن الفرد المعتمد على ذاته، إن الجمع المتناقض بين الإنجاز والانتكالية كان محوريا في ممارسات التنشئة الاجتماعية الصينية التقليدية التي التمس تعليم الطفل منذ نعومة أظفاره أن الاتباع الملتزم لرغبات الآخرين أفضل سبيل للأمن، وأن الاختلاف خطر. والنتيجة الرضى الإيجابي بالانتكالية أو الاعتماد على الغير.

وأدى الجمع بين الإنجاز والانتكال إلى فرض هدف ضمني لعملية التنشئة الاجتماعية الصينية التقليدية، ألا وهو الكد والمنافسة من أجل حسم متطلبات الإنجاز عن طريق إتقان تنفيذ الدور المنوط به داخل الأسرة. إذ بذلك يكون معتمدا أو متكلا على الأسرة على النحو الصحيح، وفي هذا الصدد تختلف معايير الأسرة الصينية عن اليابانية اختلافا واضحا. ذلك أن الإنجاز في الصين ينال ثوابه داخل الأسرة، ونظا الواجبات التي تفرضها الكونفوشية على الأبناء تجاه الآباء، وعلى الأخ الأصغر تجاه الأخ الأكبر التزامات على مدى الحياة. وهكذا نجد التقليد يتجه إلى الداخل، كما نشيع غريزة أساسية تتمثل في عدم الثقة بالناس في عالم كل ما هو خارج الأسرة.⁽¹⁾ ولكن في اليابان تجرى اختبارات الإنجاز عند كل من الساموراي وأسر التجار في ضوء المنافسة ضد الأطراف والقوى الخارجية. علاوة على هذا، فإن الأخ الأصغر له أن يستهل عملا على مسؤوليته الشخصية، وإذا نجح يوصف بكلمة جوسنزو Gosenzo أي رأس سلالة لأسرة جديدة.⁽²⁾

والملاحظ أن الموازنة بين الحاجة إلى الإنجاز وبيركات الانتكال ترتبط ارتباطا وثيقا بتطبيقات الثقة وبيناميات العلاقات الشخصية التي تخلق روابط من شأنها أن تيسر تشكيل شبكات اجتماعية. وفي حالة الثقافة الصينية تمتد روابط الأسرة خارجا إلى العشيرة ثم إلى روابط أعم تسمى *gusui*، أي الروابط الشخصية القائمة على

هويات مشتركة. ولعل ما هو أهم بشأن الممارسات الصنبية لما يسمى جوانشي في مجال التنمية الاقتصادية يتمثل في أنه يصبح من المتوقع لأطراف الرابطة أن يتقاسموا التزامات متبادلة حتى وإن لم يكن كل فرد يعرف الآخر معرفة شخصية جيدة إذ يكفي أنهم كانوا زملاء دراسة في الصف الدراسي أو في المدرسة، أو أبناء دفعة عسكرية واحدة أو غير ذلك من عناصر مشتركة تصوغ خلفية مشتركة بينهم. وهكذا تغدو قواعد روابط الجوانشي اعتبارات موضوعية يمكن للأطراف الاعتراف بها كأمر قائم بون أن تكون الأولوية للعواطف الذاتية لدى الأطراف المعنيين.

يفابل هذه الروابط عند اليابانيين ما يسمى كانكي Kankei وهي أكثر ذاتية وترتكز على مشاعر عميقة بالالتزام أو العرفان بالجميل - أهمية أون on وجيري aji. ويمكن للغرباء أن يفترضوا أن اثنين من الصين تجمع بينهما رابطة ما سوف تنشأ بينهما علاقة جوانشي، بينما تركز الروابط اليابانية أكثر على الخبرات المتخصصة.

العامل الثقافي في السلوك الاقتصادي

كما أوضحنا سابقا فإن الفرض الجوزي في هذا الفصل يقضي بأن ذات القيم سوف نترتب عيه نتائج مختلفة في ظروف مختلفة، إن القيم الرئيسية للاعتماد على شبكات اجتماعية (جوانشي) وتوهر نظرة بعيدة المدى، والنماس نصيب من السوق دون الربح والإشباع انرجيا والادخار القاسي من أجل المستقبل، جميع هذه القيم لها نتائجها المتباينة وفقا لحالة الاقتصاد ومستوى تطوره.

إن قواعد الثقة الأسرية وقواعد جوانشي تعني أن المشروعات الصنبية في البيئات السياسية الأسبق والأكثر اضطرابا كانت مقصورة على الإدارات الأسرية. وطبعي أنه حين تفقد مؤسسات الأسرة الثقة في الأغيار فإنها تعجز عن التوسع وتكوين فروع تزيد عما لديها من أبناء يتولون إدارتها⁽⁴⁾ ولكن بعد أن أصبحت البيئة السياسية في شرق وجنوب شرق آسيا أكثر استقرارا بدأت تتكون سريعا الشبكات الاجتماعية على امتداد روابط جوانشي. واتجهت بخاصة عمليات لصاراف في

المنطوق إلى أن تكون شخصية إلى حد كبير، وإلى أن تتبع سلسلة الروابط الشخصية ويقدم أنجر دفعا مهماً يفيد بأن الممارسات الصينية لتكوين شبكات فعلاً وراء البحار أعطت شكل رأس مال اجتماعي. وإن لم يكن هذا أساساً للديمقراطية كما هو حال رأس المال الاجتماعي عند روبرت بوتنام بل هو قوة لرأس مال اجتماعي يمكنه أن يوفر الأساس لتطوير الاقتصاديات، وركز أنجر اهتمامه على تايلاند، وأوضح كيف أن الصينيين اعتمدوا على روابطهم لتيسير تدفق رأس المال حتى تمضي لهم نحويل تايلاند إلى "معجزة اقتصادية"^(١)

وتعتبر روابط "جوانغشي" أساسية أيضاً لتفسير التوسع السريع المذهل لاستثمارات الصينيين فيما وراء البحار في المنطقة الساحلية للصين. إذ مع انفتاح دنج هسياو بنج على العالم الخارجي بدأ الصينيون من هونج كونج وتايوان والجاليات الصينية في جنوب شرق آسيا في العودة إلى مدن وقرى الأسلاف في الصين. وقبلتهم الصين على الفور وشجعتهم على الاستثمار في تطوير الاقتصادات المحلية قصد أبناء هونج كونج مدينة جوانغونج، بينما ذهب أبناء تايوان إلى إقليم فوجيان، وذهب آخرون إلى شنغهاي لإقامة مشروعات مشتركة، مع القيادة السياسية المحلية في العادة، لصناعة سلع للتصدير. وتوسعت التيسحة في هذا التوسع المذهل في مشروعات القرى والمدن، والملاحظ أن الصفقات تمت على أسس شخصية للغاية وليس أساساً قانونية، والتمس الصينيون فيما وراء البحار كل أشكال الترتيبات التي تعطيههم ميزة ابتداءً من الإعفاءات الضريبية لسنوات عديدة وحتى تثبيت الأجور المنخفضة.

وهكذا نجد أن تراث تكوين شبكات غير رسمية أفاد فترة من الزمن لإنجاز الأعاجيب من حيث نقل رأس المال سريعاً إلى داخل الصين لإقامة مشروعات جديدة أسرع كثيراً مما كان يمكن أن يحدث على أساس مفاوضات تعاقدية قانونية والملاحظ أيضاً أنه حتى رجال المصارف الأجانب أسرتهم روح ما ظنوه القيم الآسيوية، وأبنوا استعدادهم لتقديم قروض لمجرد غمزة عين وزيارة من الرسميين الصينيين، ولكن نقص الشفافية أو نقص القهم التشريعي للمؤسسات أدى حتماً مع

الوقت إلى رأسمالية محاباة الأقارب والأصدقاء وإلى انتشار الفساد. وطبعاً أن افتقار صعقات مشروعات الأعمال إلى أسس قانونية والتي ربما يسرت صفقات ومعاملات وقبلاً كانت الظروف جيدة، إنما يعنى أيضاً عدم وجود إجراءات واضحة للتعامل مع حالات الإفلاس إذا ما ساءت الأمور.

وبعد نوات تكوين الشبكات المسرح في اليابان لتمط من الروابط الوثيقة وتغير الرسمية بين رجال الأعمال والبيروقراطيين والسياسيين والتي أصبحت توصف باسم 'السباج الياباني' وتعنى أنماط الائتراء المتبادل والروابط الشخصية أن كميات ضخمة من الاعتمادات المالية سوف تتدفق مع أقل حاجة ممكنة للحسابات الرسمية أو مراجعة سلامة المشروعات وسداد افتراض لفترة من الزمن يقضى بأنه متى حافظ توجيه الدولة على الأسعار سليمة فإنه لا حاجة ماسة للقلق بشأن تعاملات الملتزمين على مواضع الأمور واحتمالات الفساد، ولكن حدثت الصدمات بعد ذلك. لم تكن النخبة اليابانية بنفس القدر المتوقع لها من الاستقامة، ووضع أن التعاون الوثيق بين الحكومة وقطاع الأعمال يعنى في التطبيق أنه حين سحبت الفرصة للدولة للتدخل من أجل مزيد من الإجراءات التنظيمية للمؤسسات المالية بأنها تقف عاجزة عن التعامل مع شركائها السابقين.

كذلك فإن ممارسات تشكيل الشبكات شجع فكرة أن المراجعة قصيرة المدى على ربحية المشروعات عمل غير ضروري. وإنما المرغوب فيه هو توفر نظرة طويلة المدى والتماس الحصول على حصة أكبر في السوق. ولقيت الرزية المفترضة لهذه الأطر الطويلة المدى تشجيعاً من الاستعداد الثقافي بأن يرى المرء مزية كبرى تعود عليه من خلال الإشباع المرجأ والاستعداد للمعاناة على المدى القصير مع الأمل في أن يحصل على عوائد أكبر بمرور الوقت مقابل الإخلاص. ومع الوقت، وحين جميع الاقتصادات في صعود وارتداد حقق هذا النهج منافع جساماً أصحابها، كذلك فإن التجارحات التي حققها اليابانيون جعلت غريبين كثيرين يعتقدون أن اليابانيين تيسرت لهم إستراتيجية فائقة لإنتاج الثروة، وترتب على ذلك أن كثيرين في مختلف أنحاء آسيا سعوا إلى محاكاة حافز اليابانيين للسيطرة على حصة في السوق وتأجيل أسباب القلق على الربحية

ولكن مع مرور الوقت ثبت أن النهج كارثي بسبب تراكم المديونيات ، كما أن الدافع القسري إلى السيطرة على حصة أكبر في السوق أنتج زيادة إجمالية في القدرة. كذلك فإن الافتقار إلى الشفافية وإلى الشعاير القانونية عند الاقتراض من البنوك ميا إمكانية لتوسعات ضخمة في القروض على أساس من توقعات غير واقعية بشأن ما يمكن أن يترتب على التوسع في الإنتاج. وتبين أخيرا أن هذا النهج لم يوفر عمليات مراجعة فعالة تكشف عما إذا كان رأس المال تم تخصيصه على أساس رشيد أم لا. وهكذا أصبح فائض الطاقة هو المعيار في صناعة إثر متناعه. وبدأ غريبا أن العالم لم يعرف أن شمة أزمة تخضم على الطريق عام ١٩٩٥ عندما أعلن مجمع صناعي راند "شايبول" في كوريا وفي زهو مفرد أنه خطط لاستثمار ٦.٥ بليون دولار في مجمع جديد لإنتاج الصلب، وصدر هذا الإعلان في وقت كان العالم غارفا بالفعل في فائض من الصلب يفوق حاجته.

والمعروف أن الممارسة المحاسبية الغربية الربع سنوية في صورة بيانات بالأرباح والخسائر، تزيد المديرين والمستثمرين بتفدية عكسية هاسعة توضح لهم ما إذا كان رأس المال تم تخصيصه بكفاءة ومن ثم توفر لهم آلية إرشاد لتوجيه اليد اتضفية للسوق. لهذا فإن الجمع بين الدافع إلى حصة أكبر في السوق لها أولوية على كل شيء، والتشبه فقط بالمدي البعيد، وفكرة أن معاناة الام الإشباع المرجأ عمل بطولى - وهذه قيم أسيوية جوهرية - كل هذا ألهم الأسيويين بسلوك مفيد اقتصاديا خلال المراحل الأولية للتطوير الاقتصادي ولكن هذا الجمع أيضا أدى بمرور الوقت إلى مشكلات خطيرة تتمثل في الطاقة الإنتاجية الزائدة عن الحد وعن الحاجة وفي عديد من اقتصادات الفقاعة.

والحقيقة أن جميع بلدان شرق أسيا كانت بها فقاعات كبرى من العقارات. إذ قيل إن أسعار العقارات في اليابان ارتفعت إلى حدود نثير السخرية حتى إنه قيل إن أراضي القصر الإمبراطوري في طوكيو يزيد ثمنها عن جميع العقارات في كاليفورنيا. ولم يكن ليصدق هذا الكلام عامة الناس فمصعب. بل صدقه أيضا كثيرون من رجال المصارف اليابانيين الذين من افترض أنهم أكثر علما وجديا، وانتشرت

الروافع في كل أنحاء شنهفائى في حى برنوبج لإقامة ناطحات سحاب - ويهوى بعض الصينيين القول إن الرفاعة أضمت الطائر القومي الصينى. ولكن المبانى التى اكتملت عام ١٩٩٧ لم تتجاوز نسبة الإشغالات فيها ١٥ بالمائة. كذلك المبانى التى اكتملت عام ١٩٩٨ بها عدد أقل من المستأجرين، وظلت المبانى ترتفع مادام المستثمرون يرون أن من واجبهم التظى بنظرة بعيدة المدى وأن يعانون بشجاعة ألم الإشباع المرجأ.

مثال درامى آخر يوضح كيف يمكن لقيمة ثقافية أن تعمل على نحو مفيد في ظروف ما ثم تصبح مصدرًا لكارثة بعد ذلك. ونجد هذا المثال في عادة الانخار عند أبناء شرق آسيا. نعرف أن أعلى معدلات الانخار في العالم يختص بها الصينيون، والتي بلغت ٢٠ بالمائة في السنوات الأخيرة. وأسهم هذا في توفير أكبر قدر من رأس المال اللازم للنمو الاقتصادي مع بداية الإصلاحات. ورحبت بنوك الدولة بشدق المدخرات التى تزايدت مع انتشار الرخاء. إذ إنها وفرت الأموال اللازمة للقروض التى تقدمها البنوك للمشروعات المملوكة للدولة. ولكن مشروعات القطاع المملوك للدولة تحولت إلى أفعال بيضاء ضخمة ولم يعد لدى بنوك الدولة أمل حتى في استعادة قروضها. وإن الشراء الوحيد الذى يجعل النظام مستمرًا هو استعداد الناس للانخار. ولم تعد البنوك قادرة على الوفاء بالتزاماتها إزاء المصارف الخاصة للمدخرين. شأن القطاع المملوك للدولة العاجز عن الوفاء - سببته، ولكن حيث لا مجال فخر أمام الناس لاستثمار أموالهم، فسوف تحصل عليها بنوك الدولة. وبهذا يستمر نظامًا قاشلاً طافياً على السطح دون أن يفرق

وإن نزوعاً مماثلاً للانخار هباً لليابان في بداية الأمر رأس مال وافر من أجل إتعاش الاقتصاد اليابانى في فترة ما بعد الحرب. ولكن ما كان ميزة في الماضى جعل من العسير على اليابان الخروج من حالة الكساد الممتدة. ويشعر الرسميون اليابانيون بالإحباط لصعوبة توليد زيادة على الطلب قادرة على انتشال الاقتصاد من ركوده. وسبب ذلك أن الشعب اليابانى الذى لا يزال يحتفظ بقدر من الذهنية الزراعية يؤمن بأنه إذا مال الزمان وقسا فإن عليه أن يرجئ الاستهلاك ويضاعف الادخار. وأكثر من

ذلك أنه حتى لو استطلعت السياسات المالية والعقدية أن تضع أموالاً في جيوب الناس، فإنهم سيورفضون زيادة الإنفاق، بل ربما يعمدون إلى زيادة الانخار توقعاً لمزيد من المشكلات مستقبلاً.

التماس السياقي الصحيح عند التحليل الثقافي

على الرغم من أن القصة أعقد كثيراً من أن نوفيها حقها في هذا الفصل إلا أنه من الواضح أن حالات الصعود والهبوط في الاقتصادات الآسيوية خلقت مشكلات خطيرة في مواجهة بحاة القيم الآسيوية. ولكن هذه التطورات لا تمثل تحدياً لفهم أكثر تطوراً للعلاقة بين الثقافة والنمو الاقتصادي. إن المشكلات تظهر عند محاولة قطع الطريق بفقرة واحدة بين استبيان الخصائص الثقافية العامة والنتائج الاقتصادية دون أن نضع في الحسبان جميع المتغيرات الداخلة والسياقات الموقفية. لذلك ليس من العلم أن نحاول وضع قائمة كونية شاملة لجميع القيم الثقافية الإيجابية والسلبية للتطوير الاقتصادي، ذلك أن ما هو إيجابي في ظروف ما يمكن أن يكون غير منتج في ظروف أخرى.

زد على هذا أن وضعنا للمعرفي الراهن يبقينا أمام كثير من الأسرار عن ديناميات التطوير الاقتصادي. إن لا توفر لنا نظرياتنا علاقات علّة ومعلول كافية وحاسمة بحيث تتمكن من معرفة الثقل النوعي المحدد للمتغيرات الثقافية، وإنا طرفنا جانباً جميع الاعتبارات العامة مثل الجغرافيا والمناخ والثروات الطبيعية، وقدرة نظام الحكم، وحكمة سياساته العامة، سنجد أن الفنة العامة للسلوك الاقتصادي واسعة بحيث تجعل من المستحيل أن نكون صارمين في تقييم أهمية ودلالة أية قيمة ثقافية بذاتها. إن بعض السلوك وهن التصرف الفردي، مثل المبادرة التي تمثل شرطاً جوهرياً لتنظيم المشروعات، بينما نجد سلوكاً آخر يفلح عليه الطابع الجمعي ويحدد طابع وهيكل المجتمع العام، ونحن بحاجة إلى أن نكون أكثر تواضعاً في ما نعزوه من ثقل وأهمية للمتغيرات الثقافية. ونحن إذ نقر بأنها مهمة إلا أنه من العسير علينا أن

نحكم إلى أي مدى هي مهمة في لحظة زمنية بذاتها، ذلك أننا نتعامل مع غمام لامع ساعات. أي مع عمليات تقريبية عامة وليس مع علاقات علة ومعلول محددة.^(١٠)

وهكذا حين نجمع هذه الخيوط معا للفحليل، يبدو واضحا أن دعاة القيم الاسيوية بالغوا كثيرا في تقديرهم لعجزات الاقتصادات الاسيوية وعجز الغرب. ومع هذا فإن من الصواب أن آسيا سوف تواصل عملية التحديث وسوف تنتج، خلال هذه العملية، أشكالاً وممارسات متميزة، وليس لنا أن نفاجأ بهذا، ذلك لأن القرب قائد التحديث لم ينتج ثقافة متجانسة. وإنما هناك فوارق دينامية بين كل المجتمعات الغربية الرائدة. وسوف تستمر الفوارق الثقافية وليس بالإمكان في غالبية الحالات أن نناول القول أي الثقافات هي الأسمى وأبها هي الأثني، إن مظاهر القوة والضعف سوف تنجلي في مجالات مختلفة وسوف تشمل على ممارسات متباينة. وغنى عن البيان أن التطوير الاقتصادي ليس حدثاً فريدا بل عملية مطردة للتاريخ، ولذلك سنشهد حالات صعود وهبوط في جميع البلدان، ومعنى هذا أن الأشكال التنظيمية التي كانت فعالة في استثمار حالة من التقنية يمكن أن تعمل عائقاً مع تقانات أحدث.

وبعد كل ما قلناه نقرر حقيقة مؤداها أن العديد من اقتصادات شرق آسيا انتعشت بأسرع مما توقع الكثيرون، ولا ريب في أن هذا الانتعاش يعكس في جزء منه العوامل الثقافية ذاتها التي أسهمت في النمو السريع على مدى العقود الأخيرة.

حداثات عديدة : بحث أولى في دلالات حداثة سُرق أسيا

تو وي - منج

الحداثة تجمع بين كونها ظاهرة تاريخية وإطار مفاهيمي. وتنبني فكرة الحداثات العديدة على فروض ثلاثة متداخلة: الحضور المتصل للتقاليد كعامل نشط في تحديد عملية التحيين، الصلة الوثيقة للحضارات غير الغربية بالموضوع لتوفير فهم ذاتي عن الحضارة الغربية، ثم الأهمية الكوكبية للمعارف المحلية.

جرت محاولة لاستكشاف الثقافة الاقتصادية والتعليم الأخلاقي في اليابان والنمور الصغيرة الأربع (تايبوان - كوريا الجنوبية - هونغ كونج - سنغافورة). وتضمنت هذه المحاولة دراسة أطر أو الصلة الوثيقة لهذا بالتقاليد الكونغوشية في حداثة سُرق أسيا من خلال أطر متعددة الباحث وفيما بين الثقافات. والملاحظ أن كل منطقة جغرافية شديدة التباين، وكل نهج مبحثي (فلسفي أو ديني أو تاريخي أو سوسيولوجي أو سياسي أو أنثروبولوجي) شديد التعقد، كما وأن التفاعل بينها يجزئ الصورة لما فيها من التباسات، ويكشف النقاش بشأن هذه النتائج أن تقييم تعبير النخبة الكونغوشية والعادات الثاوية في قلوب الناس وتكشف عنها القيم الكونغوشية في أمور حاسمة لفهم الاقتصاد السياسي والتسيب الأخلاقي لسُرق أسيا الصناعي.^(١)

التحديث

إن مصطلح 'التحديث' جرى استخدامه تاريخيا ليحل محل 'التفريب' للإقرار بالدلالة العالمية لعملية التحديث، وعلى الرغم من أن عملية التحديث نشأت أصلا في أوروبا الغربية إلا أنها أحدثت تحولا عميقا في بقية العالم بحيث بات لزاما تحديد معالمها في ضوء مفهوم أوسع من الجغرافيا، ويكشف لنا تضمين المفهوم البعد الزمني عن أن التحديث تطور متتابع لاتجاه كوكبي وليس مجرد دينامية تغيير في منطقة محددة جغرافيا.

ويعتبر مفهوم التحديث مفهوما جديدا نسبيا في التفكير الأكاديمي. جاءت صياغته أولا في شمال أمريكا خلال خمسينيات القرن العشرين على أيدي علماء الاجتماع وبخاصة تالكوت بارسونز الذي اعتقد أن القوى التي أطلقت من عقالها في المجتمعات عالية التطور، مثل قوى التصنيع والتحضّر، سوف تمتد لتشمل العالم كله. وعلى الرغم من أن هذه القوى يمكن تعريفها على أنها 'تقريب' أو 'أمركة' من حيث روح النزعة المسكونية، إلا أن مصطلح 'التحديث' أكثر ملاءمة وربما مصطلح محايد علميا.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن المصطلح الصيني للحدائق هو شيان دي هوا (Shiandehua)، ربما جاء تحت تأثير الحوار الفكري في اليابان. وصيغ هذا المصطلح خلال ثلاثينات القرن العشرين على مدى سلسلة من الحوارات تتناول قضايا إستراتيجيات التطوير والتي نظمتها أكثر الصحف الصينية تأثيرا وهي صحيفة شن باو (Shenbao) ومركزت الحوارات الثلاثة الرئيسية على الزراعة أم الصناعة والاشراكية أم الرأسمالية والثقافة الصينية أم التعليم الغربي. وكان الهدف أن تكون لهذه الحوارات الأولية في محاولة الصين للحاق بالقوى الاستعمارية (بما فيها اليابان). وخلقت هذه الحوارات خطابا غيا معيّرًا في التاريخ الفكري الصيني الحديث.⁽¹³⁾ علاوة على هذا فإن تركّز البحث على حالة الصين سوف يساعد في تحديد إمكانية تطبيق مفهوم التحديث على المجتمعات غير الغربية.

ولكن الرعم بنز حدائه شرق آسيا وشيعة الصفة بالههم الذاتي للغرب الحديث رعم قائم على صلب الفرضيات. ويقضى هذا الزعم بأنه إذا كانت عملية التحديث يمكنها أن تتخذ أشكالاً ثقافية مغايرة لتلك التي هي غرب أوروبا وشمال أمريكا، فإن هذا يقتصر بوضوح إلى أنه لا التفريب ولا الأمركة ملائمين لتشخيص الظاهرة. زد على هذا أن أشكال التحديث في شرق آسيا يمكن أن تفيد الباحثين الدارسين للتحديث لتطوير تقييم أكثر اختلافاً ودقة عن الغرب الحديث كمزيج مركب من إمكانات كثيرة وليس كياناً أحادياً يلتزم بحكم طبيعته مساراً خطياً واحداً

وإذا بدأنا ندرك التحديث من خلال أطر حضارية عديدة معروف بسفط القول بأن تجربة الغرب الحديث سوف يكررها بالضرورة بقية العالم، والحقيقة أننا إذا تفحصنا الأمر ملياً نجد أن الغرب الحديث نفسه يكشف عن توجهات منسارعة ومتناقضة، وأنه أهدى ما يكون عن نمودح التطوير المتلاحم في اساق، والملاحظ أن الفارق بين النهج الأوروبي والنهج الأمريكي في التحديث حسب التعريف العام لهما يعثل دليلاً قوياً يؤكد حجة التنوع داخل الغرب الحديث. وأمامنا بالفعل ثلاثة أمثلة للحدائنة العربية بريطانيا وفرنسا وألمانيا وثمة تباين واضح ومهم بين كل منها والآخر من حيث القسمات البارزة المميزة لعمنية التحديث، حتى أنه، من حيث الجوهر، يستحيل تعميم أي من المعرفة المحلية، وهذا من شأنه أن يقوض الانطباج القوي في الواقع ويغيد بأن جميع أشكال المعارف المحلية التي يمكن تعميمها، إن لم نقل عولتها، هي أشكال غريبة المنشأ.

ومع هذا فنحن عند متعطف حاسم وبتعمين التحرك بعيداً عن ثلاثة تقسيمات ثنائية مميصرية سائدة وإن أضحت بالية: التقليدي/الحديث، والغرب/بقية العالم والمحلي/الكوكبي وإن جهدنا لتجاوز هذه التقسيمات الثنائية له دلالات بعيدة المدى من أجل استحداث فهم متقدم عن التفاعل الدينامي بين النهج الكوكبي (العولمة) والنهج المحلي وتعتبر حالة شرق آسيا ذات دلالة عميقة في ميحقتنا هذا، وسوف أركز اهتمامي على النزعة الإنسانية الكونفوشية باعتبارها منظومة القيم الأساسية التي يركز عليها الاقتصاد السياسي لشرق آسيا، ولغيداً بملاحظة تاريخية.

سواء كانت فلسفة هيجل عن التاريخ أم لم تكن علامة على حدوث تحول حاسم رد الكونفوشية وكل التقاليد الروحية الأخرى غير الغربية إلى فجر الروح، فإن الممارسة العامة في الصين الثقافية لتحديد الأخلاق الكونفوشية بأنها إقطاعية إنما بنيت تأسيساً على أطروحة مكينة تؤكد الحتمية التاريخية المشار إليها ضمناً في الرؤية الهيجلية. ويمثل وجه السخرية في أن كل مشروع التنوير كما عبر عنه سؤال كانط المعبر عن العصر "ما هو التنوير؟" إنما كان عملياً تأكيداً على أن التراثات الثقافية خارج الغرب، وبخاصة الصين الكونفوشية إنما طورت مجتمعة منظماً بون الإفادة في ذلك بدين قائم على الوحي

ويذهب المفكرون المعاصرون من أمثال جورج هابيرماس، إلى أن ما حدث خلال القرن التاسع عشر عندما شملت بيناميات الغرب الحديث كل العالم عبر مسيرة قلقة على طريق التقدم المادي لم يكن تحديداً نسخة إنجاز وتطبيق مباشر للتنوير، وإنما حدث العكس. ذلك أن مسار العقلانية حسب تصور وإدراك التنوير قوضه بالكامل برومثيوس المطبق الذي يرمز إلى البحث الدوب والشاق من أجل التحرر الكامل من الماضي، وإلى السيادة الكاملة على الطبيعة. وربما كان مطلب التحرر من كل قيود وحدود السلطة والعقيدة الجامدة خاصة مميزة ومحددة لتفكير التنوير. كذلك فإن الموقف المثابر إزاء الطبيعة يمثل جزءاً من مكونات ذهنية التنوير، ولكن الغرب المتحلى بذهنية التنوير بدأ في نظر بقية العالم في صورة من يتميز بخاصية الغزو والهيمنة والاسترقاق وأيضاً بتمانج للازدهار الإنساني.

واشترك كل من هيجل وماركس وفبير في الاعتقاد بأن الغرب الحديث، على الرغم من كل مظاهر القصور، هو المضمار الأبعد للتقدم والذي يمكن لبقية بلدان العالم أن يتعلموا منه. إن ازدهار الروح أي عملية الحضمة التاريخية، أو القفص الحديدي للحدثة، إنما كان في جوهره إشكالية أوروبية. ولكن شرق آسيا الكونفوشية والشرق الأوسط الإسلامي، والهند الهندوسية، وجنوب شرق آسيا البوذي، كانوا جميعاً عند الطرف الأخير المنلقى لهذه العملية، وإن التحديث كعملية تجنيس سيؤدي في النهاية إلى جعل التنوع الثقافي لا فعالية له إن لم يجرده من أي معنى أو قيمة ولم يكن من المتصور أبداً أن الكونفوشية، أو في موضوعنا هذا أي

نراث رويحي محر غير عربي، يمكنه أن يؤثر في تشكيل عملية التحديث، ولهذا ساد الاعتقاد بأن التطور من التقليدي إلى الحديث تطور حتمي ولا رجعة عنه.

وإن ما سبق أن افترضه بعض أصحاب العقول متقدمة النكاه في الغرب الحديث بأنه حفيظة بديهية، تحول في السياق الكوكبي إلى أمر ضيق الفكر إن الانتقال الصريح الذي كان متوقعا من التقليد إلى الحداثة لم يحدث في بقية العالم ولم يقع تحديداً في غرب أوروبا وشمال أمريكا. والمعروف كمعيار عام أن التقاليد تواصل فرض وجودها كعناصر فاعلة نشطة في صياغة أشكال متعايزة من الحداثة، ويفيد هذا ضمناً أن عملية التحديث ذاتها افترضت دائماً تنوعاً في الأشكال الثقافية الضاربة بجنورها في تقاليد محددة والاعتراف بالأخوية الراديكالية وصلتها الوثيقة بفهم المرء بذاته بالقرن الثامن عشر يبدو أكثر قابلية للتطبيق على الوضع الراهن في المجتمع الكوكبي بدلاً من إغفال أي من التحديات لبنية العقل الغربي الحديث في القرن التاسع عشر وعلى مدى الشطر الأكبر من القرن العشرين. وإن اتجاه القرن الثامن عشر نحو الانفتاح إذا ما قورن بالرؤية الحصرية في القرنين التاسع عشر والعشرين ربما يكون مرشداً أفضل لحوار الحضارات.

إن الحوار الراهن بشأن "نهاية التاريخ" و"صدام الحضارات" إنما يهدس فقط سطح الإشكالية التي أورد استكشافها، والملاحظ أن حالة النشوة المتولدة عن انتصار الرأسمالية وتوقع اطراد المسيرة الديمقراطية الليبرالية وأن تكون مقبولة عالمياً لم تعش طويلاً، ويرمز ظهور "القرية الكونية" التي هي على أحسن الفروض مجتمعاً متخيلاً، إلى الاختلاف والتباين والتميز الصريح، ووضح أن الأمل في أن ترسخ العولة الاقتصادية المساواة، سواء مساواة في النتيجة أو الفرض. إنما هو تفكير ساذج، إن العالم لم يكن أبداً منقسماً على هذا النحو من حيث الثروة والقوة وإمكانية الحصول على المعلومات والعرفة، وأضحى التحلل الاجتماعي على جميع المستويات ابتداءً من الأمرة إلى الأمة، ممأً خطيراً في كل أنحاء العالم. وحتى إذا أفسحت الديمقراطية الليبرالية مقبولة كمثل أعلى على نطاق واسع وكأمل تتطلع إليه بقية بلدان العالم، فإن الزعم بأنها سوف تغدو تلقائياً الخطاب المهيمن في السياسات الدولية إنما هو ضرب من التعلل بالأمانى.

وإذا كان 'صدام الحضارات' منبأ على أساس من الحكم السديد الذي يقضى بأن التعددية الثقافية قسمة قائمة أبداً على الساحة الكوكبية، إلا أنها لا تزال تضرب بجذورها في فكرة بالية تتمثل في تحريض الغرب ضد بقية العالم. وإن الافتراض المقبول عفاً ويمكن الدفاع عنه القول بأن أشكال المعرفة المخنية الغربية هي فقط التي يمكن تعميمها، بل يمكن على الرغم من ذلك جعلها عالمية وأطروحة الاستثناء الغربي. وإذا كان 'صدام الحضارات' إستراتيجية لتعويض القوة المقتنعة للقيم الغربية الأثيرة فإن هدفه في التحطيل النهائي يماثل نهاية التاريخ، فيما عدا الإشارة التحذيرية التي تفيد بأن المرحلة الأولية، من حيث هي عملية مطردة، ربما تشير ضجر دعاء الديمقراطية الليبرالية الغربية.

وإذا تأملنا كلا من نهاية التاريخ و'صدام الحضارات' من حيث الدلالة الأعمق نجد أن أياً منهما لم يدرك الهم العميق للمثقفين الغربيين الحديثين. إذ على الرغم من كل مظاهر الالتباس حول مشروع التنوير إلا أن أطرافه ضرورية ومستصوب من أجل ازدهار البشرى. ولعل التبادل المستمر المتوقع بين العقلانية النواصلية عند هابيرماس والليبرالية السياسية عند جون رولز هو أكثر شيء. واعد في هذا الجهد، وأن التحديات التي تواجه هذا النمط من التفكير الموسوم دائماً بما بعد الحداثة هي تحديات رهبة، ولكن ليس المكان هنا لعرضها، ولكن يكفينا الآن الإشارة إلى أن الوعي الإيكولوجي، والوعي بالمساواة بين الجنسين، والتعددية الدينية والأخلاق الاتحادية كل هذا يشير بقوة إلى محورية الطبيعة والروحية في الاستجابة الآنية للبشرية. وإن عجز مفكرينا التنويريين المعاصرين عن أن يأخذوا على نحو جاد الهموم النهائية والتناغم مع الطبيعة كعناصر تكوينية في تفلسفهم هو السبب الرئيسي الذي يوجب عليهم الاستجابة إبداعياً إزاء نقد ما بعد الحداثة، وتكمن وراء المشهد مسالة المجتمع الحضري، إننا الآن بحاجة ملحة لمنظور كوكبي بشأن الوضع البشري مؤسس على رغبتنا في التفكير في ضوء المجتمع الكوكبي.

وجدير بالملاحظة أن الإخاء - المعادل الوظيفي للمجتمع المحلي - حظي، دون قيم التنوير التي دعت إليها الثورة الفرنسية، باهتمام قليل جداً من قبل المفكرين

السياسيين المحدثين. كذلك فإن الاهتمام بناسيس العلاقة بين الفرد والدولة منذ كتاب جون لوك رسالة عن نظام الحكم ليس هو طبيعة الحال الصورة الكائنة للفكر السياسي الحديث. ولكن لا سبيل إلى إنكار أن المجتمعات المحلية خاصة الأسرة، ترجعت إلى الخلفية وكانها أمر لا يؤبه له في التيار العام للخطاب السياسي الغربي، وإن افتتان هيجل بالمجتمع المدني فيما بعد الأسرة ويون الدولة عجلت به أساسا ديناميات البرجوازية وهذه ظاهرة حضرية مميزة شكلت خطرا يتهدد جميع المجتمعات التقليدية لقد كانت نظرة نبوية نافذة إلى المستقبل وليست تحليلا نقديا لقيمة المجتمع المحلي لقد ساء الظن إن الانتقال من المجتمع المحلي أو العائلي إلى المجتمع العام أشبه بصدع حتى أن ماكس فيبر أشار إلى الأخوة العالمية بأنها أسطورة بالية من مواريتث العصر الوسيط وليس بالإمكان تحققها في عالمنا العلماني الحديث الذي انكتمفت عن عينيه الفشاوة، ويمكن القول تأسيسا على المنطق السياسي والأخلاقي أنه لا بد وأن تبذل أسرة الأمم جهوداً مضنية للارتفاع فوق الخطاب الإنتشائي عن المصلحة الذاتية بقية إعادة النظم بالروح الكورموبوليتانية المميزة للتكافل.

وإن تفجر الاهتمام خلال العقود الأخيرة داخل أمريكا الشمالية بالمجتمع المحلي ربما حفز إليه شعور بالأزمة وأن التحلل الاجتماعي يمثل تهديدا خطيرا لرقاه الجمهورية. ولكن الظروف المحلية داخل الولايات المتحدة وكندا التي فتقت منها والهيبتها النزاعات العرقية واللغوية نشدها واضحة العيان في كل أنحاء العالم الأول الذي بلغ مستوى عاليا من التصنيع إن لم نقل ما بعد الحديث. وليس بعيدا حسم النزاع بين الشبكات العولمة بما في ذلك التجارة، والتمويل، والمعلومات والهجرة والمرضى، والنزعة المحلية الممتدة بجنورها إلى العرقية، واللغة والأرض والطبقة والعمر والإيمان نحن مجبرون بسبب المواجهات الوحشية وأيضا بسبب المصالحات المشجعة في كل أنحاء العالم إلى التعامل على أنيستمولوجيا إما - أو - وأن ندرك المجتمع العالمي المشخبل مجتمعاً متعدد الألوان وأن لغناه ظلال كثيرة ولا ريب في أن حالة حدائث شرق آسيا عن منظور كونفوشي تساعدنا على تبني نهج جديد في التفكير.

المنزعة الإنسانية الكونفوشية

اصطلحت عوامل كثيرة على إحياء التعاليم الكونفوشية كأيدولوجيات سياسية أو خطاب ثقافي أو أخلاق تجارية أو قيم أسرية أو روح احتجاج في شرق آسيا الصناعي منذ ستينيات القرن العشرين وشرق آسيا الاشتراكي منذ عهد قريب جداً، وعلى الرغم من التوتر والنزاع اللذين يهريان بجنورهما إلى روابط تاريخية بدائية (خاصة العرقية واللغة والقومية الثقافية والتوجه الحياتي) إلا أن النمط الشامل السائد في شرق آسيا هو التوحد القائم على قيم مختلفة اختلافًا واضحًا ومهما عن نهضة تنوير الغرب الحديث.

لقد نثر المثقفون في شرق آسيا حياتهم لدراسة التعنيم الغربي على مدى أكثر من قرن. ونجد في حالة اليابان كيف أن أبناء بيروقراطية الساموراي تعلموا المعارف المتفوقة المنمثلة في إنجازات الغرب من العلم والتقانة والصناعة التحريلية والمؤسسات السياسية من الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين والألمان، ثم في العقود الأخيرة من الأمريكان. وبأسلوب مماثل اكتسب الموظفون الرسميون الباحثون من الصينيين، ومثقفو الغابة الكوريون، والطبقة المثقفة الفيتنامية، المعارف من الغرب لبناء مجتمعاتهم الحديثة. واستطاعوا بفضل التزامهم بعملية تغريب موضوعية أو شاملة وربما محاكاة كاملة أن يغيروا نهجًا اقتصاديًا ونظام الحكم والمجتمع وفقًا لما تصوروه وبناء على خبرة أصلية أنه الأسلوب الحديث لطريقة العمل المتفوقة.

وإن هذا التطبيق الإيجابي مع الغرب، والمشاركة المنظمة في عملية أساسية لإعادة بناء عالم المرء، وفقًا للنموذج القريب أمر غير مسموق في تاريخ البشرية. ولكن الجهد الذي بذلته شرق آسيا عن عمد وقصد لكي تنفع بمواردها الروحية الخاصة إلى الطبقة ابتغاء استيعاب ثقافي شامل عزز الحاجة إلى الاحتكام إلى النمط الوطني عند إعادة صياغة ما تعلموه من الغرب. وغنى عن البيان أن هذا التصورج للتكيف الإبداعي الذي ظهر عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ساعدهم على أن يمثلوا وضعًا لأنفسهم على نحو إستراتيجي من أجل صياغة مركب جديد.

وحدبير بالذكر أن التراث الكونفوشي الذي تم نهميشه باعتباره صدى بعيدا
للماضى الإقطاعى انقطعت صلته إلى الأبد بقاعدته المؤسسية الإمبراطورية، ولكنه
احتفظ بأصوله داخل اقتصاد مرتكز على الزراعة، وفيكل اجتماعى محوره الأسرة،
ونظام حكم أبوى يعد أن أعيدت صياغتهم فى تجمع عنقودى جديد ولقد ظلت
الأيدولوجيا السياسية الكونفوشية عنصرًا فاعلا فى تطور دول اليابان والنمور
الصغيرة الأربعة، ونجدها واضحة أيضا فى العمليات السياسية لجمهورية الصين
الشعبية وكوريا الشمالية وفيتنام. ونظرا لأن الخط الفاصل بين شرق آسيا الرأسمالى
والاشتراكى بدأ يتمحى فإن الشكل الثقافى الذى يمر عبر خط التقسيم العظيم يتجلى
كخط كونفوشي الطابع على نحو مميز

كذلك فإن الثقافة الاقتصادية، والقيم الأسرية، والأخلاق التجارية فى شرق آسيا
والصين الثقافية عبروا جميعا عن أنفسهم فى صورة كونفوشية، وكما هو يسير أن
نفسر هذه الظواهر على أنها تبرير بعد حدائى- ولكن حتى لو قبلنا القول بأن التعبير
الكونفوشى ليس إلا ضرباً من الفكر البعدى، فإن تداول مصطلحات مثل الرأسمالية
الشعبية والترعة التسطنية اللينة وروح الجماعة. وتكوين توافق الآراء وصلات القرى
بين البشر، لتشخيص سمات بارزة فى اقتصاد ونظام حكم ومجتمعات شرق آسيا
فإن هذا كله يشير، من بين أمور أخرى، إلى الإمكانيات التحولية التى يتطوى عليها
التراث الكونفوشى للتحوّل إلى حداثة شرق آسيوية.

ونخص بالذكر أن حداثة الشرق آسيوية فى ظل نفوذ التراث الكونفوشى يبين
لنا رؤية متسقة عن نظام الحكم والقيادة:

• قيادة الحكم فى اقتصاد السوق ليست أمرا ضروريا
فقط بل ومرغوبا فيه. والاعتقاد بأن الحكم شر لابد منه وأن
السوق فى ذاتها يمكن أن تهين تيدا خفية لتنظيم المجتمع
اعتقاد يتناقض مع الخبرة العديدة فى الشرق أو فى الغرب،
وإن نظام الحكم الذى له أهمية حيوية لابتكار النظام والحفاظ

عليه هو النظام الذي يتميز بالاستجابية إزاء المتطلبات العامة، وبالمسؤولية عن رفاه الناس، ويقابلية المعاسبة من قبل المجتمع بمعناه الواسع.

« وعلى الرغم من أن القانون أمر جوهري باعتباره شرط الحد الأدنى لضمان الاستقرار الاجتماعي، إلا أن التضامن العضوي لا يتأتى إلا من خلال ممارسة مراسم وشعائر التفاعل البشري، إن من المستحيل أن تفرض قسرا النمط المتحضر للسلوك. وطبيعي أن التعلّم على أساس الثقة كمعيار للإلهام يستلزم مشاركة طوعية. ونعرف أن القانون وحده لا يمكنه أن يولد شعورا بالخزي والعار بحيث يكون موجها للسلوك المتحضر، وإنما السلوك المتحضر في صورة مراسم وطقوس هو الذي يشجع الناس على العيش وفق ما تقتضيه تطلعاتهم.

« الأسرة باعتبارها الوحدة الأساسية للمجتمع هي المحل البنفسى الذي تنتقل منه القيم الجوهريّة. وإن العلاقات الثنائية داخل الأسرة، التي يعاين بينها العمر والجنوسة والسلطة والمكانة والتراتبية، توفر بيئة طبيعية غنية لتسبيح لتعلم أبنائها الأسلوب الصحيح ليكون المرء إنسانا، وإن مبدأ التبادلية من حيث هو طريق للتفاعل البشري في اتجاهين يحدد كل أشكال صلات القربى البشرية داخل الأسرة، ولكن ربما كان العمر والجنوسة شرطين من أخطر الشرطتين في البيئة الأصلية الأولى للموئل البشري وأصبحت الآن هدفا لدفق متصل من المشاعر الحميمية الخاصة بالرعاية البشرية.

« المجتمع المدني لا يزدهر لأنه مضمار مستقل ذاتيا يعلو

على الأسرة وتتجاوز الدولة. وإنما تكمن قوته في تفاعله الدينامي بين الأسرة والدولة. وصورة الأسرة كككون أصغر ممثل للدولة، والمثل الأعلى للدولة كتمسكهم للأسرة، إنما يوضحان أن استقرار الأسرة مهم إلى أقصى حد لكل البناء السياسي، ومن ثم فإن من بين الوظائف الحيوية والمهمة للدولة ضمان التضامن المضمون للأسرة. ويوفر المجتمع المدني ضروريا متنوعا لتوسط المؤسسات الثقافية التي تسمح بالتفصيل على نحو مشر بين الأسرة والدولة، ولا ريب في أن التفاعل الدينامي بين الخاص والعام يمكن المجتمع المدني من أن يقدم موارد متنوعة ومثيرة للازدهار البشري.

« هوى بل أن يكون التعليم المعقدة المدنية للمجتمع. وإن الهدف الأول للتعليم هو بناء الشخصية. ويهدف المدرسة إلى غرس ثقافة بناء الشخص الكامل لذلك عليها أن تؤكد على العقل الأخلاقي وكذا العقل العرفي. وينبغي أن تعلم المدرسة من تراكم رأس المال الاجتماعي من خلال الاتصال، ويجب أن يكون دور المدرسة بالإضافة إلى تحصيل المعارف والمهارات، منسجما مع تطوير الأهلية الثقافية وإعلاء قدر القيم الروحية.

« حيث إن تثقيف الذات هو جذر تنظيم الأسرة ونظام حكم الدولة، وتحقيق السلام تحت السماء، فإن نوع الحياة في مجتمع بذاته رهن مستوى التثقيف الذاتي لأبنائه. إن المجتمع الذي يشجع التثقيف الذاتي كشرط ضروري للازدهار البشري هو مجتمع يرسخ القيادة السياسية المرتكزة على الفضيلة ويؤكد النصح المتبادل كأسلوب مجتمعي لتحقيق الذات، ويدعم قيمة الأسرة باعتبارها الوطن الصحيح الذي يتعلم فيها المرء كيف يكون إنسانا، ويرسخ الروح الدينية باعتبارها النقط المعيارية

التفاعل البشري، والتعليم باعتباره أداة بناء الشخصية الكونفوشية والتحديث

نبعد كثيرا عن الواقع إما زعمنا أن هذه المثل العليا المجتمعية متحفقة بالكامل في واقع حياة شرق آسيا. حقا إن مجتمعات شرق آسيا غالبا ما تكشف في حياتها العسلبية عن سلوكيات واتجاهات هي النقيض لما افترضناه القساعات البارزة للحدثة الكونفوشية ولكن شرق آسيا الآن، والتي عانت من الإذلال على أيدي الإمبريالية والاستعمار، تكشف بوضوح شديد على السطح على الأقل، عن بعض أكثر الجوانب سلبية للحدثة الغربية مع قدر من المغالاة الاستقلال والركانثيلية، والنزعة الاستهلاكية، والمادية، والجشع، والأنانية والنافسية الشرسة. ومع ذلك فإن شرق آسيا، وهو أول منطقة غير غربية يجري تحديثها، يكتف عن أن تصعد الكونفوشية دالات ثقافية بعيدة المدى.

إن الغرب الحديث الذي اغتذى على معلومات زمنية التنوير ميا قوة الدفع الأولى للتحول الاجتماعي على نطاق العالم وجدير بتلاخظة أن الأسباب التاريخية التي سارعت من عملية التحديث في غرب أوروبا وشمال أمريكا لسدت بالضرورة المكونات النبوية للحدثة. وإن الشيء المؤكد أن قيم التنوير، مثل العقلانية الذاتية، والحرية وحقوق الضمير، وأعمال القانون، والخصوصية، والفردية، هي جميعها قيم حديثة قابلة للتطبيق عالميا، ولكن كما يعيد انثال الكونفوشي، فإن القيم الآسيوية مثل النزاهة، وعدالة التوزيع، واجبة الضمير، المراسم والطقوس، الحمية العامة، والتوجه الجمعي هي أيضا قيم حديثة يمكن تطبيقها عالميا.⁽¹⁾

وإذا كانت الحدثة الكونفوشية ترفض بحسم الرعم القوي بأن التحديث في جوهره هو تغريب أو أمركة، فهل معنى هذا أن صعود شرق آسيا الذي يبشر بعيلاد قرن المحيط الهادى، يرمز إلى إبدال إطار فكرى قديم بإطار فكرى جديد؟ الإجابة قطعيا بالسلب وإن الفكرة من نوع الالتقاء انعكوس أو عود على يد، بمعنى أنه قد حان الوقت لكي يتجه غرب أوروبا وشمال أمريكا بأنظارهم إلى شرق آسيا الدامسا للإرشاد والتوجيه إننا هي فكرة بعيدة عن الحكمة إن ثمة حاجة واضحة لكي يعمل

العرب، خاصة الولايات المتحدة، على تغيير نفسه إلى حضارة معلمة ومنعلمة في آن. ولكن، على الرغم من هذا فإن ما تعنيه جداتة شرق آسيا هو التعددية وليس نحادية بديلة.

ولا ريب في أن نجاح شرق آسيا الكونفوشي في التحول للتحديث الكامل دون التفريب الكامل يشير بوضوح إلى أن التحديث يمكن أن يتخذ أشكالاً ثقافية مختلفة، لهذا فإنه من المتصور أن يجرى تحديث جنوب شرق آسيا وفقاً لنهج خاص معين دون محاكاة كاملة لا للغرب ولا لشرق آسيا. وإن حقيقة أن شرق آسيا الكونفوشي قدم إلهاماً لتحديث تايلاند وماليزيا وإندونيسيا إنما تعني أن ثمة أشكالاً للجداتة بوذية وإسلامية وهنوسية، وإنما ليست مستقلة فقط بل مرجحة. وليس ثمة ما يدعونا إلى الشك في أن أمريكا اللاتينية ووسط آسيا وأفريقيا والقرارات الوطنية العريقة في كل أنحاء العالم لديها إمكانية تطوير بدائلها الخاصة المتعايزة عن الجداتة الغربية.

ولكن هذه النتيجة الأولية والبدية الالتزام بالتعددية ربما لا تزال غير مكتملة النضج. غير أن أي إشارة إلى ترجيح حدوث هذا كتروجع من التعمية التاريخية تمثل صفقة قوية للتفكير بالتعمي. ونحن لا نريد أن نكون واقعيين من نوع العقول العنيدة ونعترف باحتمال حدوث هذا السيناريو. وإذا أصر العالم الأول لما له من أهمية وعلى مسئوليتنا على المغالاة في نظوره، وإذا مضى شرق آسيا الصناعي قدما في نموه المتسارع، وإذا أغرق شعب جمهورية الصين نفسه في التحديتات الأربع مهما كانت التكاليف، ترى كيف يكون شكل العالم بعد خمسين عاما الآن؟ ترى هل جداتة شرق آسيا وعد أم كابوس؟ لا يسع المرء إلا أن يتساءل.

وعلى الرغم من الأزمة المالية الراهنة فإن انطلاق شرق آسيا الكونفوشي خلال العقود الأربع الأخيرة - أقوى اقتصاد نابض بالحوية عرفه العالم - حدث له دلالات وأثاره الجيوبوليتيكية بعيدة المدى، وإن تحول اليابان من التلميذ المطيع الخاضع للوصاية الأمريكية إلى أقوى قوة تتحدى وحدها التفوق الاقتصادي الأمريكي يجبرنا على دراسة وتفحص الدلالة التركيبية لهذه المعارف المحلية المعيزة وإن سياسة الإصلاح والانفتاح التي انتهجتها جمهورية الصين الشعبية منذ ١٩٧٩ بقمت بها إلى أعلى لتصبح دولة متطورة عملاقة

وإذا كان انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي السابق علامة على نهاية الشيوعية الدولية كنتجربة نظام شمولى، إلا أن شرق آسيا الاشتراكي (البر الصينى وشمال كوريا وكندا فننام لأسعاب ثقافية) ماض على الطريق فيما يبدو لإعادة ابتكار نفسه فى الواقع إن لم يكن اسما ومع وجود الاتق من المنشقين فى الغرب، وشبكة واسعة على نطاق العالم يؤيدون استغلال التبت فإن وسائل الإعلام الأمريكية ترى، ومروج أن موقف الصين الراديكالى من الأخر يشكل تهديداً، ويبدو أمراً يدهيا أنه نظرا لإذلال العرب الإمبريالى لصين على مدى أكثر من قرن فإن الأثر قد يكون هو الحافز الرئيسى للصين لإعادة هيكلة النظام العالمى، ولا ريب فى أن ذكريات الأحداث على مسرح المحيط الهادى خلال الحرب العالمية الثانية، والحرب الكورية، تاهيك عن فينام، كل هذا بضفى مصداقية لأسطورة الطاعون الأصفر، كذلك فإن هجرة الأثرياء الصينيين من جنوب شرق آسيا وتايوان وهونج كونج إلى شمال أمريكا وأستراليا وسيز، وإذا يعزز أكثر وأكثر الشعوب بازعة وأن ثمة مؤامرة صينية لإعادة تنظيم علاقات القوى فى المجتمع الكوكبى

إن صعود شرق آسيا الكونفوشى - اليابان والنمور الأربعة الصغار والبر القارى الصينى وفيتنام وربما كوريا الشمالية - يقيد يأنه على الرغم من الاتجاهات الكوكبية التى تتحدد أولا على أساس اقتصادى وجيوبوليتيكى إلا أن التراثات الثقافية لا تزال تعزز نفوذها القوى على عملية التحديث وإذا كان التحديث بدأ أصلا فى العرب، إلا أن تحديث شرق آسيا اتخذ بالفعل أشكالا ثقافية مغايرة بوضوح عن أشكاله فى غرب أوروبا وشمال أمريكا، ويتعين علينا نظرييا أن نتحدث عن بدائل للحدثة الغربية، بيد أن هذا لا يعنى أن الحدثة الغربية مشاكل تاهيك عن إبدالها، بحدثة شرق آسيوية، وإن الزعم بأن القيم الآسيوية وليست قيم التنوير الغربى، أكثر تلاؤما مع الظروف الآسيوية الراهنة، وبالتالي، كما يقيد ضمنا، أكثر تلاؤما مع المجتمع الكوكبى البارغ فى القرن الواحد والعشرين إنما هو زعم يتطوى على ظلل إن لم نقل مخطئ تماما، إن تحدى المستقبل يتعتل فى ضرورة إقامة حوار حضارى كوكبى كشرط أولى لقيام نظام عالمى سلمى، وإن الحديث عن صدام حضارات يجعل الحوار أمرا لازما.

المعرفة إذن هي استعدادنا وشجاعتنا على فهم الأخرية الراديكالية كخطوة
ضرورية في اتجاها فهم الذات، وإن اتخذ الغرب من حداثة شرق آسيا مرجعا فإنه
سوف يبدأ شحذ رؤيته بشأن عناصر القوة والضعف في نموذجه عن بقية العالم،
ولا ريب في أن الاستجابية الذاتية العميقة من جانب الغرب سوف تمكنه من أن يقيم
كيف أن الروابط الأولية الضاربة بجنون عميقة في مجتمعات حية وواقعية ساعدت
على تشكيل تكوينات مختلفة للتجربة الحديثة

وهذه خطوة جبارة على الطريق نحو تواصل حقيقي بين الغرب وبقية العالم. وأنه
بنون ذلك قد يمتدحج علينا أن نؤسس ثقة مكينة وقيادية متعمدة فيما بين الخطوط
لنحضرية، ويمكن القول عمليا، ومن منظور المجتمع الكوكبي، إن التقسيم الثنائي بين
غرب وبقية العالم أمر غير ضروري وغير مستصوب كذلك هو أمر غير مقبول
تجريبيا، إن الغرب كقوة مهيمنة حاول الهيمنة على بقية العالم فسرنا، كما وأن بقية
العالم نفذ وبخلل تماما داخل الغرب نتيجة الهجرات المتعددة العمل ورأس المال،
والموهبة والابن، ومن ثم حان الوقت لحوار حضارات يرتكز على روح التكافل

الباب السابع

دعم التغيير

تغيير عقل أمة : عناصر عملية إبداع الرخاء

ميشيل فيريمانكس

مقدمة : يلوم البقرة لمسئوليتها عن عدم الرخاء

كف مسئولون في الحكومة والقطاع الخاص شركة مونيتور بعمل دراسة وتقديم توصيات عن كيف يمكن إنتاج الصناعات الجلدية في كولومبيا، هذا البلد القائم على جبل الأنديز، أن يكونوا أكثر رخاء عن طريق التصدير إلى الولايات المتحدة. وبدأنا في مدينة نيويورك بالبحث عن مشتري حقائب اليد الجلدية من مختلف أنحاء العالم وعقدنا لقاءات مع ممثلي ٢٠٠٠ مؤسس للبيع بالتجزئة داخل الولايات المتحدة. وتجمعت لدينا بيانات معقدة ولكنها تتلخص جميعها في رسالة صغيرة واضحة أسعار حقائب اليد المصنوعة في كولومبيا مرتفعة جداً بينما الجودة منخفضة جداً

وعدا إلى كولومبيا لنسأل أصحاب المصانع عن سبب تدني الجودة. وما الذي دعاهم إلى تقاضي أسعار مرتفعة قالوا لنا ليس هذا خطتنا. إنه خنث الدافع المحلية التي تمنعهم بالجلود. ذلك أن حكومة كولومبيا تفرض نسبة ١٥ بائناً تعريفية جبركية لصالح الدباغ مما جعل سعر الجلود المتأقسمة الواردة من الأرجنتين بكلفة للغاية.

سافرنا إلى الريف بحثاً عن أصحاب المدايح لاحتلنا كيف أن المدايح بلوت الأرض وانباء على المنطقة المحيطة بها بمواد كيميائية غير محتملة وأجاب أصحاب المدايح على أسئلتنا بسعادة وأوضحوا أن هذا ليس خطأنا . إنه خطأ المزارر. إذ مرود المدايح بجلود من نوع ردى، حتى يتسنى لها بيع لحم البقر بمبالغ مرتفعة مع جهد أقل، ولا يعدها كثيرا فساد الجلد.

وذهبنا إلى المزارر، ورأينا رعاة البقر والجرارين والمديرين الذين يستخدمون ببراعة ساعات التوقيت وسائلكهم الأسطلة نفسها، وأوضحوا أن ليس هذا خطأهم. إنه خطأ مربي الماشية وقالوا ها أنتم ترون كيف أن مربي الماشية بيالغون كثيرا في رسم أبقارهم بالحديد المحمى حتى يمنعوا رجال العصابات من سرقتها، خاصة أن بعضهم يعيشون في حماة أبخرة تجارة المخدرات. وخبيري أن عمليات الوسم بالكبر لكرتها تقصد الجلد.

ذهبنا أخير، إلى مزارع تربية الماشية، وتقع على مناطق بعيدة عن وسط المدينة. وبلغنا نهاية عممية البحث إذ لم نزع أحدا دون أن نلتقيه ونسأله. وحدث إلينا أصحاب مزارع تربية الماشية بلهجة سريعة مطية وقالوا إن اشكالات لديهم خطأهم. إنه خطأ البقرة. ذلك أن البقر نجى حسبما أوضحوا لذا، إذ بقاء البقر جلوده في الأسلاك المشائكة ليبرز جلده ولإبعاد الذباب الذى بعضه عن المنطقة

فطعن شوفا طويلا، وأغلقتنا بعنف أجهزة الكمبيوتر ونحن نمضى فوق ضرى بلتها المياه وأفسدت أذبتنا بسبب المواد الكيميائية المذابة فى المدايح وسبب الأرض الملوحة. وعرفنا أن صناع حقائب اليد فى كابلومبجا أعجز من أن يتأقنوا سنون الولايات، المتحدة الجذابة. وذلك لأن البقر أكم.

تفسيرات كثيرة للمشكلة

ثمة سبل كثيرة متباينة للتفكير فى الفضاياء التي واجهها أصداقنا فى كولومبيا. لتسبيل تفسير عالم اقتصاد كلر تقصة لوم البقرة ربما بلعى التحريفية الجمركية.

وبارك السوق نهدي إلى توازن جيد. أما المنظمات غير الحكومية فربما تعمل على تنمية السوق المصنوع من السلع الشائكة، وقد يعتمد مفكر معني باستراتيجيات مشروعات الأعمال إلى دراسة سوق المستهلك وتقسيمه إلى قطاعات. وربما يقول عالم اجتماع إن "مسنوى الثقة بين الأشخاص داخل المجتمع ضعيف جدا. وقد يقول عالم أنثروبولوجيا إن الناس - ببساطة - عند مرحلة مختلفة من تطوّرهم الاقتصادي، وحرى أن تتركهم وشأنهم لكن يتقدموا طبيعيا.

وهذه التفسيرات المختلفة لتجربتنا في كولومبيا تلقي أضواء كاشفة على التفسيرات المختلفة لعوقات الرخاء والحقيقة أن الرخاء يصعب تحديده معناه إن كما سينظر كثيرون إلى قصة البقرة في ضوء مغاير، كذلك تصادف آراء كثيرة متباينة عن معنى الرخاء وكيف نحققه، ورغبة في مزيد من الفحص والتوضيح لهذه النقطة سوف نحلل الرخاء، إلى مكوناته العامة، وأوضح ماذا الرخاء مهم. وأقدم عناصر ضمن عملية تغيير تهدف إلى تحقيق الرخاء

ما هو الرخاء؟

الرخاء هو قدرة الفرد أو الجماعة أو الأمة على توفير المؤن والغذاء وغير ذلك من سلع مادية تمكن الناس من العيش حياة طيبة⁽¹⁾ حسب تعريفهم لهذه الحياة وبسهم الرخاء في خلق مكان في قلوب وعقول الناس لتطوير حياة عاطفية وروحية سوية وصحية، حسب ما يؤثرون ويختارونه دون أن نقدرهم اهتماماتهم اليومية بشأن السلع المادية اللازمة للبقاء.

ولنا أن نصور الرخاء بحق ورصيد. إن الكثيرين من رجال الاقتصاد يرون وفقا من الداخل، وقدرة شخص ما على شراء طائفة من السلع أو حيازة قيمة ابتكرها شخص آخر. ونحن نستخدم فكره محسنة عن الدخل تسعى القوة الشرائية⁽²⁾ مثال ذلك أن متوسط دخل الفرد في رومانيا ١٢٥٠ دولار. ولكن قدرته الشرائية تقريبا ٢٥٠٠ دولار، وذلك لأن كلفه أشياء كثيرة أقل من السوق العالمية

والرخاء، أيضا بيئة قادرة على محسب الإنتاجية. وهكذا لنا أن نعبر الرخاء، طائفة من الأرضة⁽¹⁴⁾ وسوف أورد هنا سبعة أنواع من الأرضة، أو رأس المال، حيث تؤلف الأربعة الأخيرة رأس مال اجتماعي

١ - الهبات الطبيعية مثل الموقع، والموجودات تحت التربة، والغابات، والشواطئ والشاطئ.

٢ - الموارد المالية للأمة، مثل المدخرات والاحتياطيات المالية.

٣ - رأس المال الاصنوع بشريا، مثل المباني والجسور والطرق والموجودات من وسائل الاتصال عن بعد

٤ - رأس المال المؤسسي، مثل الحماية القانونية للملكيات الموسسة وغير الموسسة، والإدارات الحكومية ذات الكفاءة والفعالية، والثؤسسات التي تعظم إلى أقصى حد ممكن القيمة للمالكي الأسهم وتعوض العمال وتدريبهم

٥ - الموارد المعرفية مثل براءات الاختراع المالية والجامعات وقدرات مراكز التفكير الاستراتيجي.

٦ - رأس المال البشري الذي يتحثل في المهارات والرؤى المستقبلية النافذة والقدرات البشرية.

٧ - رأس المال الثقافي، وهذا لا يعني فقط الأداء الصريح للثقافة في صورة موسيقى ولغة ونقايد شعائرية، بل ويعني أيضا اتجاهات وقيم مرتبطة بالإبداع.

وإذا ابتعدنا عن التصور المفاهيمي للرخاء على أنه مجرد دقق متوسط داخل الفرد، فإن هذا يمكننا من أن نفكر في منظومة أوسع نطاقا وفي قرارات الاستثمار داخل بيئة عالية الإنتاجية⁽¹⁵⁾ تحقق ثراء وتبهي قدرات مكينة. ويرى امارتيا صن، الحائز على جائزة نوبل أن ميزة فكرة الرصيد أنها تبهي لنا رؤية أفضل، عن قدرة الأمة على إنتاج أشياء في المستقبل.⁽¹⁶⁾

لماذا الرخاء مهم ؟

نعرف أن الأفراد في مختلف أنحاء العالم لهم قدرات شرائية مختلفة، وأن البلدان تملك أرصدة من الثروات بنسب متباينة. وخصب ما يقول توماس سويل نحن بحاجة إلى أن تواجه أكثر الحقائق صخبا وإثارة والتي ظنت باقية على مدى قرون التاريخ الاجتماعي - الفروق الشاسعة في الإنتاجية بين الناس، والنتائج الاقتصادية وغير الاقتصادية المترتبة على هذه الفروق^(١). ونشير أحدث تقارير البنك الدولي إلى أن مستوى المعيشة في أقاليم كثيرة في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا يتهددهما خطر انخفاض الإنتاجية.

وثمة روابط وثيقة بين الفقر وسوء التغذية؛ وهن وضمو عضلي، تقزم الإنتاج، زيادة القابلية للعدوى، وتدمير القدرة المعرفية لدى الأطفال. إن ١٥ بالمائة من أطفال العالم يعيشون في فقر، بمعنى أن متوسط دخل الفرد أقل من دولارين في اليوم. والمعروف أن الغالبية الساحقة من جميع الأطفال حديثي الولادة في العالم يولدون في فقر. ونلاحظ أن متوسط العمر المتوقع ومحو الأمية وتوفر المياه الصالحة للشرب ونسبة وفاة الأطفال جميعها مترابطة ومرتبطة بإنتاجية ورخاء الأمة ففي البلدان منخفضة الدخل، نجد ٧-٦ امرأة من بين ١٠٠٠-١٠٠٠٠ يمتن عند الولادة حسب تقديرات عام ١٩٩٠، بينما النسبة في الاقتصادات المتقدمة هي فقط ١١ من بين ١٠٠٠٠٠ يمتن عند الولادة^(٢).

ولكن الفقر أكثر غمرا مما يشير إليه الإحصاءات، إن الفقر يدمر التطلعات والأمل والسعادة. وهذا هو الفقر الذي لا نستطيع قياسه ولكننا نحسه. وثمة دراسات كثيرة عن علاقة الترابط بين الدخل العالية والانتجيات الإنتاجية نحو السلطة والتسامح مع الآخرين ومساندة الحريات المدنية والانفتاح على الأجانب والعلاقات الإيجابية مع الرؤوسيين، وتقدير الذات، والإحساس بالأهلية الشخصية، والاستعداد لمشاركة في شؤون المجتمع المحلي وللشؤون القومية، والثقة بين الناس، والرضى بالحياة الشخصية. ومثالثنا على ذلك ما كتبه رونالد إنجلهارت المشارك معنا في

البدوة، إذ قال إن المعدلات المرتفعة في الإفادة الذاتية عن الرفاه الموضوعي والشخصي معا ترتبط بانسويات المرتفعة للرخاء. القوي^(٤١).

كيف نتحدث عن المعتقدات والرخاء؟

كل مجتمع به قطاعات لها معتقداتها المختلفة بشأن معنى الرخاء وكيف يتحقق. ولا ريب في أن الإقرار بذلك وفهمه يشكل أساسا لإنجاز التغيير. واستشهدت أنا وبسناسي ليندساي في كتاب "حرق البحر - رعاية الموارد الضخمة للنمو في العالم الدامي" عديدا من المبادئ ذات الصلة بالنماذج الذهنية^(٤٢).

* يتألف النموذج الذهني من معتقدات وأمقدمات وأهداف تتعير بانها مباشرة للشخص ولموسة ومحددة، إنها خريطة ذهنية توضح كيف يعمل العالم^(٤٣).

* هناك مجموعة من المعتقدات والمواقف هي إما مواتية للإبداع وخلق شروط الرخاء أو منافية لها^(٤٤). وتؤلف هذه المعتقدات نموذجا ذهنيا.

* يمكن تعديده وتكوينه واختباره تأسيسا على هدف معين بذاته ومحدد بوضوح، ويقول في هذا الشأن نوجلاس نورث العائز على جائزة نوبل، يستخدم البشر كلاما ... النماذج الذهنية ... والمؤسسات المبروغ أداء الاقتصادات^(٤٥).

* أخيرا يمكن تغيير النماذج الذهنية، إذ على الرغم من أن الثقافة تتضمن نقل المعنى من جيل إلى جيل^(٤٦)، إلا أنه ليس مرجحا أنها عملية وراثية "جينية"^(٤٧).

ويذهب أليكس أنكليس إلى أن العالم يشهد تقاربا عاما بين الأفعال والمعتقدات، ومقرر هناك شواهد على وجود ميل قوي لدى جميع الأمم للتحرر في انجاء زيادة

استخدام نعاذح الإساج المرنكرة على قوى غير حصوية، ومر ثم نحمد مدورها على النقاة الءبنة والعلوم التطبيقية ويرى أن هذه الترتبات الإنتاجية الجديدة تخلق معاذج مؤسسية جديدة وأدوارا جديدة للفرد، كما وأنها أيضا تستحث .. نشوء موافف وقبم جديدة⁽¹⁴⁶⁾.

ويقول جوزيف ستيجلتيز، كبير اقتصاديي البنك الدولي سابقا يمثل التطوير تحولاً في المجتمع، وحركة من العلاقات التقليدية، وأساليب التفكير التقليدية، وأساليب التعامل التقليدية إزاء أمور الصحة والتعليم، وطرق الإنتاج التقليدية نحو طرق وأساليب جديدة⁽¹⁴⁷⁾.

إذا كان مثل هذه الشخصيات المبرزة حريصة على عرض ومناقشة القضية، إذن لئذا حطة عمس الحكومات وأؤسسات الدولة كانوا من بحوث النماذج الذهنية؛ لماذا لا نشهد سوى عمليات تعزير قومية أو إقليمية شكية ومحدودة للغاية تأتي في موضعها الصحيح من أجل تغيير البنية العقلية؛ وما هي أوضاع أهم مؤسسات العالم في هذا المجال؛ ترى هل يفيد: وهد منها نقص في الإدراك، أو تخلف في الأدوات، أو قصور في الإجماع الداخلي، أو عيب في المعالجة السياسية مع أصحاب الأسهم ومع الصحافة، أو قضايا تتعلق بنظام الحكم أم البنية العقلية لديهم؛ وما نحن مرى حتى بول كرهجان، وهو من أكثر الاقتصاديين نفوذاً في العالم اليوم؛ يعترف بأن الاقتصاد ينمى بحالة من المفاجأة المذهلة من حيث طريقة التفكير فيما يتعلق بالافراد وحوافزهم .. ويبدو أن الاقتصاديين غير معينين بطريقة سبنة بالكيفية التي يفكر أو يشعر بها الناس عملياً في الحياة⁽¹⁴⁸⁾

وبعد مرور خمسة عقود من التصور البطيء المتير للإحباط في عالمنا الحيات، يمكن أن تقدم لنا النماذج العقبية أفضل وسيلة لفهم واقتحام مشكلة الفقر ويرى لورنس هاريزون منظم الندوة أن هذا النمط من التغيير سيكون عسيراً لأنه يستلزم قدرة على الاستبطان الموضوعي وعلى أن نعزو الأمر إلى عوامل داخلية تحس بقوة أكثر ناسائل حساسية تتعلق بصورة الذات واحترام الذات⁽¹⁴⁹⁾ ووافق أنكليسي على أن الاستبطان مهم إله سعة الأمة الحديثة التي تشدد على عملية مطردة لتحويل الذات .. [قالأمة الحديثة] أمة تصحح ذاتها ذاتياً⁽¹⁵⁰⁾

ونحن كعمارسين لا تكف عن التأمل والتفكير فما إذا كانت الأمم العميلة - أمسى الأمم التي سلكنا المساعدة من أجل تحسين اقتصاداتها - يمكنها أن تطور قدراتنا. أعظم من أجل التصحيح الذاتي. إننا لكي نستجيب لهم يتعين أن نتخذ الخطوة الأولى من بين خطوات كثيرة على مدى عملية التغيير وأن نساقي ما هو نموذج الأمة من أجل خلق الرخاء^{٤٥}

عناصر عملية التغيير

التغيير عملية غير محكومة بدقة ولن تتم وفقا لتواليته بسهولة وصفها - وعلى الرغم من هذا فإن من يريدون إنجاز ما يريدونه من تغيير خاص بهم مضطرون إلى أن يكون لديهم مخطط عام مشترك بينهم مع توفر قدر من الفهم الواضح للمكونات الضرورية للشروع بالتغيير، كما يتعين أن يتوفر لديهم نطاق واسع من المهارات والاستبصارات في مجالات كثيرة.

وإدعونا قادة الأمم من كل من القطاعين العام والخاص لسأعدتهم على تحسين أوضاع اقتصاداتهم خاصة ما يتعلق بقدراتهم التنافسية للتصدير. وعرفنا على مدى العقد الأخير أن وصفات الاقتصاد الكلي الموضوع تصميمها في العواصم السياسية والفكرية لشمال أمريكا وأوروبا غير كافية. وعلى الرغم من تعقد مباحث البحث واستلهاهم العديد من المجالات الفكرية المتنوعة سوف أخترلها جميعا إلى عشرة عناصر حساسة. وسوف أستعين بتوضيحات مستمدة من عملي في العديد من الأقطار وسوف أعمد في هذا الفصل إلى التركيز أكثر على الخطوات الخمس الأولى، حيث إنها هي التي تهيئ الظروف اللازمة لفهم الخطوات من ست إلى عشر^(٤٦).

فك شفرة الإستراتيجية التراهنه للرخاء

ثمة قواسم مشتركة كثيرة بين غالبية الأمم التي لا تخلق ثروة بمعدلات عالية وتغد سوامدنا أنها مفرطة في ركونها إلى الموارد الطبيعية، بما في ذلك قوة العمل الرخيصة، وأنها تؤمن بمزاجا بسيطة تتعق بالمناخ والموقع ونظام الحكم اثواني^(٤٧).

ولهذا السبب لا نعلم في العالب إلى تعزيز قدرتها على إنتاج سلع وخدمات متباينة تحلق لها فبعة أعظم على طلب عملاتها الراغبين في دفع مبالغ أكثر مقابل سلع أجود.

وإن تركز هذه البلدان على مزايا تسهل محاكاتها، وعلى أشكال متدنية من رأس المال، فإن منافساتها تقتصر فقط على مجال السعر الذي يتجه بعبء إلى خفض الأجور. ولا ريب في أن المناقشة على الاحتفاظ بالأجور متدنية تعنى المنافسة لمرقة أي البلدان يمكن أن يبقى البلد الأفقر أطول مدة ممكنة، وهذه صادرات ترتكز على الفقر وعلى خلق الثروات إن قدرة البلد على خلق كل من القيمة السعرية وغير السعرية للعملاء، داخل البلد وخارجها هي التي تحدد إنتاجيتها، ومن ثم رخاها^(٢٧).

وجدير بالذكر أن البلدان التي تظن أنها غنية بمواردها الطبيعية غالباً ما لا تكون غنية حقيقة. مثال ذلك فنزويلا، فهي بلد في حجم تكساس، تملك غابات شاسعة، واحتياطيات نفط، وسواحل جميلة، ومزيج من جماعات السكان الأصليين وشعوب من آسيا وأمريكا والملايا وإبغاليا والشرق الأوسط، ويعتقد كثيرون أن فنزويلا بإمكاناتها هذه هي أغنى بلدان أمريكا اللاتينية، ولكن القوة الشرائية للمواطن المتوسط انخفضت منذ مطلع سبعينيات القرن العشرين. وإذا أخذنا أرباح عام ١٩٩٧ المقيّمة على أساس النفط، وقدرها ١٤ بليون دولار، وقسمناها على سكانها وتعدادهم ٢١ مليون نسمة، سوف نجد أن دخل النفط يمثل أقل من دولارين في اليوم لدخل المواطن الفرد. زد على هذا أن هذه الأرباح لم يجد توزيعها بالتساوي أبداً، وتملك فنزويلا أعلى معدل زيادة للفقر في القارة. وإن أكثر من ٩٠ بالمائة من صادرات البلد تتألف من موارد طبيعية خام، ويفيد بحثنا بأنه كما زادت صادرات بلد ما في صورة موارد طبيعية، كلما قل الرخاء الذي ينجزه البلد للمواطن المتوسط من أبنائه.

وإن نظرة إلى الأشكال السبعة لرأس المال المذكورة سابقاً توضح حقيقة أن فنزويلا غنية بعباتها الطبيعية، وأنه حين ترتفع أسعار السلع يثرى البلد مؤقتاً بموارده المباحة. ولكن مرافق البلد من نقل ومواصلات مهالكة بعد أن كانت في قمة جودتها في أواخر السبعينيات. هذا علاوة على عدم كفاءة وفساد المؤسسات الحكومية، كما وأن علاقات الجامعة - الصناع الخاص لا بولد رأس مال معرفي. أما عن رأس المال

البشرى فإن فنزويلا تعاني من مشكلة، هي أن مستويات التعليم الابتدائي والثانوي بها من أخط المستويات في الفارة. وأخيراً فإن بعض القيم والمواقف السائدة في فنزويلا مناهضة للإبداع ومقاومة للتقدم. مثال ذلك أن مستوى الثقة والاحترام للقادة الفومبيين هو أدنى مستوى اختبرناه على الإطلاق. وعاشت فنزويلا ضحية نجاح زائف، ومواردها الطبيعية المفرطة في وفرها، وكذلك ضحية فشلها في تعلم كيف تتخذ اختيارات واقعية وكيف تبذل.

خلق إحساس بالإلحاح والعجلة

بعض البلدان على استعداد للتغيير، والبعض الآخر ليس كذلك. إن ما يخلق لدى الشعوب إحساساً قوياً بالضرورة الملحة لا يخلق لدى آخرين إحساساً كافياً بالإلحاح، إن الإحساس بالإلحاح يتشأ مع ظهور فجوة بين الواقع المأمول والحقيقة الواقعة، ويتشكل التوقع ويحدد مكانه في منظور معين تأسيساً على عارفين بالأحداث الخارجية مع شعور بهدف.

أعرف بلداً أفريقياً أقل انفتاحاً مما ينبغي للتغيير، وهذا البلد من أكثر البلدان مديونية في العالم من حيث نصيب الفرد من الدين، فقد أخذ أو اقترض 8 بليون دولار منذ 1991، وانخفض متوسط مستوى معيشة الفرد 1 بالمائة في السنة على مدى الفترة نفسها. وكشف اختصار فيروس نقص المناعة عن نتائج إيجابية لكل ثلاثة أشخاص بين كل عشرة وأصبحت صناعة التمديد التقليدية بالخراب، وغدت ضحية لنقص الاستثمار، وانهار الطلب والمنافسة، ويعيش كل سبعة أشخاص من بين عشرة على أقل من دولار واحد في اليوم.

وناقشت معهم نقص تمويل برنامج الحماية من مرض نقص المناعة (الإيدز)، وسألتهم ما الذي يريدون عمله إزاء انتشار المرض. قال لي أحد أعضاء مجلس الوزراء: «طالينا الناس بالنوقف عن ممارسة الجنس، وعندما أشرت إلى أننا نتطلع إلى بعض الأمور التي نعمل أوغندا على إنجازها قالوا لي إنهم غير معينين بلوغندا،

ذلك لأنهم هم. ولمت أوعدنا، كانوا يتمتعون بأعلى مستوى معيشة في أفريقيا منذ خمسة وثمانين عاما مضت. وأتوا إلى أن مجلس رئاسة الوزراء ببلدهم لديه محامين ومحاسبين وأنهم غير مضطرين إلى العودة إلى المدارس ليتعلموا ما الذي فعله أمم أخرى. وأغربوا في الصحافة عن انتقادهم للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وينقون باللوم، بسبب مشكلاتهم. على أحداث خارجية مثل تراث العرث العنصرى (الأبارتهيد) في المنطقة وعلى الحرب في أنجولا وقالوا إن خطتهم هي التحول إلى تصدير النزة، الذي يوفر لهم ميزة طبيعية، وأن يواصلوا الاقتراض من البنك الدولي. ونرى هذا البلد في عامنا الحالي مضطرا إلى استخدام أكثر من نصف حصته البالغة ٤٠٠ مليون دولار لسداد قروض قديمة

يمكن لأحدنا أن نعزو سلوكهم إلى الإيمان بالقدرية، وتبجيل الماضي حين تسير الأمور برخاء، مع الزهر الأعمى، مع قصور في الانفتاح والذي من شأنه أن يسد الضربق لوز التعلم والإبداع. وثمة شيء واحد يعنينى: هذا البلد مائة إلى مئتين من القشل إلى أن تنضخ وتتفاهم الأزمة البشرية وتجبرهم على التفكير في العقبات بعيدة الجنور التي تعرض إنتاجيتهم.

فهم مدى الاختيارات الإستراتيجية وصياغتها على أساس دراسة تحليلية

الكثير من الاختيارات المتاحة للمؤسسات والحكومات يمكن اختزالها في الفئتين

التاليتين

الاختيارات الصغرى أو الجزئية

ترتكز إستراتيجية مشروعات الأعمال على فئة موحدة من الاختيارات التي صيغت بهدف إنجاز مجموعة محددة بذاتها من الأهداف وفقا لطريقة محددة الشكل والواقعية. ونرى في البلدان النامية عددا قليلا من إستراتيجيات الشركات هي التي

تصاعق هذا على بحث جيد، ويجري عرضها في صورة صريحة، وبشرك فيها جمع قادة المشروع متعدين. ووجدنا سبعة أنماط من السلوك غير النافس على الصعيدين الاقتصادي الجزئي اعتماد مغرط على الموارد الطبيعية والعمل الرهيد؛ فهم سيئ للمشترى التي يفضلها العملاء الأجانب، نقص الخبرة فيما يتعلق بالأنشطة التنافسية؛ افتقار لتعاون فيما بين المؤسسات؛ فصور في العمل من أجل الأندماج مستقبلا في الأسواق الكوكبية؛ علاقة أبلوية بين الحكومة والقطاع الخاص؛ اتخاذ موقف دفاعي داخل الحكومة والقطاع الخاص والنقابات والبيديا (الإعلام).

هذه الأنماط السبعة هي المعيار لدى الشركات في بلدان لا يحصل فيها المواطن المتوسط على مستوى معيشة مرتفع وقابل للزيادة. وحصاد هذه النماذج السبعة صناديق بسيطة عادية تركز على المنافسة السعرية - والأجور المتخفضة - في سوق يتزايد فيه الطلب ويقل عوائد أقل.

وإن الحد من أنماط السلوك غير التنافسي يستلزم مجموعة من الاختيارات على مستوى المؤسسة تدور حول هيكلية تعليم جديد، وصناعة القرار. وتكمن داخل هذه النماذج فرصة خافية لخلق الرخاء.

الاختيارات الكلية

الاختيار الثاني هو مدى مساندة الحكومة للقطاع الخاص. يقول البعض إن الحكومة بحاجة إلى أن تقدم ما هو أكثر للقطاع الخاص، ويقول آخرون إن الحكومة بحاجة إلى أن تخلي الطريق. وإذا حاولنا تشخيص اختيارات الحكومة بصدد مستوى التدخل في الاقتصاد، نجد أننا إزاء مدى واسع من الاختيارات تتراوح ما بين الاشتراكية الكلاسيكية والفزعة النقدية، مثال ذلك أن حكومة كوبا تتحمل مسؤولية مغالى فيها من أجل رفاه المواطن المتوسط وتوفير المسكن، والرعاية الصحية، والتعليم، والتوظيف، والطعام، بل الترفيه والأخبار، وتحصد الدولة الملكية من خلال

المداونات الصغيرة، ويفترن هذا بتخليط مركزي يستخدم أهدافا كمية وأسعارا إدارية، وبمجال توزيع الدخل إلى التساوي كما يميل النمو إلى أن يكون منخفضا.

والنهج النقدي هو عقد اجتماعي مخفف ولكنه صارم بين الحكومة والقطاع الخاص، الذي يقول بتوجه إن الحكومة ستخلق بيئة اقتصادية كلية مستقرة، وأن منظمي مشروعات القطاع الخاص سيحققون النمو. وتؤكد هذه الإسفرائيجابية على استقرار السوق. وتخزين الأجور ومعدلات أسعار صرف العملة، وتسمح للسوق بأن تتطور. وتبدو هذه الإسفرائيجابية في ظاهرها أنها تسبب فقرا أكثر، وفجوات أوسع في الدخل، خاصة على المدى القريب. ونحقق في الاعتراف بأن للحكومة دور في عملية الإبداع. ونحن نعتقد أن هذا رد فعل ميالغ فيه إزاء سياسات التدخل الحكومي الفاشلة (مثل سياسة البديل عن الاستيراد في أفريقيا وأمريكا اللاتينية خلال السبعينيات والثمانينيات)

ويختلف نظرنا عن هاتين الإسفرائيتين الفوميتين. إذ إننا نؤمن بأن الحكومة تحتاج إلى عمل كل شيء، تستطبعه لمساعدة القطاع الخاص على النجاح فيما عدا أن يعوق المنافسة. معنى هذا الاستثمار أو مساعدة القطاع الخاص على الاستثمار بأرقى وأعلى أشكال رأس المال وطبيعي أن الحكومات في البلدان الأفقر عليه أن تفعل ما هو أكثر مما يحدث في البلدان الأغنى، ومن ثم يجب وضع تصميغ خاص جيد ومميز للعلاقة تأسيسا على مرحلة النمو التي يمر بها البلد وقدرات كل قطاع.

ضع رؤية ملزمة

تفيد الرؤية في خلق إحساس بفرض يشجع الناس على تغيير أفعالهم، ونعرض فيما يلي ثمانية عناصر جوهرية لتمويل ذهنى جيد، استنبطناها من خلال عملنا مع زعماء أوغندا.

١ - مستوى مرتفع ومتصاعد لمعيشة كل الأوغنديين.

٢ - فهم أن العالم تغير جذريا، تكاليف الاتصالات، والعقل والتعليم اخذت في الانخفاض السريع.

٣ - اعتراف بأن أومعندا معمعدة أكثر عما يجب على ميزات أساسية ويمكن محاكاتها بسهولة من أرضة يظن الأرض وبنطاق ورعاية الحكومة والعمل للرخص

٤ - فهم أن الثروة ترتكز على بصيرة نافذة، ورأس مال بشري متقدم ومواقف متركزة على المنافسة كقوة تحفز الإبداع وتدعم المبادرة الإنسانية والتعلم والثقة بين الناس والتعاون.

٥ - فهم أن استراتيجيات أوغندا ليست اختيارا بين نمو اقتصادي ومساواة اجتماعية، بل إن النمو الاقتصادي ييسر المساواة الاجتماعية والعكس بالعكس إذ كلما ازداد استثمارنا في الناس كلما أضحت فرصنا أفضل للنمو لصالح الشركة والبلد معا.

٦ - فهم أن الإنتاجية ليست مجرد منافسة بشأن أشياء، بل مقرة طبيعيا لأومعندا. التنافسية إنتاجية، وتتضمن الإنتاجية ما هي قطاعات الإنتاج التي تريد أن تنافس فيها، وأين تختار مجال المنافسة، وكيف تختار أسلوب المنافسة

٧ - الاعتراف بأن حكومة أوغندا يتعين عليها عمل كل ما تستطيع لمساعدة القطاع الخاص فيما عدا ما يعوق المنافسة إذ يجب أن تستثمر في الناس. وفي المرافق الأساسية المخصصة، وفي منظمات التعليم، والحوار غير الدفاعي مع القطاع الخاص، ومع المعارضة السياسية والفقاهات والأمم الأخرى.

٨ - فهم أن القطاع الخاص في أوغندا بحاجة إلى أن يزيد من استثمارات من أجل تعلم أفضليات العمل، ومعرفة الأنشطة للمنافسة، وفتوات توزيع جديدة، والاستثمار من أجل تحسين الناس والمنتجات.

هذه العناصر الجوهرية من الرؤية بحاجة إلى أن تسرعها البلدان النامية وهي تلتبس سبيلا للارتقاء باقتصاداتها وخلق مزيد من الرضاء لمزيد من الناس.

خلق شبكات جديدة من العلاقات

بعد اثني عشر عاما من الحرب الأهلية بدأ شعب السلفادور يكرس جهده بجرأة من أجل بناء شبكات جديدة كجزء من عملية تخيير قومية بين المنتجين والعملاء الأجانب داخل البلد، وبين أنفسهم وذويهم المهاجرين إلى الولايات المتحدة. سافر منسجو مزارع نباتات الزينة إلى فلوريدا وهولندا لمقابلة نظرائهم والتعلم منهم كيف ينتشون قنوات توزيع خاصة بهم. وقام منسجو عمل النحل بدراسات عشية ليعرفوا الكثير عن ما بهم زبائنهم للألان. وأكثر من هذا أن بعض أصحاب مزارع البن وأقدم المصارين وأولئك المتعربين بالأساليب القديمة في عمل الأشياء جميعهم أصبحوا يكشفون عن استعدادات لتجريب أشياء جديدة. وبدأوا يعملون في إنتاج بن غير هشار بالبيئة، ويشتركون مع صناعات سلفادورية أخرى في إجراء اختيارات للسوق واستجابتها لمنتجات مبتكرة مثل سباحة البن.

وحولت الحكومة برنامج التنافسية القومية إلى نظام مؤسسي، ودربت مساعدين لتعليم صغار ومتوسطي المصدرين على تطوير إستراتيجيات لمشروعات أعمالهم. وتستثمر الحكومة في شبكات التعليم، وتأسيس برنامج إنترنت داخل الريف. وتزويد البعض من أنجب طلاب الجامعات ببرامج تدريب خاصة بالكومبيوتر في الهند. وتعقد الحكومة كما يعقد القطاع الخامس مؤتمرات عامة ومؤتمرات عبر الإنترنت لشبكة تضم جالية المهاجرين الناجحين في الولايات المتحدة، ويعونهم ليكونوا شركاء أعمال بحيث يوفرهم سهل الوصول إلى السوق، ويوزدون الطرد بالخبرة والتقانة ورأس المال.

ويدرك قادة السلفادور أن الانصالات - بين الريف ورأس المال بين شركاتهم والمستهلك الأجنبي- وبين الأمة والجالية للمهاجرة - تفضي إلى المزيد من التدفق السريع للرؤى النافذة وتشكل أساسا لقدرتهم التنافسية وللرخاء.

توصيل الرؤية

يتعين على الأمم استخدام كل الوسائل المتاحة لتغيير العقول المبدية الإلكترونية والميديا المطبوعة، وخطب الزعماء، ولوحات الإعلانات والمؤتمرات، وورش العمل، وغوامد الببائت، والواقع على الشبكة الفضائية، وجرى أن يكون ترويج ونسج وسائل جديدة للتفكير وفقا لمسار يمكن التنبؤ به.

ونحن ندرك تماما أن المبدعين ليسوا هم في الغالب العناصر الفاعلة الرئيسية في التغيير وواقع الحال أن أول من يتبنون مهمة التغيير إما يعملون كنماذج للدور الذي يقتدى به غالبية أبناء الأمة ونحرص في عملنا على التماس أبطال ممن لديهم استعداد كبير لقبول عمل الأشياء بأساليب جديدة ويمكنهم التعبير عن وتجسيد الأفكار الجديدة عن الطاقة التناغسية والإنتاجية والرشاء. ووضح لنا أن أكثر الناس كفاءة وفعالية في هذه الناحية من عملية الترويج ليسوا هم القادة النمطين ممن يحظون بمكانة رفيعة، بل أولئك الذين استطاعوا استدخال أفكار الروح التناغسية والإبداع، وبإمكانهم نقلها إلى الشبكات المحيطة، لقد التقينا وبرينا صاحب مزارع بن في السلفادور، والذي تحدث إلى نخبة هذا القطاع المخضرمين فيه، ووجدنا سائقا باكسي واسع الخيال في برمودا لديه استعداد لكي ينشط وسط طائفة سائقي التاكسي المنتشرة إلى حد كبير، وذلك من أجل ابتكار منتج جديد يتحتل في السياحة بالتاكسي، وكان الهدف الرئيسي البرهنة على القدرة الابتكارية

تأسيس تحالفات إنتاجية

يعتقد كثيرون من العلماء الاجتماعيين أن ممارسة التغيير تحفز منه تحدث نموذج ذهني جديد، لذلك عمدنا إلى النهوض بعقد اجتماعات أسبوعية لإثارة التفكير الاستراتيجي داخل مجموعات عنقودية من الصناعات ذات الصلة ببعضها. وعملنا مع المجموعة التي لامت البقرة في ورش عمل استهدفت تحسين الثقة بين الأشخاص والنماس رؤية إستراتيجية مشتركة. واستطعنا من خلال ممارسة تقنيات الاستدلال

الإنتاج¹⁴⁷ أن سنكر بعض الشروط اللازمة لحل المشكلة جمعياً إذا ما واجهنا الجماعه مسائل صعبة ومثيرة للجدل¹⁴⁸

وشجعنا مديري الفنادق والعاملين أعضاء الوفديات في صناعة الفندقة لتركيذ الاهتمام على قطاعات جديدة من الزبائن لخدمتهم وشجعنا مشغري المشروعات الملوكة لسولة وصغار الباعة على توجيه مسار الحطة الإستراتيجية السابقة والمشاركة فيها ، وعمد أيضاً مع كبار موظفي الحكومة والمنتجين الزراعيين الذين ناضلوا بشجاعة عن أجل جنول أعمال للاقتصاد الكلي للأمة، وأفضت هذه التجارب في الاستدلال الإنتاجي إلى وضع برامج نموذجية لها أهداف مميزة ومقاييس نجاح مرتكزة على تفكير جاد عميق

طور ووصل المكاسب قصيرة المدى

يكون أناس أكثر ميلاً لتغيير مواقفهم وسلوكهم حين يشاهدون بيانات تعمل براهين على النجاح ويفهم السياسيون هذا جيداً، ولهذا يستهويهم للغاية هذا الجانب من العملية. ونحن دائماً عند بذل أي مجهود للتغيير، نلتصق أمثلة ما حققتة الرؤية الجديدة من نتائج جيدة ، وقد تشتمل بعض الأمثلة على النجاح تطويراً نتاج جديد، أو مبيعات ضخمة لزبائن جدد فيما وراء البحار، أو ترتيبات بين النقابة والإدارة من أجل استثمارات جديدة في مجال التدريب أو لتحسين ظروف العمل. وعلى الرغم من أن المكاسب قصيرة المدى ليست بحاجة إلى تضمحيم، إلا أنه لايد من توصيلها وإبلاغها في سياق الأسلوب الجديد لعمل الأشياء

مأسسة التغييرات

يقول بوجلاس نورث إن المؤسسات معايير¹⁴⁹ ويتعين تغيير الاحتياجات لخلق معايير جديدة للسلوك. ونحن لا ننتقل إلى ابتكار مؤسسات جديدة، بل إلى الارتفاع بمؤسسات لفاتعة التي بلغت غاية حدودها الوظيفية بسبب العولمة، وبحاجة إلى

تغييرات هي وسائل ابتكار الرخاء. وإعدادك لحلول على الصعيد العالم في الفهم
والمواقف. معنى هذا تعبير كل شيء. ابتداء من تحسين فعالية سبادة القانون وبرسخ
الديمقراطية ووصولاً إلى الارتفاع بالمدرسي والمؤسسات الخاصة والتنظيم المدني.

وساعدنا على سبيل المثال رابطة صناعية لتغيير نفسها من جماعة تائير تحارب
الحكومة إلى تنظيم يدير التعليم، ويدعم البحوث والتطوير، وبشكل مشروعات صغيرة،
وساعد دراسات السوق الخاصة بالزيائن الأجنبي

قيم وأكّد التغييرات

أخبرنا نحن بحاجة إلى خلق مساحة للأمم كي تستبطن ذاتها وتصحح
نفسها، ونحن بحاجة إلى اشكار فهم قومية وغير ذلك من مسارح العمل والنشاط
مع قادة القطاعات العامة والخاصة والمدنية والأكاديمية ويمكن لسارح العمل
والنشاط المقترحة هذه أن نهيب فرصة للقارة لناقشة النتائج الاقتصادية
والاجتماعية التي تعينها الأمة. كما تناقش الإستراتيجيات والأليات المؤسسية
والنماذج الذهنية التي كانت سببا لهذه النتائج، ويمكن أن يندرج ضمن هذا أسئلة
ممدزة مثل ما هي المقاييس المترية الكمية التي لنا أن نستخدمها؟ وما هي أهدافنا
غير القابلة للتقدير الكمي؟ وما هي الأدوات التي يمكن لنا تحسينها لتقييم أنفسنا؟
ما نوع التغيير المطلوب على عجل، وما نوع التغييرات التي تعتبر تغييرات
فيما بين الأجيال؟

إن إستراتيجيتنا للتغيير ولابتكار الرخاء في الأمم سوف تكون موضع اختيار
كاستراتيجية قابلة للتنفيذ والإنجاز: إذ ينبغي أن تولزن بين الماضي والمستقبل، وأن
تكون صريحة ومشتركة بين الجميع، وأن تجري صياغتها بناء على دراسة تحليلية،
وترتكز على مجموعة ملاحظة من الخيارات، وتساعد الناس على أن يكونوا ما يريدونه
هم أنفسهم.

خاتمة

الغالبية العظمى من الناس يعتقدون أن الرخاء أمر جيد. ويعرفون كذلك أنه أمر عسير النال، ولكن عددا قليلا فقط لا يتجاوز عدد أصابع اليد من بين أعم العالم البالغ عددها مائتان هو الذي اكتشف كيف يحققه للغالبية من مواطنيهم. ومهما بالغنا في تقديرنا لبساطة ووضوح الرسائل المتعلقة بكيفية خلق الرخاء إلا أنه من العسير على أي من الغرباء أن يقول للأمم وللتسويق كيف ينبغي أن يتصرفوا. وثمة أسئلة يمكن إثارتها عن حق وعدل تتعلق بالأممية والسلطة الأخلاقية والنوايا للغرباء¹³¹. وفيما كان الأمر، فإن أيا منا ممن تعنيهم هذه المسائل ولديهم الخبرة بشأنها عليهم التزام بأن يبرهنوا لزعماء الأمم أن الرخاء اختياري¹³²، وأن يوضحوا ما عساها أن تكون هذه الخيارات وبدائلها.

وبعد نصف قرن من تركيز الاهتمام على التطوير الاقتصادي، حان الوقت الآن للتحرك بعيدا عن الأطر المعيارية البسيطة، وعن التوصيات من القمة إلى القاعدة، وعن التصور المفاهيمي الضيق عن الرخاء وعن الأداء المترى المرتكز فقط تعريفاً على تراكمات كمية قومية. والآن وقت العمل المتضافر بناءً على مبادرات قومية وإقليمية تغير النماذج الذهنية والآن وقت تركيز الاهتمام على الأسس الاقتصادية الجزئية للرخاء وترويج ونشر الروح الإبداعية.

ويميز هوارد جاردنر في كتاباته بين القادة المبتدئين للمنظمات بين نفاس والقادة غير المباشرين الذين يبتكرون المعرفة ويصوغون الرأي¹³³ ومعنا في ندوة القيم الثقافية والتقدم البشري عضو مجلس إدارة ومدير إقليمي من البنك الدولي، ومعنا نائب وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة. وهؤلاء هم قادة بخصيصون موارد كبرى لشبكة التطوير. ومعنا أيضا بعض من أبرز المفكرين في مجالات الاقتصاد والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية والسياسة العامة الذين عبروا عن آرائهم بشأن موضوعات متباينة ووثيقة الصلة مثل الثقة والتنافسية على صعيد المؤسسة، والمساواة بين الجنسين، والتنمية المبكرة لطفولة.

نحن نشاهد الفجر مثالا في ذلك البهار الذي لا نهاية له من المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية ويعبر ذلك من صياغات متبررة تأتيها عبر مكاتبتنا ونعصم عبونا على شاشات الكمبيوتر كل يوم. ثم هناك الفجر الذي سنشرك حين تلقى صبيها هندی نكبا من طائفه دنيا وإن يلتحق بمدرسة. وهناك الفجر الذي يتهدك دنيا بمدينة حول رقبك وأنت في شوارع نيروبي، وهناك أيضا الفجر الذي يثير في نفسك الاشمئزاز حين تلقى فتاة بالغة تسكن أرصفة طرقاب بوجونا وقد فقدت أصابع يبيها وقدميها الى قضمتها القنران اثجانعة حين ألقى بها وهي رضية وسط منطقة رطبة غارقة بمياه المجارى

إننا إذ نستحوز علينا هذه الصور المروعة وإذ نستلم فكر من ساهموا معنا في هذا الكتاب، نتساءل ترى هل ترتبط بقضايا الرخاء بعض المشكلات الاجتماعية والسياسية في منطقة البحيرات العظمى في شرق ووسط أفريقيا، أو في منطقة البلقان، ولكن يتعين علينا بدلا من ذلك أن نفكر في الحلول السياسية والعسكرية المطروحة في تلك المناطق، وكيف نضيف إليها لاستكمالها أو كيف نبدلها بعملية تغيير شاملة

وإنه كان كل من أسهم معنا هنا يقاسمنا الالتزام بأن نجعل الحياة أفضل في كل أنحاء العالم إلا أن غالبيتنا عقبوا حسب وجهات نظر ملتزمة إلى حد كبير بتخصصنا النهى ومقتضيات وظائفنا وكذلك نموذجنا الذهني. إن التحدي الذي يواجهنا لس بعيدا كل البعد عن التحدي الذي واجه الخبراء الذين كان عليهم محاولة تأكيد اللوم في قصة المقررة، كيف ندمج مجموعة من الأفكار الثيرة مع مجموعة أخرى، لكي نبدأ ابتكار عملية محلية الطابع والخصوصية للتغيير في البلدان النامية بحيث تكون عملية موحدة على أساس من التفكير العميق، وموجهة توجيهها جيدا، ودار نقاش خصص حولها، وتكون بداية تضع الأمم والشعوب على الطريق إلى رخاء مرتفع ومتساعد المستوى. ولكن العالم، حتى الآن، لم يشهد أى شىء، معائل لما نقول .

الثقافة والنماذج الذهنية والرخاء القومي

ستاسي ليندساي

الثقافة محدّد مهم لقدرة الأمة على أن تزدهر. ذلك لأن الثقافة تصوغ أفكار الأفراد عن المخاطرة والعجز. والفرصة. ويدفع هذا الفصل بين القيم الثقافية مهمة يفينا في عملية التقدم البشري لأنها تصوغ طريقة تفكير المرء بشأن التقدم. وتعتبر القيم الثقافية مهمة بخاصة لأنها تشكل المبادئ الأساسية التي ينظم حولها النشاط الاقتصادي. وبدون نشاط اقتصادي يقدر التقدم مستحذلا

ويقدم الاقتصاد الكوكبي في القرن الواحد والعشرين أمرين معا فرصة غير مسبوقة في التاريخ لخلق رخاء يعم العالم؛ وخطرا محتملا لتراثات ثقافية امتدت قرونا في كل أنحاء العالم. ويؤثر بين الاثنين توتر تعرض له في الحكاية التالية. بعد أن أقيمت كلمة منذ عهد قريب عن التنافسية الاقتصادية، لجمعية من قيادات الحكم وقطاع الأعمال في غانا، اقتررب مني شاب وسالني. هل يعني حديثي ضمنا ضرورة تغيير ثقافته حتى ينجح بلده داخل إطار الاقتصاد الكوكبي؛ وأوضح أن تراث جماعته العرقية يقضي بضرورة إكبر وتبجيل شيوخهم، وأن أكثر هؤلاء الشيوع في قريته لا يريدون للقيادة من الشيب أن ينخرطوا كثيرا في شؤون قطاع الأعمال القومي

يلقى سؤالا ضمويا علي مسأله ملحة: هل يتعين على أبناء البلدان النامية تغيير تراثهم الثقافي بغية المشاركة على نحو أكثر دالة وجدية في الاقتصاد الكوكبي؟ هل

سكان لطيفة ما أن نختصها بدارسها وسلامتها - وأن نمجد الثقافة المحلّة - ويكون ذلك
قدرة تنافسية كركبنا»

هذه أسئلة - أراها كثيرين من المساهمين في هذا الكتيب، ولكن لا نجد لها
إجابات واضحة معنى هذا أن فهم أي من الفكرتين المهيمنتين في هذا الكتاب -
الثقافة أو التقدم البشري - يمثل تحدياً صعباً. ولكن فهمهما ودمجهما معاً هما
الصعوبة في أقصى مداها.

أثار دافيد لانديس وميشيل مورتر وجيفري ساكنس، وهم من المساهمين معنا،
مسائل مهمة عن دور متغيرات أخرى تؤثر على التطوير الاقتصادي من مثل
السياسة الرسعية للحكومات، والجغرافيا، والمرضى. وناقش آخرون أهمية الثقافة في
تشكيل مواقف من العمل والثقة والسلطة - وكل منها يؤثر في التقدم البشري ولكن
يبقى سؤال أساسي كيف ينأى للمرء أن يدعم التغيرات الضرورية بفعالية خلق
مستويات معيشة مزرودة الصعود في العالم النامي؟ علاوة على هذا وكما سأل
رون شارد شويدر، هل تحقّق ذلك بشكل خطراً على سلامة وتكامل الثقافة موضوع
السؤال؟ هل هذا يحد من قدرتنا على الاستضاءة بثقافات أخرى وتعكس
على ثقافتنا؟

حاولت أنا وزميلاتي في شركة مونتيتور كيمستريز، أن نستثمر جهداً طويلاً
في سبيل إسداء النصح إلى قيادات حكومية وقيادات قطاع الأعمال وبيان كيف نحقق
اقتصادات أكثر غنافية. حاولت ذلك بأسلوب يطلو على احترام للقرارات
والؤسسات المحلية. وقدما المرّة تلو الأخرى حججاً قوية تدعم الحاجة إلى تغيير
سياسات محددة أو إستراتيجيات أو أفعال بذاتها أو نماذج للاتصال والملاحظ أن
غالبية القيادات الذين أسعدنا الحظ بالعمل معهم اعترفوا بصواب منظورنا بيد أننا
عرفنا أن الإجابات الجيدة على الأسئلة الملحة بشأن التطوير الاقتصادي ليست وحدها
كافية لغرس التغيير اللزوم لعكس اتجاه تيارات الاقتصادات ذات الأداء السيئ. إن
الأفراد غالباً ما يقولون الحجج العقلية، ويتفهمون حاجتهم إلى التغيير، ويعربون عن
التزامهم بعمل التغيير، ولكنهم بعد ذلك يلونون بما هو مألوف، وهذا الميل للردة إلى

المالكوف ليس ذاتية ثقافته في ذاتها. وإنما هو مؤشر يكشف عن بعض المحديات الإيمانية التي يواجهها الراغبون في دعم رؤية مختلفة وأكثر ازدهارا عن المستقبل.

ويعتمد التقدم الاقتصادي على تغيير أسلوب الناس في التفكير بشأن خلق الثروة بمعنى هذا تغيير الأسس المتمثلة في المواقف والمعتقدات والافتراضات والتي صاغت قرارات القيادات. وكان حصارها أداء اقتصادي رانس ، وأشار هوارد جاردنر في ملاحظاته إلى ميل علماء المعرفة إلى محاولة فهم التصورات الذهنية التي يدرك من خلالها. وفي إطارها الأفراد معنى العالم. وهذه هي البداية التي يمعن علينا أن نبدأ منها إذا ما كنا نريد إحداث تغيير له النوامج وأطلق بيتر سينج. من بين آخرين، على هذه التصورات اسم النماذج الذهنية والتي يعرفها بأنها افتراضات أو تعميمات أو حتى سمور وتخييلات عميقة الجذور وتؤثر على كيفية فهم العالم وكيف نتصرف إزاءه⁽¹⁾.

وأوضح كثير من المساهمين في هذا الكتاب أن وحدة التطيل مسألة القيم الثقافية والتقدم الاقتصادي ليست واضحة، ترى هل ينبغي أن تكون مجموعات من الأمم متعاقبة التراث الديني، أم أم مفردة لكل منها قيم ثقافية وتاريخية متميزة، أو ربما مجموعات محلية مختلفة قائمة داخل الأمم والتي يجمع بينها في راسلة واحدة معتقدات مشتركة. وقال روبرت أندجرتون إنه يمكن أن يكون هناك اقتصاد واحد ولكن ثقافات متعددة.

والملاحظ أن الإهتمام على أوصاف عامة للمعتقدات الدينية أو غير ذلك من خصائص ثقافية عامة لتفسير الأداء الاقتصادي لا يفيد الحوار المنعم عن الثقافة. ذلك أن الباحثين، كما أشارت ماريانو جرونديونا، استخدموا الكونفوشية أولا لتفسير فشل آسيا. ثم لتفسير نجاحها. وبعد ذلك أزمعتها، وعلى الرغم من أن الحوارات بشأن أثر أخلاق العمل الكاثوليكية مقابل أخلاق العمل البروتستانتية يمكن أن نجنى من وراثتها ملاحظت مهمة، إلا أنها شديدة التجريد بحيث لا تصلح لإحداث تغيير. وهناك دائما استثناءات - كاثوليك لهم إنتاجية عالية، وحققوا نجاحا كبيرا وسط ثقافات متناوئة للتقدم. وهناك بروتستانت عاشلون تماما وسط ثقافات متناوئة للتقدم. لذلك يجب أن يتوهر لدينا وضوح أكبر بشأن وحدة التطيل.

وفرى أن استخدام مرشح النماذج الذهنية وتطبيقه على مهمة فهم أثر الثقافة على الرضا، يمكن عملا من دنا ومستعدا. إن النماذج الثقافية هي المتفردات الأساسية التي تؤثر في سلوك الناس وتكيفهم، يسلكون، والثقافة متغير أعم على المستوى الكلي (الماكرو) ولكن النماذج الذهنية فهي متغير على المستوى الجزئي ويصنف النماذج الذهنية على الأفراد وجماعات من الأفراد. ويمكن تحديدها وتعيينها، ونعكس الثقافة جماع النماذج الذهنية الفردية. وتؤثر بدورها على أتماط النماذج الذهنية التي لدى الأفراد، ويرتبط الاثنان داخل منظومة دائرة التطور

وإن اتفقت الحقيقة بالنسبة لنقوة الدافعة والفعالة لخلق العصر يمكن أن تساعد على تغيير النماذج الذهنية على المستوى الفردي. بداية بأسلوب الفرد هي التفكير بشأن خلق الثروة. وهذه علاقة مهمة بين النماذج الذهنية والثراء، وهي علاقة لا تغرض بالضرورة تجاها على ثقافة كوكبية. ولعل من المنطوق. فوخيا لفهم هذه العلاقة، أن نعرض موجزا سريعا عن التحديات التي تواجه الرضا القومي

تحديات الرضا القومي ومحركات النمو

الهدف العام لهذا الكتاب هو استكشاف العلاقة بين القيم الثقافية والتقدم البشري. وتذهب المناقشة التالية إلى أن التقدم الاقتصادي أساس للتقدم البشري. وترتبط الأطر العامة المشتركة بالتحديات التي يواجهها قادة البلدان النامية من أجل دعم النمو والتطوير الاقتصادي. ويعتبر النمو الاقتصادي أمرا لازما لأن أتمكالت التقدم البشري الأخرى (مثل الصحة والتعليم والرفق) تعتمد على النشاط الاقتصادي الإنتاجي. ومن ثم تغدو المسألة هي فهم ماهية محركات النمو الاقتصادي هي اقتصاد ما، وكيف تعمل، ثم أخيرا أفضل السبل لتشجيع الاستخدام الإنتاجي المتزايد للبلد من أجل خلق فرصة للتقدم البشري

يقودنا هذا إلى افتراض أن اعتقد أن مشروعات الأعمال الناجحة هي محركات النمو. ذلك لأن خلق انثروة يحدث على مستوى مشروعات الأعمال الفردي، إذ بذلك يتم خلق المنتجات، توفير الخدمات، وتعزيز القدرة الإنتاجية. تتولد الثروة ومن ثم فإنه

بدون مشروطية. و ما كان الأعمال لن يكون هناك تقدم اقتصادي- وبدون تقدم اقتصادي لا تقدم بشري. وتعدنا هذه الافتراضات إلى القياس التالي

• التقدم البشري بمعناه الواسع غير ممكن بدون نمو اقتصادي.

• مشروعات الأعمال الناجحة هي محركات النمو الاقتصادي.

• لذلك فإن مشروعات الأعمال الناجحة شرط أولي ضروري للتقدم البشري.

تأسيسا على هذه الافتراضات يتحول الاهتمام سريعا إلى مناقشة ما الذي يساعد على مشروعات الأعمال الناجحة، وكيف يمكن دعم هذه الأنماط من المشروعات.

المزية المقارنة والمزية التنافسية :

أجرى جيفري ساكس وشركة مونيتور بحثا في الأداء الاقتصادي للأمم في العالم. وكشف البحث عن أن أوفر البلدان حظا وأعناها من حيث الموارد الطبيعية أميل إلى الأداء الأقل كفاءة من تلك التي ليست لديها وفرة كبيرة من الموارد الطبيعية¹¹. وإذا كانت نظرية المزية المقارنة تؤمن بأن البلدان التي تتوفر لديها ميزات مقارنة فريدة سوف تخصص في مجالات قوتها. إلا أن الأمم الغنية بمواردها الطبيعية والتركيز على بيع هذه الموارد في السوق العالمية أميل إلى أن تكون هي الأفقر على أساس نصيب الفرد.

وسبب الأداء السيئ نسبيا للبلدان الغنوة بمواردها الطبيعية، هو أن الموارد الطبيعية تميل إلى أن تكون منتجات سلعية وليس للمنتجين تحكم كبير في الأسعار المطلوبة. وواقع الحال أن أسعار السلع أخذت في الهبوط من حيث قيمتها الحقيقية على مدى الخمس والعشرين سنة الماضية. ونتيجة لذلك تعدد بلدان كثيرة إلى تصدير

كميات أكبر من المواد الخام، ولكنها نعل أموالاً أقل من هيمنه النفقة مقابل تلك الجهود، وأصبح واضحاً في ظل الاقتصاد الكوكبي اليوم أن الحرية المقاربة للموارد الطبيعية لا تكفل لأصحابها رضاء اقتصادياً

ويصيق الشيء، نفسه بالنسبة للبلدان التي تحتال للحصول على مبرزة من خلال الميزة المقاربة لقوة العمل غير المكفة، ويجدير بالملاحظة أنه حين تطور عؤيسسات بلد ما استراتيجيات تصدير بأسيسما على كلفة عمل منخفضة، فإنها تخلق بذلك دائرة لتحقيق الذات، معنى هذا أن البلد لكي ينافس في قطاعاته المختارة فإنه يحرص بالضرورة على أن تكون الكلفة عند أدنى حد لها. ولهذا يغزو مستحياً زيادة الرواتب، إذ لو حدث ذلك فسندرج المؤسسات نفسها إزاء منجات غير تنفسية وإذا تحقق هذا فإنها ستكون أمام خيارين: إما الخروج من مشروعات الأعمال، أو إقامة عمليات تشغيل في بلدان مجاورة معدلات الأجور فيها أقل.

هذان المثالان - الإستراتيجيات المرتكرة على المورد الطبيعي والإستراتيجيات المرتكرة على قوة العمل غير المكفة - يمكن تضيخيهما على أساس أنهما يمثلان إستراتيجية الميزة المقاربة، وثبت أن كليهما أعجز من أن يخففا مستوى معيشة مرتفع ومتزايد

وواضح أن ثمة عوامل أخرى ككثرة تحدد قدرة أمة ما على النجاح تذكر كمثال البيئات الاقتصادية الكلية المستقرة، ومؤسسات للحكم ذات الشفافية والكفاءة، المرافق الكافية والملائمة، قوة عمل متعلمة، رعاية صحية جيدة وعلى الرغم من أن هذه الأفكار نالت حظاً كافياً من الدراسة والتحليل إلا أن الدراسة المعنية ببيان ما هو ضروري لخلق النجاح على مستوى المؤسسة في العالم الثالث لا تزال محدودة وقلية نسبياً.

وجدير بالذكر أن ميشيل بوربر كاتب تفصيلاً وإيسهاب على «دي العشرين سنة الماضية عن الميزة التنافسية على مستوى المؤسسة والإقليم والأمة ودفع بحثه إلى تكوير نظرة أعمق إلى متغيرات الاقتصاد الجزئي المؤثرة في عملية النجاح.

وأسعدت في تقرير عن المنافسة الكوكبية الصادر عام ٨٩٩٦ دليل العدرات
النافسية في الاقتصاد الجزئي والذي بقيس نوعيه البيعة النافسيه في بلد بذاته.
وأشار قائلا:

ثمة توافق في الآراء متزايد باطراد يرى أن سياسة
الاقتصاد الجزئي التي تدعم الرخاء القومي تتضمن تمويلًا
رسميًا حكيمًا، وكلفة معتدلة لنظام الحكم، وجود محدود للحكومة
في الاقتصاد، والانفتاح على الأسواق الدولية. ومع هذا فإنه إذا
كان ضروريا توفر سياق سياسي مستقر وسياسات سديدة
للاقتصاد الكلي، إلا أن هذا وحده غير كاف لضمان اقتصاد
مزدهر. إذ يعادل ذلك أهمية - بل ربما يفوق ذلك أهمية - أسس
الاقتصاد الجزئي للتطوير الاقتصادي، والمتجذرة في ممارسات
التشغيل المؤسسة، واستراتيجياتها المتجذرة في مدخلات العمل
والبنية الأساسية، والمؤسسات والسياسات التي تُولف في
مجموعها البيئة التي تنافس في إطارها الأمة. وما لم يطرأ
تحسن ملائم على مستوى الاقتصاد الجزئي، فإن الإصلاح
السياسي وإصلاح الاقتصاد الكلي لن يحققا الثمرة
المرجوة^(٢).

ومع التسليم بتوافق الآراء المتزايد بشأن أسس إدارة الاقتصاد الكلي والفهم
الجديد لأسس التنافسية للاقتصاد الجزئي يبرز السؤال التالي: لماذا التغيير صعب
في الاقتصادات ضعيفة الأداء؟ هل من الضروري توفر حكم مستقر، واقتصاد سليم،
وأساس قوي للاقتصاد الجزئي قبل أن يجس البلد مكاسب واضحة؟ واضح أن هذا
هو لئلا الأعلى ولكن التطوير الاقتصادي غالبا ما يمثل ظاهرة القرحة والبيضة...
إن قعدة قلماع الأعمال سوف يدفعون بأنهم عاجزون عن تطوير إستراتيجيات أفضل
ما لم تت الحكومة في الأمر جملة معا، وسوف يدفع قادة الحكم بأنهم عاجزون عن

احاد أنه خطوة مهمة إلى أن يثقت مجتمع رجال الأعمال بالبرهان استعدادهم للنافس، وأنه لا يلتصق حماية من المنافسة

والمعروف أن الرضا، به منلزم توفّر الأسس، ولكن لا بد أن تتوفر أيضا نسبة العقل التنافسي التي تدعم الإبداع والإنتاجية في الاقتصاد القومي

الحاجة إلى بنية عقلية تنافسية

خبرتنا من إرشاد وتوجيه المشورة لقيادات الحكم وقطاع الأعمال توضح أن الصعوبة ليست في اكتشاف الإيجابيات على المشكلات الاستراتيجية التي يواجهونها حتى وإن كان ذلك في بيئات تعاني من سياسات رسمية سيئة ومن مرافق قاصرة، وإنما تكمن الصعوبة في تغيير الطريقة التي يفكر بها الناس في «شركات أعمالهم، ثمة تراث من التفكير في إطار الميزة المقارنة، تراث تأو في المؤسسات والقوانين والسياسات، تراه سائدا في كثير من بلدان العالم النامي، وهذا التراث جعل من العسير أشد العسر على القيادات أن تتخذ اختبارات مغايرة

ويخصص القائمة التالية بعض أنماط الفكر التي لحظناها لدى قيادة الحكم وقطاع الأعمال في كل أنحاء العالم الدامي بوضوح انعدام الأيعة التكيف على مستوى المؤسسة للخصائص المتأونة للتقدم في دراسة الأنماط التي قدمها ماريانو جروندامو ولورنس هاريزون، ويعتل العامود الأيسر الخصائص المقابلة لهم والمواتية للتقدم

ونعود لنقول إن هناك الكثير من الحواجز السياسية والمادية الحقيقية التي تحول دون تغيير الطريقة التي تتنافس بها الشركات، نذكر من بين هذه الحواجز الأداء الاقتصادي القومي الضعيف، والمرافق السيئة، ونقص العمالة الماهرة ولكن لم يعد لدى قيادة قطاع الأعمال ترف الانتظار إلى حين تحسّن البنية الأساسية القومية قبل

بممار طريفة التفكير في المداخلة وإستراتيجية الأعمال وإذا عجزوا عن البدء في اكتشاف حلول إبداعية لمشكلات مشروعات الأعمال فلن ينحسز وضع الأمة ككل، ويقسى المثل الأعلى أن يعمل العنصران معا من أجل خلق منظومة دينامية للتحسين المتبادل.

الميزة المقارنة والميزة التنافسية

خصائص موازنة لتقدم	خصائص موازنة للتقدم
عولة ومناخسة	- أسواق محمية
تركيز على الاقتصاد الجزئي	- التركيز على الاقتصاد
إنفاذية على مستوى المؤسسة	- الوصول إلى القيادات
التركيز على رأس المال البشري / المعرفي	التركيز على رأس المال / المالى
تنظمات قائمة على الجدارة والمرونة	تنظيمات نراتبية وصارمة
مرونة	- وفورات الحجم
إستراتيجيات هجرة	- اعتماد على شركاء أجنبى
نهج مبانى وداعم للفعل	- نهج يعتمد على رد الفعل
رؤية مستمركة ودهاون	- الحكومة هى الفكر الإستراتيجى الرئيسى
خلق الثروة	- إعادة توزيع الثروة
ابتكار	- نرعة أيوية

النمو الاجتماعي والعدالة الاجتماعية

النموذج الزاهن للمنافسة في أغلب بلدان العالم النامي يخلق دائرة خبيثة يعافس المؤسسات اعتمادا على قوة العمل غير المكلف ووفرة الموارد الطبيعية ويوقعهم هذا في شرك مشروعات أعمال سلعية، حيث يكون عسيرا أشد العسر تحقيق هوامش عالية، وطبعي أنه بدون هوامش عالية يعجزون عن توظيف استثمارات ذات قيمة في رأس المال البشري وبدون استثمارات قيمة في رأس المال البشري يعجزون عن خلق مصادر أعمق للإبداع

ولكن ثمة أيضا دائرة قاضية للنمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية على قاعدة مستدامة ففي هذه الدائرة الفاضلة تأخذ المؤسسات ابتداء تطوير منتجات أكثر تعقدا واستراتيجيات أعمال أكثر تقدما. ويساعد هذا على خلق مشروعات أعمال لها هامش مرتفع، والتي توغر وقودا وكفاءة بفع لمزيد من الاستثمارات في قوة العمل ولا ريب على أن قوة العمل التي تحظى بمستوى تعليمي مرتفع من شأنها أن تمفر إلى معدل إبداع مرتفع أيضا، كما وأن المعدلات المرتفعة للإنتاج تحقق قدرة على بيع المزيد والمزيد من السلع التركية والخدمية. وإن رؤيتنا للعالم بهذه الطريقة يجعل من الممكن لنا أن تفكر في تطوير مزايا تنافسية مستدامة والتغلب على مزية المقارنة ذات الطابع الاستاتيكي والتي عاشت قرونا.

وعلى الرغم من أن هذا النموذج واضح البدهة إلا أن بفناء قيادات الحكومة ومشروعات الأعمال بتعبير أحاط المنافسة القائمة أثبت أنه أمر شديد الصعوبة. وأذكر أنني وميشيل فيربانكس قضينا أغلب العقد الماضي في محاولة لتشجيع قيادات الحكومة وقطاع الأعمال على تبني سياسات واستراتيجيات تفهض بعمق على خلق نمو مستدام لمشروعات الأعمال. وذلك للإبتعاد عن المايا الوهمية لتفكير على أساس عوامل الإنتاج إلى التفكير على أساس المزية التنافسية. وقادتنا خبرتنا إلى نتيجة مفادها أن قيادات الحكم وقطاع الأعمال بتدرجوا جميعا في أتمام إستراتيجية وسلوكية من شأنها إعاقة القدرة على خلق مصادر للمزية أكثر تعقيدا، ومنها إلى نجاح مستدام داخل إطار الاقتصار الكوكبي:

أنماط سلوكية	أنماط إسمرائيلية
نقص التعاون	اعتماد مفرط على عوامل الإنتاج الأساسية
توجه دفاعي	فهم سيئ للوضع النسبي
التهج الأبوي	الافتقار إلى التكامل الرأسى

والملاحظ أن الجهود المنوطة لتغيير هذه الأنماط السلوكية في البلدان في كل أنحاء العالم أضعفتنا بأن هذه المشكلات الخاصة بالاقتصاد الجزئي ضاربة بجذورها في الثقافة وعلى الرغم من أن الأنماط الإستراتيجية يمكن حسمها بفضل الفترة على التحليل إلا أن الممارسات الجيدة لقطاع الأعمال، والالتزام بالتعلم، والأنماط السلوكية جميعها من الصعوبة بمكان اكتشافها وفهمها وتغييرها.

وتسهم هذه الأنماط في تفسير الأسباب التي تجعل بعض المؤسسات عاجزة عن أن يحول إلى مؤسسات قادرة على المنافسة كوكيبيا ولكن الأمر غير الواضح هو لماذا هذه الأنماط تعيد وتكرر نفسها في بلدان لكل منها تراث مختلف للغاية عن تراث البلد الآخر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا إن التغيرات للاقتصاد الكلى التي تؤثر على تطور الأمم مختلفة تماما. ولكن أنماط الاقتصاد الجزئي متعائلة على نحو مذهل.

نكشف أن هذه الملاحظة الرابطة بين الثقافة والطاقة التنافسية الاقتصادية أن طريقة الناس في التفكير بشأن مشروعات الأعمال أو الاقتصاد أو المنافسة هي التي تشكل نوعية الاختيارات الإستراتيجية التي يتخذونها

فهم طريقة تفكير القيادات

إحدى وسائل فهم لماذا قيادات قطاع الأعمال يظنون شركاتهم وإستراتيجياتهم على النحو الذي نراه هو أن نفهم كيف يفكرون في القضايا الملحة التي تواجههم يوميا، وكيف يستجيبون لها. وإحدى وسائلنا إلى هذا الغرض أن نحاول فهم الأمة عن طريق فهم كيف تفكر الجماعات المكونة لهذه الأمة في قضاياها الحاسمة يوميا.

دراسات مسحية قومية، بدأت من عام ١٩٩٢ اسنهل، فرمو، صغير من شركة موبيتور، جهدا متصلا لإسداء المشورة لقيادات حكومية ومن قطاع الأعمال في مختلف أنحاء العالم النامي. وتتعلق المشورة بكيفية تحسين الطاقة التنافسية لصناعاتهم. وبدأت جهودنا من أجل تغيير هذه الأنماط بمبادرات استهدفت سياسة الحكومة واستراتيجيات المؤسسات. ولكننا بدأنا نتحقق من أن سياسات السياسة السائدة والإستراتيجيات السائدة في التطبيق ليست هي، وإلى حد كبير، علة الأنماط التي لاحظناها وظننا أنها نتيجة الأسلوب الذي فكر به هؤلاء، بشأن خلق الثروة. وقادنا هذا إلى تطوير سلسلة من أدوات البحث الاستقصائي لعرف كيف فكرت العناصر الكبرى بشأن خلق الثروة. وبدأنا مجهودنا في كولومبيا بإسداء المشورة استقصائية مطبقة على حوالي أربعينات من قيادات الحكومة وقطاع الأعمال ووضعنا الدراسة الاستقصائية وفوق تصميم يسمح بقياس كيفية شعور القيادات في انقطاع العام والقطاع الخاص إزاء الأبعاد المختلفة للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي واجهوها في بلدهم. وكان هدفنا تحديد عدد من القضايا الحاسمة التي سوف تعكفنا من أن نركز على دعم رؤية عامة مشتركة من الأمة.

بدأنا بحثنا بقياس الاختلافات في المواقف إزاء قضايا قومية رئيسية. واستحدثنا أداة مسحية مصممة لبيان ما إذا كانت هناك رؤية مشتركة، وأين نجدها وأين لا نجدها وتبين لنا على سبيل المثال أن هناك درجة عالية من توافق الآراء بشأن قضايا لم يعتبرها كثيرون من القادة أنها في غاية الأهمية للأمة، مثل الاتفاقات التجارية الثنائية ودعم التصديق وتبين لنا أيضا أن هناك انخفاضا شديدا في درجة توافق الآراء بشأن قضايا أحست القيادات أنها مهمة للغاية مثل معدلات سعر

الصرف والحد من التضخم وعلى الرغم من أن هذا النمط من البحث هباً لنا بعض الرؤى النافذة، إلا أنه لم يشر إلى الطريق نحو التغيير ورتبة منا في جعل هذه الدراسة التطبيقية أقدر على تيسير التغيير قررنا تقسيم قطاعات النتائج التي توصلنا إليها على أساس الانتماء التنظيمي وليس على أساس أنها قضايا قومية، ونحن نعزّم هذا دون استخدام البيانات لتشجيع التنظيمات القومية على التغيير.

ونظراً لأننا لاحظنا درجة عالية من التوجه الدفاعي لدى الرسميين من موظفي الحكومة ولدى قطاعات الأعمال، رأينا أنه قد يكون من المفيد تطوير بيانات صريحة ساعدت على صياغة الحوار القومي وامتدنا أننا إذا استطعنا تحديد مجالات الخلاف الحاسمة، فربما سنستطيع تطوير عملية لصياغة رؤية مشتركة في القطاعين الخاص والعام لتمكينهما من العمل معاً من أجل كولومبيا الأكثر قدرة على المنافسة.

وجدنا على سبيل المثال أن الحد من النهرب أفاد كثيراً جداً صناعة النسيج التي كانت نجارب فجوة من الواردات غير المشروعة ولكنها ذات أهمية قليلة نسبياً لصناعات أخرى أو للقيادات الحكومية. كذلك الحد من التضخم كانت له أهمية حاسمة لقطاع الأزهار، وإن لم يكن مهماً بالقدر نفسه لصناعة تجلود، وتهضنا بعد ذلك بعدد من السنوات مع هذه القيادات في محاولة لاختراق الفكرة السائدة عندهم والمتجسدة في إيمانهم بإطار الفكري الخاص بعبارة المفارقة مع بيان أنها تمثل عائقاً حاسماً يحول دون تحولهم إلى قوة منافسة.

تمخض هذا الجهد عن فهم أفضل لبيان كيف أن اختلاف الآراء بشأن القضايا الرئيسية يحول دون نشوء وتطور رؤية مشتركة وأفاد هذا التقسيم الديموجرافي ولكنه لم يخلق استيصارات من شأنها أن تعجل بالتغيير. معنى هذا أن اختلاف الآراء حول القضايا السياسية والاقتصاد الكلي - مع أهميتها - لا يفسر السلوك على مستوى المؤسسة

بيد أننا اكتشفنا فوارق مذهلة بين القيادات في المدن المختلفة، وليست فاصرة فقط على الاختلافات بين قيادات الصناعة الحكومية. وفادنا هذا الاكتشاف انوكم إلى بحث متعمق لآداء خمس من كبريات المدن في كولومبيا، وتبين لنا أن كلا من هذه

المدن الخمس لها منظورها الخاص وأسلوبها المميز ونمط العمل وأبصارا متميزا
خاص للنجاح الاقتصادي.

دراسات مسحية جغرافية

القيادات في المدن الخمس التي درسناها كان لكل منها رؤية متميزة بشأن
السبب في جعل مدينتها مدينة منافسة . رأيت قيادات مدينة ميدلين، والتي بها أعلى
مستوى من حيث نصيب الفرد من الثروة، أن ميزات المدينة مرتكزة على أصول يمكن
وصفها الآن بأنها رأس مال اجتماعي وذات صلة بالموارد من الموارد البشرية
والمادية والثقافية . ولكن قيادات المدن التي تحتل أدنى مستوى من حيث دخل الفرد،
فقد هدنوا مزايا مدينتهم بأنها تتمثل في موارد طبيعية. وأفادت هذه البيانات عن وجود
علاقة قوية بين البنية العقلية للمنطقة ما ودرجة نجاحها الاقتصادي . وأثبتت كل مدينة
أنها على درجة عالية من حيث قابلية التغيير من حيث طريقة إدارتها على نحو جمعي
لمواردها الخاصة بالميزة التنافسية . ولكن مدينة ميدلين التي تتمتع ببنية عقلية تنافسية
على أعلى قدر هي التي خلقت أعلى مستوى معيشة في كولومبيا .

النماذج الذهنية وجهود التغيير

أدت بنا نتائج عملنا مع قيادات المدن الخمس في كولومبيا إلى نتيجة مفادها أنه
لمست الثقافة في ذاتها، أو من حيث هي، التي تؤثر على نوعية خيارات الأقاليم، بل
أولوب تفكير القيادات الأفراد بشأن خلق الثروة. إنها جماع معتقدات فردية في
موازاة أبعاد معينة مثل خلق الثروة ورأس المال الاجتماعي والتوجه السلوكي أو في
كلمة واحدة ، إن الفوارق التي وجدناها هي دالة على النماذج الذهنية لدى قادة المدن.
والتفكير على أساس ميزة المقارنة هو نهج إيمان عميق بوجهات نظر عن
كيفية خلق الثروة إنه نموذج ذهني مقاوم للتغيير وإن التحدي الذي يواجهه العالمية
العظمى من العناصر الفاعلة من أجل التغيير هو أنهم يدعمون حلولاً لتعشكلات.

ولكن العناصر المعقدة بهم لا نلهمها جيدا. وواضح أن الاستبصارات التي تطورت من خلال دراسات تحليلية جادة وصارمة ربما تكون كافية لحث الأفراد على التغيير ، ومع هذا فإن ما وجدته يتسق أيضا مع النتيجة التي استخلصها بيتر سينج والتي تقول:

يفشل إخراج الاستبصارات الجديدة داخل إطار الممارسة العملية، وذلك لأنها تتصارع مع تصورات راسخة في أعماق النفوس عن كيف يعمل العالم، وتصورات تلزمنا بحدود بحيث نحصرننا على الرسائل التقليدية بالفعل والفكر. وهذا هو السبب في أن نظام إدارة النماذج الذهنية - إيران واختبار وتمسين صورنا الباطنية عن كيف يعمل العالم - نظام واحد بل أن يكون قتما معهما في سبيل بناء منظمات تعليمية.⁽⁴⁾

إن تغيير النماذج الباطنية سيكون قتما مهما يساعد القادة على خلق أتم تنافس بفعالية أكبر في الاقتصاد الكوكبي. وإن التحدي الأول هو اختراق النماذج الذهنية التي تثبط تطوير شركات تنافسية وبنى عقلية تنافسية. وهنا سوف يتبع هذا تغيير ثقافي حتما، ولكن ليست المهمة هي تغيير الثقافة ، إن المهمة هي خلق الظروف التي تتولد عنها شركات تنافسية لأنها هي التي ستكون القوى المحركة للنمو الداعم للنقد البشري

وجدير بالذكر أن عملنا مع قيادات القطاعين العام والخاص على الصعيد القومي ساعدنا على تحديد القضايا القومية التي نحبذ خلق رؤية قومية مشتركة وساعدنا عملنا على المستوى الإقليمي مع القيادات على التعرف على التحديات المحلية التي تواجه الرخاء الاقتصادي. ولكن ما إن بدأنا محاولة تغيير الوضع القائم حتى تبين لنا أن وجود مستوى للتدخل أكثر دينامية بكثير والذي حري أن نبدأ به. ألا وهو تحديد جماعات من الأفراد يقاسمون أنشاطا متماثلة من التفكير

وكم هو ضروري ليكون الدعير مهما وذا دلالة أن محدد الأفراد الذين سوف يعبرون بالتعبير. والملاحظ أن العبارات الوصفية العامة. كمن تقول الحكومة أو أننا، مدينة بذاتها، هي عبارات غير ذات فائدة مرجوة وإنما المفيد والمعين لنا أن نحدد الناس في ضوء طريقة تفكيرهم بشأن كيفية خلق الثروة بغض النظر عن اقتنائهم المؤسسي.

وبينما كنا نعمل في فنزويلا، ثم في بلدان أخرى، استحدثنا أداة دراسة مسحية قادره على تحقيق هذا الهدف تحديداً. إذ بدلا من أن نكتفي بتحليل القضايا الخلافية اليومية، بدأنا دراسة حذرة للغاية لوسائل تفكير جماعات الأفراد بشأن القضايا الرئيسية. وتسنى لنا بفضل هذا النهج أن نقسم الأمة إلى قطاعات. ليس على أساس الانتماء المؤسسي أو الموقع الجغرافي. بل على أساس منظومة المعتقدات، ووجدنا في فنزويلا على سبيل المثال خمسة قطاعات متميزة على أساس آرائها الفريدة عن العديد من القضايا الحاسمة. ولم نحدد القطاعات الخمس المنتملة لفنزويلا على أساس الانتماء الجغرافي أو السكاني بل على أساس المعتقدات بشأن متغيرات فردية تؤثر في الاقتصاد.

وثمة نتائج أخرى لدراسة استقصائية فرعية شملت أربعمائة من قيادات السلفادور في عام ١٩٩٧. وتؤكد هذه الدراسة أن النماذج الذهنية ربما تكون أهم تقسيم ذات دلالة للقوى الفاعلة للتغيير. وطور كايا عيللر وفريق شركة مونيبور دراسة مسحية قاست عشرات المتغيرات الفردية ثم جمعتها معا ضمن أحد عشر عاملا يجري استخدامها لخلق خمس رؤى متميزة عن الإمكانيات التنافسية للسلفادور^{١٤}

وأطلق على أضخم فريق من الأفراد - وضوح المسح اسم المحبسون. ويمكن تحديدهم أساسا في ضوء مشاعر الإحباط لديهم إزاء كل من الحكومة والقطاع الخاص. ولم تكن لدى هذا الفريق آراء مكتبة بشأن أي نموذج اقتصادي ونظري يسهل السلفادور على التحسن، ولكنهم فريق يرى على الأرجح أن السلفادور على حافة أزمة.

الفرق الأكبر الناس بحمل اسم المؤمنون بدور النوبة المركزي . ويعتقد هذا الفريق أن الشيء الوحيد الذي نحتاج إليه السلفادور للتغلب على تحدياتها الراهنة هو فريق صغير من صنّاع القرار الرسميين يخصصون جميع القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

وعلى عكس هؤلاء، فريق المناضلون الذين يضعون ثقتهم في المواطن المتوسط، إنهم على ثقة من أن المواطن المتوسط إذا ساندته الحكومة على نحو صحيح، فإنه سيقود السلفادور نحو مستقبل أفضل.

وأصغر الجماعات جماعة الحمائيون. وعلى الرغم من أن جميع الفرق تقريبا تكشف عن قدر من المساندة للسياسة الحمائية التي تتبعها حكومة السلفادور، إلا أن الحمائيين هم الأعلى صوتا. ذلك أن هذا الفريق يدعم صراحة سياسات مثل الإعانات الحكومية والتعريفات الجمركية، وغير ذلك من أشكال الحماية الرسمية كإستراتيجيات للمنافسة الناجمة في الاقتصاد الكوكبي

والجماعة الوحيدة التي مايزت نفسها بوضوح عن بقية الجماعات الأخرى هي جماعة الاقتصاد المنفتح. وتؤمن هذه الجماعة بأهمية الروابط الدولية في التجارة والتبادل التعليمي وغير ذلك، ولكنها تشعر بالإحباط إذا، نوعية مساندة الحكومة لقطاع الخاص. بيد أنها قررت المضي قدما في طريقها والنجاح في مساعدتها دون مساعدة من الحكومة.

وجدير بالملاحظة أن هذه الدراسة المسحية جرى تطبيقها على عديد من الجماعات الديموجرافية المتميزة: رجال أعمال، وكاديميون وعمال، وقيادات حكومية. وطبقت كذلك على عديد من الجماعات الجغرافية المتميزة قيادات في السلفادور، وبونوستا وسانتا أنا، وسان عيجيل، وتم استخلاص بعض الاستنبصارات القليلة من هذه البيانات الديموجرافية والجغرافية. ولكن كلا من النماذج الذهبية الخمس المذكورة أتفا احتوى على مزيج متوازن من كل من الفريق الجغرافي والديموجرافي، أو بعبارة أخرى لم تكن التفسيرات الحقيقية في البلد دالة على موطن سكن الناس، أو على مهنتهم، بل دالة على معتقداتهم الأساسية، وافراضياتهم ومواقفهم إزاء موضوع خلق الثروة

وواقع الأمر أننا بعد أن عرضنا نتائج جهودنا على أساس النموذج الذهني على فريق من قيادات فنزويلا، رفع أحد الحضور يده يتوسل إلينا أن نجعل من هذه الفرق فنزويلا واحدة ثانية لقد رأى لأول مرة كيف يمكن أن يحدث التغيير من خلال خلق رؤية مشتركة على أساس التعاذج الذهنية

أفكار ختامية

الثقافة مهمة. ولكن توليد العمل على صعيد الثقافة مهمة جبارة. وأكد هذا الفصل أن النماذج الذهنية الأساسية التي تصوغ خيارات الأفراد تمثل الدعامة الأساسية لخلق التغيير. وإذا عينا إلى السؤال الذي طرحه القيادي الغاني في صدر هذا الفصل: هل يتعين تغيير الثقافة للتلازم مع الاقتصاد الكوكبي؟ حتما سوف تتغير الثقافات. ولكن النقاش ذي الصلة ليس نقاشا حول الثقافة في ذاتها، وإنما حول نوريح منظومات المعتقدات الفردية من حيث علاقتها بأبعاد التغيير وثيقة الصلة. وإن إحدى الخطى المهمة في الاتجاه الصحيح لضمان التقدم البشري هي توجيه الجهود من أجل تحديد وفهم كيف أن نماذج ذهنية محددة تفيد عملية خلق الثروة.

وأطرح فيما يلي خمسة أفكار كأفكار ختامية لهذه المناقشة. مشروعات الأعمال الناجحة والموجهة نحو النمو تمثل شروطا مسبقة ضرورية للتقدم. إنها محركات النمو. إن البشر لكي يتقدموا يجب أن يكونوا قادرين على خلق مستويات معيشة مطردة الارتفاع. وإذا كان المفكرون السياسيون ورجال الاقتصاد لا يكفون عن تعميق فهمنا للكيفية التي تؤثر بها بعض أمور السياسة أو الحكم في النجاح الاقتصادي، إلا أنه بدأ يتزايد الاهتمام بفهم أن مشروعات الأعمال الفردية هي محرك النمو. ومن ثم يجب بذل المزيد من الجهد للعمل على دعم إنعاش مشروعات أعمال أكثر قدرة على التنافس.

بعض الإستراتيجيات أكثر نجاحا من غيرها. إن بعض مشروعات الأعمال مهيأة للنجاح دون سواها، ذلك لأنها طورت إستراتيجيات أعمال مستدامة واستثمرت في

مزايا مختلفة وثنافسية معني هذا أن كل مشروعات الأعمال لديها إمكانية عمل الشيء ذاته ولكن قليلة هي التي تحقق ذلك

البنى العقلية التنافسية (أو النماذج الذهنية) تصوغ الإستراتيجية. ليس التعليم هو العامل المفيد لاستراتيجية مشروعات الأعمال الجيدة، وليست سياسة الحكومة، وليس استقرار الاقتصاد الكلي. إن إستراتيجية مشروعات الأعمال الناجحة تستلزم بنية عقلية تنافسية . مجموعة من المعتقدات والمواقف والانفrazات التي تحكم طريقة رؤية المرء للتنافس ولخلق الثروة

النماذج الذهنية موزعة علي مدى قطاعات ديموجرافية/جغرافية. ليس غياب البنى العقلية التنافسية مسئولاً عن السياسات القومية، وليس مسئولاً عن الثقافة بذهنى الواسع، أو عن عطلت بذاتها. إن النمجة الوحيدة الأهم في براسنا للنماذج الذهنية هي أنها موزعة على نطاق واسع بين الناس. وثمة نماذج ذهنية معينة - أو لنقل بعبارة عامة بنى عقلية قائمة على الميزة التنافسية - هي التي تحد من قدرة مشروعات الأعمال على الفجاح

النهوض، إنشأ مشروعات أعمال ناجحة يستلزم إعادة توجيه النماذج الذهنية. من الضروري، توجها لدعم النمو الإقتصادي والتقدم البشري، أن تغير النماذج الذهنية الأساسية التي تشكل طريقه المرء في التفكير بشأن المضاطرة والثقة والمنافسة، والسلطة . الخ، من متغيرات حاسمة

وختاماً نقول إن تغير النماذج الذهنية قد يفضي إلى تغيرات درامية في ثقافة أمة أو إقليم. ولكن الجمهور المبذولة لتغيير الثقافة لن تخلق تغيرات في الأداء الإقتصادي للأمة، ويتعين أن يكون المستوى اللائم لتثليل هو المستوى الفردي - أي المؤسسة. ويتعين بذل الجهد لفهم أي النماذج الذهنية هي الدافعة للخيارات الإستراتيجية التي نتخذها، ومن ثم يجب أن تكون هذه النماذج الذهنية هي بؤرة تركيز جهود التغيير.

دعم التغيير الثقافي المرحلي

لورانس إي. هاريزون

شمة إطار فكري جديد غير ملحوظ على نطاق واسع في الدوائر الأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية يمثل نظرية لاستيطان الواقع أو النظر إلى باطن الواقع، إذ تركز على القيم والمواقف الثقافية. وبني هذه النظرية لتملأ الآن بالتدرج الفراغ التفسيري المتخلف عن انهيار نظرية الاعتمادية Dependency Theory . وتصدرت أمريكا اللاتينية مؤخراً موقع الريادة في التعبير عن هذا الإطار الفكري المتمحور حول الثقافة، وكذلك في محاولة ابتكار مبادرات لترجمة أفكار إلى أعمال ليس هدفها العمل على تسارع النمو الاقتصادي، بل تقوية دعائم المؤسسات الديمقراطية والنهوض بالعدالة الاجتماعية. ويعد الإطار الفكري (الباراداييم) عن الثقافة أتصاراً له في أفريقيا وآسيا.

وطبيعي أن كثيرين من المحللين الذين عكفوا على دراسة معجزات شرق آسيا الاقتصادية على مدى العقود الثلاثة الأخيرة خلصوا إلى أن القيم "الكونفوشية" مثل التأكيد على المستقبل، والعمل، والإنجاز والتعليم والتجارة والادخار، كان لها دور حاسم في تطورهم. (وإن هذه القيم التي تشبه الأخلاق البروتستانتية ضاربة بجذورها ليس في الكونفوشية فقط، بل أيضاً في عبادة السلف والطاوية وفي منظومات عقائدية أخرى). ولكن المثقفين والسياسيين في أمريكا اللاتينية ظلوا من

سنوات قليلة غافلين عن نجاح بلدان شرق اسيا في السوق العالمية - وهو ما يتناقض تماما مع نظرية التبعية ، كذلك غاب عنهم التفسير الثقافي لتلك المعجزات. وقبلت أغلب قطاعات أمريكا اللاتينية الآن دروس السياسة الاقتصادية المستفادة من شرق آسيا. وأضحت تواجه اليوم السؤال التالي: إذا لم تكن الاعتمادية والإمبريالية مسئولتين عن تخلفنا الاقتصادي، وعن تقاليدنا السياسية الاستبدادية، وعن المظالم الاجتماعية المفرطة، فمن المسئول إذن؟

طرح هذا السؤال الكاتب الفنزويلي كارلوس رانجل في كتاب له صدر في منتصف السبعينيات باللغتين الفرنسية والإسبانية تحت عنوان ترجمته من النبيل الهجعي إلى النبيل الثوري، ثم صدرت ترجمته بالإنجليزية تحت عنوان شعوب أمريكا اللاتينية - علاقة الحب - الكراهية مع الولايات المتحدة⁽¹⁾ ولم يكن رانجل أول باحث في أمريكا اللاتينية يستخلص نتيجة مؤداها أن القيم والمواقف التقليدية الأيبيرية - الأمريكية وكذا المؤسسات المعيرة عنها والداعمة لها هي السبب الرئيسي لفشل أمريكا اللاتينية ووضع كلمة "الفشل" لإظهار التناقض والتباين مع نجاح الولايات المتحدة وكندا. وسجل بوليفار إيد فرنسيسكو ميراندا، وآخرون، في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر نتائج معاملة نقرأ هذه النتائج على لسان بوليفار نفسه بعد ثلاثة عقود من هذا التاريخ، ثم على السنة كل من أرجنتين جوان بوسنا أليردى، وبونجر فرستينو سارمينتو، وشيبيان فرنسيسكو بيلباو خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم أيضا على لسان مفكر من نيكاراغوا يدعى سلفادور مندبينا في مطلع القرن العشرين.

ونقرأ تحليلات معاملة بأقلام مفكرين إسبانيين هم جوزيه أورثيجا إي جاسيت، وفرناندو دياز بلاجا، وميجيل دو أونامونو، ولكن هذه التحليلات تركزت أساسا على مسألة بقاء تحديث إسبانيا (حتى عقود قريبة، مع صلة وثيقة أيضا بأمريكا اللاتينية).

صدرت كتاب رانجل مقدمة بقلم جين فرانسوا ريفيل يؤكد فيها تحاشي أمريكا اللاتينية للنقد الذاتي، وأكسب هذا الكتاب رانجل عداوة القالية العظمى من المثقفين

في أمريكا اللاتينية كما أغفله بوجه عام المتخصصون من أبناء أمريكا اللاتينية المقيمون في أمريكا الشمالية أو في أوروبا. ومع هذا أكد الكتاب أنه بذرة أولى صالحة للنمو، وأنه طليعة. وفي عام ١٩٧٩ شرح أوكثافيو باز الصائز على جائزة نوبل التباين بين الأمريكتين على هذا النحو: "إحداهما، تتحدث الإنجليزية، وهي سلبية تراث أسس العالم الحديث؛ الإصلاح الديني بنتائجه الاجتماعية والسياسية والديمقراطية والرأسمالية. والأخرى تتحدث الإسبانية والبرتغالية، وهي سلبية الملكية الكاثوليكية العالمية والمعادية للإصلاح الديني"^(٤٧).

وتجد أصداء قوية لفكر رانجل في كتاب كلوديو فيليز الصابر عام ١٩٩٤ تحت عنوان "العالم الجديد للشعب القوطي"^(٤٨)، الذي يقابل فيه بين التراث الأنجلو-برونسمانتى والتراث الأيبيري الكلاسيكي في العالم الجديد. ويحدد فيليز الإطار الفكري الجديد بكلمات الكاتب ذائع الصيت من بيرو ماريو فارغاس ليوزا الذي يؤكد أن الإصلاحات الاقتصادية والتعليمية والتشريعية اللازمة لتحديث أمريكا اللاتينية لا يمكن تحقيقها

'ما لم يسبقها أو يصحبها إصلاح لأعرافنا وعاداتنا وأفكارنا وكل المنظومة المعقدة من العادات والمعارف والتصورات، والصور التي نطعمها حين نقول "الثقافة". إن الثقافة التي نعيش في كتفها ونعمل في ظلها اليوم في أمريكا اللاتينية لا هي ليبرالية ولا ديمقراطية. لدينا حكومات ديمقراطية، ولكن مؤسساتنا ورموز أفعالنا وعقليتنا أبعد ما تكون عن وصفها بالديمقراطية، إنها ولا تزال خصائص شعبية لويجاركية أو استبدادية مطلقة، وجمعية أو "جماعية" عقائدية جامدة، تشوبها تحيزات اجتماعية وعنصرية، أبعد ما تكون عن التسامح مع الخصوم السياسيين، ومكرسة لأموأ احتكار وهو احتكار الحقيقة"^(٤٩).

أكثر الكتب رواجاً في أمريكا اللاتينية خلال الفترة الأخيرة كتاب بعنوان المرشد للأبله الأمريكى اللاتينى المثالى^(٤٠). من تأليف بلينيو أولسبر مندوزا. ألفارو بن فارجاس ليلوزا، والتكوبى المنفى كارلوس ألينو مونتازر. وأهدى المؤلفون كتابهم إلى رانجل وريفيل. ينتقد الكتاب مشغفى أمريكا اللاتينية الذين روجوا على مدى هذا القرن وجهة النظر القائلة إن المنطقة ضحية للإمبريالية. وتذكر من بين هؤلاء إدواردو جالياتو. من أوروغواي، ومؤلف كتاب حقق رواجاً شعبياً كبيراً بعنوان الشرايين النازفة لأمريكا اللاتينية^(٤١). وأيضاً فيدل كاسترو ونشى جيفارا، وفرناندو إنريك كاردوزو رئيس البرازيل الحالى، وجوستافو جوتيريز. مؤسس لاهوت التحرر ويؤكد المؤلفون أن الأسباب الحقيقية لتخلف أمريكا اللاتينية كامتة فى عقول أبناء أمريكا اللاتينية. ويقدمون فى التذييل نحت عنوان صناع البؤس^(٤٢) عرضاً تتبعياً للتأثير المدمر للثقافة التقيدية فى سلوك مئات من جماعات النخبة: السياسسيون والعسكريون ورجال الأعمال ورجال الدين والمثقفون والثوريون (أنظر الفصل الخامس).

وأخر كتب مونتازر دعونا لا ننفذ القرن الواحد والعشرين أيضاً^(٤٣) يؤكد على الكلفة التى تحملتها أمريكا اللاتينية نظير غفلتها وعدم استيعاب الدروس. ثقافياً وسياسياً، المستفادة من نجاح الديمقراطيات المتقدمة. وهناك كتاب الشروط الثقافية للتطوير الإقتصادي^(٤٤) من تأليف المثقفة والإعلامية البارزة فى الأرجنتين ماريانو جروندونا والصادر عام ١٩٩٩. يعرض الكتاب دراسة تحليلية مقارنة بين الثقافات الداعمة للتطوير (مثل الولايات المتحدة وكندا)، والثقافات المناهضة للتطوير (مثل أمريكا اللاتينية).

الشيء اليقيني أن قيم ومواقف أمريكا اللاتينية أخذت فى التغير على نحو ما تشير التحولات السياسية الديمقراطية واقتصاديات السوق خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة. وثمة قوى عديدة اصطلحت على تعديل ثقافة المنطقة بما فى ذلك التيار الثقافى الجديد الذى تعرض له فى هذا الفصل. وعمولة الاتصالات والاقتصادات، والانتفاضة البروشناتشية النسوية إلى الإنجيلية وعن العنصرية (تقدر نسبة

الدروس سادت الآن بأكثر من ٢٠ بللثة من السكان في جواتيمالا، وحوالي ٢٠ بللثة في البرازيل وشملي ونيكاراجوا^(١)

وتلحظ أشرا عميقا للكتب المعبرة عن الإطار الفكري الجديد والعامود الأسبوعي الذي يكتبه مونتانيو (من أوسم الأعمدة انتشارا باللغة الإسبانية) في أمريكا اللاتينية. ولكن هذه الكتب، من ناحية أخرى، مضت نون أن يعبا بها أحد تقريبا في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية. وتجد جيلا من أبناء أمريكا اللاتينية ممن تغذوا على نظرية النجبية أو على النظرلة الأقل مفالاة وتضرفا والتي ترى أن حل مشكلات أمريكا اللاتينية يعتمد على الولايات المتحدة، وهري بها أن تكون أكثر مساعاة في التعامل مع أمريكا اللاتينية ويرى هؤلاء أن التفسير الثقافي غير مستساغ، وسمعت في ندوات متباعدة أحد المثقفين البارزين من أبناء أمريكا اللاتينية ومن مواطني الولايات المتحدة الآن يصف الثقافة بأنها إلهاء، وأكد آخر أن الثقافة غير ذات صلة بتطور أمريكا اللاتينية. ودفع ثالث بان الثقافة غير ذات صلة بالتاريخ المسيسي المضطرب في فنزويلا

إنني أدرك تماما وعلى نحو خاص بالطبيعة الفرائدة والواعدة لكتاب رانجل، إذ لولا قراعتي له ربما ما كنت كنت كتابي الأول المحتون الخلف حالة عقلية. حالة أمريكا اللاتينية^(٢)، والصادر عام ١٩٨٥. كذلك أهديت آخر كتبي لحلم الأمريكتين، مجتمع واحد^(٣) إلى رانجل، وقد صدرت منه طبعة إسبانية عام ١٩٩٦.

كيف تؤثر الثقافة في التقدم

حلم وحدة الأمريكتين يعين هوية عشرة قيم ومواقف أو تكوينات عقلية تميز الثقافات القديمة عن الثقافات السكونية، وترتبط هذه الصياغة برباط وثيق بدراسة ماريانو جريونوتا عن تصنيف الأنماط في الفصل الرابع.

١ التوجه الزماني: تؤكد الثقافات القديمة على المستقبل، بينما الثقافات السكونية تؤكد على الحاضر أو الماضي، ويتضمن التوجه المستقبلي نظرة تقدمية

مرحلة إلى العالم - التأثير على مصير المرء، الجزاء في هذه الحياة مقابل الفضيحة، اقتصاد حاصل جمع إيجابي

٢ - الثقافات التقدمية تؤمن بمحورية العمل من أجل حياة جيدة، ولكنه عبء في الثقافات السكونية. فالعمل في الأولي بشيد بالحياة اليومية، الكد والاجتهاد والإبداع والإنجاز لهم عائد وجزاء ليس ماليا فقط، بل أيضا إشباع نفسي واحترام للذات.

٣ - الادخار هو أصل للاستثمار - والأمن المالي - في الثقافات التقدمية، ولكنه خطر يتهدد الوضع القائم المساواتي في الثقافات السكونية التي تلتزم غالبا نظرة الحاصل - صفر إلى العالم

٤ - التعليم مفتاح التقدم في الثقافات التقدمية، ولكنه ذو أهمية هامشية فيما عدا الحال بالنسبة للنخبة في الثقافات السكونية.

٥ - الجدارة محورية من أجل التقدم في الثقافات التقدمية، ولكن الروابط الشخصية والعائلية هي الشيء المهم في الثقافات السكونية.

٦- المجتمع المحلى تلحظ في الثقافات التقدمية أن نطاق التوافق والثقة يتجاوز حدود الأسرة إلى المجتمع الأوسع. ولكن في الثقافات السكونية نجد الأسرة هي حدود المجتمع. والمجتمعات التي يضيق نطاق التوافق والثقة فيها مهينة أكثر للفساد، والتهرب الضريبي، وأقل نزوعا نحو حب البشر عامة.

٧ - ينزع القانون الأخلاقي إلى أن يكون أكثر صرامة في الثقافات التقدمية. إذ أن كل ديمقراطية متقدمة (فيما عدا بلجيكا وتايوان وإيطاليا وكوريا الجنوبية) تظهر بين الخمس والعشرين بلدا الأقل فسادا في العالم حسب دليل تصورات الفساد لمنظمة الشفافية الدولية. والملاحظ أن شيلي وبوتسوانا هما البلدان الوحيدتان من العالم الثالث اللذان ظهرا بين بلدان القعة الخمس والعشرين.

٨ - العدالة والأمانة توقعات شاملة في العلاقات بين الأشخاص في الثقافات التقدمية. ولكن العدالة في الثقافات السكونية شأن التقدم الشخصي غالبا ما تكون دالة على من الذي تمرقه، وكما دعت.

٩- السلطة في الثقافات التقدمية تميل إلى الانتشار، وأن تكون موزعة أفقياً، ولكنها في الثقافات السكونية تميل إلى التركيز. وموزعة رأسياً وخير مثال يوضح هذا هو الدراسة التحليلية التي كتبها روبرت بوتنام عن الفوارق بين الشمال والجنوب في إيطاليا تحت عنوان تفعيل الديمقراطية^(١٣).

٦- العمالية: نفوذ المؤسسة الدينية على الحياة المدنية ضئيل في المجتمعات التقدمية، ولكن نفوذها كبير في الثقافات السكونية. والغروج على الجماعة والانشقاق يلقيان تشجيعاً في الأولى ويقابلها التقليد والتماثل في الثانية.

وإضح أن هذه العوامل العشرة تعبر عن القواعد العامة والصور المثالية، ولكن الحقيقة أن التباين الثقافي ليس مسألة أسود وأبيض، بل إنه طيفي، حيث تتداخل كل الألوان في بعضها، إن عدداً قليلاً جداً من البلدان هو الذي يمكن أن يحصل على عشر درجات مستوعباً جميع العوامل، تماماً مثلما أن عدداً قليلاً يحصل على درجة واحدة. ومع هذا فإن جميع الديمقراطيات المتقدمة سوف تحصل عملياً على درجات مرتفعة موضوعياً أكثر من جميع بلدان العالم الثالث في الواقع الحياتي.

تدعونا هذه النتيجة إلى أن نستنتج أن ما يؤثر حقيقة هو التطوير وليس الثقافة. ويمكن أن نسوق الحجة ذاتها بشأن دليل بصورات الفساد لمنظمة الشفافية الدولية، ويشتمل التقدم والثقافة على تداخل محدد بين السبب والنتيجة. ولكن الثقافة لها قوة فاعلة يمكن إثباتها، وهذا يمكن أن نلاحظه في تلك البلدان حيث الإنجاز الاقتصادي للأقليات العرقية يتجاوز كثيراً إنجاز الأكرهيات كما هو حال الصينيين في تايلاند وأندونيسيا وماليزيا والفلبين. وهذا ما يمكن أن نشهده أيضاً في كوستاريكا، حيث ازدهرت مؤسسات ديمقراطية وسط اقتصاد ينتمي للعالم الثالث، ويخلص بوتنام إلى نتيجة مؤداها أن تطور إيطاليا على مدى قرون طويلة يثبت أن القيم الثقافية كان لها تأثير أكبر من التطوير الاقتصادي. وتخلص جرونونوا في كتابها الشروط الثقافية للتطوير الاقتصادي إلى أن الثقافة أقوى فاعلية وتأثيراً من الاقتصاد أو السياسة.

وجدير بالذكر أن العوامل العشر ليست نهائية. ذلك أن دراسة جرونونوا عن أنماط الثقافات الداعمة للتطوير والمناهضة للتطوير تشتمل على عشرين عاملاً يتداخل

أكثرها مع العشرة التي ذكرتها ولكن العوامل العشر نغيب في النهاية ما هو الشيء، وسط محيط الثقافة الفسيح الذي يمكن أن يؤثر على طريقة انجتماعات في النضور علاوة على هذا فإن الإطار الفكري الجديد الذي يلتزم به الكتاب بعامة هي أمريكا اللاتينية (وكاتب واحد على الأقل في أفريقيا) فإنه يعزو ببطء عملية التحديث في هذه البلدان إلى القيم والمواقف التقليدية، وتدعونا آراؤهم إلى أن نمنحصر الدراسة التحليلية التي قدمها ميردال عن جنوب آسيا وكذا الدراسة التجريبية التي كتبها بيرنارد لويس عن العالم الإسلامي، ناهيك عن آراء علماء رواد في الدراسات الثقافية من أمثال ألكسيس دو توكفيل وماكس فيبر وإدوارد ثانفيلد وجيرير بالملاحظة أن كتاب "الديمقراطية في أمريكا" وثيق الصلة على نحو خاص بالنسبة لأولئك المعنيين بتقديم تفسيرات جغرافية أو مؤسسية للتطور الديمقراطي.

'يبالغ الأوروبيون في الحديث عن تأثير الجغرافيا على السلطات الدائمة للمؤسسات الديمقراطية. إذ يولون أهمية مفرطة للقوانين وأهمية ضئيلة للأخلاق ... وإذا لم تكن على مدى صفحات هذا الكتاب قد تجحت في أن أجعل القارئ يشعر بالأهمية التي أوليها للشجرة العنقية لدى الأمريكيين، وإلى عاداتهم وآرائهم، وفي كلمة واحدة، إلى أخلاقهم وأعرافهم للحفاظ على هوائيتهم، فإن هذا يعني أنني أخفقت في إنجاز هدفي الرئيسي من كتابي' (١٤).

العلاقات الثقافية المتداخلة في أقاليم أخرى

في عام ١٩٦٨ أصدر جوتار ميردال كتابه "بعث في فقر الأمم" وذلك بعد عشر سنوات من دراسة عن جنوب آسيا (١٥). وخلص إلى نتيجة مؤداها أن العوامل الثقافية، المتأثرة بعمق بالعقيدة الدينية، هي العنصر الأساسية أمام التحديث. وليست المسألة قاصرة فقط على أنها تعترض طريق نشاط تنظيم مشروعات الأعمال، بل

لأنها سفلعل وسحر ومهيمن على السلوك السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبشير مردال إلى أن نظام الطوائف المتعلقة على نفسها أميل إلى جعل مظاهر السفاور وعدم المساواة القائمة نظاما متحجرا وغير قابل للتعديل، ويفوق ويدعم مشاعر الازدراء والامتياز السائدة تجاه العمل اليدوي^(١٦٦). ويعتقد أن النطاق المحدود للتطابق والثقة بولد الفساد ونزعة حماية الأتارب.

وينقد مردال علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع لفصلهم في تقديم منظومة أوسع قاعدة من النظريات والمفاهيم اللازمة لدراسة مشكلة التطوير دراسة علمية. ولكنه ينظر نظرة تقدير إلى أن المواقف والمؤسسات ونماذج ومستويات الحياة، والثقافة بمعنى عام..... أصعب كثيرا من أن تحيط بها دراسة تحليلية منهجية على عكس ما يسمى عوامل الإنتاج الاقتصادية^(١٦٧). ويخلص إلى نتيجة مقترنة بالذرة إلى تغيير ثقافي تنصهر الحكومات ريادته، وأن يجري من خلال التعليم بوجه خاص

والملاحظ أن مسار عملية التحديث في أغلب البلدان الإسلامية ظل بطيئا إذ لا تزال الأمية، خاصة بين النساء، مرتفعة جدا في كثير من البلدان. كذلك فإن معدل وفدت الأطفال ومعدل النمو السكاني مرتفعين. والملاحظ أن تركيا على الرغم من لجمها للأكراد والأصوليين هي البلد الإسلامي الوحيد - العلماني يقينا - الذي يؤمن بالمعايير الحديثة لنظام الحكم التعددي. وتعتبر ماليزيا مزدهرة نسبيا، ولكن عوائدها الاقتصادية لا تتناسب مع ما يعكسه النشاط الإبداعي للأقلية الصينية في البلاد (٢٦ بئلمائة من إجمالي السكان). كذلك فإن الدول المنجحة للفض مثل العربية السعودية ودولة الإمارات العربية ودولة الكويت دول غنية جدا، ولكنها لا تزال تقليدية للغاية في كثير من المجالات، معلما يشهد الواقع بأن أكثر من نصف النساء السعوديات أميات^(١٦٨).

إن حركة التقدم البعثية في العالم الإسلامي خلال الفرون الأخيرة تتناقض تناقضا صارخا مع القوة التقدمية التي تمتعت بها البلدان الإسلامية على مدى مئات السنين بعد تأسيس الإمبراطورية الإسلامية، وتتناقض كذلك مع القوة الطاغية للإمبراطورية العثمانية على مدى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومن أبرز

الشخصيات الذين برزوا انحسار الإسلام إلى عوامل ثقافية، برنارد لوس. إن يؤكد لوس على النتائج المترتبة على عملية تحديث التيار السني الإسلامي منذ قفل باب الاجتهاد على أيدي الفقهاء الإسلاميين فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر. وتمثلت نتيجة ذلك فى رأى لوس، فى قمع مشروعات الأعمال والتجربة والأصالة، وإعادة ترسيخ النظرة القدريّة إلى العالم^(١٩)

ويقدم دانييل إيتونجا - ماتجويل تحليلاً للثقافة الأفريقية فى هذا الكتاب. ويعزو فقر أفريقيا والحكم التسلطى للاستبدادى والمظالم الاجتماعية فيها إلى أسباب أساسية هى القيم والمواقف الثقافية التقليدية مثل:

• تراث المملطة القائم على المركزية الشريفة فى وضع
رأسى.

• التركيز على الماضى والعاشر نون المستقبل.

• رفض حاكمة الزمن وأحوال الواقع.

• استهجان العمل : إذ يعمل الأفارقة من أجل العيش ولا
يحيون من أجل العمل. (٢٠)

• كبت المبادرة الفردية والإنجاز والانتشار عند الفرد.

[والنتيجة الملازمة هى الفيرة من النجاح]

• إيمان بالشعوذة والسحر وبما غذاء اللامعقلانية
والقدريّة.

ويقدم إيتونجا - ماتجويل رؤية مثيرة لأولئك الذين يرون أن 'إقامة المؤسسات' هى السبيل لحل مشكلات العالم الثالث المتعلفة - بالنطوع النولى للمجتمع، وهى رؤية تذكرنا بحديث توكجيل. وتتلخص فيما يلى الثقافة هى الأم، والمؤسسات أبنائها.

ومنذ عقد مضى قام سافاتورى ثيرزى مؤسس المعهد الأوروبى لإدارة الأعمال (ويجمل اسمه الأحرف الأولى الفرنسية أنسيد (INSEAD)، بمبادرة منه بعمل دراسة

مسحبه للقطاع العام والخاص في صقلية وكان هدفه أولا الوصول إلى فهم أفضل للعوامل الكامنة وراء تخلف الجزيرة. ووضع أن نتائج الدراسة ماثلة بصورة مذهلة للنتائج التي توصل إليها إدوارد بانغليك في دراسته عام ١٩٥٨ عن القرية في جنوب إيطاليا والمنشورة تحت عنوان "الأساس الأخلاقي لمجتمع متخلف". وكشفت عن أن ثقافة صقلية تهيمن عليها نزعات وتوجهات تثير السخط، وهي الفردية وفقدان الثقة والشك.^{17٦} وتبين أن منظومة القيم في صقلية شأنها شأن ثقافة أفريقيا كما أوضحت الدراسة التطبيقية التي قدمها إيتونجا - مانجويل كينت النحاون ولم تشجع المنافسة التي نعتبرها الثقافة "عبوانة". وأضحى التواطؤ، خاصة بين القطاعين العام والخاص بديلا عن النحاون والمنافسة. ويشبه هذا كثيرا النزعة التجارية "انيركانتيلية" في أمريكا اللاتينية كما وصفها هرناندو بوسوتو في كتابه "الدرب الآخر"^{17٦}

وألقي المسح ضوءا على عوامل ثقافية أخرى لها طابعها المميز. تركيز الاهتمام على الحاضر، صعوبات أمام التخطيط الإستراتيجي، غياب نظام مقابله المشروعات، العلاقات التسلسلية بين صاحب العمل - العميل. وأدت نتائج المسح، التي صدمت النخبة في صقلية، إلى الاستمرار في برنامج استهدف تغيير القيم والمواقف وكذلك تعزيز أركان الإدارة والتخطيط والتنسيق ونظام مقابله المشروعات.

تغيير الثقافة التقليدية

هناك عدد من الأبحاث التي أجريتها في اليابان والتي تهدف إلى فهم دور القيم والمواقف الحافزة للتقدم. ويرجع ذلك جزئيا إلى تأثير كتاب الإطار الفكري الجديد، كما يرجع في بعض الحالات إلى تجارب الحياة التي ساقتهم إلى النتائج نفسها

تذكر أوكيتافيو مافيللا الذي ظل على مدى ثلاثة عقود موزع شركة هوندا في بيرو. وهو رجل عصامي بلغ السبعين من العمر. وزار مافيللا اليابان عدة مرات على مدى هذه السنوات. وتوصل منذ حوالي عشر سنوات إلى نتيجة مفادها أن الفارق المهم الوحيد بين اليابان وبيرو هو أن الأطفال اليابانيين تعلموا فيما حافزة للتقدم

بمعامل متعلمها أطفال بيرو. وأسس عام ١٩٩٠ معهد التنمية البشرية (والذي يحمل الأحرف الأولى من الاسم الإسباني أنديهو INDEFHU) في ليما لانهوض بوصايا العشر لتطوير النظام، النظافة، الدقة، المسئولية، الإجازة، الاستقامة، احترام حقوق الأخرى، احترام القانون، أخلاقيات العمل، الاندماج. وشارك خلال العقد الماضي أكثر من مليون طالب من أنحاء بيرو في البرامج التي يربطها معهد أنديهو، والذي استطاع عمليا أن يعين كل موازده داخل بيرو.

ويحظى الوعد خارج بيرو أيضا بوصايا العشر للتطوير إذ إن هومبرتو بيللي، وزير التعليم في بوليفيا في وزارتين متتاليتين، رأى في هذه الوصايا محورا لبرنامج الإصلاح التعليمي. كذلك رامون دي لا بينا، مدير حرم مونتييري في معهد مونري للثقافة والدراسات العليا، وهو معهد له مكانة عالية (ويحمل الاسم بالأحرف الإسبانية الأولى إينيسيم INESAM)، دعم استخدام الوصايا العشر على نطاق واسع شاملا كل منظومة إيتيسم.

وثمة حاجة لتقييم فعالية النهج الإنجيلي في تغيير الثقافة. ولحظ لويس أوجلاذ وهو جيوريتي ورئيس جامعة كاراكاس الكاثوليكية أن الأطفال إذا تعلموا في المدارس أخلاقا حافزة للتفهم ووجدوا أنها غير ذات صلة بالحياة التي يحيونها خارج المدرسة، فإن تأثيرها عليهم يكون ضعيفا. ولهذا السبب فإن أوجلاذ المؤمن بأهمية القيم والمواظف، يدعو إلى حملات مفاغضة للفساد وداعمة للجدارة داخل الحكومة وقطاع الأعمال وفي المهن المختلفة.

ويعتبر الفساد في جانب مهم منه ظاهرة ثقافية مرتبطة، خصوصا أعتقد، بعوامل مثل ضيق نطاق الجعامة التي ينمأ في معها المرء، ومحدودية الثقة، وهو ما يترجم في انجهاه إلى إحساس ضيق ومحدود بالمجتمع وقواعد أخلاقية شديدة المرونة، وأكدت هذه النتيجة نتائج أخرى توصل إليها سيمور مارتن ليبسيت وجانبريل سلمان ليزن، والمعروض رأيهما في هذا الكتاب، وأصبح الفساد مسألة شائعة تستحوذ على اهتمام كبير في أمريكا اللاتينية. وجدير بالذكر أنه في ٢ مارس/أذار عام ١٩٩٨، أقرت منظمة الدول الأمريكية الميثاق الأمريكي المشترك لمكافحة الفساد، وهو وثيقة مؤلفة

من أربع عشرة سنة ١٩٤٠، ومع نهاية ذلك العام صدعت عليه ثلاث عشرة دولة وينتفع هيلون أن الميثاق في نفسه وببعضه سبباً لحدوث الفساد. ونذكر من بين الدول التي صادقت على الميثاق أربع دول من بين ١٢٠ من دول أمريكا اللاتينية، وهي الدول التي يوضح دليل منظمة الشفافية الدولية أنها من بين أكثر عشر دول فساداً: باراجواي، هندوراس، فنزويلا، الإكوادور (الدولة الخامسة هي كولومبيا التي لم تصادق حتى الآن) ولكن من الواضح مع هذا أن الفساد يحظى باهتمام أكبر مسبقاً، وهو ما يشهد به الاهتمام المتزايد من جانب البنك الدولي وغيره من المؤسسات المتخصصة في تقديم المساعدات للتنمية

كذلك أخذت مسألة الجنوسة مكان الصدارة، تتحدى ثقافة الماشيزمو التقليدية. وها نحن نرى نساء أمريكا اللاتينية يزداد وعيهم باطراد بضرورة مقوضة مسألة الجنوسة على نحو ما حدث على مدى العقود الأخيرة. خاصة في بلدان العالم الأول ويعلمن أكثر فأكثر من أجل تخليص أنفسهن واتخاذ مبادرات لتصحيح ومعالجة الموقف المناهض للمرأة. والذي أبقي عليهن تقليدياً في وضع ثانوي. والملاحظ في بلدان عديدة أن القوانين الخاصة بقوق الأبوين وحقوق الملكية والطلاق تم بحرها أو صيغها بصيغة ليبرالية لصالح المرأة. وضمنت عشر بلدان حصصاً إلزامية للمرأة من الترشيح في الانتخابات. وعلى الرغم من أن هذه القوانين الانتخابية ليست مطبقة على نسق واحد، إلا أنها تذكرنا بأن ثورة الجنوسة وكل ما تعنيه من تحول في القيم التقليدية أصبحت موضوعاً متاراً داخل أمريكا اللاتينية

وظهرت تلقائياً في أمريكا اللاتينية خلال السنوات الأخيرة منظمات أخرى وضعت التغيير الثقافي النقدي على الأقل، واحداً من أهدافها. فنذكر على سبيل المثال

• منظمة إنلاس ENLACE (مجموعة الأحرف الإسبانية الأولى للمواجهة في المجتمع) منظمة نسائية في المكسيك تحظى بنسبة عضوية كبيرة، ولكن مواردها المالية ضئيلة، وتركز اهتمامها على تغييرات في المناهج الدراسية داخل نظام التعليم العام. وتدعم إنلاس اشتراك الأبوين والمعلم والطالب في مناهج

دراسية تؤكد القيم والشخصية في استقرار الأسرة، والحراك
الصاعد وأهمية التعليم.

• المنظمة الإقليمية المركزية التعاونية في باركويو، فنزويلا، قادتها مقتنعون بأن التقدم الحقيقي في ريف فنزويلا
مستحيل بدون تغيير في القيم والمواقف الريفية التقليدية.

• منظمات في كولومبيا وكوستاريكا والمكسيك تعمل على
دعم فكرة وممارسة حب الإنسانية. ولوحظ غياب النشاط الداعم
لحب الإنسانية في بلدان أمريكا اللاتينية، مما يعكس ضيق
نطاق التماهي الاجتماعي ومحتوية الثقة كخاصية مميزة
للثقافة التقليدية.

• سلطة المواطن، جماعة من المهنيين الأرجنتينيين
غالبيتهم معامين وأهدافهم الرئيسية تعزيز المسؤولية والمشاركة
المدنية والقضاء على الفساد.

وأسس ميشيل بورتو شركة مونيتور، وهي منظمة استشارية في كمبودج،
ماساشوسيت، عام ١٩٨٢، ونمت الشركة سريعاً وأصبحت مصدر استشارة مؤثر
في مجال التنافسية، خاصة في العالم الثالث. وأسس ميشيل فيربانكس وستاسي
لإمداساي شركة مونيتور للممارسة التنافسية الريفية، وهما مؤلفا كتاب "الحرث في
البحر"^(٥٢) والمعنون مقتبس من الوصية الأخيرة ليوليفار، المكتوبة عام ٢٨١، إن
من يعمل من أجل ثورة في أمريكا اللاتينية مطابقة لسارات الثورة الأمريكية، إننا
يحرث في البحر.

وتوفرت لكل من فيربانكس وليندساي خبرة عملية في العالم الثالث، حيث اكتسب
فيربانكس خبرته في أفريقيا، وليندساي في أمريكا الوسطى والكاريبس. وأمريكا من
خلال أنشطتهما الاستشارية أن الأساليب التقليدية في المناقشة، والتي تؤكد على
مجالات مثل تحليل السوق وعلى الإنتاجية والإدارة، لم تكن كافية لضمان أن شركات

العالم الثالث سوف تنافس بنجاح واستنتحا أن ثمة عوامل "خافية" ضاربه بدورها من القدم والمواقف الثقافية هي العقبات الرئيسية. واستحدثا نهجا استشاريا يستهدف النماذج الاثنية. وكان هدفهما تغيير النماذج الذهبية التقليدية التي تعيق الإبداع والكفاءة كشرطين لازمين للتنافسية والنمو الاقتصادي.

وجدير بالذكر أن تغيير النماذج الذهبية مدف ليونيل سوسا أيضا. واتجه فريقه إلى الأمريكيين اللاتينيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة. ويقدم سوسا، وهو مكسيكي أمريكي، في كتابه "الطم الأمريكي"^(٢٤) الصادر عام ١٩٨٨، قائمة بسلسلة من القيم والمواقف التي تشكل عقبات تحول دون الجراك المساعد للتيار الرئيسي الأمريكي. وتبنى ماثورة للغاية

• استسلام الفقير: "أن تكون فقيرا فلك ملكوت السموات.

وأن تكون غنيا لمصيرك جهنم. خير للعراء أن يقاسى في هذه الحياة لأنه سوف ينعم بالخلود في الحياة الآخرة"^(٢٥).

• أولوية ضعيفة للتعليم: "البنات لسن بحاجة إليه حقيقة. إنهن سوف يتزوجن على أية حال. وماذا عن الأولاد؟ خير لهم أن يبحثوا عن عمل - لمساعدة الأسرة"^(٢٦). واستطيع أن أنكر هنا أن نسبة التسرب في المعهد العالي الهسباني في الولايات المتحدة تصل إلى حوالي ٣٠ بالمائة. وهي أعلى كثيرا من نظيرتها بين الأمريكيين البيض أو السود.

• القرية: "المبادرة الفردية، الإتيان، الاعتماد على النفس، الطموح، المغامرة - كل هذه الفضائل لا جدوى منها إزاء موقف يقول: "يجب أن لا نشهدى إرادة الرب...". كذلك فإن الفضائل الجوهرية لنجاح مشروعات الأعمال في الولايات المتحدة تعتبرها الكنيسة اللاتينية خطأيا"^(٢٧). وهنا نذكر على الفور انخفاض معدل المهن الحرة بين الهسبانيين.

• عدم الثقة فيمن هم من خارج العائلة، وهو ما يسهم في
صغر حجم مشروعات أعمال الهسبانيين.

ويعضى سوسا ليعرض برنامجا للنجاح مبتيا على الخصال، الاثنا عشر للالبن
الناجين⁽¹⁴⁾ ونصدر من منطلق مماثل للوصايا العشر للتطوير التي غال بها
أوكغابو ماغيدا

الخلاصة

ثمة تيار فكري مهم وواعد يركز على الثقافة والتغيرات الثقافية يفحص في كل
أنحاء العالم، ويتميز بتمه وشيق الحصلة بكل من البلدان الفقيرة والأقليات الفقيرة في
البلدان الغنية: إنه ليس جديدا بمعنى الكلمة، ذلك أن مصادره تعود إلى بانفيلد وقبير
وتوكفيل، وإلى مونسكيو على أقل تقدير. ويقدم لنا رؤية نافذة مثيرة تكشف الأسباب
التي جعلت بعض البلدان والجماعات العرقية الدقيقة كانت أفضل أداء من سواها،
ليس فقط في المجال الاقتصادي، بل أيضا من حيث ترسيخ المؤسسات الديمقراطية
والعدالة الاجتماعية. ولا ريب في أن تلك الدروس المستفادة من الخبرة التي تجد
أزبد من التطبيقات العملية، خاصة في أمريكا اللاتينية، ربما تساعدنا على اكتشاف
الطريق إلى التقدم للفاشية الكسيرة من شعوب العالم التي عز عليها بلوغ الرخاء
والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

الهوامش

المقدمة

(١) البيانات التالية مستمدة من البنك الدولي .

Selected World Development Indicators, World Development Report 1998/99 (New York: Oxford University Press, 1998).

(٢) طبعة عام ١٩٩٣ عن « بانوراما اجتماعية لأمريكا اللاتينية » ، إعداد اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية والكاريبي أفادت أن « اثنين من كل خمسة من سكان لتخضر فقراء - وأن النسبة في الريف هي ثلاثة من كل خمسة » (ص ٢٥) . معنى أن ١٦ بالمائة من سكان أمريكا اللاتينية دون خط الفقر عام ١٩٩٠ ، وأن ٢٢ بالمائة دون خط العوز . وأن نسبة ٧- بالمائة للتمسح من العاهل العليا مأخوذة عن البنك الدولي تقرير التنمية العالمي ١٩٩٧ . جدول ٧

(٣) David Landes, *The Wealth and Poverty of Nations* (New York, Norton, 1998), p. 570.

(٤) يجد القارئ تفسيراً لهجاء السائد والذي سيصعب في فنزويلا في

Francis Deppsi *Viaje a la parte oriental de la tierra firme en la America meridional* (1800 reprint, Caracas: Banco Central de Venezuela, 1960).

(٥) مقتطفات جريز سيار موجودة في

William Pfaff, "Economists Hit a Disaster..." Boston Globe, 30 August 1999, p. A 17.

(٦) انظر الفصل ١٠ من الكتاب .

Jared Diamond *Guns, Germs, and Steel* (New York, Norton, 1997), p. 405.

(٨) المصدر نفسه . ص ٤١٧ - ٤١٩ .

Robert D. Putnam, *Making Democracy Work* (Princeton: Princeton University Press, 1993).

Douglas C. North, *Institutions, Institutional Change, and Economic Performance* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), p. 37.

(١١) المصدر نفسه 117 p.

La Prensa Libre 14 December 1999

Francis Patterson. *The Crisis of Intergration: Progress and Misadventure America's* (١٣)
"Racial Crisis"; Washington, D. Co: Perseus Counterpoint, 1997), p. 213.

(١٤) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

الفصل (١)

هذا الفصل مأخوذ من

David Landes. *The Wealth and Poverty of Nations* (New York: Norton, 1998).

Nicholas Shunway. *The Invention of Argentina* (Berkeley: University of California Press (١)
1991), p. 156 n. 3

Juan Bautista Alberdi. *Bases e puntos de partida para la organización política de la* (٢)
República Argentina (1853), cited by Shunway *Invention of Argentina*, p. 149

Fernando Henrique Cardoso and Enzo Faletto. *Dependency and Development in Latin* (٣)
America (Berkeley: University of California Press, 1979) p. 218. In all fairness, the text
may read better in Spanish.

Matt Moffett. *Foreign Investors Hop Brazil's Leader Tame His Raging Inflation* "WallStreet" (٤)
Journal 15 December 1998 p. A1

"The West and the Middle East." *Foreign Affairs*, January-February 1997, p. 121 (٥)

Sidney D. Brunn. *Okubo Tashimichi, His Political and Economic Policies in Early Meiji Ja-* (٦)
pan." *Journal of Asian Studies* 21(1961 - 1962) 1: 183-197.

Kazuo Fukui. *The Japanese State and Economic Development: A Profile of a Nationalist* (٧)
Paternalist Capitalist State." in *States and Development in the Asian Pacific Rim*, ed. Rich-
ard H. Applebaum and Jeffrey Henderson (Newbury Park, Calif.: Sage, 1992), p. 201.

الفصل (٢)

Michael E. Porter. *The Competitive Advantage of Nations* (New York: Free Press, 1990) (١)

See, for example, Michael E. Porter and Masako Sakakibara. *Competing at Home to Win* (٢)
Abroad. Evidence from Japanese Industry "Harvard Business School Working Paper 93-
036, September 1993

See, for example, Jack M. Potter, May N. Diaz, and George M. Foster, eds., *Peasant Geography: A Reader* (Boston: Little, Brown, 1987).

A good example is the case of Chile in *Anti Heg. Ideas of Economic Policy in Latin America* (1st ed.: *Regional, National, and Organizational Case Studies* Westport, Conn.: Praeger 1998).

الفصل (٤)

Talcott Parsons, *The Social System* (New York: Free Press, 1954), chap. 1. (١)

Lawrence E. Harrison, *Underdevelopment is a State of Mind* (Cambridge, Center for International Affairs, Harvard University, Lanham, Md.: University Press of America, 1985).

(٢) هذا التحديد لرؤية الثروة في البلدان الفقيرة وثيق الصلة بمنظرة الحاصل - صفر التي أكدها جورج فريسترو وأخرون باعتبارها معوية في "الثقافة الزراعية العالمية".

الفصل (٥)

(١) مصطلح "البيروكراطية" حسب المعنى المستخدم هنا روجع

Homans de Sola, *The Other Path* (Lima: Instituto Libertad y Democracia, 1986).

(٢) الليبرالية الجديدة مصطلح استهجائي يستخدمه النقاد، وأغلبهم أشعار سابقين لاختلاف أشكال الاشتراكية. عند وصفهم رأسمالية السوق الحرة.

(٣) كتاب جوتيريز الأشهر.

Una Teología de la Liberación (Lima: CEP, 1971).

الفصل (٦)

(١) جميع البيانات من البنك الدولي - تقرير التنمية في العالم ١٩٩٦/١٩٩٨ (أكتوبر ١٩٩٩).

(٢) Hervé Bourges and Claude Wauthier, *Les 50 Afriques* (Paris: La Setai, 1979).

(٣) Frank Tonello, *Les 50 Afriques* (Paris: Petite Collection Maspéro, 1979).

(٤) Craft by Alassane Ndaw, *La Pensée Africaine-Research on the Foundations of Negro-African Thought* (Paris: Nouvelles Editions Africaines, 1983), p. 233.

(٥) D. Bauder and G. Hofstede, *Les différences culturelles dans le management* (Paris: Les Editions Organisation, 1987).

(٦) Jean-Jacques Servet-Schreiber, *L'art du temps* (Paris: Fayard, 1985).

(٦) المصدر نفسه

Jean-François Huet, *L'Économie des communes* (Paris: Cahiers, 1999), p. 103 (A)

(٧) المصدر نفسه

الفصل (٧)

• عند هذا الفصل على مائة من كتاب رونالد إنجفارته وورين سكر • اشعبد • السمج الثقافي وثورات
الدم الثائرة • مجلة علم الاجتماع الأمريكية • فبراير ٢٠٠٠

الفصل (A)

Diego Gambetta, *The Sicilian Mafia: The Business of Private Protection* (Cambridge: Harvard University Press, 1993), p. 331

Edward C. Banfield, *The Moral Basis of a Backward Society* (Glencoe, Ill.: Free Press, 1958) and Robert D. Putnam, *Making Democracy Work: Civic Traditions in Modern Italy* (Princeton: Princeton University Press, 1993)

(T) انظر مناقشة المجتمع المدني في

Lyda Jackson Hamilton, *The Rural School Community Centers' Annals of the American Academy of Political and Social Science* 57 (1916): 130-138

Jane Jacobs, *The Death and Life of Great American Cities* (New York: Vintage, 1961), p. (c) 138

Glenn Loury, "A Dynamic Theory of Racial Income Differences," in *Women, Minorities, and Employment Discrimination*, ed. P. A. Watson and A. LeMond (Lexington, Mass.: Lexington Books, 1977)

James S. Coleman, "Social Capital in the Creation of Human Capital," *American Journal of Sociology* supplement 94 (1988): 595-610; Coleman, "The Creation and Destruction of Social Capital: Implications for the Law," *Journal of Law, Ethics, Implications for the Law,* *Journal of Law, Ethics, and Public Policy* 3 (1988): 375-404

Everett C. Ladd, "The Data Just Don't Show Erosion of America's 'Social Capital,'" *Public Perspective* (1996): 4-22; Michael Schudson, "What If Civic Life Didn't Die?" *American Prospect* (1996): 17-20.

(٩) كيف نسير لنا معرفة ما إذا كان رصيد المجتمع من رأس المال الاجتماعي يزداد أم يتناقص ؟ آخر
القول، أن نعمنا. أكثر على المصدر الثاني من مصدرى البيانات

Ernst-Hans Eickhoff, *The End of the End: The Limits of Canadian Ethnic Minority* (1987) (Chicago Press, 1988) p.5

Howard A. Trencher, "The Origin of Predictable Behavior," *American Economic Review* 73 (1983) 562-590 and Herrer, "Origin of Predictable Behavior: Further Modeling and Applications," *American Economic Review* 75 (1985) 391-398

Douglas C. North, *Institutions, Institutional Change, and Economic Performance* (New York) (New York, Cambridge University Press, 1990)

see Karl-Otto Opp, "Emergence and Effects of Social Norms: Confirmation of Some Hypotheses of Sociology and Economics," *Kyklos* 22(1979) 775-801.

Garrett Hardin, "The Tragedy of the Commons," 162 (2568) 1243 - 1248 (1968)

Goose theorem " Ronald H. Goose, "The Problem of Social Cost," *Journal of Law and Economics* 3 (1960) 285 - 317. Sugden, *The Economics of Rights, Co-operation, and Welfare* (Oxford ?) Basil Blackwell, 1989)

Robert Sugden, "Spontaneous Order," *Journal of Economic Perspectives* 3 (1989) 85-107. Sugden, *The Economics of Rights, Co-operation, and Welfare* (Oxford: Basil Blackwell, 1989)

(17) يوضح البحث الذي أعده ألكسندر أن أصحاب مزارع الماشية والمزارعين في شاستا - كاليفورنيا وضعوا سلسلة من المعايير غير الرسمية لتحديد مساحةهم

Robert Ellickson, *Order Without Law* (Cambridge, Harvard University Press, 1991) pp. 143, 152

الفصل (٩)

Annie J. Hedenherrer, *Political Corruption: Readings in Comparative Analysis* (New Brunswick, N.J. Transaction, 1973) p. 3.

Corruption Perceptions Index. Ber-Transparency International, Th Press Release: 1998 (16) (in22 September 1998)

World Values Study Group, *World Values Survey Code Book*, ICPSP 6-60 (Ann Arbor, Mich., August 1994).

Pablo Mauro, "The Effects of Corruption on Growth, Investment, and Government

Expenditure: A Cross-Country Analysis," in *Corruption and the Global Economy* ed. Kimberly Ann Elliot (Washington, D.C. Institute for International Economics, 1997) p.19. See

also Philip Mirowski, "Corruptants and Firmly," *Quarterly Journal of Economics* 110, (1) :1 (1995). For a more comprehensive review of the literature, see Alberto Ales and Rajesh Di Tella, "The Causes and Consequences of Corruption," IDS Bulletin 27, no. 2 (1996): 8-10.

Mauro, Effects," p 49 (3)

Andre Shleifer and Robert W Vishny "Corruption," *Quarterly Journal of Economics* 109, no (1) 3, (1994): 599-617 .

Sanjeev Gupta, Hamid Davoodi, Rosa Alonso-Terme" Does Corruption Affect Income Inequality and Poverty ? " IMF Working Papers 00176 (Washington, D.C : International Monetary Fund, 1998)

Daniel Treisman, *The Causes of Corruption . A Cross-National Study* (forthcoming 1998), (A) pp. 22-23 .

(٦) تبيان الدليل على العلاقة بين الديمقراطية والتطوير الاقتصادي . انظر :

Seymour Martin Lipset, *Political Man* (Garden City, N.Y. : Doubleday, 1960) and Treisman, *Causes of Corruption*.

Treisman, *Causes of Corruption* p 6 (10)

Harry Ekstein . *Division and Chesion in Democracy . Study of Norway* | Princeton : Princeton University Press 1968 | .p 265.

Robert K. Merton, *Social Theory and Social Structure* (1957; reprint, New York : Free Press, 1968). pp 245-246

Edward Banfield, *The Moral Basis of A Backward Society* (Chicago : Free Press, 1958) (١٢)

Daniel Bell "Crime As an American Way of Life," *Antioch Review*, Summer 1953, pp (١٤) 131-154

Ronald Inglehart, *The Silent Revolution: Changing Values and Political Styles Among Western Publics* (Princeton : Princeton University Press, 1977); and Inglehart, *Modernization and Postmodernization* (Princeton . Princeton University Press, 1997)

Plato *Republic* (trans. G.M. Grube, rev. C.D.C. Reeve | Indianapolis . Hackett 1992 | (١٦) chap. 5)

Max Weber, *The Religion of China* | New York : Marmillan, 1951 | p 237 (١٧)

Lawrence E. Harrison, *Underdevelopment Is a State of Mind : The Latin American Case* ((١٨) Cambridge : Center for International Affairs, Harvard University, Lanha, Md. . University Press of America, 1985). p 7

"A Message for Europe," *Economist*, 10 March 1999, p. 15. The *Economist* expressed "hope that in reform, the European Union will exploit the Union's more northern balance and assets."

"Earthquake in Europe," *Financial Times*, 20 March 1999, p. 10 (20)

Freedom House, *Freedom in the World: The Annual Survey of Political Rights and Civil Liberties*, 1996 (1997) (New York: Freedom House, 1997)

الفصل (١١)

(١) يحسد إيتوتجا - مانجويل عبيداً من هذه القسمات (ويؤكد عماداً القسمات السلبية دمجاً لـ صينية) أهمية البعد أو التباين التراتبي في العلاقات الاجتماعية، محاولة التمسك في الشك عن طريق الدين والمسيو الثابت الأبدى الذي حوته الطبيعة والدين؛ وتوجهه زمامي لا يركز على المستقبل السلطية في مواجهة القوة، مع استعداد الرضى بهذه القوة: تبعية الفرد للمجتمع المحلي، ورفض أية نفرة إلى الفرد كوجود مسئول ومستقل ذاتياً. "الولع بالطرب إلى أقصى حد مع نيل الصراخ الممتوح، ومحاولة خلق صداقات شخصية بدلاً من مناقشة الاختلافات في صراحة التأكيد على الإسهان الرامز بدلاً من الإدجار المستقل، معتقدات لا عقلانية (مثل السحر والامراة). نظم حكم سوية بين ثقة وأهداف جماعية. وأثرت إلى قسمات أخرى مميزة للطفولة. مثل الدم والرماية المنشئين اجتماعية للأخرين، الفصل نفسياً بين الجنسين، التأكيد القوي على إنجاز الأهداف وتحقيق مكاتبة - جنساعية (أن يكون اسم المرء معروفًا ومشهورًا) لكون زعمو مكشوف، تكوين روابط ذات تأثير وفعالية على نطاق واسع.

الفصل (١٢)

(١) من بين الملاحظات الكثيرة التي استوعبت على الاهتمام والتي سمعتها داخل المتر هناك شهادات أصيلة من متقنين يؤمنون بالنظرة العالمية من أفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولعب هؤلاء المتقنين للعالم الثالث دور أبناء الداخل السخطين، ويمثلون شهادة حمة على فقر ثقافتهم، ويحكي لنا سوء الأوضاع داخل بلدانهم، وتزايد هذا الدور تعقداً بل عمقاً، في عالمنا بعد الحديث حيث الغريب أو من في الخارج أصبح في الداخل. وأصبح داخل شائعاً في كل مكان وتنتشر سس إن إن، والعيز، وبيج مالد). وما أضحت الرحلات عبر العالم لكل المدينين ورجال الأعمال موضوعاً أهم كثيراً مما كان الحال مع السلف. لهذا يميل المرء إلى إثارة لشكوك إزاء أية مزاعم أو ادعاءات بالسلطة على أساس مستوى المواطنة (أو النشئة أو الأصل القومي) مع الصور الأملر للبلد. وأخيراً من هو صاحب الصوت الأعلى؟ صوت ابن داتار أو دلهي الحاصل على الماجستير أو الدكتوراه، بعد أن تعلم في المغرب الذي ينظر بازدراء إلى الدقائد الثقافية في بلاد وينظر بإكثار إلى الولايات المتحدة يستلهمها اثرشاد الفكرى والأخلاقى والساعدة الماوية أم صوت الباحث "الغربي" الذي يقضى سنوات في دراسة ميدانية في قرى الريف في أفريقيا أو آسيا ويفهم ويرى قيمة ما هي تقاليد الأخرين؟

تعقيبات دانييل إيتونجا - مانجويل

وكارلوس ألبرتو موفتائير وماريانو

جروفتونا على الهامش رقم ١

مع تعقيبات إضافية قالها ريتشارد شويدر

كارلوس ألبرتو موفتائير:

تعقيب ريتشارد شويدر يطابق تعقيبات من يتوقعون من أبناء أمريكا اللاتينية يعود أعمالهم حياطة لاه الم الثالث. إنه ببساطة لا يفهم أن أمريكا اللاتينية امتداد القرب. وأنا لا أفهم لماذا يظن شويدر أن غينا أن نستسلم لحكومات، متمسكة ونماذج اقتصادية تحكم على نصف سكان بلاندا باليوس بينما العالم كله انفاء من اليابان يؤمن أن اليابان قديمة بالإعجاب إذ استطاعت أن تتجاهل تعقبات الإنتاج والتنظم الإجماعي للغرب إنني لا أقبل تلك الظروف سوى الإنسانية، أؤمن بضرورة نسيئها وأر، تظهر للناس الذين يعيشون فيها فرصة من أجل حياة أفضل وأكثر إنسانية.

كف لي أن أعرف ما يريد إبقاء أمريكا اللاتينية؟ الأمر غاية في البساطة أن أتبع اتجاهات الهجرة وتؤكد الدراسات المسحية أن نصف أو أكثر من نصف سكان المكسيك وكولومبيا وجواتيمالا وغيرهم سوف يهجرون بلادهم إلى الولايات المتحدة، لماذا؟ لأن الولايات المتحدة تقدم لهم ما لا يبيوه في بلادهم

دانييل إيتونجا - مانجويل

حيث إنني من المصلين الساخطين والمثقف كوزمبوليتاني فإني أنظر بتقدير للفرصة المتاحة لي للتعقيب على ملاحظة ريتشارد شويدر إنني أريد هي تهاة الأمر على مفكر غربي يعرف نفسه أنه أكثر أصالة مني لأنه أجري بحثاً ميدانية على مدى سنوات في قرى الريف . هي آسيا يفهم ويدرك أن أمة قيمة لتقاليد الآخرين.

وأجد لزاماً أن أعترف بفشلي في تلقي الهداية الفكرية والأخلاقية والمساعدة المادية التي توقعتها من أسرة هوفارد. لذلك أحاول الحق. نحن الأفارقة نسمح فعلاً بالحياة، وسكني مدن الأكواخ حيث الطعام قليل والرعاية الصحية قليلة وكذا تطعيم الأبناء. علاوة على هذا فإن نضعنا السياسية الرئاسية فاسدة. وهي هي الحقيقة مشيرة للدمع. إذ سمعت لأشخاص مثل مورونو، رئيس زانير أن يسبق لنا مكانة واحتراماً وواجب

زد على ذلك أنه أمر مروع حقاً إذا ما تم تنظيم انتخابات ديمقراطية مرة في كل أسماء أفريقيا. إذ لو حدث هذا فلن نكون فقارباً حقيقيين، وإذ نغفد هريتنا، ونزعمنا التسلمطة وعروسنا الأملية الاموية. وأميئنا ومتوسط عمرنا البالغ خمسة وأربعين سنة. فلننا سوف نخذل أنفسنا ونغفل أيضاً علماء الأنثروبولوجيا الغربيين العذقين على دراستنا بتعاطف شديد، ويدركون أن ليس لأحد أن

بموقع هنا ان نسأل: كما يسلك الباحثين عن الكرامة وحسب على أعقاب اللمبة لثالثة من أفارقة.
١٩٥٠: مهمة وأساسية

لذلك، كما كشف من أجلها مع تقوى الدعم الكامل من الباحثين الغربيين ممن لديهم الحكمة والشجاعة
للاعتناء، بين الأفارقة ينتمون إلى عالم مغاير.

مأريانو جروتونو

هناك هارق منهجى بين ريتشارد شويذر وبين الباحثين من أمريكا اللاتينية ونحن نريد تغيير ذلك إن
طماء الأنثروبولوجيا يربون من المجتمعات التي يدرسونها أن نحى نسيباً على حالها ساكنة وقاسية
للتنبؤ. مثل عالم الحشرات الذى يدرس السلحفاة. ولكننى أنا ومونتازر لدينا نهج وجودى آخر إن .
الإقليم: إنه ما لنا نحن - الذى جنتا منه - والذى نحبه. ونظراً لالتزامنا إزاءه نريد له أن يتقدم إلى
مستويات جديدة من الإنجاز البشرى، ويقود الغرب إلى بلدان العالم المتقدم.

ويجب أن نسأل من الذى يمثل أمريكا اللاتينية المفضل، شويذر والعلماء الاجتماعيين الآخرين، أم مونتازر
وأنا نحن أبناء المنطقة. ونحن نعلم بها وواقع الأمر أن ملايين من أبناء أمريكا اللاتينية يفترون إذ
يرحلون على أقدابهم مهاجرين، إذ يهاجرون إلى البلدان المتقدمة وحيث إن الغالبية الساحقة من
التأخير يستلزم الحكومات التقدمية فى كل أنحاء الإقليم. فإن هذه المساعدة شهادة بليغة على أن
أزما واهتماماتنا مشتركة بينما على نطاق واسع

نحن نفيها فى رحلات دائمة ما بين بلانكا والبلدان المتقدمة. بيد أن هذه الخبرات لا تجعلنا غريباً
عن أمريكا اللاتينية، وإنما الأصوب أن كليهما يزيدان من اهتمامنا بالظروف، خاصة ظروف الفقراء، فى
أمريكا اللاتينية، ونذكر اهتمامنا على الحاجة إلى تغيير هذه الظروف. ونحن نأمل الغالبية الساحقة
من أبناء بلانكا، نريد لشعورنا حياة مستقرة ديمقراطية وعدالة وقربنا للتقدم، ورجالاً مثلنا نجد فى
البلدان المتقدمة.

ريتشارد إيه شويذر

رد على مونتازر وإيتونجا - ماتجويل وجروتونو

لا شيء، فربما قلت فى الملاحظة الأولى يرمى بنظام حكم تسلطى أو الموت فى سن مبكرة. إن رجال
السلطة فى نظم الحكم التسلطية الاستبدادية لا يرحون سوى مصالحهم. وليس بإمكان أحد أن يوقفهم
عمر حد وبعدهم من ذلك، وأحسب أن العالم سيكون مكاناً أفضل إذا ما انحدت مثل هذه النظم. وليس
شئ ما بشيئ بضرورة أن تكون نخبين أو راغبين عن الأفكار والمواقف والممارسات التى نرتها عن أى
تراث ثقافى، بما فى ذلك تراثنا نحن. وكما قلت فى بحثى "التمديدون يطرحون أحكاماً نقدية، حقاً إن
موقف التبرير محورى فى أسفوسى للتخليق الثقافى بحيث إننى يمكن أن أعرف الثقافة الأصلية بأنها
ثقافة جديدة بالإكثار، كسلوب حياة يمكن أن يدافع عنه فى وجه النقد الوافد من الخارج"

إن المرء إذا أراد حقا أن يفهم جيدا أمثالا ثقافيا لكن يقوم به من طلبة المشاركة من ملاحظات وفي عملية فهم قائمة على قدر من التعاطف بحلول المرء أولا أو يضع بين قوسين جميع ربوز الأفعال العرقية، ويستكتب ما هو خير وحق ومميز وفعل في هذه الأفكار ولواقف والممارسات ضد الآخرين. ونسب ثمة ضمان منه سيميل بالفعل إلى التقسيم المنشود ونسب ثمة ضمان من كل شيء مسكون على ما مر أو أصبل. إن الأفكار والمواقف والممارسات التي يمكن إثبات زعمها أو فبحها أو عدم كفايتها بنسب استقامها، وما تغييرها. وهذا ما يفسر به دعاء النسبة المطلقة. وإن مقالتي في الحقيقة هي نقد لكل من النسبة المطلقة (كل شيء) مهما كان فهو صحيح، وللواحدية القائمة على مركزية عرقية (هناك طريق واحد يقضي إلى حياة مقبولة أخلاقيا وعلما وتحقق الإنجازات اللازمة، وهي حياتنا نحن).

وسوف أجب في لحظة على نقطة أو نقطتين أثرتا في التعليقات ولكن أولا، أريد أن أركز الاهتمام على ما قيل في الهامش الأول، وهو أن علي المرء في عالم ما بعد الحديث أن يكون شكوكيا إذا جميع دعاوى السلطة المبينة على زعم جملة المواطنين (أو المشاة الرومان) بالامتياز الأصلي، وأريد أن أقص عليكم قصة توضيح ما أقول:

رابنبرامان طاغور شاعر هندي حديث تصنف له كل الهند. حاز على جائزة نوبل في الأدب عام 1913. وهو مستمد باسم الحركة الوطنية الهندية. وهو أحد المعينين بالآداب السنسكريتية، وأحد شراحها والمستفيدين بها. زار طاغور إنجلترا عام 1887 لأول مرة وهو في السادسة عشرة من العمر. ذهب لدراسة القانون وجدير بالذكر هنا أن ويلولم هابفاس يقفيس بعضا من انطباعات طاغور عن الزيادة، ويوردنا في كتابه الهند وأوروبا مقال في الفهم.

ظننت أن إنجلترا جزيرة صغيرة. وأن سكنها وصلوا حياتهم للتعلم جيدا، توقعنا قبل مجيئي أن البلد من أعضاء إلى أعضاء ويرد ويرجع أصدا، مقالات تبيسون الفئانية ووطنه كذلك أنني حينه أكون في هذه الجزيرة سوف أسمع حطت جلاستون الليفية وتفسيرات ماكس مولر قبيدا، والتعديفة العلسة عند تتدال. والأفكار العميقة عند كارليل، وفلسفة توم بين. استند من انطباع أنني حينما أذهب أو أكون سوف أجد الشباب والشيوخ سكارى من نضوة المنعة الفكرة. ولكن خاب مني.

وأضح أن اهتني طاغور "الغريب" سياسيا ومدنا عن الجزء البريطانية كان ثقافيا أكثر إنجليزية، ويتحدث الإنجليزية أفضل كثيرا من الإنجليز أنفسهم وأن إشارته إلى ماكس مولر وثيقة العلة تمام بالملاحظة ذلك لأن ماكس مولر، عالم لغة ألماني، مستشرق تعلم في أكسفورد، وقصده رجال الدين الدراماتيون الهندي لعظم السنسكريتية وترأهم الألبس الكلاسيكي

هذا الموقف، في تبادل المساكن بين من هم من خارج (الغريب) ومن هم من داخل (المحلين) أو (المواطنين) والنسوة إلى الحفاظ على قومية التراث الثقافي لكل منهم أمر غير مأكوف خاصة في حالتنا المعاصر. نحن نعيش في عالم يترجم فيه الباحثون الأفارقة - الكاريبيون - نسوحا إنغوية قديمة، بينما باحثون من أفريقيا وآسيا وأوروبا يؤلفون كتبنا عن اللغات المتحددة، وحدث أثر ماكس مولر لا يزال حيا بافيا أيضا. مثال ذلك أن متلفي جوسي هي كينيا، وبعضهم حبير بالفلسفة والعلوم الغربية، فرأوا روبرت لور فوني لوهغوز أنباء من المعنى والقيمة والتاريخ الخاص بمعايير جوسي وأدبها لشعبية. وهذا من ذلك بسيط للغاية، البيانات من ما هو مع وما هو ضد تراث ثقافي لا يكتسب مرجعية وأصالة. ويجب ألا ننسى عليه سلطة المرجعية على أساس دعاوى إلى اللطف أو الانتماء، أو أصالة المرطن

إلى كارلوس ألفارو مونتانو وماريانو جروبيونا متناثران بأساط الهجرة، وواقع أن ملايين من أبناء أمريكا اللاتينية يفتخرون بأقدامهم، أي من خلال شوالهم، لصالح العالم المتقدم. لقد سمعت لأول مرة عبارة الافتراء بالاقدم في المسيات، حين قال أحد المفكرين المحافظين المشهورين أن أساط هجرة السود إلى داخل جنوب أفريقيا فاقته عدداً أساط هجرة السود إلى خارج جنوب أفريقيا. وشرح هذا الوضع واتخذ شاهداً على أن الأفارقة السود إنما يفتخرون بأقدامهم لصالح حركة العزل العنصرى (البارتهيد) في جنوب أفريقيا ضد الدول الأفريقية الأخرى، وأنا أشك في هذا، إذ لم يكن مفهوم الافتراء أو التعبير عن المحضيات عنصرية أو ثقافية، وإنما فقط الخراب إلى حدٍ وبطائف اعلى اجرا

ويبدو أن ذلك قيل إبتوتجا - هانجويل يشير إلى أن المرء أعجز من أن يعيش حياة كريمة ومتعايزة من الأفارقة في وقت واحد. وكما حدث كنت من هواة التصنيفات العامة الفضاضة مثل "أمريكي لايشي" أو "فريقي" كسلوب لتعريف ماهية المجتمعات المحلية الثقافية. ولكنني أعتقد، كما قال إوارد سابينر، إن المجتمعات حين تعيش في عوالم متعايزة وليسوا علما واحداً بسمى واحد. وحيد بالذكر أن التمايز أو الاختلاف في نظر المؤمن بالتعددية ليس مصطلحا استهجانياً، إنني مع كل الاحترام لمنتقدي الثلاثة، ومن لا أشك أبداً في إخلاصهم، واستمعت بصحبتهم ومشاركتهم. وأسرشي شهواتهم ومحبهم، فأعترف بأنني أنبت نداء كاملا الفكرة القائلة إن السبيل الوحيد أو السبيل الأفضل ليكن المرء كريمة وعقلانيا وإنسانيا هو أن يعيش كمواطن من شمال أمريكا أو شمال أوروبا.

(٢) كثيرون من أبناء الجنوب يقدرون ويمزجون 'بمخلافاتهم ذات النزعة العرقية العميقة متعلما هو طالفا سخن والنتيجة أن الآخرين' قالوا ما يغفلون في فهمنا، وتحديداً أنهم يجعلون المعاني التي يفصدها ولا يعرفون ما الذي نحن مهتمون له، ويرين الكثير من جوارب أسلوينا في الحياة. خاصة الممارسات الأسرية. والمثل العليا الجنسية. أموراً غير مفهومة لهم في ضوء نظرتهم الأخلاقية

(٣) واضح أن هذه أخبار جاءت متأخرة خارج الأكاديمية حيث الإساءة المطرد أن غالبية الأثريولوجيين هم نسبيين متطوقين.

(٤) لمراجعة شاملة وتفصيلية بشأن البحث الطبى الخاص بالمخارج السمية المترتبة على جراحات الأعضاء التناسلية الأثوية. ولقراءة نقد مهم للدراسات الفاحصة كبشر الأعضاء التناسلية الأثوية، انظر فبراير ١٩٩٩، وإيسوا ١٩٩٧.

(٥) هذا أيضاً إشكالية تحديد 'جماعة المراقبة الذاتية'. الجنسية القومية كمثل ليست بالضرورة 'جماعة المراقبة الذاتية' ذات الصلة الثقافية. وليست حضارة. المجتمعات المحلية ذات أخلة بالتطيل الثقافي ليست من المرجح أن تتطابق مع فئات سياسية أو بيروقراطية أو إحصائية مكانية مثل 'اسويي' أو 'هسياني' أو 'أسود'

(٦) يمكن للمرء أن يؤمن بالتعددية ولكنه يظن بسلام بوجود قيم ملزمة به، أدق، مالية. وسياسي أخلاقية لا يجوز انتهاكها. مثال ذلك القسوة شرّاً ويجب أن تعامل الحالات المتباينة على أساس متماثل. وإن أحد دعوى النوعية التعددية أن القيم والمبادئ موضعها تماماً، ولكن فقط بقدر ما هي مجردة والمراغة من الحقن.

(٧) ليس واضحاً لي تماماً ما إذا كان هذا الفئز يفترض مقدما فقط شكلا محدداً ومحدوداً للعولة، مثال ذلك التجارة العرة والحدود، أم أنه يسمح بأن نقضى العولة إلى التخلل العميق في المجتمعات

الأخرى. ويندرج إليها الأساليب الغربية في إدارة البنوك. وشجع الاستعمار. وفرض نظام التعاقد الخ وطبيعي إذا اتسعت فكرة العولمة إلى ما وراء النطاق الاقتصادي (ربط الاقتصادات القومية) بحيث تشمل المجالات الأخرى بالمثل (الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والديني)، فإن العولمة والتدوير حسب هذا التعريف لابد من أن يمضيا معا يدا بيد.

الفصل (١٤)

Lawrence Harrison, *The Pan-American Dream* (New York: Basic, 1997), P. 16 (١)

Linda Kerber, *No Constitutional Right to Be Ladies: Women and the Obligations of Citizenship* (New York: Hill & Wang, (1998) P.307N.6. (٢)

Howard Wiarda, Introduction "Social Change, Political Development, and the Latin American Tradition," in *Politics and Social Change in Latin America: Still a Distinct Tradition?* (Boulder: Westview, 1979) (٣)

Elsa Chaney, *Supremade: Women in Politics in Latin America* (Austin: University of Texas Press, 1979), P. 23 (٤)

Ronald Inglehart and Maria Carballo, *Does Latin America Exist? A Global Analysis* Lawrence Harrison, *The Pan-American Dream* (New York: Basic, 1997), P. 16) (٥)

(٦) البيانات الخاصة بالمرأة في الحكم يمكن الاطلاع عليها في الاتحاد البرلاني المشترك

<http://www.ipu.org/wmn-e/clsst.html>, and the U.N. WomenWatch

<http://www.un.org/womenwatch>

Maja Hlin, "Women in Latin America: Unequal Progress Toward Equality," *Current History* (Y) 98, no. 626 (1999)

Mary Ann Glendon, *Abortion and Divorce in Western Law* (Cambridge: Harvard University Press, 1995) Glendon, *The Transmutation of Family Law: State, Law and the Family in the United States and Western Europe* (Chicago: University of Chicago Press, 1989). (٨)

Jacqueline Hennam and Leila Linhares Barsted, *O Judiciário e a Violência contra a Mulher: A Ordem Legal e a Desordem Familiar* (Rio de Janeiro: CEFAP, 1995) (٩)

Gracia Tamayo León, "Delegaciones Privadas de Mujeres y Secciones Especializadas," (١٠) *Acceso a la Justicia* (Lima: Poder Judicial, 1996); Centro Legal para Derechos Reproductivos y Políticas Públicas y Grupo de Información en Reproducción Elegida (CLUP/GIAE), *Derechos Reproductivos de la Mujer en México. Un Reporte Sombra*, December 1997.

U.S. Department of State, *Peru Country Report on Human Rights Practices for 1997* (Re. (١١) leased by the Bureau of Democracy, Human Rights, and Labor, 30 January 1998)

الفصل (١٥)

(١) On which see James Dawson Hunter *Culture Wars: The Struggle* (New York: Basic, 1991), p. 291

(٢) اللطالاع على عروض حديثة بشأن دراسة الثقافة في العلوم الاجتماعية ، تنظر:

Diana Crane, ed., *The Sociology of Culture: Emerging Theoretical Perspectives* (Oxford: Blackwell, 1994) ; Jeffrey Alexander and Steven Seidman, eds., *Culture and Society: Contemporary Debates* (New York: Cambridge University Press, 1991)

Mabel Beizen, "Fissured Terrain: Culture and Politics," in *Sociology of Culture*, p. 49 (٣)

Ann Seidler, "Culture in Action: Symbols and Strategies," *American Sociological Review* (1) 51 (1986): 273-286

Orlando Patterson, *Ethnic Chauvinism: The Reactionary Impulse* (Bardiff Manor N.Y.: Stein & Day 1977), pp. 177-185. Adam Kuper also emphasized this point in his *Culture* pp-x-xiv.

Walter Benn Michaels, *Our America: Nativism, Modernism, and Pluralism* (Durham, N.C.: Duke University Press, 1995), p. 15. Cited in Kuper, *Culture*, pp. 240-241

Robert Blauner, "Black Culture: Myth or Reality?" in *Afro-American Anthropology: Contemporary Perspectives*, ed. Norman E. Whitten Jr. and John F. Szweid (New York: Free Press, 1970), pp. 347-366

Meredith Phillips et al., "Family Background, Parenting Practices, and the Black-White Test Score Gap," in *The Black-White Test Score Gap*, ed. Christopher Jencks and Meredith Phillips (Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 1991), p. 4

Howard Gardner, "Cracking Open the IQ Box," in *The Bell Curve Wars: Race, Intelligence, and the Future of America*, ed. Steven Fraser (New York: Basic, 1995), pp. 30-31

Arthur R. Jensen, "Differential Psychology: Toward Consensus," in *Arthur R. Jensen: Consensus and Controversy*, ed. S. Modgil and C. Modgil (New York: Falmer, 1987), p. 376. Cited in Nathan Brody, *Intelligence* (San Diego: Academic Press, 1982), p. 297.

Brody, *Intelligence*, p. 309 (١١)

(١٢) المصدر نفسه

(١٣) المصدر نفسه .

Margaret Archer, *Culture and Agency: The Place of Culture in Social Theory* (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. 1

Ward Goodenough, "Culture Concept and Phenomenon," in *The Relevance of Culture* (16)
ed. Mars Freligh (New York: Bergin & Garvey, 1989), p. 97.

Ibid., pp. 94-95. (17)

Eugene Hahn, "Ethnoecology: The Relevance of Cognitive Anthropology for Human
Ecology" in *Relevance of Culture*, p. 145.

Robert Boyd and Peter Richerson, *Culture and the Evolutionary* (Chicago: University of (18)
Chicago Press, 1985), pp. 33-37.

Roy D'Andrade, *The Development of Cognitive Anthropology* (Cambridge: Cambridge (19)
University Press, 1995), p. 247.

Roy D'Andrade, *The Development of Cognitive Anthropology* (Cambridge: Cambridge (20)
University Press, 1995), p. 247.

Roger Keesing, "Models, Folk, and Cultural: Paradigms Revisited," vi *Cultural Mod- (21)
els in Language and Thought*, ed. Dorothy Holland and Naomi Quinn (Cambridge: Cam-
bridge University Press, 1987), pp. 369-383.

Ann Seidler, "Culture in Action: Symbols and Strategies," *American Sociological Review* (22)
51 (1986): 273-288.

Naomi Quinn and Dorothy Holland, "Culture and Cognition," *Cultural Models* Pp 6-7 (23)

Boyd and Richerson, *Culture*, p. 40 (24)

Ibid., p. 36. Cf. David Lewontin, S. Rose, and L.J. Kamin, *Not in Our Genes* (New York (25)
Pantheon, 1984), chap. 5.

Orlando Patterson, *Rituals of Blood: Consequences of Slavery: انظر من التفاصيل* (26)
in *Two American Centuries* (New York: Basic Books, 1998), pp. 25-53.

Richard Slitch, "The Breeding of Slaves for sale and the Westward Expansion Slavery, (27)
1850-1860," in *Force and Slavery in the Western Hemisphere: Quantitative Studies*, ed.
Stanley Engerman and Eugene Genovese (Princeton: Princeton University Press, 1975),
pp. 173-210.

Cheryl Ann Gudy, "Naming, Naming, Naming, and Estate Dispersal: Notes on Slave Farm (28)
Life on a South Carolina Plantation, 1786 to 1833," *William and Mary Quarterly Series 3*, 39
(1982): 192-211.

Stewart Tolnay, "Black Family Formation and Tenancy in the Farm South: 1900," *Ameri- (29)
can Journal of Sociology* 90 (1984): 310.

Arca Washington, "A Cultural and Historical Perspective on Pregnancy-Related Activity (T) Among U.S. Teenagers." *Journal of Black Psychology* 9, no. 1 (1982): 16.

(٢١) انظر على سبيل المثال

The "Flip Side" of Black Families Headed by Women. *The Economic Status of Black Men* (Washington, D.C. Center for The Study of Social Policy, 1994)

Neil G. Bennett, Davis Bloom, and Patricia Craig. "The Divergence of Black and White (T) Marriage Patterns." *American Journal of Sociology* 95, no. 3 (1989): 662-722

Kathlene S. Newman. *No Shame in My Game: The Working Poor in the Inner City* (New (T) York: Knopf, 1994) : pp. 198-203]

Christopher Jencks, *Rethinking Social Policy* (Cambridge: Harvard University Press (T) 1992) . R. G.

George A. Akerlof. "Men Without Children." *Economic Journal* March 1996: 267 - 309. (٢٤)

Lee Rainwater, "The Problem of Lower-Class Culture and Poverty-War Strategy" in (T) *On Understanding Poverty* ed. Daniel P. Moynihan (New York Basic: 1988), 279-291

(٢٧) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢٨) نفسه ، ص ٢٤٧

See Roger Waldinger, *Still the Promised City? Afro-Americans and New Immigrants in (T) Post-Industrial New York* (Cambridge: Harvard University Press, 1996)

Rainwater, "Lower-Class Culture," pp. 234-235 (٤٠)

Anderson, Sweetwise, Chap. 5. See also Piched Majors and Janet Blison, *Cook-Pose* ((٤١) Lexington, Mass.: Heath, 1992) . chaps. 2-3

الفصل (١٦)

John Wong, "Promoting Confucianism for Socioeconomic Development: Case of Singa (١) pore," in *Confucian Traditions in East Asian Modernity: Moral Education and Economic Culture in Japan and the Four Little Dragons*, ed. Tu Wei-ming (Cambridge: Harvard University Press, 1996) p. 261.

John Kuo Wei Chen, "Pluralism and Hierarchy: Who Kids, "the Chinese Question," and (٢) Relations of Power in New York City," in *Beyond Pluralist: The Conception of Groups and Group Identities in America*, ed. Ward F. Katkin, Ned Landsman, and Andre Tyne (Champaign: University of Illinois Press, 1996) pp. 126-129

الفصل (١٧)

(١) فولر، آلان دراسات كثيرة جدا عن طبيعة وأسباب الأزمة المالية الآسيوية ١٩٩٧-١٩٩٩ . انظر على سبيل المثال تقرير البنك الدولي ١٩٩٨ - ١٩٩٩ .

(٢) أشهر الأعمال في الخمسينيات كتبها عالم الاجتماع ماربرن ليفي .

(٣) الاستثناء هو كتاب من تأليف جي . ويليام سكينر عن مجتمع الصينيين فيما وراء البحار في تايلاند ،
معنوان .

Leadership and Power in the Chinese Community in Thailand, 2 vols (Ithaca, Cornell University Press, 1959, 1961).

State Statistical Bureau, *China Statistical Yearbook 1998* (Beijing, Stat s, 1998) . pp 639- (1)

الفصل (١٨)

(١) حاجة إلى القول بأن عوامل أخرى كثيرة مهمة كمسبب للأزمة الاقتصادية الآسيوية من بينها أخطاء صندوق النقد الدولي ووزارة الخزانة الأمريكية ، وكذلك تسرعات المستثمرين الغربيين ولكن اقتصارا على عدتنا تناولنا فقط العامل الثقافي .

(٢) الأرقام من

Nayan Chanda, "Surges of Despair", *Far Eastern Economic Review*, 31 December 1998 p.22.

(٣) مجلة الأيكونوميست ، ٢٠ يناير ١٩٩٩ ، ص ٤٦ .

(٤) ماكس فيبر ، ترجمة وتحرير ، *The Religions of China: Confucianism and Taoism* (Glencoe: Free Press, 1951), p. 235

(٥) المصدر نفسه . على عكس فيبر ، أثبت روبرت بيلاه أن اليابانيين لهم بقايد ثقافية بعضها يارز الأخلاق البروتستانتية انظر كتابه

Tokugawa Religion: The Values of Pre-Industrial Japan (Glencoe, Ill: Free Press, - 1967)

(٦) يرى فوكوياما أن المسبب الرئيسي لبدء التطور الاقتصادي للصين هو تحديد هذا الافتقار إلى الثقة فيمن هم من خارج الأسرة . انظر .

Fukuyama, *Trust: The Social Virtues and the Creation of Prosperity* (New York: Free Press, 1995).

(٧) لمقارنة تأثيرات أنماط الأسرة على تطورات شرق آسيا ، انظر

Lillian W. Pyo, *Asian Power and Politics: The Cultural Dimensions of Authority* (Cambridge: Harvard University Press, 1985) , Chap 3

(٨) مرارا وقيود مؤسسات الأسرة ليست مضمونة في الممارسات الثقافية الصينية ، بل كانت محروبة بالنسبة لنجاح عائلة رونشيلد مع الإخوة القمصنة الذين عملوا في القواعد الفخس في لندن وباريس وفرنكفورت وبادولس . انظر .

Neil Ferguson, *The World's Banker* (London ; Weidenfeld & Nicolson, 1998)

Danny Unger, *Building Social Capital in Thailand* (New York . Cambridge Iniversity (٩) Press, 1998) , esp chap. 1.

(١٠) للاطلاع على دراسة متقدمة عن الثقافة والتطوير الاقتصادي ، انظر .

Peter Berger and Heian -Huang Michael Hsiao, eds, *In Search of an East Asian Model*

الفصل (١٩)

(١) انظر - See Tu Wei-ming , ed . *Confucian Traditions in East Asian Modernity : Moral Educa- tion and Economic Culture in Japan and the Four Mini-Dragons* | Cambridge : Harvard University Press, 1990).

(٢) Le Ronquu, ed., *Xitua yu Mandashua* | Westernization and modernization | Beijing : Beijing university Press, 1985).

(٣) Francis Fukuyama . *The End of History and the Last Man* | New York : Free Press 1992

(٤) Samuel Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York . Simon & Schuster, 1996).

(٥) للاطلاع على مناقشة حديثة ، انظر

William T. De Bary , *Asian Values and Human Rights : A Confucian Communitarian Perspective* | Cambridge :Harvard University Press, 1996)

الفصل (٢٠)

(١) Debraj Ray , *Development Economics* | Princeton (Princeton . Princeton University Press, 1998) p. 9.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢

(٣) يناقش أمارتيا سين الفارق بين الرصيد والفيض في :

- *The Concept of Wealth, "* in *The Wealth of Nations in the Twentieth Century : The Process and Institutional Determinants of Economic Development* . ed. Ramon Myers | Stanford Hoover Institution Press 1996).

(١) أفضل مثال عملي لهذه النظرة عن الرخاء ، انظر مذكرة جيمس وولفنسون عن « إطار التطوير الشامل » ربيع ١٩٩٩ في البنك الدولي .

Sen, "concept of Wealth", p 7 (٥)

Thomas Sowell, *Conquests and Cultures* (New York : Basic, 1998), p. 329 (٦)

Alex Inkeles, *One World Emerging* (Boulder : Westview , 1998), p. 316 (٧)

Ronald Inglehart, *Modernization and Postmodernization . Cultural , Economic and Political(A) Change in Forty-Three Societies* (Princeton University Press, 1987), Chap . 1.

Michael Fairbanks and Steve Lindsay, *Plowing the Sea-Nurturing the Hidden Sources of (٩) Growth in the Developing World* (Boston : Harvard Business School Press . 1997)

(١٠) انظر أيضا

Chris Argyris, *Reasoning Learning, and Action: Individual and Organizational* (San Francisco : Jossey-Bass, 1982.) . and Peter Senge, *The Fifth Discipline* (New York : Doubleday Currency, 1990), chap. 10. "Mental Models . "

(١١) ماريانو جروندينا ولورنس هاريزون المشاركان في الندوة ، استحدثنا هذا المفهوم الفصلي عن منظومات التقييم المؤقتة والمتنامضة للإبداع

Doughless North, Institutional and Economic Change, "Distinguished Lecture Series 12, (١٢) The Egyptian Center for Economic Studies, February 1988.

Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures* (New York: Basic, 1973), p. 89 (١٣)

Edward O. Wilson, "From Genes to Culture." *Consilience* (New . Knopf, 1998) chap. 7. (١٤)

Inkeles, *One World Emerging*, p. 24; italics added. (١٥)

Joseph Stiglitz, "Toward a New Paradigm for Development: Strategies, Policies, and Processes" (١٦) The Prebisch Lecture at UNCTAD, Geneva, 18 October 1998).

Paul Krugman, "Does Third World Growth Hurt First World Prosperity ?" *Harvard Business Review*, June -August 1994, pp. 113-121 (١٧)

Lawrence Harrison, *The Post-American Dream* (New York : Basic . 1987) 261 (١٨)

Inkeles, *One World Emerging* , p. 83. (١٩)

(٢٠) هذا المخطط بشأن التغيير لول من أوصى به ريجو هاريزون - مدير شركة هوبستور وعميد مدرسة الأعمال والتجارة بجامعة تورنتو

(٢١) هذه النتيجة يتقدمها جيفري ساكنس وأندرو رارنز .

"Natural Resource Abundance and Economic Growth." National Bureau of Economic Research, Cambridge, Working Paper 5398, December 1995.

See Paul Krugman, "Does Third World Growth Hurt First World Prosperity?" *Harvard Business Review*, June-August 1994, pp. 113-121.

(٢٢) مؤسس ورائد هذا المجال هو كريس أوجيرس . الأستاذ بجامعة هارفارد و مدير بشركة مينيوشور .

(٢٣) Douglass North , *Structure and Change in Economic History* (New York : 198٩) . p 20٩

(٢٤) الجدل القائم حول النزعة التوسعية التفاضلية يفرح من نطاق هذا الفصل .

(٢٥) عبارة « الرضاء اختيار » لغة مشتركة بيني وبين موشيل بورتر .

Howard Gardiner, *Leading Minds : An Anatomy of Leadership* (New York : Basic , 1995), (٢٦) p 293

الفصل (٢١)

Peter Senge , *The Fifth Discipline* (New York : Doubleday, 1990) , p. 8 . (١)

(٢) لنظر :

Jeffrey Sachs and Andrew Warner, "Natural Resource Abundance And Economic Growth." National Bureau of Economic Research, Cambridge, Mass, Working Paper 5398, December 1995.

Michael Porter, " The Microeconomic Foundations of Competiveness," in the World Competitiveness Report (Geneva : World Economic Forum, 1999) .

(٣) Senge , *Fifth Discipline* . p 147

(٤) شكر خاص لليوناثان بونار الذي وضع تصميم الدراسات المسحية وقام بالدراسة التطبيقية للوصول إلى النتائج والبيانات .

الفصل (٢٢)

Carlos Rangel, *The Latin Americans-Their Love Hate Relationship With the United States* ((١) New York . Harcourt Brace Jovanovich, 1997).

(٢) Octavio Paz , *El Ogra Filantrópico* (Mexico City : Jaspian Montz, 1979) . p 55

(٣) Claudio Véliz, *The World of the Gothic Fox-Culture and Economy in English and Spanish America* (Berkeley : University of California Press, 1994)

(١) المصدر نفسه - ص ١٩٠ - ١٩١ .

Piñón Apuleyo Méndez, Carlos Alberto Montaner and Álvaro Vargas Llosa, *Manifiesto del Partido Abolista (Antipermanismo)* (Barcelona: Plaza Janés Editores, 1986). Marifon Books is planning to publish the English edition in 2000.

Eduardo Galeano, *Las Venas Abiertas de América Latina* (Mexi Editores, 1979) (٦)

Piñón Apuleyo Méndez, Carlos Alberto Montaner and Álvaro Vargas Llosa, *Fabricaciones* (٧) de Misera (Barcelona: Plaza Janés Editores, 1988)

Carlos Alberto Montaner, *No Perdámos También el Siglo XXI* (Barcelona: Plaza Janés (٨) Editores, 1987).

Manano Grandoni, *Las Condiciones Culturales del Desarrollo Económico* (Buenos Aires: (٩) Editorial Planeta / Ariel, 1988)

(١٠) للاطلاع على دراسة تحليلية عن ظاهرة التحول البروتستانتية، انظر

David Martin, *Tongues of Fire* (London: Basil Blackwell, 1980)

Lawrence E. Harrison, *Underdevelopment is a State of Mind: The Latin American Case* (١١) (Cambridge: Center for International Affairs, Harvard University; Lanham, Md. University Press of America, 1985)

Lawrence E. Harrison, *The Pan-American Dream* (New York: Basic, 1987). (١٢)

Robert . D. Putnam, *Making Democracy Work-Civic Traditions in Modern Italy* (Princeton (١٣) : Princeton University Press , 1983).

Alexis de Tocqueville, *Democracy in America* (1986; New: Doubleday Anchor, 1969), (١٤) pp. 308-309.

Gunnar Myrdal, *Asian Drama-An Inquiry into the Poverty of Nations* (New York: Pantheon (١٥) on, 1968).

(١٦) المصدر نفسه - ص ١٠٤ .

(١٧) المصدر نفسه - ص ٢٧ - ٢٨ .

World Bank, *World Development Report 1998/99 : Knowledge for Development* (New (١٨) York : Oxford University Press, 1998)

(١٩) انظر على سبيل المثال .

Bernard Lewis, " The West and The Middle East. " *Foreign Affairs* 78 (January-February 1997).

(٢٠) المصدر نفسه - ص ١٥

Edward C. Banfield, *The Moral Basis of A Backward Society* | Glencoe, Ill: Free Press. (٢١) 19٥8).

Horacio de Sola, *El Otro Sendero* | Lima : Instituto Libertado Libertari y Democracia. (٢٢) 1986]

Michael Fairbanks and Grace Lindsay, *Pinning the Sea- Nurturing the Hidden Sources of Growth in the Developing World*; Cambridge .Harvard Business School Press. 1997)

Lionel Sosa, *The American Dream-How Latino Can Achieve Success in Business and Life* | New York . Penguin. 1998).

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢ .

(٢٦) نفسه

(٢٧) نفسه . ص ٧

(٢٨) نفسه عنوان الفصل ١ ، ص ١٧ - ٢٨

المشاركون في سكتور

باربارا كروسيت

رئيسة مكتب النيويورك تايمز، ومراسل سابق في جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا، مؤلفة كتب الهند في مواجهة القرن الواحد والعشرين، و "قرب سيرة المنتهى: ممالك البوذية الداوية في الهيمالايا": محطات التل الأعظم في آسيا.

روبرت إدجرتون

أستاذ الأنثروبولوجيا في أقسام الأنثروبولوجيا والعلب النفسي والعلوم السلوكية بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. وعلى الرغم من أن كتاباته تتراوح ما بين موضوعات متنوعة مثل التخلف العقلي والتنظيم الاجتماعي والسلوك المنحرف والحروب، إلا إن الفكرة الرئيسية في كل أعماله هي التكيف الاجتماعي مع التركيز على دور الثقافة. من بين كتبه الأخيرة كتاب "المجتمعات المريضة" الذي ينظر إلى ظاهرة سوء التكيف البشري في ضوء التفاعلات الثقافية.

دانييل إيتونجا - مانجويل

من الكامبرون، رئيس ومؤسس الأكاديمية الأفريقية للدراسات. ويعتف على أكثر من خمسين مشروعا تطويريا في غرب ووسط وجنوب أفريقيا. عضو سابق بمجلس إدارة البنك الدولي عن المستشارين الأفارقة. مؤلف كتاب: "أفريقيا - هل ثمة حاجة لبرنامج توفيق ثقافي؟".

هوشيل فيريانكس :

قائد الممارسة الفنافسية في الريف التابعة لشركة مونيتور. عمل على مدى العقد الماضي مستشاراً لقيادات حكومية وقطاع خاص في أفريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. شارك ستامس ليندساي في تأليف كتاب: "العروش في البحر: تغذية المسابر الخاملة للنمو في العالم التامى". وباحث زانر لدى معهد هوفر بجامعة ستانفورد، وعضو لجنة التنمية الاجتماعية بالبنك الدولي.

فرنسيس هوكوياما:

أستاذ السياسة العامة بمعهد السياسة العامة بجامعة جورج تاسون، ومستشار مؤسسة راند، مؤلف "نهاية التاريخ وبخاتم البشر. الفضائل الاجتماعية وخلق الرخاء". وكذا. "الاضطراب العظيم: الطبيعة البشرية وإعادة تكوين النظام الاجتماعي". عمل نائباً لدير إدارة التخطيط بوزارة التخطيط في عام ١٩٨٩

ناثان جليزر:

أستاذ التربية والتعليم وعلم الاجتماع بجامعة هارفارد. شارك في تأليف كتاب "المصلحة العامة". ألف كتباً عديدة من بينها "بعيدا عن نقطة الانتصهار"، وتأكيد التمييز، و"معضلات العرقية". و"حدود السياسة الاجتماعية"، وأخيراً: "نحن جميعاً الآن نؤمن بالتعددية الثقافية".

ماريانو جرونديونا

مضيف البرنامج التليفزيوني الأسبوعي "الشنون العامة في الأرجنتين". يكتب عموداً لصحيفة "بيونس أيرس لانسيون". وأستاذ كلية الحقوق بالجامعة القومية في بيونس أيرس. مؤلف لاثني عشر كتاباً.

لورنس إي - هاريزون :

نولى إدارة بعثات وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة في خمسة بلدان في أمريكا اللاتينية في الفترة ما بين ١٩٦٥ و ١٩٨١ مؤلف كتاب الشكف حالة عقلية: وآمن يحقق الرضاء؟، وتحلم بولة الأمريكتين. يعمل الآن رئيسا للدراسات الدولية والإقليمية بجامعة هارفارد.

عالا إن . هتون :

أستاذ مساعد للعلوم السياسية في نيو سكول يونيفرسيتي في نيويورك . أشرفت على بحث عن سياسة الدولة تجاه قضايا الجنوسة وحقوق المرأة والمشاركة السياسية في البرازيل والمكسيك وبيرو وأمريكا الوسطى

صمويل بي . هنتجتون :

أستاذ بجامعة ألبرت جى. وينرهد الثالث، ومدير معهد جون إم. أولين للدراسات الإستراتيجية، ورئيس أكاديمية الدراسات الدولية والجهوية بجامعة هارفارد. حيث كان أيضا مديرا لمركز الشنون الدولية على مدى أحد عشر عاما. مؤلف لعدة كتب أحدثها تصادم الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمى. فى عامى ١٩٧٧ - ١٩٧٨ شغل فى البيت الأبيض فى عهد كارتر منصب متسق التخطيط الأمنى لمجلس الأمن القومى.

رونالد إنجلهارت :

أستاذ العلوم السياسية ومدير برنامج معهد البحوث الاجتماعية بجامعة ميتشجان. ساهم فى تأسيس دراسات مسحية أوروبية، ورئيس اللجنة السنولة عن

توجيه الدراسات المسحية عن القيم في العالم أحدث كتبه. التحديث وما بعد التحديث. التغيرات الثقافية والاقتصادية والسياسية في ثلاثة وأربعين مجتعا. وشارك كلاً من ميجويل باسائيز، وإليانرو مورينو في تأليف كتاب القيم والمعتقدات البشرية. مرجع أولى عن الثقافة المقارنة.

دافيد إس. لانديس :

مؤرخ اقتصادي وأستاذ بجامعة كوليدج للتاريخ، وأستاذ غير متفرغ للاقتصاد بجامعة هارفارد مؤلف كتاب: رجال المصارف والباشوات: التمويل الدولي والإمبريالية في مصر، وبروميثيوس طليفا: التغيرات الثقافية من ١٧٥٠ وحتى الآن، والثورة في الزمان: الساعات وبشكل العالم الحديث، والثورة وفقر الأمم. لماذا البعض ثرى جدا والبعض فقير جدا، وماكف الآن على دراسة نور وتاريخ الأمم في مشروعات قطاع الأعمال.

جابريل سلمان لينز :

تخرج حديثاً في كلية ريد في العلوم السياسية، ويعمل الآن باحثاً بجامعة جورج تاون.

ستاسي ليندساي :

مؤسس الممارسة التنافسية الريفية في أمريكا اللاتينية، الخاص بشركة مونيتو، أصدر بالاشتراك مع ميشيل فيريانتكن: "حرث البحر: تغذية الموارد الخاملة للنمو في العالم النامي". وأستاذ مساعد بقسم الأعمال بجامعة جورج تاون، وشغل الآن

منصب المستثمر لمنظمة تكتوميرف، وهي منظمة لا تهدف إلى الربح، وتعمل مع فقراء الريف في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وشركة أتلانتيك للصيدلة الحيوية، وهي شركة مقرها كيمبريدج.

سيمور هارتن ليبسويت :

أستاذ السياسة العامة بجامعة جورج ماسون. عمل في السابق أستاذا للعلوم السياسية بجامعة كارولين مونرو، وأستاذ العلم الاجتماعي بجامعة ستانفورد، وأستاذ العلم الاجتماعي الحكومي بجامعة هارفارد. مؤلف للعديد من الكتب، من أحدثها: 'التقسيم القاري: اليهود والمسرح الأمريكي'، و'الاستثناء الأمريكي'. ولم يحدث هنا: إخفاق الاشتراكية في الولايات المتحدة.

كارلوس ألبرتو مونتانر :

أشهر كاتب عمود صحفي في اللغة الإسبانية، من أهم أبحاثه كتابه الأكثر مبيعا « كيف تكون أحمر كامل العمق »، و« صنّاع البلبس » (بمشاركة مع فلتير أفوليو مندورا وألبارو بارخاس لوسا) وكذلك « حتى لا نُضَيِّع القرن الحادي والعشرين ».

أورلاندو باترسون ، جون كبولوس :

أستاذ علم الاجتماع بجامعة هارفارد. مؤلف ثمانية كتب، من بينها « دور الحرية في تشكيل الثقافة الغربية » الذي حاز جائزة الكتاب القومي عام ١٩٦٦ ، و« نموذج التكامل : التثمين والسخط في الأزمة العنصرية الأمريكية » . وصدر له أخيرا « شعائر الدم : تجليات العبودية في قرنين أمريكيين » . وفي سبعينيات القرن العشرين عمل مستشاراً خاصاً لرئيس وزراء جامايكا « ميشيل مانلي » .

دوايت إتش. بيركنز :

أستاذ الاقتصاد السياسي بجامعة هارفارد. تولى إدارة معهد هارفارد للتنمية الدولية من ١٩٨٠ حتى ١٩٩٥. ألف وحرر اثني عشر كتابا عن التاريخ الاقتصادي والتنمية الاقتصادية مع التركيز على الصين وكوريا وThيتنام وغيرها من بلدان شرق وجنوب شرق آسيا.

ميشيل بورتر :

أستاذ إدارة الأعمال بجامعة هارفارد. مستشار إستراتيجي لحكومات بلدان كثيرة من بينها الولايات المتحدة، ولشركات كثيرة. أثنى جماعة المنافسة والإستراتيجية بمدرسة الأعمال بهارفارد. مؤلف ومحرر عدد من الكتب، من بينها: الإستراتيجية التنافسية، والميزة التنافسية للأمم، وأخيرا: عن المنافسة.

لوسيان ديليو، باي :

أستاذ العلوم السياسية المتفرغ بمعهد مساشوسيت للتقانة، ومتخصص في السياسات المقارنة والثقافات السياسية وعلم النفس في آسيا. رئيس سابق لرابطة العلوم السياسية الأمريكية. ألف وحرر سبعة وعشرين كتابا، من أحدثها: السلطة الآسيوية والسياسة، وروح السياسة الصينية.

جيفري ساكس :

أستاذ التجارة الدولية - جامعة هارفارد. مدير مركز التنمية الدولية، عمل مستشارا اقتصاديا لعدد من حكومات أمريكا اللاتينية، وشرق أوروبا، والاتحاد السوفييتي السابق، وأفريقيا، وآسيا؛ وساعدهم على تبني سياسة الانفتاح.

ريشارد إيه . شويدر

عالم أنثروبولوجيا ثقافية، وأستاذ التطوير البشري بجامعة شيكاغو. مؤلف أو محرر العديد من الكتب، من بينها: التفكير من خلال الثقافات: رحلات استكشافية في السيكولوجيا الثقافية، ونظرية الثقافة: مقالات عن العقل والنفس والعاطفة

تو وي - منج :

أستاذ التاريخ والفلسفة الصينية بجامعة هارفارد، ومدير معهد هارفارد - بين شنج. درس أيضا في برنستون وجامعة كاليفورنيا. مؤلف: الفكر الكونفوشي الجديد، والمركزية والجماعية، والإنسانية والتشقيف الذاتي؛ وكتاب: الفكر الكونفوشي القوي كتحول إبداعي.

توماس وايزنر :

أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة UGA، ويركز في دراساته على الثقافة والتطوير البشري وقام بدراسات ميدانية في كينيا وهواي من أحدث منشوراته: الأسر الأفريقية وأزمة التحول الاجتماعي، وفصول في كتب: الإنثوجرافيا والتطوير البشري، ومرحى بتواسط العقل.

المتروجم في مطور :

شوقي جلال محمد

مواليد ١٩٤١/١٠/٣٠ - القاهرة

عضو لجنة قاموس علم النفس - المجلس الأعلى للثقافة في السبعينيات .

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة منذ ١٩٨٩ ، له تسعة مؤلفات من بينها :

العقل الأمريكي يفكر - التراث والتاريخ - الفكر العربي وسوسيوولوجيا الفشل -
نهاية الماركسية .

وله أيضا :

الترجمة في العالم العربي (الواقع والتحدى) ، وأكثر من ٤٠ كتابا مترجما .

ششارك بنوراق بحث في عديد من الندوات والمؤتمرات ، وله عديد من المقالات
الثقافية والفكرية في عديد من المجلات والصحف العربية .

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفاق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المفجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة

الإشراف اللغوي: حسام عبد العزيز

الإشراف الفني: حسن كامل



هذه مجموعة دراسات حوارية مثيرة للجدل تعالج مسائل صعبة نحن بحاجة إلى أن نتأملها بعقل ناقد . هل هناك ثقافات أفضل من ثقافات تعزز قيم الحرية والرخاء والتقدم والعدالة؟ وهل الثقافات أو القيم الثقافية هي وحدها المسؤولة؟ وهل هي جبليّة من ثوابت الطبيعة البشرية والمجتمعات؟ أو قابلة للتطوير والتغيير، ومن ثم تكون الدعوة لدى الشعوب المختلفة تطويراً حضارياً قرين تغيير ثقافي على نحو ما تؤكد شهادات التاريخ ؟

الدراسات الواردة ليست توجّهاً واحداً . ثراء الكتاب في تباين وجهات النظر إلى حد التعارض - إنها مع وضد، تتحاز إلى هنا أو إلى هناك، ولكنها تكشف عن محتوى صراع ساخن، وعن حرب ثقافية، نحن ضحاياها؛ إذ نلوذ بالصمت أو نلوذ بالسلف .

والكتاب في ترجمته العربية ليس دعوة إلى تبني فكر، بل حضراً للقارئ العربي إلى السؤال النقدي عن ثقافتنا، ودعوة إلى الإفلات من وهم نعيش أسرى له هو الحفاظ على ثوابت الثقافة، كأن الثقافة بنية لا تاريخية أحادية الكيان، لا تتغير في الزمان، ليست منتج فعل متطور، وحصاد تفاعل دينامي انفصالياً واتصالاً كنهج الحياة الجدلي الأبدى.